مَنْهَجُ
الإمامِ الشَّوْكانِيِّ في العَقِيدَةِ

تأليف
الدكتور عبدالله نومسوك

مكتبة دار القلم والكتاب

مَنْهَجُ
الإِمَامِ الشَّوْكَانِيِّ فِي العَقِيدَةِ

تأليف

الدكتور عبدالله نومسوك

مكتبة دار القلم والكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

مكتبة دار القلم والكتاب

ص.ب ٢٥٣٤٩ الرياض ١١٤٦٦
هاتف: ٤٦٥٠٣٣٦ - ٤٦٢٤١٠٥
فاكس: ٤٦٣٢٥٩٠
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

نوقشت هذه الرسالة من قبل اللجنة المكونة من:

١ ـ فضيلة الدكتور علي بن محمد ناصر فقيهي مشرفاً.

٢ ـ فضيلة الدكتور علي بن نفيع العلياني مناقشاً.

٣ ـ فضيلة الدكتور عاصم بن عبد الله القريوتي مناقشاً.

وقررت اللجنة منح الباحث درجة الدكتوراة في العقيدة، بمرتبة الشرف الأولى.

وذلك في يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ من ذي الحجة ١٤١٢ هـ بقاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المقـــدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِيْ تَسَاءَلُوْنَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْباً﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُوْلُوْا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيْماً﴾(٣)(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٠.

(٤) هذه الخطبة تسمّى خطبة الحاجة، وهي تشرع بين يدي كلّ حاجة، وهي مأثورة عن رسول الله ﷺ. أخرجها مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٣ ــ برقم ٨٦٨) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس (١/ ٦٥٩ برقم ١٠٩٧) تحقيق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ط/ دار الحديث حمص، والنسائي في كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة (٢/ ١٠٥ برقم ١٤٠٤) ترقيم: عبد الفتاح أبو غدة، ط/ بيروت، وابن =

أمّا بعد: فإنّ علم العقيدة الإسلامية من أشرف العلوم وأجلّها، لأنّه العلم بالله تعالى، وآياته، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على عباده، وكذلك العلم بالنبوّات، وكلّ ما يتعلّق بأمور الآخرة من بعث وجنّة ونار... الخ.

وهذه هي المقاصد الثلاثة التي نزلت بها الكتب السماوية وأجمعت الرسل على الدعوة إليها.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾(١).

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾(٢).

وقال تعالى ـ إشارة إلى اتّفاق الرسل والكتب السماوية على اثبات اليوم الآخر ـ:

﴿وَسِيْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوْهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوْا بَلَى وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُوْلَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى﴾(٤).

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى:

= ماجة في كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١/ ٦٠٩ برقم ١٨٩٢) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. وغيرهم. وانظر تخريجها للشيخ الألباني بعنوان: خطبة الحاجة التي كان الرسول ﷺ يعلّمها أصحابه.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٤) سورة الأعلى، الآية: ١٦ ـ ١٩.

(وأمّا مقاصد القرآن الكريم التي يكرّرها، ويورد الأدلّة الحسّية والعقلية عليها، ويشير إليها في جميع سوره وفي غالب قصصه وأمثالـه فهي ثلاثـة مقاصد، يعرف ذلك من له كمال فهم وحسن تدبّر وجودة تصوّر وفضل تفكّر: المقصد الأول: إثبات التوحيد، المقصد الثاني: إثبـات المعاد، المقصـد الثالث: إثبات النبوّات. . . ولا ريب أنّ من آمن بالله، وبما جاءت به رسله ونطقت به كتبه، فإنّ إيمانه بهذه الثلاثة المقاصد هو أهمّ ما يجب الإيمان به، وأقدم ما يتحتّم عليه اعتقاده، لأنّ الكتب قد نطقت بها، والرسل قد اتّفقت عليها اتّفاقاً يقطع كلّ ريب، وينفي كلّ شبهة، ويذهب كلّ شكّ)[1].

وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أنّ المنهج الصحيح في فهم العقيدة الإسلامية هو منهج أهل السنة والجماعة الذي سار عليه السلف الصالح وأوصوا به من بعدهم والذي تميّز بالوضوح، والبعد عن صور التأويل، والتشبيه، والتعطيل، والتشويه، وهذا المنهج هو الذي يجب السير عليه والعمل بمقتضاه في كلّ زمان ومكان، لمن أراد أن يسلك سبيل النجاة والفلاح، لأنّ أعداء الإسلام والمسلمين قد بذلـوا كلّ مـا يستطيعـون لإبعاد المسلمين عن دينهم الحقّ وعقيدتهم السليمة كي يستطيعوا تحقيق أغراضهم الفاسدة.

فابن سبأ اليهودي[2] الذي أدخل على المسلمين عقائد تشوّه جمـال دينهم وتحطّم بنيانه، كان من أوّل أعداء المسلمين الذين بثّوا العقائد الفاسدة

---

(١) ارشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: الشوكاني (ص ٣، ٤) ط ١/ دار الكتب العلمية.

(٢) هو عبد الله بن سبأ رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي، أصله من اليمن، كان يهوديًا وأظهرا الإسلام لتفريق كلمة المسلمين، وكان من غلاة الزنادقة، وكـان يقال له: ابن السوداء، لسواد أمّـه، هلك سنة (٤٠ هـ) (انـظر: ميزان الاعتـدال: الـذهبي ٣/ ١٤٠) تحقيق: علي محمد البجـاوي وفتحية علي البجـاوي، ط/ دار الفكر العربي، ولسان الميزان: ابن حجر (٣/ ٢٨٩) ط/ دار الفكر).

في صفوف المسلمين، الأمر الذي أصبح لـه الأثر الكبيـر على ما أصـاب المسلمين فيما بعد من محن.

وقد تبع ابن سبأ أناس آخرون ساروا على نهجه في تحطيم كيان الأمّة الإسلامية بمـا يقومـون به من أعمـال فاسـدة، أمثال الجعد بن درهم[١]، والجهم بن صفوان[٢]، وبشر المريسي[٣]، وغيرهم.

وقد حاول هؤلاء جميعاً القضاء على الإسلام والمسلمين، ولكنّ الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بحفظ هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤]، وكما قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[٥].

---

(١) هو الجعد بن درهم، أصله من خراسان، مبتدع ضالّ، زعم أنّ الله لم يتّخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلّم موسى، وقال بخلق القرآن، ونفي القـدر، قتله خالـد بن عبد الله القسري سنة (١١٨ هـ) يوم النحـر (انـظر: ميـزان الاعتـدال: الـذهبي ١/ ٣٩٩، والأعلام: الزركلي ٢/ ١٢٠ ط/ دار العلم للملايين).

(٢) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، رأس الجهمية، وإليه ينتسبون، لأنّه أوّل من نشر المذهب قال الذهبي: الضالّ المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرّاً عظيماً. قتله سلم بن أحوز سنـة (١٢٨ هـ) (انظر: ميـزان الاعتـدال: الـذهبي ١/ ٢٤٦، والكـامـل: ابن الأثيـر ٣٤٣/٥ ط ٤/ دار الكتـاب العربي، بيروت).

(٣) هو بشر بن غياث المريسي العدوي، معتزلي، عارف بالفلسفة، أخذ مقالة الجهم بن صفوان واحتجّ لها ودعا إليها، وإليه تنتسب الطائف المريسية القائلة بالإرجاء وقد ردّ عليه الإمام الدارمي (ت ٢٨٠ هـ) في كتابـه: النقض على بشـر المريسي. هلك (٢١٨ هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٧/ ٥٦ ط/ دار الكتب العلمية، وميزان الاعتدال: الذهبي ١/ ٣٢٢، والأعلام: الزركلي ٢/ ٥٥).

(٤) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ الخ (٣/ ١٥٢٣ برقم ١٩٢٠) واللفظ له، وأبو داود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤/ ٤٥٢ برقم ٤٢٥٤)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما =

وهذه الطائفة هم علماء السنّة وأتباعهم الذين هيّأهم الله تبارك وتعالى للردّ على كيد هؤلاء الحاقدين المفسدين، وتفنيد حججهم، وإبطال أدلّتهم، كالإمام أحمد والبخاري، وكشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم، رحمهم الله جميعاً.

ومن هؤلاء الأئمّة الأعلام المبرزين في القرن الثالث عشر الهجري الإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله وأكرم في الجنة مثواه. فقد بذل حياته كلّها لخدمة العلم، ولا يشغله عنه أيّ أمر من الأمور، وقد ابتدأ في طلب العلم منذ نعومة أظفاره، وأقبل على العلماء في عصره وفي بلده اليمن يواكب على دروسهم، وأكبّ على كتب أهل العلم في فنون شتّى، يقرأها ويذاكرها، حتى نال في وقت مبكّر من عمره علوماً كثيرة وفنوناً مختلفة، وقد مارس التدريس قبل سنّ العشرين، وتصدّر للافتاء من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك[1]، واجتهد رأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيّد وهو دون الثلاثين[2]، وكانت مؤلّفاته تربو على (٢٧٠) مائتين وسبعين كتاباً وبحثاً ورسالة، ومعظمها لم يزل مخطوطاً[3].

وقد بارك الله في أوقاته وعمله فاستفاد منه خلق كثير في حياته، ولا زال طلاب العلم ينتفعون بمؤلّفاته القيّمة، في التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والعقيدة، والتراجم، والتربية، وغير ذلك من فنون الشريعة.

= جاء في الأئمّة المضلّين (٤/ ٤٣٧ برقم ٢٢٢٩) تحقيق: كمال يوسف الحوت، وابن ماجة في المقدّمة، باب اتّباع سنة رسول الله ﷺ (١/ ٥ برقم ١٠)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٨، ٢٧٩) من حديث ثوبان مرفوعاً.

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢١٩) ط/ دار المعرفة.

(٢) انظر المصدر السابق (٢/٢٢٤).

(٣) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٩) ط/ مؤسسة الرسالة بيروت.

وقد كان رحمه الله علماً من أعلام المجدّدين وزعيماً لحركة الإصلاح في المجتمع اليمني. وله عناية بالغة بالعقيدة الإسلامية، حيث أفرد لها كتباً ورسائل متعدّدة، دعا فيها إلى التوحيد الخالص من شوائبه المنتشرة في المجتمع الإسلامي، وإلى محاربة البدع المختلفة، من المتكلّمين، وغلاة الشيعة، والصوفية، والقبوريين، وأمثالهم، كما دعا إلى الاجتهاد وتحريك العقول، ونبذ التقليد والتعصّب الأعمى المقيت، وهذه الأمور واضحة في جميع مؤلّفاته.

وقد قال رحمه الله عند ترجمته لأحد علماء اليمن:

(ولا ريب أنّ علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار، لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلّا مجرّد التقليد لمن لم يطّلع على الأحوال، فإنّ في ديار الزيدية من أئمّة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيّدون بالعمل بنصوص الأدلّة، ويعتمدون على ما صحّ في الأمّهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنّة سيّد الأنام ﷺ، ولا يرفعون إلى التقليد رأساً، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدلّ عليه كتاب الله وما صحّ من سنّة رسول الله، مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنّة، من نحو، وصرف، وبيان، وأصول، ولغة، وعدم اخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية، ولو لم يكن لهم من المزية إلّا التقيّد بنصوص الكتاب والسنّة وطرح التقليد فإنّ هذه خصيصة خصّ الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة، ولا توجد في غيرهم إلّا نادراً)[1].

قلت: وها أنا واحد ممن يهتمّ بأحد علماء هذه الديار وهو الشوكاني

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٨٢).

نفسه، ورأيت أن أقوم بدراسة علمية لمنهج هذا العالم الجليل في مباحث العقيدة، واستخرت الله سبحانه وتعالى، وشاورت في ذلك أهل العلم من مشايخنا الأفاضل في هذه الجامعة المباركة، فوجدت منهم استحساناً وتأييداً لهذا الموضوع، فعزمت أمري، وتوكّلت على الله، وجعلت عنوانه: منهج الإمام الشوكاني في العقيدة. للحصول على درجة: الدكتوراه في العقيدة.

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع الأمور التالية:

١ ـ إنّ الشوكاني من أشهر العلماء المتأخّرين الذين لهم أثر بالغ في اليقظة الإسلامية المعاصرة. !!!

٢ ـ إنّ من أبرز الجوانب التي ساهم الشوكاني في إصلاحه وبذل جهوده في الدعوة إليه هو جانب العقيدة.

٣ ـ رغبتي في إبراز هذا الجانب لهذا الإمام الجليل، لأنّ إبرازه إبراز لعقيدة السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ مع بيان ما وقع منه من مخالفة لهم في بعض المسائل، وأسباب المخالفة إن وجدت.

٤ ـ إنّه لم يسبق أن كتب أحد عن الشوكاني في مجال العقيدة على وجه شامل[1] حسب علمي.

---

(١) هناك خمس رسائل علمية عن الإمام الشوكاني:
١ ـ الشوكاني المفسّر للدكتور إبراهيم توفيق أبو بكر الديب، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة الأزهر، عام ١٩٧٧ م.
٢ ـ الإمام الشوكاني مفسّرا للدكتور محمد حسن بن أحمد الغماري، رسالة دكتوراه بكلية الشريعة، جامعة أمّ القرى عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م).
٣ ـ القراءات في تفسير الشوكاني فتح القدير للدكتور أحمد بن عبد الله المقرىء رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية، شعبة التفسير، عام ١٤٠٤ هـ ـ ١٤٠٥ هـ.
٤ ـ الإمام الشوكاني حياته وفكره. للدكتور عبد الغني قاسم غالب الشرجي. رسالة دكتوراه بجامعة صنعاء، كلية التربية، عام ١٤٠٨ هـ.
=

هذا هو أهمّ الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هـذا الموضـوع الذي يشتمل على مقدّمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة.

أمّا المقدّمة فقد تناولت فيها الأسباب التي حملتني على اختيار هـذا الموضوع، وخطّة البحث، والمنهج الذي اتّبعته فيه.

وأمّا التمهيد فقد عقدته للتعريف بالإمام الشوكاني، وقد جعلته في ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: العصر الذي عاش فيه. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الدينية والاجتماعية.

المبحث الثالث: الحالة العلمية.

الفصل الثاني: حياته الشخصية. وفيه المباحث التالية:

المبحث الأوّل: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: مولده ونشأته.

المبحث الثالث: أعماله.

المبحث الرابع: وفاته.

= ٥ ـ الإمام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الالهيّات بين السلف والزيدية. للباحث سعيد إبراهيم سيد أحمد. رسالة ماجستير بكلية الشريعة جامعة أمّ القرى عام ١٤٠٦ هـ.

وقد اطّلعت على هذه الرسالة فوجدتها مقصورة على مباحث محدودة في العقيدة، وهي: الاستدلال على وجود الله، والصفات الإلهية، وأفعال العباد، والرؤية. كما وجدت أنّ الباحث لم يعتمد في رسالته إلاّ على عدد قليل من مؤلّفات الشوكاني المطبوعة فضلاً عن المخطوطة. فهناك كثير من كتب الشوكاني المطبوعة لم يرجع إليها الباحث مثل: أمناء الشريعة، وإرشاد الثقات، وتحفة الذاكرين، ودر السحابة، والعقد الثمين، وغير ذلك.

الفصل الثالث: حياته العلمية، ويشتمل على المباحث التالية:

المبحث الأوّل: طلبه العلم.

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه.

المبحث الثالث: مؤلّفاته.

المبحث الرابع: مذهبه وعقيدته.

وأمّا الباب الأوّل فقد خصّصته للحديث عن منهجه في الإيمان بالله، وقسّمته إلى خمسة فصول:

الفصل الأوّل: في توحيد الربوبية. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: منهج الشوكاني في الاستدلال على وجود الله.

المبحث الثالث: منهج الشوكاني في الإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الثاني: في توحيد الألوهية. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية وبيانه أنّه أساس الإسلام.

المبحث الثالث: العبادة وذكر جملة من أنواعها.

المبحث الرابع: التوسّل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه.

الفصل الثالث: في توحيد الأسماء والصفات. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: تعريف توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثاني: منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير الشوكاني له جملة.

المبحث الثالث: شبهة تتعلّق بما في التحف من عقيدته.

المبحث الرابع: أسماء الله الحسنى.

المبحث الخامس: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني.

الفصل الرابع: في نواقض التوحيد. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه.

المبحث الثاني: ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عليها.

المبحث الثالث: تحقيق شرك القبوريّين والوثنيّين وبيان أنّ شركهما واحد.

المبحث الرابع: البدع وكلام الشوكاني عليها.

الفصل الخامس: في تعريف الإيمان وما يتعلّق به من مسائل. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: تعريف الإيمان لغة وشرعاً.

المبحث الثاني: بيان أهميّة الإيمان.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الرابع: العلاقة بين مسمّى الإيمان والإسلام.

المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة.

وأمّا الباب الثاني فقد خصّصته للحديث عن منهج الشوكاني في الإيمان بالنبوّات والمعاد. وقسّمته إلى فصلين:

الفصل الأوّل: في الإيمان بالنبوّات. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: تعريف النبوّة، والنبيّ، والرسول.

المبحث الثاني: حاجة البشريّة إلى النبوّة.

المبحث الثالث: معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

المبحث الرابع: التفاضل بين الأنبياء.

المبحث الخامس: اتّفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضاً.

المبحث السادس: من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم.

المبحث السابع: الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وبشاراته في الكتب السابقة.

المبحث الثامن: من دلائل النبوّة.

المبحث التاسع: الإيمان بالملائكة والكتب المنزّلة.

المبحث العاشر: الإيمان بوجود الجنّ والشياطين.

الفصل الثاني: في الإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر. وفيه عدّة مباحث:

المبحث الأوّل: معنى الإيمان بالمعاد وأدلّته.

المبحث الثاني: بيان اتّفاق الشرائع على اثبات المعاد.

المبحث الثالث: تقرير الشوكاني لمذهب السلف في المعاد وردّه على المنكرين.

المبحث الرابع: الإيمان بأشراط الساعة.

المبحث الخامس: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.

المبحث السادس: مستقرّ الأرواح.

المبحث السابع: الإيمان بالنفخ في الصور.

المبحث الثامن: الإيمان بالحشر، والموازين، والصراط.

المبحث التاسع: الشفاعة.

المبحث العاشر: الجنّة ونعيمها.

المبحث الحادي عشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنّة.

المبحث الثاني عشر: النار وعذابها.

المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان.

وأما الخاتمة فقد عرضت فيها ملخّصاً موجزاً للنقاط الهامّة في هذا البحث.

وقد رسمت الخطّة على هذا الترتيب تمشّياً لما ذكره الشوكاني في بداية تفسيره لسورة الفرقان، قال: (تكلّم سبحانه في هذه السورة على التوحيد لأنّه أقدم وأهمّ، ثمّ في النبوّة لأنّها الواسطة، ثمّ في المعاد لأنّه الخاتمة)[1].

هذا وقد كان منهجي الذي اتّبعته في إعداد هذه الرسالة ما يلي:

١ ــ قمت بجمع مؤلّفات الشوكاني رحمه الله تعالى عن طرق مختلفة، واستطعت بحمد الله وتوفيقه أن أحصل على جميع مؤلّفاته المطبوعة، وعلى معظم مخطوطاته التي تتعلّق بالبحث.

٢ ــ حصرت مباحث العقيدة التي اشتملت عليها كتب الشوكاني، وذلك بعد قراءة جميع ما تيسّر لي من كتبه المطبوعة والمخطوطة، ثم جمعت الأقوال التي تتعلّق بكلّ مبحث على حدة في بطاقات، وجعلت لها عنواناً يتناسب مع ما تدلّ عليه، ثم بيّنت ما تدلّ عليه من مسألة اعتقاديّة حسب جهدي ــ وهو جهد مقلّ ــ مستعيناً في ذلك بأقوال أهل العلم الذين لهم جهود في توضيح العقيدة الإسلامية من علماء سلفنا الصالح.

٣ ــ تناولت الحديث عن رأي الشوكاني في كلّ مسألة من المسائل بالتفصيل الذي يليق بالمسألة مع ذكر موافقته لرأي السلف أو عدمها، وناقشته فيما خالف فيه مذهب السلف وجانبه فيه الصواب حسب فهمي وهو قليل.

ولا يتصوّر أن مناقشتي له محاولة للانتقاص من قدره ومكانته، لأنّي إنّما

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٦٠) ط ٢/ مصطفى البابي الحلبي.

أنشد الحقّ الذي اجتهد الشوكاني في الوصول إليه. وقد قال الشوكاني نفسه وهو من أحسن ما قال:

(إنّ الحقّ لا يعرف بالرجال، بل الرجال يعرفون بالحقّ، وليس أحد من العلماء المجتهدين والأئمة المحقّقين بمعصوم، ومن لم يكن معصوماً فهو يجوز عليه الخطأ، كما يجوز عليه الصواب، فيصيب تارة ويخطىء أخرى، ولا يتبيّن صوابه من خطئه إلاّ بالرجوع إلى دليل الكتاب والسنة، فإن وافقهما فهو مصيب، وإن خالفهما فهو مخطىء، ولا خلاف في هذه الجملة بين جميع المسلمين أوّلهم وآخرهم، سابقهم ولاحقهم، كبيرهم وصغيرهم)[1].

٤ ـ أحياناً أكرّر الكلام الواحد للشوكاني في أكثر من موضع، وذلك لاشتماله على أكثر من مسألة من مسائل العقيدة، فأضطرّ إلى إعادة الكلام وتكراره.

٥ ـ التزمت عند النقل من أيّ مرجع أو الاستفادة منه الاشارة إلى مؤلّفه، وإلى رقم جزئه وصفحته، بالاضافة إلى ذكر المحقّقين أو الطبعات لهذه المراجع في الغالب في أوّل ورودها وفي فهرس المصادر والمراجع آخر الرسالة، هذا بالنسبة للمطبوعات، أمّا المخطوطات فالتزمت الاشارة إلى مؤلّفها وإلى رقم ورقتها أو صفحتها بالإضافة إلى ذكر مكان وجودها ورقمها في التصنيف في أوّل ورودها وفي فهرس المصادر آخر الرسالة.

٦ ـ ضبطت الآيات القرآنية التي وردت في الرسالة، وبيّنت مواضعها بذكر اسم السورة ورقم الآية.

٧ ـ عزوت الأحاديث التي وردت في الرسالة إلى مصادرها من كتب

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٣) ضمن الرسائل السلفية، ط/ دار الكتب العلمية.

السنة المعتمدة بذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث مع الاشارة في الغالب إلى درجة الحديث من خلال أقوال المحدّثين إذا كان الحديث في غير الصحيحين أو أحدهما، لأنّ مجرّد العزو إلى الصحيحين أو أحدهما معلم بالصّحة.

٨ ـ ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة ما عدا المشهورين، فإنّي لم أترجم لهم لعدم خفاء أحوالهم، وذلك ككبار الصحابة، والأئمّة الأربعة، وأصحاب الكتب الستة، وغيرهم.

٩ ـ عرّفت بالفرق والطوائف التي ورد ذكرها في الرسالة تعريفاً موجزاً.

١٠ ـ شرحت المفردات الغريبة التي وردت في الرسالة مستعيناً في ذلك بكتب الغريب والمعاجم اللغويّة.

١١ ـ قمت بوضع فهارس علمية عامّة للرسالة تعين على الرجوع إلى المراد منها بيسر وسهولة، وهي تشمل:

(أ) فهرس الآيات القرآنية مرتّباً حسب سور القرآن.
(ب) فهرس الأحاديث النبوية مرتّباً حسب الحروف الهجائية.
(ج) فهرس الآثار مرتّباً حسب الحروف الهجائية.
(د) فهرس الأعلام المترجم لهم مرتّباً حسب الحروف الهجائية.
(هـ) فهرس الفرق والطوائف مرتّباً حسب الحروف الهجائية.
(و) فهرس المصادر والمراجع مرتّباً حسب الحروف الهجائية.
(ز) فهرس الموضوعات. وقد بيّنت فيه أبواب الرسالة، وفصولها، ومباحثها، وما تتضمّنه من فروع وجزئيّات.

وبعد: فإنّي أحمد الله تعالى حمد شاكر لنعمائه، وأشكره وأثني عليه بما هو أهله، لا أحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه، فله الحمد

والشكر كلّه حيث وفّقني لاختيار هذا الموضوع الذي شعرت بفائدته الكبيرة منذ أن بدأت فيه، ذلك لأنّي قرأت وعرفت كثيراً من كتب العقيدة المفيدة والنافعة.

وبعد حمد الله وشكره أرى لزاماً عليّ أن أعترف بالفضل لأهله، وأن أشكر كلّ من مدّ إليَّ يد العون في هذا البحث، مع اعترافي بالعجز عن تقديم الشكر الذي أكنه في ضميري لهؤلاء في عبارات أسطرها، إذ لا توفيهم بعض حقّهم.

فأتقدّم بالشكر الجزيل إلى فضيلة شيخي الأستاذ الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي الذي تفضّل بالاشراف على هذه الرسالة، فلقد حظيت بنصحه وإرشاده طوال إعدادها، وقد فتح لي قلبه فاستفدت الكثير من علمه وتوجيهه، فالله أسأل أن يجزيه عنّي أحسن الجزاء، وأن يبارك في وقته وعمله.

كما لا يفوتني أن أتوجّه بالشكر الجزيل لسعادة القائمين على الجامعة الإسلامية، لما يبذلونه من الجهود المتواصلة في خدمة العلم وطلاّبه، وأخصّ منهم معالي رئيس الجامعة الدكتور عبد الله بن صالح العبيد، ورئيس قسم الدراسات العليا فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان. فجزاهم الله عنّي وعن العلم وأهله خير الجزاء.

وأخيراً أقدّم عظيم شكري وفائق احترامي لجميع الاخوة الذين ساعدوني وتعاونوا معي في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود، وأخصّ منهم الأخ الفاضل الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف الذي أفادني بما في مكتبته من مخطوطات الشوكاني.

فالله أسأل أن يتقبّل من الجميع تعاونهم، وأن يوفّقنا وأيّاهم إلى كلّ خير، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. وصلّى الله على محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

بـاب تمهيـدي

التعريف بالإمام الشوكاني
رحمه الله تعالى

ويشتمل على الفصول الآتية:

الفصل الأول: العصر الذي عاش فيه.

الفصل الثاني: حياته الشخصيّة.

الفصل الثالث: حياته العلمية.

الفصـل الأول

العصر الذي عاش فيه

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الدينية والاجتماعية.

المبحث الثالث: الحالة العلميّة.

المبحث الأول

الحالة السياسية

عاش الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في الفترة الممتدة من أواخر القرن الثاني عشر وحتى نهاية النصف الأوّل للقرن الثالث عشر الهجريين (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ) وفي هذه الفترة كان العالم الإسلامي ممزّقاً إلى دويلات وحوزات ملوك.

ففي المشرق كانت تتزعّمه ثلاث دول إسلامية، وهي: الدولة العثمانية، والدولة الصفوية في فارس، والدولة المغولية في الهند.

وكانت الدولة العثمانية منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري في حكم الزوال والانهيار، بعد أن وصلت فتوحاتها أوربا، وبلغت أوج سلطانها في القرن العاشر الهجري، وطمع الأوربيون المستعمرون بإزالة هذه الدولة، واتّفقوا على اقتسامها فيما بينهم وسمّوها باسم: الرجل المريض، وبما أصاب هذه الدولة من ضعف ووهن أخذت تنخر شيئاً فشيئاً في هذه الفترة حتى انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وقام كثير من الولاة والأمراء بالخروج عليها وتكوين حكومات مستقلّة مستبدّة لا تستطيع اخضاع من في حكمها من الزعماء هنا وهناك، فكثر السلب والنهب، وفقد الأمن(١).

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي: لوثروب (١/ ٢٢، ٢٥٩) ط/ دار الفكر، وحاضر =

أمّا الدولة الصفوية الشيعية فهي أيضاً تعاني من الضعف وعدم الاستقرار، وهي وإن كانت تدّعي الإسلام فهي دولة رافضية على مذهب الإمامية، وكانت تغالي في الرفض حتى أنّها تحارب الدولة العثمانية التي تعتبر دولة سنّية في ذلك الزمان أشدّ الحرب، وكان الصراع مستمراً بينهما من الناحية العقدية. وقد انتهت هذه الدولة (يعني الصفوية) بمقتل نادرشاه، أحد ملوكها عام ١١٦٠ هـ واضطربت أحوال بلاد فارس، واستمرّ ذلك الاضطراب حتى قيام الدولة القاجارية عام ١٢٠٣ هـ[١].

وأمّا الدولة المغولية في الهند فقد وصلت إلى حالة سيّئة من الضعف بسبب فساد ملوكها، وقد أدّى ذلك إلى تعاون الهندوس وشركة الهند الشرقية (الإنجليز) على تفتيتها إلى دويلات متعدّدة، واستولوا عليها، وانتهت هذه الدولة عام ١٢٢١ هـ، وتحوّلت في النهاية إلى مستعمرات انجليزية[٢].

ومثل هذا أحوال سائر البلاد الإسلامية، كما في المغرب الأقصى، وفي أواسط آسيا، وفي الصين وغيرها[٣].

= العالم الإسلامي: د/ جميل المصري (١/ ٩٦ ـ ١٠٣) ط/ الجامعة الإسلامية، والمجدّدون في الإسلام: د/ عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٦) ط/ مكتبة الآداب، القاهرة.

(١) انظر: المجدّدون في الإسلام د/ عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٦، ٤٤٧)، وأيضاً انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب خارج الجزيرة العربية: محمد كمال جمعة (ص ١٩، ٢٠) ـ والدولة القاجارية نسبة إلى أغا محمد قاجار مؤسس الأسرة القاجارية، وقد تولت السلطة في فارس في فترة (١٧٧٩ ـ ١٩٢٦ م) (انظر: الشعوب الإسلامية: د/ عبد العزيز سليمان نوار ٣٣٥ ـ ٣٥٥، ٣٥٧ ـ ٣٧٥، ٤٩١ ـ ٤٩٩ ط/ دار النهضة العربية ١٩٧٣ م.

(٢) انظر المجدّدون في الإسلام: د/ عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٦)، وانظر أيضاً حاضر العالم الإسلامي: د/ جميل المصري (١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٩).

(٣) انظر: الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد (ص ٢٧٨، ٣٣٩، ٣٤٨، ٤٠١، ٤٠٢)، والمجدّدون في الإسلام: د/ عبد المتعال الصعيدي (ص ٤٤٧ وما بعدها).

وقد عاصر الشوكاني الكثير من الوقائع، فقد هوجمت البلاد الإسلامية في هذه الفترة من دول أوربا المستعمرة، من فرنسا تارة، ومن الإنجليز تارة أخرى.

ومن تلك الوقائع ما سجّله في كتابه: البدر الطالع. من أحداث الحملة الفرنسية على مصر، قال: (إنّ الرزيّة العظمى والمصيبة الكبرى والبلية التي تبكي لها عيون الإسلام والمسلمين هي استيلاء طائفة من الفرنج يقال لهم: الفرنسيس، على الديار المصرية جميعها، ووصولهم إلى القاهرة، وحكمهم على من بتلك الديار من المسلمين، وهذا خطب لم يصب الإسلام بمثله)[1].

وأمّا اليمن (مسقط رأس الشوكاني) وهي جزء من الوطن الإسلامي الكبير، فلم تكن أحسن حالاً من بقية البلاد الإسلامية الأخرى في هذه الفترة التاريخية، كما أنّها أيضاً لم تكن أسوأ منها في بعض الوجوه، وقد كانت دولة مستقلّة عن الدولة العثمانية لأكثر من قرنين من الزمن (منذ عام ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م)[2].

وأمّا في شمال الجزيرة العربية والحجاز فكانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهّاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) الاصلاحية تناضل لنشر عقيدة التوحيد، ولجمع كلمة القبائل المختلفة في شمال الجزيرة العربية والحجاز، ثمّ تأسّست الدولة السعودية المعتمدة على أسس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهّاب، ومن أهمّها اخلاص العبادة لله وحده، والقضاء على البدع والخرافات، وتوحيد البلاد على أساس من العقيدة الصافية، وتطبيق الشريعة، وظلّت الدولة السعودية تزداد قوّة واتّساعاً في اتّجاهات مختلفة، وقد دفع

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٨).
(٢) مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٢) ط/ ١ دار الفكر، دمشق.

نجاحُها القادة العثمانيين إلى أن يجرّدوا ضدّها عدّة حملات عسكرية، ومع أنّهم فشلوا في كثير من تلك الحملات إلاّ أنّهم نجحوا آخر الأمر في القضاء على تلك الدولة عن طريق حاكم مصر محمد علي باشا[١]، وذلك سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٨ م. وبانتهاء الدولة السعودية الأولى دبّت الفوضى في البلاد، خاصّة في منطقة نجد، وضعف الأمن بدرجة كبيرة. فقامت محاولات لاعادة توحيدها، وبعد سبع سنوات تكلّلت المحاولات بالنجاح على يد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود[٢]، الذي اتّخذ الرياض عاصمة لدولته الجديدة، واستطاع ذلك الإمام أن يوحّد نجداً والمنطقة الشرقية، وظلّت الدولة السعودية الثانية قائمة بدرجات مختلفة من القوّة والضعف حوالي سبعين عاماً[٣].

وقد عاش الشوكاني رحمه الله في ظلّ حكم أربعة أئمّة يمثّلون الدولة القاسمية[٤] في اليمن، وهم:

١ ـ المهدي العبّاس بن الحسن بن القاسم (١١٣١ ـ ١١٨٩ هـ). وكانت سيرته حسنة، وقد نشر العدل، وقرّب أهل العلم والفضل

---

(١) محمد علي باشا إبراهيم أغا بن علي مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل، عاش في فترة (١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ) له وقائع كثيرة في فترة حكمه لمصر. (انظر الأعلام للزركلي ٦/ ٢٩٨).

(٢) تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود: إمام من أمراء نجد، كان شجاعاً حنكته التجارب فظفر، واستردّ الرياض وأدخل في طاعته أكثر البلاد النجدية، وخوطب بالإمامة. اغتيل سنة (١٢٤٩ هـ) (انظر الأعلام للزركلي ٢/ ٨٤، وشبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز له ١/ ٤٤، ٤٥).

(٣) انظر: محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية: د/ عبد الله الصالح العثيمين (ص ٦٣ ـ ٦٧ وأيضاً ٩٠ ـ ٩٢) ط/ ١، ١٤١١ هـ.

(٤) نسبة إلى الإمام القاسم بن محمد (٩٦٧ ـ ١٠٢٩ هـ) الذي ظهرت دعوته في القارة: وهي إحدى قرى إقليم الشرق، جنوبي: صعدة. وكان عالماً له مصنّفات، وجرت له خطوب وحروب وكروب قد اشتمل عليها كتاب سيرته (ترجم الشوكاني له في البدر الطالع ٢/ ٤٧ ـ ٥٠).

والتدبير، فكثرت في أيّامه الخيرات[1]. وقد أثنى عليه الشوكاني كثيراً، ووصفه بأنّه: (من أفراد الدهر ومن محاسن اليمن)[2]. وأنّه: (آخر من كان منهم نكالاً على القبوريين، وعلى القبور الموضوعة على غير الصفة المشروعة)[3].

وكان الشوكاني قد ولد في السنة العاشرة في حكم المهدي (١١٧٣ هـ) ولم يمت المهدي إلاّ وقد كان عمره ستة عشر عاماً[4].

٢ ــ الإمام المنصور بالله علي بن عباس (١١٥١ ــ ١٢٢٤ هـ) الذي تولّى الإمامة عام (١١٨٩ هـ) بعد وفاة والده المهدي العباس، واستمرّ في حكمه حتى توفّي عام (١٢٢٤ هـ). وقد سلك مسلك الملوك، وجعل له ثلاثة وزراء، وولاّهم جميع الأمور، ولم يشتغل بشيء من أمور مملكته إلاّ بالعمائر والاصلاحات في صنعاء وحولها من المحلاّت المشهورة، وكان من دأبه الكرم والضيافات والتفقد لذوي الحاجات، واستمرّت إمارته في سعادة وإقبال إلى سنة (١٢١٦ هـ)، ثم انتقضت بعض الأطراف، وملكت بعض السواحل، وخرج القبائل في صنعاء عن طاعته، وكثر منهم النهب، والسلب، والقتل، وقطع الطرق، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة، وبلغ الطعام من الغلاء مبلغاً عظيماً[5]. فساءت الأحوال السياسية والاقتصادية بشكل لم يسبق له المثيل، وتعدّدت

---

(١) انظر: تاريخ اليمن: عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني (ص ٢٢٩، ٢٣٠) ط/ الدار اليمنية.

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣١١).

(٣) الدر النضيد: الشوكاني (ص ٧٨) مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٤) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف: محمد زبارة (٢/ ١٦) ط/ القاهرة ١٣٧٦ هـ.

(٥) انظر: تاريخ اليمن: عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ص ٢٣٠).

أشكال الفوضى واضطراب حبل الأمن وسلامة الناس في كثير من المناطق[(١)].

وقد سجّل الشوكاني رحمه الله وقائع كثيرة حدثت في خلال حكم المنصور منها: ما حدث في آخر شهر رجب سنة (١٢٢٣ هـ) من مواحشة بين وزير الإمام الفقيه حسن بن حسن عثمان العلفي ـ الذي تمكّن تمكّناً كبيراً، وصارت الأمور مقرونة به ـ وبين أحمد بن الإمام بسبب أمور تصدر في مقام الخليفة، وبسبب تقصيره في أرزاق الأجناد، وقد تزايدت الوحشة التي كان من أثرها تحرّك القبائل، فوثبوا على الطرق، ونهبوا الأموال، وسفكوا الدماء حول صنعاء، وطال ذلك، وأضرّ بالناس، وتقطّعت الطرق، فأرسل إليه أحمد بن الإمام جماعة من الجند، وقبض عليه وعلى جماعة من قرابته، فعظم ذلك على الخليفة، وأراد استخلاصه، فأرسل أحمد جماعة من الجند، وأحاطوا بدار الخلافة، فوقع حرب بينهم.

وقد ساهم الشوكاني في حلّ هذه الأزمة، وتدخّل في هذا النزاع، فتمّ الاصلاح بين الجانبين على يده. قال: (وأصلحت الأمر على أنّ سيدي أحمد يكون تدبير البلاد الأمامية إليه، ويكون لوالده بمنزلة الوزير، ويبقى الوزير في اعتقاله)[(٢)].

وقد تولّى الشوكاني القضاء في عهد هذا الإمام، واستمرّ في عهد ولديه المتوكّل على الله (١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ)، والمهدي عبد الله (١٢٣١ ـ ١٢٥١ هـ)[(٣)] وواجه في هذه الفترة مشاكل صعبة مختلفة، سياسية واقتصادية، وعانى بنفسه كغيره هجمات القبائل وحصارها صنعاء وغيرها من

---

(١) انظر: مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٣) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٦٥).

الحواضر اليمنية، فجاءت آراؤه مستوحاة من المعانات والمعاينة. وقام بالأمر بعد المنصور ابنه.

٣ ـ الإمام المتوكّل على الله أحمد بن علي بن عباس (١١٧٠ ـ ١٢٣١ هـ) وكانت البيعة له في الليلة التي مات فيها والده، وكان الشوكاني أوّل من بايعه، وتولّى قبض البيعة له من إخوته وأعمامه وسائر آل الإمام القاسم وجميع أعيان العلماء والرؤساء[١].

وكان المتوكّل أحمد حازماً عاقلاً يقرّب العلماء، وأصلح ما كان قد أفسده والده، وقد خرج على الدولة كثير من القبائل في عهده، فقام بنفسه بعدّة جولات وغزوات، يرافقه في معظمها الشوكاني. وقد أشاد الشوكاني في كتابه البدر الطالع بكثير من أعماله وانتصاراته ما لا يتّسع هذا المقام لذكره[٢]. واستمرّ حكمه حتى توفّي سنة (١٢٣١ هـ) ثمّ قام بالأمر ولده.

٤ ـ المهدي عبد الله (١٢٠٨ ـ ١٢٥١ هـ) وقد تولّى الإمامة من عام (١٢٣١ هـ) إلى عام (١٢٥١.هـ) وهو آخر من عاصر الشوكاني من الأئمة. وكان الشوكاني أوّل من بايعه عقب وفاة والده، ثمّ أخذ له البيعة من جميع أمراء صنعاء وحكّامها، وجميع آل الإمام، وجميع الرؤساء والأعيان[٣].

يقول المؤرّخ اليماني عبد الواسع يحيى الواسعي[٤]:

---

(١) انظر المصدر السابق (١/ ٧٨، ٧٩، ٤٦٧).
(٢) انظر المصدر السابق (١/ ٧٨، ٧٩).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٣٧٦، ٣٧٧).
(٤) عبد الواسع بن يحيى الواسعي الصنعاني، عاش في فترة (١٢٩٥ ـ ١٣٧٩ هـ): مؤرخ من العارفين بالحديث، زيدي، من أهل صنعاء، قام برحلة إلى الحجاز والشام ومصر، له كتب منها: تاريخ اليمن، سمّاه فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، وكنز الثقات في علم الأوقات. (انظر: الأعلام: الزركلي ٤/ ١٧٨).

(ومن ضعف سيرته أنّ الوزير بعد مدّة يسيرة يعزله ويعذّبه، فمن هنالك اختلّت المملكة وتعاقب الدولة الذهاب والهلكة، كلّما تولّى وزير نظر إلى مصلحة نفسه، ولم ينظر إلى مصلحة نظام الملك، مع حصول الاياس من البقاء فيما هو فيه، فيجمع له مالاً على أيّ جهة كانت. والوزراء كانوا يعزلون مَن تحتهم من العمّال، وكلّ واحد من العمّال لا ينظر إلاّ إلى مصلحة نفسه، فبذلك اختلّ نظام الملك، وكلّ يوم إلى ضعف، وكان من طريقة المهدي وعادته الاحتجاب، والميل إلى الشهوات، واللذات، وسماع اللهو، والتغافل عن الملك، وبهذه السيرة أخيفت السبل ونهبت الأموال)[1].

ويجدر بي هنا أن أذكر شيئاً عن علاقة هذه الأئمة بأشراف مكة في الحجاز وبآل سعود في نجد.

أمّا أشراف مكة والحجاز فقد عاصر الشوكاني عدداً منهم: الشريف مساعد بن سعيد (ت ١١٨٤ هـ)، وولده سرور بن مساعد (ت ١٢٠٢ هـ)، وغالب بن مساعد (ت ١٢٣١ هـ)، وقد دارت بين الأخير وبين الإمام المنصور مكاتبات طويلة تتعلّق بالغزو الفرنسي والانجليزي للبحر الأحمر، وكان الجواب عليها من قبل الشوكاني نيابة عن الإمام[2]. فكانت العلاقة بين الجانبين ودّية وتعاونية في شتّى الميادين.

وأمّا آل سعود فقد تحدّث الشوكاني عنهم وأثنى عليهم كثيراً، وقد وصفهم بأنّهم أقاموا الدين الحنيف في جميع البلاد التي فتحوها، وصار أهلها مقيمين لفرائض الدين، يصلّون، ويصومون، ويؤدّون الزكاة وسائر شعائر الإسلام، بعد أن كانوا لا يعرفون من الإسلام شيئاً، ولا يقومون بشيء من واجباته إلاّ مجرّد التكلّم بلفظ الشهادتين على ما في لفظهم بهما من عوج.

---

(١) تاريخ اليمن: عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ص ٢٣١، ٢٣٢).
(٢) انظر خطابات الشريف غالب وردود الشوكاني عليها في البدر الطالع (٢/ ٨ ــ ٢٣).

وبالجملة فكانوا في جاهلية جهلاء، كما تواترت بذلك الأخبار إلينا، ثمّ صاروا الآن يصلّون الصلوات لأوقاتها، ويأتون بسائر الأركان الإسلامية على أبلغ صفاتها(١).

وكان الشوكاني معجباً بدعوة التوحيد التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهّاب (ت ١٢٠٦ هـ) وقادة الدعوة من آل سعود، والتي ابتدأت في بلدة (الدرعية) النجدية، وتركّزت حول تصحيح جانب العقيدة، بعد أن شاعت عقائد شركية تناقض مبدأ توحيد الله عزّ وجلّ، فذكر الشوكاني انتشار هذه الدعوة وجنودها في جميع الديار النجدية، والبلاد العارضية، والحساء، والقطيف، وفي كثير من البلاد الحجازية، وغالب جزيرة العرب(٢).

وكانت دولة الأئمة الزيدية تهادن هذه الحركة، فتبادل أنصارها المكاتبات والرسل، وقد قام الشوكاني الذي كان قاضياً ووزيراً ومستشاراً للدولة بدور بارز في تلك المكاتبات والمقابلات. قال عن ذلك ـ في صدد ترجمته لسعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٦٣ ـ ١٢٢٩ هـ) ـ: (وما زال الوافدون من سعود يفدون إلينا إلى صنعاء إلى حضرة الإمام المنصور، وإلى ولده الإمام المتوكّل بمكاتيب إليهما بالدعوة إلى التوحيد، وهدم القبور المشيّدة، والقباب المرتفعة، ويكتب إليّ أيضاً مع ما يصل من الكتب إلى الإمامين، ثم وقع الهدم للقباب والقبور المشيّدة في صنعاء، وفي كثير من الأمكنة المجاورة لها، وفي جهة ذمار وما يتّصل بها)(٣).

وكان مما سجّله الشوكاني من أخبار الوفود والمكاتبات بين آل سعود

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٥)، وانظر ترجمته لسعود بن عبد العزيز النجدي في (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).
(٢) انظر المصدر السابق (١/ ٢٦٢).
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وإمام اليمن ما ذكره في البدر الطالع قال: (وفي سنة (١٢١٥ هـ) وصل من صاحب نجد المذكور[١] مجلّدان لطيفان أرسل بهما إلى حضرة مولانا الإمام حفظه الله[٢]، أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهّاب، كلّها في الارشاد إلى إخلاص التوحيد، والتنفير من الشرك الذي يفعله المعتقدون في القبور، وهي رسائل جيدة مشحونة بأدلّة الكتاب والسنة، والمجلّد الآخر يتضمّن الردّ على جماعة من المقصّرين من فقهاء صنعاء وصعدة، ذاكروه في مسائل متعلّقة بأصول الدين، وبجماعة من الصحابة، فأجاب عليهم جوابات محرّرة مقرّرة محقّقة تدلّ على أنّ المجيب من العلماء المحقّقين العارفين بالكتاب والسنة، وقد هدم عليهم جميع ما بنوه، وأبطل جميع ما دوّنوه، لأنّهم مقصّرون متعصّبون، فصار ما فعلوه خزياً عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة... وأرسل صاحب نجد مع الكتابين المذكورين بمكاتبة منه إلى سيدي المولى الإمام، فدفع حفظه الله جميع ذلك إليّ، فأجبت عن كتابه الذي كتبه إلى الإمام على لسانه بما معناه: إنّ الجماعة الذين أرسلوا إليه بالمذاكرة لا ندري من هم، وكلامهم يدلّ على أنّهم جهّال...

ثم في سنة (١٢٢٢ هـ) وصل إلينا جماعة من صاحب نجد سعود بن عبد العزيز، لبعضهم معرفة في العلم، ومعهم مكاتيب من سعود إلى الإمام المنصور بالله رحمه الله تعالى، وإليّ أيضاً، ثمّ وصل جماعة آخرون كذلك في سنة (١٢٢٧ هـ) ثمّ وصل جماعة آخرون كذلك في سنة (١٢٢٨ هـ)، ودار مع هؤلاء الواردين ومع غيرهم من المكاتبة ما لا يتّسع المقام لبسطه)[٣].

هكذا وقد أدّى توسّع النفوذ السياسي لأتباع الإمام محمد بن

---

(١) يقصد به عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٣٢ ـ ١٢١٨ هـ).
(٢) يقصد به المنصور علي (١١٥١ ـ ١٢٢٤ هـ).
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٧، ٨).

عبد الوهّاب، وإرسال دعاتهم إلى اليمن لنشر العقيدة السلفية إلى تأثيرها على أنحاء متعدّدة من اليمن.

المبحث الثانـي

الحالة الدينية والاجتماعية

عاصر الشوكاني رحمه الله تعالى المذاهب والفرق والطوائف الدينيـة المختلفة، والتي كان له معها مواقفه الخاصّة، وفيما يلي أذكر تلك المذاهب وموقفه منها بإيجاز:

١ ــ الزيدية:

وهم فرقة من فرق الشيعة تنسب إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (وكان زيد بن علي (٧٩ ــ ١٢٢ هـ) بويع له بالكوفة في أيّام هشام بن عبد الملك[1]، وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر الثقفي[2]، وكـان زيـد يفضّـل علي بن أبي طـالب على سـائـر أصحــاب رسول الله ﷺ، ويتولّى أبا بكر وعمر، ويرى الخروج على أئمّة الجور، فلمّا ظهر بالكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبي بكر وعمر فأنكر ذلك على من سمعه منه، فتفرّق عنه الذين بايعوه، فقال لهم:

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان: من ملوك الدولة الأموية في الشام، بويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥ هـ) توفّي (١٢٥ هـ) (انظر: الكامل لابن الأثير ٥/ ٩٦، وتاريخ الطبري ٨/ ــ ٢٨٣).

(٢) يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم أبو يعقوب الثقفي، ولّاه هشام بن عبـد الملك اليمن سنة (١٠٦ هـ) ثم ولّاه العراق في (١٢٠ هـ) وكان يسلك سبيل الحجاج في الأخذ بالشـدة والعنف، قتل سنـة (١٢٧ هـ) (انظر وفيـات الأعيـان: ابن خلكـان ٢/ ٣٦٠).

رفضتموني، فيقال إنّهم سمّوا الرافضة لقول زيد لهم: رفضتموني. وبقي في شرذمة، فقاتل حتى قتل)[1].

والزيدية أقرب فرق الشيعة من أهل السنة، فمع أنّهم يرون أنّ عليّاً رضي الله عنه هو الأفضل، فإنّهم يرون صحّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، تطبيقاً للقاعدة العامّة المشهورة لديهم وهي: جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل[2]. ومعنى ذلك أنّ عليّاً كان أفضل الصحابة إلاّ أنّ الخلافة فوّضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها[3]. فلم يكفّروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يرفعوا الأئمة إلى رتبة الإله، أو إلى درجة النبيين.

(وجوّزوا أن يكون كلّ فاطمي عالم زاهد شجاع سخيّ خرج بالإمامة يكون إماماً واجب الطاعة، سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين، وجوّزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كلّ واحد منهما واجب الطاعة)[4].

---

(١) مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري (١/ ١٣٦، ١٣٧) تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. وانظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٢٥، ٢٦) ط/ دار الآفاق الجديدة، والتبصير في الدين: الاسفرايني (ص ٣٠) تحقيق/ كمال يوسف الحوت، والملل والنحل: الشهرستاني (١/ ٢٠٩) تحقيق/ محمد سيد كيلاني، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الفخر الرازي (ص ٥٢) ط/ دار الكتب العلمية، والبرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: السكسكي (ص ٦٥). تحقيق/ د: بسام علي سلامة العموش، ومجموع فتاوى: ابن تيمية (١٣/ ٣٦).

(٢) انظر الملل والنحل: الشهرستاني (١/ ١٥٥)، وانظر أيضاً فرق الشيعة للنوبختي (ص ٢٠) ط/ دار الأضواء. ونسب النوبختي هذا القول إلى أوائل البترية، وهم فرقة من فرق الزيدية.

(٣) الملل والنحل: الشهرستاني (١/ ١٥٥).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٥٤، ١٥٥).

ويستثنون منهم الجارودية[1] الذين زعموا أنّ النبي ﷺ نصّ على علي بن أبي طالب بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمام من بعده، وزعموا أنّ من دفع عليّاً عن هذا المكان فهو كافر، وأنّ الأمّة كفرت وضلّت في تركها بيعته[2]. وهم بهذا الزعم من الروافض.

وانتشر مذهب الزيدية في اليمن على يد الإمام الهادي يحيى بن الحسين[3] (٢٤٥ ـ ٢٩٨ هـ) مؤسس دولة الشرفاء العلويين، وواضع أساس الفقه الهدوي في اليمن، فقد أقام دولتها في اليمن عام (٢٨٤ هـ)، واستمرّت دولته إلى عام (١٣٨٢ هـ)[4].

---

(١) فرقة من الزيدية من الشيعة، وتوجد في اليمن بكثرة أيام الشوكاني، نسبت إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمداني. نقل ابن النديم عن الإمام الصادق قال عنه: لعنه الله، فإنّه أعمى القلب، أعمى البصر. قال الحافظ ابن حجر: رافضي كذّبه يحيى بن معين، من السابعة، مات بعد سنة (١٥٠ هـ) (انظر: الفهرست لابن النديم (ص ٢٥٣) ط/ دار المعرفة، والتقريب لابن حجر (ص ٢٢١ برقم ٢١٠١) تحقيق/ محمد عوامة).

(٢) انظر: فرق الشيعة للنوبختي (ص ٢١)، وانظر أيضاً: مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ١٤١)، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٢٢)، والتبصير في الدين للإسفراييني (ص ٢٨)، والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٥٧، ١٥٨)، والبرهان للسكسكي (ص ٦٦، ٦٧)، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٠).

(٣) يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الحسني العلوي الملقّب بالهادي إلى الحق ولد بالمدينة ونشأ فيها عالماً ورعا. وصنّف كتباً كثيرةً، وكان خروجه إلى اليمن عام (٢٨٠ هـ) بدعوة أهلها، وقد عمّ بها مذهب القرامطة والباطنية، فجاهدهم جهاداً شديداً وقد بلغت وقعاته معهم إلى سبعين وقعة، وأكثر من ملك اليمن بعده من أئمّة الزيدية هم من ذرّيته. توفّي (٢٩٨ هـ) (انظر: تاريخ اليمن: عبد الواسع الواسعي (ص ١٧٨، ١٧٩)، ومعتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ١٧١ الخ) ط ٢/ دار الكلمة صنعاء).

(٤) وقد تولّى منهم الإمامة (٦٧) إماماً، أوّلهم الهادي (٢٨٤ هـ)، وآخرهم محمد بن أحمد البدر (١٣٨٢) (انظر قائمة هؤلاء الأئمة ومدد حكمهم في كتاب: اليمن عبر التاريخ لأحمد حسين شرف الدين (ص ٢٤٥ ـ ٢٥٣) ط ٤/ الرياض، وانظر أيضاً=

وكان أهل اليمن قبيل دخول المذهب الزيدي متمذهبين بالمذهبين المالكي والحنفي[1]، ثم أخذا في التلاشي عندما دخل المذهب الشافعي وانتشر في بعض مناطق اليمن الساحلية والجنوبية، واستقرّ فيها منذ منتصف القرن الرابع الهجري[2].

والمذهب الزيدي تميز عن باقي مذاهب الشيعة بالحريّة الفكرية، والحضّ على الاجتهاد، بل إنّه ـ كما قال الشوكاني ـ: (يحرّم التقليد على من بلغ رتبة الاجتهاد، وأوجب عليه أن يجتهد رأي نفسه، ولم يخصّ ذلك بمسألة دون مسألة)[3].

ولعلّ هذا سبب من أسباب ظهور عدد من الأئمة المجتهدين المتحرّرين الذين خالفوا مذهب الزيدية، واتّجهوا نحو مذهب أهل السنة، من أمثال: محمد بن الوزير اليماني[4] (٧٧٥ ـ ٨٤٠ هـ)، والحسن الجلال[5] (١٠١٤ ـ ١٠٨٤ هـ)، وصالح بن مهدي

= مائة عام من تاريخ اليمن الحديث للدكتور حسين بن عبد الله العمري (ص ١٧).

(١) انظر طبقات فقهاء اليمن: عمر بن علي الجعدي (ص ٧٩) تحقيق/ فؤاد سيد، دار الكتب العلمية.

(٢) انظر تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ٣٦، ٣٧) ط ١٣٨٧ هـ مطبعة الكيلاني الصغير، ومائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٧).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ١٣٥).

(٤) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى اليماني من آل الوزير، كان من كبار حفّاظ الحديث، والعلماء المجتهدين اليمانيين، له كتب مفيدة منها: العواصم والقواصم، وترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، وإيثار الحق. توفي (٨٤٠ هـ) (انظر: البدر الطالع: الشوكاني ٢/ ٨١ ـ ٩٣، والأعلام: الزركلي ٥/ ٣٠٠).

(٥) الحسن بن أحمد بن علي الحسيني العلوي المعروف بالجلال، فقيه عارف بالتفسير والعربية والمنطق. قال الشوكاني عنه: برع في جميع العلوم العقلية والنقلية، وصنّف التصانيف الجليلة، فمنها: ضوء النهار جعله شرحاً للأزهار للإمام المهدي وحرّر اجتهاداته على مقتضى الدليل، ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو يخالفه، وله تكملة

المقبلي[1] (١٠٤٧ ـ ١١٠٨ هـ)، ومحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني[2] (١٠٩٩ ـ ١١٨٢ هـ)، ومحمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ) الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا البحث.

فإنّه رحمه الله درس هذا المذهب، وتفقّه عليه، إلاّ أنّه لم يلبث أن تخلّى عن التقليد والتمذهب، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتماداً مباشراً على الكتاب والسنة، وأصبح من المجتهدين في البحث عن الحكم الشرعي والأصل العقائدي من خلال الأدلّة والبراهين، ويتجلّى ذلك في خروجه على المذهب الزيدي ومخالفته له في مسائل كثيرة، سيأتي ذكر بعضها عند الكلام عن مذهبه.

وقد واجه الشوكاني في سبيل ذلك صراعات من المتعصّبين لهذا

= الكشف على الكشاف، وشرح الكافية في النحو. توفيّ (١٠٨٤ هـ) (البدر الطالع: الشوكاني ١/ ١٩٢، والأعلام: الزركلي ٢/ ١٨٢).

(١) صالح بن مهدي بن علي بن عبد الله المقبلي، مجتهد من أعيان الفقهاء، قال عنه الشوكاني: وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقّق الأصولين والعربية والمعاني والبيان والحديث والتفسير، وفاق في جميع ذلك، وقد أكثر الحط على المعتزلة في بضع المسائل الكلامية، وعلى الأشعرية في بعض آخر، وعلى الصوفية في غالب مسائلهم، وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم، ولا يبالي إذا تمسّك بالدليل بمن يخالفه كائناً من كان. له مؤلفات مفيدة منها: العلم الشامخ، والمنار على البحر الزخار. توفيّ (١١٠٨ هـ) (البدر الطالع: الشوكاني ١/ ٢٨٨، والأعلام: الزركلي ٣/ ١٩٧).

(٢) أبو إبراهيم عزّ الدين محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير: مجتهد من بيت الإمامة باليمن، أصيب بمحن كثيرة من الجهلاء والعوام. قال عنه الشوكاني: برع في جميع العلوم، وفاق الأقران، وتفرّد برئاسة العلم في صنعاء، وتظهر بالاجتهاد، وعمل بالأدلّة، ونفر عن التقليد، وزيّف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن. له مؤلفات مفيدة منها: سبل السلام، وإرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، وتطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد. توفيُّ (١١٨٢ هـ) (البدر الطالع ٢/ ١٣٣ ـ ١٣٩).

المذهب، وخاصّة من الروافض، وتعرّض لأذى كثير منهم، لأنّهم ـ كما قال الشوكاني ـ: (إذا بلغ بعض معاصريهم إلى رتبة الاجتهاد، وخالف شيئاً باجتهاده جعلوه خارجاً عن الدين[1]. وهكذا شأن غالب أهل اليمن مع علمائهم)[2]. وبيّن الشوكاني أنّ ذلك ليست لمقاصد دينية، بل لمنافع دنيوية تظهر لمن تأمّلها، وهي أن يشيع في الناس أنّ من أنكر على أكابر العلماء ما خالف المذهب من اجتهاداتهم كان من خلّص الشيعة الذابّين عن مذهب الآل، وتكون تلك الشهرة مفيدة في الغالب لشيء من منافع الدنيا وفوائدها[3].

ومما يحكي الشوكاني من الحوادث الجارية بينه وبين أهل عصره من الزيدية أنّه كان يذكر أحياناً في مواقف المتعصّبين ومجامع الجامدين بعض آراء المذهب المخالفة للدليل، قال: (وأقلّ الأحوال أن أقول: استدلّ هذا بكذا، وفلان المخالف له بكذا، ودليل فلان أرجح لكذا، فما زال أسراء التقليد يستنكرون ذلك، ويستعظمونه لعدم الفهم به، وقبول طبائعهم له، حتى ولّد ذلك في قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم)[4].

وذكر أنّ أحدهم إذا سمع قائلاً يقول: قال رسول الله، أو يملي سنداً فيقول: حدّثنا فلان عن فلان، قامت قيامته، وثار شيطانه، واعتقد أنّ هذا صنع أعداء أهل البيت، المناصبين لهم بالعداوة المخالفين لهديهم. قال: (فانظر ما صنع هذا الشيطان، فإنّ في نسبته للمشتغلين بالسنة المطهرة إلى مخالفة أهل البيت طعناً عظيماً على أهل البيت، لأنّه جعلهم في جانب والسنة في جانب آخر، وجعل بينهما عناداً وتخالفاً، وحاشا لأهل البيت أن

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ١٣٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٩١).
(٣) انظر المصدر السابق (٢/ ١٣٥).
(٤) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٤٧) تحقيق/ محمد عثمان الخشت.

يكونوا كما قال، فهم أحقّ الأمة باتّباع سنة رسول الله ﷺ والاهتداء بهديه والاقتداء بكلامه)[1].

٢ ــ الرافضة:

تقدّم الكلام عن سبب تسمية هذه الفرقة بالرافضة، وهم: جماعة غلاة الشيعة، وسمّوا بالشيعة لأنّهم شايعوا عليّاً رضوان الله عليه، ويقدّمونه على سائر أصحاب رسول الله ﷺ[2]. وهم فرق متعدّدة لا يتسع المقام هنا لذكرها[3].

يقول العلاّمة السكسكي الحنبلي[4] رحمه الله:

(وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلاً، وأنّ إمامة علي وتقديمه ثابتة نصّاً، وأنّ الأئمة معصومون لا يجوز عليهم الغلط والسهو والخطأ، وأنكروا إمامة المفضول والاختيار، وقالوا بتفضيل علي على سائر الصحابة، وأنّه الإمام بعد رسول الله ﷺ، وتبرّأوا من أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا إنّ الأمّة ارتدّت بتركها إمامة علي رضي الله عنه)[5]. ويخالفهم في ذلك الزيدية كما أسلفنا.

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٣، ٨٤).
(٢) انظر مقالات الإسلاميين: الأشعري (ص ٦٥).
(٣) انظر المصدر السابق (ص ٦٦ ــ ١٦٦)، والفرق بين الفرق: البغدادي (ص ١٥، ١٦، ٢٢ ــ ٥٤)، والتبصير في الدين: الإسفرايني (ص ٢٧ ــ ٤٣)، والملل والنحل: الشهرستاني (١/ ١٤٧ ــ ١٩١)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي (ص ٥٢ ــ ٦٣)، والبرهان: السكسكي (ص ٦٥ ــ ٨٥).
(٤) عباس بن منصور بن عباس التريمي السكسكي اليمني، أبو الفضل، كان قاضياً في تعزّ (قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات)، له كتاب: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان. توفيّ (٦٨٣ هـ) (انظر: هدية العارفين: للبغدادي ١/ ٤٣٧ ط/ استانبول ١٩٥١ م ــ والأعلام: للزركلي ٣/ ٢٦٨).
(٥) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: السكسكي (ص ٦٥)، وانظر أيضاً الملل والنحل: الشهرستاني (١/ ١٤٦).

وقد عاش الشوكاني رحمه الله الانحرافات والاضطرابات والفتن التي أحدثتها الرافضة في عصره، فكان موقفه منهم موقفاً شديداً، فقد حذّر منهم، ووضّح خطرهم، وكشف فضائحهم، في عديد من كتبه. وإليك بعض النصوص التي تبيّن ذلك:

قال رحمه الله: (انظر الرافضة، فإنّك تجد أكثر ما لديهم، وأعظم ما يشتغلون به ويكتبونه ويحفظونه، مثالب الصحابة رضي الله عنهم المكذوبة عليهم، ليتوصّلوا بذلك إلى ما هو غاية لديهم من السبّ والثلب لهم ــ صانهم الله وكبت مبغضيهم ــ ثم يعتبرون الناس جميعاً بهذه المسألة، فمن وافقهم فيها فهو المسلم حقّاً المحق وإن فعل ما فعل، ومن خالفهم في هذه المسألة فهو المبطل المبتدع وإن كان على جانب من الورع وحظّ من التقوى لا يقادر قدرها)[1].

وذكر أنّ هؤلاء الرافضة المتعصّبة يطلقون كلمة: (سنّية) على من يعادي عليّاً ويوالي معاوية، افتراء منهم على أهل العلم، واجتراء على المسلمين، استصعب ذلك من استصعبه عند إطلاقه عليه في ألسن هؤلاء الذين هم بالدوابّ أشبه. قال: (ولم أجد أهل ملّة من الملل، ولا فرقة من الفرق الإسلامية أشدّ بهتاً، وأعظم كذباً، وأكثر افتراء من الرافضة، فإنّهم لا يبالون بما يقولون من الزور كائناً ما كان، ومن كان مشاركاً لهم في نوع من أنواع الرفض وإن قلّ كان فيه مشابهة لهم بقدر ما يشاركهم فيه[2]... إلى أن قال موضّحاً خطرهم:

(وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضي، وإن كان حقيراً، فإنّه لا أمانة لرافضي قطّ على من يخالفه في مذهبه، ويدين بغير الرفض، بل

---

(١) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٨٤، ٨٥).
(٢) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٨٧).

يستحلّ ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له، لأنه عنده مباح الدم والمال، وكلّ ما يظهره من المودّة فهو تقية يذهب أثره بمجرّد إمكان الفرصة)[1].

وأكّد الشوكاني أنّه لم يتحدّث عن ذلك دون دليل، وإنّما عن سابق تجربة وخبرة عرف بها أحوالهم ومقدار عدائهم لمن خالفهم، فقال:

(وقد جرّبنا هذا تجريباً كثيراً، فلم نجد رافضياً يخلص المودّة لغير رافضي، وإن آثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة الخول[2]، وتودّد إليه بكلّ ممكن. ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم، ثمّ لم نجد عند أحد ما نجد عندهم من التجرىء على شتم الأعراض المحترمة، فإنّه يلعن أقبح اللعن، ويسبّ أفظع السبّ، كلّ من تجري بينه وبينه أدنى خصومة، وأحقر جدال، وأقلّ اختلاف)[3].

وعلّل الشوكاني سبب هذا التجرىء بأنّه يرجع إلى تجرئهم على سبّ السلف الصالح فكانت نتيجته أن هان عليهم سبّ من عداهم، قال:

(ولعلّ سبب هذا ــ والله أعلم ــ أنّهم لمّا تجرّأوا على سبّ السلف الصالح رضوان الله عليهم هان عليهم سبّ من عداهم، وقد يقع بعض شياطينهم في علي رضي الله عنه حرداً عليه[4] وغضباً له حيث ترك حقّه...

وأمّا تسرّع هذه الطائفة إلى الكذب، وإقدامهم عليه، والتهاون بأمره، فقد بلغ من سلفهم وخلفهم إلى حدّ الكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى صالحي أمّته، ووقع منهم في ذلك ما يقشعرّ له الجلد، وناهيك

---

(١) المصدر السابق (ص ٩٥).

(٢) الخول: اسم يقع على العبد والأمة (مختار الصحاح: الرازي ص ٨١ مادة: خول).

(٣) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٩٥).

(٤) الحرد بالتحريك: الغضب. (مختار الصحاح: الرازي) (ص ٥٥ مادة: حرد).

بقوم بلغ الخذلان بغلاتهم إلى إنكار بعض كتاب الله، وتحريف البعض الآخر، وإنكار سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وجاوز ذلك جماعة من زنادقتهم إلى اعتقاد الألوهية في ملوكهم، بل في شيوخ بلدانهم)[1].

ثمّ كشف الشوكاني نقابهم وفضح حقيقتهم فيما يتظهّرون به من التشيع قائلاً:

(ولا غرو فأصل هذا المظهر الرافضي مظهر إلحاد وزندقة، جعله من أراد كيداً للإسلام ستراً له، فأظهر التشيع والمحبّة لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استجذاباً لقلوب الناس، لأنّ هذا أمر يرغب فيه كلّ مسلم، وقصداً للتغدير عليهم، ثم أظهر للناس أنّه لا يتمّ القيام بحقّ القرابة إلّا بترك حق الصحابة، ثم جاوز ذلك إلى إخراجهم ـ صانهم الله ـ عن سبيل المؤمنين. ومعظم ما يقصده بهذا هو الطعن على الشريعة وإبطالها، لأنّ الصحابة رضي الله عنهم هم الذين رووا للمسلمين علم الشريعة من الكتاب والسنة، فإذا تمّ لهذا الزنديق باطناً الرافضي ظاهراً، القدح في الصحابة، وتكفيرهم، والحكم عليهم بالردّة، بطلت الشريعة بأسرها، لأنّ هؤلاء هم حملتها الراوون لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فهذا هو العلة الغائية لهم، وجميع ما يتظهّرون به من التشيع كذب وزور، ومن لم يفهم هذا فهو حقيق بأن يتّهم نفسه ويلوم تقصيره)[2].

هذا موقف الشوكاني من الرافضة وأتباعهم، وهو موقف واضح ومتميز في جميع مؤلّفاته، وسيأتي مزيد التفصيل عند الكلام عن بدع الرافضة[3].

وقد سجّل الشوكاني رحمه الله وقائع كثيرة لهؤلاء الرافضة، مما يدلّ على الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار في ظلّ حكومة الأئمة الزيدية.

---

(١) أدب الطلب: الشوكاني (ص ٩٥، ٩٦).
(٢) المصدر السابق (ص ٩٦).
(٣) انظر صفحة (٥٥١ ـ ٥٦٤).

ومن أظهر الأحداث تلك الفتنة التي أثارتها الرافضة بصنعاء في سنة (١٢١٦ هـ)[1] كما يحكيه الشوكاني عند ترجمته للسيد يحيى بن محمد الحوثي (١١٦٠ ـ ١٢٤٧ هـ).

وخلاصته: أنّ بعض أهل الدولة من الرافضة أقعد صاحب الترجمة على الكرسي الذي يقعده عليه أكابر العلماء المتصدّرون للوعظ، وأمره أن يملي على العامّة (تفريج الكروب) وهو في مناقب علي رضي الله عنه، ولكن لم يتوقّف صاحب الترجمة على ما فيه، بل جاوز ذلك إلى سبّ بعض السلف مطابقة لغرض من حمله على ذلك لقصد الاغاظة لبعض أهل الدولة المنتسبين إلى بني أمية، فكان صاحب الترجمة يصرخ باللعن على الكرسي، فيصرخ معه من يحضر لديه من العامّة، وهم جمع جمّ، وليسوا ممن يرغب في العلم، فكان يرتجّ الجامع ويرتفع الصراخ، ومع هذا فصاحب الترجمة لا يفهم ما في الكتاب لفظاً ولا معنى، بل يصحّف تصحيفاً كثيراً، وكان في سائر الأيام يجتمع معهم ويملي عليهم على الصفة المذكورة في مسجد الإمام صلاح الدين، فأراد أن يكون ذلك في جامع صنعاء الذي هو مجمع الناس ومحلّ العلماء والتعليم، لقصد نشر اللعن والثلب والتظاهر به، فلمّا بلغ ذلك الخليفة أبلغه أن يرجع إلى مسجد صلاح الدين، فحضر العامّة تلك الليلة على العادة، فلمّا لم يحضر صاحب الترجمة في الوقت المعتاد ثاروا في الجامع، ورفعوا أصواتهم باللعن، ومنعوا من إقامة صلاة العشاء، ثم انضمّ إليهم سائر العامّة، فخرجوا من الجامع يصرخون في الشوارع بلعن الأموات والأحياء، وقد صاروا ألوفاً مؤلّفة، ثم قصدوا بعض بيوت الناس فرجموها، وأفزعوا فيها أطفالاً ونساء وهتكوا حرماً، وكان السبب في رجمهم البيوت أنّ صاحبها إمّا أن يكون أمويّ النسب، أو متظهّراً بالسنة، ولم يكن رافضيّاً لعّاناً،

---

(١) انظر تفصيل الحادث في البدر الطالع (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٨)، وأدب الطلب (ص ٩٩ ـ ١٠٣).

وقد حصل الخوف العظيم من ثورة العامّة، وطال التراود والمشاورة بين الخليفة والوزراء والأمراء، ثمّ استشار الخليفة الإمام الشوكاني، فأشار عليه أنّ الصواب المبادرة بحبس جماعة من المتصدّرين في الجامع للتشويش على العوام وجماعة ممن يماثلهم، فقام الخليفة بتنفيذ مطالبه في حبس هؤلاء[1].

قال الشوكاني بعد سرد الحكاية: (وبالجملة فهذه فتنة وقى الله شرّها بالحزم الواقع بعد أن وجلت القلوب، وخاف الناس، واشتدّ الخطب، وعظم الكرب)[2].

وذكر الشوكاني هنا ثلاثة من جهلاء الرافضة الذين عاصرهم والذين أثاروا فتناً عظيمة في صنعاء أيّام توليته القضاء وهم: صاحب الترجمة يحيى بن محمد الحوشي، والسيد إسماعيل بن عزّ الدين النعمي (١١٨٠ ــ ١٢٣٢ هـ) وهو أشدّهم في ذلك، وقد وصفه الشوكاني بأنّه رافضي جلد، مع كونه جاهلاً جهلاً مركّباً، وفيه حدة تفضي به إلى نوع من الجنون، وصار يجمع مؤلّفات من كتب الرافضة، ويمليها في الجامع على من هو أجهل منه، ويسعى في تفريق المسلمين، ويوهمهم أنّ أكابر العلماء وأعيانهم ناصبة يبغضون عليّاً رضي الله عنه. والثالث: أحد عبيد الخليفة اسمه: ضرغام. ورأس ماله الاطّلاع على بعض كتب الرافضة المشتملة على السبّ للخلفاء وغيرهم من أكابر الصحابة، فصار هذا يقعد في الجامع ويملي سبّ الصحابة على من هو أجهل منه.

قال الشوكاني: فهذه الأمور هي سبب ما قدّمنا ذكره[3]. أي حدوث الفتنة بين عوام الناس.

---

(١) انظر: البدر الطالع الشوكاني (٢/ ٣٤٤ ــ ٣٤٨).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٤٨).
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٤٧).

ومما جرى بين الشوكاني وبين الرافضة في عصره من الوقائع ما حكى عن نفسه قال:

(ولمّا ألّفت الرسالة التي سمّيتها: ارشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي[1]. ونقلت اجماعهم من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر الصحابة بسبّ أو ما يقاربه، وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء المخالفين لمذهب أهل البيت، فجالوا وصالوا وتعصّبوا وتحزّبوا وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلاّ محض السباب والمشاتمة، وكتبوا أبحاثاً نقلوها من كتب الإمامية والجارودية، وكثرت الأجوبة حتى جاوزت العشرين، وأكثرها لا يعرف صاحبه، واشتغل الناس بذلك أيّاماً، وزاد الشرّ، وعظمت الفتنة، فلم يبق صغير ولا كبير ولا إمام ولا مأموم إلاّ وعنده من ذلك شيء، وأعانهم على ذلك جماعة ممن له صولة ودولة، ثمّ إنّ تلك الرسالة انتشرت في الأقطار اليمنية، وحصل الاختلاف في شأنها، وتعصّب أهل العلم لها وعليها، حتى وقعت المراجعة والمجاوبة والمكاتبة في شأنها في الجهات التهامية، وكلّ من عنده أدنى معرفة يعلم أنّي لم أذكر فيها إلاّ مجرد الذبّ عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون، مقتصراً على نصوص الأئمة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم، وينسب إلى مذهبهم ما هم منه براء)[2].

٣ ـ المعتزلة:

وهي فرقة من الفرق العقائدية المنحرفة، مؤسسها واصل بن عطاء[3]،

---

(١) وهي ما زالت مخطوطة (انظر مؤلّفات الشوكاني ص١٠٣).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) هو واصل بن عطاء البصري، أبو حذيفة: رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلّمين. قال عنه المسعودي: هو قديم المعتزلة وشيخها، وأوّل من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وإليه تنسب طائفة الواصلية. توفيّ (١٣١ هـ) (انظر: ميزان =

وعمرو بن عبيد[1]. وسمّوا معتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن البصري[2]، وقيل لاعتزالهم منهج أهل السنة والجماعة، وقيل غير ذلك[3].

ولهم أسماء أخرى منها: القدرية لنفيهم قضاء الله وقدره في معاصي العباد وإضافة خلقها إلى فاعلها، وأهل العدل والتوحيد لقولهم بهذين الأصلين[4].

وافترقوا إلى فرق كثيرة يجمعها آراء وهي الأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[5].

= الاعتدال: الذهبي ٦/ ٣، ولسان الميزان: ابن حجر ٦/ ٢١٤، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ١/ ١٨٢).

(١) هو عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان البصري المعتزلي القدري. قال الخطيب: كان عمرو يسكن البصرة، وجالس الحسن البصري، وحفظ عنه، اشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة، فقال بالقدر، ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن. توفيّ (١٤٤ هـ) وقيل غير ذلك. (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٢/ ١٦٢، وميزان الاعتدال: الذهبي ٤/١٩٣).

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار، الأنصاري مولاهم. قال الحافظ ابن حجر: ثقة فقيه فاضل مشهور، وكان يرسل كثيراً ويدلّس، وهو رأس أهل الطبقة الثالثة (أي الطبقة الوسطى من التابعين) مات (١١٠ هـ) (التقريب ١٦٠ برقم ١٢٢٧). ذكر الشهرستاني أنّه دخل عليه واحد وسأله عن حكم مرتكبي الكبائر، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل المجلس، يقرّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل. فسمّي هو وأصحابه معتزلة. (الملل والنحل ١/ ٤٨).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٩٨)، والتبصير في الدين: الإسفرايني (ص ٦٨)، والبرهان: السكسكي (ص ٤٩).

(٤) البرهان: السكسكي (ص ٥٠)، وانظر أيضاً الملل والنحل: الشهرستاني (١/ ٤٣).

(٥) انظر: معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ٢٣)، ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: د/ عرفان عبد المجيد (ص ١١٣) ط ١/ مؤسسة الرسالة.=

ومن عقائدهم التي طبّقوها من هذه الأصول: نفي جميع الصفات عن الله عزّ وجلّ، ونفي الرؤية، والقول بأنّ القرآن مخلوق، وأنّ الله لم يخلق أفعال عباده، بل هم الخالقون لها، وأنّ الله تعالى لا يفعل إلّا الصلاح والخير، ويجب عليه رعاية مصالح العباد. ومنها القول بأنّ صاحب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، وفي الآخرة خالد مخلّد في النار، ونفي شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر، ومنها جواز الخروج على السلطان وترك طاعتهم له، وتقديم الاستدلال بالعقل على النقل، وغير ذلك[(١)].

وقد اتّفقت الزيدية مع المعتزلة[(٢)] في هذه الأصول الخمسة، ففي عصر الإمام الهادي يحيى بن الحسن (٢٤٥ ـ ٢٩٨ هـ) جعل الأصول خمسة كالمعتزلة تماماً مع إلغاء أحد أصولهم وهو: المنزلة بين المنزلتين. وإبداله بأصل آخر يقول بإثبات الإمامة في آل البيت، وبذلك تصبح الأصول الخمسة عند الزيدية كما يلي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإثبات الإمامة في آل البيت[(٣)].

وتعتبر مؤلّفات الهادي وجدّه القاسم الرسي من أقدم ما باليمن من

= وانظر معنى هذه الأصول الخمسة في كتاب: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وكتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للباحث المعاصر عواد بن عبد الله المعتق.

(١) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٩٤، ٩٥)، والتبصير في الدين: الإسفراييني (٦٣ ـ ٦٧)، والملل والنحل: الشهرستاني (١/ ٤٥)، والبرهان: السكسكي (ص ٥٠).

(٢) هناك كتب تعرضت لهذا الموضوع، أذكر منها: الصلة بين الزيدية والمعتزلة للدكتور أحمد عبد الله عارف تقديم الدكتور محمد عمارة. ط / دار آزال بيروت. وقراءة في فكر الزيدية والمعتزلة للدكتور عبد العزيز المقالح ط/ دار العودة، بيروت. والزيدية للدكتور أحمد محمود صبحي. ط/ الزهراء للإعلام العربي.

(٣) انظر قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة: د/ عبد العزيز المقالح (ص ١٩، ٢٠)، ومعتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ٢٢٢).

مصادر علم الكلام المعتزلي[1]. وتصبح هذه الأصول الخمسة أصولاً للزيدية، والعمل بها في اليمن ظاهر ومتميّز تحت ظلّ حكومة الأئمة الزيدية.

ولا شكّ أنّ الشوكاني رحمه الله خالف المعتزلة كما خالف الزيدية في عقائدهم المنحرفة، وهذا واضح في كثير من مؤلّفاته، وقد وصفهم بأنّهم ضلّوا الطريق المستقيم وأضلّوا من رام سلوكها[2]. وكان موقفه من علم الكلام موقفاً متميّزاً، فقد نصح طالب العلم في كتابه: أدب الطلب بدراسة هذا العلم بعد اتقانه لأصول الفقه، ودراسة مؤلّفات المعتزلة والأشعرية والفرق الأخرى، وعدم الاقتصار على مؤلّفات مذهبه، حتى لا يقع في التقليد أو النفور من العلم قبل معرفته، وحتى لا يقع في العصبية وعدم الانصاف ومخاصمة أهل الكلام دون علم بمقولاتهم ومصطلحاتهم، قال رحمه الله:

(فإنّه إذا فعل كلّ هذا عرف الاعتقادات كما ينبغي، وأنصف كلّ فرقة بالترجيح أو التجريح على بصيرة، وقابل كلّ قول بالقبول أو الردّ على حقيقة... على أنّه يتعلّق بذلك فائدة وزيادة بصيرة في علوم أخرى، كعلم التفسير، وعلم تفسير الحديث، فإنّك إذا بلغت إلى ذلك علمت ما في العلم بهذا الفنّ من الفائدة، لا سيّما عند قراءة تفسير الكشّاف وأمثاله، فإنّ في مباحثه من التدقيقات الراجعة إلى علم الكلام ما لا يفهمها حقّ الفهم إلاّ من عرف الفنّ واطّلع على مذاهب المعتزلة والأشعرية وسائر الفرق)[3].

ولكنّ الشوكاني بجانب هذا النصح وصف تجربته الشخصية مع هذا العلم بالمرارة، وإنّ من اشتغل بها دون التعمّق في علم الكتاب والسنة فإنّ ذلك سيوصّله إلى الحيرة، وقد وجد أنّ مقالاته في نهاية الأمر ليست إلاّ مجموعة من الخزعبلات، وبناء على ذلك دعا طلاّبه إلى نهج السلف الصالح

(١) معتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد (ص ٢٠٣).
(٢) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (ص ٢) ضمن الرسائل السلفية.
(٣) انظر أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٤٥، ١٤٦).

الذي يقوم على هجر المصطلحات الكلامية، والتمسّك بالكتاب والسنة. فقال:

(وإنّي أقول بعد هذا إنّه لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، من الوقوف على ما تقتضيه أدلّة الكتاب والسّنة، وإبراز الصفات كما جاءت، وردّ علم المتشابه إلى الله سبحانه، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدوّنة في هذا العلم المبنيّة على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت إلّا بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيّما إذا كانت مخالفة لأدلّة الشرع الثابتة في الكتاب والسّنة، فإنّها حينئذ حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصّلون به إلى معرفة ما يتعلّق بالربّ سبحانه، وبالوعد والوعيد، والجنة والنار، والمبدأ والمعاد، إلّا ما جاءت به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليس للعقول وصول إلى تلك الأمور، ومن زعم ذلك فقد كلّف العقول ما أراحها الله عنه ولم يتعبّدها به... فلا يستفاد من العقل، بل من ذلك النقل الذي منه جاءت وإلينا به وصلت)[1].

ثمّ يوضّح موقفه من علم الكلام وتجربته معه فقال:

(واعلم أنّي عند الاشتغال بعلم الكلام، وممارسة تلك المذاهب والنحل، لم أزدد بها إلّا حيرة، ولا استفدت منها إلّا العلم بأنّ تلك المقالات خزعبلات، فقلت إذ ذاك مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم:

وغاية ما حصلته من مباحثي ... ومن نظري من بعد طول التدبّر
هو الوقف ما بين الطريقين حيرة ... فما علم من لم يلق غير التحيّر
على أنّني قد خضت منه غماره ... وما قنعت نفسي بدون التبحر[2]

---

(١) المصدر السابق (ص ١٤٦).

(٢) ذكر الشوكاني أيضاً هذه الأبيات وتجربته مع هذا العلم في: كشف الشبهات عن=

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالق، وطرحتها خلف الحائط، ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلّة الكتاب والسنة، المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله، وهم الصحابة، ومن جاء بعدهم من علماء الأمّة المقتدين بهم، السالكين مسالكهم، فطاحت الحيرة، وانجابت ظلمة العماية، وانكشفت ستور الغواية. ولله الحمد).

ومع أنّ الشوكاني يذكر أنّ علم الكلام قد أورثه حيرة إلّا أنّه يعود فيذكر أنّه لم يشتغل بهذا العلم إلّا بعد رسوخ قدمه في أدلّة الكتاب والسنة، وأنّه يقدّر في نفسه أنّه لو لم يكن لديه إلّا مقالات علم الكلام وقواعده فما كان ليجد غير الحيرة، أمّا وقد ضرب بها وجه قائلها ودخل إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه فإنّه كان في راحة من تلك الحيرة، وفي دعة من تلك الخزعبلات[1].

قلت: وقد جرّب قبل الشوكاني عدد من أئمة المتكلّمين، فلم يجدوا في الخوض في هذا العلم إلّا الاضطراب والحيرة، فأكرمهم الله بالتوبة عنه في آخر أعمارهم، أمثال إمام الحرمين الجويني[2]،

= المشتبهات (ص ٢٠)، والتحف في مذاهب السلف (ص ١٠) ضمن الرسائل السلفية.

(١) انظر أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٤٦، ١٤٧).

(٢) هو عبد الملك بن يوسف بن محمد الجويني إمام الحرمين، أبو المعالي، أحد الأعلام البارزين في مذهب الأشاعرة، ترجم له ابن عساكر في عداد رجال الطبقة الرابعة من الأشاعرة (انظر تبين كذب المفتري ص ٢٧٨)، له مؤلّفات كثيرة منها: الإرشاد، والشامل، كلاهما في أصول الدين. توفيّ (٤٧٨ هـ). قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره، واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أنيّ عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن: إن لم يتداركني ربيّ برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمّي أو قال: عقيدة عجائز نيسابور. (نقض المنطق: ابن تيمية ص ٦١) تصحيح / محمد حامد الفقي).

والغـزالي[1]، والفخـر الـرازي[2]، وإمـامهم أبي الحسن الأشعـري الـذي سأتحدّث عن مذهبه في الفقرة التالية.

٤ ــ الأشاعرة:

وهم طـائفة من أهـل الكـلام، ينتسبـون إلى أبي الحسن الأشعـري (٢٦٠ ــ ٣٣٠ هـ) الإمام المتكلّم المعروف. وكانت له ثلاثة أطوار، أوّلها: انتماؤه إلى المعتزلة، يقول بقولهم، ويأخذ بأصولهم، حتى صار إماماً لهم. ثانيها: خروجه عليهم، ومعارضته لهم بأساليب متوسّطة بين أساليبهم ومذهب السلف، وقد سلك في هذا الطور طريقـة عبد الله بن سعيـد بن كلّاب[3].

---

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، فيلسوف متصوّف، له مصنّفات كثيرة أشهرها: احياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال. توفيّ (٥٠٥ هـ) وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم. قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألّهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوّف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث ونقل عن ابن الصلاح قال: أبو حامد كثر القول فيه ومنه. فأمّا هذه الكتب ــ يعني المخالفة للحقّ ــ فلا يلتفت إليها، وأمّا الرجل فيسكت عنه، ويفوّض أمره إلى الله. (نقض المنطق ص ٥٥، ٦٠، وانظر طبقات الشـافعية الكبرى للسبكي ٤/ ١١١).

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي، الإمام المفسر، عالم في الكلام والفلسفة، له مؤلّفات عديدة منها: مفاتيح الغيب في التفسير، وشرح الأسماء الحسنى. توفيّ (٦٠٦ هـ) وقد رجع إلى مذهب السلف في آخر عمره. ومما قال: لقد تأمّلت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليـلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن... ثم قال: ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثـل معرفتي. (نقض المنـطق ص ٦٠، ٦١، وانظر: البـداية والنهـاية: ابن كثيـر ١٣/ ٥٥).

وقد ذكر الشوكاني رجوع هؤلاء الأئمة إلى مذهب السلف في كتابه: إرشاد الفحول (ص ١٧٦، ١٧٧)، وكشف الشبهـات عن المشتبهات (ص ١٩)، وأشـار إليـه في التحف في مذاهب السلف (ص ٣) ضمن الرسائل السلفية.

(٣) ويقال: عبد الله بن محمد بن كلّاب أبو محمد القطّان من أهل البصرة. قال=

والطور الثالث: انتقاله إلى مذهب السلف، وتأليفه في ذلك كتابه: الإبانة في أصول الديانة وأمثاله، وقد أراد أن يلقى الله على ذلك[1].

وبناء على هذا فإنّ اللقب (الأشاعرة) ينصرف عند الاطلاق إلى أولئك الذين اتّبعوه في فترة انتسابه إلى ابن كلّاب، أمّا قبل ذلك فهو معتزليّ، وبعد توبته من عقيدة الاعتزال وملازمته لابن كلّاب فترة من الزمن رجع في آخر أيّامه إلى مذهب السلف، فالمنتسبون إلى الأشعرية الآن هم أصحاب الطور الثاني[2].

وهم في الجملة لا يثبتون من صفات الباري عزّ وجلّ إلّا سبعاً، لأنّ العقل دلّ على اثباتها، ويؤوّلون بقية الصفات بتأويلات عقلية كما سيأتي بيانه. ولو اتّبعوا الحقّ وأنصفوا لرجعوا إلى منهج السلف أهل السنة كما رجع إليه من ينتسبون إليه.

= السكسكي: وكان نصرانياً فأسلم وفارق قومه، وكان يقول هو وفرقته إنّه ليس لله كلام مسموع، وإنّ الذي أنزل على الأنبياء حكاية كلام الله، ليس فيه أمر ولا نهي، ولا خبر ولا استخبار، وإنّه ليس له كلمات، ولا في القرآن سور ولا آيات، ولا لغة من اللغات، بل هو شيء واحد يعبّر به عن ذلك. ا هـ توفّي (٣٤٥ هـ) له كتاب الصفات، وخلق الأفعال، والرد على المعتزلة. (انظر البرهان: السكسكي ص ٣٦، ٣٧، وانظر الفهرست: ابن النديم ص ٢٥٥، ٢٥٦).

(١) انظر تعليق محبّ الدين الخطيب على المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي (ص ٤٤) ط/ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض ١٤٠٩ هـ، ومقدمة الدكتور عبد الله شاكر الجنيدي لكتاب: رسالة إلى أهل الثغر. لأبي الحسن الأشعري (ص ٦٣ ــ ٦٧) ط/ مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٩ هـ، وانظر الإبانة في أصول الديانة. تحقيق: د. فوقية حسين محمود حيث أشارت إلى أطواره الثلاثة في دراستها له، وذكرت أنّ الأوّل: من ولادته إلى سنّ العاشرة، والثاني: من سنّ العاشرة حتى تحوّله عن الاعتزال وأخذه بعقائد السلف، والثالث: من وقت هذا التحوّل إلى وفاته. (ص ٢٨ ــ ٣٦).

(٢) انظر البرهان للسكسكي (ص ٣٧، ٣٨).

ومذهب الأشاعرة ينتشر في اليمن مع المذهب الشافعي في الفروع جنباً إلى جنب، فالأشاعرة غالباً ما يكونون شافعية المذهب، ويسود المذهب الأشعري في المناطق الساحلية باليمن، وفي منطقة الجنوب(١).

ويوجد صراع واختلاف بين الأشعرية والزيدية في شرقي اليمن وجنوبه، أدّى ذلك إلى المصادمات الدموية، وتحكم السيف في بعض الأوقات، وإلى الفرقة والانفصال، ولا يزال ذلك مصدر قلق بين الشمال والجنوب(٢).

ويظهر لي من خلال دراسة مؤلّفات الشوكاني أنّه خالف الأشعرية كما خالف الفرق الأخرى، غير أنّه تأثّر تأثّراً قليلاً بالأشعرية، خاصّة في كتابه: فتح القدير، في تأويل بعض الصفات، مع أنّه اشتدّ إنكاره عليهم في ذلك في كتابه: التحف في مذاهب السلف، وغيره. كما سيأتي بيانه.

٥ ــ الصوفية:

وهي فرقة دينية أخلاقية فلسفية، تقوم على الزهد في الدنيا والانصراف إلى الروح، وتعتمد على التأمّل، والتعبّد، والتقشّف، وما إلى ذلك من المجاهدات والرياضات الروحية مما لم يستند إلى دليل شرعي صحيح، وذلك للوصول إلى الغاية المنشودة، وهي التجرّد من الدنيا وما فيها، والاتّصال بالذات الإلّهية والفناء فيها(٣) حسب زعمهم.

واختلفت آراء العلماء في دلالة كلمة (الصوفية، أو التصوّف) وفي سبب تسميتهم بها، لا يتسع هذا المقام لذكرها(٤).

---

(١) انظر تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ٩٤).

(٢) انظر تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ٩٧)، وانظر أيضاً غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: يحيى بن الحسين (١/ ٢٣٢ ــ ٢٣٧) تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة ١٩٦٨ م.

(٣) انظر: أضواء على التصوّف: د. طلعت غنام (ص ٢٨) ط/ عالم الكتب القاهرة.

(٤) انظر على سبيل المثال: التعرّف لمذهب أهل التصوّف للكلاباذي (ص ٢٨ ــ ٣٥) =

وللصوفية بدع كثيرة ابتدعوها في هذا الدين، لا زالت آثارها تفسد الأمّة الإسلامية في كثير من بلدان المسلمين. وقد بيّنت هذه البدع وكلام الشوكاني عليها عند الحديث عن بدع الصوفية، فلا حاجة لذكرها هنا[1].

وقد انتشرت الصوفية في اليمن بشكل محدود في الجزء الذي تقطنه الشافعية[2]، وأغلبهم قبوريون، وللشوكاني رحمه الله جولة طويلة معهم، خاصّة في كتبه الثلاثة: شرح الصدور في تحريم رفع القبور، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، وقطر الولي على حديث الوليّ، أو ولاية الله والطريق إليها، بالاضافة إلى رسالته المخطوطة: الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد.

فقد نقد الشوكاني رحمه الله في هذه الكتب سلوك الصوفية والقبوريين وعقائدهم المنحرفة، وما ابتدعوه في الدين من البدع المنكرة، وبيّن المفاسد التي تترتّب عليها.

قال في صدد الكلام عن اعتقادهم في الأموات: (... ومن أنكر حصول النداء للأموات والاستغاثة بهم استقلالاً فليخبرنا ما معنى ما نسمعه في الأقطار اليمنية من قولهم: يا ابن العجيل، يا زيلعي، يا ابن علوان، يا فلان يا فلان! وهل ينكر هذا منكر، أو يشكّ فيه شاكّ! وما عدا ديار اليمن فالأمر فيها أطمّ وأعمّ، ففي كلّ قرية ميّت يعتقده أهلها وينادونه، وفي كلّ مدينة جماعة منهم، حتى أنّهم في حرم الله ينادون يا ابن عباس، يا

= تحقيق/ محمود أمين النواوي، ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (٢/ ٥٥٠ ــ ٥٥٧) تحقيق د/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن شريف، ط/ دار الكتب الحديثة، وتلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٦١ ــ ١٦٣) ط/ دار الكتب العلمية، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٦، ٧).

(١) انظر صفحة (٥٦٤ ــ ٥٧٨).

(٢) انظر: تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (ص ١٢٠).

محجوب، فما ظنّك بغير ذلك، فلقد تلطف إبليس وجنوده أخزاهم الله تعالى لغالب أهل الملّة الإسلامية بلطفة تزلزل الأقدام عن الإسلام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)[1].

وبالجملة فإنّ هذه الفرق المختلفة التي عاصرها الشوكاني، وما وقع فيهم من الفساد والشرور والبدع والشركيات لها أثرها البعيد في ظهور الشوكاني وقيامه بالإصلاح، فما كانت آراؤه العلمية إلاّ دواء لأدواء عصره، ولو بحثنا عن الأسباب والبواعث التي بعثته للمجاهرة بكلّ قول قاله لوجدنا الذي بعثه على المجاهرة فساد أهل عصره، إمّا في السلوك، وإمّا في العقائد، كما أنّ لها أثراً سيّئاً على الأحوال الاجتماعية والحياة العامّة، بما حملته من الفرقة والانقسام، والفتن والمنازعات بين القبائل، وبما صاحبها من إفشاء الجهل في الدين بين الناس.

وقد وصف الشوكاني ما وصل إليه أهل عصره من الجهل في أمور الدين، والاهمال لما أوجبه الله عليهم من الفرائض، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصفاً دقيقاً، فقد قسّمهم إلى ثلاثة أقسام: ــ

القسم الأوّل: رعايا يأتمرون بأمر الدولة وينتهون بنهيها.

وصفهم الشوكاني بأنّ أكثرهم، بل كلّهم إلا النادر الشاذ لا يحسنون الصلاة، ولا يعرفون ما لا تصلح إلاّ به ولا تتمّ بدونه من أذكارها وأركانها وشرائطها وفرائضها، بل لا يوجد منهم من يتلو سورة الفاتحة تلاوة مجزئة إلاّ في أندر الأحوال، ومع هذا فالإخلال بها والتساهل فيها قد صار دأبهم وديدنهم. ثمّ يتلوها الصيام، وغالب الرعايا لا يصومون، وإن صاموا ففي النادر من الأوقات وفي بعض الأحوال، فربّما لا يكمل شهر رمضان صوماً إلاّ

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٣٧) مكتبة الصحابة الإسلامية.

القليل، وكثيراً ما يأتي هؤلاء الرعايا بألفاظ كفرية، فيقول: هو يهوديّ ليفعلنّ كذا، وليفعل كذا، ومرتدّة تارة بالقول وتارة بالفعل وهو لا يشعر. وكثير منهم يستغيث بغير الله تعالى، من نبي، أو رجل من الأموات، أو صحابي، أو نحو ذلك[1].

القسم الثاني: وهم أهل البلاد الخارجة عن أوامر الدولة ونواهيها.

وقد وصفهم الشوكاني بأنّهم أشدّ وأفظع من القسم الأوّل، فإنّهم جميعاً لا يحسنون الصلاة ولا القراءة، ومن يقرأ فيهم فقراءته غير صحيحة، ولسان غير صالح، وبالجملة فالفرائض الشرعية بأسرها من غير فرق بين أركان الإسلام الخمسة وغيرها مهجورة عندهم متروكة، بل كلمة الشهادة التي هي مفتاح الإسلام لا ينطق بها الناطق منهم إلاّ على عوض، ومع هذه ففيهم من المصائب العظيمة والقبائح الوخيمة والبلايا الجسيمة أمور غير موجودة في القسم الأوّل، منها:

١ ــ إنّهم يحكمون ويتحاكمون إلى من لا يعرف إلاّ الأحكام الطاغوتية منهم في جميع الأمور التي تنوبهم وتعرض لهم، من غير إنكار ولا حياء من الله ولا من عباده.

٢ ــ غالبهم يستحلّ دماء المسلمين وأموالهم ولا يحترمها، ولا يتورّع عن شيء منها.

٣ ــ فيهم من آثار الجاهلية الجهلاء أشياء كثيرة يعرفها من تتّبعها، فمن ذلك أقسامهم بالأوثان التي كانت الجاهلية تعبدها[2].

أمّا القسم الثالث: فهم الساكنون في المدن، كأهل صنعاء وذمار.

---

(١) الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل: الشوكاني (ص ٢٩، ٣٠) ضمن الرسائل السلفية.

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٣٣، ٣٤).

وقد وصفهم الشوكاني بأنّهم وإن كانوا أبعد الناس من الشر وأقربهم إلى الخير لكنّ غالبهم وجمهورهم عامّة جهّال يهملون كثيراً مما أوجبه الله عليهم من الفرائض جهلاً وتساهلاً، فمن ذلك أنّهم يصلّون غالباً الصلوات في غير أوقاتها، ويأتون بصلاة العشائين إمّا جمعا في وقت الأولى أو في وقت الأخرى، ومع هذا فهم لا يحسنون أركان الصلاة ولا أذكارها إلاّ الشاذ النادر منهم، ويتعاملون في بيعهم وشرائهم معاملات يخالفون فيها المسلك الشرعي، ويتكلّمون بالألفاظ الكفرية، وينهمك كثير منهم في معاصي صغيرة وكبيرة، وهم أقرب الناس إلى الخير، وأسرعهم قبولاً للتعليم، إذا وجدوا من يعزم عليهم عزيمة مستمرّة دائمة غير منقوضة في أقرب وقت كما يقع في ذلك كثيراً[1].

وتحدّث الشوكاني عن واقع أهل عصره في اهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال:

(ومع هذه البلايا التي تصدر منهم، والرزايا التي هم مصرّون عليها، لا يجدون من ينهاهم عن منكر، ولا يأمرهم بمعروف، وقد صار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلّ ولاية منحصراً في ثلاثة أشخاص: عامل، وكاتب، وحاكم).

وتحدّث عن حالة كلّ واحد منهم وما هم عليه من ضلال فقال:

(فأمّا العامل فلا عمل له إلاّ في استخراج الأموال من أيدي الرعايا من حلّها ومن غير حلّها، وبالحقّ وبالباطل، وقد استعان على ذلك بعلماء السوء... ولم يسمع على تطاول الأيّام وتعاقب السنين أنّ فرداً من أفراد العمّال أمر الرعايا بما أوجب الله من الفرائض التي لا فسحة فيها، كالصلاة

(١) انظر الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل: الشوكاني (ص ٣٧) ضمن الرسائل السلفية.

والصيام، أو نهاهم عن شيء من المنكرات التي يرتكبونها، بل قد جرت عادة كثير من العمّال أن يأخذ في مقابل الصلاة[1] شيئاً من السحت. وهكذا في الأشياء التي هي منكرات مجمع على تحريمها، كالزنا، والسرقة، وشرب المسكرات، إذا وقع بعض الرعية في شيء كان له العقوبة من العامل على ذلك أن يأخذ شيئاً من مال من فعل ذلك، بل وقوع الرعايا في هذه المعاصي أحبّ الأشياء إلى العامل، لأنّه يفتح له ذلك باب أخذ الأموال، فيتكاثر عنده السحت.

أمّا الكاتب فليس له من الأمر إلاّ جمع ديوان يكتب فيه المظالم التي يأخذها العامل من الرعايا، ولا تحقيق عليهم.

وأمّا ثالث الثلاثة وهو القاضي فهو عبارة عن رجل جاهل للشرع، إمّا جهلاً بسيطاً أو جهلاً مركّباً... لا يعرف حقّاً ولا باطلاً، ولا معقولاً، ولا منقولاً، ولا دليلاً، ولا مدلولاً، ولا يعقل شيئاً من أمور الشرع فضلاً عن غيرها من أمور العقل، ولكنّه اشتاق إلى أن يدعى قاضياً ويشتهر اسمه في الناس، ويرتفع بين معارضيه وأهله... فيذهب هذا الجاهل البائس إلى قطر من الأقطار الوسيعة، فيأتي إليه أهل الخصومات أفواجاً، فيحكم بينهم بحكم الطاغوت، وهو في الصورة حكم الشرع... فينتشر عنه في ذلك القطر الواسع من الطواغيت ما تبكي عيون الإسلام، وتتصاعد عنده زفرات الأعلام...

وأمّا سائر ما هو موكول إلى قضاة الشرع من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم، وارشاد الضالّ، وتعليم الجاهل، والدفع عن الرعية من ظلم من يظلمها، فلا يقدر هذا القاضي الشقي على شيء من هذه الأمور، سواء أكان حقيراً أم كبيراً، بل غاية أمره ونهاية حاله أن يبقى في

---

(١) لعل الصواب: ترك الصلاة.

ذلك القطر يشاهد المظالم بعينه، وقد ينفّذها بقلمه، ويعين عليها بفمه، فهو في الحقيقة ضالّ مضلّ، لا همّة ولا مطلب له إلاّ جمع الحطام من الخصوم تارة بالرشوة، وتارة بالهدية، وتارة بما هو شبيه بـالتلصص، ثمّ يدافـع عن المنصب الذي هو فيه ببعض من هذا السحت الذي يجمعه، ويتـوسّع في دنياه بالبعض الآخر[1].

وهكذا وصف الشوكاني لنا سوء حالة أهل عِصره في المجتمع اليمني، وقد اعتبرها من أعظم الأسباب الموجبـة لنزول البـلايا عليهم، من تسليط الأعداء، وسفك الدماء، ومن ضيق المعاش، وتقطع كثير من أسباب الرزق، وعقر المكاسب حتى ضعفت أموال الناس وتجاراتهم ومكاسبهم. فاعتبروا يا أولي الأبصـار، إنّ في هذا لعبـرة لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهـو شهيد[2].

المبحـث الثالـث

الحالة العلمية

خـالفت الحالـة العلمية كـلاًّ من الحالـة السياسيـة والحالـة الـدينيـة والاجتماعية، فعلى الرغم من أنّ عصر الشوكاني حافل بصراعات، وساد فيه الجمود والتقليد والجهل في عوام الناس، إلاّ أنّ اليمن كانت منتعشـة في حركة التأليف، وكان المسجد بصفته المدرسة الأولى للقضاة والعلماء والأدباء مجالاً حيويّاً ومؤثراً في المناظرات الفقهية والاجتهادية، بل الأدبية واللغوية، وسائر شعب المعارف الانسانية، ومن ثمّ فقد نبع علماء وأدباء كبار في اليمن

---

(١) الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل: الشوكـاني (ص ٣٠ ــ ٣٣) ضمن الرسـائل السلفية.

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٢٧، ٢٨، ٣٥، ٣٦).

في حقبة تدنى فيها الفكر العربي الإسلامي، ولم يكن الإمام الكبير الشوكاني إلّا أحد هؤلاء العلماء النابغين من المتأخّرين في هذه الفترة[1].

ولعلّ من العوامل التي دفعت إلى النشاط في حركة الكتابة والتأليف في هذه الفترة وجود الخصومات بين أصحاب المذاهب المختلفة من ناحية، وبين المتعصّبين للمذاهب والمنصفين المتحررين من ناحية أخرى، كما أنّ طبيعة المذهب الزيدي الذي يشترط توافر الاجتهاد في الأئمة والحكّام كان عاملاً هامّاً في استمرارية الانتاج الفكري في فنون مختلفة، ويعدّ الشوكاني ومن سبقه من المصلحين اليمنيين داخل اليمن أمثلة حيّة لتواصل حركة الانتاج الفكري والعلمي[2].

كما يعدّ كتاب الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. الذي انتهى من تأليفه سنة (١٢١٣ هـ)[3] موسوعة علمية أرّخت للمفكّرين والعلماء والأدباء وغيرهم منذ القرن الثامن وحتى عصر الشوكاني.

وقد بيّن رحمه الله دوافع تأليفه لهذا الكتاب فقال:

(حداني ذلك (القول بتوقّف الاجتهاد) إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم، مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة أنّ الله ــ وله المنة ــ قد تفضّل على الخلف كما تفضّل على السلف، بل ربّما كان في أهل العصور المتأخّرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقلّ نظيره من أهل العصور المتقدّمة، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحلّ من عنقه عرى التقليد. . .)[4].

---

(١) انظر مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ١٦).
(٢) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم الشرجي (ص ١٢٩).
(٣) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٧٥).
(٤) المصدر السابق (١/ ٣).

ومن العلماء الذين ساهموا في التصنيف والتأليف في عصر الشوكاني على سبيل المثال لا على سبيل الحصر في اليمن.

١ ــ عبد القادر بن أحمد الكوكباني (١١٣٥ ــ ١٢٠٧ هـ) من أحد شيوخ الشوكاني، له: (شرح نزهة الطرف في الجار والمجرور والظرف) للعلامة صلاح الدين الأخفش، وله: (فلك القاموس)، وله: حواش على (ضوء النهار)[١].

٢ ــ إبراهيم بن محمد إسماعيل بن صلاح الأمير (١١٤١ ــ ١٢١٣ هـ) له: الفلك المشحون شرح أسماء من يقول للشيء كن فيكون، وشرح للأربعين الجوهرية، وله تفسير غريب الأسلوب سمّاه: مفاتيح الرضوان في تفسير القرآن بالقرآن[٢].

٣ ــ ولده علي بن إبراهيم بن محمد (١١٧٥ ــ ١٢١٩ هـ) له مصنّفات منها: السرّ المصون في نكتة الاظهار والاضمار في أكثر الناس وأكثرهم لا يعلمون، ورسالة في تحريم تحلية السلاح بالذهب، وتأنيس أرباب الصفا في مولد المصطفى، وكتاب النفحات الربّانية واللمحات الرحمانية في إحراز ذخائر الصلات بإبراز ضمائر الصلوات، والفتح الإلٰهي بتنبيه اللاهي[٣].

٤ ــ الحسن بن أحمد بن الحسين السياغي ثم الصنعاني (١١٨٠ ــ ١٢٢١ هـ) له: شرح مجموع الإمام زيد بن علي[٤].

٥ ــ إبراهيم بن عبد الله بن إسماعيل الحوثي ثم الصنعاني (١١٨٧ ــ ١٢٢٣ هـ) له: تراجم علماء القرن الثاني عشر[٥].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٦٠، ٣٦٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٢٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٢٠).
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢١٤).
(٥) المصدر السابق (١/ ١٩).

٦ ـ لطف الله بن أحمد بن لطف الله بن أحمد جحاف (١١٨٩ ـ ١٢٤٣ هـ) من أحد تلامذة الشوكاني، ألّف مؤلّفات كثيرة، ومن أجلّها: كتاب المرتقى. شرح به المنتقى لابن تيمية، وديباج كسرى فيمن تيسر من الأدب لليسرى، ودرر نحور الحور العين في سيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين، والعباب بتراجم الأصحاب، وقرّة العين بالرحلة إلى الحرمين، وفنون الجنون في جنون الفنون، وغير ذلك[١].

٧ ـ الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي الذماري (١١٤٩ ـ ١٢٤٩ هـ) له: العروة الوثقى في أدلّة مذهب ذوي القربى، وله: الاقناع في الردّ على من أحلّ السماع، ومنظومة في الأسماء الحسنى، ونظم نخبة الفكر لابن حجر وشرحها، ونظم المعيار في الأصول، في نحو اثني عشر مائة بيت على نحو نظم الشاطبية[٢].

٨ ـ محمد بن علي بن حسين العمراني (١١٩٤ ـ ١٢٦٤ هـ) أحد تلامذة الشوكاني، له كتاب التاريخ، ترجم فيه أهل عصره، وعجالة ذوي الحاجة حاشية على سنن ابن ماجة، والتعريف بما في التهذيب من قويّ وضعيف في رجال الحديث[٣].

وعلى الرغم من وجود الازدهار الفكري والأدبي في عصر الشوكاني فإنّ البيئة العلمية في صنعاء قد غلب عليها التقليد والتعصّب، وكان أهلها يعارض العلماء المنصفين المؤثرين لنصوص الأدلّة على أقوال الرجال،

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٠ ـ ٧١).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢١٠) وأيضاً الأعلام: الزركلي (٦/ ٢٩٨).

وهذا ــ كما قال الشوكاني ــ: (شأن هذه الديار وأهلها، والعالم المنصف في غربة لا يزال يكابد شدائد، ويجاهد واحداً بعد واحد)[١].

ومن ناحية أخرى كان أهل العلم ــ كما وصفهم الشوكاني ــ (يخافون على أنفسهم، ويحمون أعراضهم، فيسكتون عن العامّة، وكثيراً منهم كان يصوّبهم مداراة لهم، وهذه الدسيسة هي الموجبة لاضطهاد علماء اليمن، وتسلّط العامة عليم، وخمول ذكرهم، وسقوط مراتبهم، لأنّهم يكتمون الحقّ، فإذا تكلّم به واحد منهم وثارت عليه العامّة صانعوهم وداهنوهم وأوهموهم أنّهم على الصواب، فيتجرأون بهذه الذريعة على وضع مقادير العلماء وهضم شأنهم)[٢].

هذا بالإضافة إلى ما جبل عليه أهل عصره من غمط محاسن بعضهم لبعض، ودفن مناقب أفاضلهم[٣]. وفي هذا وصفهم الشوكاني عند ترجمته لصالح بن أبي الرجال (١٠٢٩ ــ ١٠٩٢ هـ) صاحب كتاب: مطلع البدور ومجمع البحور فقال:

(إنّ الزيدية مع كثرة فضلائهم ووجود أعيان منهم في كلّ مكرمة على تعاقب الأعصار، لهم عناية كاملة ورغبة وافرة في دفن محاسن أكابرهم وطمس آثار مفاخرهم، فلا يرفعون إلى ما يصدر عن أعيانهم من نظم، أو نثر، أو تصنيف رأساً، وهذا مع توفّر رغباتهم إلى الاطلاع على ما يصدر من غيرهم، والاشتغال الكامل بمعرفة أحوال سائر الطوائف، والاكباب على كتبهم التاريخية وغيرها. وإنّي لأكثر التعجّب من اختصاصهم بهذه الخصلة التي كانت سبباً لدفن سابقهم ولاحقهم، وغمط رفيع قدر عالمهم،

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٩٥) وانظر أيضاً (١/ ١٩٣).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢٣٤).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٩١).

وفاضلهم، وشاعرهم، وسائر أكابرهم، ولهذا أهملهم المصنّفون في التاريخ على العموم)[1].

قلت: ولعلّ هذا سبب من أسباب ضياع كثير من مخطوطات علماء اليمن. وقد قدر صاحب كتاب: «الإمام الشوكاني حياته وفكره»[2] عدد الأبحاث والرسائل المفقودة للإمام الشوكاني وحده فلغت ما لا يقل عن سبعين بحثاً ورسالة.

●●●

(١) المصدر السابق (١/ ٥٩، ٦٠).
(٢) ص (٢٢٩).

الفصـل الثانـي

حياته الشخصيّة

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: مولده ونشأته.

المبحث الثالث: أعماله.

المبحث الرابع: وفَاته.

الفصل الثاني
حياته الشخصية(1)

المبحث الأوّل
اسمه ونسبه

ذكر الشوكاني اسمه في ترجمته لنفسه فقال: (محمد بن علي بن

---

(1) من مصادر ومراجع ترجمته:
١ ـ البدر الطالع: الشوكاني (٢/٢٠٤ ـ ٢٢٥).
٢ ـ أبجد العلوم: صديق حسن خان (٣/ ٢٠١ ـ ٢١١) ط/ دار الكتب العلمية.
٣ ـ التاج المكلل: صديق حسن خان (٤٤٣ ـ ٤٥٨) تحقيق/ عبد الحكيم شرف الدين المطبعة الهندية العربية عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م.
٤ ـ نيل الوطر: محمد زبارة (١/ ٣، ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨) ط/ ١٣٥٠ هـ السلفية.
٥ ـ الأعلام: الزركلي (٦/ ٢٩٨).
٦ ـ معجم المؤلّفين: عمر رضا كحالة (١١/ ٥٣) ط/ دار إحياء التراث العربي.
٧ ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين (٢٣، ٢٤) ط ٣/ ١٩٧١ م، مكتبة النهضة المصرية.
٨ ـ المجدّدون في الإسلام: عبد المتعال الصعيدي (٤٧٢).
٩ ـ فهرس الفهارس: الكتاني (٢/ ٤٠٨) ط/ دار الغرب الإسلامي.
١٠ ـ تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين (٢٧٥، ٢٧٦).
١١ ـ المدارس الإسلامية في اليمن: إسماعيل بن علي الأكوع (٤٦٧) ط ٢/ ١٤٠٦ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
وقد عرّف الشوكاني بنفسه وآبائه وموطنه، وعرض الأحداث الهامّة التي تتصل بحياته العلمية والعملية، ولذلك أرى من الخير والمناسب أن ألتمس طريقي للتعرف عليه من مؤلّفه نفسه. والله الموفّق.

محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني)[1]. وذكر نسبه عند ترجمته لوالده حيث رفعه إلى أبي البشر آدم عليه السلام، فبدأه بـ (علي بن محمد بن عبد الله) ثم انتهى بالسلسلة إلى زيد بن كهلان، بن سبأ، بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان، بن هود، بن عابر، بن سالخ، بن ارفخشد، بن سام، بن نوح، بن لمك، بن متوشلح، بن أخنوخ، بن لود، بن مهائيل، بن قينان، بن أنوش، بن شيت، بن آدم وحوى سلام الله عليهما. ثمّ قال: (وذكر المسعودي[2] بعد ذلك أنّ أنساب اليمن تنتهي إلى حمير وكهلان ابني سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وأنّ قحطان هو ابن عابر. قال: هذا هو المتّفق عليه عند أهل الخبرة)[3].

أمّا لقبه الشوكاني فهو نسبة إلى شوكان، وهي ـ كما قال عند ترجمته لوالده ـ: (قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم)[4]. وذكر أنّ النسبة إلى شوكان ليست حقيقة[5] (لأنّ وطنه ووطن سلفه وقرابته هو مكان: عدني شوكان، بينه وبينها جبل كبير مستطيل يقال له الهجرة، وبعضهم يقول له: هجرة شوكان. فمن هذه الحيثية كان انتساب أهله إلى شوكان، وهذه الهجرة معمورة بأهل الفضل والصلاح والدين من قديم الأزمان، لا يخلو وجود عالم منهم في كلّ زمن، ولكنّه يكون تارة في بعض البطون، وتارة في بطن أخرى)[6].

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٤).

(٢) علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود، مؤرخ، رحّالة، بحّاثة، من أهل بغداد، من تصانيفه: مروج الذهب، وأخبار الزمان. توفيّ (٣٤٦ هـ) ترجم له الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٤/ ٢٢٤، ٢٢٥) وقال عنه: (وكتبه طافحة بأنّه كان شيعياً معتزلياً. . .) وانظر ترجمته أيضاً في تذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ٨٥٧)، والأعلام للزركلي (٤/ ٢٧٧).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٤) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٨٠).

(٥) أي أنه نسب على غير قياس، لأنّ النسب إلى المضاف يكون إلى صدره لا إلى عجزه.

(٦) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٨١).

المبحث الثاني

مولده ونشأته

ذكر الشوكاني مولده عند ترجمته لنفسه فقال: (ولد حسبما وجد بخط والده في وسط نهار يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣ هـ ثلاث وسبعين ومائة وألف بهجرة شوكان، وكان إذ ذاك قد انتقل والده إلى صنعاء واستوطنها، ولكنّه خرج إلى وطنه القديم في أيّام الخريف، فولد له صاحب الترجمة هنالك)(١).

وقد نشأ الشوكاني بصنعاء(٢) في بيئة ميسورة الحال، حيث كان أبوه من العلماء الكبار، وكان يشتغل منصب قاضي صنعاء(٣)، مما كان له أكبر الأثر في تكوين شخصية الشوكاني العلمية، حيث كفاه أبوه مؤونة طلب الرزق، وكفل له كلّ وسائل الحياة، مما أعانه على أن يتفرّغ لطلب العلم بذهن خال من الهموم. قال عن هذا: (ولقد بلغ والدي معي إلى حدّ من البرّ والشفقة والإعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغاً عظيماً، بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب، فجزاه الله خيراً، وكافاه بالحسنى)(٤).

وكان أبوه أيضاً أستاذاً له، حيث قرأ عليه في أيام الصغر في شرح الأزهار وشرح الناظري مع غيره من الطلبة(٥).

وقد ابتدأ بقراءة القرآن الكريم على جماعة من المعلّمين، وختمه على الفقيه حسن بن عبد الله الهبل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن بصنعاء، ثمّ اتّجه إلى المتون لحفظها، فحفظ الأزهار للإمام المهدي في

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٤، ٢١٥).
(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٢١٥).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٤٨٣).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٨٤).
(٥) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

الفقه، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، والتهذيب للتفتازاني، والتلخيص في علوم البلاغة للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب في أصول الفقه، ومنظومة الجزري في القراءات، ومنظومة الجزاز في العروض، وآداب البحث والمناظرة للعضد، ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لهذه المختصرات قبل الشروع في الطلب، وبعضها بعد ذلك، ثمّ قبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة التواريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب، فطالع كتباً عدّة ومجاميع كثيرة[1].

من هذا يتبيّن أنّ الشوكاني نشأ وتربّى في بيئة علمية تهيّئه لأن يصبح عالماً نابغاً في العلوم الشرعية، وكان لوالده الأثر الفعّال في توجيهه إلى الاشتغال المستمر بتحصيل العلم.

ثمّ بعد شروعه في طلب العلم يجد بيئة علمية زاخرة بالعلماء والأدباء، فدرس على البارزين منهم مختلف العلوم: الدينية، واللسانية، والعقلية، والرياضية، والفلكية، وظلّ كما يقول في البدر الطالع يأخذ عن شيوخه حتى استوفى كلّ ما عندهم من كتب، بل زاد في قراءته الخاصّة على ما ليس عندهم[2].

فلأولئك المشايخ دور كبير في تنشئته، وفي تكوين شخصيته العلمية.

وعلى سبيل المثال نجد الشوكاني وصف أحد مشايخه وهو: الحسن بن إسماعيل المغربي[3] (١١٤٠ ــ ١٢٠٨ هـ) فقال: (وكان رحمه الله يقبل عليّ إقبالاً زائداً، ويعينني على الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني إلى

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٥).
(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٢١٨).
(٣) ستأتي ترجمته عند الحديث عن شيوخ الشوكاني في صفحة ٦١.

شرح المنتقى[1] وشرعت في حياته، بل شرحت أكثره، وأتممته بعد موته، وكان كثيراً ما يتحدّث في غيبتي أنّه يخشى عليّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه، فما أصدق حدسه، وأوقع فراسته، فإنّي ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة)[2].

المبحث الثالث

أعماله

للشوكاني أعمال متعدّدة أهمّها ما يلي:

١ ـ اشتغاله بالتدريس:

اشتغل الشوكاني بالتدريس في وقت مبكّر جدّاً، نظراً لما كان عليه من تفوّق ملحوظ أثناء طلبه للعلم، فقد كان كثير من التلاميذ يلجأون إليه لكي يدرّس لهم دروساً مختلفة وفنوناً متعدّدة.

ويتحدّث الشوكاني عن نفسه فيقول: (وقد درس في جميع ما تقدّم ذكره من علوم الطلب، وأخذه عنه الطلبة، وتكرّر أخذهم عنه في كلّ يوم من تلك الكتب، وكثيراً ما كان يقرأ على مشايخه، فإذا فرغ من كتاب قرأه، أخذه عنه تلامذته، بل ربّما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة الكتاب على شيخه، وكان يبلغ دروسه في اليوم والليلة إلى نحو ثلاثة عشر درساً، منها ما يأخذه عن مشايخه، ومنها ما يأخذه عنه تلامذته)[3].

وفي موضع آخر يقول عن تدريسه: (وكنت أدرّس الطلبة في اليوم

---

(١) أي منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار لعبد السلام بن عبد الله (ت ٦٥٢ هـ) جدّ شيخ الإسلام ابن تيمية، وسمّى الشوكاني هذا الشرح نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وهو من خير الشروح في أحاديث الأحكام.

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ١٩٧).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٨).

الواحد نحو ثلاثة عشر درساً، منها ما هو في التفسير، كالكشاف وحواشيه، ومنها ما هو في الأصول، كالعضد وحواشيه، والغاية وحاشيتها، وجمع الجوامع وشرحه وحاشيته، ومنها ما هو في المعاني والبيان، كالمطوّل والمختصر وحواشيهما، ومنها ما هو في النحو، كشرح الرضى على الكافية، والمغني، ومنها ما هو في الفقه، كالبحر، وضوء النهار، ومنها ما هو في الحديث، كالصحيحين وغيرهما)[1].

كما أنّه قد درّس تلامذته علوماً أخرى لم يجدها عند مشايخه. ويقول عن هذا: (وأخذ عنه الطلبة كتباً غير الكتب المتقدّمة مما لا طريق له فيها إلاّ الاجازة، وهي كثيرة جدّاً في فنون عدّة، بل أخذوا عنه في فنون دقيقة لم يقرأ في شيء منها، كعلم الحكمة التي منها علم الرياضي، والطبيعي، والإلٰهي، وكعلم الهيئة، وعلم المناظرة، وعلم الوضع)[2].

وكان تدريسه في جامع صنعاء، وفي مدرسة الإمام شرف الدين[3].

٢ ـ مباشرته للإفتاء:

تصدّر الشوكاني للإفتاء وهو في سنّ مبكّرة أيضاً، وكان لفتاويه تأثير واضح جعل الكثير من أهل صنعاء، بل وغيرهم من أهالي المدن المجاورة يستفتونه في مختلف شؤون الدين، وكان رافضاً للأجر المادي على فتاواه، وعن هذا العمل يقول:

(وكان في أيّام قراءته على الشيوخ وإقرائه لتلامذته يفتي أهل مدينة صنعاء، بل ومن وفد إليها، بل ترد إليه الفتاوى من الديار التهامية، وشيوخه إذ ذاك أحياء، وكان الفتيا تدور عليه من عوام الناس وخواصهم، واستمرّ يفتي

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٦٤).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١٩).
(٣) المدارس الإسلامية في اليمن: إسماعيل بن علي الأكوع (ص ٣٦٨) ط/ مؤسسة الرسالة.

من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئاً تنزّهاً، فإذا عوتب في ذلك قال: أنا أخذت العلم بلا ثمن، فأريد إنفاقه كذلك)[1].

وهذا منهج غريب على الناس وعلى العصر الذي عاش فيه، وهو أن يروا مفتياً لا يتقاضى أجرة.

٣ ـ تولّيه للقضاء العام:

اختير الشوكاني للقضاء وهو في سنّ السادسة والثلاثين[2] فتولّى القضاء العام في مدينة صنعاء، وكان ذلك في عهد الإمام المنصور علي بن المهدي العباس (١١٨٩ ـ ١٢٢٤ هـ) واستمرّ في منصبه، ونهض بدور علمي وسياسي ذي أثر مدّة حكمه، وحكم ابنه الإمام المتوكّل على الله أحمد (١٢٢٤ ـ ١٢٣١ هـ)، وحكم حفيده المهدي عبد الله (١٢٣١ ـ ١٢٥١ هـ) حيث توفّي الشوكاني قبله بنحو عام[3].

وأترك الشوكاني يحكي قصّته في تولّيه لهذا القضاء. يقول رحمه الله:

(ولمّا كان في شهر رجب سنة ١٢٠٩ هـ مات قاضيه المتقدّم ذكره[4]. وكنت إذ ذاك مشتغلاً بالتدريس في علوم الاجتهاد، والافتاء، والتصنيف، منجمعاً عن الناس، لا سيما أهل الأمر وأرباب الدولة، فإنّه لا أتّصل بأحد منهم كائناً من كان، ولم يكن لي رغبة سوى العلوم. . . فلم أشعر إلاّ بطلاّب

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٩).

(٢) ذكر الشوكاني في البدر الطالع (٢/ ٢٢٤) أنّه دخل في القضاء وهو ما بين الثلاثين والأربعين، وذكر في موضع آخر (١/ ٤٦٤) أنّ دخوله في القضاء كان في شهر رجب سنة ١٢٠٩ هـ أي في السادسة والثلاثين من عمره، لأنّه ولد سنة ١١٧٣ هـ.

(٣) انظر مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د/ حسين عبد الله العمري (ص ٦٤).

(٤) أي القاضي يحيى بن صالح السحولي (١١٣٤ ـ ١٢٠٩ هـ) وقد وصفه الشوكاني بأنّه من رجال الدهر حزماً وعزماً وإقداماً وإحجاماً ودهاء وتودّداً وخبرة ورياسة وسياسة وجلالة ومهابة وفصاحة ورجاحة وشهامة. (انظر البدر الطالع ٢/ ٣٣٥).

لي من الخليفة[1] بعد موت القاضي المذكور بنحو أسبوع، فعزمت إلى مقامه العالي، فذكر لي أنّه قد رجّح قيامي مقام القاضي المذكور، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال: القيام بالأمرين ممكن، وليس المراد إلاّ القيام بفصل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالي في يومي اجتماع الحكّام فيه، فقلت: سيقع مني الاستخارة لله والاستشارة لأهل الفضل، وما اختاره الله ففيه الخير. فلمّا فارقته ما زلت متردّداً نحو أسبوع، ولكنّه قد وفد إليّ غالب من ينتسب إلى العلم في مدينة صنعاء، وأجمعوا على أنّ الاجابة واجبة، وأنّهم يخشون أن يدخل في هذا المنصب الذي إليه مرجع الأحكام الشرعية في جميع الأقطار اليمنية من لا يوثق بدينه وعلمه، وأكثروا من هذا، وأرسلوا إليّ بالرسائل المطوّلة، فقبلت مستعيناً بالله، ومتّكلاً عليه، ولم يقع التوقّف على مباشرة الخصومات في اليومين فقط، بل انثال الناس من كلّ محلّ، ما استغرقت في ذلك جميع الأوقات إلاّ لحظات يسيرة قد أفرغتها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنت شرعت فيه، واشتغل الذهن شغلة كبيرة، وتكدّر الخاطر تكدّراً زائداً، لا سيّما وأنا لا أعرف الأمور الاصطلاحية في هذا الشأن، ولم أحضر عند قاض في خصومة ولا في غيرها، بل كنت لا أحضر في مجالس الخصومة عند والدي رحمه الله من أيّام الصغر فما بعدها، ولكن شرح الله الصدر، وأعان على القيام بذلك الشأن)[1].

وقد اعتبر الشوكاني اشتغاله بالقضاء ابتلاء وامتحاناً من ربّه[2]، كما اعتبره عارضاً من عوارض العلم[3]، ولكنّه قبل هذا المنصب لأنّه لو أحجم عنه أهل الدين والعلم والخلق والاجتهاد لأصبح في أيدي الجهلة والظلمة

---

(١) يعني وصول رسول إليه من قبل إمام عصره.
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٦٤، ٤٦٥).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٣٢٠، و٢/ ٢٢٤).

والمقلّدين والمتعصّبين. قال: (وقد كثر التتابع من الجهلة في هذا المنصب الشريف، واشتروه بالأموال ممن هو أجهل منهم، حتى عمّت البلوى جميع الأقطار اليمنية)[1]. (فالقاضي القادر على الحكم بالحقّ والعدل وبما أنزله الله إذا امتنع من الدخول في القضاء فقد أهمل ما أوجبه الله عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك أعظم ما أوجبه الله على عباده، وأهمّ ما كلّفهم به، هذا على تقدير أنّه يغني عنه غيره، أمّا إذا كان لا يغني عنه غيره، فأيّ واجب أوجب عليه من الدخول، وأيّ تكليف شرعي يعدل هذا التكليف)[2].

وبناء على هذا قبل الشوكاني هذا المنصب الشريف، لأنّه وجد حاجة المسلمين إليه قائمة، كما وجد في هذا المنصب فرصة عملية لتطبيق ما يدعو إليه من الاجتهاد ونبذ التقليد والتعصّب، والرجوع بالتشريع إلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

وقد سلك في قضائه مسلك العدل، وأعطى كلّ ذي حقٍ حقّه، وكان ورعاً شديداً، فلم يقبل هديّة من الناس، حتى وإن كانت الهدية من أقاربه، وفي هذا يقول:

(فليحذر الحاكم المتحفّظ لدينه المستعد للوقوف بين يدي ربّه من قبول هدايا من أهدى إليه بعد تولّيه القضاء، فإنّ للإحسان تأثيراً في طبع الإنسان، والقلوب مجبولة على حبّ من أحسن إليها، فربّما مالت نفسه إلى المهدي إليه ميلاً يؤثر الميل عن الحقّ عند عروض المخاصمة بين المهدي وبين غيره، والقاضي لا يشعر بذلك، ويظنّ أنّه لم يخرج عن الصواب، بسبب ما قد زرعه الإحسان في قلبه، والرشوة لا تفعل زيادة على هذا، ومن

(١) انظر المصدر السابق (٢/ ٢٢٤).
(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٩٦).
(٣) السيل الجرار: الشوكاني (٤/ ٢٦٧).

هذه الحيثية امتنعتُ من قبول الهدايا بعد دخولي في القضاء ممن كان يهدي إليّ قبل الدخول فيه، بل من الأقارب فضلاً عن سائر الناس، فكان في ذلك من المنافع ما لا يتسع المقام لبسطه، أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه)[1].

هذا أهمّ أعمال الشوكاني التي وقفت عليها، بالاضافة إلى جهوده في التصنيف الذي سأتحدّث عنه في مبحث مؤلفاته، واهتماماته المتعددة في الاصلاح والسياسة التي تتمثل في مرافقته للأئمة في زياراتهم للمناطق اليمنية[2]، وفي تصميمه للسياسة الاقتصادية[3]، وفي طرح مشورته الاصلاحية عند حدوث الحوادث والفتن[4]، وفي القيام بالمراسلات الخارجية، كما سبقت الاشارة إليها.

المبحث الرابع

وفاته

توفّي الشوكاني رحمه الله حاكماً بصنعاء في جمادي الآخرة سنة (١٢٥٠ هـ) عن ستّ وسبعين سنة وسبعة أشهر، وقبره بمقبرة خزيمة المشهورة بصنعاء[5].

وحدّد بعض الباحثين أنّه توفّي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة في عام (١٢٥٠ هـ) الموافق لسنة (١٨٣٥ م)[6] بعد حياة حافلة بالجدّ، والعلم، والجهاد، والدعوة إلى الكتاب والسنة.

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ٢٠٣).
(٢) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٧٨، ٧٩).
(٣) انظر أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٦٢، ١٦٣).
(٤) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٦٧)، والدواء العاجل: الشوكاني (ص ٣٥، ٣٦).
(٥) انظر نيل الوطر: محمد زبارة (٢/ ٣٠٢)، وهامش البدر الطالع (٢/ ٢٢٥).
(٦) انظر مقدمة نيل الأوطار (١/ ١١)، ومقدمة الدراري المضيئة شرح الدرر البهية (ص ٣).

وقد أثنى عليه القاضي يحيى بن صالح السحولي في أبيات كتبها إليه قبل موته بنحو سنة، ولم يكن بينهما اتّصال، قال فيها:

يا أنفع الناس في التدريس في البلد ... وباذلاً نفسَه في طاعة الصَمد
ويا جمال أولي التحقيق عن كمل ... على تواضع أهل الفضل والرشد
ومن له القلب يقضي بالمحبّة في ... حبِّ المهيمن لا زالت على الأبد
بقيتَ تحيي ربوع العلم مجتهداً ... في نشرها عن أولي التحقيق والسند
ولا شغلت بآفات العلوم ولا ... برحت في اللطف من خلاقنا الأحد(1)

●●●

(1) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٣٧).

الفصـل الثـالـث

حياته العلميّة

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: طلبه العلم.

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه.

المبحث الثالث: مُؤلّفاته.

المبحث الرابع: مَذهبه وعَقيدته.

الفصـل الثالـث
حياته العلمية

المبحـث الأوّل
طلبه العلم

تقدّم أنّ الشوكاني رحمه الله قـد ابتدأ بقـراءة القرآن وتجـويده على مشـايخ القـراءات بصنعاء اليمن، وكـان قبل شـروعه في الـطلب مشغـولاً بالاطّلاع على أكثر من كتاب في الأدب والتاريخ، وحفظ أكثر من مختصر في علوم اللغة، والفقه، وأصول الدين.

ثمّ شرع بعد ذلك في طلب العلم، فدرس على والده وعلى كبار علماء اليمن في عصره[١] مختلف العلوم الدينية، واللسانية، والعقلية، والرياضية، والفلكية، وقد أورد الشوكاني أسماء الكتب التي طلب العلم فيها على يد مشـايخه بـالتفصيل في كتـابه: البـدر الطالـع، وقد أطلق عليهـا مقروءاتـه ومسموعاته[٢]. وقد أحصيتها فبلغت سبعاً وستّين كتاباً في فنون مختلفة[٣]. هذا بالاضافة إلى ما جاز لـه روايته بـالإجازة وهي كثيـرة، قال بعـد سرده لمقروءاته:

(هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته، وله غير

---

(١) سأتحدث عنهم في بحث مستقلّ.
(٢) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٥ ـ ٢١٨).
(٣) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحات.

ذلك من المسموعات والمقروءات، وأمّا ما يجوز له روايته بما معه من الاجازات فلا يدخل تحت الحصر، كما يحكي ذلك مجموع أسانيده)[1].

ولعلّه يقصد به كتابه: اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر[2]. الذي جمع فيه مرويّاته بالإجازة عن شيوخه وهي تقارب ثلاثمائة وثلاثة وتسعين مؤلّفاً في مختلف العلوم والفنون، مسلسلاً لأسانيدها منه حتى يصل بالسند إلى مؤلّفيها. قال ففي مقدمة الكتاب: (وقد جمعت في هذا المختصر كلّ ما ثبتت لي روايته بإسناد متصل بمصنّفه، سواء من كتب الأئمة من أهل البيت رضي الله تعالى عنهم، أو من كتب غيرهم من سائر الطوائف الإسلامية رحمهم الله في جميع فنون العلم)[3].

وكان الشوكاني رحمه الله لم يقتصر على تلقّي العلم على أستاذ واحد، بل كان يطلب العلم الواحد أو العلمين أو الثلاثة من عدّة علماء في وقت واحد، فعلى سبيل المثال: درس النحو والصرف من كلّ من السيد العلاّمة إسماعيل بن الحسن بن أحمد، والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، والعلامة القاسم بن يحيى الخولاني، ودرس الفقه على كلّ من والده، والسيد العلامة عبد الرحمن بن قاسم المداني، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي، والعلامة أحمد بن محمد بن الحرازي. وبه انتفع في الفقه، وعليه تخرج، وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة[4].

وكان طلبه للعلم في صنعاء نفسها لم يرحل عنها على عادة طلاب العلم لعدم إذن أبويه له في الرحلة، فكان عند اذنهما[5]. وظلّ يأخذ عن

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٨).
(٢) طبع بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد، الدكن الواقعة في الهند عام ١٣٢٨ هـ.
(٣) اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر: الشوكاني (ص ٣).
(٤) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٥، ٢١٦).
(٥) انظر المصدر السابق (٢/ ٢١٨).

شيوخه مدّة حتى استوفى كلّ ما عندهم (بل انفرد بمقروءات بالنسبة إلى كلّ واحد منهم على انفراده إلّا شيخه العلّامة عبد القادر بن أحمد فإنّه مات ولم يكن قد استوفى ما عنده)[١].

وكان الشوكاني رحمه الله في أثناء دراسته يقوم بالتدريس لرفقاء التعلم، فكان يلقي ما يأخذه عن مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه، وهو لا يزال في دور الطلب الأوّل، ولذلك كانت دروسه تبلغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درساً، منها ما يأخذه عن مشايخه، ومنها ما يلقيه على تلاميذه. كما تقدّم بيانه.

وكان لم يكتف باستيفاء ما عند شيوخه من كتب، وإنّما كان يطّلع على كتب أخرى كثيرة بشكل مستقلّ عنهم، فقد تعلّم العلوم الرياضية، والطبيعية، والإلهية، وعلم الهيئة، وعلم المناظرة، وعلم الوضع وحده دون معلّم مباشر، ودرس هذه العلوم أيضاً لتلاميذه[٢].

وفي الجملة فقد درس دراسة واسعة، واطّلع على مختلف العلوم والفنون، وهذا ساعده على الاجتهاد، وعلى هجر التعصّب المذهبي، والتحرر من ربقة التقليد.

المبحث الثاني
شيوخه وتلاميذه

شيوخه:

لقد نشأ الشوكاني في مدينة صنعاء إحدى العواصم الإسلامية التي كان يوجد بها ـ حينذاك ـ عدد غير قليل من العلماء المتخصّصين في فروع

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٩).
(٢) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

علمية دينية مختلفة، مثل القراءات، والتفسير، والفقه، والأصول، والحديث، والتاريخ، والأدب، وعلوم اللغة العربية المختلفة. فكان ينهل من علومهم ما يشقّ به طريق حياته العلمية.

وقد حصرت شيوخ الشوكاني في كتابه: البدر الطالع فبلغ عددهم سبعة عشر شيخاً. وفيما يلي أذكر أسماءهم مع تاريخ ميلادهم ووفاتهم، ثمّ أترجم لأربعة منم ممن تأثّر بهم الشوكاني:

١ ـ العلامة أحمد بن عامر الحدائي (١١٢٧ ـ ١١٩٧ هـ)(١).

٢ ـ السيد العلامة إسماعيل بن الحسن بن أحمد (١١٢٠ ـ ١٢٠٦ هـ)(٢).

٣ ـ القاضي عبد الرحمن بن الحسن الأكوع (١١٣٥ ـ ١٢٠٦ هـ)(٣).

٤ ـ السيد العلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني (١١٣٥ ـ ١٢٠٧ هـ)(٤).

٥ ـ السيد علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم (١١٤٣ ـ ١٢٠٧ هـ)(٥).

٦ ـ العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي (١١٤٠ ـ ١٢٠٨ هـ)(٦).

٧ ـ العلامة القاسم بن يحيى الخولاني (١١٦٢ ـ ١٢٠٩ هـ)(٧).

٨ ـ السيد عبد الله بن الحسن بن علي (١١٦٥ ـ ١٢١٠ هـ)(٨).

---

(١) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٦٢، ٦٣).
(٢) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ١٤٥).
(٣) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٣٥).
(٤) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٨).
(٥) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤١٦ ـ ٤٢٠).
(٦) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ١٩٥ ـ ١٩٧).
(٧) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٥٣، ٥٤).
(٨) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٨٠، ٣٨١).

٩ ــ والده علي بن محمد الشوكاني (١١٣٠ ــ ١٢١١ هـ)[١].

١٠ ــ السيد عبد الرحمن قاسم المداني (١١٢١ ــ ١٢١١ هـ)[٢].

١١ ــ السيد يوسف بن محمد بن علاء الدين المزجاجي (١١٤٠ ــ ١٢١٣ هـ)[٣].

١٢ ــ العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي المعروف بالحرازي (١١٥٨ ــ ١٢٢٧ هـ)[٤].

١٣ ــ العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي (١١٥٠ ــ ١٢٢٨ هـ)[٥].

١٤ ــ السيد الحسين بن يوسف بن الحسين زبارة (١١٥٠ ــ ١٢٣١ هـ)[٦].

١٥ ــ السيد علي بن هادي عرهب (١١٦٤ ــ ١٢٣٦ هـ)[٧].

١٦ ــ الشيخ هادي بن حسين القارني ثم الصنعاني، شيخ القرّاء بصنعاء (١١٦٤ ــ ١٢٣٧ هـ)[٨].

١٧ ــ السيد يحيى بن محمد الحوثي ثم الصنعاني (١١٦٠ ــ ١٢٤٧ هـ)[٩].

---

(١) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٧٨ ــ ٤٨٥).
(٢) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٣٦، ٣٣٧).
(٣) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٥٦، ٣٥٧).
(٤) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٩٦، ٩٧).
(٥) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٧٩، ٣٨٠).
(٦) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢٣٧).
(٧) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٩٩، ٥٠٠).
(٨) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢/٣١٩، ٣٢٠).
(٩) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٤٤ ــ ٣٤٨).
وقد أخطأ صاحب: الإمام الشوكاني حياته وفكره (ص ١٧٢) حينما عدّ: أحمد بن أحمد بن مطهر القابلي (١١٥٨ ــ ١٢٢٧ هـ) شيخاً آخر للشوكاني مكرّراً لأحمد بن محمد القابلي المعروف بالحرازي، والصحيح أنّهما شخص واحد، واسمه الصحيح هو كما أثبته في رقم ١٢.

أمّا الذي تأثّر منه الشوكاني من هؤلاء في تكوين شخصيته العلمية فأبرزه:

١ ـ والده علي بن محمد الشوكاني صاحب الفضل الأوّل عليه ـ بعد المولى سبحانه ـ في توجيهه إلى طلب العلم، وتيسير أسباب الحياة له.

قال الشوكاني في ترجمته له: (نشأ بهجرة شوكان، فحفظ القرآن، ثم ارتحل إلى صنعاء لطلب العلم، فقرأ على جماعة من العلماء... وبرع في علم الفقه والفرائض، فحقّق الأزهار وشرحه لابن مفتاح وحواشيه، وبيان ابن مظفر، والبحر الزخار، ومختصر الفرائض للعصيفري، وشرحه للناظري، وشرح الخالدي، وعلم الضرب والمساحة، وقرأ في كتب الحديث، والتفسير، وفي النحو والأصول... ودرس وأفتى في صنعاء في أواخر أيام طلبه، وولاّه الإمام المهدي العباس بن الحسين القضاء بالجهات الخولانية، ثمّ اعتذر عنه، فولاّه القضاء بصنعاء المحروسة، واستقرّ بها هو وأهله، وما ترك الطلب في أيّام توليته للقضاء، ولا رغب عن التدريس للطلبة، بل كان يقرىء في مسجد صلاح الدين، وفي مسجد الأبزر في الفقه، وفي الجامع الكبير في الفرائض في شهر رمضان... ووصفه الشوكاني بأنّه على نمط السلف الصالح في جميع أحواله.. ومن عرفه حقّ المعرفة تيقّن أنّه من أولياء الله، ولقد بلغ معي إلى حدّ من البرّ والشفقة والإعانة على طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغاً عظيماً، بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب، فجزاه الله خيراً وكافاه بالحسنى، وهو زاهد من الدنيا ليس له نهمة في جمع ولا كسب، بل غاية مقصوده منها ما يقوم بكفاية أرحامه، فإنّه استمرّ في القضاء أربعين سنة وهو لا يملك بيتاً يسكنه فضلاً عن غير ذلك، بل باع بعض ما تلقّاه ميراثاً من أبيه من أموال يسيرة في وطنه، ولم يترك عند موته إلا أشياء لا مقدار لها).

قال الشوكـاني: (وقرأت عليـه رحمه الله في أيّـام الصغر في شـرح الأزهار، وشرح الناظري مع غيري من الطلبة، وهو في آخر أيّامه قرأ عليّ في صحيح البخاري، ولم يزل مستمرّاً على حـاله الجميـل معرضـاً عن القال والقيل ماشياً على أهدى سبيل حتى توفّاه الله تعالى بصنعاء في ٤ شهر ذي القعدة سنة ١٢١١ هـ)[١].

٢ ـ العلاّمة عبد القادر بن أحمد الكوكبـاني، عالم، فقيـه، محدّث، مجتهد، له كتب كثيرة[٢]. وكان من أبرز علماء اليمن في ذلك الـوقت، تلمذ في صنعـاء، وكـوكبـان، وذمـار، وزبيـد، ومكـة والمدينة، وكان أحدَ تلاميذ العـلاّمة محمـد بن إسماعيـل الأمير الصنعاني[٣]. وقد تحدّث عنه الشوكاني، فقال:

(وأقرّ له بالتفرّد في جميع أنواع العلم كلّ أحد، بعد موت شيخه السيد العلاّمة محمد بن إسماعيل بن الأمير، وأني أذكر وأنا في المكتب مع الصبيان أنّي سألت والدي رحمه الله عن أعلم من بالـديار اليمنيـة إذ ذاك، فقال: فلان، يعني صاحب الترجمة[٤]. وكان رحمه الله متبحّراً في جميع المعارف العلمية على اختلاف أنواعها، يعرف كلّ فنّ منها معرفة يظنّ من باحثه فيه أنّه لا يحسن سواه، والحاصل أنّه من عجائب الزمن ومحاسن اليمن، يرجع إليه أهل كلّ فنّ في فنّهم الذي لا يحسنون سواه فيفيدهم[٥]. وبالجملة فلم تَرَ عيني مثله في كمالاته، ولم آخذ عن أحد يساويه في مجموع علومه، ولم يكن بالديار اليمنية في آخر مدّته له نظير)[٦].

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٨٣، ٤٨٤).
(٢) تقدّم ذكر مؤلّفاته قبل قليل (ص ٤٣).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٣٦٠، ٣٦١).
(٤) المصدر السابق (١/ ٣٦١).
(٥) المصدر السابق (١/ ٣٦٣).
(٦) المصدر السابق (١/ ٣٦٢، ٣٦٣).

وتحدّث عمّا تلقّى منه من الدروس فقال:

(وأخذت عنه في علوم عدّة، فقرأت عليه في صحيح مسلم من أوّله إلى آخره بلا فوت مع بعض شرحه للنووي، وبعض صحيح البخاري مع بعض من شرحه فتح الباري، وبعض جامع الأصول لابن الأثير، وسنن الترمذي من أوّلها إلى آخرها بلا فوت، وبعض سنن ابن ماجة، وبعض الموطّأ، وبعض المنتقى لابن تيمية، وبعض شفاء القاضي عياض... وقرأت عليه في علم الاصطلاح بعض منظومة الزين العراقي، وشرحها، وفي الفقه بعض ضوء النهار، وبعض البحر الزخار، مع حواشيهما، وفي علم أصول الدين بعض المواقف العضدية، وشرحها للشريف، وبعض القلائد وشرحها، وفي أصول الفقه بعض جمع الجوامع وشرحه للمحلى، وفي اللغة بعض الصحاح، وبعض القاموس، ومؤلّفه الذي سمّاه فلك القاموس، وفي العروض الجزازية وشرحها جميعاً)[1].

وكان تأثيره في الشوكاني واضحاً، فكان ممن شجّعه على تأليف كتاب: نيل الأوطار، وفي ذلك قال الشوكاني: (وهو رحمه الله من جملة من رغّبني في تأليف شرح على المنتقى فشرعت فيه في حياته، وعرضت عليه كراريس من أوّله، فقال: إذا كمل على هذه الكيفية كان في نحو عشرين مجلّداً، وأهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلى دون هذا المقدار، ثم أرشدني إلى الاختصار، ففعلت، فكمل بحمد الله، وبيّضته في أربع مجلّدات، ولم يكمل إلّا بعد موته بنحو ثلاث سنين)[2].

وعقّب الشوكاني في ترجمته لشيخه هذا بذكر اهتمام الشيخ به وتأثيره فيه أبلغ تأثير فقال: (وقد كان رحمه الله يميل إليّ كلّ الميل، ويؤثرني أبلغ

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٦٥).

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٦٥، ٣٦٦).

تأثير، وما سألته القراءة عليه في كتاب فأبى قطّ، بل كان يبتدئني تارات، ويقول: تقرأ في كذا، وكان يبذل لي كتبه، ويؤثرني بها على نفسه، وما زال ناشراً للعلوم، قائماً بتفهيم منثورها والمنظوم حتى توفّاه الله تعالى في يوم الاثنين خامس ربيع الأوّل سنة ١٢٠٧ هـ). وقد رثاه الشوكاني بقصيدة مطلعها:

تهدم من ربع المعارف جانبه ... وأصبح في شغل عن العلم طالبه[١]

٣ ــ الحسن بن إسماعيل المغربي: نشأ بصنعاء كسلفه، وقرأ على جماعة من أعيان علماء صنعاء في عدّة فنون، كالنحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والحديث، والتفسير، والفقه، وانتفع به الطلبة في جميع هذه الفنون، وأخذ عنه أعيان العلماء وتخرّجوا به، وكان رحمه الله زاهداً ورعاً عفيفاً متواضعاً متقشّفاً لا يعدّ نفسه من العلماء، ولا يرى له حقّاً على تلامذته فضلاً عن غيرهم[٢].

وقرأ الشوكاني عليه في المطوّل وحواشيه، والعضد وحواشيه من أوّلهما إلى آخرهما، والكشّاف وبعض حواشيه من أوّله إلى آخره إلّا فوتا يسيراً، وبعض الرسالة الشمسية وشرحها للقطب، وحاشيتها للشريف، وبعض تنقيح لأنظار في علوم الحديث، وقطعة من صحيح مسلم، وقطعة من شرحه للنووي، وجميع سنن أبي داود، ومختصر المنذري عليها، وبعض شرح ابن رسلان والخطّابي لها، وشرح بلوغ المرام لجدّه إلّا قليلاً من أوائله)[٣].

ويظهر لي أنّ الشوكاني تأثّر بهذا الشيخ في تقوية حياته الروحية وفي تكوينه الخلقي، وخاصّة في الزهد والتواضع، ولذلك قال عنه الشوكاني: (إنّه

(١) المصدر السابق (١/ ٣٦٨).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٩٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٦).

من العلماء الذين إذا رأيتهم ذكرت الله عزّ وجلّ، وكلّ شؤونه جارية على نمط السلف الصالح، وكان إذا سأله سائل أحاله في الجواب على أحد تلامذته. . . واستمرّ على حاله الجميل، لا يزداد إلاّ تواضعاً وتصاغراً وتحقيراً لنفسه، وهكذا فليصنع من أراد الوصول إلى ثمرة العلم والبلوغ إلى فائدته الأخروية)[1].

وقال: (وكان رحمه الله يقبل عليّ اقبالاً زائداً، ويعينني على الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني إلى شرح المنتقى، وشرعت في حياته، بل شرحت أكثره، وأتممته بعد موته، وكان كثيراً ما يتحدّث في غيبتي أنّه يخشى عليّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه، فما أصدق حدسه وأوقع فراسته، فإنّي ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة، وتوفّي يوم الثلاثاء ثالث وعشرين ذي الحجة سنة ١٢٠٨ هـ)[2].

٤ ـ أحمد بن محمد الحرازي، وقد وصفه الشوكاني بأنّه شيخ شيوخ الفروع بلا مدافع، برز في الفقه والفرائض، وعكف عليه الطلبة وانتفعوا به، وتنافسوا في الأخذ عنه، وصارت تلامذته شيوخاً ومفتين وحكّاماً، وقد اعتمد الناس عليه في الفتوى، وقصدوه بالمشكلات من كلّ مكان، وتفرّد في معرفة الفقه، ولم يبق له الآن فيه نظير، لا في صنعاء ولا في ذمار[3].

وذكر الشوكاني أنّه قد انتفع بعلم هذا الشيخ خصوصاً في الفقه، وقد طالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة، قال:

(وقد لازمته في الفروع نحو ثلاث عشرة سنة، وانتفعت به، وتخرّجت عليه، وقرأت عليه في الأزهار وشرحه وحواشيه ثلاث دفعات، الدفعتين

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ١٩٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٩٧).
(٣) المصدر السابق (١/ ٩٦، ٩٧).

الأولبين اقتصرنا على ما تدعو إليه الحاجة، والدفعة الثالثة استكملت الدقيق والجليل من ذلك مع بحث وتحقيق، ثم قرأت عليه الفرائض للعصيفري وشرحها للناظري، وما عليه من الحواشي، وقرأت عليه بيان ابن مظفر وحواشيه، وكانت هذه القراءة قراءة بحث واتقان وتحرير وتقرير. ومات رحمه الله في شهر شوّال سنة ١٢٢٧ هـ)[١].

تلاميذه:

وقد تفقّه وتتلمذ على الشوكاني جماعة كبيرة من فضلاء العلماء وأعلام المحققين منهم: ابنه علي بن محمد علي الشوكاني (١٢١٧ ـ ١٢٥٠ هـ)[٢]، وأخوه يحيى بن علي بن محمد الشوكاني (١١٩٠ ـ ١٢٦٧ هـ)[٣]، والعلّامة عبد الرحمن بن أحمد الضمدي ثم الصبياني (١١٨٠ ـ ١٢٢٧ هـ)[٤]، والسيد عبد الله بن عيسى الكوكباني (١١٧٥ ـ ١٢٢٤ هـ)[٥]، وأحمد بن عبد الله الضمدي (١١٧٠ ـ ١٢١٢ هـ)[٦]، ومحمد بن علي بن حسين العمراني (١١٩٤ ـ ١٢٦٤ هـ)[٧]، ومحمد بن أحمد بن سعد السودي ثم الصنعاني (١١٧٨ ـ ١٢٣٦ هـ)[٨]، والعلّامة محمد بن حسن الشجني الذماري (١٢٠٠ ـ ١٢٨٦ هـ)[٩]، ومحمد بن محمد زبارة الحسيني صاحب: نيل

---

(١) المصدر السابق (١/ ٩٧).
(٢) انظر ترجمته في نيل الوطر: محمد زبارة (٢/ ١٦٢).
(٣) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٣٣٨ ـ ٣٤٠).
(٤) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣١٨ ـ ٣٢١).
(٥) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣٩١، ٣٩٢).
(٦) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٧٦، ٧٧).
(٧) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٠).
(٨) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٦).
(٩) انظر ترجمته في نيل الوطر: محمد زبارة (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩).

الوطر (ت ١٣٨١ هـ)[١]، والفقيه لطف الله بن أحمد بن لطف الله جحاف (١١٨٩ ـ ١٢٤٣ هـ)[٢]، وغيرهم كثير[٣]، وسأكتفي هنا بترجمة أربعة منهم ممن تأثّر بشيخه الشوكاني:

١ ـ محمد بن حسين الشجني الذماري (١٢٠٠ ـ ١٢٨٦ هـ) ولد بذمار[٤] ونشأ فيها وأخذ العلم عن علمائها في الفقه، والفرائض، واسمع على القاضي الشوكاني في صحيح البخاري، وفي بعض كتب الآلة، وفي السيل الجرار، وأجازه الشوكاني إجازة عامّة في رجب عام (١٢٣٩ هـ)، وقد ذكر مشايخه في كتابه: التقصار في جيد زمن علّامة الأقاليم والأمصار، وقد جعل كتابه هذا ثلاثة أقسام:

الأوّل: ذكر فيه ولادة شيخه الشوكاني، ونشأته، وكيفية طلبه للعلم، وخصاله، ومؤلّفاته، وبعض رسائله، ونظمه.

والثاني: في تراجم شيوخه.

والثالث: في تراجم تلامذته بأسلوب أدبي رائع، وله سماع في صحيح البخاري مع جماعة من علماء ذمار عند زيارة الإمام الشوكاني، وله سماعات

---

(١) انظر نيل الوطر: (٢/ ٢٩٨).
(٢) انظر ترجمته في البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٦٠ ـ ٧١)، ونيل الوطر: محمد زبارة (٢/ ١٨٩ ـ ١٩١).
(٣) وتراجمهم تملأ تقريباً كتابه: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع وكتاب: نيل الوطر في تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر لتلميذه محمد زبارة، وقد أورد صاحب: الإمام الشوكاني حياته وفكره (من ص ٢٣٨ ـ ٦٥٦) اثنين وتسعين تلميذاً من تلاميذاً الشوكاني. فليرجع إليه.
(٤) ذمار: مدينة مشهورة كبيرة جنوب صنعاء بنحو مائة كيلومتراً. البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي للقاضي إسماعيل بن علي الأكوع (ص ١٢٣ بالهامش).

في بعض كتب الآلات، وقد أجازه الشوكاني في جميع معلوماته من مسموعاته وإجازاته[1].

٢ ـ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن البهلكي الضمدي (١١٨٠ ـ ١٢٢٧ هـ) ولد بصَبْيا[2] ونشأ بها، وقرأ على والده وغيره، ثم رحل إلى صنعاء، فأخذ عن أكابر علمائها. وقد أثنى الشوكاني عليه كثيراً، خلقياً وعلمياً، فقال في ترجمته له:

(وأخذ عنّي في فنون متعدّدة، واختصّ بي اختصاصاً كاملاً، وسألني مسائل كثيرة، فأجبت عليه بأجوبة مطوّلة ومختصرة وعاد إلى وطنه وقد برع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث في أقرب مدّة لحسن فهمه وجودة تصوّره وكمال إدراكه وقوّة ذهنه، ثم ما زال بعد رجوعه إلى وطنه يكاتبني بالأشعار الرائقة، فأجيب عليه بمضمون ما يكتبه إليّ، وهو مع ذلك يتأسّف على مفارقتي، وأتأسّف على مفارقته لما بيني وبينه من المودّة الصادقة والمحبّة الزائدة التي تفوق الوصف، بل قد لا يتّفق مثلها بين الأخوين الشقيقين. وقد جرت بيني وبينه من المطارحات الأدبية نظماً ونثراً ما لا يتسع له إلاّ مجلّد، وفيه فصاحة ورجاحة مع حسن تودّد ولطافة طبع وكرم أخلاق... وقد أجزته بكلّ ما يجوز لي روايته وهو مشارك لي في السماع من أكابر شيوخي، وله قدرة على النظم والنثر، وملكة كاملة في جميع العلوم عقلاً ونقلاً، ولا يقلّد أحداً، بل يجتهد برأيه، وهو حقيق بذلك، وقد تولّى قضاء بيت الفقيه بن عجيل، وباشره مباشرة حسنة بعفّة ونزاهة وحرمة كاملة، وصدع بالحقّ بحسب الحال ومقدار ما يبلغ إليه الطاقة)[3].

---

(١) انظر نيل الوطر: محمد زبارة (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٩).

(٢) صَبْيا: من قرى عَثّر بفتح العين وتشديد الثاء المفتوحة، وهي بلدة عامرة في المخلاف السليماني البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي: للقاضي إسماعيل بن علي الأكوع (ص ١٧٣ بالهامش).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٣١٩، ٣٢٠).

٣ ـ محمد بن أحمد بن سعد السودي (١١٧٨ ـ ١٢٣٦ هـ) ولد ونشأ بصنعاء، ولازم الشوكاني منذ ابتداء طلبه إلى انتهائه، وقرأ عليه في علوم الآلة، وفي أمّهات الحديث ومسنداته، والفقه، والتفسير، وبرز في جميع ذلك[١]، فصار شيخاً مدرّساً فيها، يقرأ عليه الطلبة في جامع صنعاء في تلك الفنون على اختلافها، وكان يتأثّر بالشوكاني إلى حدّ بعيد بما تلقّى منه من العلوم المختلفة. وقد أثنى عليه الشوكاني ووصفه بأنّه (من أعيان علماء صنعاء، ومن أعظم المفيدين للطلبة، وله ذهن وقاد، وفهم إلى تصوّر الدقائق منقاد، وفكرة صحيحة، وإدراك تامّ، وعقل حسن، وعمل بما يرجّحه من الأدلّة، وطرح التقليد، ومحبّة للحقّ... وقد صار الآن قاضياً من قضاة مدينة صنعاء، وللناس إليه رغوب، وله قدرة تامّة على فصل الخصومات وإيضاح المهمّات)[٢].

٤ ـ لطف الله بن أحمد جحاف (١١٨٩ ـ ١٢٤٣ هـ) ولد ونشأ بصنعاء، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها، منهم الشوكاني، وتأثّر به كثيراً، قال الشوكاني عند ترجمته له:

(ولازمني دهراً طويلاً، فقرأ عليّ في النحو، والصرف، والمنطق، والمعاني، والبيان، والأصول، والحديث، وبرع في هذه المعارف كلّها، وصار من أعيان علماء العصر وهو في سنّ الشباب، ودرس في فنون، وصنّف رسائل أفرد فيها مسائل، ونظم الشعر الحسن وغالبه في أعلى طبقات البلاغة، وباحث كثيراً من علماء العصر بمباحث مفيدة، وقد كتب إليّ من ذلك بكثير)[٣].

---

(١) انظر أسماء الكتب التي قرأ على شيخه الشوكاني في المصدر السابق (٢/ ١٠٣، ٣٢٠).

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ١٠٤، ١٠٦).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٠، ٦١).

ووصفه الشوكاني بأنّه قويّ الادراك، جيّد الفهم، حسن الحفظ، مليح العبارة، فصيح اللفظ، بليغ النظم والنثر. وله قصيدة طويلة ذكرها الشوكاني في كتابه[1]. وله مؤلّفات كثيرة تقدّم ذكر بعضها[2].

المبحث الثالث

مؤلفاته

لقد بذل الشوكاني رحمه الله تعالى جهوداً جبّارة في مجال التأليف، فعلى الرغم من اشتغاله بالقضاء، وبالتدريس والافتاء، وبالعمل الوزاري والسياسي أحياناً فإنّ انتاجه في مجال التأليف لم يتوقّف، فلم يترك النسخ يوماً واحداً، وإذا عرض ما يمنع فَعَلَ من النسخ شيئاً يسيراً، ولو سطراً أو سطرين[3].

وكان يؤلّف كتبه لأهداف محدّدة، ليعالج مشاكل دينية، أو ليوضّح جانباً من جوانب العلوم الشرعية، ويسدّ ثغرة في مجالها، أو ليقف في وجه تيّار من تيّارات الجهالة والتعصّب، وفي ذلك قال الشوكاني وهو أحسن ما قال في هذا الصدد:

(وإنّما التصنيف الذي يستحقّ أن يقال له تصنيف، والتأليف الذي ينبغي لأهل العلم الذين أخذ الله عليهم بيانه، وأقام لهم على وجوبه عليهم برهانه، وهو أن ينصروا فيه الحقّ، ويخذلوا به الباطل، ويهدموا بحججه أركان البدع، ويقطعوا به حبائل التعصّب، ويوضّحوا فيه للناس ما نزل إليهم من البيّنات والهدى، ويبالغوا في إرشاد العباد إلى الانصاف، ويحبّبوا إلى قلوبهم العمل بالكتاب والسّنة، وينفّروهم من اتّباع محض الرأي، وزائف

---

(١) انظر المصدر السابق (٢/ ٦٢ ـ ٦٨).

(٢) انظر صفحة ٤٤.

(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٤٢٠).

المقال، وكاسد الاجتهاد، ولا يمنعهم من ذلك ما يخيّله لهم الشيطان ويسوّله من أنّ هذا التصنيف لا ينفق عند المقلدة، أو يكون سبباً لجلب فتنة، أو نزول مضرّة، أو ذهاب جاه، أو مال، أو رئاسة، فإنّ الله ناصر دينه، ومتمّم نوره، وحافظ شرعه، ومؤيّد من يؤيّده، وجاعل لأهل الحقّ، ودعاة الشرع، والقائمين بالحجة، سلطاناً وأنصاراً وأتباعاً، وإن كانوا في أرض قد انغمس أهلها في موجات البدع، وتكسّعوا[1] في متراكم الضلال)[2].

وقد تحدّث الشوكاني عن مؤلّفاته باعتزاز يدلّ على مدى عنايته بها، فقد أورد طائفة منها في كتابه: البدر الطالع بلغ عددها ستة وتسعين كتاباً ورسالة[3]. وقال في نهاية استعراضه لمؤلّفاته: (هذا ما أمكن خطوره بالبال حال تحرير هذه الترجمة، ولعلّ ما لم يذكر أكثر مما ذكر)[4]. وقد أضاف محمد زبارة أحد تلامذته سبعة كتب أخرى في الهامش[5].

وسأكتفي هنا بذكر المطبوعات من مؤلّفاته، أمّا المخطوطات منها فهي كثيرة جداً، وسأكتفي بذكر أهمّها، ولمن شاء الاستقصاء فليرجع إلى كتاب: الإمام الشوكاني حياته وفكره. للباحث اليمني الدكتور عبد الغني قاسم غالب الشرجي[6]، فإنّه قام باستقصاء مؤلّفات الشوكاني، وقد بلغت (٢٧٨ مؤلّفاً) وجلّها لا يزال مخطوطاً، وقدّر عدد المفقود منها فبلغ ما لا يقلّ عن سبعين بحثاً ورسالة. ولا يزال المجال مفتوحاً أمام الباحثين وروّاد العلم والمعرفة للتنقيب عن سائر مؤلّفاته، وتسهيل السبل إلى طبعها حتى يتحقّق النفع بها. والله الموفّق.

---

(١) جاء في اللسان: تكسّع في ضلاله أي ذهب (٨/ ٣١١ مادة: كسع).
(٢) أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٠٦، ١٠٧).
(٣) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٩ ـ ٢٢٣).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣).
(٥) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٦) صفحة ١٩٤ ـ ٢٢٩.

مؤلّفاته المطبوعة[1]:

١ ـ اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر[2] الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الهند سنة ١٣٢٨ هـ. وقد فرغ من تأليفه في (١٥ جمادى الآخرة عام ١٢١٤ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٢ ـ أدب الطلب ومنتهى الأرب[3] ط/ مكتبة الساعي بالرياض، بتحقيق/ محمد عثمان الخشت. وقد ألّفه في (سنة ١٢١٦ هـ) على وجه التقريب.

٣ ـ إرشاد الثقات إلى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات[4] ط/ دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م. وقد فرغ من تحريره في (٢٧ ربيع الآخر عام ١٢٣١ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٤ ـ إرشاد السائل إلى دلائل المسائل[5] ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ضمن رسائل أخرى تحت عنوان: الرسائل السلفية، عام ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠ م.

٥ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول[6] ط/ دار المعرفة، بيروت، وقد فرغ من تأليفه في (محرم عام ١٢٣٠ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

---

(١) وقد رتبتها على حسب الحروف الهجائية، والطبعة التي ذكرتها هي التي اعتمدت عليها في هذا البحث.

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤١٨).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣ في الهامش).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٢٢٢).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣).

٦ ــ إشكال السائل في الجواب عن تفسير تقدير القمر منازل، ط/ دار النهضة العربيــة، القاهــرة، ضمن رسائـل أخرى بعنـوان: أمناء الشريعة، الرسالة الحاديـة عشرة، بتحقيق: د/ إبـراهيم إبراهيم هلال.

٧ ــ أطفــال المسلمين فـي الجنــة، ط/ دار الهـجــرة، صنعــاء ١٤١٠ هـ/١٩٨٩ م تحقيق/ محمد صبحي حسن حلاق[(١)].

٨ ــ الايضاح لمعنى التوبة والاصلاح، ط/ دار النهضة العربية، ضمن مؤلّف أمناء الشريعة الرسالة السابعة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

٩ ــ بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء، ط/ دار النهضة العـربية، ضمن: أمنـاء الشريعـة، الـرسـالـة الثـانيـة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١٠ ــ بحث في أنّ إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمنـاء الشريعـة، الرسـالة السـادسة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١١ ــ بحث في الكلام على أمناء الشريعة، ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الثانية عشرة ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١٢ ــ بحث في وجوب محبّة الله عزّ وجلّ. ط/ دار النهضة العربيـة

---

(١) قال المحقّق (ص١٧): الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل للإمام محمد بن علي الشوكاني، وليس لها عنوان في المخـطوط. قلت: ولعلّها هي: بحث في أطفـال المشركين. الذي ذكر صاحب: الإمام الشوكاني حياته وفكره. ضمن مخطوطاتـه. (١١٢).

ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة الأولى، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١٣ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع[١]. ط/ دار المعرفة، بيروت، وقد فرغ من تأليفه في (٢ شهر ذي الحجة ١٢١٣ هـ) وكان مدّة جمعه نحو أربعة أشهرٍ وليال يسيرة، كما نصّ على ذلك في آخر الكتاب.

١٤ ـ تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين[٢]. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥ ـ التحف في مذاهب السلف. ط/ دار الكتب العلمية بيروت ١٣٤٨ هـ/١٩٣٠ م، مع رسائل أخرى تحت عنوان: الرسائل السلفية. وتوجد المخطوطة ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، المكتبة الشرقية، وفيها أنّه انتهى من تحريرها في ربيع الآخر ١٢٢٨ هـ وهي بخطّ الإمام الشوكاني[٣].

١٦ ـ تنبيه الأفاضل على ما ود في زيارة العمر ونقصه من الدلائل. ط/ دار النهضة العربية، ضمن مؤلّف أمناء الشريعة، الرسالة الخامسة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١٧ ـ جواب السائل عن تفسير تقدير القمر منازل[٤]. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة العاشرة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال. وحرّره في (١٧ شهر ذي القعدة ١٢١٢ هـ) ما نصّ في آخر الرسالة.

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٩).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣) في الهامش.
(٣) انظر: الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم الشرجي (ص ١٩٥).
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٤٤٧)، (٢/ ٢٢٢).

١٨ ــ جواب السؤال عن الصبر والحلم. ط/ دار النهضة العربية، ضمن: أمناء الشريعة، الرسالة الثامنة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

١٩ ــ جواب سؤال عن نكتة التكرار في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾ [الزمر: ١١، ١٢]. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة التاسعة ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

٢٠ ــ جواب سؤال يتعلّق بما ورد فيما أظهر الخضر. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الثالثة ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

٢١ ــ جواب عن سؤال: كيف أنّ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] واقعة في موقع الدليل. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الرابعة ضمن: أمناء الشريعة، تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

٢٢ ــ الدراري المضيئة شرح الدرر البهية[١] ط/ مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٣ ــ درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة[٢] ط ١/ دار الفكر، دمشق ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م بتحقيق: د/ حسين بن عبد الله العمري. وقد فرغ المؤلّف من كتابته في (١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٤١ هـ)[٣].

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٩).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣ في الهامش).
(٣) انظر قطر الولي على حديث الولي: تحقيق: د. إبراهيم إبراهيم هلال (ص ٥٢)، والإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم الشرجي (ص ٢٢١)، ومقدّمة المحقّق لدرّ السحابة (ص ١٥، ٢١).

٢٤ ـ الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد[١]. ط/ مكتبة الصحابة الإسلامية، الكويت، وطبع أيضاً ضمن الرسالة السلفية.

٢٥ ـ الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل. ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية.

٢٦ ـ رفع الريبة عن ما يجوز وما لا يجوز من الغيبة. ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية.

٢٧ ـ السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار[٢]. ط ١/ دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م، بتحقيق/ محمود إبراهيم زايد. وقد انتهى من تأليفه في (١٢٣٥ هـ)[٣].

٢٨ ـ شرح الصدور في تحريم رفع القبور[٤]. ط/ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية.

٢٩ ـ العقد الثمين في إثبات وصاية أمير المؤمنين. ط/ المطبعة المنيرية، القاهرة ١٣٤٨ هـ، ضمن مجموعة الرسائل اليمنية، الرسالة الثانية، وهو من أوائل الكتب التي صنّفها الشوكاني. وقد انتهى من تأليفه في (٢٩ شعبان ١٢٠٥ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٣٠ ـ عقود الزبرجد في جيد مسائل علاّمة الضمد[٥] ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الرابعة عشرة ضمن: أمناء الشريعة بتحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢)، وتحفة الذاكرين (ص ٥٩).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٣).
(٣) انظر مقدّمة المحقّق للكتاب (١/ ٤٢).
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٣ في الهامش).
(٥) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٧٧) و(٢/ ٢٢٠).

٣١ ــ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير[١]. ط/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤ م. وقد انتهى من تأليفه في (٢٨ شهر رجب ١٢٢٩ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٣٢ ــ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[٢]. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، بتحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، وعبد الوهّاب عبد اللطيف. وهو من أواخر الكتب التي صنّفها الشوكاني. وقد انتهى من تأليفه في (١٤ شهر جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٣٣ ــ قطر الولي على حديث الولي[٣]. ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، بتحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال. وقد انتهى من تأليفه في (٧ شهر ذي القعدة ١٢٣٩ هـ) كما نصّ في آخر الكتاب.

٣٤ ــ القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد[٤]. ط/ مكتبة القرآن، القاهرة، تحقيق: محمد عثمان الخشت. وطبع أيضاً ضمن الرسائل السلفية.

٣٥ ــ كشف الشبهات عن المشتبهات عمّا جاء في حديث الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات[٥]. ط/ سنة ١٣٤٠ هـ دار الكتب العلمية، ضمن الرسائل السلفية.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٢٢).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢١٩).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢٣ في الهامش).
(٤) المصدر السابق (٢/٢٢٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤١٨).
(٥) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢) باسم: تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام.

٣٦ ـ المسك الفايح في حط الجوايح. ط/ دار النهضة العربية، الرسالة الثالثة عشرة ضمن: أمناء الشريعة، بتحقيق. د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

٣٧ ـ نيل الأوطار شرح المنتقى الأخبار[١]. ط/ مكتبة الكليات الأزهرية، بتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى محمد الهواري. وهو من أوائل الكتب التي صنّفها الشوكاني. وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢١٠ هـ[٢].

بعض مؤلّفاته المخطوطة:

١ ـ إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي. ألّفه في سنة (١٢٠٨ هـ)[٣]، مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بصنعاء، ضمن مجموع (٨٣) (ص ٨٠ ـ ٩١)[٤].

٢ ـ إفادة السائل في العشر المسائل. ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية[٥] ـ.

٣ ـ إيضاح القول في إثبات العول[٦]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥٠) (ص ٢٢٣ ـ ٢٥٨)[٧].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢١٩).
(٢) قال في ترجمة شيخه: عبد القادر الكوكباني (١١٣٥ ـ ١٢٠٧ هـ) أنّه شرع في تأليف الكتاب في حياته، ولم يكمل الّا بعد موته بنحو ثلاث سنين. (انظر: البدر الطالع ١/ ٣٦٦) وقد تقدّم هذا النص عند ترجمتي للشيخ المذكور.
(٣) البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٢٣٤) و(٢/ ٢٢١).
(٤) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٠٤).
(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٦) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢).
(٧) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٠٥).

٤ ـ بحث في حديث لعن اليهود لاتخاذ قبور أنبيائهم مساجد. موجود في مجموع للشوكاني يحوزه يحيى محمد شرف الدين كوكبان. حرّره في (٦ من جمادى الأولى ١٢٠٩ هـ)[١].

٥ ـ بحث في الردّ على من قال إنّ علوم الناس تسلب عنهم في الجنة. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ مجموع (١) (ص ٣٦، ٣٧) حرّره الشوكاني في (٩ شوال ١٢٤٥ هـ)[٢].

٦ ـ بحث في العمل بقول المفتي. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٦) بخط الإمام الشوكاني، بدون تاريخ[٣].

٧ ـ بحث في الصلاة على النبي ﷺ[٤]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١): (ص ٩٥ ـ ٩٨) بخطه، بدون تاريخ[٥].

٨ ـ بحث في كلام على حديث إذا اجتهد المجتهد فأصاب. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥٠) (ص ٨٦ ـ ٨٩) بخطه، بدون تاريخ[٦].

٩ ـ بحث في كون أسباب التفرّق في الدين هو علم الرأي. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥) بخطه، بدون تاريخ[٧].

---

(١) المرجع السابق (ص ٢١٥).
(٢) المرجع السابق (ص ٢١٤).
(٣) المرجع السابق (ص ٢١٧).
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٣٠١).
(٥) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢١٣).
(٦) المرجع السابق (ص ٢١٢).
(٧) المرجع السابق (ص ٢١٧).

١٠ ـ بحث في مؤاخاته ﷺ بين الصحابة رضي الله عنهم مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢١٧ ـ ٢٢٠) بدون تاريخ[١].

١١ ـ بحث في مستقرّ أرواح الأموات. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (٧) (ص ٩١ ـ ٩٤) بخطه، بدون تاريخ. والشرقية ضمن مجموع (٥٩)[٢].

١٢ ـ بحث في النهي عن مودّة اخوان السوء. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٢٩ ـ ٢٣١) بخطه، بدون تاريخ[٣].

١٣ ـ بحث في وجود الجنّ. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣١ ـ ٢٣٣) بخطه، بدون تاريخ[٤].

١٤ ـ البغية في مسألة الرؤية[٥] مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم ـ توحيد ـ (٢٣ ورقة) وهي مصوّرة من مكتبة دار العلوم ـ ندوة العلماء بلكنا وبدون تاريخ.

١٥ ـ تشنيف السمع بإبطال أدلّة الجمع (أي الجمع بين الصلاتين في الحضر)[٦].

١٦ ـ تشنيف السمع بجواب المسائل السبع. مكتبة الجامع الكبير

---

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢١٢).
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٤) المرجع السابق (ص ٢١٧).
(٥) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١)، ونيل الأوطار له (٣/ ١٥٣)، وفتح القدير له (٥/ ٣٤٠).
(٦) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٠).

ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ١٠٤ ـ ١١٤) بخطه، بدون تاريخ[١].

١٧ ـ تنبيه ذوي الحجا على حكم بيع الرجا[٢]. مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (٩٠٢) ميكروفيلم.

١٨ ـ التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح[٣]. ألّفها عام (١٢١٨ هـ) ونقلت بقلم علي بن علي الشوكاني في شهر رجب (١٣٣٢ هـ) كما نصّ في آخرها، وتوجد صورة منها في مكتبة الشيخ حماد الأنصاري بالمدينة المنورة.

١٩ ـ جواب سؤال في نجاسة الميتة. مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ١٣٨ ـ ١٤١) وهو منقول بدون تاريخ[٤].

٢٠ ـ جواب سؤال ورد من كوكبان عن فوائد الأحاديث التي وردت في فضائل سور وآيات القرآن. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١) (ص ١٣ ـ ١٧) وقد حرّره في جمادى الآخرة ١٢٤٤ هـ[٥].

٢١ ـ جواب سؤال وردت من أبي عريش حول الأعراف السائدة في الأعراس أو عند قدوم المسافر وفي غيرها من المناسبات. مكتبة

---

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (٢١٩).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢٢).
(٤) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٠).
(٥) المرجع السابق (ص ٢١٩).

الجامع الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٠٩ ـ ٢١٤)[١].

٢٢ ـ حلّ الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال[٢]. مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (٩٠١) ميكروفيلم ـ المناظرة ـ (٤ أوراق) وهي مصوّرة من مكتبة ندوة العلماء بلكنا والهند، وتاريخ الخط ١٢٠٩ هـ بعنوان: ازالة الاشكال في إجبار... الخ.

٢٣ ـ دفع الاعتراض على إيضاح الدلالات[٣]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥) (ص ٨٩ ـ ٩٦) بدون تاريخ[٤].

٢٤ ـ رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجل[٥]. مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (٩٢٥) و(٧٢٤) ميكروفيلم ـ توحيد (١١ ورقة) وهي المسألة الأولى ضمن مؤلّفه: العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير (في التوحيد وفاتحة الكتاب) (مخطوط)[٦] ويليها مسألة خلق أفعال العباد، وتاريخ تأليفه (شوال ١٢٢٢ هـ). كما نصّ في آخره.

٢٥ ـ رسالة عن حكم الإسلام في قضاء ديون الميت من قبل ولده

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص ٢٢١).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١ وأيضاً ١/ ٣٩١).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢٢).
(٤) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص ٢٢١).
(٥) المرجع السابق (ص ٢٢٤).
(٦) انظر مقدّمة الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال لكتاب قطر الولي على حديث الولي للشوكاني (ص ٥٧).

وأقاربه، مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٥٠) (ص ١٢٥ ـ ١٢٨) بدون تاريخ[1].

٢٦ ـ رسالة في حكم الجهر بالذكر[2].

٢٧ ـ رسالة في حكم المخابرة[3] رسالة رقم (٢) ضمن مجموع (١٥٠) (ص ١٢٠ ـ ١٢٤) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ حرّرها الشوكاني يوم الثلاثاء جمادى الأولى ١٢٠٢ هـ[4].

٢٨ ـ رسالة في لحوق ثواب القراءة المهداة من الأحياء إلى الأموات[5].

٢٩ ـ رسالة الوشي المرقوم في تحريم التحلي بالذهب على العموم[6]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ رقم (٣٢) مجموع (١٥٠) (ص ١٨٢ ـ ١٨٨) حرّرها في جمادى الأولى سنة ١٢٢٤ هـ[7].

٣٠ ـ رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١) (ص ٢٨ ـ ٣٥) بدون تاريخ[8].

٣١ ـ رفع البأس عن حديث النفس والهمّ والوسواس، مكتبة الجامع

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص ٢٢٢).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢١).
(٤) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٢).
(٥) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١).
(٦) المصدر السابق (٢/ ٢٢٢).
(٧) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د/ عبد الغني قاسم (ص ٢٢٣).
(٨) المرجع السابق (ص ٢٢٢).

الكبير ـ الشرقية ـ ضمن مجموع (٥٩) (ص ١٤٦ ـ ١٥٣) بخطه[١].

٣٢ ـ رفع الخصام في الحكم بالعلم من الأحكام[٢]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ رقم (٤٠) مجموع (١٥٠) (ص ٢٣١ ـ ٢٣٧) حرّرها في (٢٢ رمضان ١٢١٥ هـ)[٣].

٣٣ ـ زهر النسرين الفائح بفضائل العمرين[٤] (أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما).

٣٤ ـ سؤال في التحليل لإسقاط الشفعة. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ مجموع (١) (ص ١٥ ـ ١٧) بدون ترقيم وبدون تاريخ ـ منقول[٥] ـ .

٣٥ ـ سؤال عن الوصية للوارث. مكتبة الجامع الكبير الشرقية مجموع (٥٠) بحث رقم (٢٤) بدون ترقيم، بدون تاريخ[٦].

٣٦ ـ سؤال هل يجوز قضاء المقلّد أم لا. مكتبة الجامع الكبير الشرقية مجموع (٥٠) بحث رقم (٢٨) بدون ترقيم وبدون تاريخ[٧].

٣٧ ـ الصوارم الحدّاد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتّحاد[٨].

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٢٣).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢).
(٣) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص ٢٢٢).
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١).
(٥) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص ٢٢٥).
(٦) المرجع السابق (ص ٢٢٦).
(٧) المرجع السابق (نفس الصفحة).
(٨) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢)، وأدب الطلب: الشوكاني (ص ٢٢١) قال: وللردّ على هؤلاء (المتصوّفة) جمعت الرسالة التي سمّيتها: الصوارم الحداد. هي من المجموعات التي جمعتها في أيّام الحداثة وأوائل الشباب.

مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم مناظرة (١٦ ورقة) وهي مصوّرة من مكتبة ندوة العلماء بلكنا والهند، وتوجد بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١٠٩) (ص ١ ـ ٢٢) وحرّرها في يوم (الاثنين رجب ١٢٠٥ هـ)[١].

٣٨ ـ الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الهندية[٢].

٣٩ ـ طيب الكلام في تحقيق لفظ الصلاة على خير حملته الأقدام. مكتبة الجامع الكبير الغربية ضمن مجموع (١) (ص ٢٥ ـ ٢٧)، حرّرها في (١٢٤٥ هـ) بخطّه[٣].

٤٠ ـ عقود الجمان في شأن حدود البلدان وما يتعلق بها من الضمان[٤]. ضمن مجموع (١٥٠) رقم (٢٨) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ حرّره (يوم الاثنين ذي الحجة ١٢١٢ هـ ونقل منه في جمادى الأولى ١٣٢٧ هـ[٥].

٤١ ـ فتح القدير في الفرق بين المعذرة والتعذير[٦]. ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ حرّرها في (ربيع الآخر ١٢١٤ هـ)[٧].

٤٢ ـ القول الحسن في فضائل أهل اليمن. بحث رقم (٣٩) ضمن

---

(١) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (٢٠٥، ٣٢٧).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٠).
(٣) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٢٦).
(٤) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢١).
(٥) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٢٦).
(٦) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٢).
(٧) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٢٦).

مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخطه بدون تاريخ[١].

٤٣ ـ القول الصادق في إمامة الفاسق[٢].

٤٤ ـ القول المقبول في ردّ خبر المجهول من غير صحابة الرسول[٣]. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ ضمن مجموع (٢٥٠) وقد انتهى من تحريره (يوم الأحد ٣ ربيع الأوّل ١٢٠٦ هـ) وهي نسخة منقولة[٤].

٤٥ ـ كشف الأستار عن حكم الشُّفْعة بالجوار. ضمن مجموع (١٥٠) رقم (٣٧) (ص ٢١٠ ـ ٢١٣) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بدون تاريخ، منقولة[٥].

٤٦ ـ كشف الأستار في إبطال كلام من قال بفناء النار[٦]. ضمن مجموع (٥٩) رقم (٢٢) (ص ١٦١ ـ ١٧١) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخط الشوكاني، بدون تاريخ[٧].

٤٧ ـ نزهة الأبصار في التفاضل بين الأذكار. مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ مجموع (١) (ص ٩٩ ـ ١٠٤) بدون تاريخ[٨].

٤٨ ـ نزهة الأحداق في علم الاشتقاق. مكتبة الجامع الكبير

---

(١) المرجع السابق (ص/ ٢٠٤).
(٢) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢٢٠).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢١).
(٤) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٠٨).
(٥) المرجع السابق (ص/ ٢٢٧).
(٦) أشار إليه الشوكاني تلميحاً في تفسير: فتح القدير (٥٢٥٢).
(٧) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٢٧).
(٨) الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم (ص/ ٢٢٨).

ـ الغربية ـ ضمن مجموع (١) (ص ١ ـ ١٢) بدون تاريخ، وفي مجموع (٥٠) بحث رقم (١٦) انتهى من تحريره في ربيع الآخر ١٢٤٣ هـ[١].

٤٩ ـ وبل الغمام حاشية على شفاء الأوام للأمير حسين بن محمد، رقم (٣٤٣) فقه مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية[٢] ـ .

٥٠ ـ هفوات الأئمة الأربعة[٣].

وغير ذلك من كتبه الكثيرة التي صنّفها في فنون مختلفة، مما يدلّ على ما كان عليه الشوكاني من تنوّع في الثقافة واتّساع فيها.

قال صاحب معجم المؤلّفين يعرّفه: (مفسّر، محدّث، فقيه، أصولي، مؤرّخ، أديب، نحوي، منطقي، متكلم، حكيم)[٤].

ويتميّز أسلوب الشوكاني في التأليف بصفة عامة بوضوح العبارة، ودقّة التعبير، ويغلب على كتاباته روح الموضوعية وعدم التعصّب، ويشوب أسلوبه في كثير من الأحيان لون من الحماسة والعاطفة الجياشية، وهذا يرجع في نظري إلى طبيعة حياته العلمية التي كانت مليئة بالمناظرات والمناقشات مع المقلّدين والمتعصّبين من الفرق المختلفة، ونلمس في هذا اللون لهجة مريرة وشديدة في أسلوبه النقدي، وربّما مكّنه من ذلك منصبه الكبير الذي تولّاه وهو منصب قضاء اليمن العام. والله أعلم.

---

(١) المرجع السابق (نفس الصفحة).
(٢) المرجع السابق (نفس الصفحة).
(٣) المرجع السابق (ص/ ٢٢٩)، وانظر مقدمة الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال لكتاب: قطر الولي (ص ٦٠)، والإمام الشوكاني مفسّراً للدكتور محمد حسن الغماري (ص ٩٥).
(٤) معجم المؤلّفين: محمد رضا كحالة (١١/ ٥٣).

قائمة كتب الشوكاني التي اعتمدت عليها
في هذا البحث ووقفت على تاريخ تأليفها

التسلسل	اسم الكتاب	تاريخ فراغه من التأليف
١	العقد الثمين في إثبات وصاية أمير المؤمنين	٢٩ شعبان ١٢٠٥ هـ
٢	نيل الأوطار شرح المنتقي الأحبار	١٢١٠ هـ
٣	جواب المسائل عن تفسير تقدير القمر منازل	١٣ ذو القعدة ١٢١٢ هـ
٤	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع	٢ ذو الحجة ١٢١٣ هـ
٥	اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر	١٥ جمادى الآخر ١٢١٤ هـ
٦	كشف الشبهات عن المشتبهات	٩ محرم ١٢١٥ هـ
٧	أدب الطلب ومنتهى الأرب	١٢١٦ هـ
٨	التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر...	١٢١٨ هـ
٩	العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير	شوال ١٢٢٢ هـ
١٠	التحف في مذاهب السلف	ربيع الآخر ١٢٢٨ هـ
١١	فتح القدير	٢٨ رجب ١٢٢٩ هـ
١٢	إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول	٤ محرم ١٢٣١ هـ
١٣	إرشاد الثقات إلى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات	٢٧ ربيع الآخر ١٢٣١ هـ
١٤	السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار	١٢٣٥ هـ
١٥	قطر الولي على حديث الولي	٧ ذو القعدة ١٢٣٩ هـ
١٦	درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة	١٣ جمادى الأولى ١٢٤١ هـ
١٧	الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة	١٤ جمادى الأولى ١٢٤٨ هـ

المبحث الرابع
مذهبه وعقيدته

تبيّن مما سبق أنّ الشوكاني رحمه الله نشأ في بيئة زيدية ودرس وتفقّه على علمائها، وقد بلغ مرتبة من النبوغ والتفوّق المبكرين جعلته يفتي وهو في العشرين من عمره[1]، ويترك التقليد ويجتهد رأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيّد وهو قبل الثلاثين[2]. أي أنّه لم يلبث أن تخلّى عن التقليد والتمذهب، وتحلّى بمنصب الاجتهاد، وأصبح لا يتقيّد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتماداً مباشراً على الكتاب والسنة، مجتهداً في فهم نصوصهما، وفي استنباط الأحكام الشرعية منها، ولو خالف مذهب الزيدية أو المذاهب الأربعة كلّها.

وقد دعا إلى مذهبه الاجتهادي وأنكر بشدّة على المقلّدين في كثير من مؤلّفاته وخاصّة في كتابه: القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد، وأدب الطلب ومنتهى الأرب، والسيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، وفي تفسيره للآيات[3].

وقرّر أنّ التقليد والانتساب إلى عالم من العلماء دون غيره، والتقيّد بجميع ما جاء به من رواية ورأي، وإهمال ما عداه، من أعظم ما حدث في هذه الملّة الإسلامية من البدع المضلّة[4]. وقد عرّف التقليد بأنّه: (قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة)[5]. أو (العمل بقول الغير من غير حجة، فيخرج

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٢١٩).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٢٤).
(٣) انظر فتح القدير في هذه الصفحات: (١/ ١٣٥، ١٦٧، ٥٢٦، ٥٢٧) و(٢/ ١٩٩، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦) و(٣/ ١٠٤، ٤١٢) و(٤/ ١٠٤، ٥٥٢، ٥٥٣).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٤٥).
(٥) القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد: الشوكاني (ص ٣٠) تحقيق/ محمد عمثان الخشت.

العمل بقول رسول الله ﷺ، والعمل بـالاجماع، والعمـل من العامي بقـول المفتي، والعمل من القاضي بشهادة الشهود العدول، فإنّها قد قامت الحجّة في جميع ذلك... ويخرج عن ذلك أيضاً قبول رواية الرواة، فإنّه قد دلّ الدليل على قبولها ووجوب العمل بها، وأيضاً ليست قول الراوي، بل قول المرويّ عنه، وهو رسول الله ﷺ)[1].

فحـاصل التقليـد: أنّ المقلّد لا يسأل عن كتـاب الله، ولا عن سنة رسوله ﷺ، بل يسأل عن مذهب إمامه فقط، فإذا جاوز ذلك إلى السؤال من الكتاب والسنة فليس بمقلّد[2].

وعلى هذا فإنّ سؤال الجاهل للعالم عن حكم الشرع في المسألة التي تعرض له، فيروي له العالم النصّ فيها من الكتاب أو السنة لا يسمّى تقليداً، بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة، والسؤال عن الحجة الشرعية. والتقليد عمل بالرأي لا بـالروايـة، وهذا الفـرق ـ كما قـال الشوكـاني ـ: (أوضح من الشمس، وإن التبس على كثير من الناس)[3].

والاجتهاد عند الشوكاني سهل ميسّر يجعله في متناول كلّ مسلم الذي يتحرّى لدينه ويملك أبسط الوسائل لفهم كتاب الله وسنّة رسـوله ﷺ. وفي ذلك يقول:

(والذي أدين الله به أنّه لا رخصة لمن علم من لغة العرب ما يفهم به كتاب الله بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف وشطر من مهمّات كلّيات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، ثم إذا

---

(١) السيل الجرار: الشوكاني (١/ ٦) تحقيق/ محمد إبراهيم زايد، وانظر أيضاً: إرشاد الفحول له (ص ٢٦٥) ط/ دار المعرفة، وفتح القدير له (٣/ ٣٩٩)، وقطر الولي له (ص ٣٢١) تحقيق/ إبراهيم إبراهيم هلال.

(٢) القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد: الشوكاني (ص ٣٠).

(٣) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٨٨).

انضمّ إلى ذلك الاطلاع على كتب السنة المطهّرة التي جمعها الأئمة المعتبرون، وعمل بها المتقدّمون والمتأخّرون، كالصحيحين وما يلتحق بهما مما التزم فيه مصنّفوه الصحّة، أو جمعوا فيه بين الصحيح وغيره مع البيان لما هو صحيح، ولما هو حسن، ولما هو ضعيف، وجب العمل بما كان كذلك من السنة، ولا يحلّ التمسّك بما يخالفه من الرأي، سواء كان قائله واحداً، أو جماعة، أو الجمهور، فلم يأت في هذه الشريعة الغرّاء ما يدلّ على وجوب التمسّك بالآراء المتجرّدة عن معارضة الكتاب أو السنة، فكيف بما كان فيها كذلك، بل الذي جاءنا في كتاب الله على لسان رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ، ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾[١]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ﴾[٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْ رَسُوْلِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] إلى غير ذلك. وصحّ عن رسول الله ﷺ «كلّ أمر ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[٤].

فالحاصل أنّ من بلغ في العلم إلى رتبة يفهم بها تراكيب كتاب الله، ويرجّح بها بين ما ورد مختلفاً من تفسير السلف الصالح، ويهتدي به إلى كتب السنة التي يعرف بها ما هو صحيح وما ليس بصحيح، فهو مجتهد لا يحلّ له أن يقلّد غيره كائناً من كان في مسألة من مسائل الدين، بل يستروي النصوص من أهل الرواية، ويتمرّن في علم الدراية بأهل الدراية، ويقتصر من كلّ فنّ على مقدار الحاجة، والمقدار الكافي من تلك الفنون هو ما يتّصل به إلى الفهم والتمييز[٥].

على أنّ الشوكاني رحمه الله لم يوجب الاجتهاد إلّا على من امتلك

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور (٣/ ١٣٤٤ برقم ١٧١٨ مكرر) ولفظه: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ).

(٥) البدر الطالع: الشوكاني (٢/ ٨٥، ٨٦).

علومه على بساطتها، أمّا من لم يملك هذه العلوم وهم السواد الأعظم فعليهم سؤال علماء الشريعة على طريقة طلب الدليل واسترواء النصّ، وكيف حكم به في محكم كتاب الله، أو على لسان رسوله ﷺ. وفي هذا يقول الشوكاني:

(على أنّي أقول بعد هذا إنّ من كان عاطلاً عن العلوم الواجب عليه أن يسأل من يثق بدينه وعلمه عن نصوص الكتاب والسنّة في الأمور التي تجب عليه من عبادة أو معاملة وسائر ما يحدث له، فيقول لمن يسأله: علّمني أصحّ ما ثبت في ذلك من الأدلّة حتى أعمل به، وليس هذا من التقليد في شيء، لأنّه لم يسأله عن رأيه، بل عن روايته، ولكنّه لمّا كان لجهله لا يفطن ألفاظ الكتاب والسنّة وجب عليه أن يسأل من يفطن ذلك، فهو عامل بالكتاب والسنّة بواسطة المسؤول)[1].

وهكذا فإنّ المسلم إمّا أن يكون عالماً قادراً على الفهم مالكاً لأداته فيجب عليه الاجتهاد ويحرم عليه التقليد، وهذا يقال له: مجتهد. وإمّا أن يكون جاهلاً عاطلاً عن مادّة الاجتهاد فيحرم عليه التقليد أيضاً، ويجب عليه السؤال ليصل إلى الدليل. وهذا يقال له: العامي. (والعامي المعتمد على السؤال ليس بمقلّد ولا مجتهد، بل عامل بدليل بواسطة مجتهد يفهمه معانيه، وقد كان غالب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين هم خير القرون من هذه الطبقة... وإذا لم يسع غير العالم في عصور الخلف ما وسعه في عصور السلف فلا وسعه الله عليه)[2].

هذا خلاصة مذهب الشوكاني في الاجتهاد والتقليد، وهو مذهب من سبقه من المجدّدين والمصلحين، كالإمام أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، والإمام مالك (ت ١٧٩ هـ)، والإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، والإمام أحمد بن حنبل

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٨٩).

(٢) المصدر السابق (نفس الجزء والصفحة)، وانظر أيضاً السيل الجرار: الشوكاني (١/ ١٣)، وقطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٣٣٣).

(ت ٢٤١ هـ)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، وتلميذه ابن القيم (ت ٧٥١ هـ)، والأربعة المجدّدين في اليمن قبله وهم: ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ)، والحسن الجلال (ت ١٠٨٤ هـ)، وصالح بن مهدي المقبلي (ت ١١٠٨ هـ)، ومحمد إسماعيل الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ)، وصاحب الدعوة السلفية في نجد الإمام محمد بن عبد الوهّاب (ت ١٢٠٦ هـ)[١].

وهذا يعني أنّ مذهبه القائم على الاجتهاد ونبذ التقليد يمثّل امتداداً لأدوار من سبقوه من أولئك الأعلام ونظرائهم.

وقد دعا الشوكاني دائماً إلى الأخذ بالدليل، وطرح ما لم يقم عليه دليل من الآراء المجرّدة، وكان يردّد كثيراً في مؤلّفاته قوله: (كلّ قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض)[٢]، وفي موضع آخر: (وكلّ ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان)[٣]، وفي موضع آخر: (والرأي إذا كان في معارضة أدلّة الكتاب والسنّة، أو كان بالخرص والظنّ مع التقصير عن معرفة النصوص، أو كان متضمّناً تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته، أو كان مما أحدثت به البدع، وغيّرت به السنن، فلا خلاف بين المسلمين في أنّه باطل، وأنّه ليس من الدين في شيء)[٤].

وعلى هذا خالف الشوكاني مذهب قومه في مسائل كثيرة جدّاً، منها

---

(١) عاصر الشوكاني (١١٧٣ ـ ١٢٥٠ هـ) الإمام محمد بن عبد الوهّاب بـ (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ) وكان ابن عبد الوهّاب أكبر بثمان وخمسين سنة، وأنّه توفّي والشوكاني سنه إذ ذاك ثلاث وثلاثون، وعاش بعد وفاة ابن عبد الوهّاب أربعاً وأربعين عاماً. رحمهما الله تعالى.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٦٠).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٦٧).

(٤) بحث في كون سبب التفرّق هو علم الرأي: الشوكاني (ورقة ٢) (مخطوط) في ثلاث ورقات ويوجد بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع (٥٩) بخط الشوكاني، بدون تاريخ وانظر أيضاً قطر الولي علي حديث الولي: الشوكاني (ص ٣٢٠).

مسائل فروعية، والبعض أصولية، لا يتسع هذا المقام لبسطها، وأكتفي بذكر بعض الأمثلة باختصار، ولمن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب: السيل الجرار الذي هو من أواخر مؤلّفاته، فإنّه نقد دقيق لكتاب الأزهار الذي وصفه الشوكاني بأنّه عمدة زيدية اليمن في جميع جهاته(١).

١ ــ خالف الزيدية في مفهوم أهل البيت، حيث يرى أنّه شامل لجميع زوجات النبي ﷺ ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، ويرى الزيدية أنّه خاصّ بعلي وفاطمة والحسن والحسين(٢).

٢ ــ خالف الزيدية في شروط الإمامة، حيث يرى صحّة الإمامة في سائر بطون قريش، ويوجب الزيدية أن تكون من بيت علي وفاطمة(٣).

٣ ــ خالف الزيدية في جوازهم الخروج على السلطان الظالم، ورأى وجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء وعدم الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة وما لم يظهر منهم الكفر البواح، وما لم يأمروا بمعصية الله(٤).

٤ ــ خالف الزيدية في جوازهم بناء القباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك دون غيرهم(٥).

٥ ــ أنكر بشدّة على الزيدية التي فرضت وسنّت الأمور الآتية:

---

(١) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١/ ١٢٣).
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٢٧٨ ــ ٢٨٠).
(٣) انظر السيل الجرار: الشوكاني (٤/ ٥٠٦، ٥٠٧).
(٤) انظر المصدر السابق (٤/ ٢٧٦، ٥٠٩)، ونيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٣٩، ٤٠)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٣٠، ٥٣١).
(٥) انظر السيل الجرار: الشوكاني (١/ ٣٦٧، ٣٦٨)، وانظر أيضاً شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص ١١، ١٢) ضمن الرسائل السلفية.

(أ) عدم صحة صلاة الجمعة بدون إمام عادل من أهل البيت[1].

(ب) فرضهم: حيّ على خير العمل. في لفظ الأذان والإقامة[2].

(ج) صيام يوم الشكّ[3].

(د) الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وصلاتي المغرب والعشاء، بدون عذر[4].

(هـ) غسل الفرجين عضواً من أعضاء الوضوء[5].

أمّا مذهبه في الاعتقاد ــ وهو موضوع بحثنا هذا ــ فهو مـذهب أهل السنة والجماعة إلاّ في مسائل قليلة جدّاً كما سيتبيّن من خلال هذا البحث.

وقد نهج منهج السلف الصالح في فهم الكتاب والسنة، وصرّح بأنّه: (لا ينبغي لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلّة الكتاب والسنة، وإبراز الصفات كما جاءت، وردّ علم المتشابه إلى الله سبحانه، وعدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدوّنة في هذا العلم (أي علم الكلام) المبنية على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت إلاّ بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى، ولا سيّما إذا كانت مخالفة لأدلّة الشرع الثابتة في القرآن والسنّة، فإنّها حديث خرافة ولعبة لاعب، فلا سبيل للعباد يتوصّلون به إلى معرفة ما يتعلّق بالربّ سبحانه، وبالوعد والوعيد، والجنة والنار، والمبدأ والمعاد، إلاّ ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وليس للعقول وصول إلى تلك الأمور)[6].

---

(١) انظر السيل الجرار: الشوكاني (١/ ٢٩٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠٥).

(٣) انظر المصدر السابق (٢/ ١١٥).

(٤) انظر المصدر السابق (١/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) انظر المصدر السابق (١/ ٧٥، ٧٦).

(٦) أدب الطلب: الشوكاني (ص ١٤٦).

وقد وصف رحمه الله أهل السنة بأنّهم: (من كان على النمط الذي كان عليه الصحابة)[1]، وأنّهم الفرقة الناجية التي ليست بعض هذه المذاهب الإسلامية على التعيين، بل هم من تمسّك بالشريعة المطهّرة، واهتدى بهدي المصطفى ﷺ على أيّ مذهب كان، وفي أي عصر وجد، وليست فرقة معيّنة كما وقع لكثير من المتعصّبين من ادّعاء أنّها فرقته[2].

وقد بيّنت فيما سبق موقفه من الفرق المختلفة في عصره مما يدلّ على أنّه على مذهب السلف أهل السنة، غير أنّي وقفت على ثلاثة أمور يجب أن أتحدّث بها في هذا المقام.

١ ـ إثباته الوصاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أفرد الشوكاني لهذا الموضوع رسالة خاصّة سمّاها: العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين[3] وهو من أوائل الكتب التي صنّفها كما أثبته في القائمة. وألخّص ما في الرسالة في ثلاث نقاط رئيسية:

١ ـ إنّه خالف عائشة رضي الله عنها في انكارها صدور الوصية من رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب كما ثبت في الحديث[4].

---

(١) بحث في كون سبب التفرّق هو علم الرأي: الشوكاني (ورقة ١) (مخطوط).

(٢) انظر البدر الطالع: الشوكاني (١/ ٨٣) قاله عند ترجمة السيد أحمد بن علي بن محسن المتوكّل ردّاً على ادّعائه أنّ الفرقة الناجية هم فرقة معينة.

(٣) طبعتها إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة عام ١٣٤٨ هـ ضمن مجموعة الرسائل اليمنية الرسالة الثانية.

(٤) روى البخاري بسنده عن الأسود قال: «ذكروا عند عائشة أنّ عليّا رضي الله عنهما كان وصيّاً، فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مستندته إلى صدري، أو قالت: حجري. فدعا بالطست، فلقد انْخَنَثَ في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصى إليه؟ (انظر كتاب الوصايا في الفتح ٥/ ٤٢٠ برقم ٢٧٤١). قال الحافظ ابن حجر نقلاً عن القرطبي: ((كانت الشيعة قد وضعوا أحاديث في أنّ النبي ﷺ أوصى لعلي، فردّ عليهم جماعة من الصحابة ذلك، وكذا من بعدهم، فمن ذلك ما استدلّت به عائشة، ومن ذلك أنّ عليّا لم يدع ذلك لنفسه، ولا بعد أن ولّي الخلافة، ولا ذكره أحد من=

وحجّته في ذلك أنّ قول الصحابي ليس بحجة، وأنّ المثبت أولى من النافي، وأنّ من علم حجّة على من لا يعلم، وأنّ الموقوف لا يعارض المرفوع على فرضية حجّيته[1]. قال: (إنّ عدم علم عائشة بالوصية لا يستلزم عدمها، ونفيها لا ينافي الوقوع، وغاية ما في كلامها الاخبار بعدم علمها، وقد علم غيرها، ومن علم حجّة على من لم يعلم، أو نفي الوصية حال الموت لا يلزم من نفيها في الوقت الخاصّ نفيها في كلّ وقت)[2].

٢ ـ إنّه أثبت مطلق الوصية منه ﷺ، وأورد في هذا الصدد أحاديث كثيرة في وصايا رسول الله ﷺ العامّة للمسلمين، كأداء الصلاة والزكاة، وعدم مفارقة الجماعة، والطاعة، والتحذير من الفتن، وغير ذلك[3].

٣ ـ إنّه أثبت مقيّدها يعني كونها إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأورد أحاديث كثيرة في وصايا رسول الله ﷺ لعليّ تضمّنت اهتماماته بريحانتيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، وبتغسيله، وقضاء دينه، وغيرها. وقال بعد سرد الأحاديث: (والواجب علينا الإيمان بأنّه رضي الله عنه وصي رسول الله ﷺ، ولا يلزمنا

= الصحابة يوم السقيفة، وهؤلاء (الشيعة) تنقّصوا عليّاً من حيث قصدوا تعظيمه، لأنّهم نسبوه ـ مع شجاعته العظمى وصلابته في الدين ـ إلى المداهنة والتقية والاعراض عن طلب حقّه مع قدرته على ذلك.)) ا هـ. والظاهر من الحديث السابق أنّهم ذكروا عند عائشة أنّه أوصى له بالخلافة في مرض موته، فلذلك ساغ لها انكار ذلك، واستندت إلى ملازمتها له في مرض موته إلى أن مات في حجرها ولم يقع منه شيء من ذلك. (انظر الفتح ٥/٤٢٦).

(١) العقد الثمين: الشوكاني (ص ٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٧).

(٣) المصدر السابق (ص ٦، ٧).

التعرّض للتفاصيل الموصى بها، بل قال رسول الله ﷺ أنّه وصيّه فقلنا إنّه وصيّه، ولم نتعرّض للتفصيل)[1].

هذا خلاصة ما في الرسالة. ويظهر لي من كلام الشوكاني أنّه لم يثبت الوصية بالخلافة في الحكم، وإنّما يثبت الوصايا العامّة التي أوصاها الرسول ﷺ لعليّ، وفي هذا الصدد أورد الشوكاني أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة[2] أذكر منها ثلاثة:

١ ــ عن أنس بن مالك أنّ النبي ﷺ قال: «وصيّي ووارثي ومنجز وعدي عليّ بن أبي طالب» أخرجه أحمد بن حنبل[3].

٢ ــ عن أنس أيضاً قال: (قلنا لسلمان: سَلْ رسول الله ﷺ من وصيّه؟ قال سلمان: يا رسول الله من وصيّك؟ قال: يا سلمان من كان وصيّ موسى؟ قال: يوشع بن نون، قال: فإنّ وصيّي ووارثي، يقضي ديني، وينجز موعدي، عليّ بن أبي طالب). أخرجه أحمد بن حنبل[4].

٣ ــ عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ نبي وصيّ ووارث، وإنّ

---

(١) انظر المصدر السابق (ص ٩، ١٠).
(٢) انظر المصدر السابق (ص ٨).
(٣) وهو حديث موضوع، ولم أقف عليه في مسند الإمام أحمد. قال صاحب كشف الخفاء (٢/ ٤٤٦ برقم ٢٨٩٥): موضوع. قال الصغاني في الدر الملتقط: وهو من مفتريات الشيعة. وانظر أيضاً: موضوعات الصغاني (ص ٢٧) تحقيق/ نجم عبد الرحمن خلف ط/ ١٤٠٥ هـ.
(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنّ هذا الحديث كذب وموضوع باتّفاق أهل المعرفة بالحديث، ليس هو في مسند الإمام أحمد، وليس في شيء من الكتب التي تقوم الحجة بمجرّد إسناده إليها، ولا صحّحه إمام من أئمة الحديث. (انظر منهاج السنة ٥/ ٢٣، وأيضاً ٧/ ٢٩٩ ــ ٣١٢، ــ ٣٥٤ ــ ٣٥٨). وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٧٤، ٣٧٥) وأورد له أربع طرق كلّها غير صحيحة، وفي بعضها راو من كبار الشيعة.

عليّاً وصيّي ووارثي». أخرجه أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة(1).

وعند رجوعي إلى كتاب الشوكاني الذي سمّاه: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. أجد أنّه نصّ فيه على أنّ الأحاديث في وصايا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلّها موضوعة(2). كما نصّ على حديث: (وصيّي، وموضع سرّي، وخليفتي في أهلي، وخير من أخلف بعدي علي) بأنّه موضوع لا أصل له(3)، وحديث سلمان المذكور بأنّ في إسناده متروكاً وضعيفاً(4). ونصّ على قول عليّ رضي الله عنه: (بايع الناس لأبي بكر رضي الله عنه، وأنا والله أولى منه، وأحقّ بها منه، فسمعت وأطعت مخافة أن يرجع الناس كفّاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم بايع الناس عمر، وأنا والله أولى بالأمر منه، وأحقّ منه، فسمعت وأطعت خوفاً أن يرجع الناس كفّاراً

---

(1) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (1/ 376) وقال: هذا حديث لا يصحّ. وقال الذهبي في ترجمة شريك بن عبد الله النخعي في ميزان الاعتدال (2/ 463): محمد بن حميد الرازي ــ وليس بثقة ــ حدّثنا سلمة الأبرش، حدّثنا ابن إسحاق، عن شريك، عن أبي ربيعة الأيادي، عن أبيه مرفوعاً: ((لكلّ نبي وصيّ ووارث، وإنّ عليّا وصيّي ووارثي)) قلت: هذا كذب لا يحتمله شريك. ا هـ.

(2) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص 424) قال: ومنها: وصايا علي رضي الله عنه. قال في الخلاصة: كلّها موضوعة سوى الحديث الأوّل وهو: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وقال في اللآلي: وكذا وصايا عليّ موضوعة، واتّهم بها حماد بن عمرو، وكذا وصاياه التي وضعها عبد الله بن زياد. ا هـ.

(3) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص 369) قال: رواه ابن ناصر عن سلمان مرفوعاً، قال عبد الغني: أكثر رواته مجهولون وضعفاء، وقال الجوزقاني: باطل لا أصل له.

(4) انظر المصدر السابق (نفس الصفحة) قال: ورواه ابن حبان بنحوه، وهو من نسخة موضوعة، ورواه العقيلي بلفظ: وصيّي عليّ بن أبي طالب. قال في الميزان: هذا كذب، ورواه الحاكم عن بريدة مرفوعاً، وفي إسناده وضّاع. ا هـ.

يضرب بعضهم رقاب بعض بالسيف، ثم أنتم تريدون أن تبايعوا عثمان، إذا أسمع وأطيع، إنّ عمر جعلني في خمسة نفر أنا سادسهم، لا يعرف لي فضلاً عليهم) الخ. بأنّه موضوع[1].

وكتابه: الفوائد المجموعة. من أواخر الكتب التي ألّفها، إذ ألّفه في سنة ١٢٤٨ هـ أي بعد تأليف الرسالة المذكورة بثلاث وأربعين سنة، لأنّها أُلّفت في سنة ١٢٠٥ هـ[2].

ولعلّ الشوكاني عندما ألّف الرسالة لم تنضج بعد ثقافته في علوم الحديث، ثم لمّا نضجت وأخذ خبرة ودراية بطرق الحديث وأسانيدها، والتمييز بينها ومواطن الضعف والقوّة فيها[3] ألّف كتابه الفوائد المجموعة في آخر حياته، وأورد فيه الكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وانتقدها بما يدلّ على علمه بالحديث، ومن ضمنها أحاديث في فضائل علي رضي الله عنه[4] التي أوردها في الرسالة المذكورة وفي بعض كتبه.

٢ ـ إيراده روايات ضعيفة وموضوعة في فضائل علي رضي الله عنه في بعض كتبه:

وقد أورد الشوكاني رحمه الله تعالى أيضاً روايات ضعيفة وموضوعة في فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض كتبه، ولم ينبه على ضعفها ونكارتها، وخاصّة في تفسيره فتح القدير الذي انتهى من تأليفه (سنة

---

(١) انظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ص ٣٧٠) قال: قال ابن الجوزي: موضوع. وقال في الميزان: هذا خبر منكر غير صحيح، وحاشا أمير المؤمنين من قول هذا. اهـ.
(٢) انظر القائمة التي وضعتها (صفحة ٧٧).
(٣) انظر ما قاله عن علم الحديث في أدب الطلب (ص ١٤٩).
(٤) أورد الشوكاني في هذا الكتاب (١٠٢) حديثا في علي بن أبي طالب رضي الله عنه. (انظر الفوائد المجموعة من صفحة ٣٤٢ ـ ٣٨٤).

١٢٢٩ هـ)، ودرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة الذي انتهى من تأليفه (سنة ١٢٤١ هـ).

أمّا فتح القدير فوجدت فيه ذكر هذه الروايات في ثلاث آيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[١] أورد الشوكاني فيها روايتين:

١ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢].

٢ ـ وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه تصدّق علي بخاتم وهو راكع، فقال النبي ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذاك الراكع. فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّمَا وليّكُمُ اللَّهُ ورَسُوْلُهُ﴾ الآية[٣]. ويمرّ الشوكاني على هذه الرواية ولم يعقّب عليها شيئاً، وهي ضعيفة منكرة بإجماع أهل العلم بالحديث[٤].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾ الآية[٥] أورد الشوكاني فيها روايتين:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) قال الشوكاني: أخرجه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، عن ابن عباس. وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر، عن علي بن أبي طالب نحوه. وأخرج ابن مردويه عن عمّار نحوه أيضاً. وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجاهيل عنه نحوه. (فتح القدير ٢/ ٥٣).

(٣) قال الشوكاني: أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق. (فتح القدير ٢/ ٥٣).

(٤) انظر ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الرواية بإسهاب في منهاج السنة (٢/ ٣٠، ٣٢، وـ ٧/ ٥ ـ ٣١) وقال إنّها من وضع بعض الكذّابين بإجماع أهل العلم بالنقل. وانظر أيضاً ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢/ ٧٣، ٧٤) وقد بيّن أنّ هـذه الروايات لا يصحّ شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

١ ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

٢ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: يا أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك، إنّ عليّاً مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس[٢].

ولم يعلّق الشوكاني شيئاً على هاتين الروايتين، وهما من كذب الوضّاعين كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣].

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[٤] أورد الشوكاني فيها ثلاث روايات أذكر منها اثنتين:

١ ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: (علي خير البريّة)[٥].

٢ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لعليّ: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين[٦]. ولم يعلّق عليهما شيئاً وهما من الأحاديث الموضوعة.

---

(١) قال الشوكاني: أخرجه بن أبي حاتم وابن مردويه، وابن عساكر (فتح القدير ٢/ ٦٠).
(٢) قال الشوكاني: أخرجها ابن مردويه. (فتح القدير ٢/ ٦٠).
(٣) انظر منهاج السنة (٧/ ٤٤) وقد استوفى رحمه الله الردّ على هذه الروايات (انظر ٧/ ٣١ ـ ٥١).
(٤) سورة البينة، الآية: ٧.
(٥) قال الشوكاني: أخرجه ابن عدي وابن عساكر (فتح القدير ٥/ ٤٧٧).
(٦) قال الشوكاني: أخرجه ابن مردويه (فتح القدير ٥/ ٤٧٧).

وقد ذكرهما في كتابه: الفوائد المجموعة وبيّن ما يفيد أنّهما من الموضوعة(١).

وكما ذكرته سابقاً أنّ كتاب الفوائد من أواخر الكتب التي ألّفها الشوكاني، إذ ألّفه في سنة (١٢٤٨ هـ) أي بعد تفسيره فتح القدير الذي ألّفه سنة (١٢٢٩ هـ) بخمس عشرة سنة، وهذا يدلّ على تطوّره في علوم الحديث، إذ لم يتبيّن له في تفسيره ما في هذه الروايات من النكارة ثم لما تبيّن له ذلك بيّنها في كتابه الفوائد، ولسبب من الأسباب الله أعلم بها قد فاته في كتابه هذا ذكر الروايات السابقة مع وضوحها في نكارتها، وما أظنّ أنّ المجتمع الزيدي الذي عاش فيه له أثر في ذلك، لأنّ الشوكاني شخصيّة قويّة، وله موقف معروف من المذهب السائد ومن المذاهب الأخرى كما تقدّم.

هذا وقد ذكر الشوكاني رحمه الله في مقدّمة تفسيره أنّه لم يلتزم ببيان حال الإسناد للأحاديث في تفسيره، لأنّه قد ينقلها كما هي من تفاسير من سبقه، فإنّ من الجائز أن ينقلوها من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظّن، لأنّهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحّته لم يتركوا بيان ذلك، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فلينظر في أسانيدها موفّقاً إن شاء الله(٢).

وهذا الكلام واضح في منهج الشوكاني في سرد الروايات في تفسيره لا يحتاج إلى شرح أو تعليق.

---

(١) قال في الحديث الأوّل: رواه ابن عدي عن أبي سعيد مرفوعاً وفي إسناده أحمد بن سالم أبو سمرة، ولا يحتجّ به. وقال في الميزان: هذا كذب. وقال ابن الجوزي: موضوع. (ص ٣٤٨) وقال في الحديث الثاني: رواه الخطيب عن عليّ مرفوعاً، وفي إسناده جميع بن عمر البصري وهو وضّاع. (ص ٣٨٠).

(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٣) في المقدمة.

وما قلته عن كتاب فتح القدير أقوله عن كتاب درّ السحابة. فقد أورد رحمه الله في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1] أحاديث ضعيفة ومنكرة، ولكنّه بيّن في هذا الكتاب حال رجال الإسناد من حيث الضعف والصحة من خلال أقوال بعض المحدّثين. وأورد كثيراً من هذه الأحاديث في كتابه الفوائد المجموعة. وخشية من الاطالة أكتفي بذكر بعضها مع ذكر مكان وجودها في الكتابين:

١ ــ حديث: «اللهم ائتني بأحبّ الخلق إليك، وإليّ يأكل معي من هذا الفرخ»[2].

٢ ــ حديث: «من أحبّه (يعني عليّاً) فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله». وزاد في الفوائد: «ومن أبغض الله أدخله الله النار»[3].

٣ ــ حديث: «هذا (يعني عليّاً) أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصّديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمّة، يفرّق بين الحقّ والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين»[4].

٤ ــ حديث: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[5] وغير ذلك.

---

(١) أورد فيها (١٣٠) حديثاً (انظر من صفحة (١٩٩ ــ ٢٢٩).

(٢) درّ السحابة (ص ٢٢١ برقم ٩٨)، والفوائد المجموعة (ص ٣٨٢ برقم ٩٥).

(٣) درّ السحابة (ص ٢١٢ برقم ٦٧)، والفوائد المجموعة (ص ٣٨٣ برقم ١٠٠) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٤) درّ السحابة (ص ٢٠٥ برقم ٣٢)، والفوائد المجموعة (ص ٣٤٤ برقم ٤٤) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٥) درّ السحابة (ص ٢٠٣ برقم ٢٣)، والفوائد المجموعة (ص ٣٤٨، ٣٤٩ برقم ٥٢) =

وكتاب درّ السحابة ألّف قبل الفوائد كما بيّنته في القائمة، وهذا ـ كما ذكرته سابقاً ـ يدلّ على تطوّره في علوم الحديث.

وهذا وقد رتّب الشوكاني الخلفاء الراشدين ترتيب أهل السنة عند ذكر فضائل كلّ واحد منهم، فذكر أوّلاً مناقب أبي بكر الصّديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين[1].

٣ ـ كلامه على معاوية بن أبي سفيان ومن معه رضي الله عنهم:

لم أقف على كلام الشوكاني على معاوية ومن معه رضي الله عنهم إلّا في موضع واحد في كتابه نيل الأوطار، وهو قوله عند شرحه لحديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون أمّتي فرقتين، فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهما بالحقّ»[2].

(قوله: أولاهما بالحقّ، فيه دليل على أنّ عليّاً ومن معه هم المحقّون، ومعاوية ومن معه هم المبطلون، وهذا أمر لا يمتري فيه منصف، ولا يأباه إلّا مكابر متعسّف)[3].

في حين أنّي وجدت كلامه في مواضع متعدّدة من كتبه يدلّ على أنّه من المنصفين من أهل السنة في هذه المسألة.

= لكنّ الشوكاني وافق الحافظ ابن حجر في أنّ الحديث من قسم الحسن لغيره لكثرة طرقه. (انظر ص ٣٤٩ من الفوائد) والصحيح أنّ الحديث ضعيف ومنكر كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٧/ ٥١٥)، والذهبي في التلخيص (انظر هامش المستدرك ٣/ ١٢٦)، والعراقي في المغني (انظر هامش الإحياء ٢/ ١٩٠ ط/ دار المعرفة)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٤٤)، والألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢/ ١٣ برقم ١٤١٦).

(١) انظر درّ السحابة: الشوكاني (من صفحة ١٣٩ ـ ١٩٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤٦ برقم ١٠٦٥ مكرر).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٣٠) ط/ مكتبة الكليات الأزهرية.

ففي رسالته المخطوطة: العذب النمير في جواب مسائل عالم بلاد عسير، البحث الثالث من مباحث السؤال الثاني: سئل رحمه الله عن مذهب الحقّ فيما شجر بين علي ومعاوية فقال: (إنّ هذه المسألة الإمساك عن الكلام فيها أولى، وسدّ هذا الباب الذي لا يستفاد فتحه إلاّ ما لم يتعبّد الله به عباده أسلم، وكلام الطوائف في ذلك معروف، وكلّ حزب بما لديهم فرحون، والحقّ بين المقصّر والغالي، والصواب في التوسّط بين حالتي الافراط والتفريط)... ثم بيّن حال الصحابة في تلك الفتن الواقعة بينهم وقال: (إنّ حالهم في ذلك حال المجتهدين في الأحكام، فإن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، كما ورد في الحديث[1]... وبالجملة فلا يأتي التطويل في مثل هذا فائدة، وقد قدموا على ما قدّموا، ولم يكلّف الله بشيء من هذا، بل أرشدنا إلى ما قصّه علينا في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَالَّذِيْنَ جَاءُوْا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُوْنَا بِالإِيْمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِيْ قُلُوْبِنَا غِلاًّ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوْفٌ رَّحِيْمٌ﴾[2] فرحم الله امرءاً قال خيراً أو صمت)[3].

كما سئل عن هذه المسألة في رسالته: إرشاد السائل إلى دلائل المسائل فقال:

(إن كان السائل طالباً للنجاة مستفهماً عن أقرب الأقوال إلى مطابقة

---

(١) يقصد حديث: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر)) متّفق عليه (أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد. الخ. الفتح ١٣/ ٣٣٠ برقم ٧٣٥٢، ومسلم في كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم. الخ. ٣/ ١٣٤٢ برقم ١٧١٦).

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٣) العذب النمير: الشوكاني (ورقة ١٨) (مخطوط) وقد ألّفها في سنة ١٢٢٢ هـ أي بعد تأليفه نيل الأوطار باثنتي عشر سنة، لأنّه ألّف في سنة ١٢١٠ هـ راجع القائمة (ص ٧٧).

مراد مولاه.. فليدع الاشتغال بهذا الأمر، ويترك المرور في هذا المضيق الذي تاهت فيه الأفكار، وتحيّرت عنده أفكار أهل الأنظار، فإنّ هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم، وتتطلّع لمعرفة ما شجر بينهم، قد صاروا تحت أطباق الثرى، ولقوا ربّهم في المائة الأولى من البعثة، وها نحن الآن في المائة الثالثة عشر، فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وأيّ فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة، وقد أرشدنا إلى أن ندع ما يريبنا إلى ما لا يريبنا... ثم قال:

وقد تلاعب الشيطان بكثير من الناس، فأوقعهم في الاختلاف في خير القرون الذي قال رسول الله ﷺ في شأنهم لبعض من هو من جملتهم، لكنّه تأخّرا سلامه عنهم: (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)[1]. فإذا كان مثل أحد ذهبا من المتأخّرين من الصحابة المخاطبين بهذا الخطاب لا يبلغ مدّ متقدّميهم ولا نصيفه، فما أظنّه يبلغ بمثل أحد ذهبا منّا مقدار حبّة من أحدهم ولا نصفها، فرحم الله امرأً اشتغل بما أوجبه الله عليه، وطلبه منه، وترك ما لا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة)[2].

ولعلّ هذا هو رأي الشوكاني ـ رحمه الله ـ الذي يدين به في هذه المسألة، والذي شاركه فيه المنصفون من علماء أهل السنة[3]، وأيّد ذلك ما

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متّخذا خليلاً (الفتح ٧/ ٢٥ برقم ٣٦٧٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبّ الصحابة رضي الله عنهم (١٩٦٧/٤ برقم ٢٥٤٠).

(٢) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل: الشوكاني (ص ٤٥، ٤٦) ضمن الرسائل السلفية. وانظر أيضاً مثل هذا الكلام في كتابه: درّ السحابة (ص ١١٢، ١١٣).

(٣) انظر عقيدة السلف أصحاب الحديث: للصابوني (ص ٩٣) تحقيق/ بدر البدر، وشرح السنة للبغوي (١/ ٢٢٩) تحقيق/ شعيب الأرناؤط وزهير الشاويش، والحجّة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (٢/ ٥١٢، ٥٢٢، ٥٢٦) تحقيق/ محمد بن محمود أبو رحيم، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي (ص ٤٠) ط/ المكتب الإسلامي، وعقيدة الواسطية لابن تيمية (ص ١٨٤، ٢٠١) شرح الدكتور =

ذكرته في هذا البحث من موقفه الشديد من الرافضة في سبّ الصحابة وتجريحهم[1].

وبعد: فهذا ما أريد أن أقوله في هذا المقام، ولا أستغرب في أن يكون لمثل الشوكاني أكثر من قول واحد في بعض المسائل، وأن يخطىء في بعض آخر، فإنّ ذلك من الأمور الطبيعية التي لا يخلو منها أحد من العلماء بعد رسول الله ﷺ، فإنّ من المعلوم أنّ أحدهم كلّما طال به الزمن في طلب العلم وتقدّم به في ذلك العمر كلّما ازداد به معرفة ونضجاً، وهذا هو السبب في كثرة الأقوال التي تروى في المسألة الواحدة عن بعض الأئمة المجتهدين المتبوعين، كالإمام أحمد، وأبي حنيفة، والشافعي، وغيرهم. والله أسأله التوفيق والرشاد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

□□□

= صالح فوزان، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٥٢٨ ــ ٥٣٢ وأيضاً ٥٥٤، ٥٥٥) ط ٤ / ١ المكتب الإسلامي، وانظر أيضاً رسالة الشيخ عبد المحسن العباد بعنوان: من أقوال المنصفين في الصحابي الخليفة معاوية. وقد نقل حفظه الله كلام الشوكاني فيها.

(١) انظر صفحة (٢٨ ــ ٣٠ وأيضاً ٤١٩ ــ ٤٢٣).

الباب الأول

منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالله

ويشتمل على الفصول الآتية:

الفصل الأول: في توحيد الربوبية.

الفصل الثاني: في توحيد الألوهية.

الفصل الثالث: في توحيد الأسماء والصّفات.

الفصل الرابع: في نواقض التوحيد.

الفصل الخامس: في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل.

البـاب الأول
منهج الإمام الشوكاني في الإِيمان بالله

تمهيـــد

إن الإيمان بالله عزّ وجلّ يعني التصديق الكامل بأن الله واحد لا شريك له، وأنّه الـذي يستحق وحده أن يفـرد بكل أنـواع العبادات، من صـلاة، وصوم، ودعاء، ورجاء، وخوف، وذلّ، وخضـوع، وأنه المتصف بصفـات الكمـال كلها، المنـزه عن كل نقص، ويتلخص هـذا في تـوحيـد الله في ربوبيته، وألوهيته، وفي أسمائه وصفاته.

فهـذه ثـلاثـة أنـواع من التـوحيـد، تـدخـل في معنى الإيمـان بـالله عزّ وجل[1]، وهو أساس العقيدة الإسلامية وجوهرها، وعليه يقوم ما سواه من عقائد هذا الدين، كالإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر.

وفي هذا الباب تفصيل الكلام في كل نوع من الأنواع الثلاثة، مع بيان منهج الإمام الشوكاني في كل منها، وأبدأ أولاً بتوحيد الربوبية، والله أسأل التوفيق والسداد.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٧٦، ٧٧ تحقيق: جماعة من العلماء، ط ٤/ ١٣٩١ هـ المكتب الإسلامي، ومدارج السالكين: ابن القيم ١/ ٣٣ ط ١/ ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية، وتيسير العـزيز الحميـد: سليمان بن عبـد الله ١٧ط ٣/ ١٣٩٧ هـ المكتب الإسلامي.

الفصـل الأول

في توحيد الربُوبية

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: منهج الشوكاني في الاستدلال على وجود الله.

المبحث الثالث: منهج الشوكاني في الإيمان بالقضاء والقدر.

الفصل الأوّل
منهج الإمام الشوكاني
في توحيد الربوبية

المبحث الأوّل
تعريف توحيد الربوبية

معنى كلمة الربّ:

جاء في الصحاح للجوهري[1]: ربّ كلّ شيء، مالكه، والربّ اسم من أسماء الله عزّ وجلّ، ولا يقال في غيره إلّا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك[2].

وجاء في المفردات للأصفهاني[3] ما يلي: ربّ: الربّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام، يقال: رَبَّه وربَّاه وربَّبَه، وقيل: لأَنْ يَرُبَّنِيْ رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يَرُبَّنِيْ رجل من

---

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، لغويّ، كان إماماً في اللغة والأدب، أشهر كتبه: الصحاح توفيّ (٣٩٣ هـ) (انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٧/ ٨٠، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١١٣) ط ١/ دار الكتب العلمية.

(٢) الصحاح: الجوهري (١/ ١٣٠ مادة: ربب) تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطّار ط ٢/ ١٤٠٢ هـ.

(٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، أديب، من الحكماء العلماء، له كتب مفيدة منها: المفردات، والذريعة إلى مكارم الشريعة، وجامع التفاسير. توفيّ (٥٠٢ هـ) (انظر ترجمته في: مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده ١/ ٢٠٩، ٢/ ٧٠، والأعلام: الزركلي ٢/ ٢٥٥، ومقدمة كتاب المفردات في غريب القرآن ص ٣ تحقيق/ محمد سيد كيلاني ط/ دار المعرفة).

هوازن. فالربّ مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الربّ مطلقاً إلاّ لله تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(١)... وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله: ربّ العالمين، وربّكم، وربّ آبائكم الأوّلين، ويقال: ربّ الدار، وربّ الفرس لصاحبهما، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾(٢) وجمع الربّ أرباب، قال تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٣) ولم يكن من حقّ الربّ أن يجمع، إذ كان إطلاقه لا يتناول إلاّ الله تعالى، لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم، لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه(٤).

ويفهم من هذين التعريفين أن لفظ الربّ يطلق في اللغة على المالك والسيد والمربّي، وعلى المتصرف للاصلاح، وكل هذه المعاني صحيح من حق الله تعالى، ويطلق عليه اطلاقاً حقيقياً، لأنه ربّ كل شيء ومالكه وإلهه، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾(٥).

قال الشيخ تقي الدين أحمد المقريزي(٦): فمعنى قوله تعالى: ربّ العالمين: رابّ العالمين، فإنّ الربّ سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٩.
(٤) المفردات في غريب القرآن: الأصفهاني (ص ١٨٤، ١٨٥ مادة: ربّ).
(٥) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٦) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية. ولد ونشأ ومات في القاهرة عاش في فترة (٧٦٦ ـ ٨٤٥ هـ) له مؤلفات مفيدة منها: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وتجريد التوحيد المفيد (انظر ترجمته في: البدر الطالع: الشوكاني ١/ ٧٩ رقم (٤٦) والأعلام: الزركلي ١/ ١٧٦).

لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم، من خلق، ورزق، وعافية، وإصلاح دين ودنيا[1].

ولفظ الربّ فيه معنى التوحيد، لأنّ الربّ سبحانه وتعالى اختص بالربوبية دون سواه، فوجب توحيده فيها، وعن ذلك يقول الشوكاني في بيانه لما في فاتحة الكتاب من معاني التوحيد: (. . . فإن لفظ الربّ باعتبار معناه اللغوي مشعر أتمّ اشعار بإخلاص توحيده، هذا باعتبار معناه الإفرادي دون الإضافي، ثمّ في معناه الإضافي دلالة أخرى، فإنّ كونه ربّ العالمين يدلّ على ذلك أبلغ دلالة)[2].

أما إطلاق لفظ الربّ على غيره تعالى فإطلاق حقيقي اضافي، يقال: فلان ربّ البيت، وربّ الدابّة، وربّ المال، بمعنى أنه مالكه، لا بمعنى أنه خالقه، وهذا الإطلاق لا يعني أكثر من أن الربّ سبحانه أعطاه من فضله هذا القدر من الملك وهو نسبة إضافية، والغرض من الإضافة رفع الالتباس، لأن الربّ لا يطلق إلا على الله سبحانه، فهو ربّ كل شيء وخالقه والمتصرف فيه.

المعنى الاصطلاحي لتوحيد الربوبية:

معنى توحيد الربوبية (هو الإقرار بأن الله تعالى ربّ كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي والمميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء،

---

(١) تجريد التوحيد المفيد: المقريزي ٨١ مطبوع ضمن: عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، تقديم: عبد الله حجاج.

(٢) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عز وجل للإمام الشوكاني ص ١٢ الرسالة الأولى ضمن: العذب النمير في جواب مسائل عالم بلاد عسير للمؤلف نفسه، مخطوط بمكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (٩٢٥) ميكروفيلم.

ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر)[1]. أي الإيمان بأن كل محدث في الكون صادر عن علم الله عزّ وجلّ وإرادته وقدرته.

وبعبارة أخرى فإن هذا التوحيد معناه: نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقة التي تعني الخلق والرزق والملك والتربية والتدبير، والاقرار بأنه تعالى وحده هو الفاعل المطلق في الكون، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه.

وقد أشار الله تعالى في كتابه الكريم إلى هذا المعنى في كثير من الآيات، منها قوله تعالى:

﴿الَّذِيْ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ فِيْ الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيْراً﴾[2].

قال الشوكاني: (أي له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها وشرعها لهم)[3].

وهذا النوع من التوحيد هو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى، لأنّ الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بالتوجه إليه بالعبادة، كما هو الجدير وحده بصفات الجلال والكمال.

وزعم أهل الكلام والنظر والفلسفة ومن وافقهم أن هذا التوحيد هو التوحيد المطلوب الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، فتعبوا في إثباته وتقريره، وليس الأمر كما يزعمون، لأنّ الغاية الأولى والقضية الكبرى التي

---

(١) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٣٣.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ١ / ١٢٧ ط ٢ / ١٣٨٣ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب هي توحيده بالعبادة (فعبادة الله وحده لا شريك له هو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب)[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إلاَّ نُوْحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إلٰهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾[2] ويتضمّن توحيد العبادة توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات كما سيأتي بيانه[3].

فطرية توحيد الربوبية وأدلتها:

إنّ معرفة الله والإقرار بوجوده أمر ضروري فطري في الإنسان، إذ كل واحد من بني آدم يقر بوجود الخالق ويعترف به، أما ما يظهر على بعض الملحدين من الكفر بالله فهو أمر طارىء على الفطرة، وانحراف عن الطبيعة البشرية والإنسانية، هذا ما قرره جمهور أهل السنة من المسلمين[4] والعقلاء من علماء أوربا[5].

ومن الأدلة التي يستدلون بها على هذه الحقيقة:

١ ــ قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّيْنَ مُبَشِّرِيْنَ

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٧٥ مكتبة الصحابة الإسلامية، الكويت.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٣) انظر صفحة (٢٠١).

(٤) على سبيل المثال انظر: منهاج السنة: شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ٢٥٧، ٣ ٤٠ تحقيق: د. محمد رشاد سالم، ط ١/ ١٤٠٦ هـ، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٢٧٢، وترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: ابن الوزير اليماني ٨١ ـ ٨٣ ط ١/ ١٤٠٤ هـ دار الكتب العلمية، وفتح الباري: ابن حجر ١٣/ ٣٦١ ط ٤/ ١٤٠٨ هـ. المكتبة السلفية، القاهرة، ودلالة التوحيد: محمد جلال الدين القاسمي ٢٣، ٢٤ ط ١/ ١٤٠٥ هـ دار الكتب العلمية.

(٥) انظر: الدين: د/ محمد عبد الله دراز ١٠٧ ــ ١١٤ ط ١٤٠٠ هـ دار القلم، الكويت، وأيضاً مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام: د/ عوض الله جاد حجازي ٣٦ ــ ٤٣ ط ٢/ ١٤٠١ هـ دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

وَمُنْذِرِيْنَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً، فَاخْتَلَفُوْا﴾[2].

يرى جمهور العلماء في معنى الآية أن الناس جميعاً كانوا على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين، وكان أول من بعث إلى البشر نوح عليه السلام[3].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِيْ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾[4].

يرى جمهور السلف أنّ المراد بالفطرة هنا هو الإسلام والتوحيد[5]. فالله سبحانه وتعالى يقرّر في كتابه العزيز بأنّ توحيده سبحانه فطرة في الإنسان فطر الله الناس عليها.

٣ ـ وقد زاد النبي ﷺ هذا المعنى تأكيداً في قوله: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه... ثمّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري ٢/ ٣٣٤، ٣٣٥ ط/ ١٤٠٨ هـ دار الفكر، وتفسير ابن كثير ١/ ٢٥٧ ط/ دار المعرفة، وفتح القدير: الشوكاني ١/ ٢١٤.
(٤) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٥) انظر تفسير الطبري (٢١/ ٤٠)، وتفسير البغوي (٣/ ٤٨٢) ط/ دار المعرفة، وزاد المسير لابن الجوزي (٦/ ٣٠٠، ٣٠١) ط/ المكتب الإسلامي، وتفسير القرطبي (١٤/ ٢٥) ط/ دار إحياء التراث العربي، والفتح لابن حجر (٣/ ١٩٧)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٢)، وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٢٤).

يقول أبو هريرة راوي الحديث رضي الله عنه: فطرة الله التي فطر الناس عليها»[٢].

قال الشوكاني رحمه الله في معنى الحديث: (للفطرة معان: منها الخلقة، ومنها الدين. قال في القاموس: والفطرة صدقة الفطر، والخلقة التي خلق عليها المولود في رحم أمّه، والدين. انتهى. والمناسب ههنا هو المعنى الآخر، أعني الدين، أي كلّ مولود يولد على الدين الحقّ، فإذا لزم غيره فذلك لأجل ما يعرض له بعد الولادة من التغيرات من جهة أبويه أو سائر من يربّيه)[٣].

والحديث ظاهر الدلالة على أنّ الإنسان يولد على الفطرة، وهي ما قرّره الإسلام من التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الاشراك، وإنّما البيئة والعائلة وفيها الأبوان هما اللتان تحولان فطرته عن الحقيقة التي انطبعت عليها نفسه.

٤ ـ أثبت العلماء والباحثون الأوربيون[٤] أنّ عقيدة الخالق الأكبر هي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات يصلّى عليه (الفتح ٣/ ٦٢٠ برقم ١٣٥٨، ١٣٥٩) واللفظ له، ومسلم في كتاب القدر، باب ما جاء في كلّ مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧ برقم ٢٦٥٨) تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، وأبو داود في كتاب السنة، باب في ذراري المشركين (٥/ ٨٦ برقم ٤٧١٤)، والترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء في كلّ مولود يولد على الفطرة (٤/ ٣٨٩ برقم ٢١٣٨) تحقيق/ كمال يوسف الحوت، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣).

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٦٤) ط/ مكتبة كليات الأزهرية.

(٣) ومن أشهر مشاهيرهم: لانج (Lang) الذي أثبت وجود عقيدة: الإله الأعلى. عند القبائل الهمجية في أوستراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم: شريدر (Sehroeder) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان (Brockelmann) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام، ولرواه (La Roy) وكاترفاج (Quatrefages) عند أقزام أواسط أفريقيا، وشميدت (Schmidt) عند الأقزام وعند سكّان أوستراليا الجنوبية الشرقية، وقد

أقدم ديانة ظهرت في البشر، مستدلين بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة، أو أمراض متطفلة، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة[1].

إقرار المشركين بتوحيد الربوبية:

ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب الذين بعث فيهم الرسول ﷺ بوجود ربّ خالق سبحانه.

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم اعترافهم بذلك في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ، فَسَيَقُوْلُوْنَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمُ، سَيَقُوْلُوْنَ لِلَّهِ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ، لَيَقُوْلُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ﴾[4].

وقوله عزّ وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ﴾[5].

انتهى بحثه إلى أنّ فكرة: الإله الأعظم. توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية (انظر: الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٠٧، ١٠٨).

(١) الدين: محمد عبد الله دراز ١٠٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦، ٨٧.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٩.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

ومثل هذا كثير في القرآن، فإن المشركين من العرب كانوا يقرّون بأصل توحيد الربوبية، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم[1]. حيث يجعلون أصنامهم وأوثانهم شفعاء ووسائط بينهم وبين الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُوْلُوْنَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[2].

وعلى هذا فإنّ إقرارهم بالربوبية لم ينفعهم، ولم يدخلهم في الإسلام، وقاتلهم الرسول ﷺ، واستحلّ دماء هم وأموالهم، وذلك لأنهم أنكروا توحيد الإلٰهية، وأشركوا بالله في عبادته. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[3]. (أي ما يقرّ أكثرهم في إقراره بالله، وبأنه خلقه، وخلق السموات والأرض، إلا وهو مشرك بعبادة الأوثان)[4].

فلم يعتدّ بإقرارهم هذا، لأنه خالفه فعلهم، فمن شأن من أقرّ لله بتوحيد الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة، فإذا لم يفعل ذلك فالاقرار الأول باطل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا التوحيد (يعني الربوبية) هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب، ولا يخلص بمجرده عن الاشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يغفره الله، بل لا بدّ أن يخلص لله الدين، فلا يعبد إلا إياه، فيكون دينه لله)[5].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز ٧٩.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٤) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ١٣٧ مطبوع ضمن: عقيدة الفرقة الناجية، تقديم: عبد الله حجاج، شركة السلام العالمية.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية ٣٢٣ ط/ دار الحديث.

ولهذا لم تكن رسالة الرسل في دعوة الناس إلى هذا التوحيد، وإنما كانت دعوة الرسل إلى توحيد الله في إلٰهيته، بأن يعبد وحده لا شريك له، والتخلي عن عبادة الأوثان، وعن اتخاذها وسائط بينه وبين خلقه.

يقول الشوكاني في هذا الصدد: (اعلم أنّ الله لم يبعث رسله، ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق والرازق لهم ونحو ذلك، فإن هذا يقرّ به كل مشرك قبل بعثة الرسل... بل بعث الله رسله وأنزل كتبه لاخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة)(١). قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾(٢).

المبحث الثاني

منهج الإمام الشوكاني في الاستدلال على وجود الله

ذكرت فيما سبق أنّ الاعتقاد بوجود الله أمر فطري لا يحتاج إلى دليل، وإنما الدليل يكون عند فساد الفطرة وتغيرها، كما رأيناه عند بعض الطوائف من الملحدين، لذلك وجد الاستدلال على هذه القضية لتقوم الحجة عليهم، وليردّهم إلى الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الاقرار بالخالق وكماله يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها)(٣).

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٠، ٣١ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٦/ ٧٣ ط/ ١٣٨١ هـ مطابع الرياض.

وقد شغل بهـذه القضية أي قضيـة الاستدلال على وجـود الله علماء الإسلام من مختلف الطوائف والمدارس، كما شغل بها من قبلهم، وسلكوا فيها مسالك متعددة، وقبل أن أبدأ في بيان المسلك الذي سلكه الشوكاني في هذه القضية أذكر نبذة موجزة عن مسلك كل من الفلاسفـة والمتكلمين في إثبات وجود الله، حتى يتبين لنا منهج الشوكاني من خلال مناهجهم.

(أ) منهج المتكلمين:

اعتمد المتكلمون في الاستـدلال على وجود الله تعـالى على أساس حدوث هذا العالم، واحتياجه إلى محدث هو الله سبحانه وتعالى، لهذا بذلوا جهداً كبيراً في إثبات حدوث العالم، والرد على من قال بقدمه[1].

وقد سلكوا في ذلك طرقاً متعددة، حصرها صـاحب المواقف[2] في أربع طرق فقال:

(قد علمت أنّ العالم إما جوهـر أو عرض، وقـد يستدل بكـل واحد منهما، إما بإمكانه أو بحدوثه، فهذه وجوه أربعة:

الأول ــ الاستدلال بحدوث الجـواهر: وهـو أنّ العالم حـادث، وكل حادث فله محدث.

---

(١) انـظر: الإنصاف: أبـو بكر البـاقلاني ٢٧، ٢٨ تحقيق: عمـاد الدين أحمـد حيدر، ط ١/ ١٤٠٧ هـ عالم الكتب، وكتاب أصول الدين: عبد القاهر البغدادي ٥٩، ٦٩، ٦٠ ط ١/ ١٤٠١ هـ دار الآفاق الجديدة، والتبصير في الدين: أبو المظفر الإسفراييني ١٥٣، ١٥٤ تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط ١/ ١٤٠٣ هـ عالم الكتب، والعقيدة النظامية: أبو المعالي الجويني ١٦، ١٧ تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، والاقتصاد في الاعتقاد: الغزالي ١٩ ــ ٢٦ ط/ ١، دار الكتب العلمية، وشرح جوهرة التوحيد: البيجوري ٤١، ٤٢ ط/ ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية.

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي: عالم بالأصول والمعاني والعربية، من تصانيفه: المواقف في علم الكلام، والعقائد العضدية، توفي سنة ٧٥٦ هـ (طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٦/ ١٠٨ ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٩٥ والأعلام: الزركلي ٣/ ٢٩٥).

الثاني ـ بإمكانها: وهـو أنّ العالم ممكن، لأنـه مركب وكثيـر، وكل ممكن فله علة مؤثرة.

الثالث ـ بحدوث الأعراض: مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة، ثم مضغة، ثم لحماً ودماً، إذ لا بد من مؤثّر صانع حكيم.

الرابع ـ بإمكان الأعراض: وهو أنّ الأجسام مماثلة، فاختصاص كل بمالَهُ من الصفات جائز، فلا بدّ في التخصيص من مخصِّص له)[1].

ويشرح المتكلمون طـريقة الحـدوث فيقولـون بأن العـالم مركب من جواهر فردة وأعراض، وأن الأعراض لا تبقى زمانين متتاليين، وإنما يـطرأ عليها التغير والتحول فهي حادثة، والجواهر لا تتعرى عن الأعراض التي هي ملازمة لها، وما دامت الجواهر لا تنفك عن الأعراض فهي حادثة بحدوثها، لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث[2]، وما دام العالم مكوّناً من الجواهر والأعراض ـ وقد ثبت حدوثها ـ فالعالم حادث، وإذا ثبت أن العالم حادث كان لا بدّ له من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود.

ويلاحظ أنهم يقدمون بكل هذه المقدمات ليدللوا على قضية اعتبرها القـرآن الكريم قضيـة فطريـة في الإنسان، ولا يخفى أن الاستـدلال بهذه

---

(١) المواقف في علم الكلام: عبد الرحمن الإيجي ٢٦٦ المـوقف الخامس، ط/ عـالم الكتب.

(٢) انظر مراجع المتكلمين السالفة الذكر. وقد أفسد شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الطريقة في الاستدلال على وجود الله، وبين أنها سبب في كل ما التزم المتكلمون من متناقضات في الصفات الإلهية وغيرها، وقد التزمـوا لأجلها نفي صفـات الله مطلقـاً أو بعضـها، والقول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله تعالى في الآخرة، وعلوه على عرشه، إلى أمثال ذلـك من اللوازم الباطلة التي التـزموهـا. (راجع: مـوافقة صحيـح المنقول لصريح المعقـول: ابن تيمية ١/ ٨٩، ١٧٦، ٢٢٥، ط ١/ ١٤٠٥ هـ دار الكتب العلميـة، وكتاب النبوات للمؤلف نفسه ٦٠ وما بعدها، و٧٣، ٧٧ وما بعدها، ط/ ١٤٠٢ هـ دار الكتب العلمية).

المقدمات قد كلّف أصحابه جهداً كبيراً، إذ لزمهم أن يطيلوا البحث في إثبات الجوهر، وفي إثبات الأعراض وأنها حادثة، ثم في إثبات لزومها للجوهر، كل ذلك ليتمّ لهم إثبات حدوث العالم بكل ما فيه.

ولا شك أن هذا المسلك مع ما عليه من مآخذ واعتراضات[1] مسلك شاقّ يصعب تصوّره على المتخصصين فضلاً عن الجمهور، وفيه من الطول، والخفاء، واللبس، والإبهام ما لا يخفى، فلا يصلح لأن يجعل سبيلاً لتحصيل أشرف المطالب وهو الإيمان بالله تعالى.

(ب) منهج الفلاسفة:

سلك الفلاسفة الإلٰهيون في إثبات وجود الله تعالى طريق الوجوب والإمكان، وقسموا الموجود إلى واجب وممكن بدلاً من قديم وحادث.

قال صاحب المواقف عن هذا المسلك:

(المسلك الثاني للحكماء: وهو أنّ (في الواقع) موجوداً، فإن كان (ذلك الموجود) واجباً فذاك (هو المطلوب)، وإن كان ممكناً احتاج إلى مؤثّر، ولا بدّ من الانتهاء إلى الواجب، وإلاّ لزم الدور أو التسلسل. وفي هذا طرح لمؤونات كثيرة كما ترى)[2].

إنّ الفلاسفة بهذا المسلك قسّموا العالم إلى واجب وممكن، ثم

---

(١) انظر نقد منهج المتكلمين في إثبات وجود الله، على سبيل المثال: ابن تيمية السلفي محمد خليل هراس ٦٨ ـ ٧٧ ط ١/ ١٤٠٤ هـ دار الكتب العلمية، ومقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية، تحقيق: د/ محمد السيد الجليند ١٠٦ ـ ١١٥ ط ٣/ ١٤٠٧ هـ دار القبلة للثقافة الإسلامية، ومنهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: د/ علي بن محمد ناصر الفقيهي ١٠٤ ـ ١٠٨.

(٢) المواقف في علم الكلام: عضد الدين الإيجي (ص ٢٦٦) الموقف الخامس في الإليهات، وما بين القوسين من شرح المواقف للشريف الجرجاني (٣/ ٥) ط/ دار الطباعة العامرة.

استدلوا بالممكن على الوجب من حيث حدوثه بعد أن لم يكن، ومن حيث ثباته على الإمكان.

وقد عبّر ابن سينا أحد فلاسفة المسلمين المشهورين[1] عن هذا الاستدلال في قوله:

(لا يشك أن هنا وجوداً، وكل وجود فإمّا واجب وإمّا ممكن، فإن كان واجباً فقد صح وجود الواجب، وإن كان ممكناً فإنا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود)[2].

ولسنا بحاجة إلى تفصيل هذا الاستدلال المعقد، فإن فيه كلاماً كثيراً ليس هنا موضعه، ومن أراد المزيد فعليه بكتب القوم[3]. وحسبنا أن نشير إلى أن هذه الطريقة الفلسفية مما يعلم بالاضطرار أن محمداً ﷺ لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق سبحانه، ولا سلف الأمة وأئمتها، وقد فنّدها شيخ الإسلام ابن تيمية، وبين ما يترتب عليها من نتائج فاسدة، كنفي جميع الصفات الإلٰهية عند تعالى، وإثبات وجود واجب هو الله ليس له حقيقة سوى مطلق الوجود[4].

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب. والمنطق والطبيعيات والإلهيات، ومن تصانيفه: القانون في الطب، والشفاء والإشارات والنجاة، توفي سنة ٤٢٨ هـ (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٢/ ٦٢ (٢٠١٤) ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ٢٧٢).

(٢) النجاة: ابن سينا ٣٨٣ ط/ مطبعة السعادة بمصر ١٣٣١ هـ.

(٣) من كتب الفلاسفة التي تناولت هذا الموضوع: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي تقديم وشرح: إبراهيم جزيني، دار القاموس الحديث، بيروت، وفصول الحكم للمؤلف نفسه ط/ الخانجي، والإشارات والتنبيهات لابن سينا، شرح: نصر الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.

(٤) انظر: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ابن تيمية ١/ ٢١٤، ٢١٥، ٢١٩ وكتاب النبوات: ابن تيمية ٧٦، ٧٧.

وبعد: فهذه فكرة موجزة عن منهج كل من الفلاسفة والمتكلمين في الاستدلال على وجود الله، وقد تبين أنهم جميعاً اعتمدوا في استدلالهم على مجرّد العقل، وعلى البراهين المنطقية والفلسفية بشكل عام، وابتعدوا كل الابتعاد عن الأدلة القرآنية التي هي أفضل الطرق وأنفعها لاثبات وجود الله.

(ج) منهج الإمام الشوكاني:

سلك الإمام الشوكاني رحمه الله في الاستدلال على وجود الله مسلك القرآن الكريم، وهو إثبات وجود الله عن طريق بيان عظمته، وتدبيره المحكم، وقدرته على كل ما في العالم، وعنايته التامة بكل صغيرة وكبيرة.

آثر الشوكاني أدلة القرآن لأنه وجد في منهجه ما أغناه عن أدلة المتكلمين ومناهجهم، كما وجد فيه من الأدلة والبراهين العقلية ما يتسم بالبساطة والوضوح، يجعل إدراكها سهلاً ميسّراً لكافة المستويات من الناس، على اختلاف مداركهم وفطرهم، بخلاف الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة «المبنية على شفا جرف هار من أدلة العقل التي لا تعقل، ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى»(١).

وقد اشتمل القرآن الكريم على الحجج والبراهين القاطعة التي تقمع شبهة كل ملحد أو منحرف في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٢). أي ما تركنا في القرآن من أمر الدين، إمّا تفصيلاً أو إجمالاً(٣).

ومن خلال تتبعنا لكتب الشوكاني وخاصة تفسيره للقرآن الكريم نجد أن ما من آية يمرّ عليها تتكلم عن أي حال من أحوال الخلق إلا ويشهد فيها

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ١٤٦ تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعي، الرياض.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١١٤.

الكمال والعظمة وبديع الصفة التي تدلّ على وجود الله تعالى، وتفرده بالكمال والجلال.

ويمكن حصر الطرق التي سلكها الشوكاني رحمه الله في الاستدلال على وجود الله في طريقين:

الطريق الأوّل ـ الفطرة والميثاق المعقود بينها وبين بارئها:

تعتبر الفطرة من الأدلة التي نبّه عليها القرآن الكريم، بل أنه جعلها في مقدمة تلك الأدلة وأساساً لها، إذ الاستدلال بها مشروط بالمعرفة الفطرية السابقة والإقرار السابق بالربوبية[١].

وكما أوضحناه من قبل[٢] أن وجود الله أمر بدهي فطري، لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان، فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجود الربّ الخالق، والإيمان به تعالى مغروز في شعور كل إنسان عاقل، وهذا الشعور الفطري دليل من الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه.

يقول الشوكاني عن هذه الفطرة: (كل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملّة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين، وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف)[٣].

ومن هنا فلا يجد الشوكاني في استدلاله على وجود الخالق ضرورة إلى اللجوء إلى أدلة المتكلمين وأمثالهم، ما دامت فطرة الإنسان ووجوده كافيين في ذلك.

---

(١) انظر: مقدمة كتاب التوحيد لابن تيمية: تحقيق د/ محمد السيد الجلیند ٥٤.

(٢) راجع: فطرية توحيد الربوبية صفحة ٩٩، ١٠٢.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٢٤.

يقول الله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً، فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِيْ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ﴾[1].

استدل الشوكاني بهذه الآية الكريمة على أن التوحيد أمر فطري في الإنسان، ورجّح القول بحمل الناس في الآية على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك، لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر، ثم قال رحمه الله: (وهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه ﴿ذلك الدين القيم﴾: أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو لزوم الفطرة، هو الدين القيم)[2].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّه، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً، وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُوْن﴾[3]. قال الشوكاني: أي الإسلام[4]. فالإسلام هو صبغة الله في كل مخلوق مدرك. وروى عن مجاهد في قوله تعالى: صبغة الله. قال: فطرة الله التي فطر الله الناس عليها)[5].

وقد أشار إلى هذا الدليل الفطري قوله ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه...»[6].

وفي الحديث القدسي: «إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[7]. قال الشوكاني في معنى حنفاء: أي مائلين

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٤٨.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٤٩.
(٦) تقدم تخريجه في صفحة ١٠١.
(٧) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ برقم (٢٨٦٥) وأحمد في المسند ٤/ ١٦٢ عن عياض بن حمار المجاشعي. ومعنى اجتالتهم الشياطين: أي استخفتهم فجالوا معهم=

عن الأديان كلها إلى دين الإسلام(١).

وعلى هذا فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يبعثوا إلى الناس إلا لتذكيرهم بتوحيد الفطرة، وتطهيره عن تسويلات الشياطين. قال تعالى حكاية عن الرسل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ، فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢)، إنهم لم يأتوا ليعلّموا الناس بوجود ربِّ الخالق، وإنما أتوا ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ومما يدلّ على هذا الدليل الفطري أن النفس تدرك وجود الله بفطرتها، وترجع إليه في الشدائد تستمدّ منه العون، وتطلب منه النجدة، فمهما تعنت الإنسان في إنكار هذه الفطرة، وحال الكبر دون الإقرار بها، فإنها لا بدّ أن يظهر أثرها عند اشتداد المحن والكوارث.

وقد بيّن الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في كتابه في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ، أَوْ قَاعِداً، أَوْ قَائِماً، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْن﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِيْ الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ، وَفَرِحُوْا بِهَا، جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ، وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ، دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْن،

= في الضلال، يقال: اجتال الشيء إذا ذهب به وساقه (انظر: النهاية لابن الأثير: ١/ ٣١٧ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمد أحمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة).

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٧٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٢.

لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْن﴾[1].

فسّر الشوكاني هذه الآية وقال: (وليس هذا لأجل الإيمان بالله وحده، بل لأجل أن ينجيهم مما شارفوه من الهلاك، لعلمهم أنه لا ينجيهم سوى الله سبحانه، وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد)[2].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِيْ الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إلَّا إِيَّاهُ﴾[3]. (إن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علماً لا يقدر مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها)[4].

ويربط الشوكاني في تناسق بين هذه المعرفة الفطرية وبين الميثاق الذي أخذه الله على الإنسان، وهو في عالم الذرّ قبل أن يخلق، كما أشار سبحانه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُوْرِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوْا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُوْلُوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ، أَوْ تَقُوْلُوْا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْن﴾[5].

يقول الشوكاني في تفسير الآية: (إن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرّيته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذرّ، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، ولا المصير إلى غيره، لثبوته مرفوعاً

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٣٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٤٣.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢، ١٧٣.

إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على غيره من الصحابة)[1].

وأيّد تفسيره هذا بأحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلّمهم فقال: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى شهدنا، إلى قوله: المبطلون)[2].

فهذا العهد المأخوذ على الذرّية ميثاق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفطرة الإنسانية، كما أنه حجّة الله على الخليقة يوم القيامة، ولهذا قال سبحانه مذكراً لهم بهذا العهد: أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا... الآية. (فبين الله سبحانه في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة)[3].

وهناك ميثاق آخر يرتبط بالميثاق الأول: هو ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب، تجديداً للميثاق الأول وتذكيراً له، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيْزاً حَكِيْماً﴾[4]. قال الشوكاني: (وسميت المعذرة حجة مع أنه لم يكن لأحد من

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٧٢ قال أحمد شاكر: إسناده صحيح (انظر تحقيقه برقم (٢٤٥٥)، وابن جرير في تفسيره ٩/ ١١١، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ٨٩ برقم (٢٠٢) والحاكم في المستدرك ١/ ٢٧، ٢/ ٥٤٤ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، قال الشوكاني (فتح القدير ٢/ ٢٦٣): وإسناده لا مطعن فيه. وقال الألباني ـ بعد سرد الشواهد والمتابعات للحديث ـ: وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ١٦٣ برقم (١٦٢٣).

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٦٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

العباد على الله حجة تنبيهاً على أن هذه المعذرة مقبولة لديه تفضلا منه ورحمة)[1]. وعن هذا الميثاق أيضاً قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلًا﴾[2]. قال الشوكاني في معنى الآية: «إنّه سبحانه لا يعذب عباده إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال رسلهم. وإنزال كتبهم، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم»[3]. كذا قال جمهور المفسرين والمحققين من أهل السنة[4].

فلا منافاة بين هذا الميثاق والميثاق الأول، لأن كليهما ثابت بالكتاب والسنة، فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته التي هي شاهدة بما ثبت في الميثاق الأول فإنّه يقبل ذلك من أوّل مرّة لا يتوقّف، لأنه جاء موافقاً لما في فطرته وما جبله الله عليه، ومن أدركه وقد تغيّرت فطرته عما جبله الله عليه، بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه وهوّده أبواه، أو نصّراه، أو مجّساه، فهذا إن تداركه الله تعالى برحمته، فرجع إلى فطرته، وصدق بما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، نفعه الميثاق الأول، وإن كذّب بهذا الميثاق كان مكذّباً بالأول، فلم ينفعه إقراره به، وقامت عليه حجّة الله، وحقّ عليه العذاب، ومن يهن الله فما له من مكرم، إنّ الله يفعل ما يشاء[5].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥٣٨.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢١٤، وانظر أيضاً رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله ص ٥ (مخطوط).
(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٥/ ٥٤، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٨، وتفسير الفخر الرازي ٢٠/ ١٧٢، وتفسير القرطبي ١٠/ ٢٣١. ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٣، ١٩/ ٦٦، ٢٠/ ٣٢، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١، وتفسير الألوسي ١٥/ ٣٦، وأضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ٣/ ٤٢٩، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب له ١٧٨ ــ ١٨١.
(٥) انظر: معارج القبول لحافظ حكمي ١/ ٩٣ تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.

وخلاصة القول: أن الحجة لا تقوم بذلك الإشهاد وحده، بل تقوم بالرسل، وإن الرسل تأتي مذكرة بذلك الإشهاد الذي نسيه الكل، ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له، وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده.

والكلام في هذه المسألة طويل لا يتسع المقام لبسطه، فنكتفي بهذا القدر اليسير[1].

الطريق الثاني ـ النظر والاستدلال بالآيات:

من الأمور المتفق عليها لدى العقلاء أن كل شيء له علة توجده، أو صانع يصنعه، فإذا نظر الإنسان إلى الكون، واستعرض ما فيه من الكائنات حصل له علم ضروري بأن هذه الكائنات لم توجد صدفة، بل لا بدّ لها من موجد أوجدها.

يشهد لذلك قول بعض الأعراب، وقد سئل: بم عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وآثار الخطى تدل على المسير: فهيكل علوي، وجوهر سفلي، لم لا يدلّان على العليم الخبير؟ وإلى هذا أشارت الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما حكى الله تعالى في قوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2]. فقولهم: (فاطر السموات والأرض) إشارة إلى استنكار الشك فيمن هذا صنيعه وأثره، والأثر الحقير يدلّ على صاحبه، فكيف لا يدلّ هذا الأمر العظيم بما اشتمل عليه من الآيات والأعاجيب على صانعه[3]؟

(١) من الكتب الحديثة التي تعالج هذا الموضع: العذر بالجهل عقيدة السلف لشريف محمد فؤاد هزاع، والعذر بالجهل والرد على بدعة التكفير لأحمد فريد، وأهل الفترة من في حكمهم لموفق أحمد شكري، والجواب المفيد في حكم جاهل التوحيد لعبد الرحمن عبد الحميد.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٣) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: ابن الوزير اليماني ٨٣.

والقرآن الكريم مملوء بذكر الآيات التي تدعو الإنسان بأن يوجه نظره إلى خلق هذا الكون من سمائه وأرضه، وما فيهما من عجائب مخلوقات الله، وتدعوه إلى التفكر في أسراره ليدعم إيمانه بالخالق سبحانه، ويطرد الشك من نفسه.

يقول الله سبحانه: ﴿قُلِ انْظُرُوْا مَاذَا فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾[١].

قال الشوكاني: (والمراد بالنظر: التفكر والاعتبار، أي تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ووحدته وكمال قدرته، فإن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته، كملكوت السموات والأرض، أو من دقائقها من سائر مخلوقاته)[٢].

وقد سلك الشوكاني هذه الطريقة في الاستدلال بالآيات على وجود الله، لأنها أدلّ على المقصود من غيرها، ولأنها أدلّة عقلية صحيحة[٣] وشرعية دلّ عليها القرآن.

وهذه الآيات إما تتعلق بالكون وما فيه من مخلوقات، أو ما يسمى بدلائل الآفاق، وإما تتعلق بالإنسان نفسه، أو ما يسمى بدلائل الأنفس.

وقد جمعهما الله سبحانه في كتابه الكريم في قوله: ﴿وَفِيْ الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِين، وَفِيْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُوْنَ﴾[٤] وقوله: ﴿سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِيْ الآفَاقِ، وَفِيْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٥].

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٧١، ٤٧٦.
(٣) انظر: أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ١٤٦.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٢٠، ٢١.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(أ) دلائل الآفاق:

أما دلائل الآفاق فهي تعني ـ كما قال الشوكاني نقلاً عن عطاء ـ[1]: أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق، والنبات والأشجار، والجبال، والبحار، وغير ذلك[2].

وقد جمعها الله سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِيْ تَجْرِيْ فِيْ الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ﴾[3].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: (لمّا ذكر سبحانه وتعالى التوحيد بقوله: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه، وهو هذه الأمور التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التي أثبتها الكفار أن يأتي بأي شيء منها أو يقتدر عليه، أو على بعضه، وهي خلق السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبثّ الدواب منها بسببه، وتصريف الرياح، فإن من أمعن نظره، وأعمل فكره في واحد منها انبهر له، وضاق ذهنه عن تصوّر حقيقته، وتحتّم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه)[4].

---

(١) لعله: عطاء بن أبي مسلم الخراساني، مفسر، محدث، واعظ، من تصنيفه: التفسير، والناسخ والمنسوخ، قال الحافظ في التقريب (ص ٣٩٢ برقم ٤٦٠٠): صدوق يهم كثيراً ويرسل ويدلس. توفي سنة ١٣٥ هـ (انظر ترجمته أيضاً في ميزان الاعتدال: الذهبي ٣٩٢ برقم ٤٦٠٠ وشذرات الذهب: ابن العماد ١/ ١٩٢).

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٥٢٣ هـ.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٦٣.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيْ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلمُؤْمِنِيْن، وَفِيْ خَلْقِكُمْ، وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ، فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيْفِ الرِّيَاحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ، تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيْثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُوْن﴾[(١)].

قال الشوكاني: (هذه الآيات المذكورة هي حجج الله وبراهينه)[(٢)].

وآيات الله في الكون أكثر من أن تحصى، لأنّ الله بثّ دلائل وجوده في كل شيء من الكون، فكلما تأمّل العقلاء في هذا الكون الكبير، وتأمّل ما فيه من تناسق، وتضامن، وانسجام، وترابط بين أجزائه ووحداته، تجدّد لهم في كل تأمّل جديد برهان جديد يشير إلى الخالق العظيم.

وفي كل شيء له آية   تدلّ على أنه واحد

وقد أعطى الشوكاني رحمه الله الاستدلال بآيات الآفاق عناية كبيرة، فمثلاً عندما بيّن الله سبحانه في كتابه العزيز اختلاف النبات في الطعم رغم اتحاد التربة والماء في قوله تعالى: ﴿وَفِيْ الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ، وَنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِيْ الأُكُلِ، إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْن﴾[(٣)]. وقال في مفاد هذه الآية:

(وفي هذا من الدلالة على بديع صنعه، وعظيم قدرته، ما لا يخفى على من له عقل، فإنّ القطع المتجاورة، والجنات المتلاصقة المشتملة على أنواع النبات، مع كونها تسقى بماء واحد، وتتفاضل في الثمرات في الأكل،

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٣ ــ ٦.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤.

فيكون طعم بعضها حلواً، والآخر حامضاً، وهذا في غاية الجودة، وهذا ليس بجيد، وهذا فائق في حسنه، وهذا غير فائق، مما يقطع من تفكّر، واعتبر، ونظر نظر العقلاء أنّ السبب المقتضى لاختلافها ليس إلا قدرة الصانع الحكيم جل سلطانه وتعالى شأنه، لأنّ تأثير الاختلاف فيما يخرج منها، ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلّا لسببين: إمّا اختلاف المكان الذي هو المنبت، أو اختلاف الماء الذي تسقى به، فإذا كان المكان متجاوراً، وقطع الأرض متلاصقة، والماء الذي تسقى به واحداً لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلّا تلك القدرة الباهرة، والصنع العجيب، ولهذا قال سبحانه: ﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي يعملون على قضية العقل وما يوجبه، غير مهملين لما يقتضيه من التفكر في المخلوقات، والاعتبار في العبر الموجودات)[1].

وهناك أمثلة أخرى كثيرة لا مجال هنا لبسطها فأكتفي بما ذكرته.

(ب) دلائل الأنفس:

وأما دلالة الأنفس فهي من أوضح دلالة على وجود الله، لأنها تتعلق بنفس الإنسان، وخلقه، وتكوين أعضائه، وما يعرض له في حياته من أحوال وأطوار، فإذا تأمّل الإنسان في هذه الأشياء تأمّلاً جيداً يجد فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته، ما يضطرّ معه إلى الاعتراف بقادر حكيم، ومدبّر عليم.

ولهذا دعا الله سبحانه عباده إلى النظر، والتفكر بعين البصيرة في مبتدإ خلقهم، وفي أطواره التي مرّوا بها.

يقول الله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾[2].

---

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٦٥.
(١) سورة الطارق، الآية: ٥.

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُوْنَ﴾[1] كما حثّهم على النظر والتفكر في أنفسهم لما فيها من آثار قدرته سبحانه وحكمته.

يقول سبحانه: ﴿وَفِيْ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُوْنَ﴾[2].

قال الشوكاني في بيان وجهة الاستدلال بهذه الآية:

(أي وفي أنفسكم آيات تدلّ على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل، فإنه خلقهم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظما، إلى أن ينفخ فيه الروح، ثم تختلف بعد ذلك صورهم وألوانهم وطبائعهم وألسنتهم، ثم نفس خلقهم على هذه الصفة العجيبة الشأن، من لحم، ودم، وأعضاء، وحواس، ومجاري، ومنافس)[3].

فقد استدلّ الشوكاني هنا بأطوار النطفة، وتقلّبها طبقاً بعد طبق، حتى صار إنساناً كاملاً، على وجود الله تعالى ووحدانيته، وصدق ما جاءت به رسله، وقال: (ومعنى ﴿أفلا تبصرون﴾: أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلّون بذلك على الخالق الرازق المتفرّد بالألوهية، وأنه لا شريك له، ولا ضدّ، ولا ندّ)[4].

وهذه الأطوار الإنسانية هي ما أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِيْنٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِيْ قَرَارٍ مَكِيْنٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾[5].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٠.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٨٥.
(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٢ ــ ١٤.

ومن دلائل الأنفس التي أوضحها الشوكاني مسألة اختلاف الناس، وتوارثهم في الصفات الجنسية، من عرب، وعجم، وترك، وروم، وغير ذلك، وفي الصفات اللونية، من البياض، والسواد، والحمرة، والصفرة، والزرقة، والخضرة، مع كونهم أولاد رجل واحد، وأمّ واحدة، ويجمعهم نوع واحد، وهو الإنسانية، وفصل واحد، وهو الناطقية، حتى صاروا متميزين في ذات بينهم، لا يلتبس هذا بهذا، بل في كل فرد من أفرادهم ما يميزه عن غيره من الأفراد، وفي هذا من بديع القدرة ما لا يعقله إلّا العالمون، ولا يفهمه إلّا المتفكرون[1].

وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِيْنَ﴾[2].

وفي الحقيقة أن الدلائل على وجود الله في الأنفس أكثر من أن تحصى، فإن دلالة الإنسان على خالقه تعالى من جوانب عديدة، ويكفينا ما نراه من مظاهر الإحكام، والعناية، والإبداع، في خلق الإنسان، وتركيب حواسه، ووضع كل عضو في موضعه المناسب لأداء وظيفته، مما لا يمكن معه الشك في وجود الخالق سبحانه، وكلّما اتسع نطاق العلم، تضافرت الأدلة على أن لهذا الإنسان البديع الصنع إلٰهاً حكيماً.

وهذا استدلال بخلق الإنسان على وجود خالقه ومدبّره، وهو دليل واضح وسهل لا تعقّد فيه، وعن هذا الاستدلال يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دلّ القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن كون نفس الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يعلم

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢١٩، ٢٢٠.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

بمجرّد خبر الرسول، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر، لكن الرسول أمر أن يستدلّ به، ودلّ به، وبينه، واحتج به، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدلّ به، وأمر أن يستدلّ به، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته)[١].

تلك هي الطرق التي ارتضاها الشوكاني في الاستدلال على وجود الله، والذي يتضح لنا أن الشوكاني في منهجه هذا موافق لمنهج السلف، إذ من منهجهم الاستغناء بالقرآن عن أدلّة الفلاسفة والمتكلمين وأمثالهم، وقبول كل دليل عقلي صحيح وشرعي دلّ عليه القرآن وهدى الناس إليه.

وينبغي أن يعرف أن السلف توسعوا في الاستدلال بالآيات، فمع استدلالهم بآية الخلق التي شملت الآفاق والأنفس على وجود الله، استدلوا أيضاً بالدلائل المأخوذة من طريق الحسّ لمن شاهدها، وطريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها، وهو الاستدلال بالمعجزات، واعتبروا هذا الطريق من أقوى الطرق وأوثقها، كما بين شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]، وابن القيم[٣]، والبيهقي[٤]، وابن الوزير اليماني[٥]، وغيرهم، ولم أقف على كلام الشوكاني عن هذا الطريق إلا ما أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ

---

(١) النبوات: ابن تيمية ٧١، ٧٢.

(٢) انظر: مجموع فتاوى: ابن تيمية ١١/ ٣٧٧ ـ ٣٨٠.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة للموصلي ١٦٠، ١٦١ ط/ دار الكتب العلمية.

(٤) انظر: الاعتقاد والهداية: البيهقي ٢٧ تعليق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب.
والبيهقي: هو الإمام الحافظ شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي، فقيه جليل، حافظ كبير، كتب الحديث وحفظه من صباه، وصنّف تصانيف كثيرة منها: السنن الكبرى، وشعب الإيمان، ودلائل النبوة. توفيّ (٤٥٨ هـ) (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٨/ ١٦٣، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٢/ ٩٤، وشذرات الذهب: ابن العماد ٣/ ٣٠٤).

(٥) انظر ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: ابن الوزير (ص ٦٤، ٦٥: وقد تقدّمت ترجمته في صفحة ٢٦.

مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوْا عَنْهَا مُعْرِضِيْن﴾[1] قال: (إن سبب الكفر والتمرّد هو الاعراض عن آيات الله التي تأتيهم، كمعجزات الأنبياء، وما يصدر عن قدرة الله الباهرة، مما لا يشكّ من له عقل أنه فعل الله سبحانه)[2].

بهذا وافق الشوكاني السلف في منهجهم، وخالف منهج المتكلمين، والفلاسفة المعطلين.

نقد الشوكاني منهج المتكلمين في النظر والاستدلال:

إن ما ذهب إليه المتكلمون في الاستدلال بالجواهر والأعراض غير مقبول عند الشوكاني، وقد أنكر عليهم وعنّفهم فيما ذهبوا إليه، لأنهم لم يقفوا على ما تقتضيه أدلّة الكتاب والسنة، ولا ينبغي لعالم من العلماء أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين، لأن الحقّ الذي لا شكّ فيه ولا شبهة، هو ما كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم[3].

وقد رأى الشوكاني أنه (ينبغي عدم الاعتداد بشيء من تلك القواعد المدوّنة في علم الكلام، وذلك لأنها مبنية على شفا جرف هار من أدلّة العقل التي لا تعقل ولا تثبت، إلا بمجرّد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى)[4].

كما أنكر عليهم رحمه الله في موضع آخر قال: (إن سائر المسائل

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٠٠.
(٣) انظر: أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ١٤٦، وأيضاً: التحف في مذاهب السلف له ٤ ضمن الرسائل السلفية. والعبارة مقتبسة من الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ قال: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة (الفتح ٧/ ٥ برقم (٣٦٥١) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٣ برقم ٢٥٣٢).
(٤) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ١٤٦.

الكلامية مبنية في الغالب على دلائل عقلية، هي عند التحقيق غير عقلية، ولو كانت معقولة على وجه الصحة لما كانت كل طائفة تزعم أن العقل يقضي بما دبت عليه، ودرجت، واعتقدته، حتى ترى هذا يعتقد كذا، وهذا يعتقد نقيضه، وكل واحد منهما يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقده، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغيّر ما فطره الله عليه أن يتعقّل الشيء ونقيضه)[١].

(ومن العجب العجيب والنبأ الغريب، أن تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام التي جعلها من بعدهم أصولاً لا مستند لها، إلا مجرّد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة)[٢].

وهكذا نجد الشوكاني يبين عيوب المتكلمين في منهجهم، ويعرب عن فساده ونتائجه الباطلة، إذ لزم عنه تعطيل صفات الله تعالى، وردّ بعض النصوص الثابتة من القرآن والسنة، وفي هذا ذكر الشوكاني لنا مثالاً، قال:

هذا أبو علي[٣] وهو رأس من رؤوسهم، وركن من أركانهم، وأسطوانة من أسطواناتهم، قد حكى عنه قوله: واللّهِ لا يعلم الله من نفسه إلا ما يعلم هو[٤]: فانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى التي ليس بعدها جرأة[٥].

كما نجد الشوكاني يطلب من الباحثين أن يريحوا أنفسهم من العبارات

---

(١) كشف الشبهات عن المشتبهات: الشوكاني ١٩ ضمن الرسائل السلفية.

(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٦ ضمن الرسائل السلفية.

(٣) هو أبو علي الجبائي: محمد بن عبد الوهاب بن سلام، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب توفّي سنة ٣٠٣ هـ. (انظر: البداية والنهاية: ابن كثير ٢٢/ ١٢٥، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ١٤٧).

(٤) وشرح هذه المقولة الخاسرة ــ كما قال الشوكاني ــ: إنه أقسم بالله أن الله لا يعلم من نفسه غير ما يعلمه هذا الجبائي!! عياذاً بالله تعالى (انظر: كشف الشبهات عن المشتبهات للشوكاني ١٨ ضمن الرسائل السلفية).

(٥) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية.

التي جاء المتكلمون واصطلحوا عليها[1]. كالدور، والتسلسل، والإمكان، والحدوث، والأعراض، والجواهر، والجسم، والخلاء، وما يوجبه العقل، وما يجيزه، وما يستحيل عليه، وغير ذلك. وينكر إنكاراً شديداً على استدلالهم بهذه الطريقة، وخاصّة عندما أوجبوا هذا الاستدلال، وجعلوا النظر فيه هو النظر الواجب على كل مكلف، على اختلاف فيما بينهم[2]. وقالوا إن من آمن بالله بغير طريق النظر فإنما هو مقلد، واختلفوا في حكمه، فرجّح بعضهم كفره، واكتفى بعضهم بتفسيقه[3].

يقول الشوكاني رحمه الله بعد سرد هذه المقالة: (فيالله العجب من هذه المقالة التي تقشعرّ لها الجلود، وترجف عند سماعها الأفئدة، فإنها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم، ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها الإيمان الجملي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ، وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك، ولا أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته)[4].

وقرّر الشوكاني مذهب أئمة الحديث في هذه المسألة، وهو الاكتفاء بالإيمان الجملي، لأنه هو الذي كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، بل حرّم كثير منهم النظر في ذلك، وجعله من الضلالة والجهالة، ولم يخف هذا من مذهبهم[5].

---

(١) انظر: المصدر السابق ٦.

(٢) اختلفوا في أوّل الواجبات على المكلف: فقال بعضهم هو معرفة الله تعالى، وقال بعض آخر هو النظر فيها، وقال آخرون هو أوّل النظر: أي المقدمة الأولى منه، نحو قولك: العالم حادث، وكل حادث لا بدّ له من محدث فمجموع المقدمتين هو النظر، والمقدمة الأولى هو أوّل النظر. وقال بعضهم هو القصد إلى النظر. (انظر: المواقف في علم الكلام: الإيجي ٣٢، شرح جوهرة التوحيد: البيجوري ٣٧).

(٣) انظر: شرح جوهرة التوحيد: البيجوري ٢٢، ٣٤ وأيضاً: المواقف: الإيجي ٣٣.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني ٢٦٦ ط/ دار المعرفة.

(٥) انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني ٢٦٦.

وقال في صدد ردّه على المتكلمين: (ونحن لا ننكر من الدلائل العقلية[1] بقدر ما ينال المسلم به بردّ الخاطر، وإنما ننكر إيجاب التوصّل إلى العقائد في الأصول بالطريق الذي اقتعدوه وساموا به الخلق، وزعموا أن من لم يعرف ذلك لم يعرف الله تعالى، ثم أدّاهم ذلك إلى تكفير العوام أجمع، وهذا هو الخطة الشنعاء والداء العضال[2].

وقال: (ومن أمعن النظر في أحوال العوام وجدها صحيحاً[3]، فإن كثيراً منهم نجد الإيمان في صدره كالجبال الرواسي، ونجد بعض المتعلقين بعلم الكلام، المشتغلين به، الخائضين في معقولاته، التي يتخبّط فيها أهلها لا يزال ينقص إيمانه، وينتقض منه عروة عروة، فإن أدركته الألطاف الربانية نجا، وإلاّ هلك، ولهذا تمنّى كثير من الخائضين في هذه العلوم، المتبحّرين في أنواعها، في آخر أمره، أن يكون على دين العجائز[5] ولهم في ذلك من الكلمات المنظومة والمنثورة، ما لا يخفى على من له اطلاع على أخبار الناس)[4].

والحق الذي عليه سلف هذه الأمة، أنّ أصل الإسلام، وما يؤمر به العباد، شهادة أن لا إلّه إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، لا المعرفة، ولا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال أهل الكلام

---

(١) لعل الأصل: ونحن لا ننكر أنه ينبغي أن يتعلّم من الدلائل العقلية الخ. والله أعلم.

(٢) المصدر السابق (ص ٢٦٧) نقلاً عن السمعاني.

(٣) كذا في الأصل، والصواب: صحيحة. (٥) يشير الشوكاني إلى ما وقع من الجويني (ت ٤٧٨ هـ)، والرازي (ت ٦٠٦ هـ)، وابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، والسهروردي (ت ٥٨٧ هـ)، والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وأمثالهم، ممن ندموا على ما جنوا به على أنفسهم، وتمنّى كل منهم في آخر أمرهم دين العجائز. وقد تقدم الكلام عن هذا في باب التمهيد، صفحة (٣٦ في الهامش).

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني ٢٦٦، ٢٦٧.

المـذموم، وأن من فعـل ذلك قبـل البلوغ لم يؤمـر بتجـديـد ذلـك عقيب بلوغه[1].

وهذا هو الذي دلّ عليه كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ.

أمّا كتاب الله: ففيه عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ، وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوْا اللَّهَ، مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاءَ، وَيُقِيْمُوْا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوْا الزَّكَاةَ، وَذَلِكَ دِيْنُ الْقَيِّمَةِ﴾[3].

وفي القرآن كثير من مثل هذه الآية التي يأمر الله فيها عباده بأن يعبدوه، ويخلصوا له الدين ابتداء.

وأمّا السنّة، فإنّ النبي ﷺ لم يدع الناس إلى المعرفة، ولا إلى النظر إلى الاستدلال على وجود الله ابتداء، بل أوّل ما دعاهم إليه شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وهذا واضح في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله»[4].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٧٥، وانظر أيضاً: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٧٦، وإغاثة اللهفان: ابن القيم ١/٣٠، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم. (انظر: الفتح ١/ ٩٤، ٩٥ برقم ٢٥) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، محمد رسول الله ١/ ٥٣ برقم (٢٢).

وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، حينما بعثه النبي ﷺ إلى أهل اليمن، قال له: «إنك ستأتي قوماً أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلّا الله، أن محمداً رسول الله[١]، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم... الحديث»[٢].

ففي هذين الحديثين دليل على أن أوّل واجبات الإسلام هو الشهادتان، فبهما يصير الكافر مسلماً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان صادقاً في نطقه فهو مسلم ظاهراً وباطناً، وإن كان كاذباً في الباطن فهو منافق[٣].

وقد سبق الشوكاني في نقد المتكلمين القائلين بوجوب النظر ابتداء كثير

---

(١) وفي رواية: فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله... (انظر الفتح حديث رقم ١٤٥٨)، وفي رواية أخرى: فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك. (انظر الفتح حديث رقم ٧٣٧٢). ووجه الجمع بينهما ــ كما قال الحافظ ابن حجر ــ: أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله: ذلك. إلى التوحيد، وقوله: فإذا عرفوا الله، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة: الإقرار والطواعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القضية الواحدة، وبالله التوفيق (الفتح ١٣/ ٣٦٧، وانظر أيضا ٣/ ٤٠٣).

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا (الفتح ٣/ ٤١٨ برقم ١٤٩٦، وأخرجه بلفظ آخر برقم ١٣٩٥، ١٤٥٨، ٧٣٧٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/ ٥٠ برقم (١٩).

(٣) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٤٠ مكتبة الصحابة الإسلامية. وأيضاً فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ٨٤ تحقيق محمد حامد الفقي، ط/ لاهور.

من العلماء، منهم ابن حزم(١)، وشيخ الإسلام ابن تيمية(٢)، والحافظ ابن حجر(٣)، وتبين لديهم أن نظر الفلاسفة والمتكلمين لا يفضي بكل الناس إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وبخاصة من لا يقدرون على هذا النوع من الاستدلال، فضلاً عن مخالفته منهج الله الذي حمله الرسل جميعاً، وبه أخذه السلف عن رسولنا ﷺ.

المبحث الثالث

منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالقضاء والقدر

تعريف القضاء والقدر ومعنى الإيمان به:

القضاء في اللغة:

جاء في الصحاح: (القَضَاء: الحُكْم، وأصله قَضَايَ، لأنه من قَضَيْتُ،

---

(١) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٦٧ ـ ٧٨ تحقيق: د/ محمد إبراهيم نصر، د/ عبد الرحمن عميرة، ط/ ١٤٠٢ هـ. وابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، الإمام المحدّث الفقيه، كان شافعيا ثم تركه إلى القول بالظاهر، له مؤلّفات كثيرة منها: المحلّى، والفصل في الملل والنحل. توفيّ (٤٥٦ هـ) (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٨/ ١٨٤، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٣/ ٢٩٩).

(٢) ذكر ابن تيمية هذا القول، وبيّن أنّه من قول الجهمية والمعتزلة، وأنّ الأشاعرة ومن سلك مسلكهم تابعوهم في ذلك، وردّ على القائلين به في عدّة مواضع من كتبه، وعلى سبيل المثال انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٠٥ ـ ٤٦٤) تحقيق د/ رشاد محمد سالم ط/ ١٤٠٢ هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٣) انظر الفتح (١٣/ ٣٦١ ـ ٣٦٧) وقد نقل أقوالاً كثيرة في الردّ عليهم. وابن حجر هو أحمد بن علي ابن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، شيخ الإسلام وإمام الحفّاظ في زمانه، له تصانيف كثيرة جليلة منها: فتح الباري، ولسان الميزان، وتهذيب التهذيب توفّي (٨٥٢ هـ) (انظر الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٣٦، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٨٧).

والجمع الأقْضية، والقَضِية مثله، والجمع القَضَايَا، وقَضَى أي حَكَمَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوْا إِلَّا إِيَّاه﴾[1][2].

وجاء في اللسان: (القضاء: الحكم، وأصله قَضَاي لأنه من قَضَيْتُ، وقد تكرر في الحديث ذكر القضاء، وأصله القطع والفصل، يقال: قَضَى يَقْضِيْ قَضَاء فهو قاضٍ إذا حَكَمَ وفَصَلَ، وقضاء الشيء: إحْكامه وإمضَاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق، وقال الأزهري[3]: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أُحكم عمله، أو أُتِمّ، أو خُتِم، أو أُدّي أداء، أو أُوجب أو أُعلم، أو أُنفذ، أو أُمضي، فقد قُضي، قال: وقد جاءت هذه الوجوه كلها، في الحديث، ومنه القضاء المقرون بالقدر)[4].

القدر في اللغة:

والقدر في اللغة كما جاء في اللسان هو: القضاء الموفق، يقال: أقدر الإلـه كذا تقديراً، وإذا وافق الشيء الشيء، قلت جاء قدره. قال ابن سيدة[5]: القَدْر والقَدَر: القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِيْ لَيْلَةِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) الصحاح: الجوهري (٦/ ٢٤٦٣ مادة: قضى، وانظر أيضاً: المفردات: الأصفهاني (ص ٤٠٦).

(٣) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، أحد الأئمة في اللغة والأدب، له: التهذيب في اللغة، وغيره، توفي سنة ٣٧٠ هـ (وفيات الأعيان: ابن خلكان ١/ ٥٠١، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١١٠).

(٤) لسان العرب: ابن منظور ١٥/ ١٨٦ مادة (قضي).

(٥) أبو الحسن علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيدة، إمام في اللغة وآدابها، توفي سنة ٤٥٨ هـ (وفيات الأعيان: ابن خلكان ١/ ٣٤٢، ولسان الميزان: ابن حجر ٤/ ٢٠٥).

الْقَدْرِ﴾[1] أي الحكم.. وفي الحديث ذكر ليلة القدر، وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضي)[2].

القضاء والقدر في الاصطلاح:

أما القضاء والقدر في الاصطلاح، فاختلفت عبارات العلماء في تعريفهما، منهم من فرّق بينهما، فعرّف القضاء تعريفاً مغايراً للقدر، ومنهم من اعتبرهما شيئاً واحداً.

فمن الأول قول الجرجاني[3] في التعريفات: (القضاء في الاصطلاح عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات، على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد. والقدر خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقاً للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال. والفرق بين القضاء والقدر هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرّقة في الأعيان بعد حصول شرائطها)[4].

وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، كما ذهب إليه الأصفهاني[5] في كتابه: المفردات، قال: (والقضاء من الله تعالى أخصّ من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.

(٢) لسان العرب: ابن منظور ٥/ ٧٤ مادة (قدر)، وانظر أيضاً: النهاية لابن الأثير ٤/ ٢٢.

(٣) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مؤلفاً، توفيّ سنة ٨١٦ هـ (انظر ترجمته في: مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٩٢، ١٩٣ والبدر الطالع: الشوكاني ١/ ٤٨٨).

(٤) التعريفات: الجرجاني ١٧٧، ١٧٤ ط/ ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية، وانظر أيضاً: الفتح لابن حجر ١١/ ١٥٣، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٣٤٥، ط/ المدني.

(٥) تقدّمت ترجمته في صفحة (٩٦).

التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعدّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لمّا أراد الفرار من الطاعون بالشام: أتفرّ من القضاء؟ قال: أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله، تنبيهاً أنّ القدر ما لم يكن قضاء فمرجوّ أن يدفعه الله، فإذا قضي فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(١)(٢).

وعلى كل فإن القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، وقد أشار إلى ذلك الخطابي(٣) حيث قال بعد تعريفه لهما: (وجماع القول في هذا أنهما أمران لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه)(٤).

أما من جعل للقضاء والقدر مدلولاً واحداً مشتركاً(٥) فمعناه: تعلّق علم الله تعالى بالكائنات، وإرادته لها قبل وجودها، فلا حادث إلا وقد قدّره الله أي سبق علمه به، وتعلقت به إرادته. وهذا ما يبدو من ظاهر الاستعمالات الاصطلاحية لهما، إذ قد يجتمعان في الاستعمال، وقد ينفردان، والمدلول واحد.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢١.
(٢) المفردات في غريب القرآن: الأصفهاني ٤٠٦، ٤٠٧.
(٣) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، فقيه، محدّث له مؤلفات في الحديث وغيره، وتوفي سنة ٣٨٨ هـ (انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٧/ ٢٣ ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ١٢٨، والأعلام: الزركلي ٢/ ٢٧٤).
(٤) معالم السنن شرح سنن أبي داود: الخطابي ٥/ ٧٧ دار الحديث للطباعة.
(٥) كما ذهب إليه كثير من أهل العلم، انظر: الفصل لابن حزم ٣/ ٧٨ تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر د/ عبد الرحمن عميرة، والفتح لابن حجر ١١/ ١٥٣، وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري ٢٢، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ٣٤٥.

وعقيدة القضاء والقدر مبنية في حقيقتها على المعرفة الحقّة بصفات الله العلي وأسمائه الحسنى، ومنها العلم، والقدرة، والإرادة.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

وقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٤).

ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله عندما سئل عن القدر: (القدر قدرة الله)(٥).

وقد استحسن ابن عقيل(٦) هذا الكلام جداً، وقال: (هذا يدلّ على دقّة علم أحمد، وتبحّره في معرفة أصول الدين)(٧).

والحق أنّ تعريف الإمام أحمد للقدر تعريف مختصر جميل، لأنّ القدر ما هو إلّا القدرة الإلٰهية الشاملة لكل شيء من الموجودات والمعدومات، فإنكار القدر إنكار لهذه القدرة. وهذا كما قال ابن القيم رحمه الله: (القدر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

(٢) سورة البروج، الآية: ١٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٥) شفاء العليل: ابن القيم ٥٩ مكتبة دار التراث.

(٦) أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي، عالم العراق، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته، له كتاب: الفنون، والفرق والفصول، والرد على الأشاعرة، وغير ذلك، توفي سنة ٥١٣ هـ (انظر ترجمته في: لسان الميزان: ابن حجر ٤/٢٤٣، والذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب ١/١٤٢).

(٧) شفاء العليل: ابن القيم ٥٩، ٦٠.

عند أهل السنة: قدرة الله تعالى وعلمه، ومشيئته، وخلقه، فلا تتحرّك ذرّة فما فوقها إلّا بمشيئته وعلمه وقدرته)[1].

معنى الإيمان بالقضاء والقدر والأدلّة على ذلك:

ومما تقدّم يفهم معنى الإيمان بالقضاء والقدر، فالإيمان بالقضاء والقدر هو أن يصدّق الإنسان تصديقاً جازماً بأن كل خير وشرّ فهو بقضاء الله وقدره، وأنه سبحانه سبق علمه بكل مخلوق، وشاء وجوده، وأوجده وفق ما قدّره له، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلّا بإذنه وإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته وعن تقديره، لا أفعال الإنسان ولا غيرها، وأنه تعالى هو الخالق لأفعال عباده كلها، سواء كانت خيراً أم شرّاً، ومع ذلك فقد أمرهم سبحانه ونهاهم، وجعلهم مختارين لجميع أفعالهم، وليسوا مجبورين عليها، بل تحصل منهم بقدراتهم وإراداتهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضلّ من يشاء بحكمته، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وبهذا كله يجب الايمان، وبه يتحقّق الإيمان الشرعي المطلوب بالقضاء والقدر الذي أمر به سبحانه، وجاءت به السنّة النبوية المطهرة.

وقد دلّ على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر أدلّة كثيرة في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

«أي إن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه متلبساً بقدر قدّره وقضاء قضاه، سبق في علمه، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيْكٌ فِيْ الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيْراً﴾[4].

---

(١) المصدر السابق ١١٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/١٢٩.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢.

«أي قدّر كل شيء مما خلق بحكمة على ما أراد، وهيأه لما يصلح له»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[2]. أي قضاء مقضياً[3].

أما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جدّاً، ومنها:

١ ـ حديث جبريل المشهور، حين جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، قال ﷺ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[4].

٢ ـ حديث ابن الديلمي قال: أتيت أبيّ بن كعب، فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدّثني بشيء لعلّ الله أن يذهبه من قلبي، قال: لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه، عذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله، ما قبل الله منك حتّى تؤمن بالقدر، وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير هذا لدخلت النار،

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٦١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٨٥.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/ ٣٦ برقم (١)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٥/ ٦٩ ـ ٧٢ برقم (٤٦٩٥)، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام ٥/ ٨ برقم (٢٦١٠)، والنسائي في كتاب الإيمان، باب صفة الإيمان والإسلام ٨/ ١٠١ برقم (٤٩٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب في الإيمان ١/ ٢٤ برقم (٦٣)، وأحمد في المسند ١/ ٢٧، وابنه عبد الله في السنة ٢/ ٤١٤ برقم (٩٠١)، والآجري في الشريعة ١٨٩، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٦/ ١١٥٧ برقم (٢١٨٠).

قال: ثمّ أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، قال: ثمّ أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثمّ أتيت زيد بن ثابت فحدّثني عن النبي ﷺ مثل ذلك[1].

٣ ـ حديث جابر بن عبد الله أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن عبد حتّى يؤمن بالقدر خيره وشرّه، حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[2].

فهذه بعض الأحاديث التي توجب الإيمان بالقدر، وهناك أحاديث كثيرة في هذا الصدد فلتنظر في مظانها.

والإيمان بالقدر يتضمّن أربع مراتب هي إجمالاً كما يلي:

١ ـ الإيمان بعلم الله الأزلي بكل شيء من الموجودات والمعدومات، ومن ذلك علمه بأعمال الخلق من الطاعات والمعاصي، وعلمه بأحوالهم من الأرزاق والآجال وغيرها.

قال تعالى للملائكة لمّا استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض: ﴿إِنِّيْ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٥/ ٧٥ برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجة في المقدمة، باب في القدر ١/ ٢٩ برقم (٧٧)، وأحمد في المسند ٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٠٩ برقم (٢٤٥)، والآجري في الشريعة ١٨٧، ٢٠٣، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٦١٢، ٦١٣ برقم (١٠٩٢، ١٠٩٣) قال الشيخ الألباني: إسناده صحيح، ورجاله ثقات (انظر: السنة لابن أبي عاصم ١/ ١٠٩، ومشكاة المصابيح ١/ ٤١ برقم (١١٥)، وشرح العقيدة الطحاوية ٥٠٩ في الهامش).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب القدر، باب الإيمان بالقدر خيره وشرّه ٤/ ٣٩٣ برقم (٢١٤٤) عن جابر بن عبد الله. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢/ ١٢٥٨ برقم (٧٥٨٥).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، إِنَّ ذٰلِكَ فِيْ كِتَابٍ﴾[1].

٢ ـ الإيمان بأنّ الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فما من شيء في الكون إلاّ وقد علمه الله، وكتبه قبل حدوثه.

قال تعالى: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِيْ السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِيْ الأَرْضِ، وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مُبِيْنٍ﴾[2]. أي في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه[3].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِيْ الأَرْضِ، وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ، إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرٌ﴾[4].

٣ ـ الإيمان بمشية الله الشاملة، وقدرته التامّة لكل شيء من الموجودات والمعدومات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإنّه على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿كَذٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ﴾[6].

٤ ـ الإيمان بخلقه سبحانه، وإيجاده لكل المخلوقات، فما من مخلوق في الأرض، ولا في السماء، إلاّ الله خالقه، لا خالق غيره، ولا ربّ سواه.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٠.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٣١٢.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٠.
(٦) سورة التكوير، الآية: ٢٩.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[1].

وقد دلّ على الإيمان بهذه المراتب الأربع أدلّة كثيرة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف لا مجال هنا لبسطها[2].

والإيمان بالقدر أحد أركان العقيدة الإسلامية، وهو الركن السادس للإيمان، كما جاء في حديث جبريل السابق، وهذا الركن من الإيمان داخل في الإيمان بربوبية الله تعالى على خلقه، إذ أنّ من آمن بأنّ الله هو الخالق، والرازق، والمدبّر، والمتصرّف في شؤون خلقه كلها، فهو مؤمن بالقضاء والقدر، وعلى هذا فلا يتمّ توحيد الربوبية إلا بإثبات القدر[3] والإيمان به إيماناً صحيحاً كما جاء في كتاب الله، وفي سنّة رسوله ﷺ، وكما فهمه علماء السلف رحمهم الله تعالى.

منهج السلف في الإيمان بالقدر:

إنّ المنهج الذي عليه سلف الأمّة في الإيمان بالقدر هو ما دلّ عليه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهو الإيمان بأنّ كلّ شيء بقضاء الله وقدره، وأنّ الله تعالى على كل شيء قدير، وأنّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والقدر عند السلف ما سبق به علم الله، وجرى به القلم، ممّا هو كائن من خلقه إلى الأبد، فهو الذي أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضلّ وهدى[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٢) انظر تفصيلها في: شفاء العليل لابن القيم ٦١ ـ ١٤٠، وأيضاً مجموع فتاوى لابن تيمية ٣/ ١٤٨، ١٤٩، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٣٠٦.

(٣) انظر تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٦٨٥.

(٤) انظر أقوال علماء السلف في بيان هذا المنهج في: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٣٠٢، ٣٠٣، والشريعة: الآجري ١٥٠، ١٥١، وعقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني ٦٢، ٦٣، ضمن عقيدة الفرقة الناجية، ولمعة الاعتقاد: وابن قدامة المقدسي ٢٤، ٢٥، ومنهاج السنة: ابن تيمية ٣/١٢، ١٣، ومختصر الصواعق المرسلة: ابن القيم ٨٥٨، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ١/ ٢٧٦، ٣٤٨.

وقد فصّل ابن القيم رحمه الله منهج السلف في الإيمان بالقدر حيث قال: (فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال، ومشيئته العامة، وينزّهونه عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه، ولا هو واقع تحت مشيئته، ويثبتون القدر السابق، وأن العباد يعملون ما قدره الله وقضاه وفرغ منه، وأنّه لا يشاؤون إلّا أن يشاء الله، ولا يفعلون إلّا من بعد مشيئته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه، والقدر عندهم قدرة الله تعالى وعلمه ومشيئته وخلقه، فلا تتحرّك ذرّة فما فوقها إلّا بمشيئته وعلمه وقدرته. . .

وقال عن الهداية والاضلال: (ويؤمنون بأنّ من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلماً، والكافر كافراً، والمصلّي مصلّياً، والمتحرّك متحرّكاً، وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهادي والعبد المهتدي، وأنه المطعم والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت والعبد الذي يحيى ويموت).

وعن أفعال العباد قال: (ويثبتون مع ذلك قدرة العبد، وإرادته، واختياره، وفعله، حقيقة لا مجازاً، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول. . . فحركاتهم واعتقاداتهم أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه، مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالربّ عزّ وجلّ علمه، وقدرته، ومشيئته، وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم، وكسبهم، وحركاتهم، وسكناتهم، فهم المسلمون، المصلّون، القائمون، القاعدون حقيقة، وهو سبحانه هو المقدّر لهم على ذلك، القادر عليه، الذي شاءه منهم، وخلقه لهم، ومشيئته وفعله بعد مشيئته، فما يشاؤون إلّا أن يشاء الله، وما يفعلون إلّا أن يشاء الله)[1].

---

(١) شفاء العليل: ابن القيم ١١٣.

هذا خلاصة مذهب السلف أهل السنة والجماعة في الإيمان بالقدر، وهو مذهب الوسط الذي دلّت عليه الكتب المنزّلة، وأخبرت به الرسل المرسلة، وعليه سلف الأمّة وأئمّتها.

وقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم يكرهون الجدال في القدر، ويذمّون من خاض فيه، بل حذّروا من ذلك، لأنّ البحث في سرّ القدر، والنظر في دقائقه من الأمور التي استأثر الله بعلمها، فلم يطلع عليها أحداً من الخلق، لا ملكاً مقرّباً، ولا نبيّاً مرسلاً.

وقد ثبت أنّ الرسول ﷺ نهى عن الخوض في القدر والتعمق فيه، لما يؤدّي إليه من نتائج سيّئة.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: (خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنّما يفقأ في وجهه حبّ الرمان[1] من الغضب، فقال: بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم. قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي[2] بمجلس تخلّفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلّفي عنه)[3].

كما ورد عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم تحذيرهم عن الخوض في القدر.

---

(١) أي فغضب، فاحمر وجهه من أجل الغضب احمراراً يشبه فقأحبّ الرمان في وجهه، وفقيء أي بُخِص (النهاية: ابن الأثير ٣/ ٤٦١ مادة: فقأ).
(٢) أي ما استحسنت فعل نفسي. يقال: غبطت الرجل أغبطه غبطاً إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ما له. (النهاية: ابن الأثير ٣/ ٣٣٩ مادة: غبط).
(٣) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب في القدر ١/ ٣٣ برقم (٨٥)، وأحمد في المسند ٢/ ١٩٥، وحسّنه الألباني في حاشية المشكاة ١/ ٣٦ برقم (٩٩)، وأخرجه للالكائي في شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٧ برقم (١١١٩).

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (باب شرك فتح على أهل الصلاة، التكذيب بالقدر، فلا تجادلوهم، فيجري شركهم على أيديكم)[1].

وقال أيضاً: (ما غلا أحد في القدر إلاّ خرج من الإسلام)[2].

وجاء رجل علياً رضي الله عنه قال: أخبرني عن القدر.

قال: طريق مظلم، فلا تسلكه.

قال: أخبرني عن القدر.

قال: بحر عميق فلا تلجه.

قال: أخبرني عن القدر.

قال: سرّ الله فلا تكلّفه[3].

وعن وهب بن منبِّه[4] أنه قال: (نظرت في القدر فتحيّرت، ثمّ نظرت فيه فتحيّرت، ووجدت أعلم الناس في القدر أكفّهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به)[5].

وقد سلك هذا المسلك العلماء من بعدهم الذين ساروا على ما سار عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

يقول الآجري[6]: (إنه لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث عن القدر،

---

(١) رواه الآجري في الشريعة ٢١٥، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٩ برقم (١١٢٦).

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٣٢ برقم (١١٣١).

(٣) رواه الآجري في الشريعة ٢٠٢، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٩ برقم (١١٢٣).

(٤) أبو عبد الله وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري: مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، يعدّ في التابعين، قال ابن حجر في التقريب (ص ٥٨٥ برقم ٧٤٨٥): ثقة من الثالثة. توفي سنة ١١٤ هـ (انظر ترجمته في: حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني ٤/ ٢٣، ووفيات الأعيان: ابن خلكان ٢/ ١٨٠، والأعلام: الزركلي ٨/ ١٢٥).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ١٥٥.

(٦) محمد الحسين بن عبد الله أبو بكر الآجري، نسبته إلى آجر من قرى بغداد، فقيه =

لأن القدر سرّ من أسرار الله عزّ وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شرّ واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر، فيكذب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضلّ عن طريق الحق)[1].

ويقول أيضاً الطحاوي[2] وهو أحسن ما يقول: (وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطّلع على ذلك ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، والتعمّق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُوْنَ﴾[3] فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين)[4].

وينبغي أن أشير هنا إلى أن الإمام الشوكاني رحمه الله قد سلك هذا المسلك ودعا إليه، والدليل على ذلك أنه عندما سئل عن مسألة خلق الأفعال، حسنها وقبيحها، خيرها وشرّها، كره الخوض فيها وفي تفصيلها،

= شافعي، محّدث، كان إماماً عالماً عاملاً، صاحب سنّة واتباع، له تصانيف كثيرة، توفي سنة ٢٦٠ هـ. (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٢/ ٢٤٣، وتذكرة الحفاظ: الذهبي ٣/ ٩٣٦، ومقدمة كتابه: الشريعة: بتحقيق: محمد حامد الفقي، والأعلام: الزركلي ٦/ ٩٧).

(١) الشريعة: الآجري ١٤٩.

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن الأزدي الطحاوي، نسبة إلى قرية: طحا بصعيد مصر، الإمام المحدث الفقيه الحافظ، قال ابن كثير: هو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة له تصانيف منها: العقيدة الطحاوية، ومعاني الآثار، وبيان السنة. توفي سنة٣٢١ هـ (انظر ترجمته في: الفهرس: ابن النديم ٢٩٢، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١/١٧٤، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ٢٤٩، والأعلام: الزركلي ١/ ٢٠٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٢٧٦.

لأنها طالت ذيولها، وتنوّعت مسالكها، وأكّد رحمه الله أنّ الجهل في كثير من المواطن خير من تكلّف العلم بها، والدخول في مضايق لم يتعبّد الله بها أحداً من عباده، ولم يسعه ما وسعه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، في هذه المسألة ونظائرها، فلا وسعه الله عليه[1].

وقبل أن أبدأ في بيان تفصيلي لمنهج الإمام الشوكاني في مسائل القدر أعرض موجزاً عن الطوائف المنحرفة فيها، مع بيان موقف الشوكاني منهم، حتى يتبيّن لنا اتجاهه، فأقول:

تتجه الطوائف المنحرفة في القدر إلى اتجاهين:

١ ـ القدرية[2]:

وهم الذين غلوا في إثبات أفعال العباد واختيارهم، حتى جعلوهم هم

---

(١) انظر: رسالة تتعلق بتوحيد الله عز وجل ٢٣، ٢٤ الرسالة الأولى ضمن العذب النمير في جواب مسائل عالم بلاد عسير (مخطوط).

(٢) القدرية: أوّل فرقة حدثت في الأمة الإسلامية في أواخر عصر الصحابة، وأوّل من تكلم في القدر معبد الجهني (ت ٨٠ هـ) وقيل: بل أول من ابتدعه رجل بالعراق من أهل البصرة يقال له: سيسويه. من أبناء المجوس، وقيل: اسمه: سوسن. وتلقّاه عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان الدمشقي (ت ١٠٥ هـ) عن معبد وسموا قدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية أيضاً، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب والقدرية فرقتان: الأولى: تنكر علم الله بالأشياء قبل وجودها، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلا، وقالوا إن الأمر انف، أي مستأنف مبتدأ بقدرة الإنسان نفسه، وهم المتقدمون الذين كفّرهم السلف، ومنهم معبد الجهني. الثانية: هم الذين أقرّوا بعلم الله عز وجل، وأنكروا خلقه لأفعال العباد، وزعموا أن العباد هم الخالقون لأفعالهم على جهة الاستقلال، وهم المتأخرون، ومن أشهر فرقهم المعتزلة، وقد تبنّت هذا الاتجاه حتى أصبحوا معروفين عند أهل السنة بهذا الاسم أي القدرية. انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي ٤/ ٦٢٤ ـ ٦٢٦، ٧٤٦ ـ ٧٥٠، والفرق بين الفرق: البغدادي ١٤، ٦٨، ٦٩ والتبصير في الدين: الإسفرايني ٢١، ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٤٢٩، ٤٣٠، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ١١٥، والفتح: ابن حجر ١/ ١٤٥=

الخالقين لها، ولا تعلّق لها بمشيئة الله، ولا تدخل تحت قدرته، ولهذا سمّوهم مجوس هذه الأمة[1]، لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشرّ من فعل الظلمة، فصاروا ثنويّة، وكذلك هؤلاء القدرية حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته، بل يستقلّون بخلقها، وكذلك قالوا في جميع أفعال الحيوانات الاختيارية[2].

ويمثّل هذا الاتجاه فرق كالمعتزلة والزيدية ومن ساروا على نهجهم، وزعمهم هذا ناتج عن قولهم بأن الله لا يفعل القبيح، بل أفعاله كلها حسنة، وقد ترتّب على مبالغتهم في هذا القول أن نفوا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد، لأن منها ما هو الحسن، ومنها ما هو القبيح، فلو كان الله خالقها لكان فاعلاً للقبيح، واستدلّوا بمثل قوله تعالى: ﴿الَّذِيْ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ﴾[4]. وقوله سبحانه: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[5] وأوّلوا النصوص التي تنسب أفعال العباد إلى الله

= ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ١/ ٢٩٩ ــ ٣٠٦، وانظر شرح الأصول الخمسة: القاضي عبد الجبار (ص ٣٢٣، ٣٣٢ ــ ٣٦٢) تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ط ١٤٠٨ هـ).

(١) وردت آثار كثيرة بتسمية القدرية مجوس هذه الأمة، وبعض هذه الآثار مرفوع إلى النبي ﷺ، ومنها ما أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ١٢٥، وأبو داود في كتاب السنة، باب في القدر ٥/ ٦٦ برقم (٤٦٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب في القدر ١/ ٣٥ برقم (٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٤٤، ١٤٥ برقم (٣٢٨، ٣٢٩)، والآجري في الشريعة ١٩٠، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٣٩، ٦٤٠ برقم (١١٥٠ ــ ١١٥٣) وجميع هذه الروايات ضعّفها أئمة الحديث، ولكن يعضد بعضها بعضاً (انظر تعليق الشيخ الألباني على الحديث في شرح العقيدة الطحاوية ٣٠٤، والسنة لابن أبي عاصم في الصفحة المذكورة).

(٢) انظر: شفاء العليل: ابن القيم ١٠٨، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/ ٣٠٥).

(٣) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٥) سورة السجدة، الآية: ١٧ والأحقاف، آية: ١٤، والواقعة: آية: ٢٤.

تأويلاً بعيداً عن الصواب[٥]. وقابلهم في هذا الاتجاه.

٢ ـ الجبرية[٦]:

وهم الذين غلوا في إثبات القدر، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، وزعموا أنه لا فعل للعبد أصلاً، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات، لا قدرة له عليها ولا قصد، ولا اختيار، فالإنسان على مذهبهم مجبور على فعله، لا اختيار له فيه، فهو كالريشة المعلّقة في الهواء تقلّبها الرياح كيف تشاء، أما إسناد الفعل إليه فهو على سبيل المجاز، على حسب ما يضاف الشيء إلى محلّه، دون ما يضاف إلى محصله[١]. لأن الفعل على زعمهم فعل الله تعالى، أجراها على يد العبد بدون إرادة منه ولا اختيار، وقالوا إن مشيئة الله تعالى وإرادته بمعنى واحد، وقد شاء ما وقع من المعاصي، فهو يحبّها ويرضاها، ونفوا الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، كما نفوا الرحمة، والقوى، والطبائع، والأسباب[٢].

---

(١) انظر: شرح أصول الخمسة: القاضي عبد الجبار المعتزلي (٣٥٧ ـ ٣٦٢) تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ط/ ١٤٠٨ هـ، والبحر الزخار: الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى ١/ ٦١، وانظر أيضاً شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٤٩٥، ٤٩٧.

(٢) سمّوا بذلك نسبة إلى الجبر، وهو نفي الفعل عن العبد وإسناده إلى الله تعالى، وكان زعيمهم الجهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ)، وهم طائفتان: الجبرية الخالصة، وهم الجهمية الذين يقولون بالإجبار والاضطرار، وأن العبد مجبور على فعله، كالريشة في مهبّ الريح، ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل والجبرية المتوسطة، وهم الذين يثبتون للعبد قدرة غير مؤثرة، ويثبتون له ما يسمّونه بالكسب في الفعل، وهم الأشاعرة وموافقوهم. (انظر التعريفات: الجرجاني ٦٥، ودرء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ١/ ٦٣، وانظر أيضاً في شأن هذه الفرقة: الفرق بين الفرق: البغدادي ١٩٩، والتبصير في الدين: الإسفراييني ١٠٧، والملل والنحل: الشهرستاني ١/ ٨٥، واعتقادات فرق المسلمين: الرازي ٦٨، والبرهان: السكسكي ٤٢، ٤٣).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٤٩٣، وأيضاً مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٤٤٤، ٤٤٥، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ١/ ٣٠٦.

(٤) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٩٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٦٠، ٤٦٦ ـ ٤٦٨، ٤٧٥.

وممّا استدلّ به هؤلاء الجبرية قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وأحجموا عن النصوص التي تفيد إسناد عمل العبد إلى نفسه، وتعسّفوا في تأويلها تعسّفاً ظاهراً[4].

ويمثّل هذا الاتجاه الجهمية، ومن تبعها من الأشعرية وأمثالهم[5].

وقد وجد الشوكاني رحمه الله كلاً من الاتجاهين غلوّاً وتطرّفاً، ولا يرى أن واحداً منهما قد أصاب ما كان عليه سلف الأمّة وأئمّتها الذين آمنوا بالقدر خيره وشرّه، فالقدرية غلوا في إثبات أفعال العباد، حتى أخرجوها عن مشيئة الله، والجبرية غلوا في نفي أفعال العباد، حتى سلبوهم القدرة والاختيار، وقد غلا بعضهم في هذا الأمر إلى الاحتجاج بالقدر على المعاصي والشرور، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا كما حكى الله عنهم في كتابه العزيز: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾[6].

يقول الشوكاني في شأن هؤلاء: (... هذه الطوائف المتكلفة علم ما لم يكلفها الله سبحانه بعلمه... وهي التي أرادت الوصول إلى الحق،

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة المدّثر، الآية: ٣١.

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٤٩٤ ــ ٤٩٧.

(٥) خالف الأشعرية الجهمية خلافاً لفظيّاً في هذه المسألة، فقالوا (أي الأشعرية): العبد لا فعل له البتة، بل الله هو الفاعل القادر، وللعبد كسب لا فعل، ولا تأثير لقدرته في وجود فعله، وقالوا إن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها، وقالوا إن الله يفعل عند الأسباب لا بها. (انظر: المواقف في علم الكلام: الإيجي ٣١٢، وشرح العقائد النسفية: التفتازاني ٨٦ ــ ٩٠، وشرح المقاصد له ٤/ ٢٢٤ ــ ٢٢٦، وشرح جوهرة التوحيد: البيجوري ٩٩، ١٠٤، وأيضاً مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ١١٨، ٤٦٦ ــ ٤٦٨).

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

والوقوف على الصواب، لكن سلكت في طريقة متوعرة، وصعدت في الكشف عنه إلى عقبة كؤود[1]، لا يرجع من سلكها سالماً فضلاً عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح، ومع هذا أصّلوها أصولاً ظنّوها حقّا، فدفعوا بها آيات قرآنية وأحاديث صحيحة نبوية، واعتلّوا في ذلك الدفع بشبه واهية وخيالات مختلة).

وقسّم الشوكاني هؤلاء إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: هي الطائفة التي غلت في التنزيه، فوصلت إلى حدّ يقشعرّ عنده الجلد، ويضطرب له القلب، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنّة ثبوتاً أوضح من شمس النهار... فضلّوا الطريق المستقيم، وأضلّوا من رام سلوكها[2].

والطائفة الأخرى: هي الطائفة التي غلت في إثبات القدرة غلوّاً بلغ إلى حدّ أنه لا تأثير لغيرها، ولا اعتبار بما سواها، وأفضى ذلك إلى الجبر المحض والقسر الخالص، فلم يبق لبعث الرسل وإنزال الكتب كثير فائدة، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة، وجاءوا بتأويلات للآيات البينات، ومحاولات[3] لحجج الله الواضحات، فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والإضلال، مع أن كلا المقصدين صحيح، ووجه كل منهما صبيح، لولا ما شانه من الغلوّ القبيح)[4].

---

(١) أي طريق وعر شاق المصعد، يقال: عقبة كؤود أي شاقة المصعد (انظر مختار الصحاح ٢٣٤ مادة (كأد).

(٢) يشير الشوكاني في هذا إلى الفرق الكلامية المعطّلة لصفات الباري سبحانه وتعالى كالجهمية ومن ساروا على نهجهم.

(٣) في بعض الطبعات: مماحلات. والمماحلة: المماكرة والمكايدة. (مختار الصحاح ٢٥٧ مادة (محل).

(٤) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٢، ٣ ضمن الرسائل السلفية.

وهكذا نرى الشوكاني يرفض أفكار هذه الطوائف المنحرفة الذين حرّفوا الكلم عن مواضعه، وخالفوا ما كان عليه سلف الأمّة وأئمتها، فضلّوا طريقهم وأضلّوا.

منهج الشوكاني في الإيمان بالقدر:

وأستعرض فيما يلي آراء الشوكاني في مسائل القدر، ليتبيّن لنا منهجه الذي سلكه في هذا السبيل، وذلك من خلال المسائل الآتية:

(أ) أفعال الله تعالى وأفعال العباد:

يذهب الشوكاني كأهل السنة والجماعة إلى أن الله سبحانه وتعالى فاعل مختار، يتصرّف في ملكه كيف يشاء بمقتضى مشيئته وحكمته، «لأنه خالق الخلق، وموجده من العدم، فهو حقه وملكه، يتصرّف به كيف يشاء، كما يتصرّف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم، فإن مالك العبد أو الأمة إذا أراد أن يتصرّف بهما ويخرجهما عن ملكه لم تنكر العقول ذلك، ولا تأباه العادات الجارية بين العباد، فكيف تصرّف الربّ بمخلوقه، فإنّه المالك للعبد وسيّده، ولما في الأرضين والسماوات من العالم الذي خلقه، وشقّ سمعه وبصره، ورزقه، ومنّ عليه بالنعم التي لا يقدر على شيء منها إلا هو، تعالت قدرته وتقدّس اسمه»[1].

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِيْ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾[3].

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤١٣، ٤١٤ تحقيق: د/ إبراهيم إبراهيم هلال.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

ذكر الشوكاني في تفسير هذه الآية أن الله تعالى مالك جنس الملك على الإطلاق، فهو مالك العباد وما ملكوا، ومالك الدنيا والآخرة، والمال والعبيد، والمراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام.

وذكر أن بيد الله الخير لا بيد غيره، وذكر الخير دون الشرّ لأن الخير بفضل محض بخلاف الشرّ، فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه، أو لأن كل شرّ من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير، فأفعاله كلها خير[1].

وهذا التفسير هو ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: (فالشرّ ليس إلى الله بوجه من الوجوه، فإنه ـ وإن كان الله خالق أفعال العباد ـ فخلقه للطاعات نعمة ورحمة، وخلقه للسيئات له فيه حكمة ورحمة، وهو مع هذا عدل منه، فما ظلم الناس شيئاً، ولكن الناس ظلموا أنفسهم)[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيْدِ﴾[4].

وقد فسّر الشوكاني هذه الآية فقال: (إنه تعالى مالك الملك، يتصرّف في ملكه كيف يشاء، وليس بظالم لمن عذّبه بذنبه، لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين[5]

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣٢٩، ٣٣٠.
(٢) الحسنة والسيئة: ابن تيمية ٩٢ تقديم: د/ محمد جميل غازي، دار الكتب العلمية.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢، والأنفال، الآية: ٥١.
(٥) من قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البلد، الآية: ١٠) قال المفسّرون: أي طريق الخير وطريق الشر. (انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٤٤، وأيضاً المفردات: الأصفهاني ٤٨٢).

كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوْا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ﴾)[1][2].

فكل أفعاله سبحانه كائنة ما كانت خير لا شرّ فيها، وعدل لا ظلم فيها، لأنه حكم عدل، يضع كل شيء في موضعه الذي يناسبه، وتقتضيه الحكمة والعدل، وأنه لا يسأل عما يفعل، وعما يخلقه، وعما يشاء وجوده أو عدمه، وفي هذا قال سبحانه: ﴿لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُوْنَ﴾[3].

قال الشوكاني: (أي أنه سبحانه لقوة سلطانه، وعظيم جلاله، لا يسأله أحد من خلقه عن شيء من قضائه وقدره (وهم) أي العباد (يسألون) عما يفعلون، أي يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده)[4].

هذا ما فسّره الشوكاني فيما يتعلّق بأفعال الله تعالى، وهو موافق لما قرّره السلف رضوان الله عليهم، كما أسلفنا.

أما ما يتعلّق بأفعال العباد، فقد ذهب الشوكاني مقرّراً لمذهب السلف إلى أن جميع أفعال العباد، خيرها وشرّها، مخلوقة خلقها الله عزّ وجل في الفاعلين لها، لأن الله خالق كل شيء من الأشياء الموجودة في الدنيا والآخرة، كائناً ما كان، من غير فرق بين شيء وشيء[5].

ومما يستدلّ به الشوكاني على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾[6].

قال الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية: (و(ما) في (وما تعملون)

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٨.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤٠٦، ٢/ ٣١٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٤٠٢.
(٥) انظر المصدر السابق ٤/ ٤٧٤.
(٦) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

موصولة، أي وخلق الذي تصنعونه على العموم، ويدخل فيها الأصنام التي ينحتونها دخولاً أولياً، ويجوز أن تكون مصدرية، أي خلقكم وخلق عملكم... وجعلها موصولة أولى بالمقام، وأوفق بسياق الكلام)[1]. لأن الله سبحانه يقول: ﴿أَتَعْبُدُوْنَ مَا تَنْحِتُوْنَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُوْنَ﴾[2]. وهذه الآية تدلّ على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له، بل الخشب أو الحجر، لا غير[3].

فالآية نصّ جليّ على أنه تعالى خلق أفعال العباد، لأنه أثبت الخلق لله وحده (والله خلقكم)، ونصّ واضح على أن فعل العبد فعل له حقيقة، لأنه أثبت الفعل للعبد (وما تعملون)، فالفعل فعلهم، والله خالق الكل، ولا خالق سواه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، والمصلّي والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم، وخالق قدرتهم وإرادتهم)[4].

ويقول في موضع آخر: (وأما من قال: خلق الربّ تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته، قال: إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات، ومفعولة للربّ كسائر المفعولات، ولم يقل: إنها نفس فعل الربّ وخلقه، بل

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٠٢.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٥، ٩٦.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٤٩٦.
(٤) العقيدة الواسطية: ابن تيمية ١٧٥ ط ٤/ ١٤٠٧ هـ مع شرح الدكتور صالح فوزان الفوزان.

قال إنها نفس فعل العبد، وعلى هذا تزول الشبهة، فإنه يقال: الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلاً له، كما يفعلها العبد وتقوم به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره، من الطعوم والألوان، والروائح، والأشكال، والمقادير، والحركات، وغير ذلك)[1].

وهذا هو ما اتفق عليه سلف الأمّة وأئمّتها، كما نصّ على ذلك سائر أئمّة الإسلام: الإمام أحمد ومن قبله وبعده[2].

وأيّدهم الشوكاني فيما ذهبوا إليه، وقرّر أن أفعال العباد التي صاروا بها مطيعين وعصاة هي مخلوقة لله تعالى[3]، وأن الله هو المنفرد بالخلق، وأن سائر الشركاء لا يخلقون شيئاً ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] كائناً ما كان، ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه[5].

ونقل عن الزجاج[6] عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيرٌ﴾[7]. قال: (إنّ الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل

---

(١) مجموع فتاوي: ابن تيمية ٨/ ١٢٣.

(٢) انظر المصدر السابق ٨/ ٤٠٦.

(٣) انظر رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عز وجل ٢٣، ٢٤ (المسألة الثانية في خلق أفعال العباد) ضمن: العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير. (مخطوط).

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٦.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٧٤.

(٦) أبو إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج، عالم بالنحو واللغة، قال الخطيب: كان من أهل الفضل والدين، حسن الاعتقاد، جميل المذهب، وآخر ما سمع منه: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل رضي الله عنه توفي سنة ٣١١ هـ من كتبه: معاني القرآن، وإعراب القرآن (انظر ترجمته في: الفهرست: ابن النديم ٩٠، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٦/ ٨٩، ووفيات الأعيان: ابن خلكان ١/ ١١، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٥٤).

(٧) سورة التغابن، الآية: ٢.

له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان، والكافر يكفر، ويختار الكفر بعد خلق الله إيّاه، لأن الله قدّر ذلك عليه، وعلمه منه، لأنّ وجود خلاف المقدّر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل)[1].

قال القرطبي[2]: (وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه الأئمة والجمهور من الأمّة)[3].

قلت: وهذا قول الحقّ الذي عليه السلف الصالح ومن وافقهم، ونقل الشوكاني له، وسكوته عليه، دليل على أنه المختار عنده.

والخلاصة أنّ أفعال العباد تنسب إليهم فعلاً وكسباً واختياراً، وتنسب إلى الله خلقاً وقدراً وإيجاداً، وأنّ لهم مشيئة وإرادة، ولكنّها تابعة لمشيئة الربّ سبحانه، ليست مستقلة عنها وسابقة لها، «فما صحّ وما استقام لنفس من الأنفس أن تؤمن إلا بإذنه، أي تسهيله وتيسيره ومشيئته لذلك، فلا يقع غير ما يشاؤه، كائناً ما كان»[4].

وقد أثبت الله سبحانه في كتابه العزيز المشيئتين: مشيئة الربّ ومشيئة العبد، وبيّن أنّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الربّ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيْلًا، وَمَا تَشَاءُوْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمَاً حَكِيْماً﴾[5].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٣٥.
(٢) أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبّد، توفي سنة ٦٧١ هـ من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة. (انظر ترجمته في: الجامع لأحكام القرآن، مقدمة المجلد الأول، والأعلام: الزركلي ٥/ ٣٢٢).
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ١٨/ ١٣٣ دار إحياء التراث العربي.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٢٤، ٤٢٥.
(٥) سورة الإنسان، الآية: ٢٩، ٣٠.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيْمَ، وَمَا تَشَاءُوْنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ﴾[1].

قال الشوكاني: (أي وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك، إلاّ بمشيئة الله وتوفيقه، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.[2]. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلاَئِكَةَ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى، وحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوْا لِيُؤْمِنُوْا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾[4]. والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة)[5].

فهنا بيّن الشوكاني أن مشيئة العباد ليست مستقلّة عن مشيئة الله، فالأمر إليه سبحانه ليس إليهم، والخير والشرّ بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع[6].

وهذه الآية ردّ على الطائفتين المنحرفتين، المجبرة الجهمية، والمعتزلة القدرية، فإنّه تعالى قال: (لمن شاء منكم أن يستقيم) فأثبت للعبد مشيئة وفعلاً، ثم قال: (وما تشاءُوْنَ إلا أن يشاء الله ربّ العالمين) فبيّن أن مشيئة العبد معلّقة بمشيئة الله، والأولى ردّ على الجبرية، وهذه ردّ على القدريّة الذين يقولون: قد يشاء العبد ما لا يشاءه الله، كما يقولون: إنّ الله يشاء ما لا يشاؤون[7].

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٣٩٢.

(٦) انظر المصدر السابق ٥/ ٣٥٤.

(٧) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٤٨٨.

(ب) الهدي والإضلال:

في بيان هدي الله تعالى للعبد وإضلاله له قرّر الشوكاني أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، وأن الأمر بيده، ما شاء يفعل، من شاء تعالى أن يضلّه أضلّه، ومن شاء أن يهديه جعله على صراط مستقيم، لا يذهب به إلى غير الحق، ولا يمشي فيه إلا إلى صوب الاستقامة[1].

قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]. فالهدي والاضلال بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقد أخبر سبحانه أنه لو شاء ما أشرك الناس، وأنه لو شاء لهداهم أجمعين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوْا﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾[4].

قال الشوكاني رحمه الله: (أي ولو شاء أن يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح والمنهج الحقّ لفعل ذلك، ولكنّه لم يشأ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق والدلالة عليها، (وهديناه النجدين) وأما الإيصال إليها بالفعل فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر، ولا من يستحقّ النار من المسلمين، وقد اقتضت المشيئة الربّانية أن يكون البعض مؤمناً والبعض كافراً، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع[5]. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ،

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٤٩، ١٥٠.

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ، إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوْراً﴾[2].

كما قرّر الشوكاني أن الله سبحانه وتعالى قد وهب لعباده حرّية الاختيار في أن يفعلوا وأن لا يفعلوا، لأنه (خلقهم، وجعل لهم من المشاعر ما يدركون به أكمل إدراك، وركب فيهم من الحواس ما يصلون به إلى ما يريدون، ووفر مصالحهم الدنيوية عليهم، وخلى بينهم وبين مصالحهم الدينية)[3].

وبيّن أن (هداية الله سبحانه لعباده إلى الحقّ هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات، وإرساله للرسل، وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار)[4].

وعلى هذا الأساس فإنّ الهداية أو الاضلال ما هي إلا نتائج لمقدّمات، ومسبّبات الأسباب، أي كلّ منهما يتمّ حسب سنن الله تعالى في خلقه، وهي الإيثار، والرغبة، والطلب، والعمل، فمن آثر الهداية، ورغب فيها، وطلبها، وعمل بأسبابها، تمّت له، ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها، ومن آثر الضلالة، ورغب فيها، وطلبها، وعمل بأسبابها، تمّت له، ولم يجد من الله تعالى صارفاً عنها.

وقد بيّن الله سبحانه ذلك في كتابه العزيز حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[5].

قال الشوكاني: (أي قد فاز من زكّى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٤٨.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٤٤.
(٥) سورة الشمس، الآية: ٩، ١٠.

مطلوب، وظفر بكلّ محبوب، وخسر من أضلّها وأغواها. ومعنى (دسّاها) في الآية: أي أخفاها وأخملها، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح)[1].

(فعدم اهتداء النـاس لم يكن لأجل نقص فيمـا خلقه الله لهم، من السمع، والعقل، والبصر، والبصيرة، بـل لأجل مـا صار في طبـائعهم من التعصّب والمكابرة للحقّ، والمجادلة بالباطل، والإصرار على الكفر)[2].

كما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم﴾[3]. وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوْا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوْبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِيْن﴾[4].

«أي لما أصرّوا على الـزيغ، واستمـرّوا عليه، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن قبول الحقّ»[5].

وعلى هذا فإنّ إسناد الهداية والإضلال إلى الله تعالى إسناد من حيث أنّه خلق أفعال العباد، ووضع نظام الأسباب والمسبّبات، لا أنّه جبر الإنسان على الضلالة أو الهداية.

فقـد جعل سبحـانه الإيمـان والعمل الصـالح سببـاً في الاهتداء، وجعـل الكفـر والمعاصي سبباً في الضلال، وبحسب ذلك الأثر الطيّب أو الخبيث يكـون الجزاء بالثواب والعقاب، فمن أراد الله هدايته للحق يوفّقه للإيمان، ويعنه على العمل الصالح، وييسّر له سبله، ويجعل له القبول في نفسه، ومن أراد إضلاله يجعل صدره ضيّقاً حرجاً، ويجعل على قلبه أكنّة تحـول بينه وبين الإيمان والعمل الصالح، فختم على قلبه، وطبع عليه، فامتنـع بذلـك من وصول الهدي إليه.

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٤٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٤) سورة الصف، الآية: ٥.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٢٠.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾[١] «أي فسنهيّئه للخصلة الحسنى، وهي عمل الخير، والعمل بالطاعة لله». ﴿وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٢]. «أي فسنهيّئه للخصلة العسرى، ونسهّلها له، حتى تتعسّر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار»[٣].

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال: «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له، أمّا من كان من أهل السعادة فييسّر لعمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فييسّر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ هذه الآيات[٤].

ويقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيْهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِيْنِ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾[٥].

فبيّن سبحانه في هذه الآية أن هدايته لمن اهتدى من عباده إنّما هي أن يشرح صدره لقبول الإسلام، ويوصل إلى قلبه، محبته فيؤمن ويصدّق، وأن إضلاله لمن أضلّ منهم إنّما هو أن يضيق صدره عن قبول الإسلام، وأن يحرجه حتى لا يرغب فيه، فيكفر ويفسق، وعند ذلك لا يقدر نبيّ ولا غيره على هدايته بعد أن أضلّه الله. قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾[٦]. وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيْراً وَيَهْدِيْ بِهِ كَثِيْراً،

---

(١) سورة الليل، الآية: ٥ ـ ٧.
(٢) سورة الليل، الآية: ٨ ـ ١٠.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٥٢.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب فسنيسّره للعسرى (الفتح ٨/ ٥٧٩ برقم (٤٩٤٩) ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الأدمي ٤/ ٢٠٣٩ برقم (٢٦٤٧). وغيرهما.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٦) سورة الكهف، الآية: ١٧.

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِيْنَ﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله: (وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال، وفي نسبته إلى الله تعالى، فصاحب الكشّاف[2] اعتمد ههنا على عصاه الذي يتوكّأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً، فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي)[3].

وهذا بناء على قاعدته المعروفة بالعدل، وهو أن الله تعالى لا يفعل القبيح ولا يريده، وأن أفعاله كلّها لا بدّ أن تكون حسنة، والإضلال من الله قبيح عنده ــ يتعالى الله عنه في اعتقاده ــ ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوْا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوْبَهُمْ﴾[4]. وقوله سبحانه: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوْا ثُمَّ كَفَرُوْا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوْبِهِم﴾[5]. وأمثاله من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما أضلّهم، وحال

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

(٢) أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، من أئمة العلم بالدين، والتفسير، واللغة، والآداب، وكان معتزليّ المذهب، قويًا في مذهبه، مفتخراً به، قال الذهبي: صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال، أجارنا الله، فكن حذراً من كشّافه. أشهر كتبه: الكشّاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة. توفيّ سنة ٥٣٨ هـ (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٥/ ٢٠٣ ولسان الميزان: ابن حجر ٦/ ٤، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ٨٧).

(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥٧، وانظر الكشّاف: الزمخشري ١/ ١١٨. قال الإمام أحمد بن المنير الإسكندري في تعليقه على الكشاف: وهذا من ارتكاب الهوى، واقتحام الهلكة، وما أشنع تصريحه بأن الله سبب الأضلال لا خالقه، كما أن السلسلة سبب في وضع القيود في رجلي المحبوس، وإسناد الفعل إلى الله عزّ وجلّ مجاز لا حقيقة كما أسند الفعل إلى البلد كذلك، يا له من تمثيل صار به مثلة، وتنظير ما صار به حائدا عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة، نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلّة، وهو وليّ التوفيق. اهـ.

(٤) سورة الصفّ، الآية: ٥.

(٥) سورة المنافقون، الآية: ٣.

بينهم وبين الهدى جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل، وتركهم الحقّ، لما ذهب إلى ذلك، لأن هذا منه سبحانه حسن وليس بقبيح.

ومثل إسناد الإضلال إلى الله إسناد الختم، أو الطبع، أو ما في معناهما إليه سبحانه.

فمثال الختم قولـه تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوْبِهِمْ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾[1].

هنا يوضّح الشوكاني المراد بالختم والغشاوة فقال: (والمراد بـالختم والغشاوة هنا هما المعنويّان لا الحسّيّان، أي لمّا كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والأسماع غير مؤدّية لما يطرقها من الآيات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهدية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جعلت بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسّيّاً، والمستوثق منها استيثاقاً حقيقيّاً، والمغطّاة بغطاء مدرك استعارة أو تمثيلاً.

ثم قال رحمه الله وهو يردّ على المعتزلة في هـذه القضية: (وإسناد الختم إلى الله تعالى قد احتجّ به أهل السنّة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجّة بمثل ما ذكره صاحب الكشّاف)[2]. حيث أورد فيه خمسة أوجه في تأويل معنى إسناد الختم إلى الله وتعسّف عن الطريق المستقيم[3].

ومثال إسناد الطبع إليه سبحانه قوله تعالى: ﴿وَقَوْلُهُمْ قُلُوْبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّه عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْنَ إلَّا قَلِيْلًا﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣٩.

(٣) انظر الكشّاف: الزمّخشري ١/ ٤٨ ــ ٥٢، وانظر ١/ ٤٩ هامش رقم (٢) حيث ناقشه العلاّمة أحمد بن المنير الإسكندري في هذه المسألة، وردّ عليه ردّاً وافياً.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٥.

فسّر الشوكاني هذه الآية فقال: (أي ليس عدم قبولهم للحقّ بسبب كونها غلفاً بحسب مقصدهم الذي يريدونه، بل بحسب الطبع من الله تعالى عليها، والطبع: الختم، أي هي مطبوع عليها من الله بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً)[1].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

قال الشوكاني: (أي أنّ مثل ذلك الطبع الشديد يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينجع فيهم بعد ذلك وعظ، ولا تذكير، ولا ترغيب، ولا ترهيب)[3].

هذا ما وضّحه الشوكاني في معنى الهداية والإضلال، ونسبتهما إلى الله، وهو موافق لما قرّره الله تعالى في كتابه الكريم كما ذكرنا، وموافق لما عليه جمهور أهل العلم[4].

يقول ابن القيم رحمه الله: (وقد اتفقت رسل الله من أوّلهم إلى آخرهم، وكتبه المنزّلة عليهم على أنه سبحانه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنّ الهدي والإضلال بيده لا بيد العبد، وأن العبد هو الضالّ أو المهتدي، فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره، والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه)[5].

هذا وقد بيّن الشوكاني في تفسيره أنّ الهدي هديان، هدي دلالة: وهو

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥٣٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠١.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٢٩.
(٤) انظر الشريعة: الآجري ١٥١، ١٥٤، ١٥٧ وشرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة: شرح الملا علي القاري ٧٣ ـ ٧٧، ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٧٨، ٧٩، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي ١٥٥، ١٥٦.
(٥) شفاء العليل: ابن القيم ١٤١.

الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]. وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾[2]. فأثبت لهم الهدي الذي معناه الدلالة والتنبيه، وتفرّد سبحانه بالهدي الذي معناه التأييد والتوفيق، فقال لنبيّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3]. فالهدي على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾[5][6].

والهدي بالمعنى الأوّل حجّة الله على خلقه التي لا يعذّب أحداً إلّا بعد إقامتها عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلاً﴾[7]. وهو عام لمن أحبّه الله وأبغض، ووظيفة الرسل وأتباعهم، أما الهدي بالمعنى الثاني وهو التأييد والتوفيق فهو لمن أحبّه خاصّة، «تكميلاً للحجّة، وإظهاراً للاستغناء عن خلقه»[8] وهذا من مشيئة الله تعالى.

وقد يرد الهدي والمراد به الهدي العام، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْ قَدَّرَ فَهَدَى﴾[9]. قال الشوكاني: (والمعنى: قدّر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له، ويسّر له لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه)[8].

وقد يرد بمعنى الهداية إلى الجنّة والنار يوم القيامة، كما قاله ابن

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٥.
(٥) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣٣.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٨) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٣٨.
(٩) سورة الأعلى، الآية: ٣.
(١٠) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٢٣

القيم[1] كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ، فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيْهِمْ، وَيُصْلِحُ بَالَهُم﴾[2]. وقوله عن أهل النار: ﴿فَاهْدُوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيْمِ﴾[3].

(ج) مبدأ السببية في القدر:

تقدّم أنّ الله يهدي من عباده من يشاء، ويضلّ منهم من يشاء، وأنّ ذلك مربوط بنظام الأسباب، محكوم بقوانينها، فللهـدي أسبابـه، وللضلال أسبابه، ولا يصل العبد إلى ما كتب الله عليه وقدّر له من هداية أو ضلال، ومن سعادة أو شقاوة، إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها.

وقد أثبت الشوكاني رحمه الله مبدأ السببية في الإيمان بالقدر، وأنكر انكاراً شديداً على المنكرين لها، ففي كتابه الموسوم بقطر الولي على حديث الولي تحدّث عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل، فبيّن أنّ الله عزّ وجلّ لمّا قدّر مقادير العباد، قدّرها مع موجباتها وأسبابها، فقدّر للخير موجباته وأسبابه، وقدّر للشرّ كذلك، ومن أسباب الخير الدعاء والعمل الصالح، قال: (فكيف ينكر وصول العبد إلى الخير بدعائه أو بعمله الصالح، فإن هذا من الأسباب التي ربط الله مسبّاتها بها، وعلمها قبل أن تكون، فعلمه على كلّ تقدير أزلي في المسبّبات والأسباب، ولا يشكّ من له اطلاع على كتاب الله عزّ وجلّ ما اشتمل عليه من ترتيب حصول المسبّبات على حصول أسبابها، وذلك كثير جدّاً).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَـوْنَ عَنْهُ نُكَفِّـرْ عَنْكُمْ

---

(١) انظر شفاء العليل ١٧٩، ١٨٠ وقد ذكر ابن القيم في هذا الكتاب مراتب الهـدى والضلال في القرآن، وتكلّم على كلّ منها بالتفصيل. (انظر صفحة ١٤١ ـ ١٨٠).

(٢) سورة محمد، الآية: ٤، ٥ وقرأ الشوكاني: (والذين قاتلوا) على قراءة العامة، وعلى هذا فسّر الهدي هنا بأنه الهدي إلى الرشد في الدنيا. (انظر فتح القدير ٥/ ٣١).

(٣) سورة الصافات، الآية: ٢٣.

سَيِّئَاتِكُمْ﴾[١]، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيْنَ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[٢]، ﴿وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيْدَنَّكُمْ﴾[٣]، ﴿وَاتَّقُوْا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[٤]. ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِيْنَ لَلَبِثَ فِيْ بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ﴾[٥].

وكم يعدّ العاد من هذا الجنس في الكتاب العزيز، وما ورد في معناه من السنة المطهّرة، فهل ينكر هؤلاء الغلاة[٦] مثل هذا، ويجعلونه مخالفاً لسبق العلم مبايناً لأزليّته؟ فإن قالوا نعم، فقد أنكروا ما في كتاب الله سبحانه من فاتحته إلى خاتمته، وما في السنّة المطهّرة من أوّلها إلى آخرها، بل أنكروا أحكام الدنيا والآخرة جميعها، لأنها كلها مسبّبات مترتّبة على أسبابها، وجزاءات معلّقة بشروطها)[٧].

وعلى هذا المبدأ (السببية) حمل الشوكاني قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِيْ الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[٨].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٠، ١١، ١٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٥) سورة الصافات، الآية: ١٤٣، ١٤٤.

(٦) يقصد الشوكاني بالغلاة: أهل الكلام الذين أبطلوا فائدة ما ثبت في الكتاب والسنة من الإرشاد إلى الدعاء ونحوه، وجعلوه مخالفاً لسبق العلم (انظر: قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ٤٩٦ تحقيق/ د. إبراهيم إبراهيم هلال، وتنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل، له ١١٩، ١٢٠ الرسالة الخامسة ضمن أمناء الشريعة، تحقيق المحقق السابق).

(٧) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥١٠، ٥١١ وانظر أيضاً: تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل، له ١٢١، ١٢٢ الرسالة الخامسة ضمن أمناء الشريعة.

(٨) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيْبَنَا إلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[1]. وكذلك ما ورد في هذا المعنى، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُم وَيَعْفُو عَنْ كَثِيْر﴾[2]. وما ورد في معناها، ومن ذلك الحديث القدسي الثابت في الصحيح عن الربّ عزّ وجلّ: ﴿يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد شرّاً فلا يلومنّ إلاّ نفسه﴾[3].

قال الشوكاني: (يحمل الآيتين الأوليين، وما ورد في معناهما على عدم التسبّب من العبد بأسباب الخير من الدعاء وصلة الرحم، وسائر الأفعال والأقوال الصالحة، وحمل الآية الأخرى والحديث القدسي، وما ورد في معناهما، على وقوع التسبّب من العبد بأسباب الخير الموجبة لحسن القضاء، واندفاع شرّه، وعلى وقوع التسبّب من العبد بأسباب الشرّ المقتضية لاصابة المكروه، ووقوعه على العبد)[4].

وهكذا جمع الشوكاني بين الأحاديث الواردة بسبق القضاء، وأنه قد فرغ من تقدير الأجل والرزق، والسعادة والشقاوة، وبين الأحاديث في طلب الدعاء من العبد، وأن الله يجيب دعاءه، ويعطيه ما سأل مثله، وأنه يغضب إذا لم يسأل، وأن الدعاء يردّ القضاء، ونحو ذلك كصلة الرحم، وأعمال الخير.

فحمل أحاديث الفراغ من القضاء على عدم تسبّب العبد بأسباب الخير أو الشرّ، وحمل الأحاديث الأخرى على وقوع التسبّب من العبد بأسباب الخير أو التسبّب بأسباب الشرّ، وقال: (إنّ هذا الجمع لا بدّ منه، لأن الذي جاءنا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥١.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب في تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٥ برقم (٢٥٧٧).
(٤) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٨.

بالأدلّة الدالّة على أحد الجانبين هو الذي جاءنا بالأدلّة الدالّة على الجانب الآخر، وليس في ذلك خلف لما وقع في الأزل، ولا مخالفة لما تقدّم العلم به، بل هو من تقييد المسبّبات بأسبابها، كما قدّر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدّر الولد بالوطء، وقدّر حصول الزرع بالبذر، فهل يقول قائل بأنّ ربط هذه المسبّبات بأسبابها يقتضي خلاف العلم السابق، أو ينافيه بوجه من الوجوه؟

فلو قال قائل: أنا لا آكل، ولا أشرب، بل أنتظر القضاء، فإن قدّر الله لي ذلك كان، وإن لم يقدره لم يكن، أو قال: أنا لا أزرع، ولا أجامع زوجتي، فإن قدّر الله لي الزرع والولد حصلا، وإن لم يقدرهما لم يحصلا، أليس هذا القائل قد خالف ما في كتب الله سبحانه، وما جاءت به رسله، وما كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه، والتابعون، وتابعوهم، وسائر علماء الأمّة وصلحائها، بل يكون هذا القائل قد خالف ما عليه جميع أنواع الحيوانات في البرّ والبحر)[1].

وفصّل الشوكاني رحمه الله تفصيلاً دقيقاً عن الدعاء، وفائدته، وكونه سبباً لردّ القضاء، وأطال الكلام في ردّه على المخالفين له، الذين أبطلوا فائدة ما ثبت في الكتاب والسنّة، من الإرشاد إلى الدعاء، وأنه يردّ القضاء، وما ورد من الاستعاذة منه ﷺ من سوء القضاء، وما ورد من أنه يصاب العبد بذنبه، وبما كسبت يده، ونحو ذلك مما جاءت به الأدلّة الصحيحة، وجعلوه مخالفاً لسبق العلم، ورتّبوا عليه أنه يلزم انقلاب العلم جهلاً[2].

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٩، ٥١٠ وانظر أيضاً تنبيه الأفاضل، له ١٢٠، ١٢١.

(٢) انظر: تنبيه الأفاضل: الشوكاني ١١٩، ١٢٠، ١٢٧ وأيضاً قطر الولي، له ٥١١، ٥١٢ وقد أفرد الشوكاني هذا الموضوع في رسالة صغيرة بعنوان: بحث في أنّ إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، حيث أورد فيها كثيراً من الآيات والأحاديث ليردّ بها على المخالفين له في هذه المسألة (انظر ص ١٣١ ـ ١٣٥ الرسالة السادسة ضمن أمناء الشريعة) غير أنّه لم يوضّح كثيراً في هذه الرسالة ما دلّ عليه عنوانها، وقد=

فمن الأدلّة التي أوردها رحمه الله قوله تعالى: ﴿أُدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ﴾ أي دعائي ﴿سَيَدْخُلُوْنَ جَهَنَّمَ دَاخِرِيْنَ﴾[1]. وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَاسْأَلُوْا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2].

قال الشوكاني بعد أن ساق هاتين الآيتين: (فأي فائدة لهذين الأمرين منه عزّ وجلّ بالدعاء، ووعيده لمن تركه وجعله مستكبراً، وتمدحه سبحانه بقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيْبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوْءَ﴾[3]. وبقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيْبٌ، أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[4].

فإن قالوا إنّ هذا الدعاء الذي أمرنا الله عزّ وجلّ به، وأرشدنا إليه، وجعل تركه استكباراً، وتوعّد عليه بدخول النار مع الذلّ، وأنكر عليهم أنّ غيره يجيب المضطرّ، إن كان ذلك كلّه لا فائدة فيه للعبد، وأنّه لا ينال إلاّ ما قد سبق به القضاء، فعل الدعاء أو لم يفعل[5]، فقد نسب إلى الربّ عزّ وجلّ ما لا يجوز عليه، ولا تحلّ نسبته إليه بإجماع المسلمين، فإنّه عزّ وجلّ لا يأمر إلاّ بما فيه فائدة للعبد دنيويّة أو أخرويّة، إمّا جلب نفع أو دفع ضرّ)[6].

وقد فنّد مثل هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ قال:

= أوضحه بشيء من التفصيل في كتابه: قطر الولي، وفي رسالته: تنبيه الأفاضل، مع وجود بعض التعارض فيما ذهب إليه. وسوف أبيّنه في حينه إن شاء الله (انظر ص ١٧١ ـ ١٧٢).

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٥) هذا الكلام فيه نظر سيأتي التعليق عليه(ص ١٦٣).

(٦) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥١٢، وانظر أيضاً تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٢٤.

(الدعاء في اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسبّبات، ومن قال: إنّ الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المسؤول، ليس بسبب، أو هو عبادة محضة، لا أثر له في حصول المطلوب وجوداً ولا عدماً، بل ما يحصل بالدعاء يحصل بدونه، فهما قولان ضعيفان، فإنّ الله علّق الإجابة به تعليق المسبّب بالسبب، كقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنّه قال: (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم، ولا قطيعة رحم، إلّا أعطاه بها إحدى خصال ثلاث: إمّا أن يعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخر له من الخير مثلها، وإمّا أن يصرف عنه من الشرّ مثلها، قالوا: يا رسول الله، إذاً نكثر، قال: الله أكثر)[2]. فعلّق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به)[3].

ومن الأدلّة التي أوردها الشوكاني في هذا الصدد من الأحاديث: قوله ﷺ فيما رواه عن ربّه: «يا عبادي لو أنّ أوّلكم، وآخركم، وإنسكم، وجنّكم، قاموا في صعيد، فسألوني، فأعطيت كلّ إنسان منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[4]. وفي الحديث القدسي أيضاً قال الله عزّ وجلّ: «وإن سألني لأعطينّه، ولئن

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٨، والترمذي في كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج، وغير ذلك ٥/ ٥٢٩ برقم (٣٥٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، ومالك في الموطأ ١/ ٢١٧ كتاب القرآن باب ما جاء في الدعاء. وصحّحه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ٥٢٣ هامش رقم (٢) ولم أجد هذا الحديث في الصحيحين كما ذكر شيخ الإسلام.

(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ١٩٢، ١٩٣.

(٤) هذا جزء من حديث قدسي طويل أخرجه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٥ برقم (٢٥٧٧).

استعاذني لأعيذنّه»[1]. وقوله ﷺ: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء»[2]. وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله حيي كريم، يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين»[3].

قال الشوكاني: (ومن ذلك ما ورد في إجابة دعوة المظلوم على ظالمه، والأب على ولده، وورد أيضاً أنّ جماعة لا يُردّ دعاؤهم، والأحاديث بذلك صحيحة ثابتة والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وفيها الترغيب في الدعاء ومحبّة الله له، حتى أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (من لم يسأل الله يغضب عليه)[4]. فلو لم يكن الدعاء نافعاً لصاحبه، وأن ليس له إلاّ ما قد كتب له، دعا أو لم يدع، لم يقع الوعد بالإجابة وإعطاء المسألة في

---

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (الفتح ١١/ ٣٤٩ برقم ٦٥٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء أنّ دعوة المسلم مستجابة ٥/ ٤٣١ برقم (٣٣٨٢) وقال: هذا حديث غريب، ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٤٤ من طريق أخرى وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٤١، ١٤٢ برقم (٥٩٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٤٣٨، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء ٢/ ١٦٥ برقم (١٤٨٨) والترمذي في كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ ٥/ ٥٢٠ برقم (٣٥٥٦) وقال: حسن غريب وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء ٢/ ١٢٧١ برقم (٣٨٦٥)، وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأدعية ٣/ ١٦٠، ١٦٣ برقم (٨٧٦، ٨٨٠) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٧ وصحّحه من حديث سلمان. ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٤٧)، وسنده جيد.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٢، والبخاري في الأدب المفرد، باب من لم يسأل الله يغضب عليه (انظر فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد ٢/ ١١٤ برقم ٦٥٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/ ٤٢٦ برقم (٣٣٧٣)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ برقم (٣٨٢٧)، والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩١ وصحّحه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية ٥١٩ هامش رقم (١).

هذه الأحاديث ونحوها)[1].

أقول: وبالجملة فإنّ القرآن والأحاديث تردّ على قولهم بأنّ الدعاء لا ينفع من الله عزّ وجلّ إلاّ ما قد سبق به القضاء، وأنه ليس سبباً في الحصول على المطلوب، فإنّ الله سبحانه قدّر جميع الأسباب ومسبّباتها، «وجميع الأسباب قد تقدّم علم الله بها، وكتابته لها، وتقديره إيّاها، وقضائه بها، كما تقدّم ربط ذلك بالمسبّبات»[2]. فإذا قدّر الله مثلاً للعبد خيراً يناله بالدعاء، لم يحصل بدون الدعاء، وهكذا جميع الأشياء المقرونة بالسبب.

وكلام الشوكاني هنا[3] يفهم منه أنّ الدعاء ليس مما قد كتب الله له، وسبق به قضاؤه، وهو غير صحيح، لأنّ كون العبد دعا أو لم يدع لا يخرج مطلقاً عمّا قدّره الله له، وكتب له في الأزل، فإنّ هذا المقدّر لا يتخلّف، ولكنّه لا يحصل إلا بالدعاء، وإنّ الدعاء لا يتخلّف أيضاً، لأنّ الله قدّره، وقد قرّر رحمه الله خلاف المفهوم السابق كما تقدّم[4].

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا الصدد: (إنّ هذا المقدور قدّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدّر مجرّداً عن سببه، ولكن قدّر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهكذا، كما قدّر الشبع والريّ بالأكل والشرب، وقدّر الولد بالوطء، وقدّر حصول الزرع بالبذر، وقدّر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدّر دخول الجنّة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال... وحينئذ، فالدعاء من أقوى

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠١.

(٢) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٢٧٧.

(٣) أي قوله: فلو لم يكن الدعاء نافعاً لصاحبه، وأن ليس له... الخ. وتقدّم مثل هذا الكلام، وكرّره في عدّة مواضع من كتبه (انظر قطر الولي ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥١٣، ٥١٤، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧).

(٤) أي في أوّل الفقرة، وسيأتي مزيد من التفصيل في الفقرة التالية (صفحة ١٥٨).

الأسباب، فإذا قدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء لم يصحّ أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب، وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ من حصول المطلوب)[1].

(د) الدعاء يردّ القدر:

استدلّ الشوكاني على أنّ الدعاء يردّ القدر بأدلّة كثيرة، منها:

١ ـ ما رواه الترمذي وغيره أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يردّ القضاء إلاّ الدعاء، ولا يزيد في العمر إلاّ البرّ»[2].

قال الشوكاني: (فيه دليل على أنّه سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد وقد وردت بهذا أحاديث كثيرة، ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[3])[4].

٢ ـ ما رواه الحاكم وغيره عن النبي ﷺ قال: «لا يغني حذر عن قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإنّ البلاء لينزل، فيتلقّاه

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن القيم ٢٧ تحقيق الاستاذ سعيد محمد اللحام، ط ١/ ١٤٠٧ هـ مكتبة المعارف.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢ والترمذي في كتاب القدر، باب ما جاء لا يردّ القدر إلاّ الدعاء ٤/ ٣٩٠ برقم (٢١٣٩) وقال: هذا حديث حسن غريب وابن ماجة في كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/ ١٣٣٤ برقم (٤٠٢٢) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣ وصحّحه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٣٦ برقم (١٥٤) وقال بعد سرده طرق الحديث ونقدها: والخلاصة أنّ الحديث حسن كما قال الترمذي (وأورده الشوكاني في تحفة الذاكرين ٢٦، وقطر الولي ٥٠١، وبحث في أنّ إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء ضمن أمناء الشريعة ١٣١).

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٦.

الدعاء فيعتلجان[1] إلى يوم القيامة»[2].

قال الشوكاني: (فيه دليل على أنّ الحذر لا يغني عن صاحبه شيئاً من القدر المكتوب عليه، ولكنّه ينفع من ذلك الدعاء، ولذلك عقبه ﷺ بقوله: والدعاء ينفع مما نزل وممّا لم ينزل)[3].

٣ ـ ما ورد من الاستعاذة من سوء القضاء، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما أنه كان ﷺ يقول: «اللهمّ إنّي أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[4].

ومن ذلك حديث الدعاء في الوتر، وفيه: «وقني شرّ ما قضيت» وهو حديث صحيح وإن لم يكن في الصحيحين[5].

---

(١) قال ابن الأثير: يعتلجان: أي يتصارعان (النهاية ٣/ ٢٨٦ مادة: علج).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٢ وصحّحه. وتعقّبه الذهبي بأن فيه زكريا بن منظور ضعيف. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٦): رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بنحوه، وفيه زكريا بن منظور، وثّقه أحمد بن صالح المصري، وضعّفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٧٩ برقم ٧٧٣٩) (والحديث أورده الشوكاني في تحفة الذاكرين ٢٧، وبحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣١، وقطر الولي ٥٠٢).

(٣) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوّذ من جهد البلاء (الفتح ١١/ ١٥٢ برقم ٦٣٤٧) ومسلم في كتاب الدعوات، باب في التعوّذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٤/ ٢٠٨٠ برقم ٢٧٠٧) (وأورده الشوكاني في قطر الولي ٥٠٣، وتحفة الذاكرين ٣٧١، وبحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣٢).

(٥) انظر: قطر الولي ٤١٥، ٥٠٢ وبحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة ١٣٤ والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر (٢/ ١٣٣، ١٣٤ برقم ١٤٢٥) والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في القنوت في الوتر (٢/ ٣٢٨ برقم ٤٦٤) وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه... ولا نعرف عن النبي ﷺ في القنوت شيئاً أحسن من هذا. والنسائي في=

قال الشوكاني: (فلو لم يكن للعبد إلاّ ما قد سبق به القضاء، لم يستعذ رسول الله ﷺ من سوء القضاء)[1].

قلت: مفهوم هذا الكلام أنه يكون للعبد ما لم يسبق به القضاء، وأنّ الاستعاذة من سوء القضاء ليس مما سبق به القضاء، وهو مفهوم غير صحيح، كما تقدّم[2] وقد تعارض هذا المفهوم مع ما قرّره في بعض كتبه، من أنّ الاستعاذة من سوء القضاء هي من قضاء الله تعالى وقدره، ولهذا شرعها لعباده[3].

٤ ـ وصحّ عن بعض أكابر الصحابة كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأبي وائل، وأمثالهم أنهم كانوا يسألون الله سبحانه وتعالى أن يثبتهم في ديوان السعادة وأن ينقلهم من ديوان الشقاوة إن كانوا فيها إلى ديوان السعادة[4].

فقد روى الطبري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت، ويبكي: (اللّهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنّك

= كتاب قيام الليل وتطّوع النهار، باب الدعاء في الوتر (٣/ ٢٤٨ برقم ١٧٤٥، ١٧٤٦) وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنّة فيها، باب ما جاء في القنوت في الوتر (١/ ٣٧٢ برقم ١١٧٨) والدارمي في كتاب الصلاة، باب الدعاء في القنوت (١/ ٤٥١، ٤٥٢ برقم ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣) وأحمد في مسنده (١/ ١٩٩، ٢٠٠) والحاكم في المستدرك (٣/ ١٧٢، ٤/ ٩٩). والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٠٩) وصحّحه أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي (٢/ ٣٢٩ هامش رقم ٢) كما صحّحه الألباني في أرواء الغليل (٢/ ١٧٢ برقم ٤٢٩).

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٢.
(٢) أي في الكلام عن الدعاء. انظر صفحة (١٦٣).
(٣) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٧٢.
(٤) انظر قطر الولي: الشوكاني ٥١٤، وفتح القدير: الشوكاني ٣/ ٨٩، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٦، ١١٧، ١٢٦، وبحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٣٩.

تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمّ الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة). وروى مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره[1].

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله أنّ الاستعاذة من سوء القضاء لا تخالف الرضا به، لأنّ الاستعاذة من سوء القضاء هي من قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ولهذا شرعها لعباده[2]. وقال: (قد وردت السنّة الصحيحة ببيان أنّ القضاء باعتبار العباد ينقسم إلى قسمين: خير وشرّ، فإنه قد شرع لهم الدعاء بالوقاية من شرّه، والاستعاذة منه، ولا ينافي هذا ما ورد عنه ﷺ في بيان معنى الإيمان لمن سأله عنه بقوله: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، والقدر خيره وشرّه)[3] كما هو ثابت في الصحيحين عنه ﷺ وغيرهما من طرق، فإنّه يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً بما قضاه الله سبحانه وتعالى من خير وشرّ، مستعيذاً بالله من شرّ القضاء عملاً بمجموع الأدلّة)[4].

هذه بعض الأدلة التي استدلّ بها الشوكاني في هذه المسألة، وهناك أدلّة أخرى أوردها رحمه الله ليردّ بها على القائلين بأنه لا ينفع من الله إلاّ ما قد سبق به القلم، وأنّ أحكام الله وقضاءه في سابق علمه لا تتبدّل ولا تتغيّر[5].

ونحن مع الشوكاني في هذا، غير أنّي أرجّح القول بأن ما في سابق علمه سبحانه كائن لا محالة، وأن ما سبق به القلم، وفصّل به القضاء لا يتغير ولا يتبدّل، وهو المعبّر عنه بأمّ الكتاب، كما أشار إليه سبحانه في كتابه العزيز إذ قال:

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/ ١٦٧، ١٦٨ ط/ ١٤٠٨ هـ دار الفكر.

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٧٢.

(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (١٣٣).

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٧٢.

(٥) انظر تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٢٧، وأيضاً ١٣٤.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِيْ إِمَامٍ مُبِيْنٍ﴾[1]. وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ فِيْ الأَرْضِ وَلاَ فِيْ أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِيْ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[2].

وكما ثبت في الحديث: أنّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة[3]. وأنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: ربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم الساعة[4].

وثبت في الصحيح أن سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: لا، بل فيما جفّت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسّر[5].

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يا أبا هريرة، جفّ القلم بما أنت لاق»[6].

---

(١) سورة يٓس، الآية: ١٢.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤ برقم ٢٦٥٣).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣١٧، وأبو داود في كتاب السنّة، باب في القدر (٥/ ٧٦ برقم ٤٧٠٠) والترمذي في كتاب القدر (٤/ ٣٩٨ برقم ٢١٥٥) وابن أبي عاصم في السنّة (١/ ٥٠ برقم ١٠٨) قال الألباني: حديث صحيح، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنّة (٢/ ٣٩٣ برقم ٨٥٤) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٠) للبزار، وقال: رجاله ثقات وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٠٧ برقم ١٣٣) وفي صحيح الجامع الصغير (١/ ٤٠٥ برقم ٢٠١٧، ٢٠١٨).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٤/ ٢٠٤٠ برقم ٢٦٤٨) وابن ماجة مختصراً في المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٤ برقم ٩١) وأحمد في المسند ٣/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتّل والخصاء (الفتح ٩/ ٢٠=

وفسّر الحافظ ابن حجر هذا الحديث فقال: (أي فرغت الكتابة، إشارة إلى أن الذي كتب في اللوح المحفوظ لا يتغيّر حكمه، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة. ونقل عن عياض[1] قال: معنى جفّ القلم: أي لم يكتب بعد ذلك شيئاً)[2].

ومن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله تعالى فرغ إلى كلّ عبد من خلقه من خمس: من أجله، ومن عمله، ومن رزقه، ومن أثره، ومن مضجعه»[3].

ولا تعارض بين ما سبق من أحاديث ردّ القضاء بالدعاء وبين كون القضاء قد كتبه الله وقدّره في الأزل قبل حدوثه، لأنّ الدعاء وردّ القضاء به كليهما من جملة ما كتبه الله وقدّره، فإذا قدّر للعبد خيراً مثلاً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء.

وقد أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: (إنّ الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته، ورحمته، وهداه، ونصره، ورزقه، وإذا قدّر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدّره

= برقم ٥٠٧٦) وأخرجه معلّقاً في كتاب القدر، باب جفّ القلم عن علم الله (الفتح ١١/ ٤٩٩) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥٠، ٥١ برقم ١٠٩، ١١٠).

(١) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي، عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، ومن أشهر مصنّفاته: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، توفّي سنة ٥٤٤ هـ (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ابن خلكان ٣/ ١٥٢، والبداية والنهاية) ابن كثير ١٢/ ٢٢٥، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ١٣٠، والأعلام الزركلي ٥/ ٩٩).

(٢) الفتح: ابن حجر ١١/ ٥٠٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٩٧، وابن أبي عاصم في السنّة (١/ ١٣٢، ١٣٣ برقم ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥) قال الألباني: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٥): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات.

الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم، فإنّما قدّره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلاّ بسبب، والله خالق الأسباب والمسبّبات)[1].

ونقل الإمام النووي عن الغزالي قال: (فاعلم أن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لردّ البلاء، ووجود الرحمة، كما أنّ الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2]. فقدّر الله الأمر، وقدّر سببه)[3]. فالسبب والمسبّب كلاهما مقدّر من الله سبحانه، مكتوب في اللوح المحفوظ.

ومن هنا نستطيع القول بأنّ الدعاء يردّ القضاء ولا يردّ القضاء، يعني له جهتان: فمثلاً هذا المريض قد يدعو الله تعالى بالشفاء فيشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقي مريضاً، لكنّ بالدعاء يشفي، إلاّ أنّنا نقول إنّ الله سبحانه وتعالى قد قدّر في سابق علمه أنّ هذا المرض يشفي منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاء يردّ القضاء ظاهريّاً، حيث أنّ الإنسان يظنّ أنه لولا الدعاء لبقي المرض، ولكنّه في الحقيقة لا يردّ القضاء، لأنّ الأصل أنّ الدعاء مكتوب، وأنّ الشفاء سيكون بهذا الدعاء[4]. وهكذا جميع الأسباب التي جعلها الله أسباباً، فإنّها مقدّرة، معلومة، مقضية، مكتوبة قبل تكوينها.

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٣) الأذكار: النووي ٥٦٧ تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، ط/ دار الهدى ١٤٠٩ هـ.

(٤) انظر المجموع الثمين من فتاوي الشيخ محمد بن صالح العثيمين ١٥٧ ط/ دار الوطن ١٤١٠ هـ.

وقد بيّن الرسول ﷺ أنّ الأسباب من القدر كما روى أبو خِزَامَة[1] عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ، يا رسول الله، أرأيت رُقًى نَسْتَرْقِيْهَا، ودَوَاءً نتداوى به، وتُقَاةً نَتَّقِيْهَا، هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله[2].

قال الشوكاني عند شرحه للحديث: (قوله: (هي من قدر الله) أي لا مخالفة بينهما، لأنّ الله هو الذي خلق تلك الأسباب، وجعل لها خاصية في الشفاء)[3].

والذي يشهد لهذا الحديث بالصحّة قوله ﷺ: «كلّ ميسّر لما خلق له»[4] فهو إذا تداوى أو استرقى أو اتقى فبتقدير الله وتيسيره أمكنه ذلك، ولو لم يقدّره لم يتيسّر منه فعل ذلك[5].

ومثل هذا نقول في الدعاء، فإنّ الله هو الذي يقذف في قلوب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إيّاه، كما في العمل والثواب، فهو الذي وفّق العبد للتوبة ثمّ قبلها، وهو الذي وفّقه للعمل ثمّ أثابه، وهو

---

(١) قال الحفاظ ابن حجر: أبو خزامة، بزاي قبلها كسرة، ابن يعمر بفتح التحتانية وسكون المهملة السعدي، أحد بني الحارث بن سعد بن هذيم، يقال: اسمه زيد بن الحارث، ويقال: الحارث، وكلاهما وهم، وهو صحابي، له حديث في الرقى، وقلبه بعض الرواة (تقريب التهذيب ٦٣٦ برقم ٨٠٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٢١، والترمذي في كتاب الطّب، باب ما جاء في الرقى والأدوية (٤/ ٣٤٩ برقم ٢٠٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي كتاب القدر، باب ما جاء لا تردّ الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئاً (٤/ ٣٩٥ برقم ٢١٤٨)، وابن ماجة في كتاب الطبّ، باب ما أنزل الله داء ألّا أنزل له شفاء (٢/ ١١٣٧ برقم ٣٤٣٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩) وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ١٣٢، ١٣٣ تحقيق/ طه عبد الرؤوف سعيد ومصطفى محمد الهواري.

(٤) تقدم تخريجه في صفحة (١٥٣).

(٥) انظر الاعتقاد والهداية: البيهقي ٩٠.

الذي وفّقه للدعاء ثم أجابه، فما أثّر فيه شيء من المخلوقات، بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله[1].

هذا قول الحقّ الذي عليه جمهور أهل العلم[2] ومنهم الشوكاني رحمه الله حيث أثبت أنّ الله سبحانه قد علم في سابق علمه أنّ فلاناً يحصل له من الخير كذا، أو يندفع عنه من الشرّ كذا، إذا دعا ربّه، وأنّ هذه المسبّبات مترتّبة على حصول أسبابها[3]، وأنّ الله علمها قبل أن تكون، فعلمه على كلّ تقدير أزليّ في المسبّبات والأسباب[4] وقال عن الدعاء والاستعاذة من سوء القضاء إنّهما من قدر الله وقضائه[5].

إلّا أنّ الشوكاني رحمه الله رأى أنّ ما سبق به القلم وفصّل به القضاء يتغير ويتبدّل، بدليل ما ثبت في الكتاب والسنّة من الإرشاد إلى الدعاء، وما ورد من الاستعاذة من سوء القضاء كما أوردناه، وأنّه لا تلازم بين علم الله وبين نفاذ قضائه[6] قال: «لو كان القضاء السابق حتماً لا يتحوّل فأيّ فائدة في استعاذته ﷺ من سوء القضاء»[7]؟

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ٥٢١.
(٢) انظر: الاعتقاد والهداية: البيهقي ٨٧ ـ ٩٠، وشفاء العليل: ابن القيم ٥٠، ٥٢، ولطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي ٨٣ ط/ دار الجيل، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ١/ ٣٤٨، والدين الخالص: محمد صدّيق حسن خان ٣/ ٢٠٢، ٢٠٣ ط/ دار التراث، والدرة البهية: عبد الرحمن ناصر السعدي ٧٢، ٧٣ مكتبة المعارف، ومعارج القبول: حافظ الحكمي ٣/ ٩٥٤، ٩٥٥ تحقيق/ عمر بن محمود أبو عمر ط ١/ ١٤١٠ هـ دار ابن القيم.
(٣) انظر تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٢٦.
(٤) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥١٠.
(٥) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٧، ٥١٤.
(٦) انظر: قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٩٦، ٤٩٧، وبحث في أنّ إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٢٧، ١٢٤.
(٧) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥١٤.

وهذا مخالف لما ذهب إليه المحقّقون من أهل العلم، وقد أوردت سابقاً بعض الأدلة التي تدلّ بمفهومها على أنّ ما سبق به القضاء لا يتغيّر ولا يتبدّل، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وما كتب في اللوح المحفوظ يكون وفقاً لما في علم الله سبحانه الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل بإجماع المسلمين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، إِنَّ ذٰلِكَ فِيْ كِتَابٍ، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرٌ﴾[1].

والله سبحانه وتعالى عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون[2]، وكلّ شيء في الكون يسير طبقاً لما في علمه سبحانه، ولما كتبه في اللوح المحفوظ، فما يحدث شيء في الكون إلّا وقد علمه الله، وكتبه قبل حدوثه. هذا ما أجمع عليه المحققون من أهل العلم[3]،

والتعارض الذي وقع فيه الشوكاني هنا هو:

١ ـ أنّه أثبت أنّ الدعاء ومثله الاستعاذة من سوء القضاء من جملة القدر، أي قد قدّره الله في الأزل، ثمّ قال إنّ القدر يتغيّر ويتبدّل،

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٢) التفسير الكبير: ابن تيمية ٤/ ٢٠١ تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٢/ ١٢٢، والشريعة: الآجري ١٧٦، ١٧٩، والاعتقاد: البيهقي ٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣، دار المعرفة، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٦/ ١١٤، وأيضاً ١٦/ ٢١٢، ٢١٣، والعقيدة الواسطية: ابن تيمية ١٦٤ شرح الدكتور صالح بن فوزان، وشفاء العليل: ابن القيم ٧٤، ونور الاقتباس: ابن رجب ٧٥ ـ ٧٧ تحقيق: محمد ناصر العجمي مكتبة دار الأقصى، ط/ ١٤٠٦ هـ، وإيثار الحق على الخلق: ابن الوزير اليماني ٢٧٩ دار الكتب العلمية، ط/ ١٤٠٣ هـ، والفتح: ابن حجر العسقلاني ١٠/ ٤٣٠، وأيضاً ١١/ ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني ١/ ٤٣٨، ٣٤٩، وتيسير الكريم الرحمن: عبد الرحمن ناصر السعدي ٤/ ١١٧ تحقيق: محمد زهري النجار.

وإنّ للعبد ما لم يسبق به القضاء، وهذا تناقض، لأنه إذا قلنا إنّ الدعاء من القدر، بمعنى أنّ الله قدّر في سابق علمه أنّ فلاناً سيدعو، وسينال بدعائه الخير، فكيف يصحّ لنا القول بأنّ ما قدّره له يتغيّر ويتبدّل؟ إنّه لا يتغيّر ولا يتبدّل، والذي يتغيّر ويتبدّل هو ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلّق ذلك بما في علم الملك الموكّلين بالآدمي، كما سيأتي تفصيله.

٢ ـ قوله رحمه الله عن الدعاء: (والحاصل أنّ الدعاء من قدر الله عزّ وجلّ، فقد يقضي بشيء على عبده قضاء مقيّداً بأن لا يدعوه، فإن دعاه اندفع عنه)[١]. هذا يتناقض مع ما ذهب إليه في موضع آخر، وهو نفيه القول بالقضاء المطلق والقضاء المقيّد، ووصفه بأنّه قول مردود ورأي بحث ليس عليه دليل[٢].

وسيأتي بيان الراجح في الموضوع في الفقرة التالية إن شاء الله.

(هـ) الآجال والمحو والإثبات:

ذهب الشوكاني إلى أنّ أجل الإنسان يزيد وينقص، وأنّ الله سبحانه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ، ويثبت ما يشاء منه. واستدلّ على ذلك بأدلّة كثيرة، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُوْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٣].

قال الشوكاني عند تفسيره للآية: (أي لكلّ أمر ممّا قضاه الله، أو لكلّ

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٧.
(٢) انظر بحث في أنّ إجابة الدعاء لا ينافي سبق القضاء، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١٣٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٨، ٣٩.

وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها، كتاب عند الله يكتبه على عباده، ويحكم به فيهم. (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أي يمحو من ذلك الكتاب، ويثبت ما يشاء منه. ثمّ قال: «وظاهر النظم القرآني العموم في كلّ شيء ممّا في الكتاب، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة، أو سعادة، أو رزق، أو عمر، أو خير، أو شرّ، ويبدّل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون.

وأورد اثني عشر قولاً في معنى الآية، ورجّح القول الأوّل: أنّ الآية عامّة، وأنّ العمر فرد من أفرادها، قال: «والأوّل أولى كما تفيده ما في قوله: (ما يشاء) من العموم، مع تقدّم ذكر الكتاب في قوله: (لكلّ أجل كتاب) ومع قوله: (وعنده أمّ الكتاب) أي أصله، وهو اللوح المحفوظ، فالمراد من الآية أنّه يمحو ما يشاء ممّا في اللوح المحفوظ، فيكون كالعدم، ويثبت ما يشاء ممّا فيه، فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «جفّ القلم»(١) وذلك لأنّ المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه»(٢).

ويدلّ على هذا التعميم ما ثبت عن كثير من أكابر الصحابة أنهم كانوا يقولون في دعائهم: (اللهمّ إن كنت كتبتني في أهل الشقاوة فامحني واثبتني في أهل السعادة)(٣).

وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس،

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة ؛١٦٨).
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٨٨ وانظر ردوده على الأقوال في قطر الولي على حديث الولي ٥٠٤ ــ ٥٠٦، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ١١٤، ١١٥.
(٣) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٥، وأيضاً ٥١٤، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٦، ١١٧، وفتح القدير: الشوكاني ٣/ ٨٩. وهذا الأثر أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٣/ ١٦٧، ١٦٨) عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. وقد تقدّم في صفحة (١٦٦).

وأبو وائل، وقتادة، والضحّاك، وابن جريج، وغيرهم[1].

٢ ـ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾[2].

ومعنى الآية كما قال الشوكاني: (أي ما يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمره إلّا في كتاب أي اللوح المحفوظ)[3].

وقال بعد سوقه للأقوال في معنى الآية ومناقشتها[4]:

(والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أنّ تطويل العمر وتقصيره هما بقضاء الله وقدره، لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير، فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرحم عن النبي ﷺ[5]، ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير: الاستكثار من معاصي الله عزّ وجلّ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلاً سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكلّ في كتاب مبين)[6].

٣ ـ أيّد الشوكاني معنى الآية السابقة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ قَضَى

---

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٨٨، وإرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان: مرعي بن يوسف الكرمي ٤١ تحقيق: مشهور حسن محمود سليمان، دار عمّار ١٤٠٨ هـ. وانظر تفسير الطبري ١٣/ ١٦٧، ١٦٨، وزاد المسير: ابن الجوزي ٤/ ٣٣٧، وتفسير الفخر الرازي ١٠/ ٦٥، ٦٦ وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٣٤٢، وأيضاً قطر الولي: الشوكاني ٥٠٨، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٧.

(٤) انظر ما أورده الشوكاني من الأقوال وردوده عليها في قطر الولي ٥٠٦، ٥٠٧، وتنبيه الأفاضل ١١٥، ١١٦.

(٥) سيأتي نصّ الحديث مع تخريجه قريباً.

(٦) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٣٤٢.

أَجَلاً، وأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾[1] ومعنى الآية كما اختاره رحمه الله من بين أقوال المفسّرين هو: أنّ الأول الأجل الذي هو محتوم، والثاني الزيادة في العمر لمن وصل رحمه، فإن كان برّاً تقيّاً وصولاً لرحمه زيد في عمره: وإن كان قاطعاً للرحم لم يزد له، ويرشد إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ، إلَّا فِيْ كِتَابٍ﴾[2][3]. فمعنى الآية: (ثمّ قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده): أنّ للإنسان أجلين، يقضي الله سبحانه له بما يشاء منهما من زيادة أو نقص[4].

٤ ـ وممّا يستدلّ به الشوكاني من الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبّ أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه»[5]، وما رواه الترمذي وغيره أنّ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١١.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٩٩، وانظر أيضاً ما أورده من الأقوال في قطر الولي على حديث الولي ٥٠٧، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ١١٦.

(٤) انظر تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٧، وقطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٨، وتقدم بيان التعارض الذي وقع فيه الشوكاني في هذه القضية راجع (ص ١٧١، ١٧٢).

(٥) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (الفتح ١٠/ ٤٢٩ برقم ٥٩٨٦) وأيضاً برقم ٥٩٨٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: (من سرّه أن يبسط له... الحديث وفي كتاب البيوع، باب من أحبّ البسط في الرزق (الفتح ٤/ ٣٥٣ برقم ٢٠٦٧) عن أنس ابن مالك رضي الله عنه نحوه، وأخرجه مسلم في كتاب البر، باب في صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤/ ١٩٨٢ برقم ٢٥٥٧) وأبو داود في كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (٢/ ٣٢١ برقم ١٦٩٣) وأحمد في المسند ٣/ ١٥٦، وأورده الشوكاني في قطر الولي ٥٠٢، وتنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة ١١٧.

رسـول الله ﷺ قـال: «ولا يـزيـد في العمـر إلّا البـرّ»(٦)، قـال الشوكاني عند شرحه للحديث: (فيه دليل أنّ ما يصدق عليه البرّ على العموم يزيد في العمر، وقد ثبت في الصحيح أنّ صلة الرحم تزيد في العمر، والمراد: الزيادة الحقيقية، وقيل المراد البركة في العمر، والظاهر الأوّل)(٧).

ومنهـا ما رواه الحـاكم وغيره عن ابن عبّـاس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مكتوب في التوراة: من أحبّ أن يزاد في عمره، ويزاد في رزقـه فليصل رحمـه»(١). وما رواه أحمـد عن عـائشـة رضي الله عنهـا أنّ النبي ﷺ قال: «صلة الرحم، وحسن الخلق وحسن الجوار، يعمّران الديار، ويزيدان في الأعمار»(٢).

قال الشوكاني رحمه الله: (والأحاديث في هذا البـاب كثيرة، فلو لم يكن للعباد إلّا ما قد سبق له لم تحصل له الزيادة بصلة رحمه، بل ليس له إلّا ما قد سبق به القضاء، وصل رحمه أو لم يصل، فيكون مـا ورد في ذلك لغواً، لا عمل عليه، ولا صحّة له)(٣).

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (١٦٤).

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ١٦٠ وصحّحه، ووافقه الذهبي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٣): رواه البزار، وفيه سعيد بن بشير وثّقه شعبة وجماعـة، وضعّفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات، والحديث بهذا اللفظ ضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ١٣٦، ١٣٧ برقم ٥٢٧٧).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ١٥٩ قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٥٣)، رواه أحمد ورواته ثقات، إلّا أنّ عبد الرحمن بن القاسم لم يسمع من عائشة. قلت: في مطبوع المسند بين عبد الرحمن وعائشة القاسم، وسماعه من عائشة ثابت وصحيح، ولهذا فالحديث صحيح. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/ ٣٤ برقم ٥١٩)، وقطر الولي للشوكاني ٥٠٣.

(٥) قطر الولي: الشوكاني ٥٠٣.

قلت: إنّه قد سبق له الزيادة بصلة رحمه، وسبق أنّه سيصل رحمه، فلا منافاة، أمّا قوله: (وصل رحمه أو لم يصل) فهذا كلام غير مقبول، لأنه قدّر له أن يصل، ولا يتخلّف ما قدّر له، وقد تقدّم تعليقي على مثل هذا الكلام[1].

وقد جمع الشوكاني بين هذه الأدلّة وبين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾[3]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[4] حيث قال:

(أفسّرها (يعني: هذه الآيات الثلاث) بما هي مشتملة عليه، فإنّه قال في الآية الأولى: (فإذا جاء أجلهم) وقال في الثانية: (إذا جاء أجلها) وقال في الثالثة: (إنّ أجل الله إذا جاء) فأقول: إذا حضر الأجل فإنّه لا يتقدّم ولا يتأخّر، وقبل حضوره يجوز أن يؤخّره الله بالدعاء أو بصلة الرحم، أو بفعل الخير، ويجوز أن يقدّمه لمن عمل شرّاً، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل، وانتهك محارم الله سبحانه)[5].

هذا ما ذهب إليه الشوكاني في هذه المسألة، التي وصفها بأنّها من المعارك لاختلاف الأدلّة فيها من الكتاب والسنّة[6]. وخلاصته: أنّ الله كتب للإنسان أجلين مطلقاً ومقيّداً، مثال ذلك: فلان عمره تسعون سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره إلى مائة سنة، فأيّهما بلغ فهو في كتاب، والله يمحو ويثبت ما يشاء منهما من زيادة ونقص.

---

(١) راجع صفحة (١٦٣).

(٢) وردت الآية في موضعين: سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ١١.

(٤) سورة نوح، الآية: ٤.

(٥) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٥٠٨ وأيضاً تنبيه الأفاضل، ضمن أمناء الشريعة: الشوكاني ١١٨.

(٦) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٦.

هذا مبني على قوله: إنّ ما في اللوح المحفوظ يتبدّل ويتغيّر تبعاً للأسباب(١) وكأنّها لم تكن ممّا سبق به قضاء الله وقدره، وهو غير صحيح كما تقدّم.

والذي أراه راجحاً في هذه المسألة هو رأي القائلين بأنّ المحو والإثبات في المكتوب عند الملائكة، وأنّ ما في سابق علمه سبحانه وفي اللوح المحفوظ لا يقع فيه المحو والإثبات، وهو ما قاله كثير من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية(٢)، وابن أبي العزّ الحنفي(٣)، والحافظ ابن حجر(٤)، والسفاريني(٥)، والشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي(٦)، وغيرهم.

والمراد بالمكتوب عند الملائكة هو ما بيّنه الرسول ﷺ في أحاديث، منها: ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرحم ملكاً فيقول: أي ربّ نطفة، أي ربّ علقة، أي ربّ مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي ربّ أذكر أم أنثى، أشقيّ أم سعيد؟ فما الرزق، فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمّه»(٧).

وهذه الكتابة هي المعهودة في صحيفته، ووقع ذلك صريحاً في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يدخل الملك

---

(١) أشار الشوكاني إلى ذلك في عدة مواضع من كتبه، كما تقدّم.
(٢) انظر مجموع فتاوى ١٤/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢، وأيضاً ٨/ ٥١٧، ٥٤٠.
(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ١٥٢.
(٤) انظر الفتح ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤، وأيضاً ١١/ ٤٩٧.
(٥) انظر لوامع الأنوار البهية ١/ ٣٤٩.
(٦) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٤/ ١١٧.
(٧) أخرجه البخاري في أوّل كتاب القدر (الفتح ١١/ ٤٨٦ برقم ٦٥٩٥) وفي كتاب الحيض، باب مخلقة وغير مخلّقة (الفتح ١/ ٤٩٨ برقم ٣١٨) وفي كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذرّيته (الفتح ٦/ ٤١٩ برقم ٣٣٣٣) ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٤/ ٢٠٣٨ برقم ٢٦٤٦).

على النطفة بعدما تستقرّ في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا ربّ أشقيّ أو سعيد، فيكتبان، فيقول: أي ربّ أذكر أو أنثى، فيكتبان، ويُكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثمّ تطوى الصحف، فلا يزاد فيها، ولا يُنقص»[1]. وفي رواية[2] ثانية (ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أُمِرَ ولا ينقص). أي لا يزيد الملائكة ولا ينقص فيما كتبه، والذي يزيد وينقص هو الله سبحانه وتعالى تبعاً لما سبق به علمه وقضاؤه، ولما كتبه في اللوح المحفوظ.

والمكتوب عند الملك الموكّل به غير المعلوم عند الله عزّ وجلّ، فالأوّل يدخل فيه التغيير دون الثاني، وتوجيه ذلك: أنّ المعاملات على الظواهر، والمعلوم الباطن خفيّ لا يعلّق عليه الحكم، فذلك الظاهر الذي اطّلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص، والمحو والإثبات، والحكمة فيه إبلاغ ذلك إلى المكلّف ليعلم فضل البرّ وشؤم القطيعة[3].

وعلى هذا القول فإنّ الكتاب كتابان: أحدهما الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق كما في الحديث، وذلك الكتاب محلّ المحو والإثبات، والكتاب الثاني أمّ الكتاب أو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المشتمل على تعيّن جميع الأحوال العلوية والسفلية، وهو الباقي لا يغيّر فيه شيء[4].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمّه (٤/ ٢٠٣٧ برقم ٢٦٤٤) وأحمد في المسند ٤/ ٦، ٧ وابن أبي عاصم في السنّة (١/ ٨٠ برقم ١٨٠) والآجريّ في الشريعة ١٨٢، ١٨٣.

(٢) أخرجها مسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤/ ٢٠٣٧ برقم ٢٦٤٥).

(٣) انظر الفتح: ابن حجر ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٤) روى عكرمة هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما (انظر: تفسير الطبري ١٣/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣، وزاد المسير: ابن الجوزي ٤/ ٣٣٩، والتفسير الكبير: الفخر الرازي ١٩/ ٦٦، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٨.

يقول الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي[1] رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء...﴾ الآية (يمحو الله ما يشاء من الأقدار، ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإنّ هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأنّ ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: (وعنده أمّ الكتاب)، أي اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسباباً، ولمحوها أسباباً لا تتعدّى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البرّ والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة، وجعل التعرض لذلك سبباً للعطب، فهو الذي يدبّر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبّره منها لا يخالف ما قد علمه، وكتبه في اللوح المحفوظ)[2].

وعلى هذا فإنّ زيادة الآجال ونقصها بالنسبة إلى علم الملك الموكّل بالعمر، لا بالنسبة إلى ما في سابق علم الله وقضائه، فلا زيادة فيه ولا نقص، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3].

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، عالم كبير، ومفسّر جليل، من علماء الحنابلة، عاش في فترة (١٣٠٧ ــ ١٣٧٦ هـ) مولده ووفاته في عنيزة (بالقصيم) من مؤلفاته: تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، والأدلّة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين، والدرة البهية. (انظر ترجمته في: الأعلام: الزركلي ٣/ ٣٤٠، ومقدمة الكتاب: الدرة البهية ٥ ــ ١٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن ناصر السعدي ٤/ ١١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١.

والمثال على ذلك: أنّ الله قدّر في سابق علمه أنّ فلاناً عمره مائة سنة، بسبب صلته الرحم، وأمر الملك أن يكتب له: أنّ عمره تسعون سنة إن قطع الرحم، وإن وصلها زيد في عمره إلى مائة سنة.

وقد سبق في علمه سبحانه أنّ هذا يصل رحمه، فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، أي مائة سنة، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدّر هذا السبب وقضاه. (فالذي في علم الله لا يتقدّم ولا يتأخّر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، وَيُثْبِتُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]، فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أمّ الكتاب هو الذي في علم الله تعالى، فلا محو فيه ألبتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأوّل: القضاء المعلق)[2].

وإلى هذا أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ قال: (والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيّد، وبهذا يتبيّن معنى قوله ﷺ: «من سرّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه»[3]. فإنّ الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً، وقال: إن وصل رحمه زدته كذا وكذا، والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكنّ الله يعلم ما يستقرّ عليه الأمر، فإذا جاء ذلك لا يتقدّم ولا يتأخّر)[4].

ومن الأدلّة على أن الآجال لا تتغير حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أمّ حبيبة زوج النبي ﷺ: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: قد سألتِ الله لآجال

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.
(٢) الفتح: ابن حجر ١٠/ ٤٣٠.
(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (١٧٤).
(٤) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٥١٧.

مضروبة، وأيّام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجّل شيئاً قبل حلّه، أو يؤخّر شيئاً عن حلّه، ولو كنتِ سألتِ الله أن يعيذكِ من عذاب النار، أو عذاب القبر، كان خيراً وأفضل»[1].

هذا الحديث صريح في أنّ الآجال والأرزاق مقدّرة لا تتغيّر، ولهذا جمع العلماء بين هذا الحديث وما في معناه من الآيات[2] وبين ما ورد في زيادة العمر لمن وصل رحمه، وأجابوا بأجوبة أشهرها: أنّ الزيادة كناية عن البركة في العمر، والتوفيق إلى الطاعات، وما يبقى بعده من الثناء الجميل، فكأنّه لم يمت[3].

وردّ شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الجواب بأنّ تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضاً مقدّرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء، ورجّح القول بأنّ الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى المكتوب في صحف الملائكة، قال: (والجواب المحقّق: أنّ الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: «إنّ آدم لمّا طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذرّيته، فأراه إيّاهم، فرأى فيهم رجلاً له بصيص[4]، فقال: من هذا يا ربّ؟ فقال: ابنك داود، قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة، قال: وكم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب أنّ الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص (٤/ ٢٠٥٠، ٢٠٥١ برقم ٢٦٦٣).

(٢) كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُوْنَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُوْنَ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١) وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرِ الله نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ (سورة المنافقون، الآية: ١١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٩/ ٣٣٠، وشرح النووي لمسلم: ١٦/ ١١٤، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤ وأيضاً ١٠/ ٣٤٠ وسبل السلام: الصنعاني ٤/ ١٦٠ ط ٤/ ١٣٧٩ هـ مصطفى البابي الحلبي.

(٤) لعل الصواب: وبيص. كما في نصّ الحديث عند الترمذي، ومعناه: بريق (انظر النهاية لابن الأثير ٥/ ١٤٦ مادة: وبص).

عمري؟ قال: ألف سنة، قال: فقد وهبت له من عمري ستّين سنة، فكتب عليه كتاباً، وشهدت عليه الملائكة، فلمّا حضرته الوفاة، قال: قد بقي من عمري ستّون سنة، قالوا: وهبتها لابنك داود، فأنكر ذلك، فأخرجوا الكتاب، قال النبي ﷺ: «فنسي آدم، فنسيت ذرّيته، وجحد آدم، فجحدت ذرّيته»[1]. وروي أنّه كمل لآدم عمره، ولداود عمره.

فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة، ثمّ جعله ستّين[2]، وهذا معنى ما روي عن عمر أنّه قال: اللهمّ إن كنت كتبتني شقيّاً فامحني واكتبني سعيداً، فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت.

والله سبحانه وتعالى عالم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فهو يعلم ما كتب له، وما يزيده إيّاه، بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلاّ ما علّمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إنّ المحو والإثبات في صحف الملائكة، وأمّا علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به، فلا محو فيه ولا إثبات، وأمّا اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين)[3]. والذي أراه راجحاً أنّه لا محو فيه ولا إثبات، لما تقدّم أنّ ما في اللوح المحفوظ موافق لما في علم الله، وأنّ الأمور مقدّرة بأسبابها، فكما أنّ الرزق مقدّر بسبب، وسببه العمل لطلبه، كذلك الأجل، أي يزاد وينقص بسبب، ومن الأسباب الدينية لزيادته صلة الرحم، فإذا قدّر الله أن يكون عمر فلان مائة سنة بسبب صلته الرحم قدّر ذلك في الأزل وكتبه عنده في اللوح المحفوظ من قبل أن يحدث،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأعراف ٥/ ٢٤٩ برقم ٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وأخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٩، ٢٧١.

(٢) أي أعطاه ستّين زيادة، فصار مائة.

(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٤/ ٤٩٠ ـ ٤٩٢)، والتفسير الكبير: ابن تيمية (٤/ ٢٠٠، ٢٠١) تحقيق/ د: عبد الرحمن عميرة.

وعلى هذا الأساس فلا تكون الزيادة والنقص والمحو والإثبات في القدر الأزلي السابق وفي اللوح المحفوظ، بل تكون في القدر اللاحق المكتوب عند الملك الموكّل به.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (إنّ في تقدير الأعمال ما هو سابق ولاحق، فالسابق ما في علم الله تعالى، واللاحق ما يقدّر على الجنين في بطن أمّه، كما وقع في الحديث[1]. وهذا هو الذي يقبل النسخ، وأمّا ما وقع في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً[2]: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. فهو محمول على كتابة ذلك في اللوح المحفوظ، على وفق ما في علم الله سبحانه وتعالى)[3].

أمّا ما استدلّ به الشوكاني من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِيْ كِتَابٍ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ﴾[5] فالراجح عند المحقّقين أنّ المراد بالمعمّر في الآية الأولى جنس المعمّر الذي هو مطلق الشخص، فيصدق بالذي لم ينقص من عمره وبالذي نقص من عمره، فصار المعنى: لا يزاد في عمر شخص، ولا ينقص

---

(١) يقصد حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً، ثمّ في ذلك علقة مثل ذلك، ثمّ يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد. الحديث. (رواه البخاري في كتاب القدر، باب في القدر (الفتح ١١/ ٧٨٦ برقم ٦٥٩٤)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي (٤/ ٢٠٣٦ برقم ٢٦٤٣) واللفظ له.

(٢) سبق تخريجه في صفحة (٢٣٠).

(٣) فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٤٩٧).

(٤) سورة فاطر، الآية: ١١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢.

من عمر شخص إلاّ في كتاب)[1].

وقد روى الطبري[2] هذا القول، ورجّحه عن ابن عباس وغيره[3]. كما رجّحه ابن كثير[4]، وقال: (الضمير (أي في قوله تعالى: وما ينقص من عمره). عائد على الجنس، لا على العين، لأنّ العين الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنّما عاد الضمير على الجنس، وهذا كقولهم: عندي ثوب ونصف. أي نصف آخر)[5].

وأمّا الآية الثانية فالمراد بالأجل الأوّل أجل الموت، وبالثاني أجل الساعة، وقد روى الطبري هذا القول، ورجّحه عن ابن عباس وغيره[6]. وهو

---

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: محمد الأمين الشنقيطي (ص ٢٤٦) مكتبة ابن تيمية، وانظر أيضاً التفسير الكبير: ابن تيمية (٤/ ١٩٩)، ومجموع فتاوى: ابن تيمية (٤/ ٤٩٠).

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، المؤرّخ المفسّر الإمام، قال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمّة العلماء يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. توفّي (٣١٠ هـ) له مؤلّفات مفيدة منها: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتهذيب الآثار، وصريح السنة. (انظر: تاريخ بغداد) الخطيب البغدادي ٢/ ١٦٣، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٣/ ١٢٠).

(٣) انظر تفسير الطبري (٢٢/ ١٢٢).

(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين: حافظ مؤرّخ فقيه. قال الحافظ ابن حجر: اشتغل بالحديث مطالعه في متونه ورجاله، وكان كثير الاستحضار وحسن المفاكهة، سارت تصانيفه في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته، له تصانيف مفيدة، منها: تفسير القرآن العظيم، قال الشوكاني: وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها. والبداية والنهاية، واختصار علوم الحديث توفّيّ (٧٧٤ هـ) (انظر: الدرر الكامنة: ابن حجر ١/ ٣٧٤، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٦/ ٢٣١، البدر الطالع: الشوكاني ١/ ١٥٣).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٧)، وانظر أيضاً تفسير البغوي (٣/ ٥٦٧)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٣٣٣).

(٦) انظر تفسير الطبري (٧/ ١٤٦، ١٤٧).

قول الزمخشري في الكشاف[1]، ورجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال بعد أن ساق الآية:

(فالأجل الأوّل هو أجل كلّ عبد الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمّى عنده هو أجل القيامة العامّة، ولهذا قال: مسمّى عنده. فإنّ وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾[2]. . . وأمّا أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين: أنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة. . . الحديث[3]. فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يُعلمه الله لمن يشاء من عباده، وأمّا أجل القيامة المسمّى عنده فلا يعلمه إلّا هو)[4].

(و) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى:

ذهب الشوكاني رحمه الله تعالى في هذه المسألة مذهب جمهور أهل السنّة، وهو إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى، أي أنّ أفعال الله تعالى وأوامره معلّلة بعلل غائية، وحكم بالغة، يحبّها ويرضاها، ويفعل لأجلها، وأنّه ممّا ينافي كماله وجلاله وحكمته ورحمته أن تكون أفعاله وأحكامه صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة، بل بمحض المشيئة والإرادة، كما يقول النفاة من الأشاعرة وأمثالهم[5].

---

(١) انظر الكشّاف (٢/ ٤).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (٢٤٨) في الهامش (رقم ١).

(٤) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٤/ ٤٨٩)، والتفسير الكبير: ابن تيمية (٤/ ١٩٨، ١٩٩).

(٥) قالوا: إنّ الله تعالى خلق المخلوقات، وأمر المأمورات، لا لعلّة، ولا لغرض، ولا لباعث، بل كان ذلك منه بمحض المشيئة، وصرف الإرادة، ونفوا أن يكون هناك لام =

وقد دلّ على ذلك القرآن الكريم في عدّة آيات:

كقوله تعالى وهو يثني على عباده المؤمنين: ﴿وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِيْ خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ﴾[1].

قال الشوكاني عند تفسيره للآية: (أي يقولون: ما خلقت هذا عبثاً ولهواً، بل خلقته دليلاً على حكمتك وقدرتك، سبحانك: أي تنزيهاً لك عما لا يليق بك من الأمور التي من جملتها أن يكون خلقك لهذه المخلوقات باطلاً)[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِيْنَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾[3].

قال الشوكاني: (لاعبين): أي لغير غرض صحيح[4]. و(الحقّ) كما قال ابن القيم: هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كلّه، وهو أنواع كثيرة[5].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً، ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا﴾[6].

= التعليل في القرآن الكريم، بل سمّوها لام العاقبة والصيرورة فرارا من تعليل أفعاله تعالى. (انظر: المواقف للايجي (ص ٣٣١، ٣٣٢)، وشرح المقاصد للتفتازاني (٤/ ٢٩٦، ٣٠١ ــ ٣٠٦) تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، وانظر أيضاً: منهاج النسة لابن شيمية (٣/ ١٤، ٣٢)، ومجموعة الرسائل والمسائل له (٥/ ٢٨٦)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٤٢٢ ــ ٥٣٥) وقد أورد ــ رحمه الله ــ حججهم وناقشها وردّ عليها ردّاً وافياً).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤١١.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٣٨، ٣٩.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/٥٧٨.

(٥) انظر شفاء العليل: ابن القيم ٤٠٤.

(٦) سورة صٓ، الآية: ٢٧.

أوضح الشوكاني معنى هذه الآية حيث قال: (أي ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً على الحكمة الباهرة، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا (ذلك ظنّ الذين كفروا) أي مظنونهم، فإنّهم يظنّون أنّ هذه الأشياء خلقت لا لغرض، ويقولون إنّه لا قيامة ولا بعث ولا حساب، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً)[1].

وقد أنكر سبحانه وتعالى على أمثال هؤلاء في آية آخرى، وهي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُوْنَ﴾[2].

ففي هذه الآية أنكر سبحانه على من زعم أنّه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، بل خلقه عبثاً، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يحاسبون، فدلّ ذلك على أنّه تعالى خلقهم لحكمة عظيمة، وهي عبادة الله وتوحيده.

والعبث ــ كما فسّره الشوكاني ــ: هو اللعب، يقال: عَبِثَ يَعْبَثُ عَبَثاً فهو عابث، أي لاعب، وأصله من قولهم: عَبِثْتُ الأَقِط[3]: أي خلطته، والمعنى: أفحسبتم أنّا خلقناكم للإهمال، كما خلقت البهائم، ولا ثواب، ولا عقاب، وأنّكم إلينا لا ترجعون بالبعث والنشور، فيجازيكم بأعمالكم[4].

ففي هذه الآيات الكريمة وأمثالها دلالة ظاهرة على أنّ الله خلق الخلق غير عابث ولا لاعب، بل لحكمة وغاية يعلمها، ولا يلزم من إثبات الحكمة في أفعال الله أن نعلم الحكمة في كلّ فعل، إذْ قد تخفى الحكمة في بعض الأفعال، وقد لا تخفى، فلله الحكمة البالغة لا تبلغها عقول البشر، ولا تدركها الأفهام.

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٣٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٣) الأَقِط بوزن الكَتِف، قال الأزهري في تهذيب اللغة (٩/ ٢٤١ مادة: أقط). والأقط يتخذ من اللبن المخيض، يُطْبَخ ثمّ يُتْرَك حتى يَمْصُل، والقطعة منه أقطة.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٥٠٠.

وإلى هذا أشار الشوكاني رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيْ نَفَقاً فِيْ الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِيْ السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾[1]. قال:

(إنّ الله سبحانه في ذلك (أي في تمرّد الكفرة، وتصميمهم على كفرهم) حكمة لا تبلغها العقول، ولا تدركها الأفهام، فإنّ الله سبحانه لو جاء لرسوله ﷺ بآية تضطرّهم إلى الإيمان لم يبق للتكليف الذي هو الابتلاء والامتحان معنى، ولهذا قال: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) جمع الجاء وقسر، ولكنّه لم يشأ ذلك، ولله الحكمة البالغة)[2].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِيْ الرِّزْقِ﴾[3]: (أي فجعلكم متفاوتين فيه، فوسع على بعض عباده، حتى جعل له من الرزق ما يكفي ألوفاً مؤلفة من بني آدم، وضيّقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلّا بسؤال الناس والتكفّف لهم، وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلها، والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال، جعله بينهم في العقل والعلم والفهم وقوّة البدن وضعفه، والحسن والقبح، والصحّة والسقم، وغير ذلك من الأحوال)[4].

والحكمة صفة من صفات الله تعالى، شأنها كشأن سائر الصفات، وليست غيراً له، ومن أسمائه الحسنى الحكيم الذي لا تخلو أفعاله ومقاديره من حكمة وغاية حميدة، كما أنّه العليم الذي له العلم والقدير الذي له القدرة، والعزيز الذي له العزة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١١٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧١.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٧٧، ١٧٨.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾(١).

قال الشوكاني: (والحكيم: صيغة مبالغة في إثبات الحكمة له)(٢).

ومعناه: أي أنه يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته(٣)، ولا شك أن معطي الحكمة غيره يجب أن يكون حكيماً.

أما التعليل في أفعال الله فقد ورد في القرآن الكريم، في مواضع متعددة بأدوات متنوّعة، ومن أهمّها لام التعليل التي تسمّى لام كي. كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسِ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾(٤). فاللام الداخلة على الفعل لام التعليل عند جمهور أهل السنّة خلافاً لمن ينفي ذلك من الأشاعرة وأتباعهم، ويسمّونها لام العاقبة والصيرورة(٥).

وفيما يلي نأخذ أمثلة من الأيات الكريمة في تعليل أفعال الله، وما أوضحه الشوكاني عند تفسيره لها ليتبيّن رأيه فيها:

(أ) قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٦).

قال الشوكاني: اللام متعلّق بفتحنا، وهي لام العلّة. ونقل عن صاحب الكشّاف قال: (إن اللام لم تكن علّة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة، وهي المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٦٥.
(٣) انظر المصدر السابق ١/ ٢٢٢.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٥) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٣٧، ٣٨، ٤٤ وأيضاً ١٨٦، ١٨٧ ومنهاج السنة: ابن تيمية ٣/ ١٤، ٣٢.
(٦) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.

والنصر العزيز، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عزّ الدارين، وأغراض العاجل والآجل.

وعلّق الشوكاني على هذا قائلاً: (وهذا كلام غير جيد، فإن اللام داخلة على المغفرة، فهي علّة للفتح فكيف يصحّ أن تكون معلّلة)؟[1].

(ب) قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء﴾[2].

فسّر الشوكاني اللام الداخلة على الفعل بأنّها لام التعليل إذ قال: (أي والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلّا لأجل أن يعبدوا الله ويوحّدوه حال كونهم (مخلصين له الدين) أي جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين)[3].

وكذلك فسّر اللام في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[4]. ومثله قوله تعالى: ﴿الَّذِيْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[5]. بأنها لام التعليل، قال: (أي خلق هذه المخلوقات ليبتلي عباده بالاعتبار والتفكّر، والاستدلال على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء، أيّهم أحسن عملاً فيما أمر به ونهى عنه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويوفّر الجزاء لمن كان أحسن عملاً من غيره، ويدخل في العمل الاعتقاد، لأنّه من أعمال القلب)[6].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٤، ٤٥ وانظر الكشاف للزمخشري ٤/ ٣٣٢.
(٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٧٦.
(٤) سورة هود، الآية: ٧.
(٥) سورة الملك، الآية: ٢.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٨٢، وانظر أيضاً ٥/ ٢٥٨.

(ج) قوله تعالى عن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[1].

فسّر الشوكاني اللام الداخلة على الفعل بأنّها لام التعليل، إذ قال: (أي ولنجعل هذا الغلام، أو خلقه من غير أب، آية للناس يستدلّون بها على كمال القدرة، وهو علّة لمعلّل محذوف، والتقدير: خلقناه لنجعله...)[2].

كما فسّر اللام في قوله تعالى: ﴿إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُوْلَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[3] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[4]. وقوله عزّ وجل: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ﴾[5] بأنّها لام التعليل[6].

(د) وجاء التعليل بلفظ: (من أجل) كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِيْ الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيْعاً﴾[7].

قال الشوكاني: (والمعنى: أنّ نبأ ابنَيْ آدم هو الذي تسبّب عنه الكتب المذكور على بني إسرائيل، وعلى هذا جمهور المفسّرين)[8].

كما جاء التعليل بلفظ: لعلّ. كقوله تعالى: ﴿إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾[9].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢١.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٤.
(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٥١، ٣/ ٩٤، ٤/ ٣١٢. (على الترتيب).
(٧) سورة المائدة، الآية: ٣٢.
(٨) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٣٣.
(٩) سورة يوسف، الآية: ٢.

قال الشوكاني: (لعلّكم تعقلون: أي لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه[1] فلعلّ هنا للتعليل، لأنّ لعلّ في كلام الله سبحانه تكون للتعليل مجرّدة عن معنى الترجّي، لأنّه لا يصحّ الترجّي في حقّ الله تعالى)[2].

(هـ) عند شرحه لحديث: (إنّ أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم على الناس فحرّم من أجل مسألته)[3]. نقل عن بعض العلماء قال: أهل السنّة لا ينكرون إمكان التعليل، وإنّما ينكرون وجوبه، فلا يمتنع أن يكون الشيء الفلاني تتعلّق به الحرمة إن سئل عنه، فقد سبق القضاء بذلك، إلاّ أنّ السؤال علّة للتحريم[4].

هذا ما أوضحه الشوكاني في تعليل أفعال الله من خلال تفسيره للآيات وشرحه للحديث، وهو موافق لما قرره جمهور أهل السنّة[5] غير أني وجدته يجيز تفسير لام التعليل في بعض الآيات بلام العاقبة.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[6].

قال الشوكاني: (واللام في (لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) متعلّق بجعلنا وهي إما للغرض أو للعاقبة[7] على أنه فسّر اللام في مثل هذه الآية بأنّها للتّعليل كما تقدّم)[1].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٤.
(٢) انظر شفاء العليل: ابن القيم ٣٩٨.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام باب ما يكره من كثرة السؤال (الفتح ١٣/ ٢٧٨ برقم ٧٢٨٩) ومسلم في كتاب الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله ١/ ١٨٣١ برقم (٢٣٥٨).
(٤) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ٣٦.
(٥) انظر رسالة الإرادة والأمر ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ١/ ٣٣١ دار إحياء التراث العربي، ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٣٨.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٧.
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٧٠.

ومثل هذا فسّر اللام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ، وَلِيَقُوْلُوْا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ﴾[2].

وفسّر اللّام في قوله تعالى ـ حكاية عن موسى عليه السلام ـ: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيْلِكَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوْا أَجَلاً مُسَمًّى﴾[4] بأنّها لام العاقبة والصّيرورة[5].

وهذا قول ضعيف مخالف لقول الجمهور، فإنّ لام العاقبة لا تكون في حقّه تعالى بل تكون في حقّ من هو جاهل بالعاقبة، أمّا من هو بكلّ شيء عليم، وعلى كلّ شيء قدير، فلا تكون هذه اللام في حقّه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنّ لام العاقبة الّتي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنّما تكون من جاهل أو عاجز، فالجاهل كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[6] لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: لدّوا للموت وابنوا للخراب. فإنّهم يعلمون هذه العاقبة، لكنّهم عاجزون عن دفعها والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إنّ فعله كفعل الجاهل العاجز)[7].

فاللّام الواردة في أفعاله تعالى وأحكامه لام الحكمة والغاية المطلوبة كما تشهده النصوص.

---

(١) في تفسير الآية: ٧ من سورة هود، والآية: ٢ من سورة الملك (فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٨٢، ٥/ ٢٥٨).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٥ وانظر فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٤٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٧.

(٥) انظر فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٦٨، ٤/ ٥٠١.

(٦) سورة القصص، الآية: ٨.

(٧) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٨/ ٤٤، وأيضاً ٨/ ١٨٧، وانظر أيضاً: بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة: ابن تيمية ١/ ٢١٧.

(ز) الفرق بين الكونيّات والدينيّات:

فـرّق الشوكـاني رحمه الله بين الكـونيّات التي هي خلق الله وقـدره والدينيّات التي هي أمره وشرعه، فقسّم إرادة الله، وأمره، وقضاءه، وإذنه، وبعثه، وإرساله، وجعله، وتحريمه، وغير ذلـك إلى كوني متعلّق بخلقـه، وديني متعلّق بأمره وشرعه.

قال: (فالإرادة الكونيّة، والأمـر الكونيّ: وهي مشيئتـه لما خلقـه من جميع مخلوقاتـه إنسهم وجنِّهم، مسلمهم وكافـرهم، حيوانهم وجمـادهم، ضارّهم ونافعهم. والإرادة الدينيّة، والأمر الديني: هي محبّته المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعاً وديناً، فهذه مختصّة بالإيمان والعمل الصالح)[1].

(فما خلقه الله سبحانه وقدّره وقضاه فهو يريده، وإن كان لا يأمر به ولا يحبّه ولا يرضاه، ولا يثيب أصحابه، ولا يجعلهم من أوليائـه، وما أمـر به وشرعه وأحبّه ورضيه، وأحبّ فاعليه، وأثابهم وأكرمهم عليه، فهو الذي يحبّه ويرضاه، ويثيب فـاعله عليه)[2]. وأورد الشـوكاني أمثلة وردت في القـرآن الكريم في الكونيّات والدينيّات.

فمن الإرادة الكونيّة:

قول الله سبحانه: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِيْ السَّمَاءِ﴾[3] وقول نوح عليه السلام، فيما حكاه سبحانه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيْ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٢٨٥.
(٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة هود، الآية: ٣٤.

بِقَوم ٍ سُوْءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ وَال ٍ﴾[1].

ومن الإرادة الدينيّة:

قوله تعالى: ﴿يُرِيْدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيْدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيْدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَيَتُوْبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ. وَاللَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَتُوْبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيْدُ الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيْلُوْا مَيْلاً عَظِيْماً. يُرِيْدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيْفاً﴾[3].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيْدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً﴾[4].

ومن الأمر الكوني:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾[5]، وقوله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيْداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْس ِ﴾[6].

ومن الأمر الديني:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْل ِ وَالإِحْسَان ِ، وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي ِ﴾[7]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[8].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٦ ــ ٢٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ٤٠.
(٦) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٧) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٨) سورة النساء، الآية: ٥٨.

ومن القضاء الكوني:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾[1]، وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ﴾[2] أي خلقهنّ وأحكمهنّ وفرغ منهنّ[3].

ومن القضاء الديني:

قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوْا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[4] أي أمر، وليس المراد قدّر فإنّهم قد عبدوا غيره كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُوْلُوْنَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[5] وذكر الشوكاني عند تفسيره للآية السابقة أنّ القضاء هنا بمعنى الأمر: وهو أحد معاني القضاء، والأمر لا يستلزم ذلك، فإنّه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين[6].

ومن الإذن الكوني:

قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[7] أي بمشيئته وقدرته وإلّا فالسحر لا يبيحه الله، ومن الإذن الكوني أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيْبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[8] أي بقضائه وقدره[9].

وقال تعالى في الإذن الديني: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً وَدَاعِياً

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٨.
(٢) سورة فصّلت، الآية: ١٢.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٥٠٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢١٩.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.
(٨) سورة التغابن، الآية: ١١.
(٩) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٣٧.

إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيْراً﴾[1] أي بأمره له بذلك وتقديره[2]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3].

ومن البعث الكوني:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُوْلِيْ بَأْسٍ شَدِيْدٍ فَجَاسُوْا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُوْلاً﴾[4].

ومن البعث الديني:

قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِيْ الأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[5]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾[6]، فسّر الشوكاني هذه الآية وقال نقلاً عن الزجاج[7]: (وفي هذه الآية التصريح بأنّ الله أمر جميع عباده بعبادته واجتناب الشيطان، وكلّ ما يدعو إلى الضلال، وأنّهم بعد ذلك فريقان، فمنهم من هدى، ومنهم من حقّت عليه الضلالة، فكان في ذلك دليل على أنّ أمر الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته، فإنّه يأمر الكلّ بالإيمان، ولا يريد الهداية إلاّ للبعض، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد)[8].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥، ٤٦.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٨٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥.
(٥) سورة الجمعة، الآية: ٢.
(٦) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٧) سبقت ترجمته في صفحة (١٤٩).
(٨) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٦١، ١٦٢.

ومن الأمثلة في الإرسال الكوني:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ عَلَى الْكَافِرِيْنَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[2].

وفي الإرسال الديني:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً﴾[3].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُوْلاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُوْلاً﴾[4].

ومن الجعل الكوني:

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُوْنَ إِلَى النَّارِ﴾[5].

ومن الجعل الديني:

قوله سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[6].

ومن التحريم الكوني:

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾[7].

وقوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً يَتِيْهُوْنَ فِيْ الأَرْضِ﴾[8].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.
(٤) سورة المزّمل، الآية: ١٥.
(٥) سورة القصص، الآية: ٤١.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٧) سورة القصص، الآية: ١٢.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٢٦.

ومن التحريم الديني:

قوله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عليْكُمْ الْمَيْتةُ والدَّمُ ولحْم الْخِنْزِيْرِ وما أُهِلَّ لغيْر اللَّه به﴾[1].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عليْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَأَخَواتُكُمْ وَعمَّاتُكُمْ وَخالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخ وبناتُ الأُخْت﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾[3].

قال الشوكاني بعد سوق هذه الأمثلة من الآيات: (فجميع ما تقدّم يقال لما كان كونيّاً منه حقيقة كونيّة، ولما كان دينيّاً منه حقيقة دينيّة)[4].

وبهذه التفرقة بين الكونيّة والدينيّة يفصل النزاع الذي وقع فيه طوائف من الناس في مسألة الأمر والارادة، وهل أمر الله تعالى مستلزم لإرادته أولاً؟ لأنّهم لم يفرّقوا بينهما.

وقد ذكر هذه التفرقة غير واحد من أهل السنة، وذكروا أنّ المحبّة والرضا ليست هي الارادة الشاملة لكلّ المخلوقات، كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم[1].

وذكر الشوكاني: أن الفرق بين هذه الأمور واضح وإن اشتبه على طائفة من أهل العلم فخبطوا وخلطوا، وبيان ذلك أن الله سبحانه له الخلق والأمر

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٤) انظر قطر الولي: الشوكاني ٢٨٦ ـ ٢٩٠.
(٥) منهاج السنة: ابن تيمة ٣/ ١٨، وانظر ما قاله السلف أهل السنة في التفرقة بين الكونيات والدينيّات في: الشريعة للآجري ١٥١، ومجموع فتاوى لابن تيمية ٨/ ٥٨ ـ ٦١، ١٤٠، ١٥٩، ١٨٨ ـ ١٩٠، ٣٢٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ورسالة الأمر والإرادة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٦٧، ٣٦٨، وشفاء العليل لابن القيّم ٥٥٩ ـ ٥٦٧، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١١٦ ـ ١١٨، ٢٨١، ٥٠٥ ـ ٥٠٧، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٣٣٨، ٣٣٩.

كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِيْ اللَّيْلَ النَّهَارَ، يَطْلُبُهُ حَثِيْثاً، والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُوْمَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ﴾(١) فهو سبحانه خالق كلّ شيء وربّه ومليكه لا خالق غيره، ولا ربّ سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكلّ ما في الوجود من حركة وسكون بقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وإرادته وخلقه، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسوله، ونهى عن الشرك بالله سبحانه، وأمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأخبر أنّه يحبّ المتّقين والمحسنين، ويكره ما نهى عنه وأنّه لا يحبّ الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر(٢). كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئَةُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوْهاً﴾(٣) والمراد بالمكروه عند الله هو الذي يبغضه ولا يرضاه، لا أنه غير مراد مطلقاً، لقيام الأدلّة القاطعة على أنّ الأشياء واقعة بإرادته سبحانه(٤). وكما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(٥) أي لا يرضى لأحد من عباده الكفر ولا يحبّه ولا يأمر به(٦).

وبهذه التفرقة التي أوضحها الشوكاني بين خلقه تعالى الموافق لإرادته الكونيّة، وبين أمره الموافق لمحبّته ورضاه، أصبح لا حجّة لأهل المعاصي في الاحتجاج بالقدر. ومن ظنّ أنّ القدر حجّة لأهل المعاصي فقد غلط غلطاً بيناً، واقتدى بأهل الكفر الذين حكى الله عنهم أنّهم قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا، وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم قال: ﴿كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٢) انظر قطر الولي: الشوكاني ٢٨٣ ــ ٢٨٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٢٨.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٥١.

قَبْلِهِمْ حتّى ذاقُوا بأسنا، قُلْ هلْ عنْدكُمْ منْ علْمٍ ، فتُخْرجُوْهُ لنا، إنْ تتَّبعُوْن إلاَّ الظَّنَّ وإنْ أنْتُمْ إلاَّ تخْرُصُوْن، قُلْ فللَّه الْحُجَّةُ الْبالغةُ، فلوْ شاء لهداكُمْ أجْمعيْن﴾[٧] قال الشوكاني : (وهذا كلام حقّ يراد به باطل، فبيّن سبحانه أنّهم تكلّموا جهلاً وكذباً، وأرادوا بما صورته صورة الحقّ باطلاً ، وزعموا أنّه إذا شاء فقد رضي)[٨]. وهو زعم باطل. قال: لو كان القدر حجّة لم يعذّب الله سبحانه المكذّبين للرّسل كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون، وغيرهم، ولم يأمر بإقامة الحدود على العصاة المرتكبين لها، ولا يحتجّ أحد بالقدر إلا إذا كان متّبعاً لهواه بغير هدي من الله، ومن ظنّ ذلك فعليه أن لا يذمّ كافراً، ولا عاصياً، ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه، ولا يفرّق بين من يفعل الخير ومن يفعل الشرّ، وهذا خلاف ما تقتضيه عقول جميع العقلاء، وما تقتضيه جميع كتب الله المنزلة، وما تقتضيه كلمات أنبياء الله عليهم السلام)[١].

أما شبهة ما ورد في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام فأجاب الشوكاني عنها قائلاً: (ومن ظنّ أنّ في محاجة آدم وموسى حجّة للمحتجين بالقدر حيث قال موسى : أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، أخرجتنا ونفسك من الجنّة. فقال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، فلِمَ تلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أخلق؟ قال: فحجّ آدم موسى. هكذا في الصحيحين وغيرهما[٢]. ووجه الحديث: أن موسى عليه السلام إنّما لام أباه آدم عليه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨، ١٤٩.

(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٥٥٠.

(٣) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٢٩٠، ٢٩١.

(٤) رواه البخاري في عدّة مواضع من صحيحه وبعدّة أسانيد وألفاظ عن أبي هريرة رضي الله عنه انظر الفتح (٦/ ٥٠٨ برقم ٣٤٠٩) وفيه ذكر بقية مواضع وروده، ومسلم على نحو ما سبق. انظر كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام =

السلام لأكله الشجرة التي كانت سبباً لاخراجه وذرّيته من الجنّة، ولم يلمه على كونه أذنب ذنباً وتاب منه، فإن موسى يعلم أنّ التائب من الذنب لا يلام)[1].

وهذا الجواب هو جواب شيخ الإسلام ابن تيمية[2]. وتلميذه ابن القيّم[3] رحمهما الله تعالى وهو أحسن جواب فسّر به هذا الحديث. فإن آدم عليه السلام أعلم بالله من أن يحتجّ بالقدر على الذنب، وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجّة، فإنّ هذه لو كانت حجّة على الذنب لكانت حجّة لابليس عدوّ آدم، وحجّة لفرعون عدوّ موسى، وحجّة لكلّ كافر وفاجر، وبطل أمر الله ونهيه، بل إنّما كان القدر حجّة لآدم على موسى لأنّه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه[4].

فإن القدر يحتجّ به عند المصائب، لا عند المعائب، فما قدّر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنّه من تمام الرضى بالله ربّا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ

= ٤٧٠١) والترمذي في كتاب القدر باب ما جاء في حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٥/ ٣٨٦ برقم ٢١٣٤) وابن ماجة في المقدمة باب في القدر (١/ ٣١ برقم ٨٠) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٨).

وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٨).

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) انظر منهاج السنة (٣/ ٢٦) ومجموع فتاوى ـ (٨/ ١٠٨، وأيضاً ١٧٨، ١٧٩، ٣١٣، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٣).

(٣) انظر شفاء العليل ٣٥.

(٤) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٨/ ١٠٨).

واسْتغفرْ لذنْبك﴾[1]، ﴿وإنْ تصْبرُوا وتتّقُوا لا يضُرُّكُم كيْدُهُمْ شيْئاً﴾[2][3].

●●●

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ١٥٤، ١٥٥)، وانظر أيضاً منهاج السنة لابن تيمية (٣/ ٢٦٢٥).

الفصل الثاني

في توحيد الألوهية

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية.

المبحث الثاني: عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية.

المبحث الثالث: العبادة وذكر جملة من أنواعها.

المبحث الرابع: التوسّل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه.

المبحـث الأوّل

تعريف توحيد الألوهية

تعريف توحيد الألوهية:

توحيد الألـوهية هـو ما يعبّـر عنه بتـوحيد العبـادة، أو توحيـد الطلب والقصد، أسماء لمسمّى واحد، ومعناه بعبـارة اجماليـة: افراد الله سبحـانه وحده بالعبادة، وبعبارة أوضح: افراد الله سبحانه وتعالى بأفعال عباده التي تعبّدهم بها بجميع أنواعها، باطنها وظاهرها، من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، والنحر، والنذر، والمحبّة، والخوف، والرجاء، والتوكّل، والرغبة، والرهبة، والدعاء، وغير ذلك من أنـواع العبادة التي تعبّـد الله بها خلقـه، وشرعها لهم.

وهذا النوع من التوحيد مبنيّ على اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه، فلا يدعى من دونه أحد من خلقه، لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، فمن صرف شيئاً منها لغير الله، فهو كافر مشرك.

قـال تعـالى: ﴿قُـلْ إنَّ صَـلاَتِيْ وَنُسُكِيْ وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِيْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِيْنَ﴾[1].

وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٥.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إلاَّ لِيَعْبُدُوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاء﴾[1].

ومعنى «حنفاء» كما قال الشوكاني: (أي مائلين عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام)[2].

أدلّته:

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى توجب على العباد أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بتوحيد العبادة، ويخصّوه بها وحده دون سواه.

منها قوله تعالى في أول أمر في كتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ، وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ. الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، فَلاَ تَجْعَلُوْا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾[3].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوْا إلاَّ إِيَّاهُ﴾[4].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوْا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً﴾[5].

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيْ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ، وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾[6].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾[7].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾[8].

---

(١) سورة البيّنة، الآية: ٥.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٧٦ وانظر أيضاً ٣/ ٢٠٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الاسراء، الآية: ٢٣.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٦) سورة الزمر، الآية: ١١، ١٢.

(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٦.

(٨) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

قال الشوكاني في معنى الآية: (أي اتركوا كلّ معبود دون الله كالشيطان والكاهن، والصنم، وكلّ من دعا إلى الضلال)[2]، (والطاغوت: بناء مبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت، وهو الأوثان والشيطان، ومعنى اجتنبوا الطاغوت: أعرضوا عن عبادته، وخصّوا عبادتهم بالله عزّ وجلّ)[3].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو المستحقّ للعبادة بجميع أنواعها الاعتقادية، والقولية، والفعلية، وليس لأحد سواه، كائناً من كان أي شيء من أنواع العبادة.

وكما جاءت آيات الكتاب الكريمة مبيّنة لهذا النوع من التوحيد، وآمرة به كذلك جاءت السنة المشرّفة موضّحة ومبيّنة له وآمرة به.

ومن ذلك ما رواه ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (إنّك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله عزّ وجلّ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم، وتوق كرائم أموالهم)[4].

ومنها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: يا معاذ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٦١.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ٤٥٦ وانظر أيضاً: ١/ ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٨٧، ٢/ ٥٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (الفتح ١٣/ ٣٥٩ برقم ٧٣٧٢) ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ٥١ برقم ١٩) واللفظ له.

أتدري ما حق الله على عبادته على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقّهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذّبهم[1].

فهذه الأحاديث تدلّ على وجوب إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

تضمّنه لأنواع التوحيد الأخرى:

وهذا النوع من التوحيد متضمّن لجميع أنواع التوحيد الأخرى، فهو متضمّن لتوحيد الربوبية الذي تقدّم ذكره، ومعنى كونه متضمّناً له أنّ توحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد الألوهية، لأن من عبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً، لا بدّ أن يكون قد اعتقد أنّه هو ربّه ومالكه الذي لا ربّ له غيره، ولا مالك له سواه، فهو يعبده لاعتقاده أنّ أمره كلّه بيده، وأنّه هو الذي يملك ضرّه ونفعه، وأنّه مستحقّ للعبادة دون سواه.

ولذلك نجد الآيات الكثيرة تبيّن أنّ الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله لا تملك لعابديها ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُوْنَ شَيْئاً، وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُوْنَ أَيَّانَ يُبْعَثُوْنَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ﴾[3].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (الفتح ١٣/ ٣٥٩ برقم ٧٣٧٣) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة (١/ ٥٨ برقم ٣٠).

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٠، ٢١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٧٣.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ﴾(١).

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: (أي أتعبدون من دون الله متجاوزين إياه ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً؟ بل هو عبد مأمور، وما جرى على يده من النفع، أو دفع من الضرّ، فهو إقدار الله له، وتمكينه منه، وأما هو فهو يعجز عن أن يملك لنفسه شيئاً من ذلك، فضلاً عن أن يملكه لغيره، ومن كان لا ينفع، ولا يضرّ، فكيف تتّخذونه إلهاً وتعبدونه، وأي سبب يقتضي ذلك؟... (والله هو السميع العليم) أي كيف تعبدون ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، والحال أن الله هو السميع العليم، ومن كان كذلك فهو القادر على الضرّ والنفع لاحاطته بكلّ مسموع ومعلوم، ومن جملة ذلك مضاركم ومنافعكم)(٢).

فهذه الآيات تبيّن للمشركين أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله غير مستحقّة للعبادة، لأن الذي يستحقّ العبادة هو من بيده الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والضرّ، والنفع، وهو الله سبحانه وتعالى وحده.

كما أنّ توحيد الألوهية متضمّن لتوحيد الأسماء والصفات الذي سيأتي ذكره، لأن من أخلص العبادة لله وحده، يعتقد أنّ الله واحد في أسمائه وصفاته، مع عدم المثيل والنظير والشبيه له في ذلك، وإلا فلا معنى لعبادته بدون ذلك.

وبهذا يتبيّن أن أنواع التوحيد الثلاثة مرتبطة ومتلازمة، يكمل بعضها بعضاً، ولا ينفع أحدها بدون الآخرين.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٦.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٦٥.

فكما لا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية[١]. فكذلك لا يصحّ توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية.

يقول شارح الطحاوية: (إنّ التوحيد المطلوب (الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب) هو توحيد الألوهية الذي يتضمّن توحيد الربوبية)[٢].

وكذلك لا يكمل توحيد الربوبية والألوهية بدون توحيد الأسماء والصفات، لأنّ من وحّد الله في ربوبيته وألوهيته، ولكن سمّى غيره باسمه، أو ألحد في أسمائه، أو جحد صفة من صفاته، أو أثبت لغيره مثل صفته لم ينفعه توحيده في الربوبية والألوهية، فلا يكمل لأحد توحيده حتّى يجمع بين أنواع التوحيد الثلاثة.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله في معرض كلامه عن أنواع التوحيد:

(... وهي متلازمة، كلّ نوع منها لا ينفكّ عن الآخر، فمن أتى بنوع منها، ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنّه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب)[٣].

المبحث الثاني

عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية وبيانه أنّه أساس الإسلام

وقد اعتنى الشوكاني رحمه الله بهذا النوع من التوحيد عناية بالغة، وأولاه اهتماماً كبيراً، ويكفي ما يدلّ على اهتمامه وعنايته به أنّه ألّف عدّة

---

(١) راجع تعريف توحيد الربوبية صفحة ٩٦ ـ ٩٨.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي ٨١.
(٣) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٩٣.

رسائل[1]. يبيّن فيها معنى هذا التوحيد، وما يناقضه من الشركيّات، أسبابها وفتنها، وخاصّة شركيّات القبوريّين، ويبدي ويعيد في ذلك بعبارات متنوّعة، وأساليب مختلفة، وأنّه ما مرّ بآية من الآيات التي تتحدّث عن التوحيد، أو دلائله، أو ما يناقضه من الشرك، إلاّ وهو يبيّن معناها بياناً تفصيليّاً، ويوضّح مقصودها توضيحاً شافياً. وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ، أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ﴾[2]. (أمرهم الله سبحانه بعبادته بعد أن بيّن لهم أنه الحقيق بها دون غيره، لبديع صنعه، وعظيم اقتداره، فكيف يعبدون الجمادات التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضرّ)؟[3].

وقال في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوْكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً، هَلْ يَسْتَوُوْنَ﴾[4]: (أي هل يستوى العبيد، والأحرار، والموصوفون بتلك الصفات، مع كون كلا الفريقين مخلوقين لله سبحانه من جملة البشر، ومن المعلوم أنّهم لا يستوون عندهم، فكيف يجعلون لله شركاء لا يملكون لهم ضرّاً ولا نفعاً، ويجعلونهم مستحقّين للعبادة مع الله سبحانه؟ وحاصل المعنى: أنّه لا يستوي الربّ الخالق الرازق والجمادات من الأصنام التي

---

(١) أهّمها: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، وشرح الصدور في تحريم رفع القبور، كلتاهما مطبوعة ضمن الرسائل السلفية، وهناك رسالة ما زالت مخطوطة وهي تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ، وهي الرسالة الأولى ضمن: العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير (في التوحيد وفاتحة الكتاب) وهو أيضاً مخطوط.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٢٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٥.

تعبدونها، وهي لا تبصر، ولا تسمع، ولا تضرّ، ولا تنفع)[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ﴾[2]: (أي ما يصدق ويقرّ أكثر الناس بالله من كونه الخالق، الرازق، المحيي، المميت (إلاّ وهم مشركون) بالله يعبدون معه غيره، كما كانت تفعله الجاهلية، فإنّهم مقرّون بالله سبحانه، وبأنّه الخالق لهم. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ﴾[3] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ﴾[4] لكنّهم كانوا يثبتون له شركاء، فيعبدونهم ليقرّبوهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[5] ومثل هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله المعتقدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه، كما يفعله كثير من عبّاد القبور، ولا ينافي هذا ما قيل من أنّ الآية نزلت في قوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدلّ عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم)[6].

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلٰهِ النَّاسِ﴾[7]: (بيّن سبحانه أنّ ربوبيّته وملكه قد انضمّ إليهما المعبودية المؤسّسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرّف الكلّي بالايجاد والاعدام... فبيّن سبحانه أنّه إله، لأنّ اسم الإله خاصّ به، لا يشاركه فيه أحد[8]، وأيضاً بدأ باسم الربّ، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه، من

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٨١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٢٥، وسورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٦) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٥٩.

(٧) سورة الناس، الآية: ١ ــ ٣.

(٨) والصحيح أن اسم «الله» هو الذي خصّ به سبحانه لا يشاركه فيه أحد، أما «الإله» فقد يطلق على غيره كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ﴾ (سورة المؤمنون، =

أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنّه عبد مملوك، فذكر أنّه ملك الناس، ثمّ لمّا علم أنّ العبادة لازمة له واجبة عليه، وأنّه عبد مخلوق، وأنّ خالقه إله معبود، بيّن سبحانه أنّه إله الناس﴾[1].

ولا شكّ أنّ هذا النوع من التوحيد جدير بالعناية والاهتمام، بل هو أهمّ الأمور التي يجب العناية والاهتمام بها، ولهذا أشار الشوكاني رحمه الله في مواضع متعدّدة من مؤلّفاته إلى أنّه حقيقة دين الإسلام وأساسه لما يلي:

(أ) أنّه الغاية العظمى والمقصد الأساسي الـذي من أجله خلق الله الخلق، وأوجدهم في هذه الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾[2].

قال الشوكاني: (عبادة الله: إثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه)[3] (ومعنى العبادة في اللغة: الذلّ والخضوع والانقياد، وكلّ مخلوق من الإنس والجنّ خاضع لقضاء الله متذلّل لمشيئته، منقاد لما قدره عليه، خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، ووجه تقديم الجنّ على الإنس ههنا تقدّم وجودهم)[4].

= الآية: ١١٧) وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٤٣) وقوله حكاية عن قوم موسى: ﴿قَالُوا يَا مُوْسَى اجْعَلَ لَنَا إلهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٣٨) ولفظ «الإله» مأخوذ من التألّه وهو التعبّد، ومعناه: المعبود المطاع سواء كان بحقّ أو غير حقّ، ولكن بهذا اللفظ غلب على المعبود بحقّ وهو الله سبحانه وتعالى. قال الشوكاني: (والله علم لـذات واجب الوجـود، لم يطلق على غيره، وأصله إلَه، حذفت الهمزة، وعوضت عنها أداة التعريف فلزمت، وكان قبل الحذف من أسماء الأجناس، يقع على كـلّ معبود بحقّ أو بـاطل، ثمّ غلب على المعبود الحقّ كالنجم والصعق، فهو قبل الحـذف من الأعلام الغـالبة، وبعـده من الأعلام المختصّة (فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٨).

(١) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٥٢٢.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٠٧.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٩٢.

وقد بيّن الله سبحانه في هذه الآية أنّ الحكمة التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الجنّ والإنس هي عبادته سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

ومعنى الآية كما قال ابن كثير رحمه الله: (إنّما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم.. أي أنّه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدّ العذاب، وأخبر أنّه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم)[1].

(ب) أنّه الغاية العظمى والمقصد الأساسي الذي من أجله أرسلت الرسل وبه أنزلت الكتب يقول الشوكاني رحمه الله (... ولم يبعث الله رسله، ولا أنزل عليهم كتبه إلا لاخلاص توحيده وإفراده بالعبادة، واستدلّ بآيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[2]، ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوْا إِلاَّ اللَّهَ﴾[3]، ﴿أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاتَّقُوْهُ﴾[4]، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُوْنِ﴾[5]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[6]، ﴿إِنَّنِيْ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِيْ﴾[7]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٨) دار المعرفة.

(٢) وردت هذه الآية في عدّة مواضع في القرآن كما يلي: في قصّة نوح عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف، الآية: ٥٩، وفي سورة المؤمنون، الآية: ٢٣، وفي قصّة هود عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف، الآية: ٦٥، وسورة هود، الآية: ٥٠ وفي قصّة صالح عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف، الآية: ٧٣، وسورة هود، الآية: ٦١، وفي قصّة شعيب عليه السلام مع قومه: في سورة الأعراف، الآية: ٨٥، وسورة هود، الآية: ٨٤.

(٣) سورة هود، الآية: ٢.

(٤) سورة نوح، الآية: ٣.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

(٦) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٧) سورة طه، الآية: ١٤.

كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾[١]، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِيْ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوْا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْن. وَأَنِ اعْبُدُوْنِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيْم﴾[٢].

وقد حكاه الله في سورة الأعراف عن نوح، وهود، وصالح، أن كلّ واحد قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰه غَيْرُهُ﴾[٣].

وبالجملة: فرسل الله صلوات الله عليهم، وكذلك جميع كتبه المنزلة متفقة على هذه الدعوة، وقد تكفل القرآن الكريم بحكاية جميع ذلك لمن تتبعه)[٤].

ويقول رحمه الله أيضاً في هذا الصدد: (اعلم أنّ الله لم يبعث رسله ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنّه الخالق لهم، والرازق لهم، ونحو ذلك، فإنّ هذا يقرّبه كلّ مشرك قبل بعثة الرسل).

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلَنَّ اللَّهُ﴾[٥]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ﴾[٦]، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ، فَسَيَقُوْلُوْنَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُوْنَ﴾[٧]

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يٰس، الآية: ٦٠، ٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٩، ٦٥، ٧٣.
(٤) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ٣، ٤ مخطوط تحت رقم (٩٢٥) ميكروفيلم، الجامعة الإسلامية.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٧) سورة يونس، الآية: ٣١.

... ولهذا تجد كلّ ما ورد في الكتاب العزيز في شأن خالق الخلق ونحوه في مخاطبة الكفار معنوناً باستفهام التقرير.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾(٩).

﴿أَفِيْ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(١).

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢).

﴿فَأَرُوْنِيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ﴾(٣)، بل بعث الله رسله، وأنزل كتبه لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة.

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١).

﴿قَالُوْا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(٢)(٣).

(ج) إنّه معنى شهادة «أن لا إله إلا الله».

ومعنى هذه الشهادة باتفاق السلف الصالح، أنّه لا معبود بحقّ إلا الله. (لا إله) نافية لجميع ما يعبد من دون الله، فلا يستحقّ أن يعبد غيره، (إلا الله) مثبتة العبادة لله، فهو الإله المستحقّ للعبادة(٤).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١١.

(٥) وردت هذه الآية عدّة مواضع حكاية عن الرسل عليهم السلام كما سبق احصاؤها قبل قليل (ص ٢٨٠).

(٦) وردت هذه الآية حكاية عن قومهم في سورة الأعراف، الآية: ٧٠.

(٧) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٠، ٣١ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٨) معارج القبول: حافظ بن أحمد حكمي ٢ / ٤١٦ تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، وانظر أيضاً تطهير الاعتقاد: الصنعاني ١٢٩، ١٣٢ ضمن عقيدة الفرقة الناجية، والدين الخالص: محمد صدّيق حسن خان ١ / ٥٩ دار التراث، والصواعق المرسلة الشهابية: سليمان بن سحمان النجدي الحنبلي ٣١٩ تحقيق: عبد السلام بن برجس، دار العاصمة، الرياض.

وقد فسّرها الشوكاني رحمه الله بمثل هذا المعنى في مواضع متعدّدة، وبيّن أنّه هو المراد بهذه الكلمة.

فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]: (أي لا معبود بحقّ إلا هو)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[3] قال: (أي هو المستحقّ للعبودية)[4]، وقال أيضاً عند شرحه لقوله ﷺ في دعاء استفتاحه: (لا إله إلا أنت)[5] أي ليس لنا معبود نتذلّل له، ونتضرّع إليه، في غفران ذنوبنا إلا أنت)[6].

أقول: وهذا هو التفسير الصحيح لمعنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لأنّ الإله هو المألوه، والمعبود، والمطاع، ولا معبود بحقّ إلا الله سبحانه وتعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن معنى الإله: (والإله هو المألوه، أي المستحقّ لأن يؤلّه، أي يعبد، ولا يستحقّ أن يؤلّه ويعبد إلاّ الله وحده، وكلّ معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل، وفِعَال بمعنى مفعول مثل لفظ الرِّكَاب، والحمال، بمعنى المركوب والمحمول)[7]، (فالإله هو الذي يؤلّه فيعبد، محبّة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراماً)[8].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣١٢.
(٥) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٥ برقم ٧٧١).
(٦) نيل الأوطار: الشوكاني ٣/ ٢٨.
(٧) مجموع فتاوى لابن تيمية ١٣/ ٢٠٢ وانظر أيضاً ١/ ٧٦، ١٣٦.
(٨) المصدر السابق ١/ ٢٢.

وبهذا يتبيّن لنا خطأ المتكلّمين ومن سلك على نهجهم الذين يفسّرون الإله بأنّه الخالق، والقادر على الاختراع، أو ما شابه ذلك، من معاني الربوبيّة، فجعلوا الألوهيّة بمعنى الربوبيّة.

ولا شكّ أنّ هذا التفسير خاطىء مخالف للغة العربيّة التي نزل بها القرآن الكريم، ويؤدي إلى إغفال حقيقة التوحيد الذي من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ومن أجله خلقت الخلائق، من الدنيا والآخرة، والجنّة والنار، ألا وهو توحيد العبادة الذي ضلّ فيه كثير من الناس، خصوصاً في هذا العصر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر أن معنى الإله هو المألوه المعبود الذي يستحقّ العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فيقول:

(فإذا فسّر المفسّر الإلّه بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أنّ هذا أخصّ وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلّمة الصفاتيّة، وهو الذي ينقله عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله رسله، فإن مشركي العرب كانوا مقرّين بأنّ الله وحده خالق كلّ شيء، وكانوا مع هذا مشركين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[1] قال طائفة من السلف: (تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره)[2].

وعلى هذا فإنّ حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل هو توحيد العبادة، وإخلاصها لله تعالى، وقطع علائق الشرك به كائنة ما كانت[3]. وهذا هو

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ابن تيمية ١/ ١٧٤.
(٣) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٠، ٣١ ورسالة تتعلق=

المعنى المقصود من كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

أما شرط هذه الكلمة بعد النطق بها فهو فهم معناها، والعمل بمقتضاها، كما قرّر ذلك الشوكاني وغيره من علماء السلف[1]. لأن من تكلم بها، وفعل أفعالاً تخالف مقتضاها، كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الأموات، فلا ريب أنّه قد تبيّن من حالهم خلاف ما حكته ألسنتهم من اقرارهم بالتوحيد[2].

وعلى هذا فقد نزّل الشوكاني هؤلاء المعتقدين في الأموات منزلة المشركين، إذ قال: (هؤلاء إنّما قالوها بألسنتهم، وخالفوها بأفعالهم، فإن من استغاث بالأموات، أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، أو عظّمهم، أو نذر عليهم بجزء من ماله، أو نحر لهم، فقد نزّلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال، فهو لم يعتقد معنى: لا إله إلا الله: ولا عمل بها، بل خالفها اعتقاداً وعملاً، فهو في قوله: «لا إله إلا الله». كاذب على نفسه، فإنه قد جعل إلٰهاً غير الله يعتقد أنّه يضرّ وينفع، فعبده بدعائه عند الشدائد، والاستغاثة به عند الحاجة، وبخضوعه له، وتعظيمه إياه، ونحره له النحائر، وقرّب إليه نفائس الأموال، وليس مجرد قوله لا إله إلا الله من دون عمل بمعناها مثبتاً للإسلام، فإنّه لو قالها أحد من أهل الجاهليّة، وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك إسلاماً)[3].

وقال في حديث: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قالها (لا إله

= بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ١١ (مخطوط).

(١) ذكر بعض العلماء شروطاً عديدة لقبول هذه الكلمة، انظر: معارج القبول: حافظ بن أحمد حكمي ٢ / ٤١٨ ــ ٤٢٧ تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، والجامع الفريد ٣٥٠ الرسالة الخامسة ضمن: خمس رسائل: للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

(٢) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٤٢ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٣) المصدر السابق ٤٠.

إلا الله) خالصاً من قلبه)[1]: (فيه دليل على أن قائل هذه الكلمة (لا إله إلا الله) هو أسعد الناس بالشفاعة النبويّة، لكن مقيّد بأن يقول ذلك خالصاً، لا إذا قالها من دون خلوص)[2].

(د) ذكر الشوكاني أن من أعظم مقاصد القرآن الكريم إخلاص التوحيد لله وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت، وإن هذا هو الأمر الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل فيه كتبه، ومن شكّ في هذا فعليه بالتفكّر في القرآن الكريم، فإنّه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده، فإن عجز عن ذلك فلينظر في سورة من سوره.

ثمّ ذكر رحمه الله ثلاثين موضعاً في فاتحة الكتاب من معاني هذا التوحيد، مبيّناً في كلّ موضع ما يستفاد منه من إخلاص توحيد الله عزّ وجلّ[3].

وسأذكر هنا خمسة ممّا ذكره:

قال: (انظُرْ فاتحة الكتاب التي تكرّر في كلّ صلاة مرّات، من كلّ فرد من الأفراد، ويفتتح بها التالي لكتاب الله، والمتعلم له، فإنّ فيها الارشاد إلى إخلاص التوحيد في مواضع، فمن ذلك:

١ ـ (بسم الله الرحمن الرحيم)[4] فإنّ علماء المعاني والبيان ذكروا أنّه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (الفتح ١/ ٢٣٣ برقم ٩٩) وأخرجه أيضاً برقم (٦٥٧٠) وأحمد في مسنده ٥/ ٣٧٣.

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٩٠.

(٣) انظر: رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ١١ ـ ١٥ (مخطوط) وأيضاً: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٧٩ ـ ٨١.

(٤) جعل الشوكاني البسملة آية من الفاتحة، وهو قول أكثر العلماء المتقدّمين والمتأخرين. منهم ابن عبّاس، وابن عمر، وابن الزبير، وعطاء، وطاووس، ومكحول، وإليه ذهب ابن مبارك، وطائفة، ووافق عليه الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد، وجماعة أهل مكّة، وأهل الكوفة، وأكثر أهل العراق، وخالفهم مالك،=

يقدّر المتعلّق متأخراً، ليفيد اختصاص البداية باسمه تعالى، لا باسم غيره، وفي هذا ما لا يخفى من إخلاص التوحيد.

٢ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ فإن التعريف يفيد أن الحمد مقصور على الله، واللام في (الله) تفيد اختصاص الحمد به، ومقتضى هذا أنه لا حمد لغيره أصلاً، وما وقع منه لغيره، فهو في حكم العدم، وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم، فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من إخلاص التوحيد ما ليس عليه مزيد.

٣ ـ ومن ذلك قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾ أو ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾ على القرأتين السبعيتين، فإن كونه المالك ليوم الدين يفيد أنّه لا ملك لغيره، فلا ينفذ إلا تصرفه، لا تصرف أحد من خلقه، من غير فرق بين نبي مرسل وملك مقرّب وعبد صالح. وهذا معنى كونه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾ فإنه يفيد أن الأمر أمره، والحكم حكمه، ليس لغيره معه أمر ولا حكم، كما أنّه ليس لغير ملوك الأرض معهم أمر ولا حكم، ولله المثل الأعلى.

٤ ـ ومن ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن تقديم الضمير قد صرّح أئمة المعاني والبيان، وأئمّة التفسير، أنه يفيد الاختصاص، فالعبادة لله سبحانه، ولا يشاركه فيها غيره، ولا يستحقها، وقد عرفت أن

= وطائفة من الحنفيّة، وقالوا: انّها ليست من القرآن، إلا في سورة النمل (يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحْمٰنِ الرَحِيْمِ﴾ (سورة النمل، الآية: ٣٠) (انظر أحكام البسملة: الفخر الرازي ٢٠، ٢١ تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبه الساعي، ونصب الراية: الزيلعي ١/ ٣٢٧ ط ٢/ ١٣٩٣ هـ المكتب الإسلامي، وتفسير ابن كثير ١/ ١٧ وفتح القدير: الشوكاني ١/ ١٧).

الاستغاثة، والدعاء، والتعظيم، والذبح، والتقرّب، من أنواع العبادة.

٥ ـ ومن ذلك قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن تقديم الضمير ههنا يفيد الاختصاص كما تقدم، وهو يقتضي أنّه لا يشاركه غيره في الاستعانة في الأمور التي لا يقدر عليها غيره.

قال رحمه الله: (فهذه خمسة مواضع في فاتحة الكتاب، يفيد كلّ منها إخلاص التوحيد، مع أن فاتحة الكتاب ليست إلا سبع آيات، فما ظنّك بما في سائر الكتاب العزيز).

المبحث الثالث

العبادة وذكر جملة من أنواعها

معنى العبادة:

قال الشوكاني في معنى العبادة: (ومعنى العبادة في اللغة: الذل والخضوع والانقياد، وكلّ مخلوق من الإنس والجن خاضع لقضاء الله، متذلّل لمشيئته، منقاد لما قدّر عليه)[(١)].

وقال في معناها الاصطلاحي: (والعبادة: أقصى غايات الخضوع والتذلّل) وحكى عن ابن كثير قال: (وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف)[(٢)].

وقال (أي الشوكاني) في موضع آخر: (وعبادة الله: اثبات توحيده، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه)[(٣)].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٩٢.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٢ وانظر: تفسير ابن كثير ١/ ٢٧.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٠٧.

قلت: وهذا تعريف مختصر جيّد، شامل لجميع ما شرعه الله لعباده من الأمور الاعتقاديّة، والعمليّة.

وعلى هذا المعنى فسّر الشوكاني قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[1] راوياً عن ابن عبّاس قال: (أي إيّاك نوحّد ونخاف يا ربّنا لا غيرك)[2].

وقد تنوّعت عبارات السلف في تعريف العبادة، ولكنّ أشمل تعريف لها هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: (العبادة: اسم جامع لما يحبّه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والاحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله)[3].

ويفهم من تعريف الشوكاني السابق، وتعريف شيخ الإسلام الجامع لمعناها أن جميع الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة التي يحبّها الله سبحانه وتعالى ويرضاها داخلة في مسمّى العبادة، وفي هذا ردّ على الفهم القاصر الذي يتصوّره كثير من الناس، أن العبادة محصورة في أركان الإسلام الخمسة، مما جعلهم يذكرون الله تعالى ويعرفونه في الصلوات الخمس، وبقيّة أركان الإسلام، وينسونه فيما عدا ذلك، من شؤون حياتهم العامة،

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٣.

(٣) العبودية: ابن تيمية ٣٨ ط ٥/ ١٣٩٩ هـ المكتب الإسلامي.

الأمر الذي جعلهم يصرفون كثيراً من أنواع العبادة لغيره، ويتهاونون بـأمره ونهيه.

من شروط العبادة:

ولا تقبل العبادة إلا بشرطين أساسيّين مجتمعين، إذا فقد شرط منهما فإن العبادة تكون مردودة على عاملها، وهذان الشرطان هما: الإخلاص في النيّة، والمتابعة.

أولاً: الإخلاص في النيّة. وهو أن تكون العبادة خالصة لوجه الله، فلا يشرك مع الله أحداً في العبادة (ولا يتم إلا بأن يكون الدعاء كلّه لله، والنداء، والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشرّ له ومنه، لا لغيره، ولا من غيره)[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إلَّا لِيَعْبُدُوْا اللَّه مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاء﴾[2].
وقال سبحانه: ﴿فَاعْبِدِ اللَّهِ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْن﴾[3].

قال الشوكاني رحمه الله: (والإخلاص: أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه، والدين: العبادة، والطاعة، ورأسها توحيد الله، وأنه لا شريك له. وفي الآية (المذكورة) دليل على وجوب النية وإخلاصها عن الشوائب، لأن الإخلاص من الأمور القلبيّة التي لا تكون إلا بأعمال القلب)[4].

وقال في موضع آخر مبيّناً أهمية هذا الشرط في الأعمال: (فاعلم أن عمدة الأعمال التي تترتب عليها صحّتها أو فسادها هي النية والاخلاص، ولا شكّ أنّهما من الأمور الباطنة، فمن لم تكن نيته صحيحة لم يصحّ عمله الذي عمل به، ولا أجره المترتب عليه، ومن لم يخلص عمله لله سبحانه فهو مردود

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٢.
(٢) سورة البيّنة، الآية: ٥.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٤٨.

عليه، مضروب به في وجهه، وذلك كالعامل الذي يشوب نيته بالرياء، قال الله عزّ وجلّ: ﴿واعْبُدُوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّين﴾[1].

ثم أورد رحمه الله عدّة أحاديث في الموضوع، منها:

حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوّجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[3].

ومنها حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العبد إلا ما كان له خالصاً، وابتغى به وجهه[4][5].

---

(١) لعله يريد بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة، الآية: ٥) لأنه لا يوجد في القرآن آية بذلك الصدر الذي أورده.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواضع، انظر: كتاب بدء الوحي، باب كيف بدأ الوحي (الفتح ١/ ١٥ برقم ١، وهنا يذكر مواضع وروده)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (٣/ ١٥١٥ برقم ١٩٠٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم وخذله (٤/ ١٩٨٧ برقم ٢٥٦٤) وابن ماجة في كتاب الزهد، باب القناعة (٢/ ١٣٨٨ برقم ٤١٤٣) وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٥، ٥٣٩).

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٢٥ برقم ٣١٤٠) قال الشوكاني: إسناده جيد (قطر الولي ٤٥٧)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨١ برقم ٥٢): وإسناده حسن، كما قال الحافظ العراقي في تخريج الأحياء (٤/ ٣٢٨) والأحاديث بمعناه كثيرة تجدها في أول كتاب «الترغيب» للحافظ المنذري.

(٥) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٥٦، ٤٥٧.

وقد جعل الشوكاني رحمه الله هذا الشرط من أول واجبات طالب العلم باعتبار أن طلب العلم نوع من أنواع العبادة، بل أفضلها وأشرفها، إذ قال: (... فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة، فقد أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط(*)، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة، وأجلّها، وأعلاها، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إلَّا لِيَعْبُدُوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ﴾[1] فقيّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها، وصحّ عن رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات»[2].

فكل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات، إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طوية، لا اعتداد بها، ولا التفات إليها، بل هي إن لم تكن معصية، فأقلّ الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التي هي بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء[3].

ثانياً: المتابعة: وهي أن تكون العبادة موافقة لسنة رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْم، قُلْ أَطِيْعُوْا اللَّهَ وَالرَّسُوْلَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِيْنَ﴾[5].

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[6].

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.
(٢) تقدم تخريجه قبل قليل (ص ٢١٣).
(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ٢٨، ٢٩، ٣٠.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣١، ٣٢.
(٦) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (الفتح ٥/ ٣٥٥ برقم ٢٦٩٧) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (٣/ ١٣٤٣ برقم ١٧١٨).

وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[1].

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله هذا الشرط في مواضع مختلفة من كتبه، بل إنّه حمل حملاً شديداً على التاركين لكتاب الله وسنة رسوله من المقلّدين المتعصّبين للمذاهب الفقهية على التفصيل الذي ذكرته في باب التمهيد.

وممّا ذكره رحمه الله في لزوم الاتّباع وذمّ الرأي والابتداع قوله في اتّباع السنّة:

(ومن جملة ما أجمله الكتاب العزيز قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾[2]، فأمر في هذه الآية باتّباع ما سنّه رسول الله ﷺ، فكلّ حكم سنّه الرسول لأمّته قد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ﴾[3] وبقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْ رَسُوْلِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4])[5].

وقال في ذمّ الرأي والهوى ولزوم الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله في مسائل الدين:

(والحاصل أن كلّ ما لم يأت به الكتاب والسنة فهو من هوى النفس

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٩ هامش رقم ٦).

(*) كلام الشوكاني هنا فيه نظر لأن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين حسنى الدنيا وحسنى الآخرة فلا شيء عليه في ذلك، لأن الله يقول: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (سورة الطلاق، الآية: ٢، ٣) وهذا ترغيب في التقوى بأمر دنيوي، فلو تعلم العلم بحيث لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من أغراض الدنيا فهذا الذي ليس له من خلاق، أما إذا أراد به الدنيا والآخرة، والدنيا مضبوطة بضوابط شرعية فلا مانع من ذلك.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١١٤.

كما قال الله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيْبُوْا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُوْنَ أَهْوَاءَهُمْ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَـوَاهُ، بِغَيْرِ هُـدىً مِنَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِيْ الْقَـوْمَ الظَّالِمِيْن﴾(٥).

فقسّم سبحانه الأمر إلى قسمين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله وللرسول باتّباع الكتاب والسنة، أو اتّباع الهوى، فكل ما لم يكن في الكتاب والسنة فهو من الهوى. واستدل رحمه الله على ذلك بالآيات والأحاديث، وقال: (وقد ثبت عن أكابر الصحابة، الخلفاء الأربعة وغيرهم، ذمّ الرأي ومقت العامل به، وأنه ليس من الدين في شيء والرأي إذا كان في معارضة أدلّة الكتاب والسنة، أو كان بالخرص والظنّ، مع التقصير عن معرفة النصوص، أو كان متضمّناً تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته، وكان مما أحدثت به البدع، وغيّرت به السنن، فلا خلاف بين المسلمين في أنه باطل، وأنه ليس من الدين في شيء)(١).

وقد تحدث الشوكاني عن هذا الموضوع بإسهاب في كتابه: القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد(٢). وأيضاً: أدب الطلب ومنتهى الأرب.. ومن أحسن ما قال في صدد نقده على المتصوفة:

(والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى، وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها، والنصب، وإيقاعها على أبلغ الوجوه، بل إنما تكون

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٢) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٣١٧ ــ ٣٢٠.
(٣) انظر مثلاً كلامه في وجوب المتابعة، وذم الرأي في صفحة ٧٤ ــ ٨٧ تحقيق/ محمد عثمان الخشت.

طاعات خالصة محضة مباركة نافعة، بموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية)[1].

هذه هي الشروط التي قرّرها الشوكاني وغيره من العلماء لقبول العمل، وهي شروط استنبطوها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذان الشرطان هما حقيقة الشهادتين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

والتخلف عن هذين الشرطين ينتج عنه، إما الشرك بالله عزّ وجلّ، وإما الابتداع في دينه، والتقرب إليه بما لم يشرعه، وفي هذا تنقيص للدين، ولمن جاء به وهو رسول الله ﷺ.

وسيأتي الكلام عن الشرك والبدع مفصّلاً في الفصل القادم إن شاء الله.

ذكر جملة من أنواع العبادة:

أنواع العبادة كثيرة جداً، وكما قال الشوكاني: (إنه يصعب حصرها وتتعسر الاحاطة بها)[2] ولهذا سأقتصر على ذكر جملة من أنواع العبادة، وكلام الشوكاني عليها، وسأبدأ بذكر الدعاء، لأنه هو العبادة[3]. كما قال ذلك رسول الله ﷺ.

(أ) من أنواع العبادة الدعاء:

يقول الشوكاني رحمه الله: (فاعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ٢١٩.

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٥٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٧١، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦١ برقم ١٤٧٩)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة (٥/ ١٩٤ برقم ٢٩٦٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح وأخرجه أيضاً برقم (٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٢/ ١٢٥٨ برقم ٣٨٢٨) والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

المطلوبة من العباد، ولو لم يكن في الكتاب العزيز إلا مجرد طلبه منهم لكان ذلك مفيداً للمطلوب، أعني كونه من العبادة.

واستدل رحمه الله بكثير من الآيات القرآنية، منها:

قوله تعالى: ﴿أُدْعُوْا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ، وَلَا تُفْسِدُوْا فِيْ الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وَادْعُوْهُ خَوْفاً وَطَمَعاً، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيْبٌ مِنَ الْمُحْسِنِيْنَ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوْا اللَّهَ أَوِ ادْعُوْا الرَّحْمَنَ، أَيّاً مَّا تَدْعُوْا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[2]

وقال سبحانه: ﴿أُدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

قال: (فهذه الآيات البيّنات دلّت على أن الدعاء مطلوب لله عزّ وجلّ من عباده وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوْا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[4].

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ لَا يَسْتَجِيْبُوْنَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[5]... فكيف إذا صرّح القرآن الكريم بأن الدعاء عبادة تصريحاً لا يبقى عنده ريب لمرتاب. قال الله تعالى: ﴿أُدْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ، إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ﴾ الآية[6] فقد طلب الله سبحانه من عباده في هذه الآية أن يدعوه، وجعل جزاء الدعاء له منهم الاجابة منه، فقال: أستجب لكم.. ثم توعّدهم على الاستكبار عن هذه العبادة، أعني الدعاء تفسيراً له، وإيضاحاً

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٥، ٥٦.
(٢) سورة الاسراء، الآية: ١١٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٨.
(٥) سورة الرعد، الآية: ١٤.
(٦) سورة غافر، الآية: ٦٠.

لمعناه، وبياناً لعباده، بأن هذا الأمر الذي طلبه منهم، وأرشدهم إليه هو نوع من عبادته التي خص بها نفسه، وخلق لها عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾[1][2].

وقد جاءت السنة المطهرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من العبادة، بل هو أعلاها وأعظمها، وهو قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[3].

يقول الشوكاني في صدد استدلاله بهذا الحديث: (هذه الصيغة المقتضية للحصر، من جهة تعريف المسند إليه[4]، ومن جهة تعريف المسند[5]، ومن جهة ضمير الفعل[6]، تقتضي أن الدعاء هو أعلى أنواع العبادة، وأرفعها، وأشرفها، وإلى هذا أشار بقوله ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[7]. والآية الكريمة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوْنِيْ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية[8] قد دلّت على أن الدعاء من العبادة، فإنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عَنْ عِبَادَتِيْ﴾.

فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار، ولا

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٢) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ١، ٢ (مخطوط).
(٣) تقدم تخريجه قبل قليل (ص ٢١٧).
(٤) يعني قوله: الدعاء.
(٥) يعني قوله: العبادة.
(٦) يعني قوله: هو.
(٧) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٢٥ برقم ٣٣٧١) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة، قال الألباني: إسناده ضعيف فيه ابن لهيعة، وهو سيء الحفظ، والصحيح في لفظ الحديث هو: الدعاء هو العبادة. (انظر: مشكاة المصابيح: تحقيق الألباني (٢/ ٦٩٣ برقم ٢٣٣١) وأيضاً: أحكام الجنائز وبدعها للألباني (١٩٤، ١٩٥) المكتب الإسلامي.
(٨) سورة غافر، الآية: ٦٠.

أقبح من هذا الاستكبار، وكيف يستكبر العبد عن دعاء من هو خالق لـه، ورازقه، وموجده من العدم، وخالق العدم كله، ورازقه، ومحييه، ومميته، ومثيبه، ومعاقبه، فلا شكّ أن الاستكبار طرف من الجنون، وشعبة من كفران النعم)(١).

(فأقلّ ما يفيد الحديث أن الدعاء عبادة كاملة مؤكدة، فمن دعا غير الله عزّ وجلّ، وطالب منه أمراً من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه فقد عبد غير الله، ولم يبعث الله رسله، ولا أنزل عليهم كتبه إلا لإخلاص توحيده وإفراده بالعبادة)(٢).

(ب) المحبة:

ومن أنواع العبادة المحبّة، وقد دلّت الأدلّة الكثيرة من الكتاب والسنّة على وجوب محبّة الله عزّ وجلّ وتقديم محبّته على سائر المحابّ.

يقول الشوكاني رحمه الله: (اعلم أنّ محبّة الله عزّ وجلّ هي من أعظم الفرائض المفترضة على العباد، كما يدلّ على ذلك آيات الكتاب المبين، وأحاديث سيد المرسلين، وإجماع المسلمين أجمعين، فمن ذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(٣). وقد علم أنّ اتّبـاع رسول الله ﷺ فـرض واجب لا خلاف فيـه، فكانت هـذه المحبّة لله سبحانه دخل في الفريضة، لتعليق الاتباع بها، وجعله متسبّباً عنها، مع ما في ذلك من التهييج للعبـاد على الاتباع بما هو مطلوب لكلّ فرد من أفرادهم، ومقصد من مقاصدهم، عامّتهم وخاصّتهم، فإنّ دخول العبد في زمرة المحبّين لله عزّ وجلّ هو الذي يتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق إليه المتسابقون، فإذا

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٢٥، وانظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد له ٣٨، ورسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ له ٢، ٣ (مخطوط).
(٢) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ٣، ٤ (مخطوط).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

سمع السامع أنّ هذا الاتباع لرسول الله ﷺ هو مهيع[1] من يحبّ الله، وعمل من يتصف بذلك سعى إليه، وبادر به، وتابع في تحصيله بكلّ ممكن.

والحاصل أنّ في هذا النظم القرآني دلالة بيّنة على أنّ اتباع رسول الله ﷺ متسبّب عن محبّة العبد لله، وفرع من فروعها، وأنّه سبب لمحبّة الله عزّ وجلّ للعبد، ومن أحبّ الله وأحبّه الله فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل إلى المقصد الأسنى الذي هو أعلى مطالب الطالبين، ونهاية رغبات الراغبين، وكلّ العبادات والأعمال الصالحات إنّما هي للتوصّل بها إلى هذه المحبّة التي يكون بها حصول الفلاح والنجاح، والفوز بكلّ محبوب، والنجاة من كلّ مكروه)[2].

ومن الآيات القرآنية الدالة على وجوب تقديم محبّته سبحانه وتعالى على سائر المحابّ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[3].

فهذا الوعيد المذكور في آخر الآية بقوله: (فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره) مع قوله: (والله لا يهدي القوم الفاسقين) قد دلّ أبلغ دلالة على أنّ محبّة العبد لله عزّ وجلّ فرض من أعظم الفرائض الدينية، ولا سيما بعد ذكره لما هو غاية ما يحبّ في الدنيا من الأشخاص... ولهذا كان رسول الله ﷺ يستكثر من سؤال الله سبحانه حصول هذه المحبّة له، كما أخرجه أحمد

---

(١) المهيع جمع مهايع: الطريق البين الواسع، يقال: أرض هَيِّعة: واسعة مبسوطة، وطريق مَهْيَع: مفعل من التَهَيُّع وهو الانبساط. (انظر تهذيب اللغة للأزهري ٣/ ٢٤ مادة: هاع).

(٢) بحث في وجوب محبّة الله: الشوكاني، ضمن أمناء الشريعة ٨٧، ٨٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

والترمذي والحاكم وصحّحاه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وفيه: (أسألك حبّك، وحبّ من يحبّك، وحبّ عمل يقرّب إلى حبّك)(١).

والأحاديث التي أوردها الشوكاني في هذا الموضوع كثيرة(٢) منها:

حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: من كان اللّهُ ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، ومن أحبّ عبداً لا يحبّه إلاّ الله تعالى، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»(٣).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي، اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلاّ ظلّي»(٤)... والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً، ومن ذلك ما ورد في ذمّ حبّ الدنيا، ومدح حبّ الآخرة، وهي أحاديث كثيرة(٥).

وقال: ومن الأدلّة المرشدة إلى افتراض محبّة الله عزّ وجلّ ما ورد في الأحاديث الصحيحة في التحابّ في الله، فإنّ التحابّ في الله عزّ وجلّ هو من

---

(١) بحث في وجوب محبّة الله: الشوكاني، ضمن أمنـاء الشريعـة ٨٨، ٨٩ والحديث أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٤٣)، والترمذي في التفسير القرآن، بـاب: ومن سورة صٓ (٥/ ٣٤٤ برقم ٣٢٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: قطر الولي على حديث الولي ٤٦٤، وبحث في وجوب محبّة الله ٨٩ ــ ٩١ ضمن أمناء الشريعة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار (الفتح ١/ ٩١ بـرقم ٢١) وأخرجـه أيضاً بـرقم (١٦، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم في كتـاب الإيمان بـاب بيان خصـال من اتّصف بهنّ وجد حـلاوة الإيمان (١/ ٦٦ برقم ٤٣).

(٤) أخـرجـه مسلم في كتـاب البـر والصلة والآداب، بـاب في فضـل الحبّ في الله (٣/ ١٩٨٨ برقم ٢٥٦٦).

(٥) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٦٤.

محبّة الله سبحانه وتعالى، ومنها الحديث الصحيح: (إنّ المتحابّين في الله على منابر من نور يوم القيامة)[1].

والمحبّة لله حقيقة العبودية، وأصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاها، فبكمالها يكمل الإيمان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان، لأنّها تتمثّل في أداء جميع فرائض الله الظاهرة والباطنة، وترك المعاصي، والتقرّب إليه بالنوافل[2].

وقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربّه عزّ وجلّ: (. . . وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده الذي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. . الحديث)[3].

قال الشوكاني: (هم أولياء الله الذين تقرّبوا إليه بما يحبّ حتى أحبّهم، فلمّا دعوا أجيبوا، ولمّا أحبّوا أُحبّوا، ولمّا أخلصوا استخلصوا، صدقت منهم الضمائر، فصفت منهم السرائر، وصاروا صفوة الله في أرضه، ففاضت عليهم أنواره، وامتلأت قلوبهم من معارفه)[4].

الخوف والرجاء:

ومن أنواع العبادة الخوف، وهو أنواع: خوف تأله لله، وتعلّقه بالله من

---

(١) قال الهيثمي في مجموع الزوائد (١٠/ ٢٧٧): رواه الطبراني، ورجاله وثّقوا، ورواه أحمد في المسند (٥/ ٣٢٨) بلفظ: إنّ المتحابّين بجلال الله في ظل الله وظل عرشه. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٩٢ برقم ١٩٣٧).

(٢) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٢ وما بعدها، وأيضاً ٤٢٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع. (الفتح ١١/ ٣٤٨ برقم ٦٥٠٢).

(٤) انظر: قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (٤٨٢، ٤٨٣).

أعظم الواجبات، وهذا النوع هو المراد هنا في هذا الباب، وخوف تأله لغير الله، وهذا شرك أكبر وخوف طبيعي كالخوف من الأسد والحية والنار وغير ذلك وخوف وهمي، كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً، وهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء[1]. والخوف بالمعنى الأول عبادة لا يستحقّها إلاّ الله تبارك وتعالى، لأنه وحده القادر على جلب النفع للعبد ودفع الضر عنه، وقد تعبّد الله به جميع عباده من الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين وسائر عباده المؤمنين، كما ورد ذلك في القرآن الكريم.

قال تعالى في وصف الملائكة:

﴿يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾[2].

وقال في وصف الأنبياء الماضين:

﴿الَّذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾[3].

وقال في وصف عباده المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ، وَالَّذِيْنَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ، وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُوْنَ، وَالَّذِيْنَ يُؤْتُوْنَ مَا آتَوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُوْنَ، أُولٰئِكَ يُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ﴾[4].

بيّن الشوكاني رحمه الله أن الله سبحانه ذكر في هذه الآيات من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً، فوصفهم بصفات أربع:

---

(١) انظر: القول السديد في مقاصد التوحيد: عبد الرحمن بن سعدي (ص ١١٥، ١١٦) ط ٢/ مؤسسة النور الرياض ١٣٩٠ هـ.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧ ــ ٦١.

الأولى: قوله: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ والاشفاق: الخوف، تقول: أنا مشفق من هذا الأمر: أي خائف.

والصفة الثانية: قوله: ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي يتركون الشرك تركاً كلياً، ظاهراً وباطناً.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي يعطون ما أعطوا وقلوبهم خائفة من أجل ذلك الاعطاء، يظنون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله[1].

وأيّد الشوكاني هذا المعنى بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله قول الله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: لا، يا ابنة الصديق، ولكن الرجل يصوم، ويتصدّق، ويصلّي، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه[2].

كما أمر الله تبارك وتعالى بإخلاص هذه العبادة له في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوْهُمْ وَخَافُوْنِ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾[3].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٤٨٨.

(٢) فتح القدير: ٣/ ٤٩١ والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٦/ ١٥٩، ٢٠٥ والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون ٥/ ٣٠٦ برقم (٣١٧٥)، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب التوقي في العمل ٢/ ١٤٠٤ برقم (٤١٩٨)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٩٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وابن جرير في تفسيره ١٨/ ٣٣. قال الألباني: وإسناد حديث عائشة رجاله كلهم ثقات (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٢٥٦ برقم (١٦٥).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

قال الشوكاني في معنى الخوف من الله في الآية: (أي فافعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، لأني الحقيق بالخوف مني، والمراقبة لأمري ونهيي، لكون الخير والشر بيدي)[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[٢].

أما الرجاء فهو نوع من أنواع العبادة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[٣].

قال الشوكاني رحمه الله: (الرجاء: توقّع وصول الخير في المستقبل، أي: من كان له هذا الرجاء الذي هو شأن المؤمنين، (فليعمل عملاً صالحاً) وهو ما دلّ الشرع على أنه عمل خير يثاب عليه فاعله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) من خلقه، سواء كان صالحاً أو طالحاً، حيواناً أو جماداً)[٤].

وقد جمع الله سبحانه بين العبادتين الخوف والرجاء في قوله: ﴿وَادْعُوْهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[٥].

قال الشوكاني: وفيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه، والخوف: الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها، والطمع: توقّع حصول الأمور المحبوبة)[٦].

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً، يَحْذَرُ الآخِرَةَ، وَيَرْجُوْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٧].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤٠٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣١٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢١٣ وانظر أيضاً ٤/ ١٩٢.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٩.

قال الشوكاني في معنى الآية: (أي يحذر عذاب الآخرة، ويرجو رحمة ربه، فيجمع بين الرجاء والخوف، وما اجتمعا في قلب رجل إلاّ فاز)[1].

(د) الاستعانة والاستغاثة[2]:

من أنواع العبادة الاستعانة، وهي طلب العون على قضاء الحاجات، ودفع المكروهات.

قال الشوكاني: (الاستعانة بالنون: هي طلب العون، ولا خلاف أنه يجوز أن يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه من أمور الدنيا، كأن يستعين به على أن يحمل معه متاعه، أو يعلف دابته، أو يبلغ رسالته، وأما ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، فلا يستعان فيه إلا به)[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4].

قال رحمه الله: (المعنى نخصّك بالعبادة، ونخصّك بالاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعين)[5].

ومنه ما ورد في حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله الحديث)[6] وحديث أبي

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٥٣.

(٢) قال أبو السعادات: الإعانة، فعلى هذا تكون الاستغاثة هي الاستعانة، ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الإستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة (تيسير العزيز الحميد: لسليمان بن عبد الله ٢١٥ وانظر أيضاً: النهاية لابن الأثير ٣/ ٣٩٢ مادة: غوث).

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٦.

(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٢.

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٩) (٤/ ٥٧٥ برقم ٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٥٩ برقم ٥٣٠٢) والسنة لابن أبي عاصم (١٣٨، ١٣٩ برقم ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨).

هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «... احرص على ما ينفعك، واستعن بالله»[1].

أما الاستغاثة فهي طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر، وهي نوع من أنواع العبادة التي لا تصحّ إلاّ لله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُوْنَ رَبَّكُمْ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ، أَنِّيْ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِيْنَ﴾[2].

يقول الشوكاني رحمه الله: (فأما الاستغاثة بالمعجمة والمثلثة فهي طلب الغوث، وهو إزالة الشدّة، كالاستنصار وهو طلب النصر، ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور، ولا يحتاج مثل ذلك إلى استدلال، فهو غاية الوضوح، وما أظنّه يوجد فيه اختلاف، ومنه: (فَاسْتَغَاثَهُ الذِيْ مِنْ شِيْعَتِهِ عَلَى الّذِيْ مِنْ عَدُوِّهِ﴾[3]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوْكُمْ فِي الدِّيْنِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[4] وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستغاث فيه إلا به، كغفران الذنوب، والهداية، وإنزال المطر، والرزق، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾[5]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِيْ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾[6]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[7] وعلى هذا يحمل ما أخرجه الطبراني في معجمه الكبير أنه كان

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢ برقم ٢٦٦٤).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٩.

(٣) سورة القصص ، الآية: ١٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٦) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٧) سورة فاطر، الآية: ٣.

في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»[1] فمراده ﷺ: أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأما ما يقدر عليه المخلوق فلا مانع من ذلك، مثل أن يستغيث المخلوق بالمخلوق ليعينه على حمل حجر، أو يحول بينه وبين عدوه الكافر، أو يدفع عنه سبعاً صائلاً، أو لصاً، أو نحو ذلك)[2].

قلت: ويمكن تفسير هذا الحديث بأنّ النبي ﷺ كان يقدر على أن يغيثهم من ذلك المنافق، ولكنه كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، حماية لجناب التوحيد، وسدّاً لذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه عزّ وجلّ، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال، فإذا كان هذا فيما يقدر عليه ﷺ في حياته فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله عزّ وجلّ[3]؟

(هـ) الذبح:

ومن أنواع العبادة الذبح نسكاً لله تعالى، من هدي، وأضحية، وعقيقة، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِيْ وَنُسُكِيْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ الآية[4].

(والنسك: جمع نسيكة، وهي الذبيحة، أي ذبيحتي في الحج

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث.

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٤، ٥.

(٣) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ١٧٩، ١٨٠ تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢، ١٦٣.

والعمرة) حكاه الشوكاني عن جماعة من المفسّرين[1].

وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[2].

قال الشوكاني: (قال محمد بن كعب[3]: إن ناساً كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له... وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر، وأن يجعلهما لله عزّ وجلّ لا لغيره)[4].

وفي الحديث عن علي رضي الله عنه قال: حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات، منها: «لعن الله من ذبح لغير الله»[5].

قال الشوكاني رحمه الله: (قال بعض أهل العلم: إن إراقة دماء الأنعام عبادة، لأنها إما هدي، أو أضحية، أو نسك، وكذلك ما يذبح للبيع، لأنه مكسب حلال، فهو عبادة، ويتحصل من ذلك شكل قطعي هو أن إراقة دماء الأنعام عبادة، وكلّ عبادة لا تكون إلا لله، فإراقة دماء الأنعام لا تكون إلا لله، ودليل الكبرى (يعني العبادة) قوله تعالى:

﴿اعْبُدُوْا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾[6]، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُوْنِ﴾[7]، ﴿إِيَّاكَ

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٨٥.
(٢) سورة الكوثر، الآية: ٢.
(٣) هو ابن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي المدني، وكان قد نزل الكوفة مدة، ثقة عالم، من الثالثة، ولد سنة أربعين على الصحيح، ومات سنة عشرين بعد المائة، وقيل قبل ذلك، أخرج له الجماعة (التقريب لابن حجر ٥٠٤ برقم ٦٢٥٧).
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٥٠٢، ٥٠٣.
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (٣/ ١٥٦٧ برقم ١٩٧٨).
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٩ وقد وردت الآية في عدة مواضع، تقدم احصاؤها في صفحة ٢٠٤ هامش رقم(٥).
(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

نَعْبُدُ﴾[1]، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوْا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[2]، ﴿وَمَا أُمِرُوْا إِلاَّ لِيَعْبُدُوْا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنُ﴾[3][4].

(و) التوكل:

ومن أنواع العبادة التوكل على الله عزّ وجلّ، وهو اعتماد القلب عليه، وثقته به، وأنه كافيه، وهو عبادة عظيمة تعبد الله به عباده، وأمرهم بأن يعتمدوا عليه وحده دون سواه، ولا يوفق للقيام به على وجه الكمال إلا أولياء الله وحزبه المؤمنون.

وقد فرضه الله عزّ وجلّ على عباده، حيث أمر به في مواضع عديدة من كتابه العزيز:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوكَّلَ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلَ عَلَى الْحَيِّ الَّذِيْ لاَ يَمُوْتُ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ، وَكَفَى بِهِ بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً﴾[7].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ﴾[8].

وقال تعالى حكاية عن الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَعَلَى اللَّهِ

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٢) سورة الاسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة البينة، الآية: ٥.
(٤) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ١٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٢٣.
(٧) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٨) سورة أل عمران، الآية: ١٥٩.

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ، وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُوْنَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ﴾[1].

قال الشوكاني في معنى الآية: (أي عليه وحده، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه، وكأن الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أوليّاً، ولهذا قالوا: (وما لنا ألا نتوكل على الله) أي وأيّ عذر منا في ألا نتوكل عليه سبحانه (وقد هدانا سبلنا) أي والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته، وهو ما شرعه لعباده، وأوجب عليهم سلوكه (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) بما يقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة، (وعلى الله) وحده دون من عداه (فليتوكل المتوكلون) والمراد بالتوكل الأول استحداثه، وبهذا السعي في بقائه وثبوته)[2].

وقال تعالى في مدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً، وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلَ﴾[3].

ومعنى الوكيل كما قال الشوكاني: هو من توكّل إليه الأمور، أي نعم الموكول إليه أمرنا، أو الكافي، أو الكافل، الله سبحانه[4].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيْلاً﴾[5] (أي اعتمد عليه، وفوّض أمرك إليه، وكفى به حافظاً يحفظ من توكّل عليه)[6].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١١، ١٢.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٩٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤٠٠.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٦٠.

وفي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنّكم تتوكّلون على الله تعالى حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُوْ خِمَاصاً، وتَرُوْح بِطَاناً»[1].

وقد قرّر الشوكاني رحمه الله أنّ التوكّل لا يتمّ إلاّ بالعمل بالأسباب، فالعمل بالأسباب لا ينافي التوكّل، ولا يقدح فيه كما زعمه بعض الناس. واستدلّ بأحاديث كثيرة[2] منها:

حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله تعالى)[3].

وحديث أبي خزامة رضي الله عنه قال: (يا رسول الله أرأيت رُقًى نَسْتَرْقِيْهَا، ودواءً نتداوى به، وتُقَا نَتَّقِيْهَا، هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله)[4].

قال الشوكاني بعد سرد الأحاديث في الموضوع: (وفي أحاديث الباب كلها إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وبتقديره، وأنها لا تنجع بذواتها، بل بما قدره الله فيها، وأن الدواء قد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٠ والترمذي في كتاب الزهد، باب في التوكل على الله (٤/ ٤٩٥ برقم ٢٣٤٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٢/ ١٣٩٤ برقم ٤١٦٤) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٥٥٧ برقم ٣١٠) ومعنى: تغدو خماصاً وتروح بطاناً. أي: تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف (النهاية لابن الأثير ٢/ ٨٠ مادة: خمص).

(٢) انظر: نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ١٣١، ١٣٢ (باب إباحة التداوي وتركه).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوي (٤/ ١٧٢٩ برقم ٢٢٠٤).

(٤) تقدم تخريجه في صفحة (٢٣٣).

ينقلب داء إذا قدر الله ذلك، وإليه الاشارة في حديث جابر (المذكور) حيث قال: بإذن الله. فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته، والتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بالعافية، ودفع المضار، وغير ذلك)(١).

وقال رحمه الله: (والحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب، اتباعاً لسنته، وسنة رسوله ﷺ، فقد ظاهر ﷺ بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أو يتوكل؟ اعقلها وتوكل(٢). فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل)(٣).

وعلى هذا فإن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله عزّ وجلّ، والإيمان أن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ١٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم (٦٠) (٤/ ٥٧٦ برقم ٢٥١٧) وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال يحيى القطان: وهذا عندي حديث منكر، وأخرجه بن حبان في كتاب الرقاق باب الورع والتوكل (٢/ ٥١٠ برقم ٧٣١) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٨٠ برقم ١٢١٢) والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣) بلفظ: قَيِّدْهَا وتوكل. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١): رواه الطبراني بإسنادين، وفي أحدهما عمر بن عبد الله بن أمية الضمري ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، ولفظ الطبراني: قيدها وتوكل وقال الزرقاني في مختصر المقاصد صفحة ٦١ برقم (١١٣): صحيح من حديث عمرو بن أمية الضمري ضعيف من حديث أنس. والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٢٤٢ برقم (١٠٦٨).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ١٣٣، ١٣٤.

فالالتفات إلى الأسباب، واعتبارها مؤثرة في المسببات شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والاعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة(١).

وغير ذلك من أنواع العبادة التي شرعها الله لعباده، والتي لا تخرج عن التعريف السابق بأنّ العبادة اسم جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وأنّ مناطها الذي لا قوام لها إلا به هو كمال الحبّ وغايته، مع غاية الذلّ، ولا تسمّى عبادة إلا مع ذلك كلّه.

المبحث الرابع

التوسّل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه

معنى التوسّل:

التوسّل من الوسيلة، ومعنى الوسيلة: القربة والواسطة، قال ابن الأثير(٢): (هي في الأصل: ما يتوصّل به إلى الشيء ويتقرّب به، وجمعها: وسائل، يقال: وسل إليه وسيلة، وتوسّل)(٣).

وقال الأصفهاني: (الوسيلة: التوصّل إلى الشيء برغبة، وهي أخصّ من الوصيلة، لتضمّنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾(٤)،

---

(١) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٨/ ٥٢٨).

(٢) أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، قرأ الحديث والعلم والأدب، وكان ورعا ذا برّ وإحسان، له مؤلفات كثيرة منها: النهاية في غريب الحديث، وجامع الأصول. توفيّ (٦٠٦ هـ) (مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٢٤، ١٢٥، وشذرات الذهب: ابن العماد ٥/ ٢٢، ٢٣).

(٣) النهاية لابن الأثير (٥/ ١٨٥ مادة: وسل).

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى، مراعاة سبيله بالعمل والعبادة، وتحرّي مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى)[1].

وقد ورد لفظ الوسيلة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللَّهَ وَابْتَغُوْا إِلَيْهِ الْوَسِيْلَةَ، وَجَاهِدُوْا فِيْ سَبِيْلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ يَبْتَغُوْنَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيْلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُوْنَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُوْنَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوْراً﴾[3].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في بيان معنى الوسيلة في الآية: (والوسيلة: فعيلة من توسّلت إليه: إذا تقرّبت إليه.. فالوسيلة: القربة التي ينبغي أن تطلب)[4].

وقال في الآية الثانية: (والوسيلة: القربة بالطاعة والعبادة، أي يتضرّعون إلى الله في طلب ما يقرّبهم إلى ربّهم)[5].

وبهذا المعنى فسّر أئمة المفسّرين لفظ الوسيلة في الآية[6].

وهناك معنى آخر للوسيلة بيّنه الشوكاني، وهو المنزلة العلية[7]. كما ورد في الحديث تسمية أعلى منزلة في الجنّة بها.

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (ص ٥٢٣، ٥٢٤ مادة: وسل).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الاسراء، الآية: ٥٧.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٣٨).
(٥) المصدر السابق (٣/ ٢٣٧)، وانظر أيضاً: تحفة الذاكرين له (١٢٥)، ونيل الأوطار له (٢/ ١٠٧).
(٦) انظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٢٦)، وزاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٤٨)، والتفسير الكبير لابن تيمية (٤/ ٩٤)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٥)، وأيضاً فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٣٨) قال ـ رحمه الله ـ: وبه قال أبو وائل، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وروي عن ابن عباس، وعطاء، وعبد الله بن كثير. قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسّرين فيه.
(٧) انظر نيل الأوطار: (٢/ ١٠٧).

قال رحمه الله: (والوسيلة أيضاً درجة في الجنّة مختصّة برسول الله ﷺ، وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلّا حلّت له الشفاعة يوم القيامة»[1].

وفي صحيح مسلم بلفظ: «إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنّة، لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»[2].

قال الشوكاني: (والظاهر أنّ الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى وعلى غيرها من خصال الخير التي يتقرّب العباد بها إلى ربّهم)[3].

فلا يتقرّب العباد إلى ربّهم إلّا بما شرعه الله تعالى في كتابه، أو بيّنه رسوله في سنّته، لأنّه لا يعلم كون الشيء وسيلة أو غير وسيلة إلّا من طريق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء (الفتح ٢/ ١١٢ برقم ٦١٤) ولفظه: حلّت له شفاعتي يوم القيامة. وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الدعاء عند الأذان. (١/٣٦٢ برقم ٥٢٩)، والترمذي في أبواب الصلاة، باب (١٥٧) (١/ ٤١٣ برقم ٢١١) والنسائي في كتاب الأذان، باب الدعاء عند الأذان (٢/ ٢٧ برقم ٦٨٠)، وابن ماجة في كتاب الأذان. (١/ ٢٣٩ برقم ٧٢٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٤١٠).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٣٨)، وأورد هذا الحديث أيضاً في تحفة الذاكرين (١٢٥) والحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذّن (١/ ٢٨٨) برقم (١١)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن(١/ ٣٥٩ برقم ٥٢٣)، والترمذي في كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٤٧ برقم ٣٦١٤)، والنسائي في كتاب الأذان، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان (٢/ ٢٥ برقم ٦٧٨)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٨، ٢٦٥، ٣٦٥).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٣٨).

الشرع، فمن جعل شيئاً من الأمور وسيلة يتقرّب بها إلى الله في قبول دعائه بدون دليل من الشرع فقد قال على الله ما لا يعلم، إذ كيف يدري أنّ ما جعله وسيلة مما يرضاه الله تعالى ويكون سبباً في قبول دعائه؟ وقد أنكر الله تعالى على من اتّبع شرعاً بدون اذنه وجعله من الشرك، إذ قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[1].

وعلى هذا فلا بدّ لأيّ وسيلة يتوسّل بها العبد إلى ربّه من دليل صحيح من الكتاب والسنّة.

أنواع التوسّل:

التوسّل قسمان: القسم الأوّل: أن يكون بوسيلة جاءت بها الشريعة.

وأنواعه ثلاثة، أذكرها فيما يلي:

الأوّل: التوسّل إلى الله بأسمائه وصفاته، فيتوسّل العبد إلى ربّه تعالى بذكر اسم من أسمائه المقتضية لمطلوبه، أو صفة من صفاته المقتضية له، كأن يقول في دعائه: اللهمّ يا رحيم ارحمني، ويا غفور اغفر لي، ويا كريم أكرمني، ونحو ذلك.

والدليل على مشروعيته قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[2].

ولا شكّ أنّ صفاته العليا عزّ وجلّ داخلة في هذا الأمر، لأنّ أسماءه الحسنى متضمّنة لمعاني الصفات كما سيأتي بيانه[3]، فهي صفات له سبحانه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال في أحد أدعيته الثابتة عنه: (اللهمّ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٣) انظر صفحة (٢٨٣، ٢٨٧، ٢٨٨).

بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي . . .)[١].

الثاني: التوسّل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي قام بها الداعي، كأن يقول: اللهمّ بإيماني بك، ومحبّتي لك، واتباعي لرسولك، اغفر لي، ونحو ذلك.

ومنه أن يذكر الداعي عملاً صالحاً ذا بال كان يعمله طاعة لله وإخلاصاً لوجهه الكريم، فيتوسّل به إلى الله في دعائه، ليكون أجرى لقبوله وإجابته.

والدليل على مشروعيته قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢].

وقوله عن الحواريين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ﴾[٣].

وفي الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فلان، إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهمّ أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا إلاّ إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت، فإنّك إنْ متّ في ليلتك متّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت أجراً»[٤].

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٤، ٥٥ برقم ١٣٠٥، ١٣٠٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي. قال الألباني: وإسناده جيّد. (انظر مشكاة المصابيح ٢/ ٧٧٠ برقم ٢٤٩٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: أنزله بعلمه والملائكة يشهدون (الفتح ١٣/ ٤٧١ برقم ٧٤٨٨) وانظر مواضع وروده في (١/ ٤٢٦ =

ويدلّ على هذا النوع من التوسّل ما ورد في قصّة أصحاب الغار، كما يرويها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، وهي قصّة طويلة مضمونها كالآتي:

(انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلنا حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاّ أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهمّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغْبُقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً[1]، فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرِحْ عليهما[2] حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديّ، أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرِّجْ عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. وقال الآخر: اللهمّ كانت لي بنت عمّ كانت أحبَّ الناس إليّ، فأردتها عن نفسها، فامتنعت منّي، حتى أَلَمَّتْ بها سنة[3] من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحلّ لك أن

= برقم ٢٤٧) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضاجع (٤/ ٢٠٨١، ٢٠٨٢ برقم ٢٧١٠)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١١٧) (٥/ ٥٢٩ برقم ٣٥٧٤) وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٥، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢).

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٣/ ٣٤١ مادة: غبق) أي ما كنت أقدم عليهما أحداً في شرب نصيبهما من اللبن الذي يشربانه، والغبوق: شرب آخر النهار، مقابل الصَّبوح.

(٢) وقد بيّن هذا ما في رواية مسلم (٤/ ٢٠٩٩) من طريق أبي ضمرة، ولفظه: وأنّه نأى بي الشجر. والمراد أنّه استطرد مع غنمه في الرعي إلى أن بعد عن مكانه زيادة على العادة فلذلك أبطأ. (عن الفتح ٦/ ٥٨٧) والمراح، بالضمّ: الموضع الذي تروح إليه الماشية (النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٧٣ مادة: روح) والمعنى: لم أردّ الماشية من المرعى إلى حظائرها.

(٣) أي سنة قحط. (الفتح ٦/ ٥٨٨).

تفضّ الخاتم إلاّ بحقّه، فتحرّجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحبّ الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنّهم لا يستطيعون الخروج عنها. وقال الثالث: اللهمّ إنّي استأجرت أُجراء، فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد، ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتّى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله، أَدِّ إليّ أجري، فقلت له: كلّ ما ترى من أجرك، من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق، فقال: يا عبد الله، لا تستهزىء بي، فقلت: إنّي لا أستهزىء بك، فأخذه كلّه، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهمّ فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون)[1].

ويتضح من هذه القصّة أنّ هؤلاء الثلاثة توسّلوا إلى الله بخالص أعمالهم حينما اشتدّ بهم الكرب، فأجاب الله دعاءهم، وفرّج عنهم الكرب، فالقصّة تحمل معنيين عظيمين، أحدهما: مشروعية التوسّل إلى الله بالأعمال الصالحة، وثانيهما: فضل إخلاص العمل لله وحده، لأنّ تلك الأعمال الثلاثة لو لم تكن خالصة لوجه الله لما تقبّلها الله، ولما أجاب دعوة أصحابها.

الثالث: التوسّل إلى الله تعالى بدعاء من ترجى إجابته من أهل الصلاح والتقوى، أو أهل الفضل والعلم بالكتاب والسنة.

وقد وردت أمثلة من هذا النوع في السنة الشريفة، كما وقعت نماذج منه من فعل الصحابة رضوان الله عليهم.

فمن ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أنّ رجلاً دخل يوم الجمعة من

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيراً فترك أجره (الفتح ٤/ ٥٢٥ برقم ٢٢٧٢) واللفظ له، وأخرجه أيضاً برقم (٣٤٦٥، ٥٩٧٤)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب قصّة أصحاب الغار الثلاثة والتوسّل بصالح الأعمال (٤/ ٢٠٩٩ برقم ٢٧٤٣).

باب كان وجاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسولَ الله ﷺ قائماً فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: اللهمّ اسقنا، اللهمّ اسقنا، اللهمّ اسقنا، قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قَزعةً[1] ولا شيئاً، وما بيننا وبين سلع[2] من بيت ولا دار[3]، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلمّا توسّطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً[4]، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: اللهمّ حوالينا ولا علينا، اللهمْ على الآكام والظِّراب[5] والأودية، ومنابتِ الشجر، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس، قال شريك[5]: فسألت أنساً: أهو الرجل الأوّل؟ قال: لا أدري)[6].

---

(١) أي قطعة من الغيم، وجمعها: قزع (النهاية لابن الأثير ٤/ ٥٩ مادة: قزع).

(٢) جبل معروف بقرب المدينة.

(٣) أي يحجبنا عن رؤيته، وأشار بذلك إلى أنّ السحاب كان مفقودا لا مستتراً ببيت ولا غيره. (الفتح ٢/ ٥٨٥).

(٤) والمراد به الأسبوع، من السبت إلى السبت، وهو من تسمية الشيء باسم بعضه كما يقال: عشرون خريفاً، ويراد عشرون سنة (انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ٣٢١ مادة: سبت)(٥) فيه بيان المراد بقوله: (حوالينا)، والإكَام بالكسر جمع أكمة وهي الرابية (أي ما ارتفع من الأرض) وتجمع الإكَام على أكم، والأَكم على آكام (النهاية لابن الأثير ١/ ٥٩ مادة: أكم) والظراب: الجبال الصغار، واحدها ظَرِب بوزن كَتِف (المصدر السابق ٣/ ١٥٦ مادة: ظرب).

(٥) أي شريك بن عبد الله راوي الحديث.

(٦) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع (الفتح ٢/ ٥٨١ برقم ١٠١٣) وأخرجه أيضاً برقم (١٠١٤ ـ ١٠١٩) بعضها مطوّل وبعضها مختصر، ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢/ ٦١٢ ـ ٦١٤ برقم ٨٩٧) وغيرهما.

هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يطلبون من الرسول ﷺ في حياته أن يدعو لهم، ولمّا انتقل ﷺ إلى ربّه، ولم يعد من الممكن أن يدعو لهم، عدلوا عن التوسّل به، أي عن طلب الدعاء منه إلى طلب الدعاء بعضهم من بعض، كما رواه أنس رضي الله عنه أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا ﷺ فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا، قال: فيسقون[1].

ومعنى قول عمر: (وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا) أي بدعائه وشفاعته لا بذاته، وهو من نوع توسّل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن، وقد روى الحافظ ابن حجر في الفتح[2] صيغة الدعاء الذي دعا به العباس رضي الله عنه، قال: (وقد بيّن الزبير بن بكار[3] في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناده له أنّ العبّاس لمّا استسقى به عمر قال: (اللهمّ إنّه لم ينزل بلاء إلاّ بذنب، ولم يكشف إلاّ بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك، لمكاني من نبيّك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث) فأرخت السماء مثل الجبال، حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس).

ومثل ما فعل عمر فعل معاوية بن أبي سفيان بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ــ لما أجدب الناس بالشام ــ حيث استسقوا بيزيد بن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (الفتح ٢/ ٥٧٤ برقم ١٠١٠) وأيضاً في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه (٧/ ٩٦ برقم ٣٧١٠) وابن سعد في طبقاته (٤/ ٢٨، ٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٨٨).

(٢) (٢/ ٥٧٧)، ونقل عنه الشوكاني في نيل الأوطار (٤/ ٢٠٥).

(٣) الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب، أبو عبد الله، قاضي المدينة، ثقة، أخطأ السليماني في تضعيفه، من صغار العاشرة، مات (٢٥٦ هـ) روى له ابن ماجة (انظر: التقريب لابن حجر ٢١٤ برقم ١٩٩١، ولسان الميزان له ٢/ ٤٧٣، وميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ٢٥٦ برقم ٢٨٣٠).

الأسود الجرشي[1] وتوسّلوا به كما توسّل عمر بالعباس، فقال ـ أي معاوية ـ: «اللهمّ إنّا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهمّ إنّا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله». فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنّها ترس، وهبت لها ريح، فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم.

وروي مثل هذا الاستسقاء بيزيد عن الضحاك بن قيس الفهري[2].

وقد تبين من هذه الأمثلة أنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتوسّلون بالنبي ﷺ ويستسقون به حال حياته، فلمّا توفّي ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى، عدلوا عنه وتوسّلوا بغيره، كما توسّل عمر بعمّه العباس، وتوسّل معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود، وهذا دليل واضح على أنّ توسّلهم بالنبي ﷺ إنّما هو بدعائه وشفاعته، ولم يكن بذاته ولا بجاهه، إذ لو كان كذلك لما عدلوا عنه إلى غيره، لأنّه أولى وأفضل من العبّاس ويزيد ومن غيرهما، بل أفضل الخلق أجمعين، وهذا لا يخفى على أحد منّا فضلاً عن الصحابة، ولأنّ جسده الشريف لم يزل ولن يزال محفوظاً في قبره إلى يوم البعث، كما ثبت في الحديث[3]، وأنّ جاهه ومنزلته وكرامته على الله لم

(١) يزيد بن الأسود الجرشي، من سادة التابعين بالشام، أسلم في حياة النبي ﷺ. توفّي (٧١ هـ) (انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: الذهبي ٤/ ١٣٦د ١٣٧ والبداية والنهاية: ابن كثير ٨/ ٣٢٤).

(٢) روى أبو زرعة الدمشقي استسقاء معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود في تاريخه (١/ ٦٠٢ برقم ١٧٠٢ ـ ١٧٠٤)، وابن سعد في طبقاته (٧/ ٤٤٤)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٨٠ ـ ٣٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٨/ ١٢٢ ـ ١٢٤)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/١٣٦، ١٣٧)، وابن حجر في الإصابة (٦/٣٥٨، ٣٥٩) قال الألباني: وإسناده صحيح. (التوسّل أنواعه وأحكامه ص ٤٥). والضّحاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري، أبو أنيس، الأمير المشهور، صحابي صغير، قتل في وقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ (عن التقريب لابن حجر ٢٧٩ برقم ٢٩٧٦).

(٣) ثبت في الحديث الصحيح: (أنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٨)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل=

ينقص من ذلك شيء بوفاته، لكنّهم عدلوا عن التوسّل به إلى التوسّل بغيره، لأنّهم عرفوا أنّ التوسّل بذاته أمر غير مشروع، وأنّ معنى التوسّل به هو طلب الدعاء منه عليه الصلاة والسلام، وأن ليس في إمكان أيّ أحد أن يذهب إلى الرسول بعد وفاته، ليشكو إليه حاله، ويطلب منه دعاءه، كما كان يفعل ذلك في حياته في الدنيا، لأنّه انتقل إلى الحياة البرزخية التي لا يعلم حقيقتها إلاّ الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأمّا التوسّل بدعائه ﷺ وشفاعته، كما قال عمر، فإنّه توسّل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسّل بعمّه العبّاس، ولو كان التوسّل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسّل بالعباس، فلمّا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسّل بالعبّاس، علم أنّ ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسّل الذي هو الإيمان به والطاعة له، فإنّه مشروع دائماً، فلفظ التوسّل يراد به ثلاث معان:

أحدها: التوسّل بطاعته، فهذا فرض لا يتمّ الإيمان إلاّ به.

والثاني: التوسّل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته، ويكون يوم القيامة يتوسّلون بشفاعته.

والثالث: التوسّل به بمعنى الاقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية

= يوم الجمعة وليلة الجمعة (١/ ٦٣٥ برقم ١٠٤٧)، والنسائي في كتاب فضل يوم الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (٣/ ٩٢ برقم ١٣٧٤)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة، باب في فضل الجمعة (١/ ٣٤٥ برقم ١٠٨٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) وصحّحه، ووافقه الذهبي من حديث أوس بن أوس، وصحّحه النووي في الأذكار ١٧٢ تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. وفي الباب عن أنس رضي الله عنه صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٨٧ ـ ١٩٠ برقم ٦٢١).

المشهورة بينهم، وإنّما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عن من ليس قوله بحجّة)[1].

قلت: وهذا المعنى الأخير داخل في القسم الثاني من التوسّل، وهو القسم الممنوع، وهو نوعان:

أحدهما: أن يكون بوسيلة أبطلها الشرع، كتوسّل المشركين بآلهتهم بالدعاء، والخوف، والرجاء، والطمع، ونحو ذلك من أنواع العبادة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2]. وهذا النوع حكمه شرك بالله عزّ وجلّ.

والثاني: أن يكون بوسيلة لم يرد فيها دليل من الشرع، وهذا توسّل بدعي محرّم ووسيلة إلى الشرك بالله، كالتوسّل إلى الله بذوات الملائكة، والنبيين، والصالحين، وسؤال الله بحقّهم، أو جاههم، أو حرمتهم، أو مقامهم، أو نحو ذلك، فيقول مثلاً: اللهمّ إنّي أسألك بحقّ نبيّك، أو أنبيائك، أو بجاه فلان، أو حرمته، أن تقضي حاجتي، أو نحو هذا، فهذا لا يجوز، لأنّه لم يرد ذلك عن الصحابة، ولا عن أحد من سلف الأمّة، وسيأتي تفصيله عند الكلام عن رأي الشوكاني فيه إن شاء الله.

رأي الشوكاني في التوسّل بالدعاء:

رأى الشوكاني رحمه الله جواز التوسّل إلى الله بالدعاء، أي دعاء أهل الفضل والصلاح والتقوى، من الأنبياء والصالحين، واستدلّ على ذلك بأدلّة كثيرة.

فقال في الحديث الصحيح الذي ورد بأنّ الخلائق يوم القيامة يأتون آدم

---

(١) قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة: ابن تيمية ٨٢ تحقيق: د/ ربيع بن هادي المدخلي.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

فيدعونه، ويستغيثونه، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً ﷺ، وسائر إخوانه من الأنبياء[1]. ما نصّه:

(أهل المحشر إنّما يأتون هؤلاء الأنبياء يطلبون منهم أن يشفعوا لهم إلى الله سبحانه، ويدعوا لهم بفصل الحساب، والإراحة من ذلك الموقف، وهذا جائز، فإنّه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما، وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم، كما في حديث: (يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. لمّا أخبرهم بأنّه يدخل الجنّة سبعون ألفاً)[2]. وحديث: (سبقك بها عكاشة)[3]، وقول أمّ سليم: (يا رسول الله

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ذرّية من حملنا مع نوح أنّه كان عبداً شكوراً. (الفتح ٨/ ٢٤٧ برقم ٤٧١٢) وأخرجه أيضاً برقم (٣٣٤٠) بدون ذكر إبراهيم وموسى وعيسى. وبرقم (٣٣٦١، ٧٤١٠، ٧٥١٠) من حديث طويل معروف بحديث الشفاعة. ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. (١/ ١٨٤ ـ ١٨٧ برقم ١٩٤، ١٩٥) كلّها بدون ذكر: (وسائر إخوانه من الأنبياء) ولعلّ الشوكاني أخذه من الروايات الأخرى، ولم أقف عليها إلاّ ما روى البخاري موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إنّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كلّ أُمّة تَتْبَعُ نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) (انظر الفتح ٨/ ٢٥١ برقم ٤٧١٨) ورفعه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة (الفتح ١٠/ ٢٨٧ برقم ٥٨١١) وأخرجه أيضاً برقم (٦٥٤٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (١/ ١٩٧ برقم ٢١٦ ـ ٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (انظر الفتح ١١/ ٤١٣ برقم ٦٥٤١، ٦٥٤٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (١/ ١٩٧ برقم ٢١٦، ٢١٨). ومضمون الحديث: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمّتي زمرة هم سبعون ألفاً» فقام إليه عكاشة بن محصن الأسدي، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: اللهمّ اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكاشة.

خادمك أنس ادع الله له)[1]. وقول المرأة التي كانت تصرع: (يا رسول الله ادع الله لي) وآخر الأمر سألته الدعاء بأن لا تنكشف عند الصرع، فدعا لها[2]. ومنه إرشاده ﷺ لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القرني إذا أدركوه[3]. ومنه ما ورد في دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب[4]. وغير ذلك مما لا يحصى، حتى أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر لمّا خرج معتمراً: (لا تنسني يا أخي من دعائك)[5] فمن جاء إلى رجل صالح، واستمدّ منه أن يدعو له، فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الأموات، بل هو سنّة حسنة، وشريعة ثابتة، وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهّرة بأنّه

---

(١) وتمام الحديث: فقال ﷺ: «اللهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته». أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الدعوات، باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله (الفتح ١١/ ١٤٩ برقم ٦٣٤٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه (٤/ ١٩٢٨ برقم ٢٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح (انظر الفتح ١٠/ ١١٩ برقم ٥٦٥٢)، ومسلم في كتاب البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٤/ ١٩٩٤ برقم ٢٥٧٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أويس القرني رضي الله عنه (٤/ ١٩٦٩ برقم ٢٥٤٢).

(٤) كحديث أمّ الدرداء عن النبي ﷺ قال: دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكّل، كلّما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكّل به: آمين. أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٤/٢٠٩٤ برقم ٢٧٣٢)، وانظر ما أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (٢/١٨٦ برقم ١٥٣٤) والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب (٤/٣٠٩ برقم ١٩٨٠)، وابن ماجة في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢/٩٦٦ برقم ٢٨٩٥).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦٩ برقم ١٤٩٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١١٠) (٥/ ٥٢٣ برقم ٣٥٦٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجة في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢/ ٩٦٦ برقم ٢٨٩٤)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩)، وضعّفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح (٢/ ٦٩٥ برقم ٢٢٤٨)، وفي ضعيف الجامع (٦/ ٧٨ برقم ٦٢٩٢).

من أهلها، كالأنبياء، ولهذا يقول الله لرسوله يوم القيامة: «سل تُعط، واشفع تُشفع»[1] وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به كما في كتابه العزيز.

والحاصل أن طلب الحوائج من الأحياء جائز إذا كانوا يقدرون عليها، ومن ذلك الدعاء، فإنّه يجوز استمداده من كلّ مسلم، بل يحسن ذلك[2]، وكذلك الشفاعة من أهلها الذي ورد الشرع بأنّهم يشفعون[3]. ولكن ينبغي أن يعلم أنّ دعاء من يدعو له لا ينفع إلاّ بإذن الله، كما ورد بذلك القرآن العظيم[4]. فهذه تقييد للمطلق لا ينبغي العدول عنه بحال)[5].

هذا ما ذهب إليه الشوكاني في التوسّل والتشفّع بدعاء الصالحين، وهو رأي صائب واستدلال صحيح، غير أنّه لم يفرّق بين هذا النوع من التوسّل وبين التوسّل بالذوات والأشخاص، فاختلط الأمر عليه، فخلط بينهما وجعلهما نوعاً واحداً، كما اختلط عليه الأمر أيضاً بين التوسّل بالذوات والأشخاص وبين التوسّل بالأعمال الصالحة، فجعل الأول كالثاني في الجواز، فوقع بذلك في أخطاء سأبيّنها في الفقرة التالية.

---

(١) من حديث طويل معروف بحديث الشفاعة، وقد تقدّم تخريجه قبل قليل في (ص ٢٤٠).

(٢) والصحيح أنّه يحسن استمداد الدعاء ممن ترجى إجابته، كطلب الصحابة رضي الله عنهم من النبي ﷺ أن يدعو الله لهم، كما في حديث استسقاء الأعرابي بدعاء النبي ﷺ، وحديث عكاشة، وحديث توّسل الأعمى بدعاء النبي ﷺ، وكطلب الصحابة من العباس أن يدعو الله لهم، كما في حديث استسقاء عمر بالعباس، وأمثال ذلك، وقد تقدمت نصوص هذه الأحاديث.

(٣) أي يوم القيامة.

(٤) يقصد قوله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٥٥)، وقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ (سورة يونس، الآية: ٣)، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ (سورة طه، الآية: ١٠٩)، ونحو ذلك من الآيات.

(٥) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٤٥، ٤٦) مكتبة الصحابة الإسلامية.

رأي الشوكاني في التوسّل بالذوات والأشخاص ومناقشته فيه:

يرى الشوكاني رحمه الله جواز التوسّل إلى الله بذوات الأنبياء والصالحين وأشخاصهم، مستدلاً على ذلك بأدلّة وهي في الحقيقة أدلّة صحيحة لكنّها ليست بصريحة على دلالة ما ذهب إليه، وفيما يلي أورد كلامه فيه:

يقول رحمه الله تعالى إجابة على سؤال عن التوسل بالأحياء والأموات المشهورين بالفضل، وقصد قبورهم لتأدية الزيارة، والتوسّل بهم في الدعاء[1]. ما نصّه:

(وأمّا التوسّل إلى الله سبحانه بأحد من خلقه في مطلب يطلبه العبد من ربّه فقد قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام[2]: أنّه لا يجوز التوسّل إلى الله تعالى إلاّ بالنبي ﷺ، إن صحّ الحديث فيه[3]، ولعلّه يشير إلى الحديث الذي

---

(١) انظر صيغة السؤال في بداية الكتاب: الدر النضيد صفحة ٣ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عزّ الدين، الملقّب بسلطان العلماء، فقيه الشافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه: قواعد الأحكام، وبداية السول في تفضيل الرسول. توفّي (٦٦٠ هـ) (انظر ترجمته في: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٨/ ٢٠٩، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٣/ ٣٣٥، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ٣١٨).

(٣) لم أقف على ما ذكره الشوكاني عن العزّ بن عبد السلام بهذا النّص، والذي وقفت عليه هو ما ذكره العزّ بن عبد السلام في كتاب الفتاوى (بتعليق: عبد الرحمن عبد الفتاح، وتوزيع مكتبة المعارف بالرياض صفحة ١٢٦) جواباً على سؤال عن الإقسام على الله بمعظّم من خلقه في دعائه، كالنبي ﷺ، والولي، والملك، هل يكره ذلك أولا؟ فأجاب بقوله: (أمّا مسألة الدعاء، فقد جاء في بعض الأحاديث أنّ رسول الله ﷺ علّم بعض الناس الدعاء، فقال في أقواله: «قل اللهمّ أنّي أقسم عليك بنبيك محمد ﷺ نبيّ الرحمة». وهذا الحديث أن صحّ فينبغي أن يكون مقصوراً على رسول الله ﷺ، لأنّه سيّد ولد آدم، وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنّهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خصّ به تنبّها على علوّ درجته =

أخرجه النسائي في سننه، والترمذي وصحّحه، وابن ماجة، وغيرهم، أنّ أعمى أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنّي أصبت في بصري، فادع الله لي، فقال لي النبي ﷺ: توضّأ، وصلّ ركعتين، ثمّ قل: «اللهمّ إنّي أسألك، وأتوجّه إليك بنبيّك محمد، يا محمد إنّي أستشفع بك في ردّ بصري، اللهمّ شفّع النبي فيّ»[1]، وقال: فإن كان لك حاجة فمثل ذلك[2]. فردّ الله

= ومرتبته).ا هـ. وقد نقل مثل هذا، أي جواز السؤال بالنبي ﷺ عن الإمام أحمد في إحدى الروايتين عنه، وأكثر العلماء على النهي فيه. (انظر: قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٤، ٢٧٥ بتحقيق: د/ ربيع بن هادي المدخلي، ومجموعة الرسائل والمسائل له ١/ ٢٣، ٢٨).

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣٨)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١١٩) (٥/ ٥٣١ برقم ٣٥٧٨) ولفظه: عن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضّأ، فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنّي أسألك، وأتوجّه إليك بنبيّك محمد نبي الرحمة، إنّي توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهمّ فشفّعه فيّ.» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٤١٧، ٧١٨ برقم ٦٥٨، ٦٦٠) ط/ الرئاسة العامة بالرياض. وابن ماجة في صلاة الحاجة (١/ ٤٤١ برقم ١٣٨٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣١٣، ٥١٩، ٥٢٦) وقال: صحيح الأسناد، ووافقه الذهبي. والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ١٦٦ ــ ١٦٨) وغيرهم، بطرق وألفاظ مختلفة. انظر ما أوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية من طرق هذا الحديث وألفاظه في قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة (١٨٥ ــ ١٩٩) تحقيق: د/ ربيع بن هادي المدخلي. والحديث صحّحه الشوكاني في تحفة الذاكرين (١٧٥) قال: وفي الحديث دليل على جواز التوسّل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله عزّ وجلّ، مع اعتقاد أنّ الفاعل هو الله سبحانه وتعالى، وأنه المعطي المانع، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. قال الشيخ الألباني في تعليقه على الحديث: وإسناده صحيح، ومن ضعّفه من المتأخرين فما أصاب، كما لم يصب من استدلّ به على التوسل بالأشخاص، وإنّما هو دليل على التوسّل بدعاء الرجل الصالح، كما شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة. (مشكاة المصابيح ٢/ ٧٦٩ وانظر أيضاً التوسّل أنواعه وأحكامه ٧٦).

(٢) هذه الزيادة غير ثابتة عن النبي ﷺ وقد أعلّها شيخ الإسلام ابن تيمية بتفرّد حمّاد بن =

بصره[1].

ثمّ قال: وللناس في معنى هذا قولان:

أحدهما: أنّ التوسّل هو الذي ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لمّا قال: كنّا إذا أَجْدَبْنَا نتوسّل إليك بنبيك فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبينا. وهو في صحيح البخاري وغيره[2]، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أنّهم كانوا يتوسّلون بالنبي ﷺ في حياته في الاستسقاء، ثم توسّل بعمّه العباس بعد موته، وتوسّلهم هو استسقاؤهم بحيث يدعو، ويدعون معه، فيكون هو وسيلتهم إلى الله تعالى[3]. والنبي ﷺ في مثل هذا شافعاً وداعياً لهم.

والقول الثاني: أنّ التوسّل به ﷺ يكون في حياته وبعد موته، وفي حضرته ومغيبه، ولا يخفاك أنّه قد ثبت التوسّل به ﷺ في حياته، وثبت

= سلمة بها، ومخالفته لرواية شعبة، وهو أجلّ من روى هذا الحديث، وقال ــ رحمه الله ــ: إنّ لفظ الحديث يناقض ذلك، فإنّ في الحديث أنّ الأعمى سأل النبي ﷺ أن يدعو له، وأنّه علّم الأعمى أن يدعو، وأمره في الدعاء أن يقول: اللهمّ فشفّعه فيّ. وإنّما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي ﷺ داعياً شافعاً له، بخلاف من لم يكن كذلك، فهذا يناسب شفاعته ودعاءه للناس في محياه في الدنيا، ويوم القيامة إذا شفع لهم، وفيه أيضاً أنّه قال: فشفّعني فيه. (انظر قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة ١٩٦، ١٩٧) وقال الشيخ الألباني بعد بيان علل هذه الزيادة: وخلاصة القول: أنّ الزيادة لا تصحّ لشذوذها، ولو صحّت لم تكن دليلاً على جواز التوسّل بذاته ﷺ، لاحتمال أن يكون معنى قوله: فافعل مثل ذلك. يعني من إتيانه ﷺ في حال حياته، وطلب الدعاء منه، والتوسّل به، والتوضّؤ، والصلاة، والدعاء الذي علّمه رسول الله ﷺ أن يدعو به. والله أعلم. (التوسّل أنواعه وأحكامه ٩٢).

(١) وقد صرّح الشوكاني باستدلاله بهذا الحديث على جواز التوسّل بالأنبياء، وبحديث استسقاء عمر بالعباس على جواز التوسّل بالصالحين في كتابه: تحفة الذاكرين ص ٤٨ وهو استدلال مردود كما سيأتي بيانه.

(٢) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة(٣٢١).

(٣) والصحيح أنّ وسيلتهم إلى الله تعالى هي دعاؤه ﷺ إلى ربّه وليست ذاته كما يفهم من الكلام، وإلاّ لما عدلوا عنه إلى غيره بعد وفاته. كما بيّنّا.

التوسّل بغيره بعد موته، بإجماع الصحابة إجماعاً سكوتيّاً، لعدم إنكار أحد منهم على عمر رضي الله عنه في التوسّل بالعبّاس رضي الله عنه.

ثمّ رجّح الشوكاني رأيه قائلاً: (وعندي لا وجه لتخصيص جواز التوسّل بالنبي ﷺ، كما زعمه الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، لأمرين:

الأوّل: ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أنّ التوسّل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسّل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلاّ بأعماله.

فإذا قال القائل: اللهمّ إنّي أتوسّل إليك بالعالم الفلاني، فهو باعتبار ما قام به من العلم، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما: أنّ النبي ﷺ حكى عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، أنّ كلّ واحد منهم توسّل إلى الله بأعظم عمل عمله، فارتفعت الصخرة[1]، فلو كان التوسّل بالأعمال الفاضلة غير جائز، أو كان شركاً كما يزعمه المتشدّدون في هذا الباب[2]. . لم تحصل الاجابة من الله لهم، ولا سكت النبي ﷺ عن انكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم)[3].

وقال رحمه الله في موضع آخر، وقد سئل عن: لو قصد الإنسان قبر رجل من المسلمين مشهور بالصلاح، ووقف لديه، وسأل الله بأسمائه الحسنى، وبما لهذا الميّت من المنزلة: (إنّه لا بأس بالتوسّل بنبيّ من

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل في صفحة(٣١٩).
(٢) تقدم أن التوسل بالأعمال الصالحة من التوسل المشروع، ولم يقل أحد من العلماء أنه شرك، أمّا التوسل بالذوات الذي تكلم عنه الشوكاني وخلط بينه وبين التوسل بالأعمال الصالحة فهو من التوسل البدعي كما تقدم، وهو مدخل إلى الغلوّ في الأنبياء والصالحين ودعائهم الاستغاثة بهم.
(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٧ ــ ٩) مكتبة الصحابة الإسلامية.

الأنبياء، أو وليّ من الأولياء، أو عالم من العلماء. . فهذا الذي جاء إلى القبر زائراً، ودعا الله وحده، وتوسّل بذلك الميّت، كأن يقول: اللهمّ إنّي أسألك أن تشفيني من كذا، وأتوسّل إليك بما لهذا العبد الصالح من العبادة لك، والمجاهدة فيك، والتعلّم والتعليم خالصاً لك، فهذا لا تردّد في جوازه)[1].

وردّ رحمه الله على المخالفين له في هذا الرأي قائلاً: (وبهذا تعلم أنّ ما يورده المانعون من التوسّل إلى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2]، ونحو قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُوْا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[3]، ونحو قوله تعالى: ﴿له دعوة الْحَقِّ وَالَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ لاَ يَسْتَجِيبُوْنَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[4] ليس بوارد، بل هو من الاستدلال على محلّ النزاع بما هو أجنبي عنه، فإنّ قولهم: (ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى) مصرّح بأنّهم عبدوهم لذلك، والمتوسّل بالعالم مثلاً لم يعبده، بل علم أنّ له مزيّة عند الله، بحمله العلم، فتوسّل به لذلك، وكذلك قوله تعالى: (فلا تدعوا مع الله أحداً) فإنّه نهي أن يدعى مع الله غيره، كأن يقول: يا الله، يا فلان، والمتوسّل بالعالم مثلاً لم يدع إلاّ الله، وإنّما وقع منه التوسّل إليه بعمل صالح عمله بعض عباده، كما توسّل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم، وكذلك قوله: (والذين يدعون من دونه الآية) فإنّ هؤلاء دعوا من لا يستجيب لهم، ولم يدعوا ربّهم الذي يستجيب لهم، والمتوسّل بالعالم مثلاً لم يدع إلاّ الله، ولم يدع غيره دونه، ولا دعا غيره معه.

وقال عن استدلال المخالفين له بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ

---

(١) المصدر السابق (ص ٨١، ٨٢).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سورة الجنّ، الآية: ١٨.
(٤) سورة الرعد، الآية: ١٤.

شَيْءٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِيْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾[2]، وقوله ﷺ لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْـرَبِيْنَ﴾: (يا فـلان بن فلان، لا أملك لك من الله شيئاً، يا فلانة بنت فلان، لا أملك لك من الله شيئاً)[3].

إنّه ليس في الآيتين منع التوسّل به، أو بغيره من الأنبياء، والأولياء، أو العلماء، وليس في الحديث إلاّ التصريح بأنّه ﷺ لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضرّه، ولا ضرّ من أراد الله نفعه، وأنّه لا يملك لأحد من قرابته فضلاً عن غيرهم شيئاً من الله، وهذا معلوم لكلّ مسلم، وليس فيه أنّه لا يتوسّل به إلى الله، فإنّ ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر والنهي، وإنّما أراد أنّ الطالب يقدّم بين يدي طلبه ما يكون سبباً للإجابة ممن هو المنفرد بالعطاء والمنع، وهو مالك يوم الدين[4].

وللردّ على رأي الشوكاني هذا أقول وبالله التوفيق:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١١٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين. ولفـظه: (قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وأنذر عشيرتـك الأقربين﴾ قـال: يا معشـر قريش، اشتـروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يـا بني عبد منـاف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عبّاس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفيّة عمّة رسول الله ﷺ، لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً (انظر الفتح ٨/ ٣٦٠ برقم ٤٧٧١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين. (١/ ١٩٢ برقم ٢٠٥، ٢٠٦) والترمذي في كتاب التفسير، باب (٢٧) وفي سورة الشعراء. (٥/ ٣٣٨، ٣٣٩ بـرقم ٣١٨٥)، والنسائي في كتـاب الوصـايا، بـاب إذا أوصى لعشيرتـه الأقربين. (٦/ ٢٤٨ برقم ٣٦٤٤ ــ ٣٦٤٨) وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٣، ٣٦٠، ٥١٩) مع وجود اختلاف في اللفظ والإسناد.

(٥) انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيـد: الشوكـاني ٩ ــ ١٢ مكتبة الصحـابة الإسلامية.

١ ــ إنّ التوسّل بذات المتوسَّل به إلى الله تعالى، أو بجاهه، أو منزلته، أو نحو ذلك، عمل غير شرعيّ، سواء كان المتوسَّل به نبيّاً من الأنبياء، أو عالماً من العلماء، لأنّه لم يأمر به الله، ولا بلّغه رسوله ﷺ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أو من بعدهم من القرون الخيرة أنّه يعمل به، إذ لو كان مشروعاً لفعلوه ولسبقونا إليه، فإذا لم يفعلوه دلّ ذلك على عدم مشروعيته.

وقد تقرّر في الكتاب والسنّة أنّ الإسلام مبنيّ على أصلين عظيمين، أحدهما: أن لا نعبد إلّا الله، والثاني: أن لا نعبده إلّا بما شرع[1]. كما تقرّر أنّ الدعاء نوع من أنواع العبادة، بل هو أجلّها وأعظمها[2]. فمن دعا المخلوقين من دون الله، واستغاث بهم، كان مشركاً به سبحانه، ومن توسّل في دعائه إلى الله بالمخلوقين، أو أقسم عليه بهم كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنّه عمل غير مشروع. وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، كما بيّنّاه، ولهذا قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف[3]. أي لا بدّ فيها من ثبوت النصّ الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها.

٢ ــ إنّ التوسّل بالنبي ﷺ الذي ورد في حديث الأعمى هو في التحقيق توسّل بدعائه وشفاعته، لا بذاته، لأنّ الأعمى طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، ليردّ الله عليه بصره[4]، فأمره النبي ﷺ أن

(١) راجع فقرة: لا تقبل العبادة إلا بشرطين. صفحة (٢٩٠).
(٢) تقدّم بيانه في صفحة (٢٩٧).
(٣) انظر قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧٠ تحقيق/ د. ربيع ابن هادي المدخلي.
(٤) راجع لفظ الحديث صفحة (٣٢٩) في الهامش، حيث قال (أي الأعمى) للنبي ﷺ: ادع الله أن يعافيني. فقال: (أي النبي ﷺ: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك»، قال (أي الأعمى): ادع لي . . . .) الحديث.

يدعو هو أيضاً، ويسأل أن يقبل الله شفاعة نبيه فيه، فقوله في دعائه: اللهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك، بنبيك محمد ﷺ. أي شفاعة نبيك بدعائه، فكان الرسول ﷺ في هذا شافعاً له بالدعاء، وهو سائل قبول شفاعة الرسول، ولهذا قال في دعائه أيضاً: «اللهم فشفّعه فيّ».

وهكذا كان توسّل الصحابة به ﷺ في حياته، فلمّا مات توسّلوا بدعاء غيره، ولم ينقل عن أحد منهم أنّه التجأ إلى قبره، وطلب منه الدعاء لقضاء حاجته، ولو كان ذلك مشروعاً لفعلوه، وأكبر دليل على ذلك وأوضحه ما ذكرناه من أثر استسقاء عمر بالعبّاس، واستسقاء معاوية والضحاك بيزيد بن الأسود، فإنّ عمر رضي الله عنه توسّل بالعبّاس لمّا أجدبوا، وقصد بذلك دعاءه، لفضله وكبر سنّه، وكذا معاوية والضحاك ومن معهما توسّلوا بيزيد لصلاحه وتقاه، ولم يتوسّلوا بالنبي ﷺ، لا عند قبره، ولا غير قبره، وكان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسّلوا به، فهذا دليل على أنّ التوسّل المشروع عندهم هو التوسّل بدعائه وشفاعته، لا السؤال بذاته أو منزلته، كما ظنّ الشوكاني وأمثاله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحديثين: يعني حديث الأعمى وحديث استسقاء عمر بالعبّاس رضي الله عنهما: (.. إنّ معنى قوله: (أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد) أي بدعائه وشفاعته، كما قال عمر: (اللهمّ إنّا كنّا إذا أجدبنا توسّلنا إليك بنبينا فتسقينا) فالحديثان معناهما واحد، فهو ﷺ علّم رجلاً أن يتوسّل به في حياته، كما ذكر عمر أنّهم كانوا يتوسّلون به إذا أجدبوا، ثمّ إنّهم بعد موته إنّما كانوا يتوسّلون بغيره بدلاً عنه، فلو كان التوسّل به حيّاً وميّتاً سواء، والمتوسِّل به الذي دعا له الرسول، كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسّل به، وهو أفضل الخلق، وأكرمهم على ربّه، وأقربهم إليه وسيلة، إلى أن يتوسّلوا بغيره ممن ليس مثله، وكذلك لو كان

أعمى توسّل به، ولم يدع له الرسول، بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة[1] أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنّهم السابقون الأوّلون المهاجرون والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسان. . . دليل على أنّ المشروع ما سألوه دون ما تركوه)[2].

وعلى هذا فإنّ استدلال الشوكاني بهذين الحديثين على جواز التوسّل بالأنبياء والصالحين استدلال مردود، وكذلك زعمه أنّ الصحابة أجمعوا عليه، وإنّما أجمعوا على التوسّل بدعاء الحيّ، كما بيناه.

٣ ـ قول الشوكاني رحمه الله: (إنّ التوسّل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسّل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة)[3] قول مردود، إذ لا علاقة بين المتوسِّل وبين أعمال المتوسَّل به، لأنّ العمل لعامله، وليس لغيره حقّ ولا نصيب فيه، وقد قرّر الله سبحانه ذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[4] فليس لأحد أن يتوسّل إلى الله بصلاح الميّت، لأنّ صلاحه من سعيه، لا من سعي المتوسَّل به.

---

(١) قال المحقق ـ حفظه الله ـ: «وقد عمي منهم جماعة ـ رضوان الله عليهم ـ منهم العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ، وابنه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وعقيل بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وعمي عتبان بن مالك في حياة رسول الله ﷺ، وكذلك ابن أمّ مكتوم (انظر قاعدة جليلة في التوسّل لابن تيمية ص ١١٥ هامش (٢) وص ٢٦٠ هامش (١).

(٢) قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لابن تيمية ٢٥٩، ٢٦٠ تحقيق: د. ربيع هادي المدخلي.

(٣) وقد صرّح أيضاً في موضع آخر من كتابه: الدر النضيد، ص ٣٧ ـ وهو في صدد الحديث عن شركيات القبوريين ـ: بأنّ التوسّل بالميّت صاحب القبر بمنزلة التوسّل بالعمل الصالح لا غير.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩، ٤٠.

يقول ابن أبي العزّ الحنفي شارح العقيدة الطحاوية[1]: (ولا مناسبة بين ذلك (أي صلاح المتوسِّل به) وبين استجابة الدعاء، فكأنَّ المتوسِّل يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجِبْ دعائي. وأيّ مناسبة في هذا، وأيّ ملازمة؟ وإنّما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿أُدْعُوْا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾[2] وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وإنّما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهّال والطرقية، والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا على الهوى والابتداع)[3].

وإذا كان لا يجوز التوسّل بصلاح الميت، فأولى ثمّ أولى ألاّ يجوز التوسّل بذاته، أمّا التوسّل بعمل المتوسِّل الصالح نفسه فهو عمل مشروع كما ذكرنا، ومن أدلّته ما ورد في قصّة أصحاب الغار الثلاثة، فإنّهم لم يتوسّلوا إلى الله بصلاح أمواتهم، وإنّما توسّلوا إلى الله بصلاح أعمالهم أنفسهم، فأجاب الله دعاءهم.

وعلى هذا فإنّ استدلال الشوكاني بهذه القصّة على ما ذهب إليه استدلال مردود، ليس له وجه من الصحّة، لأنّه يخلط بين التوسّل بعمل المتوسِّل نفسه، وبين التوسّل بعمل غيره من الأموات، ولم يفرّق بينهما، مع أنّ الفرق واضح كوضوح شمس النهار.

---

(١) علي بن علي بن محمد بن أبي العزّ الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، فقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، وامتحن بسبب اعتراضه على قصيدة علي بن أبي ايبك. له كتب مفيدة منها: شرح العقيدة الطحاوية، والاتباع. توفّي (٧٩٢ هـ) (انظر ترجمته في الدرر الكامنة: ابن حجر ٣/ ٨٧، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٦/ ٣٢٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي ٢٦٢.

وما قلناه في التوسّل بعمل الآخرين من الأموات، نقوله أيضاً في التوسّل بمنزلتهم أو جاههم، لأنّهما في حكم واحد، فإنّ الله سبحانه لم يجعل منزلة أحد من خلقه، أو جاه أحد منهم، سبباً لاجابة الدعاء، أو قضاء الحاجات، أو كشف الكربات، ولا يكون سبباً لهذه المعاني وغيرها إلاّ ما جعله الشارع، إذ لا معنى لقول الداعي: اللهمّ اقض حاجتي، لأنّ فلاناً ذو منزلة رفيعة عندك، أو فلاناً ذو جاه عظيم عندك، لأنّه لا علاقة بين منزلته وجاهه وبين إجابة دعاء هذا الداعي، إذ أنّ جاهه أو منزلته ليس من عمله، وليس له نصيب فيه، فهو إذاً بمثابة التوسّل بما لا يملكه، وبما ليس له فيه أيّة علاقة.

والوسيلة كما قال الشوكاني: (هي القرب من الله، فإنّها الوصيلة التي يتوصّل بها إلى المطلوب)[1] وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون ذات المتوسّل به الميت، أو عمله، أو منزلته، بالنسبة للداعي وسيلة توصّله إلى المطلوب؟ لأنّه ممّا اختصّ بالمتوسّل به وحده، فليس له أثر في حصول المطلوب، وإذا لم يكن له أثر لم يكن سبباً صحيحاً، والله عزّ وجلّ لا يدعى إلاّ بما يكون سبباً صحيحاً.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولا ريب أنّ لهم (أي الأنبياء والصالحين) عند الله الجاه العظيم، كما قال تعالى في حقّ موسى وعيسى عليهما السلام[2]. . . لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبّتنا لهم، فإذا توسّلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنبيّه، ومحبّته، وموالاته، واتباع سنّته، فهو من أعظم

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ١٢٥.

(٢) يقصد قوله تعالى في موسى عليه: ﴿وَكَانَ عِنْدَ الله وَجِيْهاً﴾ (سورة الأحزاب، الآية: ٦٩)، قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيْهاً فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٤٥).

الوسائل، وأمّا التوسّل بنفس ذاته مع عدم التوسّل بالإيمان به وطاعته، فلا يجوز أن يكون وسيلة)[1].

أقول: فما أيسر الأمر على الداعي إذا قال: اللهمّ إنّي أسألك بإيماني بك وبنبيّك، أو بمحبّتي لك ولنبيّك، أو باتباع سنّته كذا وكذا، بدلاً من أن يقول: اسألك بنبّيك، أو بجاه نبيّك، أو ما شابه ذلك، من الألفاظ التي لم يرد فيها دليل من الشرع.

هذا ما أردت أن أقوله في الردّ على رأي الشوكاني في الموضوع، والشوكاني رحمه الله تعالى برأيه هذا مناقض تماماً لما قرّره ودعا إليه في كثير من مؤلفاته من تصحيح الاعتقاد وتطهيره من أدران الشركيات والبدعيات، وسدّ جميع الذرائع الموصّلة إليها، وقد حمل حملاً شديداً على عبّاد القبور، والمعتقدين في الأموات، فبيّن بدعهم المنكرة، ومفاسدهم السيّئة، والآثار التي تترتّب عليها، بأساليب قويّة مختلفة، كما سيأتي تفصيله في الفصل الرابع إن شاء الله.

---

(١) قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة لابن تيمية ٢٧٥ تحقيق/ د. ربيع بن هادي المدخلي.

الفصـل الثالـث
في توحيد الأسماء والصفات

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات وأدلّته.

المبحث الثاني: منهج السلف في توحيد الأسمـاء والصفات وتقـرير الشوكاني له جملة.

المبحث الثالث: شبهة تتعلق بما في التحف من عقيدته.

المبحث الرابع: أسماء الله تعالى.

المبحث الخامس: ذكر جملة من الصّفات التي ذكرها الشوكاني.

المبحث الأول

تعريف توحيد الأسماء والصفات وأدلته

هو إفراد الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي وردت في الكتاب والسنة، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، من غير تحريف[1] لألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها[2] بنفيها أو نفي بعضها عن الله عزّ وجلّ، ولا تكييفها[3] بتحديد كنهها، أو إثبات كيفية معينة لها، ولا تمثيلها[4]، ولا تشبيهها[5] بل تمرها كما وردت مع اعتقاد مدلولها ومعانيها، على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

---

(١) التحريف: لغة التغيير، وفي الاصطلاح: تغيير النص لفظاً أو معنى، وتحريف أسماء الله وصفاته هو تغيير ألفاظها وتغيير معانيها إلى معان باطلة لا يدل عليها الكتاب والسنة. فالتحريف اللفظي مثل نصب لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ (سورة النساء، الآية: ١٦٤) ليكون التكلم من موسى، ونفي كلام الله له، والتحريف المعنوي كتحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله عز وجل إلى القوة أو النعمة وتحريف وجهه إلى ذاته وما أشبه ذلك.

(٢) التعطيل لغة التفريغ والتخلية وفي الاصطلاح إنكار ما يجب إثباته لله تعالى من الأسماء والصفات.

(٣) التكييف هو بيان كيفية صفات الله بأن يقال إن الصفة على هيئة كذا وكيفية معينة.

(٤) التمثيل هو إثبات المثيل والنظير للشيء، فتقول: هذا مثل أو مثيله ونظيره.

(٥) التشبيه هو إثبات المشابه للشيء فتقول: هذا شبه كذا. والفرق بين التمثيل والتشبيه أن التمثيل يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه والتشبيه يقتضي المشابهة في أكثر الصفات (استقيت هذه التعاريف من: التحفة المهدية للشيخ فالح بن مهدي ٢٥٩ وفتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عيثمين ٥٤، ٥٥ والعقيدة الواسطية بشرح الدكتور صالح بن فوزان ١٣، ١٤).

ويفهم من هذا التعريف أن توحيد الأسماء والصفات يتركز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخذ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ[(١)].

(أ) تنزيه الله عزّ وجلّ عن مشابهة الخلق.

وهذا الأصل يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٢)].

(ب) الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة، وعدم التعرض لنفيها. ويدلّ على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٣)].

(ج) قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيْطُوْنَ بِهِ عِلْماً﴾[(٤)].

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله هذا المعنى في مواضع مختلفة من مؤلفاته، من ذلك قوله في معرض رده على أهل الكلام:

(وقد يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه، وأنزلهما على رسوله، وهما: ﴿وَلاَ يُحِيْطُوْنَ بِهِ عِلْماً﴾[(٥)] و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٦)]، فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب، وتضمنتا بما يعين أولي الألباب السالكين في تلك الشعاب،

---

(١) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي من ٣ إلخ ط/ ١٤٠١ الجامعة الإسلامية.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

فالكلمة منها دلّت دلالة بيّنة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق، ودعاوى التحقيق، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم، ومباينة له، فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً، فمن زعم أن ذاته كذا، أو صفته كذا، فلا شك أن صحة ذلك متوقّفة على الاحاطة، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد علماً... وأما الكلمة وهي (ليس كمثله شيء) فبها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء، فيندفع بهذه الآية في وجه المجسمة، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير، وعند ذكر السمع، والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة، فتقرر بذلك لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات، فيدفع به جانبيْ الافراط والتفريط، وهما: المبالغة في الاثبات المفضية إلى التجسيم، والمبالغة في النفي المفضية إلى التعطيل، فيخرج من بين الجانبين، وغلو الطرفين أحقية مذهب السلف الصالح، وهو قولهم بإثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو، فإنه القائل: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1].

وقال رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى مخاطباً لأهل الكتاب: ﴿وَلَا تَقُوْلُوْا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ﴾[2] وهو ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل، كقول اليهود: عزير بن الله، وقول النصارى: المسيح بن الله[3].

وقال أيضاً في شرحه لحديث أعرابي، وهو يدعو في صلاته، وهو يقول: (... ولا يصفه الواصفون)[4]: أي لا يقدرون على ذلك، كما قال

(١) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٩، ١٠ ضمن الرسائل السلفية.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥٤٠.
(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٧، ١٥٨): رواه الطبراني في الأوسط،=

عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[٤] فلا أحد من عباده يقدر على احصاء الثناء عليه والوصف له، بل هو كما أثنى على نفسه[٥].

فتوحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بأن الله عزّ وجلّ متّصف بجميع صفات الكمال، ومنزّه عن جميع صفات النقص، والإيمان بكلّ ما ورد لله في كتابه وسنة نبيه من الأسماء والصفات، وإثبات ذلك دون تشبيه أو تحريف أو تعطيل.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب[٦] رحمه الله: (توحيد الأسماء والصفات: وهو الاقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر، سبحان الله عما يشركون. إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى[٧].

وقد وردت أدلة كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنّة رسوله ﷺ تدل على هذا النوع من التوحيد، بل إنه لا تخلو سورة من سور القرآن، ولا صفحة من صفحاته من ذكر صفات الله وأسمائه.

= ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبي عبد الرحمن الأذرمي، وهو ثقة.

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٦١.

(٣) من آل الشيخ، فقيه من أهل نجد، كان آية في العلم بارعاً في التفسير والحديث والفقه. وكان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، له مؤلفات مفيدة نافعة منها: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد. قتل سنة ١٢٣٣ هـ (انظر ترجمته في: هدية العارفين: البغدادي ١/ ٤٠٨ ط/ استانبول ١٩٥١ م، وعنوان المجد في تاريخ نجد: عثمان ابن بشر ١/ ٢١٢ تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف ط ٢/ ١٣٩١ هـ والأعلام: الزركلي ٣/ ١٢٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ١٩.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ، مَنْ ذَا الذِيْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ، وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا شَاءَ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ﴾[1].

هذه هي آية الكرسي التي أخبر الرسول ﷺ أنها أعظم آية في القرآن[2] وقد اشتملت على صفات وأسماء، كل منها يمثل قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية[3].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيْمُ، هُوَ اللَّهُ الَّذِيْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِيْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾[4].

ومنها قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ، لَهُ مُلْكُ السَّمُوَاتِ وَالأَرْضِ، يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ، هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ. هُوَ الَّذِيْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) روى الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل آية الكرسي (١/ ٥٥٦ برقم ٨١٠) عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري، وقال: لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٧/ ٥٠، ٥١، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢ ـ ١٩٥).

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٣، ٢٤.

خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ فِيْ سِتَّةِ أَيَّا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِيْ الأَرْضِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ، لَهُ مُلْكُ السَّمَـواتِ وَالأَرْضِ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُوْرُ، يُوْلِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُوْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَهُوَ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾[2].

قال الشوكاني: (المثل: الصفة. أي وله الوصف الأعلى[3]. وهو أضداد صفة المخلوقين من الغنى الكامل، والجود الشامل، والعلم الواسع)[4].

ومنها قوله تعالى في السورة العظيمة التي تعدل ثلث القرآن كما أخبر المصطفى ﷺ[5] وتتضمن إثبات كل كمال لله عزّ وجل، ونفي كل نقص عنه. وهو: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحد﴾[6].

فمعنى الأحد: الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل، لأنّه

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١ ــ ٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٢٢١.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ١٧٠.

(٥) فقد روي البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ يردّدها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ. فذكر ذلك له ــ وكأن الرجل يتقالّها ــ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» (الفتح ٨/ ٦٧٥ برقم ٥٠١٣ كتاب فضائل القرآن، باب فضل: ﴿قل هو الله أحد﴾.

(٦) سورة الإخلاص، الآية: ١ ــ ٤.

الكامل في جميع صفاته وأفعاله[1].

ومعنى الصمد: الذي لا جوف له، أو الذي يصمد إليه في الحاجات: أي يقصد لكونه قادراً على قضائها[2].

ومعنى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد: أي لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر عن شيء، لأنه لا يجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً، وإذا كان متّصفاً بالصفات المتقدمة، كان متّصفاً بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله، ولا يشاركه في شيء[3]. وبهذا أثبتت السورة لله تعالى جميع صفات الكمال والجلال، ونفت جميع صفات النقص عن الله عزّ وجلّ.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وكلّها دالّة على أنّ الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وله الكمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له.

أما الأحاديث التي وردت في إثبات هذا النوع من التوحيد فهي كثيرة جداً، لا تقلّ عن أحاديث الصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك من مسائل الأحكام.

منها حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي يقول فيه: «كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: باسمك أموت وأحيا، وإذا قام قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٩ ط/ دار المعرفة.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٥١٦ وانظر أيضاً التفسير الكبير لابن تيمية ٧/ ٣٠٧ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة، وتفسير ابن كثير ٤/ ٦١٠، وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا على القارىء ٢٣.

(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٥١٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب ما يقول إذا نام (الفتح ١١/ ١١٧ برقم ٦٣١٢) ومسلم في كتاب الذكر باب ما يقول عند النوم ٤/ ٢٠٨٣ برقم (٢٧١١).

وحديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً، وقال: «اللهمّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»[1].

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم»[2].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «اللهم ربّ السموات وربّ الأرض، وربّ العرش العظيم، ربّنا وربّ كل شيء، فالق الحبّ والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شرّ كل ذي شرّ أنت آخذ بناصيته، أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[3].

قال الشوكاني في شرحه للحديث: (قوله: أنت الأوّل: أي أنت القديم[4] الذي لا ابتداء له، والآخر: أي أنت الباقي بعد فناء خلقه، لا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٤ برقم (٥٩١، ٥٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء عند الكرب (الفتح ١١/ ١٤٩ برقم ٦٣٤٥، ٦٣٤٦) ومسلم في كتاب الدعاء باب الدعاء عند الكرب (٤/ ٢٠٩٢ برقم ٢٧٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الذكر باب ما يقال عند النوم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣).

(٤) ذكر العلاّمة ابن أبي العز الحنفي صاحب شرح الطحاوية أنّ «القديم» من الأسماء التي أدخلها المتكلّمون في أسمائه تعالى، وليس هو من أسمائه الحسنى، فإنّ القديم في لغة العرب هو المتقدّم على غيره، وقد وصف به في القرآن «العرجون (سورة يسٓ، الآية: ٣٩) و«الإفك القديم» (سورة الأحقاف، الآية: ١١)، و«الضلال القديم» (سورة يوسف، الآية: ٩٥) وهو مع ذلك لا يؤدّي معنى «الأول» الذي ليس قبله شيء. (شرح العقيدة الطحاوية ١١٤).

انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده، الظاهر: الذي ظهر فوق كلّ شيء الباطن الذي حجب أبصار الخلائق عن إدراكه، فليس دونك شيء أي لا يحجبه شيء عن إدراك مخلوقاته)[1].

ومنها أحاديث وردت في إثبات صفة العين[2]، واليد[3]، واليمين[4]، والكفّ[5]، والاصبع[6]، والقدم[7]، والرجل[8]، والساق[9]، والنزول[1]،

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ولتصنع على عيني. (الفتح ١٣/ ٤٠١ برقم ٧٤٠٧، ٧٤٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي. (الفتح ١٣/ ٤٠٣ برقم ٧٤١٠، ٧٤١١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي. (الفتح ١٣/ ٤٠٤ برقم ٧٤١٢)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام الفاضل (٣/ ١٤٥٨ برقم ١٨٢٧) وأيضاً (٤/ ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيّب وتربيتها (٢/ ٧٠٢ برقم ١٠١٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: لما خلقت بيدي (الفتح ١٣/ ٤٠٤ برقم ٧٤١٤، ٧٤١٥)، ومسلم في كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب كيف يشاء (٤/ ٢٠٤٥ برقم ٢٦٥٤).

(٧) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وتقول هل من مزيد. (الفتح ٨/ ٤٦٠ برقم ٤٨٤٨، ٤٨٤٩)، ومسلم في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبّارون. (٤/ ٢١٨٧ برقم ٢٨٤٨).

(٨) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: وتقول هل من مزيد. (الفتح ٨/ ٤٦٠ برقم ٤٨٥٠) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبّارون (٤/ ٢١٨٧ برقم ٢٨٤٦).

(٩) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة. (الفتح ١٣/ ٤٣١ برقم ٧٤٣٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧ ـ ١٧١ برقم ١٨٣، وأيضاً برقم ٢٩٤٠).

(١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (الفتح ٣/ ٣٥ برقم ١١٤٥)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه. (١/ ٥٢٢ برقم ٧٥٨).

والكلام[1]، والضحك[2]، والفرح[3]، وغير ذلك من الصفات التي وصف بها الرسول ﷺ ربّه في الأحاديث الصحيحة التي تلقّاها أهل المعرفة بالقبول، فهذه الصفات ونظائرها يجب الإيمان بها على أنّها صفات حقيقية لا تشبه صفات المخلوقين، وإثباتها على ما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل.

المبحـث الثانـي

منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير الشوكاني له جملة

إنّ منهج السلف في توحيد الأسماء والصفـات هو إثبـات أسماء الله تعالى وصفاته التي ورد بها الكتاب والسنة والإيمان بها من غير تأويـل ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل، وعدم البحث عن كيفيتها ولا عَن كنهها، ونفي ما نفاه الكتاب والسنة من صفات لا يجوز ولا يليق أن يوصف بها سبحانه وتعالى. وهو منهج وسط بين الجافية والغالية، بين المعطّلة من الجهمية[4]

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الربّ عزّ وجلّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. (الفتح ١٣/ ٤٨٢ برقم ٧٥١٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب الحثّ على الصدقة ولـو بشقّ تمرة، أو كلمـة طيّبة، وأنهـا حجاب من النـار. (٢/ ٧٠٣ برقم ١٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل (الفتح ٦/ ٤٧ برقم ٢٨٢٦)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين... (٣/ ١٥٠٤ برقم ١٨٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التوبة (الفتح ١١/ ١٠٥ برقم ٦٣٠٨)، ومسلم في كتابة التوبة، باب في الحضّ على التوبة والفرح بهـا (٤/ ٢١٠٢ برقم ٢٧٤٤ ـ ٢٧٤٧).

(٤) هي إحدى الفرق المنحرفة عن المنهـج القويم، نسبـة إلى الجهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ) الذي قال بالاجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلّها، وزعم أنّ الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأنّ الكفر هو الجهل به، وزعم أيضاً أنّ الجنّة والنار تبيدان وتفنيان، ونفى أسماء الله تعالى وصفـاته، وقـال بخلق القرآن. =

والمعتزلة[1] ومن سلك مسلكهم من الأشاعرة[2] وغيرهم من الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته، ويعطّلون حقائق ما وصف الله به نفسه، وما وصفه به رسوله ﷺ، وبين الممثّلة من الكرامية[3] وغلاة الرافضة[4] الذين يضربون لله عزّ وجلّ الأمثال، ويشبهونه بالمخلوقات، وكلا المذهبين مجانب للصواب، والمذهب الصحيح الذي لا معدل عنه لكلّ من يريد السير على الصراط المستقيم هو مذهب السلف الذين يؤمنون بأسماء الله وبما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ حقيقة لا مجازاً، على الوجه اللائق بكمال الله تعالى

= (انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي ١٩٩، والتبصير في الدين: الاسفراييني ١٠٧، والملل والنحل: الشهرستاني ١/٨٦ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي ٦٨، والبرهان: السكسكي ٣٤).

(١) تقدم تعريفها في باب التمهيد والمعتزلة في هذا الباب يثبتون الأسماء وينكرون جميع الصفات، ذاتية أو فعلية، بحيث لا يبقى إلاّ الوجود الذهني، فيسمّون ذلك توحيداً.

(٢) تقدم تعريفها في باب التمهيد. والأشاعرة في الجملة لا يثبتون من الصفات إلاّ سبعا، لأنّ العقل دلّ على إثباتها، ويطلقون عليها صفات المعاني، وهي: الحياة، والقدرة، والإرادة، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر. ويؤّلون بقية الصفات بتأويلات عقلية رغم ورود النصوص فيها من الكتاب والسنة، ولو اتبعوا الحق وأنصفوا لرجعوا إلى منهج أهل السنة والجماعة كما رجع إليه من ينتسبون إليه، وهو أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٣) الكرّامية هي طائفة من المرجئة أصحاب محمد بن كرّام (ت ٢٥٥ هـ) من أهل سجستان، وهم يثبتون صفات الله تعالى، إلاّ أنّهم ينتهون فيها إلى التجسيم والتشبيه، ومن عقيدتهم أنّ الإيمان هو الإقرار باللسان دون تصديق القلب، والمنافقون عندهم من المؤمنين، لأنّهم يقرّون بألسنتهم. (انظر: مقالات الإسلاميين: الأشعري ١/ ٢٥٠، والفرق بين الفرق: البغدادي ٢٠٢، والتبصير في الدين: الإسفراييني ١١١، والبرهان: السكسكي ٣٥).

(٤) تقدم تعريفها في باب التمهيد. وغلاة الرافضة منهم هم المجسّمة الذين يشبهون الله عزّ وجلّ بخلقه، وهم الهشامية الذي ينقسمون إلى فرقتين: فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم الرافض، وأخرى تنسب إلى هشام بن سالم الجواليقي. (انظر: مقالات الإسلاميين: الأشعري ١/ ٨٩، والفرق بين الفرق: البغدادي ٤٧، ٤٨ والتبصير في الدين: الإسفراييني ١١٩، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي ٦٥).

وجلاله وعزّته وعظمته، لأنّه لا يصف الله تعالى أعلم به منه، ولا يصف الله بعده من هو أعلم به من رسوله ﷺ، والله يقول عن نفسه: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾[1]. ويقول عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى﴾[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ملخّصاً مذهب السلف الصالح في هذا الباب: (فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أنّ طريق سلف الأمّة وأئمّتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع اثبات ما أثبته من الصفات، من غير الحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإنّ الله تعالى ذمّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ﴾ الآية[4] فطريقتهم تتضمّن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتاً بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[5]. ففي قوله: (ليس كمثله شيء) ردّ للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: (وهو السميع البصير) ردّ للالحاد والتعطيل)[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣، ٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٦) مجموع فتاوى: ابن تيمية ٣/ ٣، ٤.

هذا هو منهج السلف في معرفتهم لربّهم عن طريق معرفة أسمائه وصفاته التي اتّصف بها كما جاءت به الأدلّة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهو الذي عليه أئمة المسلمين من الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من علماء السلف الذين يجب علينا اقتفاء أثرهم والسير على دربهم سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين.

وإليك فيما يلي نماذج من كلام بعضهم:

١ ـ قال الإمام الأوزاعي[١] رحمه الله: (كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إنّ الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنّة من الصفات)[٢].

قلت: هذا تصريح يدلّ على إجماع التابعين المبنيّ على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصحيح السنّة في صفة الاستواء وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنّة.

والإمام الأوزاعي كما يصفه شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم: مالك بن أنس إمام أهل الحجاز،

---

(١) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي الدمشقي، عالم أهل زمانه، كان صاحب سنّة واتّباع، وله مذهب مستقلّ في الفقه، عمل به فقهاء الشام والأندلس مدة، توفّي سنة ١٥٧ هـ (انظر ترجمته في: الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم ١/ ١٨٤، وتذكرة الحفاظ: الذهبي ١/ ١٧٨، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ٧/ ١٠٧).

(٢) الأسماء والصفات: البيهقي ٥١٥ ط/ دار الكتب العلمية. وصحح ابن تيمية إسناده في الحموية الكبرى ٢٣ ط/ السلفية، والذهبي في تذكرة الحفاظ ١٨١، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥٥، وفي العلو كما في مختصره للألباني ١٣٨، وكذا ابن القيم، فقد قال: روى البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال... الخ. اجتماع الجيوش الإسلامية ٤٣ ط/ السلفية.

(٣) انظر الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية ٢٣، ٢٤.

المتوفى سنة ١٧٩ هـ، والأوزاعي إمام أهل الشام، المتوفّى سنة ١٥٧ هـ، والليث إمام أهل مصر، المتوفّى سنة ١٧٥ هـ ، والثوري إمام أهل العراق، المتوفّى سنة ١٦١ هـ، حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأنّ الله تعالى فوق العرش، وبصفاته السمعية، وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم[١] المنكر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته، ليعرف الناس أنّ مذهب السلف كان يخالف هذا.

وروى اللالكائي[٢] عن الأوزاعي قال: (كان الزهري[٣] ومكحول[٤] يقولان: أمرّوا الأحاديث كما جاءت)[٥]. أي الأحاديث في الصفات.

وقد روي مثل هذا عن وكيع[٦]، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وسفيان

---

(١) تقدّمت ترجمته في المقدّمة صفحة (١٠).

(٢) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، مفيد بغداد في وقته، من مؤلفاته العظيمة: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. توفّي سنة ٤١٨ هـ (انظر ترجمته في تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٤/ ٧٠، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ١٧/ ٤١٩).

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، الإمام العلم الحافظ، كان فقيهاً محدّثاً، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: عليكم بابن شهاب، فإنّكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. توفيّ سنة ١٢٤ هـ (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ابن خلكان ٣/ ٣١٧، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ٥/ ٣٢٦).

(٤) أبو عبد الله مكحول بن عبد الله الدمشقي، عالم أهل الشام، قال أبو حاتم: ما بالشام أحد أفقه من مكحول. توفّي سنة ١١٣ هـ وقيل غير ذلك (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ابن خلكان ٥/ ٢٨٠، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ٥/ ١٢٥).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي (٣/ ٤٣١ برقم ٧٣٥) وأوردها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٦) ط/ دار الكتب العلمية.

(٦) انظر كتاب الصفات للإمام الدارقطني (٧١ برقم ٦٢) تحقيق: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي، والعلو للذهبي (١٦٩) اختصار الألباني. ووكيع: هو وكيع بن الجراح ابن مليح بن عدي الإمام الحافظ، محدّث العراق، قال الإمام أحمد فيه: كان وكيع بن الجراح إمام المسلمين في وقته. توفّي سنة ١٩٧ هـ (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (١٣/ ٤٦٦)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (٩/ ١٤٠).

الثوري[1]، وسفيان بن عيينة[2] وغيرهم[3].

والسلف رحمهم الله يقصدون بهذا الكلام اثبات الصفات التي دلّت عليها النصوص على أساس قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[4] وعلى قول الإمام مالك وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[5] كيف استوى؟ (الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنّي لأخاف أن تكون ضالًا)[6].

وقال سفيان بن عيينة: (كلّ شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف، ولا مثل)[7].

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث، من أئمة المسلمين وأعلام الدين. توفّي سنة ١٦١ هـ (انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: الذهبي (١/ ٢٠٣)، وتهذيب التهذيب: ابن حجر (٤/ ١١١).

(٢) أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي الكوفي المحدّث، كان من الحفاظ المتقنين. قال الشافعي: ما رأيت أحداً أحسن تفسيراً للحديث منه. توفيّ سنة ١٩٨ هـ (انظر الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم ١/ ٣٢، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ٨/ ٤٥٤).

(٣) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٩٦).

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) سورة طه، الآية: ٥.

(٦) رواه الدارمي في الردّ على الجهمية (٢٨٠) ضمن عقائد السلف، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨ برقم ٦٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٨)، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٧١)، وأورده الذهبي في العو (١٤١) اختصار الألباني. قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر قول مالك: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك. (مجموع فتاوى ٥/ ٣٦٥).

(٧) رواه الدارقطني في كتاب الصفات (٧٠ برقم ٦١) تحقيق الدكتور علي بن ناصر الفقيهي، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣١ برقم ٧٣٦)، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٧١).

وقال الإمام أبو حنيفة المتوفّى سنة ١٥٠ هـ: (وما ذكر الله في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال إنّ يده قدرته ونعمته، لأنّ فيه إبطال الصفة، وهذا قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف)[١].

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة[٢]: (اتّفق الفقهاء كلّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربّ عزّ وجلّ، من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسّر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنّهم لم يصفوا ولم يفسّروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثمّ سكتوا)[٣].

٢ ـ قال الإمام الدارمي[٤] في مقدمة كتابه: الرد على الجهمية[٥]. ﴿وَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾[٦]. ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[٧] ويتكلّم، ويرضى، ويسخط، ويغضب، ويحبّ، ويبغض، ويكره، ويضحك، ويأمر،

---

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة (٥٨، ٥٩) شرح الملا علي القاريء.
(٢) محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، فقيه العراق، صنّف الجامع الكبير والجامع الصغير، توفّي سنة (١٨٩ هـ) (انظر وفيات الأعيان: ابن خلكان (٤/ ١٨٤)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (٩/ ١٣٤).
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: اللالكائي (٣/ ٤٣٢ برقم ٧٤٠).
(٤) أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، محدّث هراة، له تصانيف في الردّ على الجهمية، منها: ردّ الإمام الدارمي على بشر المريسي، والردّ على الجهمية. توفّي سنة ٢٨٠ هـ (انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: الذهبي (٣/ ٦٢١، ٦٢٢)، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (٢/ ١٧٦).
(٥) صفحة (٢٥٥، ٢٥٦) ضمن عقائد السلف.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٤.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين، والقبضتين، والقدرة، والسلطان، والعظمة، والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

٣ ــ وقال ابن خزيمة[2] في كتابه: التوحيد وإثبات صفات الربّ عزّ وجلّ[3]. عند كلامه على صفة الوجه: (فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز، وتهامة اليمن، والعراق، والشام، ومصر، مذهبنا: إنّا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقرّ بذلك بألسنتنا، ونصدّق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبّه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عزّ ربّنا عن أن يشبه المخلوقين، وجلّ ربّنا عن مقالة المعطّلين، وعزّ أن يكون عدماً كما قاله المبطلون، لأنّ ما لا صفة له عدم تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله على لسان نبيه محمد ﷺ).

وقد نهج هذا المنهج السلفي جمع كبير من العلماء المحقّقين من الفقهاء والمجتهدين والمحدّثين[4] كلّهم متّفقون على هذا المنهج، ولم

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري، الإمام الحافظ، الحجة الفقيه، كان سلفي العقيدة على طريقة أهل الحديث. له مصنّفات منها: كتاب التوحيد، وصحيح ابن خزيمة. توفّي سنة ٣١١ هـ (انظر ترجمته في: الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم (٧/ ١٩٦)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (١٤/ ٣٦٥)، وطبقات الشافعية: السبكي (٣/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) صفحة (١/ ٢٦) تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان. ط/ ١٤٠٨ هـ.

(٤) منهم على سبيل المثال: أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠ هـ) في الإبانة عن أصول =

يتكلّم أحد منهم في شيء من هذا الباب إلّا تبعاً لما قاله الله عزّ وجلّ، ولما نطق به رسوله ﷺ.

قال ابن قدامة المقدسي[1]: (وكلّ ما جاء في القرآن، أو صحّ عن المصطفى ﷺ من صفات الرحمن وجب الإيمان به، وتلقّيه بالتسليم والقبول، وترك التعرّض له بالردّ والتأويل، والتشبيه والتمثيل... وعلى هذا درج السلف وأئمّة الخلف رضي الله عنهم، كلّهم متّفقون على الاقرار، والامرار، والاثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله، من غير تعرّض

= الديانة (ص ٢٠ ــ ٢٢) تحقيق/ د: فوقية حسين محمود، والجويني (ت ٤٣٨ هـ) في إثبات الاستواء والفوقية ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٨١)، والصابوني (ت ٤٤٩ هـ) في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٣ ــ ٧) تحقيق/ بدر البدر، والبيهقي (ت ٤٥٨ هـ) في الاعتقاد (ص ٥٣)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) في التمهيد (٧/ ١٤٥)، وابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) في لمعة الاعتقاد (ص ٣ ــ ٧)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في مجموع فتاوى، المجلد الثالث والسادس، والذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في العلو (ص ١٣٥ وما بعدها) اختصار الألباني، وابن القيم (ت ٧٥١ هـ) في الصواعق المرسلة، واجتماع الجيوش الإسلامية، وابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢ هـ) في شرح العقيدة الطحاوية (ص ٩٩، ٣١٣)، وابن رجب (ت ٧٩٢ هـ) في فضل علم السلف على الخلف (ص ١٣٩، ١٤٠)، وابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ) في إيثار الحقّ على الخلق، وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) عند تفسيره للآية (٥٤) من سورة الأعراف، ومرعي بن يوسف الكرمي (ت ١٠٣٣ هـ) في أقاويل الثقات، والسفاريني (ت ١١٨٨ هـ) في لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٠ ــ ٢٢) ومحمد صديق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص ٣١، ٣٢) تحقيق د/ عاصم القريوتي.

(١) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، كان عالم الشام في زمانه، وكان ثقة حجّة نبيلاً عزيز الفضل نزها ورعا عابدا على قانون السلف، توفّي (٦٢٠ هـ) من مؤلّفاته في العقيدة: ذمّ التأويل، ولمعة الاعتقاد (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ٢٢/ ١٦٥، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ١٣٣، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٥/ ٨٨).

لتأويله، وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم، والاهتداء بمنارهم، وحذرنا المحدثات، وأخبرنا أنّها من الضلالات)[1].

وطريقة السلف في إثبات أسماء الله وصفاته بنوها على الأسس الآتية[2]:

١ ـ الإثبات:

أي أنّهم يثبتون ما دلّ عليه صريح الكتاب وصحيح السنة من أسماء الله وصفاته على ما يليق بجلاله، مع اعتقادهم أنّها دالّة على معان ثابتة كاملة في نفس الأمر، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وقد روي عن كثير من السلف ما يدلّ على أنّ مذهبهم هو الإثبات، وقد ذكرت جملة من أقوالهم، وهي تدلّ على أنّ السلف يؤمنون بكلّ ما أخبر الله به عن ذاته وأسمائه وصفاته، ولا يفرّقون بين الذات والصفات كما فعلت الجهمية والمعتزلة، كما أنّهم لا يفرّقون بينها فيثبتون البعض وينكرون الآخر كما فعلت الأشاعرة وأتباعهم.

وكلامهم في الاثبات يرتكز على قاعدتين مهمّتين ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[3] وأسوقها بالإيجاز والاختصار:

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر.

فإنّ من أثبت بعض الصفات، كالحياة، والقدرة، والارادة، ويجعل ذلك كلّه حقيقة، وينكر المحبّة، والرضا، والغضب، ويجعل ذلك مجازاً.

يقال له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته؟ بل القول في أحدهما كالقول

---

(١) لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي (ص ٤، ٧) ط/ ١٣٩٥ هـ المكتب الإسلامي.
(٢) تقدمت باختصار في تعريف توحيد الأسماء والصفات. صفحة (٣٤٤).
(٣) انظر محموع فتاوى: ابن تيمية (٣/ ١٧ ـ ٢٧)، وانظر أيضاً منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٢٠، ٢١).

في الآخر. فإن قال: إنّ إرادته مثل إرادة المخلوقين. قيل: فكذلك رضاؤه ومحبّته وغضبه، وهذا هو التمثيل.

وإن قال: إنّ له إرادة تليق به كما أنّ للمخلوقين إرادة تليق بهم. قيل له: فكذلك له محبّة تليق به، وللمخلوقين محبة تناسب حالهم، وكذلك سائر الصفات، كالرضا والغضب.

فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. يقال له: الارادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرّة.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق. قيل له: هذا غضب المخلوق.

وكذلك يلزم القول في بقيّة الصفات، فيجب أن يؤخذ الكلّ، أو يقال في الكلّ بما يقال في البعض.

وبهذه القاعدة نردّ على طوائف منحرفة في هذا الباب من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وأمثالهم.

القاعدة الثانية: القول في الصفات كالقول في الذات: فالله سبحانه وتعالى له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه صفات المخلوقين وأفعالهم.

إذ يلزم من أقرّ بأنّ لله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إنّ سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم.

فإذا قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه، فيقال له: إنف وجود الله وذاته، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه، فإن قال: لله وجود يخصّه، وذات تخصّه، لا تشبه ذوات المخلوقين. قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه.

وبهاتين القاعدتين نردّ على شبهة القائلين أن مذهب السلف هو التفويض وليس الاثبات.

٢ ـ التنزيه:

أما التنزيه فإنّ السلف يعتقدون أن الله لا يشبهه شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، فمن شبّه الله بخلقه، وألحد في أسمائه وصفاته فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه أو ما وصف الله به رسوله تشبيهاً أو تمثيلاً، (فإنّه سبحانه لا سميّ له، ولا كفؤ له، ولا ندّ له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى)[١].

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٢]: (واعلموا أنّ ربّ السموات والأرض يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يلزمه محذور أو يلزمه محال أو يؤدي إلى نقص، كلّ ذلك مستحيل عقلاً، فإنّ الله لايصف نفسه إلا بوصف بالغ من الشرف والعلوّ والكمال، ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوفين)[٣] على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[٦]، وقوله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوْا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[٧] وغيرها من الآيات التي أخبر الله فيها بأنه منزّه عن الكفؤ والمثل

---

(١) العقيدة الواسطية: ابن تيمية ١٧ شرح الدكتور صالح فوزان بن فوزان.

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي الجكني العلامة الأصولي المفسّر اللغوي صاحب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن توفي ١٣٩٣ هـ (انظر ترجمته في مقدمة أضواء البيان ١/ ٣ ـ ٦٤).

(٣) منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي ٢١.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) سورة الإخلاص، الآية: ٤.

(٦) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٧) سورة النحل، الآية: ٧٤.

والندّ والشبيه، لأنه تبارك وتعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقص فيه، ومنزّه عن أن يماثله غيره في صفات كماله.

يقول شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني[1] رحمه الله مبيّناً عقيدة أصحاب الحديث المتمسّكين بالكتاب والسنّة أنهم (يثبتون له جل جلاله منها) (أي من الصفات التي وردت في الكتاب والسنّة) ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون إنه خلق آدم بيده، كما نصّ سبحانه عليه في قوله عز من قائل: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين أو القوّتين تحريف المعتزلة والجهمية ــ أهلكهم الله ــ ولا يكيّفونهما بكيف، أو يشبّهونهما بأيدي المخلوقين تشبيه المشبّهة خذلهم الله وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه، ومنّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعليل والتشبيه، واتبعوا قول الله عزّ وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[3][4].

٣ ــ قطع الأطماع عن إدراك الكيفية والكنه:

لأنّ إدراك الكيفية مستحيل، وليس في إمكان البشر الاحاطة بذاته سبحانه وتعالى لقوله عزّ وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيْطُوْنَ

---

(١) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني، مقدم أهل الحديث في بلاده خراسان، كان على منهج أهل السنة، ويلقّب بشيخ الإسلام توفي ٤٤٩ هـ (سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٨/ ٤٠ وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٣/ ٢٨٢).

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني ٤ تحقيق بدر البدر.

بِهِ عِلْماً﴾[1] أي لا تحيط علومهم بذاته، ولا بصفاته، ولا بمعلوماته[2].

فمعرفة الكيفية لا سبيل بالوقوف عليها، فلا بد من اليأس من إدراكها، وذلك لأنّ معرفة كيفية الصفة متوقّفة على معرفة كيفية الذات، لأنّ الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها، وذات الله عزّ وجل لا يسأل عن كنهها وكيفيتها، فكذلك صفاته سبحانه لا يصحّ السؤال عن كيفياتها[3].

والواجب الذي كلّفنا به وأمرنا باعتقاده هو الالتزام بما جاءت به الأدلة الشرعية، ونهينا عن تجاوز ذلك، والخوض فيما لا علم لنا به، ولا يمكننا إدراكه، والوقوف على حقيقته، وهذا أصل معروف عند السلف رحمهم الله، فإنّهم يقرّون بكلّ ما جاء في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ بلا كيف ولا مثيل.

يقول ابن قتيبة[4] رحمه الله: (وعدل القول في هذه الأخبار أن نؤمن بما صحّ منها بنقل الثقات لها، فنؤمن بالرؤية والتجلّي، وأنّه يعجب، وينزل من السماء، وأنّه على العرش استوى، وبالنفس، واليدين، من غير أن نقول بكيفية أو بحدّ، أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت، فنرجو أن نكون في ذلك القول والعقد على سبيل النجاة غداً إن شاء الله)[5].

وقد أثر عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن كيفية استواء الله

---

(1) سورة طه، الآية: ١١٠.

(2) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٨٧.

(3) انظر منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ٢٥.

(4) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري عاش في فترة (٢١٣ ــ ٢٧٦ هـ) كان على مذهب السلف، له مؤلفات مفيدة منها: تأويل مختلف الحديث، والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية، قال الخطيب: كان ثقة دينا فاضلاً، وقال الذهبي: كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس (تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٠/ ١٧٠ وسير أعلام النبلاء: الذهبي ١٢/ ٢٩٦).

(5) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية: ابن قتيبة ٢٤٣ ضمن عقائد السلف.

عزّ وجل: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[1]. فاتّفق هؤلاء السلف على أنّ الكيف غير معلوم لنا، وأنّ السؤال عنه بدعة، ولذلك كان اعتقاد السلف في هذا الباب إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: (ومن فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، وتدبّرها حقّ تدبّرها، مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمّل معنى قوله: (وهو السميع البصير) فإنّ هذا الاثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب، فاقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجّة النيّرة والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤساء من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من المتكلّفين، ولا سيّما إذا ضممت إليه قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِهِ عِلْماً﴾[3][4].

وهذا هو المنهج القويم وهو الصواب الذي يجب على كل مسلم اتّباعه والأخذ به ولا يجوز العدول عنه والأخذ بما سواه.

وقد سلك الشوكاني رحمه الله هذا المسلك جملة لا تفصيلاً، ففي رسالته المسماة بالتحف في مذاهب السلف فصّل تفصيلاً، جميلاً عن مذهب السلف في هذا الباب، وقرّره وأثنى عليه، وذمّ على الكلام وأهله، واستنكر عليهم في مناهجهم وفيما يلي نسوق بعضاً من كلامه.

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة ٣٥٧ وانظر أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: مرعي بن يوسف الكرمي (١٢٠، ١٢١) تحقيق شعيب الأرناؤط.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٥٢٨).

قال رحمه الله: (اعلم أنّ الكلام في الآيات والأحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذيوله وتشعّبت أطرافه، وتناسبت فيه المذاهب، وتفاوتت فيه الطرائق، وتخالفت فيه النحل، وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين إلى العلم حيث أوقفهم الله، ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه، حتى تفرّقوا فرقاً، وتشعّبوا شعباً، وصاروا أحزاباً، وكانوا في البداية ومحاولة الوصول إلى ما يتصوّرونه من العامة مختلفي المقاصد، متبايني المطالب:

فطائفة ـ وهي أخفّ هذه الطوائف ـ المتكلّفة علم ما لم يكلّفها الله بعلمه إثماً وأقلّها عقوبة وجرماً، وهي التي أرادت الوصول إلى الحق، والوقوف على الصواب لكن سلكت فيه طريقة متوعّرة، وصعدت في الكشف عنه إلى عقبة كؤود[1] لا يرجع من سلكها فضلاً عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح، ومع هذا أصّلوا أصولاً ظنّوها حقّاً فدفعوا بها آيات قرآنية، وأحاديث صحيحة نبوية، واعتلوا في ذلك الدفع بشبه واهية، وخيالات مختلة[2].

وقسّم الشوكاني هؤلاء إلى طائفتين، ويقصد بهما: المعتزلة القدرية، والجبرية الجهمية، قال:

الطائفة الأولى: هي الطائفة التي غلت في التنزيه، فوصلت إلى حد يقشعر عنده الجلد، ويضطرب له القلب، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتاً أوضح من شمس النهار، وأظهر من فلق الصباح، وظنّوا هذا من صنيعهم موافقاً للحق، مطابقاً لما يريده الله سبحانه، فَضَلُّوْا الطريق المستقيم، وأضلّوا من رام سلوكها.

والطائفة الأخرى: هي الطائفة التي غلت في إثبات القدرة غلواً بلغ

---

(١) جاء في مختار الصحاح ص ٢٣٤ مادة: كأد: كؤود: أي شاقّة المصعد.

(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٢ ضمن الرسائل السلفية.

إلى حدّ أنّه لا تأثير لغيرها، ولا اعتبار بما سواها، وأفضى ذلك إلى الجبر المحض والقسر الخالص، فلم يبق لبعث الرسل وإنزال الكتب كثير فائدة، ولا يعود ذلك على عباده بعائدة، وجاءوا بتأويلات للآيات البيّنات فكانوا كالطائفة الأولى في الضلال والإضلال.

وذكر طائفة ثالثة ويقصد بها الأشاعرة توسطت ورامت الجمع بين الضب والنون[1] وظنّت أنّها وقفت بمكان بين الإفراط والتفريط، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق في زعمها وتجول على الأخرى وتصول[2] بما ظفرت به مما يوافق ما ذهبت إليه و ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوْنَ﴾[3] وعند الله تلتقي الخصوم)[4].

ثم بيّن رحمه الله مذهب الحقّ الذي يجب الأخذ به في هذه المسألة بقوله: (وإنّ الحقّ الذي لا شك فيه ولا شبهة، هو ما كان عليه خير القرون، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وقد كانوا رحمهم الله وأرشدنا إلى الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم يمرّون أدلّة الصفات على ظاهرها ولا يتكلّفون علم ما لا يعلمون، ولا يتأوّلون، وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم، والمتقرر من مذاهبهم، لا يشك فيه شاك، ولا ينكره منكر، ولا يجادل فيه مجادل)[5].

وقال رحمه الله: (إنّ مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم

---

(١) الضب: حيوان معروف، والنون: الحوت يقال: رام الجمع بين الضب والنون. ذلك لما بينهما من العداوة. (معجم التراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولد: أحمد أو سعد ٣٧).

(٢) جال يجُول، وصال يصُوْل بمعنى كَرَّ وَوَثَب (مختار الصحاح: الرازي ١٥٦ مادة: صول).

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٢.

(٤) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٢، ٣ ضمن الرسائل السلفية.

(٥) المصدر السابق ٤.

والتابعين وتابعيهم، هو إيراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها، ولا تأويل متعسّف لشيء منها ولا جبر، ولا تشبيه، ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل، وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات، تلوا عليه الدليل، وأمسكوا عن القال والقيل، وقالوا: قال الله هكذا، ولا ندري بما سوى ذلك، ولا نتكلّف، ولا نتكلّم بما لم نعلمه، ولا أذن الله لنا بمجاوزته، فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ، وحفظه التابعون عن الصحابة، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين)[1].

وقال رحمه الله مقرّراً المنهج السلف في الإثبات مع التنزيه: (إنّ الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[2] يستفاد بها نفي المماثلة في كلّ شيء، فيدفع بهذه الآية في وجه المجسّمة، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع البصير، وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه الكتاب والسنة، فتقرّر بذلك الإثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات، فيدفع به جانبي الافراط والتفريط، وهما المبالغة في الاثبات المفضية إلى التجسيم، والمبالغة في النفي المفضية إلى التعطيل، فيخرج من بين الجانبين وغلوّ الطرفين أحقّية مذهب السلف الصالح، وهو قولهم بإثبات ما أثبته لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه إلا هو)[3].

وقال في قطع الأطماع عن إدراك الكيفية المستنبط من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِهِ عِلْماً﴾[4] إنّه لم يحط بفائدة هذه الآية ويقف عندها،

(١) المصدر السابق ٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية.
(٤) سورة طه، الآية: ١١٠.

ويقتطف من ثمراتها إلا الممرّون الصفات على ظاهرها، المريحون أنفسهم من التكلّفات والتعسّفات والتأويلات والتحريفات، وهم السلف الصالح كما عرفت، فهم الذين اعترفوا بالاحاطة[1]، وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله، وقالوا: الله أعلم بكيفية ذاته، وماهية صفاته، بل العلم كلّه له[2].

وقد ذمّ الشوكاني رحمه الله علم الكلام وأهله[3] وبيّن بدعتهم في ردّ الآيات والأحاديث التي تخالف عقولهم المريضة، فذكر أنّ كلّ قول من أقوالهم صادر عن جهل، ولا سيّما إذا كان في ذات الله وصفاته، فإنّ ذلك من المخاطرة في الدين ما لم يكن في غيره من المسائل[4]. وذكر أنّ من أشنع بدعهم وأفظعها أنهم بعد أن جعلوا هذه التعقّلات التي تعقّلوها على اختلافهم فيها وتناقضهم في معقولاتها أصولاً تردّ إليها أدلّة الكتاب والسنة جعلوها معياراً لصفات الرب تعالى، فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزماً، وما تعقله خصمه منها قطع به، فأثبتوا لله تعالى الشيء ونقيضه استدلالاً بما حكمت به عقولهم الفاسدة وتناقضت في شأنه، ولم يلتفتوا إلى ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقلوه جعلوه مؤيداً له ومقوّياً، وقالوا قد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل، ومتشابهاً، وغير معقول المعنى، ولا ظاهر الدلالة، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم، فافترى على عقله بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه، وجعل ذلك أصلاً يردّ إليه أدلّة الكتاب والسنة، وجعل المتشابه عند أولئك محكماً عنده، والمخالف لدليل العقل عندهم موافقاً عنده، فكان حاصل

---

(١) لعلّ الصواب: عدم الإحاطة.

(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٩، ١٠ ضمن الرسائل السلفية.

(٣) انظر أيضاً أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني ١٤٦، ١٤٧ تحقيق محمد عثمان الخشت.

(٤) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٩ ضمن الرسائل السلفية.

كلام هؤلاء أنّهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه، وكفاك هذا، وليس بعده شيء)[1].

وذكر رحمه الله مثالاً لما يقوله كثير من المتكلّمين في وصف الله تعالى ويذكرونه في مؤلّفاتهم، ويحكونه عن أكابرهم: (إنّ الله سبحانه وتعالى تنزّه وتقس، لا هو جسم، ولا هو جوهر، ولا عرض، ولا داخل العالم، ولا خارجه)[2] فاستنكر عليهم قائلاً: فأنشدك الله، أيّ عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي؟ وأيّ عبارة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة، فكأنّ هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل، كما قال القائل:

فكنت كالساعي إلى مِثْعَب ... مَوائلا من سُبل الراعد[3][4]

وهكذا اشتدّ إنكار الشوكاني على المتكلّمين ومناهجهم، وقرّر أنّ المذهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تكلّف ولا تعسّف ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل[5]. وأنّ هذا المسلك القويم هو مسلك السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فلم يكلّف الله أحداً من عباده أن يعتقد أنه جلّ جلاله متّصف بغير ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ومن زعم أنّ الله سبحانه تعبّد عباده بأن يعتقدوا أنّ صفاته الشريفة كائنة على الصفة التي يختارها طائفة من طوائف المتكلّمين،

---

(١) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية.
(٢) انظر مثلاً: المواقف في علم الكلام للإيجي ٢٧٣، ٢٧٤ والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ٢٨، ٢٩.
(٣) المثعب: مسيل الحوض، أو السطح الذي يتفجّر منه الماء، والموائل: طالب النجاة، وهذا المثل يضرب لمن يهرب من شيء فيقع في أشرّ منه.
(٤) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٨، ٩ ضمن الرسائل السلفية.
(٥) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية.

فقد أعظم على الله الفرية، بل كلّف عباده أن يعتقدوا أنّه ليس كمثله شيء، وأنّهم لا يحيطون به علماً[1].

المبحث الثالث

شبهة تتعلّق بما في التحف من عقيدته

قد توهم بعض عبارات الشوكاني في التحف أنّه مفوّض. كقوله: (امرار أدلة الصفات على ظاهرها)[2]، وقوله: (يمرّون أدلّة الصفات على ظاهرها، ولا يتكلّفون علم ما لا يعلمون، ولا يتأوّلون)[3]، وقوله: (إنّ المذهب الحق في الصفات هو امرارها على ظاهرها، من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تكلّف، ولا تعسّف، ولا جبر، ولا تشبيه، ولا تعطيل)[4]، وكقوله عن الاستواء: (فالسلامة والنجاة في امرار ذلك على الظاهر، والاذعان بأنّ الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة، من دون تكييف، ولا تكلّف، ولا قيل، ولا قال)[5]. حيث أنّه لم يصرّح تصريحاً بفهم معاني الصفات، غير أنّ هناك أدلّة كثيرة تدلّ عليه.

فالذي أراه من خلال تتّبعي لكلامه أنّه ليس من أهل التفويض[6]. وذلك لما يأتي:

١ ـ إنّ عبارة الشوكاني: امرار أدلّة الصفات على ظاهرها من غير

---

(١) كشف الشبهات عن المشتبهات: الشوكاني ١٨ ضمن الرسائل السلفية.
(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٤.
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.
(٤) المصدر السابق ٨.
(٥) المصدر السابق ١٢.
(٦) إلّا فيما يتعلّق بصفة: المعية. حيث توقّف عن تفسيرها بمعيّة العلم، وزعم أنّ هذا التفسير شعبة من شعب التأويل التي تخالف مذهب السلف، كما سيأتي تفصيله في صفحة (٤٦٦).

تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ليست عبارة جديدة، لأنّه سبقه بهـا بعض علمـاء السلف عنـدمـا تحـدّث عن آيـات وأحـاديث الصفات، كما ذكرنا. والمراد من هذه العبارة هو الاثبات بعينه، لأنّ هذه النصوص جاءت بالإثبـات، على أساس قـوله تعـالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُـوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْـر﴾[1] وعلى قول الإمـام مالك وشيخه ربيعة رحمهما الله في الاستواء: أنّه معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة[2]. أي معلوم معناه من لغة العرب، أمّا التفويض فهو في الكيفية، لا في المعنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فقول ربيعة ومالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان بـه واجب». موافق لقول الباقين: «أمروها كما جاءت بلا كيف». فإنّما نفوا علم الكيفية، ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم آمنوا باللفظ المجرّد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول». ولما قالوا: «أمروها كما جـاءت بلا كيف». فـإنّ الاستواء حينئـذ لا يكون معلوماً، بل مجهول بمنزلة حروف المعجم، وأيضاً فإنّه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنّما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات. وأيضاً فإنّ من ينفي الصفات الخبرية[3] أو الصفات مطلقاً لا يحتاج أن يقول: بلا كيف. فمن قال: إنّ الله ليس على العرش. لا يحتاج أن يقول: بلا كيف. فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا: بلا كيف. وأيضاً فقولهم: «أمرّوها كما جاءت». يقتضي ابقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنّها جاءت ألفاظ دالّة على معاني، فلو كـانت دلالتها

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سبق تخريجه في صفحة (٣٥٧).

(٣) في الأصل: الجزئية. ولعل الصحيح ما أثبته.

منتفية لكان الواجب أن يقال: أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنّ المفهوم منها غير مراد، أو أمرّوا لفظها مع اعتقاد أنّ الله لا يـوصف بما دلّت عليـه حقيقة. وحينئذ تكون قد أمرت كمـا جاءت، ولا يقـال حينئذ: بـلا كيف. إذ نفي الكيف عمّا ليس بثابت لغو في القول)[1].

٢ ـ إنّ الشوكاني رحمه الله تعالى صـرّح بإثبـات الصفات في عـدّة مواضع: كقوله عن مذهب السلف في صفة الاستواء: (نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه، على هيئة لا يعلمها إلاّ هو، وكيفية لا يدري بها سواه، ولا نكلّف أنفسنا غير هذا، فليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاتـه، ولا يحيط عباده بـه علماً)[2].

وقوله عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير، وعند ذكر السمع والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك، مما اشتمل عليه الكتاب والسنـة: (الاثبات لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات)[3].

وكقوله عن مذهب السلف في الصفات: (إثبات ما أثبته (الله) لنفسه من الصفات، على وجه لا يعلمه إلاّ هو، فإنّه القائل: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[4].

فمثل هذه العبارات لا تدلّ إلاّ على إثبات معاني الصفّات، أمّا كيفيتها فلا يعلمها إلاّ الله. وقد جمع في هـذه العبارات بين الاثبـات: أي إثبات معاني الصفات كما تقتضيه معرفة اللغة العربية، على وجه اللائق به سبحانه،

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية ٢٥ ط/ السلفية.
(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١١ ضمن الرسائل السلفية.
(٣) المصدر السابق ١٠.
(٤) المصدر السابق ١٠.

وبين التنزيه: أي تنزيه الله سبحانه عن المماثلة للمخلوقات، على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

وقد استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية مثل هذه العبارات في كتبه، كقوله رحمه الله: (إنّ طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته (الله) من الصفات من غير تكييف، ولا تمثيل، ومن غير تحريف، ولا تعطيل)[2].

وقوله نقلاً عن أبي سليمان الخطّابي[3] قال: (فأمّا ما سألت عنه من الصفات، وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإنّ مذهب السلف إثباتها واجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها)[4].

والمعروف أنّ السلف يثبتون الصفات إثباتاً حقيقياً وفق ما تضمّنته النصوص من معنى، مع القطع بعدم المشابهة في ذلك بين صفات الخالق وصفات المخلوق، أمّا المفوّضة فإثباتهم للصفات ليس إثباتاً حقيقياً، لأنّهم يثبتون اللفظ فقط دون معناه، ويقولون إنّ الظاهر منها غير مراد، وإنّه من المتشابهات التي يجب تفويض معرفتها إلى الله تعالى، وهذا المعنى من التفويض واضح فيما قاله الإمام السيوطي[5] رحمه الله عن مذهب التفويض، وقد زعم أنّه مذهب السلف: (وجمهور أهل السنة، منهم السلف وأهل

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) التحفة المهدية شرح التدمرية ٣٠، وانظر مجموع فتاوى (٣/ ٣).
(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (١٨٧).
(٤) الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية ٣٤.
(٥) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الحضيري السيوطي، من الأئمة الحفاظ ومن المؤرخين والأدباء، نافت مؤلفاته عن ٦٠٠ مؤلف، بين مؤلف في عدة مجلدات، ومؤلف لا يتجاوز الكراسة. توفّي (٩١٠ هـ) (انظر ترجمته في: الضوء اللامع للسخاوي ١/ ٥، ٢/ ٩، ٤/ ٦٥ والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٣٢٨، والأعلام للزركلي ٣/ ٣٠١).

الحديث، على الإيمان بها، وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى ولا نفسّرها، مع تنزيهنا له عن حقيقتها)[1].

والتفويض بهذا المعنى هو التفويض المطلق الذي أنكره السلف، فنسبته إليهم خطأ، لأنّ تفويض السلف كما ذكرنا تفويض الكيفية، مع فهم معاني النصوص وتعقّلها، وهذا ما يدين الله به السلف قديماً وحديثاً.

ولعلّ الشوكاني رحمه الله في رسالته التحف لم يكن من أهل التفويض بالمعنى الأوّل، لأنّه:

(أ) أنكر على من نفى ما وصف الله به نفسه، ووصفه به نبيه ﷺ، وأثبت أنّ الله سبحانه في سمائه، مستو على عرشه، بائن من خلقه[2].

(ب) أثبت صفة الاستواء والعلوّ لله تعالى بالكتاب والسنّة، وكذلك بالفطرة، إذ قال: (. . . بل هذا مما يجده كلّ فرد من أفراد الناس في نفسه، ويحسّه في فطرته، وتجذبه إليه طبيعته، كما تراه في كلّ من استغاث بالله سبحانه وتعالى، والتجأ إليه، ووجّه أدعيته إلى جانبه الرفيع، وعزّه المنيع، فإنّه يشير عند ذلك بكفّه، أو يرمي إلى السماء بطرفه، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء، وحدوث بواعث الاستغاثة. . . عالم الناس وجاهلهم، والماشي على طريقة السلف، والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأنّ الاستواء هو الاستيلاء)[3].

وهذا الكلام مما يدلّ على أنّ الشوكاني يفهم معنى صفة الاستواء، والعلوّ، وأنّه أثبتها على ظاهرها، على كيفية لا يعلمها إلاّ الله، وهو بهذا سلفي لا

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: السيوطي (٣/ ١٢) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ونقل السيوطي أيضاً هذا الرأي عن الرازي.
(٢) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (ص ١) ضمن الرسائل السلفية.
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

مفوّض، إلاّ في صفة المعية، كما سيأتي بيانه. وقد فسّر كلمة الاستواء الواردة في الآيات بأنّها العلوّ والاستقرار، وقال: وهذا المعنى هو المناسب للآية(١). كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

(ج) أثبت رحمه الله صفة السمع، والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك لله تعالى، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات(٢). والمراد إثبات معانيها على ظاهرها، إذ لا يحتاج إلى نفي المماثلة والمشابهة للمخلوقات إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، فنفي المماثلة أو الكيف عمّا ليس بثابت لغو من القول، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

(د) عندما تحدّث رحمه الله عن صفة الاستواء والجهة (أي العلوّ) ذكر أنه وقف على كتاب العلوّ للحافظ الذهبي، وذكر أنّ الذهبي استوفى فيه كلّ ما فيه دلالة على الموضوع من كتاب وسنّة وقول صاحب(٣).

ولا يخفى على من اطلع على هذا الكتاب أنّ الذهبي قد جمع فيه كثيراً من الأحاديث والآثار التي توضّح ما ذهب إليه سلف الأمّة. والشوكاني مع وقوفه على هذا الكتاب فقد وقع في خطأ في فهم نصوص المعيّة، كما سيأتي تفصيله.

٣ ــ وممّا أيّدني فيما ذهبت إليه قول الشوكاني عن مذهب السلف:

(إيراد أدلّة الصفات على ظاهرها، من دون تحريف، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تعطيل. وقال: وإن أراد السائل أن يظفر منهم (أي السلف) بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه)(٤).

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٦٠) وانظر أيضاً (٢/ ٢١١، ٣/ ٣٥٧، ٤/ ٥٠٧، ٥٠٨، ٥/ ١٠٥).

(٢) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠.

(٣) انظر المصدر السابق ١١.

(٤) المصدر السابق ٥.

ولعلّ المراد بالظاهر: هو المعنى الظاهر من النصوص، والزيادة عليه: هي الكيفية، فالسلف يمرّون كيفية الصفات، لا معناها، وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنّ ظاهر الكلام هو ما يسبق إلى العقل السليم منه لمن يفهم بتلك اللغة)(١).

٤ ــ اشتدّ إنكار الشوكاني رحمه الله على المتكلّمين قولهم في وصف الله: «إن الله سبحانه وتعالى وتنزّه وتقدّس لا هو جسم، ولا هو جوهر، ولا عرض، ولا داخل العالم، ولا خارجه»(٢).

قال: (فأنشدك الله، أيّ عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي؟ وأيّ مبالغة في الدلالة على هذا النفي تقوم مقام هذه المبالغة؟ فكأنّ هؤلاء في فرارهم من شبهة التشبيه إلى هذا التعطيل)(٣).

فهذا يفيد أنّ الشوكاني أثبت صفات الباري عزّ وجلّ على حقيقتها، من غير تشبيه ولا تعطيل.

٥ ــ قال رحمه الله ردّاً على منهج المتكلّمين في صفات الربّ تعالى: «إنّهم لم يلتفتوا إلى ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، بل إن وجدوا ذلك موافقاً لما تعقّلوه جعلوه مؤيّداً له ومقوّياً، وقالوا وقد ورد دليل السمع مطابقاً لدليل العقل، وإن وجدوه مخالفاً لما تعقّلوه جعلوه وارداً على خلاف الأصل، ومتشابهاً، وغير معقول المعنى، ولا ظاهر الدلالة»(٤).

والمفهوم من هذا الكلام أنّ الشوكاني ينكر أن تكون نصوص الصفات

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٦/ ٣٥٦).
(٢) انظر المواقف في علم الكلام للإيجي ٢٧٣، ٢٧٤، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ٢٨، ٢٩.
(٣) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٩ ضمن الرسائل السلفية.
(٤) المصدر السابق ٧.

من المتشابهات، كما ينكر أن تكون **غير معقولة المعنى، ولا ظاهرة الدلالة**. أي بمعنى أنّ معنى الصفات **معقول** ومفهوم، أمّا كيفيتها وماهيتها **فغير معقولة** وغير مفهومة، لأنّه لا يعلمها إلاّ الله.

وهذا كما قال رحمه الله عن منهج السلف: (إنّهم اعترفوا بالاحاطة[1]، وأوقفوا أنفسهم حيث أوقفها الله، وقالوا: الله أعلم بكيفية ذاته وماهية صفاته)[2] ولم يقل رحمه الله: ومعاني صفاته. لأنّها معلومة غير مجهولة، كما قال الإمام مالك رحمه الله في الاستواء.

هذا ما فهمته ممّا يتعلّق بمنهج الشوكاني في رسالته: التحف. لكن هل طبّق هذا المنهج في جميع كتبه؟

الجواب أنّه لم يلتزم بهذا المنهج في جميع كتبه، بل أوّل كثيراً من الصفات الخبرية من خلال تفسيره لآيات الصفات، كما سيأتي تفصيله. وهذا مما يدلّ على أنّه رحمه الله مضطرب غير ثابت في هذا الباب، وقد أثبت بعض الباحثين أنّ رسالته التحف ألّفت سنة (١٢٢٨ هـ) قبل فراغه من تأليف فتح القدير سنة (١٢٢٩ هـ) كما سأوضّحه في آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

ولعلّ الشوكاني بهذا الموقف لم يطّلع اطّلاعاً واسعاً على كتب السلف في هذا الباب، خاصّة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، إذ لو اطّلع عليها اطّلاعاً واسعاً لما وقع في هذا الاضطراب، ويدلّني على ذلك أنّي لم أجد نقوله منهما أو إشارته إليهما عند كلامه عن الصفات، لا في تفسيره، ولا في رسالته التحف، مع أنّي وجدت نقوله عنهما في مواضع متعدّدة من مؤلّفاته في الباب الآخر، خاصّة في توحيد الألوهية[3]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) لعلّ الصواب: عدم الإحاطة.

(٢) المصدر السابق ٩، ١٠.

(٣) انظر مثلاً: نقوله عن شيخ الإسلام ابن تيمية في: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (ص ٦، ٧٤ ــ ٧٧)، وفي: الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب=

المبحث الرابع

أسماء الله تعالى

إنّ أسماء الله تعالى أعلام عليه، أخبرنا بها الله في كتابه، والرسول ﷺ في سنّته، وكل اسم من هذه الأسماء يدلّ على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم منها مشتقّ من مصدره، كالعليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، فالعليم مشتقّ من العلم، وهو يدلّ على صفة العلم لله سبحانه، والسميع مشتقّ من السمع، وهو يدلّ على صفة السمع لله سبحانه، وكذلك بقية الأسماء.

أسماء الله كلّها حسنى:

وقد ورد في القرآن الكريم عدّة نصوص تدلّ على أنّ أسماء الله كلّها حسنى، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا، وَذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[١].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوْا اللَّهَ أَوِ ادْعُوْا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوْا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٢].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣].

وقوله عزّ وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٤].

= الاتحاد الذي ألّفه في عنفوان شبابه (ورقة ٦، ٧، ١٣، ١٤) (مخطوط)؛، وعن ابن القيم في: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (ص ٦٨ ــ ٧٤)، وقطر الولي على حديث الوليّ (ص ٣٢٧)، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ (ص ١٠، ١١) (مخطوط).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة طه، الآية: ٨.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

وقد تناول الشوكاني رحمه الله الحديث عن أسماء الله في غير موضع من مؤلّفاته، ففي قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قال: (ومعنى حسن الأسماء استقلالها بنعوت الجلال والاكرام)[1].

وقال في تفسيره لقوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى).

(هذه الآية مشتملة على الاخبار من الله سبحانه بمَا لَهُ من الأسماء على الجملة دون التفصيل، والحسنى تأنيث الأحسن أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمّى وأشرف مدلول)[2]. وهو الله سبحانه وتعالى. ولذلك أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعي بأحسن أسمائه (وأسماؤه كلّها حسنى) كان ذلك من أسباب الاجابة، وقد ثبت في الصحيح: أنّ لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)[3].

وقال في موضع آخر وهو يتحدّث عن الذكر في الركوع والسجود: (وقد تقرّر أن له تسعة وتسعين اسماً بالأحاديث الصحيحة، وأن له أسماء متعددة بصريح القرآن[4]: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[5] فامتثال ما في الآيتين يعني آية: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[6]. وآية: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[7]

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٦٥.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٦٨.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٦٨)، الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب أن لله مائة اسم إلا واحد (الفتح ١٣/ ٣٨٩ برقم ٧٣٩٢) وزاد في بعض الروايات: وهو وتر يحبّ الوتر (انظر الفتح (١١/ ٢١٨ برقم ٦٤١٠) ومسلم في كتاب الذكر: باب أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٤/ ٢٠٦٢ برقم ٢٦٧٧) وغيرهما.
(٤) سيأتي بيانه أن أسماء الله غير محصورة في عدد معيّن بصريح الحديث (ص ٣٨٩).
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٦) سورة الواقعة، الآية: ٦٩.
(٧) سورة الأعلى، الآية: ١.

يحصل بالمجيء بأي اسم منها. مثل: سبحان ربّي، وسبحان الله، وسبحان الأحد، وغير ذلك)[1].

وقال رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2]:

(الاستفهام للانكار، والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة لـه سبحانـه، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة، وتخلص له، هذا مبنيّ على أنّ المراد بالسميّ هو الشريك في المسمّى، وقيل المراد به: الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل المعنى: أنه لم يسمّ شيء من الأصنام ولا غيرها بالله قط، يعني بعد دخول الألف واللام التي عوّضت عن الهمزة ولزمت، وقيل المراد: هل تعلم أحداً اسمه الرحمن غيره.

ونقل عن الزجاج[3]: قال: (تأويله ـ والله أعلم ـ هل تعلم له سميّاً يستحقّ أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون). قال الشوكاني: (وعلى هذا لا سميّ لله في جميع أسمائه، لأنّ غيره وإن سمّي بشيء من أسمائه، فلله سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الانكار هنا نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله)[4].

قلت: إنّ تسمية الخلق ببعض أسماء الله عزّ وجلّ لا يقتضي تشبيهاً أو تمثيلاً، لأنّ معناها في حقّ الله عزّ وجلّ على ما يليق بجلاله وعظمته وفي حقّ خلقه على ما يليق بهم.

وقد أثبت الشوكاني كغيره من علماء أهل السنة أسماء الله تعالى كما

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني ٣/ ٨٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٠٧).
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٤٣.

جاءت في كتاب الله وفي سنّة نبيه ﷺ، وأثبت ما دلّت عليه من الصفات الكمالية، لأنّ أسماء الله تعالى دالّة على صفات كماله، فهي مشتقّة من الصفات، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني لها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على مدح ولا كمال.

فقال مثلاً في ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيم﴾:

(اسمان مشتقّان من الرحمة على طريق المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا)[1].

وقال في معنى اسم ﴿الحَيُّ والقَيُّومُ﴾: (الحيّ: الدائم الحياة، والقيوم: القائم بأمور خلقه)[2].

وقال في معنى اسم ﴿الغَنِيّ﴾: (أي المستغني عن كل شيء)[3] لا يحتاج إلى خلقه ولا إلى عبادتهم، (لا ينفعه إيمانهم ولا يضرّه كفرهم)[4].

وقال في معنى اسم ﴿الْعَلِيْم﴾: (أي العالم بكل معلوم)[5] (وأن علم الله عزّ وجلّ عن يقين، فهو العالم بخفيات الأمور ودقائقها، كما يعلم بظواهرها وجلياتها)[6].

وقال في معنى اسم ﴿القُدُّوس﴾: أي الطاهر من كل عيب المنزّه عن كل نقص.

و﴿السَّلَام﴾: أي الذي سلم من كل نقص وعيب، وقيل الذي سلم الخلق من ظلمه.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٨.
(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧٢.
(٣) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٦٤.
(٥) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧١.
(٦) المصدر السابق: ٣٦١.

و ﴿الْمُؤْمِنُ﴾: أي الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصدّق لرسله بإظهار المعجزات، وقيل: المصدّق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدّق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب.

و ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾: أي الشهيد على عباده بأعمالهم الرقيب عليهم.

و ﴿الْعَزِيزُ﴾: أي الذي لا يوجد له نظير، وقيل: القاهر والغالب على المغلوب.

و ﴿الْجَبَّارُ﴾: جبروت الله عظمته، ويجوز أن يكون من جبره على كذا إذا أكرهه على ما أراد، فهو الذي جبر خلقه على ما أراد منهم.

و ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾: أي الذي تكبّر عن كل نقص، وتعظّم عما لا يليق به.

و ﴿الْخَالِقُ﴾: أي المقدّر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته.

و ﴿الْبَارِئُ﴾: أي المنشىء المخترع للأشياء الموجد لها.

و ﴿الْمُصَوِّرُ﴾: أي الموجد للصور المركب لها على هيئات مختلفة، فالتصوير مترتب على الخلق والبراية وتابع لهما.

و ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: أي الغالب لغيره الذي لا يغالبه مغالب، الحكم في كل الأمور التي يقضي بها[1].

وقال في معنى اسم ﴿الْمُقَدِّمِ والمُؤَخِّرِ﴾: المقدّم: الذي يقدّم بعض الأشياء على بعض. والمؤخّر: الذي يؤخّر بعضها عن بعض[2]. ونقل عن البيهقي قال: أي قدّم من شاء بالتوفيق إلى مقامات السابقين، وأخّر من شاء عن مراتبهم. وقيل: قدّم من أحبّ من أوليائه على غيرهم من عبيده، وأخّر

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٠٧، ٢٠٨ وانظر أيضاً تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧١.

(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧٢.

من أبعده عن غيره، فلا مقدّم لما أخّر، ولا مؤخّر لما قدّم)[1].

وهكذا كل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى لها معانيها، وهي صفات كماله جل وعلا، خلافاً لما ذهب إليه المعتزلة الذين أثبتوا لله أسماء مجرّدة عن المعاني والأوصاف، وزعموا أن الله سميع بلا سمع، عليم بلا علم، وهكذا إلى آخر الصفات. والجهمية الذين نفوا ثبوت الأسماء والصفات ليزعموا تصوّر وجود ذات مجرّدة عن الأسماء والصفات معاً، وهو من أفسد مزاعمهم لأنه ضرب من المحال[2].

الإلحاد في أسماء الله تعالى:

ونفي معاني أسماء الله الحسنى من أعظم الالحاد فيها. قال تعالى: ﴿وَذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[3] ولأنّها لو لم تدلّ على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لكنّ الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُوْ الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ﴾[4] فعلم أن القويّ من أسمائه، ومعناه: الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيْعاً﴾[5] فالعزيز من له العزّة، فلولا ثبوت العزّة والقوّة له لم يسمّ قويّاً ولا عزيزاً، وأيضاً لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال: يسمع، ويرى، ويعلم، ويقدر، ويريد فإنّ ثبوت أحكام الصفات فرع من ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات

---

(1) نيل الأوطار: الشوكاني ٣/ ٢٨.

(2) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي ٩٣، ١٩٩، ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٣/ ٨، ومنهاج السنة: ابن تيمية ٢/ ٥٨٤ ومختصر الصواعق المرسلة: ابن القيم ٢٩٧، ٢٩٨.

(3) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(4) سورة الذاريات، الآية: ٥٨.

(5) سورة فاطر، الآية: ١٠.

معان وأوصاف لكانت جامدة، كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسمّاها باعتبار معنى قام به، فكانت كلّها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، وهذه مكابرة صريحة وبهت بيّن، فإنّ من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع»، ومعنى اسم «التوّاب» هو معنى اسم «المنتقم»، ومعنى اسم «المعطي» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة[1].

وقد ذمّ الشوكاني رحمه الله الإلحاد في أسماء الله وحذّر منه، فذكر رحمه الله معنى الإلحاد في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ أَسْمَائِهِ﴾ وذكر أنواعه. قال:

(الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال: لحد الرجل في الدين وألحد: إذا مال ومنه اللحد في القبر، لأنّه في ناحية، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه: أمّا بالتغيير، كما فعله المشركون، فإنّهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان. أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض)[2].

وأزيد عليه التعطيل من معانيها وحقائقها، كقول المعتزلة: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، وإنكارها كلّية كقول الجهمية. وهما من أعظم أنواع الإلحاد في أسمائه تعالى كما تقدّم.

طريقة اثبات أسماء الله:

وطريقة إثبات أسماء الله تعالى عند أهل السنة طريقة التوقيف، لأنّها توقيفية، أي ليس هناك وسيلة لمعرفة أسماء الله إلاّ عن طريق الكتاب

---

(١) انظر مدارج السالكين: ابن القيم (١/ ٣٧، ٣٨) دار الكتب العلمية.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٦٨).

والسنّة[1] فلا يجوز لأحد أن يشتقّ من الأفعال الثابتة لله أسماء إلّا إذا ورد بها نصّ، إمّا في كتاب الله أو في سنّة رسوله ﷺ. لأنّ الله أعلم بنفسه من خلقه، ولأنّ رسوله ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى.

ولم أقف على كلام الشوكاني في بيان طريقه لإثبات أسماء الله إلّا موضعاً واحداً وهو عند شرحه لحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: لا ومقلّب القلوب»[2]. إذ قال: (والمراد بتقليب القلوب: تقليب أحوالها، لا ذواتها، وفيه جواز تسمية الله بما ثبت من صفاته على وجه يليق به)[3].

والظاهر من هذا الكلام أنّ الشوكاني لم يسلك مسلك التوقيف في إثبات أسماء الله تعالى، لأنّه أجاز تسمية الله بما ثبت من صفاته، سواء ورد التوقيف بها أو لم يرد. وهذا مسلك غير صحيح، لأنّ الأسامي التي قد تطلق على الله تعالى عن هذا الطريق قد لا تكون لائقة المعنى بالنسبة لله تعالى، كأن يجعل من أسمائه الحسنى: المضلّ، والفاتن، والماكر، والمستهزىء، والساحر، مثلاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإنّ هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلّا أفعال مخصوصة معيّنة، فلا يجوز أن يسمّى بأسمائها المطلقة[4]. ويكفينا الاقتصار على الوحي، فلا نطلق عليه سبحانه وتعالى إلّا

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٣/ ٣، ٤، ٥/ ٥٧) وبدائع الفوائد: ابن القيم (١/ ١٨٣) مكتبة القاهرة، والفتح: ابن حجر (١١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب يحول بين المرء وقلبه (الفتح ١١/ ٥٢١ برقم ٦٦١٧) وأبو داود في الأيمان والنذور، باب ما جاء في يمين النبي ﷺ (٣/ ٥٧٦ برقم ٣٢٦٣) والترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء كيف كان يمين النبي ﷺ (٤/ ٩٦ برقم ١٥٤٠) والنسائي في الأيمان والنذور (٧/ ٢ برقم ٣٧٦١، ٣٧٦٢) وابن ماجه في كتاب الكفارات، باب يمين الرسول ﷺ التي كان يحلف بها (١/ ٦٧٧ برقم ٢٠٩٢).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٥٩).

(٤) انظر بدائع الفوائد: ابن القيم (١/ ١٨٣).

ما ورد في الكتاب والسنة.

هذا ولم أقف على تطبيق الشوكاني هذه القاعدة (أي جواز تسمية الله بما ثبت من الصفات) من خلال تفسيره للآيات.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: (واتّفقوا على أنّه لا يجوز أن يطلق عليه اسم ولا صفة توهم نقصاً، ولو ورد ذلك نصّاً، فلا يقال: ماهد، ولا زارع، ولا فالق، ولا نحو ذلك، وإن ثبت في قوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُوْنَ﴾[1]، ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُوْنَ﴾[2]، ﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَوَى﴾[3] ونحوها، ولا يقال له: ماكر، ولا بنّاء، وإن ورد: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[4] ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾[5]، وقال أبو القاسم القشيري[6]: (الأسماء تؤخذ توقيفاً من الكتاب والسنة، فكلّ اسم ورد فيها وجب اطلاقه في وصفه، وما لم يرد لا يجوز ولو صحّ معناه)[7].

أسماء الله غير محصورة في عدد معيّن:

وأسماء الله تعالى غير محصورة في عدد معيّن، وهو ما قاله جمهور العلماء، وقرّره الشوكاني رحمه الله تعالى فقال نقلاً عن ابن كثير:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٦) عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، الفقيه الشافعي، شيخ خراسان في عصره، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف. توفيّ سنة ٤٦٥ هـ (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١١/ ٨٣، وتبيين كذب المفتري: ابن عساكر ٢٧١، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ٩٥).

(٧) فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٢٢٦).

(ثمّ ليعلم أنّ الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ما أصاب أحداً قطّ همّ ولا حزن فقال: اللهمّ إنّي عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضائك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلاّ أذهب الله همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً. (وفي بعض النسخ: فرحاً بالحاء المهملة) فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلّمها»[1].

وأورد الشوكاني أيضاً هذا الحديث في كتابه: تحفة الذاكرين[2] وقال: (فيه دليل أنّ لله اسماً، غير التسعة والتسعين).

ويشير إلى ما ورد في حديث: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلاّ واحداً، من أحصاها دخل الجنّة، إنّه وتر يحبّ الوتر)[3].

قال رحمه الله: وزاد الترمذي في سننه: (هو الله الذي لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز،

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/٢٦٩)، وتحفة الذاكرين: الشوكاني (٧٠) وانظر تفسير ابن كثير (٢/٢٨٠) والحديث أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٩) وغيرهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار إلاّ أنه قال: وذهاب غمّي مكان همّي، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثّقه ابن حبّان. اهـ والحديث صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٣٦ برقم ١٩٩)، وفي شرح العقيدة الطحاوية (١١٠) في الهامش.

(٢) صفحة (٢٤٧).

(٣) تقدم تخريجه في صفحة (٣٨١).

الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارىء، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، الميتن، الوليّ، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البرّ، التواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنيّ، المغنيّ، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور)[1].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٦٩)، وتحفة الذاكرين: الشوكاني (٦٨). والحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ذكر أسماء الله عزّ وجلّ (٥/ ٤٩٦ برقم ٣٥٠٧) من طريق صفوان عن الوليد بن مسلم به، وقال أي الترمذي: هذا حديث غريب. . . وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلّا في هذا الحديث، وأخرجه أيضاً البيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٦) وفي الاعتقاد (ص ٣١)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٥ برقم ١٢٥٧)، وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأذكار (٣/ ٨٨ برقم ٨٠٨)، قال المحقق: رجاله ثقات. وصحّحه الحاكم في المستدرك (١/ ١٦) وسكت عنه الذهبي. هذا مع وجود الاختلاف في سرد الأسماء بين رواية وأخرى. قال الشوكاني: رواه ابن حبّان في صحيحه وابن خزيمة والبيهقي والحاكم من طريق صفوان بإسناده السابق، ورواه ابن ماجة في سننه (٢/ ١٢٦٩ برقم ١٨٦١) من طريق أخرى عن موسى ابن عقبة عن عبد الرحمن بن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً، فسرد الأسماء المتقدّمة بزيادة ونقصان، وقد صحّحه ابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة، وقال النووي في الأذكار (ص ١٥١): أنّه حديث حسن. ونقل عن ابن كثير قال: والذي عوّل عليه جماعة من الحفّاظ أنّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وأنّ بعض العلماء جمعوها من القرآن. ا هـ قلت: كذا قال شيخ =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية نقلاً عن الخطّابي[1] وغيره: (فهذا يدلّ على أنّ له تعالى أسماء استأثر بها، وذلك يدلّ على أنّ قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة» أن في أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخل الجنّة، كما يقول القائل: إنّ لي ألف درهم أعددتها للصدقة، وإن كان ماله أكثر من ذلك، والله في القرآن قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[2]. فأمر أن يدعى بأسمائه الحسنى مطلقاً، ولم يقل: ليست أسماؤه الحسنى إلّا تسعة وتسعين اسماً، والحديث قد سلم معناه)[3].

وقال البيهقي[4] بعد أن ساق عدّة روايات في هذا الموضوع: (وليس في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً» نفي غيرها، وإنّما وقع التخصيص بذكرها، لأنّها أشهر الأسماء وأبينها معاني، وفيها ورد الخبر أنّ من أحصاها دخل الجنّة[5]، سواء أحصاها ممّا ورد في الحديث، أو من سائر ما دلّ عليه الكتاب أو السنّة أو الاجماع)[6].

ومثل هذا ما قاله البغوي[7]، والنووي[8]، وشيخ الإسلام ابن

= الإسلام ابن تيمية (مجموع فتاوى ٢٢/ ٤٨٢) والحافظ ابن حجر (الفتح ١١/ ٢٢١) حيث رجّح عدم رفع هذه الأسماء إلى النبي ﷺ، وكذا قال ابن العربي وغيرهم.

(١) سبقت له ترجمة في صفحة (١٨٧).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٢٢/ ٤٨٦).

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (١٧٧).

(٥) الأسماء والصفات: البيهقي ١٧.

(٦) الاعتقاد: البيهقي ٣٢.

(٧) انظر شرح السنّة: البغوي (٥/ ٣٥) والبغوي: هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، الفقيه المحدّث المفسّر قال الذهبي: كان على منهاج السلف، وله القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه. له مصنّفات مفيدة منها: شرح السنة، ومعالم التنزيل في التفسير. توفيّ سنة ٥١٦ هـ (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي (١٩/ ٤٣٩)، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة (٢/ ٩١).

(٨) انظر شرح النووي لمسلم (١٧/ ٥)، وأيضاً فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٢٢٣).=

تيمية[1]، وابن القيم[2]، وابن الوزير[3]، والحافظ ابن حجر[4] وغيرهم.

أمّا تعيين هذه الأسماء في حديث الترمذي فالعلماء اختلفوا فيه كما اختلفوا في صحّة الحديث ورفعه إلى النبي ﷺ[5].

والظاهر أنّ الشوكاني رحمه الله يميل إلى تصحيح الحديث، بدليل أنّه قال بعد أن ساق الحديث وتخريجه وكلام العلماء فيه:

(ولا يخفاك أنّ هذا العدد قد صحّحه إمامان[6]، وحسّنه إمام[7]، فالقول بأنّ بعض أهل العلم جمعها من القرآن غير سديد، ومجرّد بلوغ واحد أنّه رفع ذلك لا ينتهض لمعارضة الرواية، ولا تدفع الأحاديث بمثله، وأنّ الحديث الذي ذكره عن الإمام أحمد[8] فغايته أنّ الأسماء الحسنى أكثر من

= والنووي هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي الشافعي، أبو زكريا محيي الدين: علّامة بالفقه والحديث، له كتب كثيرة منها: رياض الصالحين، وشرح صحيح مسلم، وشرح المهذّب، والأذكار. توفيّ (٦٧٦ هـ) (انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: الذهبي ٤/ ٢٥٠، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٣/ ٢٧٨، وشذرات الذهب: ابن العماد ٥/ ٣٥٤).

(١) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٦) وقد ردّ ـ رحمه الله ـ بإسهاب على قول ابن حزم في حصر الأسماء في التسعة والتسعين.

(٢) انظر شفاء العليل: ابن القيم (٥٥٣) وقد صرّح ـ رحمه الله بأنّ هذا رأي الجمهور، وما خالفهم في ذلك إلّا ابن حزم، فزعم أنّ أسماء الله تنحصر في هذا العدد، وانظر أيضاً بدائع الفوائد: ابن القيم (١/ ١٨٨).

(٣) انظر إيثار الحقّ على الخلق: ابن الوزير (١٥٨، ١٥٩).

(٤) انظر تلخيص الحبير: ابن حجر (٤/ ١٧٤) تحقيق: عبد الله هاشم اليماني.

(٥) انظر هذا التفصيل في فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٢١٩ ـ ٢٢١)، وصحيح ابن حبّان (٣/ ٨٩ ـ ٩١) في الهامش تحقيق: شعيب الأرناؤط.

(٦) يقصد بهما ابن حبّان في صحيحه (٣/ ٨٨ برقم ٨٠٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦) كما تقدّم.

(٧) يقصد به الإمام النووي في الأذكار (ص ١٥١) تحقيق: عبد القادر الأرناؤط كما تقدم.

(٨) يعني حديث ابن مسعود الذي تقدّم (ص ٣٨٩).

هذا المقدار، وذلك لا ينافي كون هذا المقدار هو الذي ورد الترغيب في إحصائه وحفظه، وهذا ظاهر مكشوف لا يخفى)[(١)].

قلت: والذي يرجّح لي أنّ تعيين الأسماء ليس ثابتاً عن رسول الله ﷺ، لأنّ الوليد بن مسلم[(٢)] راوي الحديث يذكر عن بعض العلماء أنّ سرد الأسماء في الحديث مدرج فيه، كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره[(٣)].

(والذي عوّل عليه جماعة من الحفّاظ أنّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنّما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم، وعبد الملك بن محمد الصنعاني[(٤)] عن زهير بن محمد[(٥)] أنّه بلغه من غير واحد من أهل العلم أنّهم قالوا ذلك، أي أنّهم جمعوها من القرآن، كما ورد عن جعفر بن محمد[(٦)]، وسفيان بن عيينة[(٧)]، وأبي زيد اللغوي)[(٨)].

وقال الحافظ ابن حجر: اختلف الحفّاظ في أنّ سرد الأسماء هل هو

---

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧٠.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: الوليد بن مسلم الدمشقي أبو العبّاس: ثقة لكنّه كثير التدليس، من الثامنة. مات سنة ١٩٥ هـ التقريب: ابن حجر (٤٨٥ برقم ٧٤٥٦).

(٣) (٢/ ٥٨٠).

(٤) قال الحافظ ابن حجر: عبد الملك بن محمد الحميري البرسمي من أهل صنعاء دمشق، لين الحديث، من التاسعة. (التقريب: ابن حجر ٣٦٥ برقم ٤٢١٢).

(٥) قال الحافظ ابن حجر: زهير بن محمد التميمي أبو المنذر الخراساني، سكن الشام ثمّ الحجاز. رواية أهل الشام عنه غير مستقيمة فضعف بسببها. توفّي ١٦٢ هـ (التقريب: ابن حجر ٢١٧ برقم ٢٠٤٩).

(٦) لعله جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله المعروف بالصادق، صدوق فقيه إمام، من السادسة، مات ١٤٨ هـ (التقريب: ابن حجر ١٤١ برقم ٩٥٠).

(٧) تقدّمت ترجمته في صفحة (٣٥٧).

(٨) قال الحافظ ابن حجر: سعيد بن أوس بن ثابت أبو زيد الأنصاري النحوي البصري، صدوق له أوهام، ورمي بالقدر، من التاسعة، مات ٢١٤ هـ (التقريب: ابن حجر ٢٣٣ برقم ٢٢٧٢).

موقوف على الراوي أو مرفوع، ورجّح الأوّل، وأنّ تعدادها مدرج من كلام الراوي[1].

أمّا معنى الاحصاء الذي ورد في الحديث فقد فسّره الشوكاني بأنّه الحفظ، وهكذا قال الأكثرون[2]، وفسّرت هذا المعنى رواية البخاري: (لا يحفظها أحد إلاّ دخل الجنّة)[3] وقيل: أحصاها: قرأها كلمة، كأنّه يعدّها. وقيل: أحصاها: علمها وتدبّر معانيها، واطلع على حقائقها. وقيل: أطاق القيام بحقّها، والعمل بمقتضاها، قال الشوكاني: والتفسير الأوّل هو الراجح المطابق للمعنى اللغوي، وقد فسّرته الرواية المصرّحة بالحفظ كما عرفت[4].

قلت: والظاهر أنّ معنى حفظها يقتضي أيضاً معرفتها والقيام بعبوديتها، لأنّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به، وقد ثبت الخبر في الخوارج أنّهم يقرأون القرآن ولا يجاوز حناجرهم.

الاسم الأعظم:

أورد الشوكاني رحمه الله عدّة روايات في تعيين الاسم الأعظم[5] منها: ما أخرجه ابن ماجة، والحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اسم الله

---

(١) انظر الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (٣/ ٢٢١) فيما نقله عنه ابن علان من: شرح المشكاة. ط/ القاهرة ١٣٤٨ هـ. كما رجّحه أيضاً في الفتح (١١/ ٢٢١)، وانظر أيضاً ما قاله البيهقي في الأسماء والصفات ١٩، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٣٥)، وابن تيمية في مجموع فتاوى (٢٢/ ٤٨٢، ٤٨٣) حيث ذكر أنّ التسعة والتسعين اسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي ﷺ.

(٢) انظر الأسماء والصفات: البيهقي ١٧، وشرح النووي لمسلم (١٧/ ٥)، والفتح: ابن حجر (١١/ ٢٢٩).

(٣) انظر الفتح: ابن حجر (١١/ ٢١٨ برقم ٦٤١٠).

(٤) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٦٨.

(٥) انظر تحفة الذاكرين: الشوكاني ٦٦.

الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن: البقرة، وآل عمران، وطه»[1] قال أبو أمامة: فالتمستها فوجدت في البقرة في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2]، وفي آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[3]، وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[4].

ومنها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، من حديث أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[5]، وفاتحة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[6][7].

ومنها ما أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٦)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٧ برقم ٣٨٥٦) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٢٨): وقوّاه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلّان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدلّ على ذلك غيرهما كدلالتهما. قال الشوكاني: قال المناوي في المختصر: وإسناده حسن، وقيل صحيح، وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٣٨٢ برقم ٧٤٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٢.

(٧) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٤٦١)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦٨ برقم ١٤٩٦)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (٦٥) (٥/ ٤٨٣ برقم ٣٤٧٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٧ برقم ٣٨٥٥) وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٢٩ برقم ٩٨٠) وصحيح أبي داود برقم ١٣٤٣).

الآية وهي: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[1] إلى آخر الآية[2].

قال الشوكاني: (وقد اختلف في تعيين الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً، قد أفردها السيوطي[3] بالتصنيف، قال ابن حجر: وأرجحها من حيث السند: الله لا إله إلاّ أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد)[4].

وأورد الشوكاني أرجح ما ورد في تعيين الاسم الأعظم وهو الحديث الآنف الذكر، والآخر ما رواه أهل السنن الأربع وغيرهم بلفظ: (اللهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلاّ أنت المنّان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيّوم)[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد «١٠/١٥٦»: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه جسر بن فرقد وهو ضعيف. وقال الشوكاني: قال المناوي: وفي إسناده أيضاً محمد بن زكريا السعداني، وثقه ابن معين، وقال أحمد: ليس بالقوي، وقال النسائي والدارقطني: ضعيف، وفي إسناده أيضاً أبو الجوزاء وفيه نظر.

(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٧٥).

(٤) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٦٧. والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦٧ برقم ١٤٩٣)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات (٥/ ٤٨١ برقم ٣٤٧٥)، وقال: حسن غريب والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٢ برقم ١٣٠١)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٧ برقم ٣٨٥٧) وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأدعية (٣/ ١٧٣ برقم ٨٩١، ٨٩٢) قال المحقق: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال البخاري. والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٤) وصحّحه ووافقه الذهبي. وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٩، ٣٥٠) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٢٨): وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك. والحديث صحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ٧٠٨ برقم ٢٢٨٩).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء (٢/ ١٦٧ برقم ١٤٩٥)، والترمذي =

وذكر الحافظ ابن حجر أربعة عشر قولاً في تعيين الاسم الأعظم مع سنده، وذكر اختلاف أهل العلم فيه، منهم من أثبته معيّناً واضطربوا في ذلك، ومنهم من أنكره، كأبي جعفر الطبري[1]، وأبي الحسن الأشعري[2]، وأبي بكر الباقلاني[3] فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض. ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور، لئلا يظنّ أنّ بعض القرآن أفضل من بعض، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أنّ المراد بالأعظم العظيم[4]، وأنّ أسماء الله كلّها عظيمة، وعبارة أبي جعفر الطبري: اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم، والذي عندي أنّ الأقوال كلّها صحيحة، إذ لم يرد في خبر منها أنّه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه. فكأنّه يقول: كلّ اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم، فيرجع إلى

= في كتاب الدعوات، باب خلق الله مائة رحمة (٥/ ٥١٤ برقم ٣٥٤٤) وقال: هذا حديث غريب. والنسائي في كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٢ برقم ١٣٠٠)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٨ برقم ٣٨٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٧٠٥) انظر فضل الله الصمد (٢/ ١٦٨)، وابن حبّان في كتاب الرقائق، باب الأدعية (٣/ ١٧٥ برقم ٨٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٠، ١٥٨، ٢٤٥، ٢٦٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٣، ٥٠٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي. هذا مع وجود الاختلاف في لفظ الحديث. وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٥/ ٧٠٨ برقم ٢٢٩٠).

(١) سبقت له ترجمة في صفحة (٢٤٩).

(٢) سبقت له ترجمة في صفحة (٥٧).

(٣) القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد المعروف بالباقلاني البصري، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة. من كتبه: إعجاز القرآن، والإنصاف، والتمهيد. توفّي سنة ٤٠٣ هـ (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٥/ ٣٧٩ ــ ٣٨٣، وسير أعلام النبلاء: الذهبي (١١/ ٤٣، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٤) أي جعلوا اسم التفضيل على غير بابه، وهو أسلوب معروف عند علماء النحو.

معنى عظيم كما تقدم[1]. وهذا ما أميل إليه. والله أعلم.

هل الاسم عين المسمّى أو غيره؟

تعرّض الشوكاني رحمه الله تعالى لهذه المسألة التي كثر النزاع فيها بين العلماء، وقبل بيان رأيه فيها أذكر أوّلاً موجزاً لآرائهم فأقول:

اختلف العلماء في هذه المسألة ــ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ إلى عدّة أقوال:

منهم من قال: إنّ الاسم هو المسمّى. وهو قول أكثر المنتسبين إلى السنّة كأبي القاسم الطبري[2]، واللالكائي[3]، والبغوي[4]، وغيرهم، وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الأشعري، اختاره أبو بكر ابن فورك[5]، وغيره[6].

ومنهم من قال: إنّ الاسم غير المسمّى. وهو قول الجهمية،

---

(١) انظر فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) لم أقف على ترجمته، ولعل الصواب: ابن القاسم الطبري أبو علي الحسن (أو الحسين) فقيه شافعي بحاث، قال ابن كثير: أحد الأئمة المحررين في الخلاف، وأوّل من صنّف فيه، له: المحرر في النظر، وهو أوّل كتاب صنّف في الخلاف المجرّد، والإيضاح، والعدّة، كلاهُمَا في الفقه الشافعي، توفّي (٣٥٠ هـ) انظر (تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٨/ ٨٧، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١/ ٢٣٨).

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٥٦).

(٤) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٩١).

(٥) محمد بن الحسين بن فورك الأنصاري الأصبهاني، واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. توفّي سنة (٤٠٦ هـ) (انظر: تبيين كذب المفتري: ابن عساكر ٢٣٢، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٣/ ٥٢ ــ ٥٦).

(٦) عزا البيهقي هذا الرأي إلى الإمام الشافعي، والحارث المحاسبي، وأبي عبيد القاسم بن سلام (انظر: الاعتقاد للبيهقي ٤٢، وشعب الإيمان له ١/ ١٢٥، ١٢٦ تحقيق: محمد السعيد زغلول).

والمعتزلة، وتابعهم في ذلك جماعة من الأشاعرة، كالغزالي[١]، والرازي[٢].

وقد بنى الجهمية رأيهم هذا على أنّ أسماء الله مخلوقة، وما دامت كذلك فهو غيره، وهذا كلام باطل، لأنّ أسماء الله من كلامه، وكلامه غير مخلوق، بل هو المتكلّم به، وهو المسمّى لنفسه بما فيه من الأسماء[٣].

ومنهم من قال بالتوقّف، وهو قول جماعة من السلف، وذكر ابن تيمية عنهم أنّهم توقّفوا في ذلك نفياً وإثباتاً، أي أنّهم لا يقولون إنّ الاسم هو المسمّى ولا غيره، إذ كان كلّ من الاطلاقين بدعة، لا يعرف فيها قول لأحد من الأئمة.

ومنهم أيضاً من قال: إنّ الاسم للمسمّى، وهذا الاطلاق اختيار أكثر المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره. ومنهم من قال غير ذلك[٤].

هذا موجز ما قاله العلماء في هذه المسألة، كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، فما هو رأي الشوكاني فيها؟

رأى الشوكاني أنّ الاسم ليس المسمّى، وإنّما هو اللفظ الدّال على المسمّى[٥]، وردّ على القائلين بأنّ الاسم هو المسمّى قائلاً:

(ومن زعم أنّ الاسم هو المسمّى، كما قال أبو عبيدة[٦]،

---

(١) تقدّمت ترجمته في صفحة ٥٧.
(٢) تقدّمت ترجمته في صفحة ٥٧.
(٣) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٦/ ١٨٦).
(٤) انظر تفصيل هذه الأقوال في مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ١٨٥ ـ ١٨٩).
(٥) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٨).
(٦) معمر بن المثنى اللغوي البصري، أبو عبيدة، من أئمة العلم بالأدب واللغة، وكان أباضيًا شعوبيا، قال الجاحظ في حقّه: لم يكن في الأرض خارجي أعلم بجميع العلوم منه، له كتب كثيرة منها: المجاز في غريب القرآن، والأمثال في غريب=

وسيبويه(١)، والباقلاني(٢)، وابن فورك(٣)، وحكاه الرازي(٤) عن الحشوية(٥)، والكرامية(٩)، والأشعرية(١)، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل، مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل، لا من الكتاب، ولا من السنّة، ولا من لغة

= الحديث. توفيّ سنة (٢٠٩ هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٣/ ٢٥٢، وميزان الاعتدال: الذهبي ٥/ ٥٨١) ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٠٥).

(١) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو البشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأوّل من بسط علم النحو، له: كتاب سيبويه في النحو، لم يضع قبله ولا بعده مثله. توفيّ سنة (١٨٠ هـ) (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٢/ ١٩٥، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٠/ ١٧٦، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٤٦).

(٢) تقدّمت ترجمته (ص ٣٩٧).

(٣) تقدّمت ترجمته (ص ٣٩٨).

(٤) تقدّمت ترجمته (ص ٥٧).

(٥) الحشوية: بسكون الشين وفتحها، قوم تمسّكوا بالظواهر، فذهبوا إلى التجسيم وغيره، وهم من الفرق الضالّة، قال صاحب كتاب البرهان (ص ٣٨): الحشوية: هم المجسّمة الذين قالوا بأنّ الله ــ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً ــ على صورة شابّ أمرد، له شعر قطط، في رجله نعل من ذهب، ينزل يوم عرفة على جمل أحمر، وينزل في كلّ ليلة جمعة، إلى غير ذلك من أقوالهم الشنيعة التي لا يصدقها عاقل. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (منهاج السنة ٢/ ٥٢٠، ٥٢١): أما لفظ الحشوية فليس فيه ما يدلّ على شخص معين ولا مقالة معيّنة، فلا يدري من هم هؤلاء، وقد قيل: أنّ أوّل من تكلّم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد فقال: كان عبد الله بن عمر حشويا (وهو قول باطل) وكان هذا اللفظ في اصطلاح من قاله يريد به العامة الذين هم حشو، كما تقول الرافضة من مذهب أهل السنة مذهب الجمهور ا هـ. وقد يستعمل بعض الناس لفظ الحشوية في أهل السنة وكلّ من يقول بمقالات السلف في الاعتقادات وفي الأسماء والصفات، فهم عندهم حشوية، فالحنابلة كلهم عندهم حشوية، وكذا أهل الحديث، ومن المعلوم أنّ اعتقاد السلف أهل الحديث وهو السنة المحضة، لأنه هو الاعتقاد الثابت عن النبي ﷺ، وليس في اعتقاد أحد منهم شيء من مقالات الحشوية، والكتب شاهدة بذلك.

(٦) تقدم تعريفها في (ص ٣٥٣).

(٧) تقدم تعريفها في (ص ٥٧).

العرب، بل العلم الضروري حاصل بأنّ الاسم الذي هو أصوات مقطّعة، وحروف مؤلّفة، غير المسمّى الذي هو مدلوله)[1].

قلت: وكلام الشوكاني هذا مصرّح بأنّ الاسم الذي يقصد به هو الاسم اللفظي المتكوّن من الأصوات والحروف، فالاسم على هذا الاعتبار غير المسمّى، وإنما هو الدّال على المسمّى، وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والاسم هو القول الدال على المسمّى، ليس الاسم الذي هو لفظ هو المسمّى، وقد يراد به المسمّى، لأنّه حكم عليه ودليل عليه)[2].

وعلى هذا فإنّ المسألة تحتاج إلى تفصيل أكثر، ولم أقف على أيّ تفصيل من كلام الشوكاني غير ما ذكرنا.

والذي أراه صواباً في هذه المسألة هو ذلك التفصيل الذي أورده ابن القيم في شفاء العليل[3]، وابن أبي العزّ الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية[4] وهو أنّ الاسم يراد به المسمّى تارة، ويراد به اللفظ الدالّ عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، واستوى الله على عرشه، وسمع الله، ورأى، وخلق، فهذا المراد به المسمّى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربيّ، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله تعالى، والرحمن وزنه فعلان، والرحمن مشتقّ من الرحمة، ونحو ذلك، فالاسم ههنا للمسمّى (أي الدالّ على المسمّى) ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الاجمال، فإن أريد بالمغايرة أنّ اللفظ غير المعنى فحقّ، وإن أريد أنّ الله سبحانه كان ولا اسم

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٨) وانظر مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٩٠ ـ ٢٠٢) حيث ناقش ـ رحمه الله ـ قول القائلين بأنّ الإسم هو المسمّى وردّ عليهم بإسهاب.

(٢) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٦/ ١٩٢).

(٣) انظر (ص ٥٥٢).

(٤) انظر (ص ١٣١).

له حتى خلق لنفسه اسماً، أو حتى سمّاه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى.

وهذا التفصيل قال به جمهور أهل السنة، وهم الذين يقولون إنّ الاسم للمسمّى، وهو قول الشوكاني كما يظهر من كلامه. والله أعلم.

المبحث الخامس

ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني

صفات الله تبارك وتعالى التي جاء بها القرآن الكريم وتحدّثت عنها سنة المصطفى ﷺ كثيرة جداً، ولكن سأقتصر في هذا المبحث على ذكر جملة من الصفات التي تعرّض لها الشوكاني رحمه الله في مؤلّفاته.

وقبل أن أبيّن تلك الصفات التي تكلّم عنها الشوكاني، أرى من المناسب أن أذكر موجزاً عن اصطلاح علماء السلف في تقسيم صفات الله تعالى، وهو أنهم يقسّمون الصفات التي وردت في الكتاب والسنّة إلى قسمين: صفات ذاتية، وصفات فعلية.

أما الصفات الذاتية: فهي الصفات المتعلقة بذاته المقدسة التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، وهي لا تنفك عنه سبحانه، بل هي لازمة لذاته أزلاً وأبداً، ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته، وهي قسمان:

سمعية عقلية: وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي، والفطرة السليمة، كصفة الحياة، والعلم، والقدرة، والارادة، والقوة، والعزّة، والملك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والجلال، والسمع، والبصر.. الخ.

وخبرية: وهي التي لا سبيل للعقل على انفراده إلى إثباتها إلا بطريق

السمع والخبر عن الله، أو عن رسوله ﷺ، كصفة الوجه، واليدين، والعين . . .

أما الصفات الفعلية: فهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها عز وجل. وهي قسمان أيضاً:

سمعية عقلية: كالخلق، والرزق، والإعطاء، والمنع، والإحياء، والإماتة، وأنواع التدبير المختلفة.

وخبرية: كالاستواء على العرش، والمجيء والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والرضى، والمحبّة، والغضب[1] . . .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كصفة الكلام، فإنّه باعتبار أصل الصفة صفة ذاتية، لأنّه تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأنّ الكلام متعلق بمشيئته عزّ وجل، يتكلم متى شاء، بما شاء، كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾[2].

وفيما يلي أذكر جملة من الصفات الذاتية، وجملة أخرى من الصفات الفعلية مع ذكر كلام الشوكاني عليها.

وقد نهج رحمه الله في معظم الصفات منهج السلف الصالح من إثبات معانيها بلا تشبيه ولا تمثيل، وتفويض معرفة كنهها وكيفيتها إلى الله سبحانه. وكان الأجدر به والواجب عليه أن يسلك هذا المسلك في إثبات جميع الصفات. كما قرره في رسالته التحف، غير أنه سلك في تفسيره مسلك أهل التأويل في بعض الصفات، كما سنرى في هذه التفاصيل.

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للدكتور محمد خليل هراس ٨٩ ــ ٩٩ ولمعة الاعتقاد شرح الشيخ محمد صالح العثيمين ١١، ١٢.
(٢) سورة يٓس، الآية: ٨٢.

أوّلاً ـ ذكر جملة من الصفات الذاتية وكلام الشوكاني عليها:

(أ) صفة العلم:

أثبت الشوكاني صفة العلم لله تعالى، وهي من الصفات السمعية العقلية، لأنّ العقل يثبت أنّ لله علماً وأنّه عالم بكل شيء، ويدلّ على ذلك إيجاده الأشياء في هذا الكون، لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل بها، ولأنّ من المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، وكلّ كمال اتّصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق به وأكمل فيه منه[1].

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنّة أنّ علم الله عزّ وجلّ أزلي، وأنه قد سبق في كلّ شيء، ولا يصحّ أن يقدر وقوع غير ما قد علمه، وإلا انقلب العلم جهلاً، وذلك لا يجوز اجماعاً، لأنّ علمه عزّ وجلّ سابق أزلي، وقد علم ما يكون قبل أن يكون، ولا خلاف بين أهل الحق من هذه الحيثية[2].

وبيّن الشوكاني أنّ علم الله عزّ وجل محيط بكل شيء[3] وأنّه لا يخفى عليه خافية، ولا يخرج عن علمه خارج كائناً ما كان[4]. وأنّه عالم كلّ غائب عن الحس وكلّ مشهود حاضر، أو كلّ معدوم وموجود[5]. فهو العالم بخفيات الأمور ودقائقها، كما يعلم بظواهرها وجلياتها[6].

فالعلم صفة من صفات ذاته تعالى، فهو عالم بعلم قائم بذاته قديم أزلي لازم لنفسه المقدّسة، وهو سبحانه العليم المحيط بكل شيء، يعلم

---

(١) انظر رسالة الإرادة والأمر لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٣٨٢.

(٢) انظر تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل: الشوكاني ١١٩ ضمن أمناء الشريعة.

(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٣٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣٨٣.

(٥) انظر: المصدر السابق ٣/ ٦٨.

(٦) انظر: تحفة الذاكرين: الشوكاني ٣٦١.

الكليات والجزئيات، ولا تخفى عليه خافية، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

والأدلّة على اتصافه تعالى بالعلم كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾(١)، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِيْ ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِيْ كِتَابٍ مُبِيْنٍ﴾(٣).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِيْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّوْنَ وَمَا تُعْلِنُوْنَ، وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِيْ الْأَرْضِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا﴾(٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾(٦)، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾(٧) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ﴾(٨).

والآيات الواردة في كتاب الله الدالّة على أن الله تبارك وتعالى متّصف بصفة العلم مما لا يكاد أن يحصى إلا بعد جهد لكثرتها.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة التغابن، الآية: ٤.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٢ وسورة الحديد، الآية: ٤.
(٦) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٧) سورة الحشر، الآية: ٢٢.
(٨) سورة الملك، الآية: ١٤.

وقد أفادت هذه الآيات إثبات صفة العلم لله، وأن علمه شامل لكل شيء، ومحيط به، فيعلم بالكليات والجزئيات، وبالسرّ والعلانية، وبالدنيا والآخرة.

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[1].

(هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه وإحاطته بالمعلومات، وعبّر عن معلوماته بما في الأرض والسماء مع كونها أوسع من ذلك، لقصور عباده عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه وكفر من كفر)[2].

هذا وقد أنكر الشوكاني رحمه الله أشد الانكار على من يزعم أنه تعالى غير عالم بالجزئيات[3]. وينكر علم الله الأزلي، كالمعتزلة، وعلى رأسهم أبو علي الجبّائي[4] حيث حكى عنه قوله: (والله لا يعلم من نفسه إلا ما يعلم هو)[5] ومعنى هذه المقولة الخاسرة والشنيعة، أن كلّ ما يعلمه الله يعلمه هذا الجبّائي. عياذاً بالله تعالى.

قال الشوكاني: (وانظر هذه الجرأة على الله سبحانه وتعالى، التي ليس بعدها جرأة، فيا لأم أبي علي الويل، أنهيق مثل هذا النهيق، ويدخل نفسه في هذا المضيق؟ وهل سمع السامعون بيمين أفجر من هذه اليمين الملعونة؟ أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة؟ أو بلغ مفتخر إلى ما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥

(٢) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣١٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٥٩.

(٤) سبقت له ترجمة في صفحة (١٧٩).

(٥) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٧ ضمن الرسائل السلفية.

بلغ هذا المختال الفخور؟ أو وصل من يفجر في إيمانه إلى ما يقارب هذا الفجور؟

واستمرّ في مناقشته له وإنكاره عليه قائلاً: (وكلّ عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف أن ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه إلا ما يعلمه هو لكان كاذباً في يمينه، فاجراً فيها، لأنّ كلّ فرد من الناس ينطوي على صفات وغرائز لا يحب أن يطلع عليها غيره، ويكره أن يقف على شيء منها سواه، ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره، ويستكن في ضميره، ومن ادّعى علم ذلك، وأنّه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه إلا ما يعلمه هذا المدّعي، فهو إمّا مصاب العقل، يهذي بما لا يدري، ويتكلّم بما لا يفهم، أو كاذب شديد الكذب، عظيم الافتراء، فإن هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه، فهو الذي يحول بين المرء وقلبه وما توسوس به نفسه، وما يسّر عباده، وما يعلنون، وما يظهرون، وما يكتمون، كما أخبرنا بذلك في كتابه العزيز في غير موضع.

فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه إلا الله من عباده، فما ظنّك من جاوز هذا وتعدّاه، وأقسم بالله سبحانه أنّ الله لا يعلم من نفسه هو إلا ما يعلمه هو[1]؟.

(ب) صفة القدرة:

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة القدرة لله سبحانه وتعالى، وهي من الصفات السمعية العقلية، لأنّ العقل يثبت أنّ لله قدرة، وأنّه على كلّ شيء قدير، إذ لو لم يكن تعالى كذلك لكان عاجزاً، وهذا مستحيل، بدليل ظهور الأفعال منه تعالى في هذا الكون، ولا تظهر إلا من عليم قدير.

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنّة أنّه تعالى قادر على كلّ شيء، ولكمال قدرته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٧، ٨ ضمن الرسائل السلفية.

والآيات في تقرير صفة القدرة وإثباتها لله تعالى كثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: (أي أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء، لا يستصعب عليه شيء)[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[3].

قال الشوكاني: (أي على كلّ شيء من الأشياء، يحييه ويفنيه بقدرته، لا يعجز عن شيء)[4].

وقوله تعالى ردّاً على منكري البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الذِيْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[5].

ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الّذِيْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيْمُ﴾[6].

قال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: (أي من هو قادر على خلق هذا فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر. والمعنى: قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنّهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهن[7]. فمن قدر على خلق السموات والأرض، وهما في

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٩٠.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٩٩.
(٦) سورة يس، الآية: ٨١.
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٦١.

غاية العظم وَكِبَرَ الأجزاء يقدر على اعادة خلق البشر الذي هو صغير الشكل ضعيف القوة)[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله معناه: لا يثقله ثقالة أدنى الشيء[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيْماً قَدِيْراً﴾[4].

قال الشوكاني في معنى الآية: (أي ما كان ليسبقه ويفوته من شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما، لأنه كثير العلم وكثير القدرة، لا يخفى عليه شيء ولا يصعب عليه أمر)[5].

ومن السنة قوله ﷺ في حديث الاستخارة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (. . . اللهم إنّي أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك. . . فإنّك تقدر ولا أقدر)[6].

(ج) صفة الإرادة:

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة الإرادة لله سبحانه وتعالى وهي من الصفات السمعية العقلية، لأن العقل يثبت أنّ لله سبحانه إرادة ومشيئة، وأنّه مريد في أفعاله، إذ لو لم يتّصف بالإرادة لاتّصف بضدّها، كالسهو والاكراه

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٣٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٧٢.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٤٤.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٣٥٦.

(٦) انظر: تحفة الذاكرين: الشوكاني ١٦٩ والحديث أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة. (الفتح ١١/ ١٨٧ برقم ٦٣٨٢).

والغلبة، وهذا محال على الله سبحانه، بدليل ما ظهر في أفعاله تعالى من تخصيص وترتيب ووضعها في مواضعها.

وقد ورد في القرآن الكريم أنّه تعالى مريد وأنّ له إرادة ومشيئة[1] في عدّة آيات:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ﴾[2].

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[3].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُوْلَ لَـهُ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾[5] وغير ذلك من الآيات.

وقد أوضح الشوكاني رحمه الله صفة الإرادة، وقسّمها إلى إرادة كونيّة: وهي مشيئته لما خلقه من جميع مخلوقاته، إنسهم وجنّهم، مسلمهم وكافرهم، حيوانهم وجمادهم، ضارّهم ونافعهم، ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِيْ السَّمَاءِ﴾[6]. وإرادة دينية: وهي محبّته المتناولة لجميع ما أمر به، وجعله شرعاً وديناً، فهذه مختصّة بالإيمان

---

(١) المشيئة والإرادة بمعنى واحد غير أن السلف يقسّمون الإرادة إلى كونية خلقية وهي المستلزمة لوقوع المراد عموماً في العالم، والي دينية أمرية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضا، والمشيئة هي الإرادة بالمعنى الأول فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وعلى هذا فلا تتضمن المشيئة المعنى الثاني للإرادة إذا كان المراد لم يكن داخلاً في معناها الأول، كإيمان أبي جهل وسجود إبليس لآدم عليه السلام.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١.

(٥) سورة يّس، الآية: ٨٢.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

والعمل الصالح، ومن هذا القسم قوله تعالى: ﴿يُرِيْدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيْدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1].

فما خلقه الله سبحانه وقدّره وقضاه فهو يريده، وإن كان لا يأمر به، ولا يحبّه ولا يرضاه، ولا يثيب أصحابه، ولا يجعلهم من أوليائه، وما أمر به وشرعه، وأحبّه ورضيه، وأحبّ فاعليه، وأثابهم وأكرمهم عليه فهو الذي يحبّه ويرضاه، ويثيب فاعله عليه[2].

وقد تقدّم تفصيل هذا الموضوع بما فيه كفاية فلا حاجة هنا لاعادته[3].

(د) صفة الحياة:

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة الحياة لله تبارك وتعالى، وهي من الصفات السمعية العقلية، لأنّ العقل يثبت أنّ الله متّصف بالحياة، إذ لو لم يتّصف بالحياة لاتّصف بضدّها، وهو الموت والفناء وهو محال، بدليل ظهور الأفعال منه سبحانه، واستحالة ظهورها ممن يجهلها ويعجز عنها، فهو عالم وقادر، ويستحيل قيام العلم والقدرة بغير الحي[4]، ولأنّ الحياة من صفات الكمال، بل هي مستلزمة لجميع صفات الكمال، وكلّ كمال لا نقص فيه ثبت لمخلوق وأمكن أن يتّصف به الخالق فهو أولى به[5].

وقد ورد في القرآن الكريم وصف الله بأنّه: حيّ: في كثير من الآيات:

كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) انظر: قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) انظر: الفرق بين الكونيات والدينيات في صفحة ٢٥٩ ــ ٢٦٧.

(٤) انظر: المواقف في علم الكلام: للإيجي (الموقف الخامس في الإلهيات) ص ٢٩٠.

(٥) انظر: شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل الهراس ٢٣، ٢٤ وأيضاً مجموع فتاوى لابن تيمية ٩/١٤١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥، وسورة آل عمران، الآية: ٢.

وقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾[١].

وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[٢].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[٣].

قال الشوكاني في تفسير معنى الحيّ: (والحيّ: الباقي. ونقل عن الطبري عن قوم أنّه يقال: حيّ كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه)[٤].

وقال في موضع آخر: (الحيّ: الدائم الحياة[٥]. والحيّ: الباقي الذي لا يفنى، المنفرد بالألوهية)[٦].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[٧].

(وخصّ صفة الحياة إشارة إلى أن الحيّ هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنّهم إذا ماتوا ضاع من يتوكّل عليهم)[٨] فالحياة صفة حقيقية لازمة لذاته تعالى لائقة بكماله وجلاله وعظمته.

(هـ) صفة السمع والبصر:

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة السمع والبصر لله تعالى، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات[٩]. وهما من الصفات السمعية العقلية، لأن

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١١١.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٥.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/٢٧١.

(٥) تحفة الذاكرين: الشوكاني ٧٢.

(٦) فتح القدير: الشوكاني ٤/٤٩٩.

(٧) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

(٨) فتح القدير: الشوكاني ٤/٨٣، ٨٤.

(٩) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية.

العقل يثبت بالضرورة أنّ الله الحيّ العليم القدير يجب أن يتّصف بالسمع والبصر، إذ لو لم يتّصف بالسمع والبصر لاتّصف بضدّ ذلك، وهو العمي والصمم، وهذا محال، لأنّ السمع والبصر من صفات الكمال، فإن الحيّ السميع البصير أكمل من حيّ ليس بسميع ولا بصير، كما أن الموجود الحيّ أكمل من موجود ليس بحيّ، وكلّ كمال اتّصف به المخلوق فالخالق أولى به، لأنّه سبحانه يتعالى ويتنزّه عن كلّ نقص.

وقد تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنّة أنّ الله سميع بصير، فمن الكتاب قوله تعالى مخاطباً لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِيْ مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[1]، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التِيْ تُجَادِلُكَ فِيْ زَوْجِهَا، وَتَشْتَكِيْ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُمَا، إنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ بَصِيْر﴾[2].

وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُوْنَ﴾[3].

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[4].

وقوله: ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِع﴾[5] وغير ذلك من الآيات.

ومن السنة قوله ﷺ: «اربَعُوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أَصَمَّ ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً... الحديث»[6].

(١) سورة طه، الآية: ٤٦.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٢٦.
(٦) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: وكان الله سميعاً بصيراً. (الفتح ١٣/٣٨٤ برقم (٧٣٨٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٦ برقم (٢٧٠٤)، ومعنى أربعوا: أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإنّ رفع الصوت إنّما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب (شرح النووي لمسلم ١٧/٢٦).

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله في تفسيره للآية الأخيرة قال: (أي ما خفي فيها وغاب من أحوالهما، ليس لغيره من ذلك شيء، ثم زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدلّ على التعجّب من إدراكه للمبصرات والمسموعات، فقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ﴾ فأفاد هذا التعجّب على أن شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه إدراك المدركين، وأنّه يستوي في علمه الغائب والحاضر، والخفي والظاهر، والصغير والكبير، واللطيف والكثيف، وكأنّ أصله ما أبصره وما أسمعه)[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهُو السميع البصير﴾ أكد رحمه الله أنّ من فهم هذه الآية الكريمة حقّ فهمها، وتدبّرها حقّ تدبّرها، مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمّل معنى قوله: (وهو السميع البصير) فإنّ هذا الإثبات بعد ذلك النفي للماثل قد اشتمل على برد اليقين وشفاء الصدور وانثلاج القلوب)[2] فكلمة (ليس كمثله شيء) بها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء، ووصفه سبحانه بالسميع والبصير يتقرّر بها الاثبات لهذه الصفات لا على وجه المماثلة للمخلوقات[3].

(و) صفة الكلام:

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة الكلام لله تعالى بما تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنّة أنّه سبحانه متكلّم حقيقة بكلام هو صفة من صفاته اللازمة لذاته، والكلام من الصفات السمعية العقلية، لأنّ العقل يثبت أنّ الله تعالى متّصف بصفة الكلام، إذ لو لم يتّصف بصفة الكلام لاتّصف بضدّها وهو الخرس، وهذا محال، لأنّ الكلام صفة كمال، ومن يتكلّم أكمل ممن لا

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٢٧٩.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٥٢٨.
(٣) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية.

يتكلّم، كما أنّ من يعلم ويقدر أكمل ممن ليس كذلك، وقد تقرّر أن ما ثبت للمخلوق من كمال لا نقص فيه، فثبوته للخالق بطريق الأولى، وما تنزّه المخلوق عنه من النقائص، فتنزّه الخالق عنه بطريق اولى[1]. فتبيّن أن الربّ سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال، ومن أجلّها صفة الكلام.

وقد دلّ على ذلك من الأدلّة الشرعية ما في القرآن الكريم في كثير من الآيات:

كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوْسَى تَكْلِيْماً﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[3].

وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيْمٍ﴾[4].

وقوله مخاطباً لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِيْ وَبِكَلَامِيْ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾[5].

وما في القرآن من ذكر مناداته ومناجاته المتضمّنة معنى الكلام، كقوله تعالى عن آدم وحواء: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[6]، وقوله سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّوْرِ الأَيْمَنِ﴾[7]، والنداء لا يكون إلاّ بصوت مسموعٍ حادثٍ بكلام، وغير ذلك من الآيات التي تقرّر بأدلّتها صفة الكلام.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى: ابن تيمية ٩/ ١٤١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٤) سورة يس، الآية: ٥٨.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٧) سورة مريم، الآية: ٥٢.

وقد أوضح الشوكاني رحمه الله تعالى من خلال تفسيره لمعاني هذه الآيات منهجه في إثبات صفة الكلام، فذكر عن تفسيره لقوله تعالى: ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾: أنّ قراءة الجمهور برفع الاسم الشريف، على أنّ الله هو الذي كلّم موسى، و(تكليماً) مصدر مؤكد، وفائدة التأكيد رفع توهّم كون التكليم مجازاً[1] فإذا أكّد الكلام بالمصدر لم يكن إلاّ حقيقة، وأجمع

(١) يطلق لفظ المجاز في اصطلاح كثير من المتأخرين على ما هو قسيم الحقيقة، فإنّهم قسّموا الكلام إلى حقيقة ومجاز، فالحقيقة عندهم هي اللفظ المستعمل فيما وضع له، والمجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينه، وقيل غير ذلك من التعاريف (انظر: إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٢١)، وانظر أيضاً: المستصفى في علم الأصول للغزالي (ص ٢٦٨) ط ١٣٢٤/١ هـ المطبعة الأميرية بمصر، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (٢٦/١) تعليق/ عبد الرزاق عفيفي، ط ١٣٨٧/١ هـ مؤسسة النور).

والحقيقة أنّ تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث قصد به التوصّل إلى نفي صفات الكمال عن الله عزّ وجلّ وإلاّ فالأئمة رحمهم الله تعالى وأهل القرون الثلاثة المفضّلة لم يتكلّموا بهذا الاصطلاح بالمعنى الذي قصده المبتدعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: «فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة لم يتكلّم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا أحد من الأئمة المشهورين بالعلم، كمالك (ت ١٧٩ هـ)، والثوري (ت ١٦١ هـ)، والأوزاعي (ت ١٥٧ هـ)، وأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) والشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، بل ولا تكلّم به أئمّة اللغة والنحو، كالخليل (ت ١٧٠ هـ)، وسيبويه (ت ١٨٠ هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، ونحوهم وأوّل من عرف أنّه تكلّم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ) في كتابه، ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنّما عنى بمجاز الآية وما يعبر به عن الآية... والغالب أنه ــ أي المجاز ــ كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين... وقد أنكر طائفة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا غيره، كأبي إسحاق الإسفرائيني (ت ٤١٨ هـ)... إلى أن قال ــ رحمه الله ــ فلا مجاز في القرآن، بل وتقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف، والخلف فيه على قولين، وليس النزاع فيه لفظياً، بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا... (الإيمان لابن تيمية ٧٩ وما بعدها ط ١/ ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية وانظر رسالة في الحقيقة والمجاز لابن تيمية ضمن مجموع فتاوى ٢٠/ ٤٠٠ ــ ٤٩٩ ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٣٣).

النحويّون على أنّك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوْسَى لِمِيْقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّـهُ﴾[2] أي أسمعه كلامه من غير واسطة[3].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوْسَى إِنِّيْ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِيْ وَبِكَلاَمِيْ﴾[4]، والمراد بالكلام هنا: التكلّم، امتنّ الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة[5].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُوْلُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيْدٍ﴾[6].

قال رحمه الله: وهذا الكلام على طريق التمثيل والتخييل، ولا سؤال ولا جواب، كذا قيل. والأولى أنّه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع[7].

قلت: لو عبّر الشوكاني بالصحيح بدل الأولى لكان أنسب، لأن هذا هو التفسير الصحيح لمعنى الآية، وهو الحقّ الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فلا يجوز تأويل الآية عن ظاهرها إلا بدليل شرعي لا عقلي. هذا وقد ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا تزال جهنّم يلقى فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع ربّ العزّة فيها قدمه»[8].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥٣٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٤٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٤٤.
(٦) سورة قٓ، الآية: ٣٠.
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٧٧.
(٨) تقدم تخريجه في صفحة ٣٥١.

وقال رحمه الله عن معنى النداء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّوْرِ الأَيْمَنِ﴾[1]: أي كلّمناه من جانب الطور، ومعنى النداء أنه تمثّل له الكلام من ذلك الجانب[2]. ومثل هذا ما ذكره في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُوْدِيَ أَنْ بُوْرِكَ مَنْ فِيْ النَّارِ﴾[3] إذ قال: أن: هي المفسرة لما في النداء من معنى القول[4].

قلت: قول الشوكاني: (إنه تمثّل له الكلام من ذلك الجانب) فيه نظر، والصحيح أنّ موسى عليه السلام سمع كلام الله في ذلك الجانب، أمّا تفسيره النداء بالكلام، لما في النداء من معنى الكلام فهذا هو التفسير الصحيح الذي فسّر به علماء السلف[5]، لأنّ فيه إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأنّه تكلّم حقيقة بصوت مسموع، إذ النداء لا يكون إلّا به.

أما رأيه رحمه الله في مسألة القرآن، فقرّر أن القرآن كلام الله منزّل على محمد ﷺ، وهو صفة من صفات الله تعالى، قديم النوع حادث الآحاد في التنزيل، وأنّه المتلوّ والمسموع والمكتوب في المصاحف.

قال في تعريف القرآن: (هو اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء كالمشروب سمّي شراباً، والمكتوب سمّي كتاباً، وقيل: هو مصدر قرأ يقرأ)[6].

وقال في موضع آخر: (والقرآن في اللغة مصدر بمعنى القراءة، غلب في العرف العام على المجموع المعيّن من كلام الله سبحانه وتعالى المقروء

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٢.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٣٨.
(٣) سورة النمل، الآية: ٨.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ١٢٦.
(٥) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة ١/ ٣٣٤ تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان، والشريعة للآجري ٢٩٩، ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٤٠٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ١٣١.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٨٢.

بألسنة العباد، واصطلاحاً هو الكلام المنزّل على الرسول ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً)[١].

وأزيد على هذا التعريف: وكانت ألفاظه للإعجاز، وتعبّدنا الله بتلاوتها، وذلك للتفريق الواضح بينه وبين الحديث القدسي[٢].

وبيّن الشوكاني رحمه الله تجدّد كلام الله المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيْهُمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ، إلاَّ كَانُوْا عَنْهُ مُعْرِضِيْنَ﴾[٣] حيث قال:

(بيّن سبحانه أنّه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان يأتيهم بالقرآن حالاً بعد حال، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيراً إلاّ جدّدوا ما هو نقيض المقصود، وهو الاعراض والتكذيب والاستهزاء)[٤].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيْهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلاَّ اسْتَمَعُوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُوْنَ﴾[٥].

وقد استدلّ الجهمية وأتباعهم بهذه الآية على أنّ القرآن مخلوق، لأن الله قال القرآن محدث وكلّ محدث مخلوق[٦].

وأجاب الشوكاني عن هذا الاستدلال الباطل عند تفسيره للآية، قال: (وقداستدلّ بوصف الذكر لكونه محدثاً على أنّ القرآن محدث، لأنّ الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأنّه لا نزاع في حدوث المركّب من الأصوات والحروف،

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني ٢٩.
(٢) انظر: قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي ٦٤ ــ ٦٦ ط ١/ ١٤٠٧ هـ بيروت. تحقيق: محمد بهجة البيطار ومحمد رشيد رضا.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٩٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢.
(٦) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ١٢٠ تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة، ورده ــ رحمه الله ــ على هذا الاستدلال ١٢٠ ــ ١٢٣.

لأنه متجدّد في النزول، فالمعنى: محدث تنزيله)[1] أي أنّ المراد بالمحدث هو التنزيل، وليس الذكر الذي هو القرآن، هذا كما قال الإمام أحمد عن الآية، إنّ المحدث هو تنزيله على لسان الملك الذي أتى به، فالتنزيل هو المحدث، لا الذكر نفسه محدث[2].

ثم بيّن الشوكاني رحمه الله موقفه من مسألة خلق القرآن التي ابتدعتها وتبنّتها الجهمية والمعتزلة فقال: (وهذه المسألة: أي قدم القرآن وحدوثه قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية، والمعتصمية، والواثقية، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل، وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي[3]. وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده، والقصة أشهر من أن تذكر. ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الاجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفّروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظي بالقرآن مخلوق. بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حَدَّ الوقف، وإرجاع العلم إلى علّام الغيوب، فإنّه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام، ولا نقل عنهم

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٩٧.

(٢) ذكره عنه البيهقي في كتابه الاعتقاد ٦٠.

(٣) هكذا في الأصل ولعل الصحيح أحمد بن نصر الخزاعي، أبو عبد الله، من أشراف بغداد، كان يخالف من يقول بخلق القرآن، ويقدح في الخليفة الواثق بالله في أيامه، فقبض عليه وقتله بيده في سامراء ٢٣١ هـ وبعث برأسه إلى بغداد، فنصب فيها ست سنوات. (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي ٥/ ١٧٣ (٢٦٢٣) وصفه الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٢٦٣ (٢٦٧) ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٣٩٨ ط/ ١٣٤٩ هـ بمصر).

كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الاجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسّك بأذيال الوقف وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه)[1].

والشوكاني رحمه الله بهذا قد وقف من رأي الجهمية والمعتزلة القائل بأنّ القرآن مخلوق موقف الواقفية، فلم يجزم فيه برأي هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ ولم يرض من الأئمة إلا الوقوف في هذه المسألة كما وقف السلف في صدر الإسلام.

وهذا موقف غير سديد، لأنّ السلف في صدر الإسلام كانوا في غنى عن الزيادة على القول: القرآن كلام الله، لأنهم لم يكونوا يفقهون من هذه الاضافة إلاّ أنّها صفة من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة، حتى ظهرت الجهمية وظهرت بدعة القول بخلق القرآن، فعقل أئمة السلف خطرها، وقابلوهم برفضها وإنكارها، والتشديد عليهم في ذلك، لأنّ حقيقة كلامهم الكفر، لما تضمّن من تكذيب القرآن، وإثبات النقص لله، ولا سبيل لهم لابطال هذه البدعة إلا أن قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق[2].

وعلى هذا قال الإمام أحمد رحمه الله: (كنّا نرى السكوت عن هذا قبل أن يخوض فيه هؤلاء، فلما أظهروه لم نجد بداً من مخالفتهم والردّ عليهم)[3].

وقد سئل رحمه الله هل لهم رخصة أن يقول الرجل: (القرآن كلام الله تعالى ثم يسكت؟ فقال: ولم يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلّموا فيما تكلّموا لأي شيء لا يتكلّمون)[4].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٩٧.
(٢) انظر: الرد على الجهمية للدارمي ٢٥٩ ضمن عقائد السلف.
(٣) ذكره عنه الدارمي في كتابه: نقض أبي سعيد عثمان الدارمي على بشر المريسي ٤٦٧، ٤٦٨ ضمن عقائد السلف.
(٤) ذكره عنه الآجري في كتابه: الشريعة ٨٧.

قال الآجري[1] بعد أن ساق هذا النص: (معنى قول أحمد بن حنبل في هـذا المعنى: يقـول: لم يختلف أهـل الإيمـان أنّ القـرآن كـلام الله عزّ وجل، فلما جاء جهم فأحدث الكفر بقوله: إنّ القرآن مخلوق لم يسع العلماء إلا الردّ عليه بأنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ غير مخلوق بلا شك، ولا توقّف فيه، فمن لم يقل: غير مخلوق. سمّي واقفياً شاكّاً في دينه)[2].

وقـد دلّ على هذه العقيـدة ـ أعني القرآن كـلام الله غير مخلوق ـ الكتاب والسنّة ونصوص السلف وكلامهم.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[3] حيث فرّق سبحانه وتعالى بين خلقه وأمره، وهما صفتان من صفاته، أما الخلق ففعله، وأما الأمر فقوله، والخلق إنّما يكون بالأمر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنَ﴾[4] فقوله: كن. هو أمره، فلو كان مخلوقاً لاحتاج خلقه إلى أمر، والأمر إلى أمر إلى ما لا نهاية، وهذا باطل.

وعلى هذا قال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله عندما قيل له: إنّ بشراً المريسي[5] يزعم أنّ القـرآن مخلوق: (كذب، قـال الله عزّ وجـلّ: ألا له الخلق والأمر[6]. فالخلق خلق الله تبارك وتعالى، والأمر القرآن)[7].

ومنه أيضاً قوله تعالى مخبراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا

---

(١) تقدمت ترجمته في (ص ١٩٦).
(٢) الشريعة: الآجري ٨٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة يٓس، الآية: ٨٢.
(٥) تقدّمت ترجمته في المقدّمة صفحة (١٠).
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٧) رواه الآجري في الشريعة ٨٠ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٢١٩ برقم (٣٥٨).

﴿قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[1] يعنون القرآن، فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولاً للبشر، وهذا مما أنكره الله على المشركين، وتوعّدهم بالنار حين قال: ﴿سَأُصْلِيْهِ سَقَر﴾[2] أي على مقالتهم هذه، وهذا يدل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق)[3].

واستدلّ الإمام الدارمي بهذه الآية على تكفير الجهمية، لما بين تكذيب المشركين بالقرآن، وما قالت الجهمية سواء، فهذا قول جهم: إن هذا إلا مخلوق، وقول المشركين: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[4] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ إِفْتَرَاه﴾[5] و﴿إِنْ هَذا إِلَّا أَسَاطِيْرُ الأَوَّلِيْنَ﴾[6] و﴿إِنْ هَـذا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[7] معناهم في جميع ذلك ومعنى جهم في قوله يرجعان إلى أنه مخلوق ليس بينهما فيه من البون كغرز إبرة ولاقيس شعرة[8].

ومن السنة قوله ﷺ: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[9].

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٥.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٢٦.
(٣) انظر: الردّ على الجهمية: الدارمي ٢٣٧، ٣٤٥، ٣٤٦ ضمن عقائد السلف، والاعتقاد: البيهقي ٥٩ ولمعة الاعتقاد: ابن قدامة ١٩، ٢٠ ط ٤/ ١٣٩٥ هـ المكتب الإسلامي.
(٤) سورة المدّثر، الآية: ٢٥.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٤.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٨٣.
(٧) سورة صٓ، الآية: ٧.
(٨) الردّ على الجهمية: الدارمي ٣٤٦ ضمن عقائد السلف.
(٩) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء ٤/ ٢٠٨٠ برقم (٢٧٠٨) والترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً ٥/ ٤٦٢ برقم (٣٤٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجة في الطب، باب الفزع والأرق، وما يتعوّذ منه ٢/ ٣٥٤٧) وأحمد في المسند ٦/ ٣٧٧، ٤٠٩.

فأثبت النبي ﷺ في هذا الحديث وأمثاله مشروعية الاستعاذة بكلمات الله، فلو كانت كلماته مخلوقة، لكانت الاستعاذة بها شركاً، لأنّها استعاذة بمخلوق، ومن المعلوم أنّ الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته شركٌ، فدلّ هذا على أنّ كلمات الله تعالى غير مخلوقة.

قال الإمام البخاري رحمه الله وفي هذا دليل أنّ كلام الله غير مخلوق وأنّ سواه خلق[1].

وقال: (إنّ حركات العباد وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأمّا القرآن المتلو المبيّن المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلقه)[2].

وأقوال أئمة السلف في إثبات هذه العقيدة كثيراً جداً:

منها ما روي عن سفيان بن عيينة[3] أنّه قال: (أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار[4] يقولون: القرآن كلام الله وليس بمخلوق)[5].

وعن سفيان الثوري[6] قال: (من قال: إنّ (قل هو الله أحد، الله الصمد) مخلوق فهو كافر)[7].

---

(١) انظر: خلق أفعال العباد: البخاري ١٩٠ ضمن عقائد السلف.
(٢) المصدر السابق ١٣٨.
(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٥٧).
(٤) أبو محمد الجمحي عمرو بن دينار، عالم أهل مكة، سمع ابن عباس وجابراً وغيرهما، وهو محدث وفقيه. توفي ١٢٦ هـ (ميزان الاعتدال: الذهبي ٤/ ١٨٠ (٦٣٦٧) وتقريب التهذيب: ابن حجر ٤٢١ (٥٠٢٤).
(٥) خلق أفعال العباد: البخاري ١١٧ ضمن عقائد السلف، والأسماء والصفات: البيهقي ٢٤٥.
(٦) سبقت له ترجمة في صفحة (٣٥٧).
(٧) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ١/ ١٠٧، ١٠٨ برقم (١٣) وإسناده حسن.

وعن مالك بن أنس إمام دار الهجرة قال: (القرآن كلام الله ليس بمخلوق)[1]، وعن أحمد بن حنبل إمام أهل السنة قال جواباً لسؤال المتوكّل[2] عن مسألة القرآن:

(وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا رحمهم الله أنّهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله عزّ وجلّ وليس بمخلوق. وهو الذي أذهب إليه، ولست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله عزّ وجلّ، أو في حديث عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، أو عن التابعين، فأمّا غير ذلك فإنّ الكلام فيه غير محمود)[3] إلى غير ذلك من أقوال أئمة السلف الذين يقتدى بهم من أهل القرون المفضّلة التي هي خير القرون، كلّها مصرّحة بمذهبهم في أنّ القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق.

وقد ساق الإمام اللالكائي في كتابه: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة[4] القول بذلك عن خمسمائة وخمسين نفساً من علماء الأمة وسلفها، كلّهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر.

وعلى هذا فقد خالف الشوكاني رحمه الله مذهب جمهور السلف حين ذهب إلى الوقوف في هذه المسألة والسكوت عن القول: القرآن مخلوق أو غير مخلوق، والاكتفاء بالقول: إنّه كلام الله. ورعا وخشية من البدعة ومن

---

(١) الأسماء والصفات: البيهقي ٢٤٨.

(٢) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرشيد أبو الفضل، خليفة عباسي ولد ببغداد، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق ٢٣٢ هـ ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتاباً قرىء على المنبر بترك الجدل في القرآن وأن الذمة برئية ممن يقول بخلقه أو غير خلقه، اغتيل بمدينة سامراء ٢٤٧ هـ (تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٧/ ١٦٥ (٣٦١٢) وتاريخ الطبري ١١/ ٢٦، ٦٢).

(٣) رواه ابنه عبد الله في السنة ١/ ١٣٩، ١٤٠ برقم (١٠٧).

(٤) انظر ٢/٣١٢ برقم (٤٩٣) وانظر التفاصيل من صفحة (٢٢٧ ـ ٣١٢).

تكفير طوائف من الناس كما هو واضح من كلامه. وهذا مذهب غير صحيح[1]، والصحيح ما ذهب إليه جمهور السلف من التصريح والتشديد على المبتدعين، لخطورة مقالتهم الفاسدة التي تمسّ العقيدة الإسلامية في صميمها، فوجب تفنيدها وبيان زيغها، وتوطيد دعائم الحقّ بالحجّة الساطعة، والبرهان القاطع وذلك ما كان من الأئمة وأعلام الأمة الذين هم قدوة الناس ـ كما حكيناه عن بعضهم فيما مضى ـ والورع في هذا الموطن وقد أظهرت المبتدعة بدعتها وأضلّت الناس بها يكون ورعاً في غير محله، وهو ورع ممقوت، وخاصة من العلماء الذين يفزع الناس إليهم عند حدوث الفتن وظهور البدع.

ولعل الشوكاني رحمه الله يقصد بالوقف هو الوقف في مسألة قدم القرآن المطلق، لا قدم جنس الكلام الذي هو صفة من صفات الله القائمة بذاته، فهذا ما لا يريده الشوكاني أصلاً، كما هو مفهوم من كلامه الذي أوردناه من البداية.

فالقول بأنّ القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، بل منزّل من عند الله وهو صفة من صفات الله، قديم النوع حادث الآحاد في التنزيل، هذا معتقد السلف أهل السنة والجماعة قاطبة[2].

---

(١) وقد ردّ الإمام الدارمي على هذا المذهب المسمى بالواقفة واحتجّ عليهم فيما احتجّوا به في كتابه: الرد على الجهمية صفحة ٣٤٢ ـ ٣٤٥ ضمن عقائد السلف، كما ذكر الإمام اللالكائي آثاراً عن السلف تردّ عليهم في كتابه: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢ / ٣٢٣ ـ ٣٢٩ فليرجع إليه.

(٢) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ٧٣ ضمن عقائد السلف، وخلق أفعال العباد للبخاري ١٣٨ ضمن عقائد السلف، وصريح السنة لابن جرير الطبري ١٨ تحقيق بدر بن يوسف المعتوق ط ١/ ١٤٠٥ هـ دار الخلفاء، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ٧، ٨ تحقيق بدر البدر، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي ١٨ المكتب الإسلامي، وكتاب مذهب السلف القويم في تحقيق مسألة كلام الله الكريم =

ومنهم الشوكاني رحمه الله فقد قرّر أنّ القرآن كلام الله، لا كلام محمد ﷺ، وأنّه من عند الله، وأنّ محمداً ﷺ إنما يبلّغ إليهم منه ما أمره الله بتبليغه، لا يقدر على غير ذلك، فقال: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾(١) أي أنّ هذا القرآن المتلوّ عليكم هو بمشيئة الله ليس لي في ذلك شيء، ولو شاء الله ما أعلمكم به على لساني(٢).

كما قرّر أنّ كلمات الله لا تتناهى لأنّها تابعة لمعلوماته، وهي غير متناهية فالكلمات غير متناهية(٣).

فإنّه لم يزل يتكلّم بما شاء إذا شاء كيف شاء، ولا يزال كذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّيْ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾(٤).

(ز) صفة العلو:

العلو صفة من صفات الله تعالى الذاتية التي لا تنفكّ عنه، وقد دلّ على ثبوتها: السمع والعقل والفطرة.

وقد تواترت الأدلّة من الكتاب والسنّة على أنّ الله تعالى عال على كلّ شيء، أمّا من الكتاب فقوله تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيْرِ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْمُ﴾(٦).

= لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٣٤٩ دار الكتب العلمية، ومجموع فتاوى لابن تيمية ٦/ ٢٩٢، ١٢/ ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٧٢ وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١٧٩، ١٨٠.

(١) سورة يونس، الآية: ١٦.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٣٠.

(٣) انظر: فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣١٨.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٥) سورة غافر، الآية: ١٢.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على علوّ الله تعالى.

وأما الأحاديث فكثيرة أيضاً، وقد بلغت حد التواتر(٣):

منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قسمة الذهب الذي بعث به علي بن أبي طالب من اليمن إلى المدينة، قال النبي ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتي خبر السماء صباحاً ومساء»(٤).

وحديث الجارية التي سألها رسول الله ﷺ: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: رسول الله، قال: اعتقها فإنّها مؤمنة»(٥) وغيرهما من الأحاديث.

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٦.

(٣) انظر حكاية التواتر في كتاب: إثبات صفة العلو لابن قدامة (٦٦ وما بعدها) تحقيق د/ أحمد عطية الغامدي، ومختصر العلو الذهبي (٨٠ وما بعدها) اختصار الألباني، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (٣٠ وما بعدها) ط/ المكتبة السلفية. وذكر صاحب شرح الطحاوية (ص ٣١٩ ــ ٣٢٢) ما يقرب من عشرين نوعاً من الأدلة على إثبات صفة العلو لله عز وجل ثم قال: وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله، هيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب بعث علي وخالد إلى اليمن (الفتح ٧/ ٦٦٥، ٦٦٦ برقم ٤٣٥١) ومسلم في كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٢/ ٧٤٢ برقم (١٠٦٤) وأحمد في المسند ٣/ ٤، ٥.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ١/ ٣٨١ برقم (٥٣٧) وغيره، وله طرق وشواهد تجدها في كتاب: دفاع عن حديث الجارية رواية ودراية، تأليف: سليم الهلالي. والحديث أورده الشوكاني في نيل الأوطار ٩/ ٦١ =

وقد أجمع سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان على أنّ الله فوق سماواته على عرشه[1].

وأما من العقل فإنّ كلّ عقل صحيح صريح يدلّ على علوّ الله سبحانه على خلقه، لأن العلوّ صفة كمال، والسفل صفة نقص، والله تعالى موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه، ومنزّه عن جميع صفات النقص، فدلّ العقل على اتّصاف الله عزّ وجلّ بصفة العلوّ من وجوه[2]، أذكر واحداً منها وهو: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية، لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إمّا داخله وإمّا خارجه، والأول باطل، فتعيّن الثاني، فلزمت المباينة.

وأما ثبوته بالفطرة فإنّ الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلوّ بقلوبهم عند التضرّع إلى الله تعالى من غير تعلّم معلّم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفكرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء.

يقول ابن عبد البر[3]: (ومن الحجّة في أنّه سبحانه وتعالى على العرش

= باب ما يصير به الكافر مسلما، وقال: أخرجه مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والنسائي من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

(١) انظر: مجموع فتاوى لابن تيمية ٣/ ٢١٩ ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦١ واجتماع الجيوش الإسلامية له ٣٩ وما بعدها.

(٢) ذكرها صاحب شرح العقيدة الطحاوية (صفحة ٣٢٥) ثلاثة وجوه، وذكر ابن القيم ثلاثين دليلاً عقلياً على إثبات صفة العلو (انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٣٥٥ وما بعدها).

(٣) يوسف بن عبد الله بن محمد بن البر النمري القرطبي المالكي أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، يقال له حافظ المغرب، قال الذهبي: كان في أصول الديانة على مذهب السلف، ولم يدخل في علم الكلام، له مؤلفات عظيمة منها: التمهيد وجامع بيان العلم وفضله توفي ٤٦٣ هـ. (وفيات الأعيان: ابن خلكان ٧/ ٦٦ وسير أعلام النبلاء: الذهبي ١٨/ ١٥٣).

فوق السموات السبع، أنّ الموحّدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر، أو نزلت بهم شدّة، رفعوا وجوههم إلى السماء، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء يستغيثون الله ربّهم تبارك وتعالى، هذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته، لأنه اضطراري، لم يخالفهم فيه أحد ولا أنكره عليهم مسلم)[1].

هذه بعض الأدلّة التي تدلّ على إثبات صفة العلوّ لله تعالى، وهو ما اتّفق عليه السلف الصالح من الفقهاء المجتهدين والمحدّثين، فما رأي الشوكاني في هذه الصفة؟

يضطرب كلام الشوكاني بين كتاب وآخر، ففي رسالته التحف في مذاهب السلف أثبت الشوكاني صفة العلو لله تعالى ضمن إثباته الاستواء، فذكر في صدر الرسالة في صيغة السؤال الموجّه إليه أن الله سبحانه في سمائه، مستو على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه في كل مكان. والدليل آيات الاستواء، والصعود والرفع[2]. وقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِيْ السَّمَاءِ﴾[3]

---

(١) التمهيد: ابن عبد البر ٧/ ١٣٤ وانظر أيضاً الاستدلال بالفطرة على علو الله تعالى في: مجموع فتاوى لابن تيمية ٤/ ٦١ وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي ــ ٣٢٥ ــ ٣٢٨.

(٢) الاستواء كقوله تعالى: ﴿الرحمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (سورة طه، الآية: ٥) والصعود كقوله تعالى: ﴿الَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ﴾ (سورة فاطر، الآية: ١٠) والرفع كقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ الله إلَيْهِ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٥٨).

(٣) سورة الملك، الآية: ١٦. قال شارح الطحاوية (ص ٣٢٠): وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد الوجهين: إما أن تكون فِيْ بمعنى عَلَى وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره. اهـ. قلت: فالأول كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيْرُوا فِيْ الأَرْضِ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١١) أي على الأرض، والثاني كقوله تعالى: ﴿وَأَنْـزَلَ مِنَ السَمَاءِ مَاءً﴾ (سورة طه، الآية: ٥٣) وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيْهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ (سورة النور، الآية: ٤٣) أي من عال، =

ومن السنن حديث الجارية[1]، والنزول[2] وعمران بن حصين[3] وقوله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»[4]، وغير ذلك من الآيات المتواترة والأحاديث المتكاثرة[5].. إلى أن قال في إثبات صفة الاستواء: نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلا هو وكيفية لا يدري بها سواه، ولا نكلّف أنفسنا غير هذا، فليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا يحيط عباده به علماً، وهكذا يقولون (يعني السلف) في مسألة الجهة[6] (يعني العلو)، والأدلة في ذلك طويلة كثيرة في

= لأن السماء قد تطلق على جهة العلو. (انظر تفسير ابن كثير في هذه الآيات وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٦٨، ١٠٦ وفتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤١).

(١) تقدم تخريجه قبل قليل انظر صفحة (٤٢٨).

(٢) حديث النزول: هو قوله ﷺ: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستيجب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب الدعاء والصلاة من آخر الليل الفتح ٣/ ٣٥، ٣٦ برقم (١١٤٥) وأيضاً (٦٣٢١، ٧٤٩٤) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/ ٥٢١ برقم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي الباب عن غير واحد من الصحابة يجزم الواقف على أحاديثهم أن حديث النزول متواتر.

(٣) لعلّه يقصد حديث عمران بن حصين الذي قال: قال النبي ﷺ لأبي: يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي: سبعة، سِتّاً في الأرض، وواحداً في السماء، قال: فأيّهم تُعِدّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء. الحديث (أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات باب (٧٠) ٥/ ٤٨٥ برقم (٣٤٨٣) وقال هذا حديث غريب، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١ دار الفكر، وعلقه في خلق أفعال العباد ١٣٤ ضمن عقائد السلف، والبيهقي في الأسماء والصفات ٥٣٤ وسنده ضعيف).

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل. انظر صفحة (٤٢٨).

(٥) لعل الأنسب أن يقال: من الآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة.

(٦) لم يرد لفظ (الجهة) لا في الكتاب ولا في السنة، وعليه فلا ينبغي إثباتها ولا نفيها وجملة القول فيها: أنه إن أريد بها أمر وجودي غير الله كان مخلوقاً، والله تعالى فوق خلقه لا يحصره ولا يحيط به شيء من المخلوقات، فإنه بائن من المخلوقات، وإن أريد بالجهة أمر عدمي، وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده، وهذا المعنى =

الكتاب والسنة، وقد جمع أهل العلم منها لا سيّما أهل الحديث مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط في مجلد واحد[1]، جمعه مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي رحمه الله[2] استوفى فيه كلّ ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب[3].

وبيّن رحمه الله ثبوت العلوّ لله بالفطرة فقال: (. . . بل هذا مما يجده كلّ فرد من أفراد الناس في نفسه، ويحسّه في فطرته وتجذبه إليه طبيعته كما تراه في كلّ من استغاث بالله سبحانه وتعالى والتجأ إليه، ووجّه أدعيته إلى جانبه الرفيع، وعزّه المنيع، فإنّه يشير عند ذلك بكفّه أو يرمي إلى السماء بطرفه، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء وحدوث بواعث الاستغاثة، ووجود مقتضيات الازعاج، وظهور دواعي الالتجاء، عالم الناس وجاهلهم، والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل القائلين بأنّ الاستواء هو الاستيلاء، كما قال جمهور المتأوّلين والأقيال)[4].

هذا ما قاله الشوكاني في رسالته التحف وهو كلام صحيح لا غبار عليه، أما في تفسيره للآيات فلم يسلك مسلكاً صحيحاً حيث أوّل ظاهر

= الأخير هو المراد من كلام لمثبتين للعلو. (انظر: مختصر العلو للذهبي (٧١، ٨٢) وأيضا نقض تأسيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٥٠٢) والتدمرية له (٤٥) ومناهج الأدلة لابن رشد (١٧٨) تحقيق محمود قاسم ط ٣/ القاهرة).

(١) وهو كتاب: العلو للعلي الغفار. طبع مرات، ثم اختصره الألباني مقتصراً على الصحيح الثابت منه.

(٢) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أبو عبد الله، حافظ مؤرّخ، علاّمة محقق محدّث العصر، وشيخ الجرح والتعديل، له التصانيف الجزيلة الحديث وأسماء الرجال والتواريخ تقارب المائة، منها: سير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال، والكبائر. توفي ٧٤٨ هـ (طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (٥/ ٢١٦) وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (٦/ ١٥٣) ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة (١/ ٢٣٩).

(٣) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١، ١١ ضمن الرسائل السلفية.

(٤) المصدر السابق ١١.

الآيات تأويلاً أشعرياً ولم يظهر منها صفة العلوّ لله تبارك وتعالى، وإليك بعض الأمثلة من تفسيره:

قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيْم﴾[1] (والعلي: يراد به علو القدرة والمنزلة. وحكى الطبري عن قوم أنّهم قالوا: هو العلي عن خلقه، بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه قال ابن عطية[2]. وهذا أقوال جهلة مجسّمين، وكان الواجب أن لا تحكى.

ثم قال (أي الشوكاني): (والخلاف في إثبات الجهة معروف في السلف والخلف، والنزاع فيه كائن بينهم، والأدلة من الكتاب والسنة معروفة، ولكن الناشىء على مذهب يرى غيره خارجاً عن الشرع، ولا ينظر في أدلته، ولا يلتفت إليها، والكتاب والسنّة هما المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، ويتبين به الصحيح من الفاسد، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَواتُ وَالأَرْض﴾[3] ولا شكّ أن هذه اللفظ يطلق على الظاهر والغالب، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِيْ الأَرْضِ﴾[4].

وقال الشاعر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر[5]

ويظهر لي أن الشوكاني رحمه الله يقصد بالظاهر والغالب من معنى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحازمي أبو محمد مفسر فقيه أندلسي من أهل غرناطة له: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز توفي ٥٤٢ هـ وقيل غيره (تذكرة الحفاظ: الذهبي (٤/ ١٢٦٩) والأعلام: الزركلي (٣/ ٢٨٢) ومعجم طبقات الحفّاظ والمفسّرين: عبد العزيز السيروان (٢٦٣).

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٤.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٧٢.

(العلي) علو القدرة والمنزلة، كما فسّره في أوّل الكلام، وكما يفهم من المثالين الذين مثّل بهما، وقد فسّر كلمة (علا) في الآية بمعنى: تكبر وتجبر بسلطانه، نقلاً عن المفسّرين[١].

وأيّد ما ذهبت إليه أنّه فسّر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[٢] قال: ومعنى (فوق عباده): فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته: أي بالمنزلة والرفعة)[٣].

وفسّر قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ﴾[٤] قال: (المتعال: العظيم الذي كل شيء دونه، المتعالي عما يقوله المشركون أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره)[٥].

وقال في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[٦] أي إلى المكان الذي ينتهون إليه، وقيل: إلى عرشه)[٧].

قلت: والصحيح ما ذهب إليه السلف من أن الضمير راجع إلى لفظ الجلالة لأنه أقرب إليه ذكراً. قال البخاري رحمه الله: (باب قول الله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾... يقال: ذي المعارج: الملائكة تعرج إلى الله)[٨] وهذه الآية يستدلّ بها على علوّه تعالى فوق خلقه.

وقال في قوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِيْ السَّمَاءِ﴾[٩] و ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِيْ

---

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ١٥٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٨، ٦١.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٠٤ وانظر أيضاً ٢/ ١٢٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٩.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٦٧.
(٦) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٨٨.
(٨) انظر: الفتح (١٣/ ٤٢٦).
(٩) سورة الملك، الآية: ١٦.

السَّمَاءِ﴾[1] (قال المفسّرون: أي عقوبة من في السماء، وقيل: قدرته، وسلطانه، وعرشه، وملائكته، وقيل: من في السماء من الملائكة، وقيل: جبريل[2].

قلت: لم يصرّح الشوكاني في تفسير (من في السماء) بأنّه هو الله عزّ وجلّ أي أنّه في العلوّ المطلق، بائن عن خلقه، بل نقل أقوال المفسّرين المخالفين لمذهب السلف في تأويل معنى الآية، ولم يعقّب عليها، والحقّ ما ذهب إليه السلف من أن المراد هو الله عزّ وجلّ، لأنّه تعالى في السماء الذي هو العلوّ المطلق، وهو في عليائه فوق عرشه بائن من خلقه.

وهكذا فلم يثبت الشوكاني رحمه الله من خلال هذه الآيات وأمثالها أنّ الله سبحانه وتعالى عال فوق خلقه، بائن عنه، لا يحصره، ولا يحيط به شيء من المخلوقات، كما أثبته في رسالته التحف التي بيّن فيها مذهب السلف الصالح في الصفات، ولم يفرّق بين صفة وأخرى، بل أجراها على ظاهرها مع اعتقاد معناها من دون تأويل ولا تعطيل، ومن دون تشبيه ولا تمثيل[3]. ولعلّ ما قرّره في رسالته هذه هو الذي يمثّل منهجه الحقيقي الذي يرجع إليه في هذه القضية.

(ح) صفة الوجه:

لم ينصّ الشوكاني رحمه الله في رسالته التحف على صفة الوجه ضمن الصفات التي أثبتها لله على مذهب السلف، إلاّ أنّنا نفهم من كلامه أنّه أثبت صفة الوجه لله تعالى كما أثبت غيرها من الصفات التي نطق بها كتاب الله وأفصحت عنها سنّة نبيّه ﷺ، من إقرارها وإمرارها على الظاهر بغير تكييف

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٧.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٦٢.

(٣) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية.

وتمثيل ولا تأويل ولا تعطيل[1]. وعلى وجه لا يعلمه إلا الله، فإنه القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[2][3].

وصفة الوجه من الصفات الخبرية التي لا تثبت إلا بالسمع، وقد ورد ذكرها في مواضع كثيرة من القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وجْهَهُ﴾[4].

وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[5].

وقوله: ﴿وَمَا ءاتيتم مِنْ زَكَاةٍ تُرِيْدُوْنَ وَجْهَ اللَّهِ﴾[6] وغير ذلك من الآيات الدالة على ثبوت صفة الوجه لله تعالى.

ومن السنّة قوله ﷺ: «جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم عزّ وجلّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[7].

وغيره من الأحاديث[8] وقد روي تفسير المزيد في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ

---

(١) انظر: المصدر السابق ١.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٦، ٢٧.

(٦) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٧) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة (الفتح ١٣/ ٤٣٣ برقم (٧٤٤٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه (١/ ١٦٣ برقم ١٨٠.

(٨) انظر: ما أورده ابن خزيمة من الأحاديث والآثار في هذا المعنى في كتاب التوحيد (١/ ٢٤ ـ ٤٤) والآجري في الشريعة (٢٥١)، والدارمي في نقضه على المريسي (٥١٧ ـ ٥١٩)، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٥ ـ ٣٤٤).

أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[1] بالنظر إلى وجه الله الكريم عن كثير من الصحابة[2].

والشوكاني رحمه الله في تفسيره للآيات لم يثبت صفة الوجه لله تعالى حقيقة، بل أوّله بالذات، ولم أقف على تصريحه بإثبات صفة الوجه لله تعالى من خلال تفسيره.

فقال في معنى الآية الأولى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: أي ذاته[3].

وقال في الآية الثانية: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾: (الوجه: عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده، وقيل معنى: يبقى وجه ربك: تبقى حجته التي يتقرّب بها إليه)[4].

والصحيح إثبات الوجه في الآية لله تعالى حقيقة على ما يليق به، وعدم تأويله بالذات أو بغيرها، لأنّ التأويل حمل للكلام على غير معناه الحقيقي، ولا يصحّ ذلك إلا بقرينة مانعة من حمله على الحقيقة، وليس هنا أيّ قرينة صحيحة تمنع ذلك[5].

والقول بإثبات الوجه لله على ما يليق بجلاله وعظمته قول السلف، وقد

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٢) انظر: نقض الدارمي على المريسي (٥١٦، ٥١٨) ضمن عقائد السلف، والسنة لعبد الله ابن الإمام أحمد تحقيق د/ محمد سعيد القحطاني (برقم ٤٤٣، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨٤) والشريعة للآجري (٢٥٢) والتمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٥٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٧) وأيضاً فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٤١).

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ١٨٩.

(٤) المصدر السابق ٥/ ١٣٦.

(٥) انظر: ما أورده الدارمي من ردوده على المعطلين لهذه الصفة في نقض الدارمي على المريسي (٥١٥) وما بعدها، ضمن عقائد السلف، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٦ ـ ٣٤٤).

قرّره الشوكاني رحمه الله في رسالته التحف، واتّخذه منهجاً لإثبات جميع ما وصف الله تعالى به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقص كما ذكرنا.

(ط) صفة العين:

إنّ ما قلناه في صفة الوجه نقوله أيضاً في صفة العين، فإنّ الشوكاني رحمه الله لم ينصّ في رسالته التحف على هذه الصفة ضمن الصفات التي أثبتها لله تعالى، لكنّ كلامه يدلّ على أنّه أثبت هذه الصفة، لأنّه لم يفرّق بين صفة وأخرى، بل أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة وأجراها على ظاهرها مع اعتقاد معناها من دون تأويل ولا تعطيل، ومن دون تشبيه ولا تمثيل[(١)].

وهذا هو المذهب الحق الذي عليه سلف الأمة وأئمّتها، غير أن الشوكاني في تفسيره لم ينهج هذا المذهب، فلم يظهر من الآية صفة العين لله، ويذهب في معظم تفسيراته للآيات طريقة المؤوّلة.

وفيما يلي أذكر بعض الأمثلة من تفسيره:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[(٢)]: (أي متلبّساً بحفظنا وكلائتنا)[(٣)].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[(٤)]: (أي بمرأى ومنظر منّا، وفي حفظنا وحمايتنا، فلا تبال بهم)[(٥)].

---

(١) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (٥، ٨، ١٠) ضمن الرسائل السلفية.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٤٨١.
(٤) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ١٠٢.

ومثل هذا فسّر قوله تعالى: عن سفينة نوح عليه السلام ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[1].

قال: (بمنظر ومرأى منا، وحفظ لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقيل: بأمرنا، وقيل: بوحينا، وقيل بالأعين النابعة من الأرض وقيل بأعين أوليائنا من الملائكة الموكّلين بحفظها)[2].

وفي قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِيْ﴾[3] قال: (أي ولتربّي وتغذّى بمرأى منّي، يقال: صنع الرجل جاريته، إذا ربّاها وصنع فرسه: إذا داوم على علفه والقيام عليه، وتفسير: على عيني، بمرأى منّي صحيح، قال النحاس[4]: وذلك معروف في اللغة، ولكن لا يكون في هذا تخصيص لموسى فإنّ جميع الأشياء بمرأى من الله)[5].

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[6]: (أي اعمل السفينة متلبّساً بأعيننا: أي بمرأى منّا، والمراد: بحراستنا لك وحفظنا لك، وعبّر عن ذلك بالأعين لأنّها آلة الرؤية، والرؤية هي التي تكون بها الحراسة والحفظ في الغالب، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير، وقيل: المعنى (بأعيننا): بعلمنا، وقيل: بأمرنا)[7].

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ١٢٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٤) أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري أبو جعفر النحّاس، مفسّر، أديب له إعراب القرآن، وناسخ القرآن ومنسوخه، توفي ٣٣٨ هـ (وفيات الأعيان: ابن خلكان (١/ ٢٩) والبداية والنهاية: ابن كثير (١١/ ٢٢٢) والأعلام: الزركلي (١/ ٢٠٨).
(٥) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٦٥.
(٦) سورة هود، الآية: ٣٧.
(٧) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٩٧ وانظر ردّ الشيخ السفاريني على هذه التأويلات في كتابه لوامع الأنوار (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

قلت: والصواب إثبات صفة العين في هذه الآيات لله تبارك وتعالى، ومن لوازم إثباتها ما ذكره الشوكاني من تفسيرات للعين، فإذا أثبتنا صفة العين أثبتنا اللوازم من الرؤية والكلاءة والحفظ والحراسة وما شابه ذلك.

قال ابن خزيمة بعد أن ساق هذه الآية: (فواجب على كلّ مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبّت الخالق البارىء لنفسه من العين، وغير مؤمن: من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبّته الله في محكم تنزيله)[1].

فالشاهد من الآيات أنّ فيها إثبات العينين لله تعالى حقيقة على ما يليق به سبحانه، أما اضافة لفظ العين إليه سبحانه في بعض الآيات مفردة وفي بعضها مجموعة فتلك جائزة في لغة العرب، فإن أضافوا الواحد المتّصل إلى مفرد أفردوه، كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِيْ﴾[2]، ومثل قوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[3] ويقال: رأيت بعيني وسمعت بأذني، والمراد عيناي وأذناي وإن أضافوا إلى جمع ظاهر أو مضمر فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كما في قوله تعالى: ﴿تَجْرِيْ بِأَعْيُنِنَا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَاماً﴾[5] وإن أضافوه إلى اسم مثنّى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوْبُكُما﴾[6] والمراد قلباكما ومثله قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوَا أَيْدِيَهُما﴾[7] أي يديهما. فيعبّر بها عن الإثنين بلفظ الجمع[8].

---

(١) كتاب التوحيد: ابن خزيمة (١/ ٩٧) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان.
(٢) سورة طه، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الملك، الآية: ١.
(٤) سورة القمر، الآية: ١٤.
(٥) سورة يّس، الآية: ٧١.
(٦) سورة التحريم، الآية: ٤.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٣٨.
(٨) انظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢٥، ٢٧) وأيضاً شرح العقيدة الواسطية للهراس ٦٣.

ويدلّ على إثبات صفة العين لله تعالى من السنة قوله ﷺ: «إنّ الله لا يخفى عليكم، إنّ الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه وإنّ المسيح الدجّال أعور عين اليمنى، كأنّ عينه عنبة طافية»[1].

قال الإمام الدارمي: (العور عند الناس ضدّ البصر، والأعور عندهم ضدّ البصير بالعينين)[2].

والحديث يدلّ على إثبات العينين لله تعالى، صفة من صفاته على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو ﷺ ينفي نقص العور عن الله تبارك وتعالى والعور في المخلوق نقص، فكلّ نقص تنزه عنه المخلوق فالله أحقّ بالتنزه عنه، وكلّ كمال اتّصف به المخلوق وأمكن أن يتّصف به الخالق، فالخالق أولى بالاتّصاف به من كلّ مخلوق[3].

ولا يقتضي إثبات صفة العينين لله أن تكونا مشابهتين للمخلوقات، لأنّ المقصد إثبات وجود وكمال، لا إثبات تشبيه، وهذا ما قرّره الشوكاني رحمه الله في إثبات جميع الصفات لله تعالى في رسالته التحف[4]. وهو الحق الذي عليه السلف أهل السنة والحديث[5]. كما حكى الإمام أبو الحسن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله الله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾. (الفتح ١٣/ ٤٠١ برقم ٧٤٠٧).

(٢) ردّ الإمام الدارمي على المريسي. ضمن عقائد السلف ٤٠١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٩/ ١٤١)، وشرح العقيدة الواسطية للهراس (٢٣، ٢٤).

(٤) انظر: ص (١٠، ١٢) ضمن الرسائل السلفية.

(٥) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ٩٦ ــ ١٠٥) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان، والاعتقاد للبيهقي (٥٣ ــ ٥٥)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/ ٤١٢)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (٥) تحقيق بدر البدر، والعقيدة الحموية الكبرى لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (١/ ٤٥٨) ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢٢، ٢٣) ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٣٨ ــ ٢٤١).

الأشعري عنهم[1].

(ي) صفة اليد:

أثبت الشوكاني رحمه الله في رسالته: التحف، صفة اليد لله تعالى مع غيرها من الصفات، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات[2]. بل على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلّف، ولا قيل وقال ولا قصور في شيء من المقال[3].

وقد دلّ على هذا الإثبات القرآن الكريم والسنّة المطهّرة:

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[5].

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[6].

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾[7].

ومن السنة قوله ﷺ: «إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزّ وجلّ، وكلتا يديه يمين»[8].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين له (١/ ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٤٥) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (ط ٢/ ١٣٨٩ هـ) مكتبة النهضة المصرية، والإبانة في أصول الديانة له (٢٢) وأيضاً (١٢٠، ١٢١) ـ تحقيق د/ فوقية حسين محمود.

(٢) انظر: التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (١٠) ضمن الرسائل السلفية، وقد نصّ فيه صفة اليد مع السمع والبصر والاستواء.

(٣) المصدر السابق ١٢.

(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

(٥) سورة صٓ، الآية: ٧٥.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٧) سورة يٓس، الآية: ٧١.

(٨) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (٣/ ١٤٥٨) برقم (١٨٢٧) وأورد الشوكاني مثله في فتح القدير (٢/ ٢٦٤).

وقوله ﷺ: في حديث احتجاج آدم على موسى: «احتجّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربّهما، فحجّ آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه..» الحديث[1].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث[2] التي تدلّ دلالة واضحة على إثبات اليدين لله تعالى حقيقة، وهما صفة ذاتية له سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمته، وليستا جارحتين، ولا قدرتين، ولا نعمتين، بل يدان لا كالأيدي، لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[3].

والقول بهذا الإثبات مع التنزيه قول السلف أهل السنة رضوان الله عليهم ومنهم الشوكاني رحمه الله في رسالته التحف. غير أنّه في تفسيره لهذه الآيات وأمثالها لم ينهج مذهب السلف، حيث يؤوّل تأويلاً على خلاف ما يدلّ عليه ظاهر الآية، معتمداً في الغالب على نقول من المفسّرين المخالفين لمذهب السلف دون تعقيب عليها.

وفيما يلي نأخذ بعض الأمثلة من تفسيره:

قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَاعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ﴾[4].

(والمعنى: إنّ عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه من

(١) تقدم تخريجه في صفحة (٢٦٦).
(٢) انظر: ما أورده ابن خزيمة من الأحاديث والآثار في هذا المعنى في كتاب التوحيد (١/ ١١٩ ـ ١٧٧) تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان، والآجري في الشريعة (٣٢١، ٣٢٢) وشيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى: (٥/ ٨٨، ٨٩) وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٣ ـ ٣٣٥).
(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

غير تفاوت. وقال الكلبي[1]: المعنى إنّ نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة. وقيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء. وقال ابن كيسان[2]: قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم)[3].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[4]: (اليد عند العرب تطلق على الجارحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾[5]. وعلى النعمة، يقولون: كم يد لي عند فلان. وعلى القدرة، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾[6]. أو على التأييد، ومنه قوله ﷺ: «يد الله مع القاضي حين يقضي»[7]. ويطلق على معان أخر. وهذه الآية على طريق التمثيل... فمراد اليهود هنا ــ عليهم لعائن الله ــ: إنّ الله بخيل)[8].

وقال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[9]: (أي بل هو في غاية ما

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي أبو القاسم: فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من أهل غرناطة. من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل في التفسير، وتقريب الوصول إلى علم الأصول. توفي ٧٤١ هـ (انظر: الدرر الكامنة: ابن حجر ٣/ ٤٤٦، والأعلام: الزركلي ٥/ ٣٢٥).

(٢) محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن المعروف بابن كيسان، عالم بالعربية نحواً ولغةً، من أهل بغداد. من كتبه: معاني القرآن، وغريب الحديث توفّي ٢٩٩ هـ (انظر: شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢/ ٢٣٢، والأعلام: الزركلي ٥/ ٣٠٨).

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

(٥) سورة صٓ، الآية: ٤٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤١٤)، والترمذي بلفظ: أنّ الله مع القاضي. (٣/ ٦١٨ برقم ١٣٣٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وكذلك ابن ماجة في كتاب الأحكام (٢/ ٧٧٥ برقم ٢٣١٢).

(٨) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٥٧.

(٩) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

يكون من الجود، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلاّ اليد الواحدة مبالغة في الردّ عليهم، بإثبات ما يدلّ على غاية السخاء، فإنّ نسبة الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة، وقيل: المراد بقوله: بل يداه مبسوطتان: نعمة الدنيا الظاهرة ونعمته الباطنة، وقيل: نعمة المطر والنبات، وقيل: الثواب والعقاب)[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[2]: (واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء)[3].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيْسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]: (أي ما صرفك وصدّك عن السجود لما تولّيت خلقه من غير واسطة، وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له وتشريفاً، مع أنّه سبحانه خالق كلّ شيء، كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد، وقيل: اليد هنا بمعنى التأكيد والصلة مجازاً، كقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[5]، وقيل: أراد باليد القدرة، يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان. أي قدرة، ومنه قول الشاعر:

تحمّلت من زلفاء ما ليس له يد ... ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل: التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى القوة والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه)[6].

قلت: وهذا الذي رواه الشوكاني رحمه الله بصيغة التمريض كغيره هو

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٥٧.
(٢) سورة الملك، الآية: ١.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٥٨.
(٤) سورة صٓ، الآية: ٧٥.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٤٥.

الصحيح الذي دلّت عليه النصوص، ولا يمكن حمل اليدين في الآية على القدرة أو نحوها، لأنّ قدرة الله أكثر من أن تحصى، ومحال أن تكون قدرتين لا أكثر، وأيضاً لو كانت اليدان بمعنى القدرة أو نحوها لم يكن لآدم عليه السلام على إبليس خصوصية يتميز بها، لأنّ إبليس أيضاً، بل سائر المخلوقات قد خلقها الله تعالى بقدرته، فدلّ هذا على أنّ اليدين صفة حقيقية لله وليس معناها القدرة، وإلّا لم يكن لهذا معنى(١).

وقد قرّر ذلك الشوكاني رحمه الله تعالى إذ قال: (فقد شرّف سبحانه آدم بشرف، وكرّم بكرامة، لا يوازيها شيء من شرف العناصر، وذلك أنّ الله خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، والجواهر في أنفسها متجانسة، وإنّما تشرف بعارض من عوارضها)(٢).

هذا بالإضافة إلى أنّ لفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله قط إلّا في اليد الحقيقية(٣).

يقول الهراس شارح العقيدة الواسطية: (لفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلّا في اليد الحقيقية، ولم يرد قطّ بمعنى القدرة أو النعمة، فإنّه لا يسوغ أن يقال: خلقه الله بقدرتين، أو بنعمتين، على أنّه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة أو القدرة أو غيرهما، إلّا في حقّ من اتّصف باليدين

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/ ١١٨) وما بعدها، تحقيق: د/ عبد العزيز الشهوان، والإبانة لأبي الحسن الأشعري (١٢٥ ــ ١٢٨) تحقيق: د/ فوقية حسين محمود، والشريعة للآجري (٣٢٣ ــ ٣٢٥) وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (٤، ٥) تحقيق: بدر البدر، والاعتقاد للبيهقي (٥٣)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٦٩)، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٣٢٢) وما بعدها.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٤٥).

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٣٢٤) وانظر أيضاً الإبانة لأبي الحسن الأشعري (١٢٦ ــ ١٢٨) تحقيق: د/ فوقية حسين محمود، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٦٥).

على الحقيقة، ولذلك لا يقال للريح يد، ولا للماء يد)[1].

أمّا ذكر اليد بلفظ الافراد في بعض النصوص، وفي بعضها بلفظ التثنية، وبلفظ الجمع في البعض الآخر، فإنّ لغة العرب تتّسع لذلك، كما تقدّم بيانه في صفة العين، فإنّ ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد، تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، والمراد: عيناي وأذناي، وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنّى أحياناً، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[2] والمراد: قلباكما[3].

يقول ابن القيم رحمه الله: (إنّ لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرد أو مثنّى ومجموعاً. فالمفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[4] والمثنّى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[5] والمجموع كقوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[6] فحيث ذكر اليد مثنّاة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الافراد، وعدّى الفعل بالباء إليهما فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعدّ الفعل بالباء، فهذه ثلاثة فروق، فلا يحتمل (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) من المجاز ما يحتمله (عَمِلَتْ أَيْدِينَا) فإنّ كلّ أحد يفهم من قوله: (عَمِلَتْ أَيْدِينَا) ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[7] وأمّا قوله: (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) فلو كان المراد منه مجرّد الفعل لم يكن لذكر اليد

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للهراس (٥٦).

(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.

(٣) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ٦٢، وانظر أيضاً مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٤٥، ٤٦ و٦/ ٣٧٠، ومختصر الصواعق المرسلة: لابن القيم ٢٧.

(٤) سورة الملك، الآية: ١.

(٥) سورة صٓ، الآية: ٧٥.

(٦) سورة يٓس، الآية: ٧١.

(٧) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنّيت؟

وسرّ الفرق أنّ الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الاضافة إليه كقوله: (بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ) (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ)، وأمّا إذا أضيف إليه الفعل ثمّ عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثنّاة فهو مما باشرته يده، ولهذا قال عبد الله بن عمرو: (إنّ الله لم يخلق بيده إلّا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنّة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده، فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كلّ شيء مما خلق بالقدرة)[1].

ومما يبعد حمل اليد على القدرة أو النعمة أو نحوهما زيادة على ما ذكر، ما ورد من اثبات الكفّ، والأصابع، واليمين، والقبض، لله تعالى. أمّا في إثبات الأصابع واليمين والقبض فأورد الشوكاني رحمه الله حديثين جاءا بذكر هذه الصفات:

الحديث الأوّل: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنّا نجد أنّ الله يحمل السموات يوم القيامة على اصبع، والشجر على أصبع، والماء والثرى على أصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوْا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيْعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

والحديث الثاني: ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض

(١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧. والحديث تقدم تخريجه في صفحة ٣٥١.

يـوم القيامـة، ويـطوي السمـاء بيمينـه، ثمّ يقـول: أنـا الملك، أين ملوك الأرض»[1]؟

قال الشوكاني بعد ذكر الحديثين: (وفي الباب أحاديث وآثار تقتضي حمل الآية (أي قوله تعالى: والسموات مطويات بيمينه)[2] على ظاهرها من دون تكلّف لتأويل ولا تعسّف لقال وقيل)[3].

بهذا يوافق الشوكاني مذهب السلف في إثبات هذه الصفات، وكـان عليه أن يسلك هذا المسلك في تفسير جميع النصوص الواردة بإضافة اليد إلى الله تعالى، فلا يؤوّلها تأويلاً بعيداً عمّا يدلّ عليه ظاهرها، ولا يقع في تناقض كان باستطاعته عدم الوقوع فيه لو طبّق هذا المنهج في جميع تفسيره للنصوص.

(ك) صفة الساق:

وردت كلمة «ساق» في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ فَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ﴾[4].

في هذه الآية أورد الشوكاني رحمه الله أقوال المفسرين في معنى الساق فقال: (قال الواحدي[5]: قال المفسرون في قوله: (عن ساق) عن شدّة من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي. (الفتح ١٣/ ٤٠٤ برقم ٧٤١٢)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٤٧٧.
(٤) سورة القلم، الآية: ٤٢.
(٥) علي بن أحمد بن محمد بن متوية أبو الحسن الواحدي مفسّر عالم بالأدب، وصفه الذهبي بأنه إمام علماء التأويل، له: البسيط، والوسيط، والوجيز، كلها في التفسير. تـوفي ٤٦٨ هـ (انظر سيـر أعلام النبـلاء ١٨/ ٣٣٩، والبدايـة والنهايـة: ابن كثير ١٢/ ١١٤).

الأمر. قال ابن قتيبة[1]: أصل هذا أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمّر عن ساقه، فيستعار الكشف عن الساق في موضع الشدّة، وقيل: ساق الشيء أصله وقوامه، كساق الشجرة وساق الإنسان، أي يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه، وقيل: يكشف عن ساق جهنّم، وقيل: عن ساق العرش. وقيل: هو عبارة عن القرب. وقيل: يكشف الربّ عن نوره)[2].

والشوكاني رحمه الله لم يرجّح لديه قول من هذه الأقوال، لأنّه وجد أحاديث عن رسول الله ﷺ تفسّر معنى الآية، منها: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربّنا عن ساقه، فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً».

قال الشوكاني: (وهذا الحديث ثابت من طرق في الصحيحين[3] وغيرهما[4]، وله ألفاظ في بعضها طول، وهو حديث مشهور معروف... إلى أن قال بعد أن ساق عدّة أحاديث في معنى الآية: وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صحّ عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء. وأنشد:

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٦٥).

(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٢٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: يوم يكشف عن ساق. (الفتح ٨/ ٥٣١ برقم ٤٩١٩) وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة. من حديث طويل (الفتح ١٣/ ٤٢٩ برقم ٧٤٣٩) ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧، ١٦٨ برقم ١٨٣).

(٤) أخرجه أيضاً أحمد في المسند (٣/ ١٧، ٦٠)، والدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب في سجود المؤمنين يوم القيامة (٢/ ٤٢٠ برقم ٢٨٠٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦)، وابن مندة في الردّ على الجهمية (٤٠ برقم ٨) تحقيق: د/ علي ناصر الفقيهي.

دعـوا كلّ قـول عنـد قـل محمـد فمـا آمن في دينـه كمخـاطـر[1]

قلت: إنّ ما ذهب إليه الشوكاني من إثبات صفة الساق لله تعالى على ما يليق بجلاله، وتفسير معنى الساق في الآية بما في الحديث هو مذهب السلف،

قال الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: باب: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ ثمّ أورد الحديث[2]. أي حديث أبي سعيد الخدري المذكور، ففيه التصريح في أنّ الله تعالى يكشف عن ساقه، وعند ذلك يسجد له المؤمنون.

أمّا الآية فليست نصّاً في أنّ الساق صفة لله تعالى، لأنّه جاء نكرة غير معرّف بالاضافة إلى الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ولا ريب أنّ ظاهر القرآن لا يدلّ على أنّ هذه من الصفات، فإنّه قال: يوم يكشف عن ساق: نكـرة في الإثبات، لم يضفهـا إلى الله، ولم يقل: عن سـاقه، فمـع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنّه من الصفات إلاّ بدليل آخر)[3]. وهو الحديث المذكور، فإنّه يدلّ دلالة واضِحة على أنّه صفة لله تعالى، فلا يجوز تأويله بعد ذلك.

وقد أوضح العلاّمة ابن القيم هذا الموضوع إذ قال بعـد ذكر الآيـة: (والصحابة متنازعون في تفسير الآية على المراد بها: أنّ الربّ تعالى يكشف عن سـاقه[4]، ولا يحفظ عن الصحـابة والتـابعين نزاع فيمـا يذكـر أنّه من

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٢٧٧، ٢٧٨).
(٢) انظر الفتح لابن حجر (٨/ ٥٣١ حديث رقم ٤٩١٩).
(٣) مجموع فتاوى (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥).
(٤) انظر الأقوال في معنى الآية في: تفسير الطبري (٢٩/ ٣٩)، والردّ على الجهمية لابن منده (٣٦ ــ ٤٠) تحقيق/ د. علي بن ناصر الفقيهي، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٥)، وفتح القدير: الشوكاني (٥/ ٢٧٨).

الصفات أم لا في غير هذا الموضع. وليس في ظاهر القرآن ما يدلّ على أنّ ذلك صفة لله تعالى، لأنّه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنّما ذكره مجرّداً عن الاضافة منكراً، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، إنّما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحّته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه: (يكشف عن ساق) مطابق[1] لقوله ﷺ: «فيكشف عن ساقه» وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنّه قال: يكشف عن ساق عظيمة، قالوا: وحمل الآية على الشدّة لا يصحّ بوجه، فإنّ لغة القوم أن يقال: كشفت الشدّة عن القوم، لا كشفت عنها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾[2] فالعذاب هو المكشوف، لا المكشوف عنه، وأيضاً فهناك تحدث شدّة لا تزول إلّا بدخول الجنة، وهنا لا يدعون إلى السجود، وإنّما يدعون إليه أشدّ ما كانت الشّدة»[3].

ثانياً ــ ذكر جملة من الصفات الفعلية وكلام الشوكاني عنها:

(أ) صفة الاستواء:

أثبت الشوكاني رحمه الله تعالى صفة الاستواء لله عزّ وجلّ بما تقرّر في الكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمّة، وهو من الصفات التي تدلّ على عظمة الله تعالى وعلوّه المطلق على جميع خلقه.

وقد ورد إثبات صفة الاستواء لله تبارك وتعالى في القرآن الكريم في سبعة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[4].

---

(١) في الأصل: مطابقاً. ولعل الصواب رفعه، لأنّه خبر لمبتدأ وهو: قوله تعالى.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٠.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٥.

(٤) وردت هذه الآية في موضعين: سورة الأعراف، الآية: ٥٤، وسورة يونس، الآية: ٣.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِيْ رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[1].

وقوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2].

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ﴾[3].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[5].

هذه الآيات تدلّ دلالة واضحة لا تحتمل أيّ تأويل على أنّ الله تعالى مستو على عرشه بذاته حقيقة، استواء يليق بجلاله وكمال عظمته، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات[6].

يقول الشوكاني: (ومن جملة الصفات التي أمرها السلف على ظاهرها، وأجروها على ما جاء به القرآن والسنّة من دون تكلّف ولا تأويل صفة الاستواء... يقولون: نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من استوائه على عرشه على هيئة لا يعلمها إلاّ هو وكيفية لا يدري بها سواه، ولا نكلّف أنفسنا غير هذا، فليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا يحيط عباده به علماً، وهكذا يقولون في مسألة الجهة[7]... والأدلّة في ذلك طويلة كثيرة

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢

(٢) سورة طه، الآية: ٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٦) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٠ ضمن الرسائل السلفية.

(٧) تقدّم التعليق عليها في صفحة ٤٣١.

في الكتاب والسنّة، وقد جمع أهل العلم منها لا سيّما أهل الحديث مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة[1]...

ويقول أيضاً: إنّ الاستواء والكون على ما نطق به الكتاب والسنة، من دون تكييف، ولا تكلّف، ولا قيل، ولا قال، ولا قصور في شيء من المقال، فمن جاوز هذا المقدار بإفراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف، ولا واقف في طريق النجاة، ولا معتصم عن الخطإ، ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة)[2].

هذا ما قاله رحمه الله في رسالته التحف، ولم يخالفه ما قاله في تفسيره، ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[3]، قال: (قد اختلف العلماء في معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقّها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح، أنّه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذي يليق به، مع تنزّهه عمّا لا يجوز عليه. ثمّ بيّن رحمه الله معنى الاستواء في لغة العرب، وهو العلوّ والاستقرار، كما قال الجوهري[4]، استوى على ظهر دابّته: أي استقرّ، واستوى إلى السماء: أي صعد وحكى عن أبي عبيدة[5] أنّ معنى استوى هنا: علا. ومثله قول الشاعر:

---

(١) مثل كتاب: العلوّ للعلي الغفار للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) كما أشار إليه الشوكاني في التحف صفحة ١١، وكتاب إثبات صفة العلوّ لابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) وكتاب العرش لأبي بكر بن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ)، وكتاب العرش لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت ٤٠١ هـ)، والرسالة العرشية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)، وكتاب اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لابن القيم (ت ٧٥١ هـ) (ذكر هذه الكتب الدكتور أحمد ابن عطية الغامدي في مقدمة تحقيقه لكتاب إثبات صفة العلوّ لابن قدامة صفحة ٤٣).

(٢) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١١، ١٢ ضمن الرسائل السلفية.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٤) تقدّمت ترجمته في صفحة (١٤٩).

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٣٩٩).

فـأورد بهم مـاء ثقيفـا بقفـرة وقد خلق النجم اليماني فاستوى

أي علا وارتفع)[1].

وبهذا المعنى فسّر الشوكاني كلمة الاستواء الواردة في القرآن[2].

أمّا معنى العرش فنقل عن الجوهري قال: (هو سرير الملك ويطلق العـرش على معان أخـر منها: عـرش البيت: سقفه، وعـرش البئر: طيّهـا بالخشب، ويطلق على الملك والسلطان والعـزّ. ثمّ بيّن رحمه الله المعنى الصحيح المراد في الآيـة فقال: (وقـد ثبت في الأحاديث الصحيحـة صفة عرش الرحمن، وإحاطته بالسموات والأرض ومـا بينهما ومـا عليهما، وهـو المراد هنا)[3].

ومثل هذا فسّر الشوكاني كلمة الكرسيّ في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ﴾[4]، وقال ردّاً على أقوال المؤولة: (ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلاّ مجرّد خيالات تسبّبت عن جهالات وضلالات)[5].

قلت: ما ذكره الشوكاني هو التفسير الصحيح الذي عليه السلف أهل السنّة، فإنّهم قالوا بإثبات ما أثبتته النصوص من أنّ العرش حقيقة موجودة، وأنّه فوق السموات، وأنّه أعظم مخلوقات الله تعالى، وأنّه جسم مجسّم خلقه

---

(١) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢١١.

(٢) انظر المصدر السابق ١/ ٦٠، و٤/ ٥٠٧، و٥/ ١٠٥.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢١١ وانظر من تلك الأحاديث ما أورده ابن خزيمة في كتاب التوحيد برقم (١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم (٦٥٩، ٦٦٠)، والذهبي في العلوّ برقم (٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤) المختصر، وابن أبي شيبة في كتاب العرش، تحقيق: محمد بن حمد الحمود، والشوكاني في تفسيره (١/ ٢٧٣) غير أنّ بعض الأحاديث فيها مقال، وليس هنا محلّ لبسطه.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٧٢.

سبحانه، واستوى عليه لحكمة أرادها، لا لحاجة منه إليه، وهو من الأمور الغيبية التي يجب علينا الإيمان بها كما أخبر الله ورسوله[(1)]

أمّا معنى الاستواء فكما فسّره الشوكاني بأنّه هو العلوّ، والسلف يؤمنون بأن الله استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، لا تشبيه فيه باستواء المخلوقين، ولا يعلم كيفية الاستواء إلّا الله سبحانه. كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى حينما سئل عن: كيف استوى على العرش؟ فأجاب: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[(2)].

وهذا الجواب من الإمام مالك صالح لكلّ سؤال يوجّه، وهو يبحث عن كيفية صفة من صفات الله تعالى، مثل النزول، والمجيء، والوجه، واليد، وغيرها، وهذا ما ذهب إليه الإمام أبو الحسن الأشعري كما نقل عنه الشوكاني أنّه سبحانه مستو على عرشه بغير حدّ ولا كيف (استواء منزّهاً عن الحلول والاتحاد)[(3)]. وإلى هذا القول سبقه الجماهير من السلف الصالح الذين يمرّون الصفات كما وردت من دون تحريف ولا تأويل[(4)].

(ب) صفة المجيء والاتيان والنزول:

لم ينصّ الشوكاني رحمه الله تعالى في رسالته التحف على صفة المجيء والاتيان، غير أنّ ما يفهم من كلامه أنّه أثبتها كما أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنّة من غير تأويل ولا تمثيل. قال: (إنّ المذهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها، من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تكلّف، ولا تعسّف، ولا جبر، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وإنّ

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي ٣٠٩ ــ ٣١٢.
(٢) أورده الشوكاني في تفسيره: فتح القدير ٢/ ٢١٢ وتقدم تخريجه في صفحة ٣٥٧.
(٣) انظر الإبانة الحسن الأشعري ٢١، ١١٣ تحقيق/ د. فوقية حسين محمود.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٥٧.

ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم)[1].

وإذا كان الشوكاني وافق السلف في رسالته التحف فإنّه خالفهم في تفسيره للآيات، وسلك مسلك أهل التأويل تبعاً لما نقله عنهم. وإليك بعض الأمثلة من تفسيره:

قال في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلاَّ أَنْ يَـأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِيْ ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ﴾[2]: (المعنى: هل ينتظرون إلاّ أن يأتيهم اللّه بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة. ونقل عن الأخفش[3] قال: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء، فسمّى الجزاء اتياناً كما سمّى التخويف والتعذيب في قصّة ثمود اتياناً، فقال: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾[4]، وقال في قصّة النضير: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوْا﴾[5]... وقيل: إنّ المعنى: يأتيهم أمر الله وحكمه. وقيل: إنّ قوله (في ظلل) بمعنى: بظلل. وقيل: المعنى يأتيهم ببأسه في ظلل)[6].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ ربُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾[7] قال: (أن تأتيهم الملائكة: أي ملائكة الموت لقبض أرواحهم، وعند ذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من

---

(١) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٣) لعله سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط نحوي، عالم باللغة والأدب، تلميذ سيبويه، وكان معتزلياً، له: معاني تفسير القرآن. توفّي ٢١٥ هـ (انظر: مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٥٠، والأعلام: الزركلي ٣/ ١٠١).
(٤) سورة النحل، الآية: ٢٦.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢١٠، ٢١١.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

قبل (أو يأتي ربّك) يا محمد كما اقترحوه بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[1]. ثمّ أورد الأقوال في معنى إتيان الله فقال: قيل معناه: أو يأتي أمر ربّك بإهلاكهم، وقيل المعنى: أو يأتي كلّ آيات ربّك، بدليل قوله: (أو يأتي بعض آيات ربّك)، وقيل: هو المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلّا الله، وقد جاء في القرآن حذف المضاف كثيراً، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوْا فِيْ قُلُوْبِهِمُ الْعِجْلَ﴾[3] أي حبّ العجل، وقيل: إتيان الله: مجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[4][5].

قلت: إنّ الأقوال الثلاثة الأولى باطلة، والقول الأخير الذي رواه الشوكاني بصيغة التمريض كغيره هو القول الصحيح الذي دلّت عليه النصوص، والذي عليه سلف الأمّة وأئمّتها، وكان على الشوكاني أن يختاره ويردّ على الأقوال المخالفة له، وقد أورد عدّة روايات تؤيّد هذا القول منها:

ما أخرجه ابن أبي حاتم[6]، وأبو الشيخ[7] عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: (أو يأتي ربّك) قال: يوم القيامة.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٥) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٨١.

(٦) عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم، حافظ للحديث، عالم برجاله، له: الجرح والتعديل، والتفسير. توفّي ٣٢٧ هـ (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٣/ ٣٠١ (٤٩٦٥)، والأعلام: الزركلي ٣/ ٣٢٤).

(٧) عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، من حفاظ الحديث، له: العظمة، وطبقات المحدثين بأصبهان، توفّي ٣٦٩ هـ (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ١٦/ ٢٧٦، والأعلام: الزركلي ٤/ ١٢٠، ومقدمة كتاب العظمة تحقيق: رضاء الله المباركفوري).

وما أخرجه عبد الرزّاق[1]، وعبد بن حميد[2]، وابن المنذر[3] وابن أبي حاتم عن قتادة[4] (أو يأتي ربّك) قال: يوم القيامة في ظلل من الغمام. وعن مقاتل[5] في تفسير الآية مثله[6].

غير أنّي وجدت أنّ الشوكاني أوّل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[7] إذ قال في معناه: «أي جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته». وأورد عدّة أقوال في معنى الآية كلّها مخالفة لمذهب السلف[8]. فإنّ السلف رحمهم الله يثبتون في هذه الآيات الثلاث صفتين من صفات الفعل له سبحانه، وهما صفتا الإتيان والمجيء، والذي عليه أهل السنة والجماعة

---

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، أبو بكر الصنعاني، من حفاظ الحديث الثقات، له: المصنّف في الحديث توفّي ٢١١ هـ (انظر: ميزان الاعتدال: ٣/ ٣٢٣ (٥٠٤٤)، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٣٥٤ برقم (٤٠٦٤).

(٢) عبد بن حميد بن نصر الكسي، أبو محمد، من حفاظ الحديث، له: تفسير القرآن، ومسنده توفّي ٢٤٩ هـ (انظر: تذكرة الحفاظ: الذهبي ٢/ ٥٣٤، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٣٦٨ برقم ٤٢٦٦).

(٣) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، أبو بكر، فقيه مجتهد من الحفاظ من كتبه: المبسوط في الفقه، وتفسير القرآن. توفّي ٣١٩ هـ (انظر: طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٢/ ١٢٦، ولسان الميزان: ابن حجر ٥/ ٢٧، والأعلام الزركلي ٥/ ٢٩٤).

(٤) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسّر حافظ ضرير أكمه. توفّي ١١٨ هـ (انظر: ميزان الاعتدال: الذهبي ٤/ ٣٠٥ (٦٨٦٤)، وتقريب التهذيب: ابن حجر ٤٥٣ برقم ٥٥١٨، والأعلام: الزركلي ٥/ ١٨٩).

(٥) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي، أبو الحسن، من أعلام المفسّرين، كان متروك الحديث من كتبه: التفسير الكبير، والردّ على القدرية. توفّي ١٥٠ هـ (انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٣/ ١٦٠، وميزان الاعتدال: الذهبي ٥/ ٢٩٨ (٨٧٤١).

(٦) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٨٢.

(٧) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٨) انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٤٤٠.

الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل[(١)].

والآيات الثلاث صريحة في بابها لا تقبل شيئاً من تلك التأويلات:

فالآية الأولى[(٢)] تتوعّد هؤلاء المصرّين على كفرهم وعنادهم واتباعهم للشيطان بأنّهم ما ينتظرون إلّا أن يأتيهم الله عزّ وجلّ في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم وذلك يوم القيامة، فيجزى كلّ عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[(٣)].

والآية الثانية[(٤)] أشدّ صراحة، إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنّه إتيان الأمر أو الحكم أو العذاب أو ما شابه ذلك من التأويلات الفاسدة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنّه سبحانه فرّق فيها بين إتيان الملائكة وإتيان نفسه وإتيان أمره سبحانه[(٥)].

وكذلك القول في الآية الثانية[(٦)] فإنّه لا يمكن حملها على مجيء العذاب أو الأمر أو القضاء، لأنّ المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً، إجلالاً وتعظيماً له[(٧)].

يقول ابن القيم رحمه الله: (والإتيان والمجيء من الله تعالى نوعان:

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ٥٧.
(٢) أي آية (٢١٠) من سورة البقرة كما تقدم.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٥. ٢٥٦.
(٤) أي آية (١٥٨) من سورة الأنعام كما تقدم.
(٥) انظر مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦٧.
(٦) أي آية (٢٢) من سورة الفجر كما تقدم.
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٥.

مطلق ومقيّد، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه كان مقيّداً كما في الحديث: (حتى جاء الله بالرحمة والخير)[1] ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[2]، وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾[3] وفي الأثر: (لا يأتي بالحسنات إلّا الله).

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق، كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾[4]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾[5] هذا لا يكون إلّا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقاً، فكيف إذا قيّد بما يجعله صريحاً في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بعض آياتُ رَبّك﴾[6] فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثمّ عطف مجيء آياته على مجيئه. ومن المجيء المقيّد قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾[7][8].

وعلى هذا بطلت أقوال المؤولة الذين لم يستندوا إلّا إلى بعض الشبه التي علّقت بأوهامهم وعقولهم الفاسدة.

هذا ما يتعلّق بالاتيان والمجيء، أمّا النزول فلم أقف على كلام الشوكاني عنه إلّا ما نصّ عليه في صدر رسالته التحف ضمن السؤال الموجّه

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ: (فجاء الله بخير) انظر كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٣/ ١٤٧٦ برقم ١٨٤٧).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.
(٧) سورة النحل، الآية: ٢٦.
(٨) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦٩.

إليه[1]. وهذا دليل على أنّه رحمه الله وافق السلف في إثبات صفة النزول لله تعالى من غير تأويل ولا تشبيه، على وجه لا يعلمه إلّا هو، لأنه أعلم بكيفية ذاته، وماهية صفاته، بل العلم كلّه له، فإنّه القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْر﴾[2][3].

وأيّد ما ذهبت إليه أنّ الشوكاني أورد حديث النزول في تفسيره، قال: (وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كلّ ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له»)[4].

هذا الحديث نصّ صريح في إثبات صفة النزول لله تبارك وتعـالى، والسلف يثبتونها مع اعتقادهم عدم مشابهة نزوله لنزول خلقه.

وفي بيان ذلك قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله: (نشهد شهـادة مقرّ بلسانه، مصدّق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الربّ، من غير أن نصف الكيفية، لأنّ نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنّه ينزل، والله جلّ وعلا لم يترك ولا نبيه عليه الصلاة والسلام بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدّقون بما في هذه الأخبـار من ذكر النـزول غير متكلّفين القـول بصفته أو بصفـة الكيفية، إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول)[5].

---

(١) انظر التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص ١ ضمن الرسائل السلفية.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٩، ١٠.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣٢٥ والحديث تقدم تخريجه في صفحة (٤٣١ هامش رقم ٢).
(٥) كتاب التوحيد لابن خزيمة ١/ ٢٨٩، ٢٩٠ تحقيق د/ عبد العزيز الشهوان.

(ج) صفة المعية (معية الله لخلقه):

أثبت الشوكاني رحمه الله صفة المعية لله تعالى، لما تقرّر بالأدلّة من الكتاب والسنة أنّه تبارك وتعالى مع خلقه عامّة بعلمه وقدرته وسلطانه، وأنّه مع عباده المؤمنين خاصّة بنصره وتأييده ومعونته.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِيْ الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ﴾[١].

قال الشوكاني قوله: (معكم) أي بقدرته وسلطانه وعلمه[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيْ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيْ الأَرْضِ مَا يَكُوْنُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هو سَادِسُهُمْ، وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوْا﴾[٣] أي يعلم ما يتناجون به لا يخفى عليه منه شيء[٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّيْ مَعَكُمْ﴾ والمعنى: أنّي معكم بالنصر والعون[٥].

وقال سبحانه عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[٦] والمعنى: بالنصر لهما[٧].

---

(١) سورة الحديد، الآية ٤.
(٢) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ١٦٦.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٧.
(٤) فتح القدير: الشوكاني ٥/ ١٨٦.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٢.
(٦) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢١.
(٧) سورة طه، الآية: ٤٦.
(٨) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٦٨.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوْا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْن﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا وَالَّذِيْنَ هُمْ مُحْسِنُوْن﴾[3].

وغير ذلك من الآيات التي يستفاد منها اثبات معيّة الله لخلقه، وهي معيّة عامّة كما في الآيتين الأوليين، ومقتضى هذه المعيّة إحاطته سبحانه بخلقه وعلمه بجميع أعمالهم، ومعيّة خاصّة بعباده المؤمنين كما تدلّ عليه بقيّة الآيات، ومقتضى هذه المعيّة النصر، والتأييد، والمعونة، والحفظ.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»[4].

يقول الشوكاني في شرح هذا الحديث: (فيه تصريح بأنّ الله تعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته، ويمدّه بتوفيقه وتسديده، فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾[5]، وقوله جلّ ذكره: ﴿مَا يَكُوْنُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ الآية[6].

قلت: هذه معيّة عامّة، وتلك معيّة خاصّة حاصلة للذاكر على

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذّركم الله نفسه) (الفتح ١٣/ ٣٩٥ برقم ٧٤٠٥) وأخرجه أيضاً برقم (٧٥٠٥، ٧٥٣٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٤/ ٢٠٦٧ برقم ٢٦٧٥)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب في حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ (٥/ ٥٤٢ برقم ٣٦٠٣)، وابن ماجة في كتاب الأدب، باب فضل العمل (٢/ ١٢٥٥ برقم ٣٨٢٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥١، ٣١٥).
(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٦) سورة المجادلة، الآية: ٧.

الخصوص بعد دخوله مع أهل المعيّة العامّـة، وذلك يقتضي مـزيد العنـاية ووفور الاكرام له والتفضّل عليه، ومن هذه المعيّة الخاصّة ما ورد في الكتاب العزيز من كونه مع الصابرين[1]، وكونه مع الـذين اتقوا[2]، ومـا ورد هذا المورد في الكتاب العزيز أو السنة، فلا منـافاة بين إثبـات المعيّة الخـاصّة وإثبات المعيّة العامة)[3].

قلت: وهذا التقسيم بين المعيّة العامّة والمعيّة الخاصّة تقسيم صحيح دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنة كما ذكرنا[4].

والسلف يثبتـون معيّة الله لخلقـه حقيقة، ولا تنـافي علوّه على خلقه واستواءه على عرشه، فإنّ معيّته كمعيّة المخلوق للمخلوق، فإنّه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وقد جمع الله بينهما (أي بين المعيّة والعلوّ) في قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِيْ الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْر﴾[5].

فأخبر سبحانه أنّه فوق العرش يعلم كلّ شيء، وهو معنا أينما كنّا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إنّ كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلاّ المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محـاذاة عن يمين أو شمال، فـإذا قيّدت بمعنى من المعـاني دلّت على

---

(١) انظر آية ١٥٣، ٢٤٩ من سورة البقرة، الآية: ٤٦، ٦٦ من سورة الأنفال.
(٢) انظر آية ١٩٤ من سورة البقرة، والآية ٣٦، ١٢٣ من سورة التوبة، وآية ١٢٨ من سورة النحل.
(٣) تحفة الذاكرين: الشوكاني ١١.
(٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٢٤٩، ٢٥٠.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.

المقارنة في ذلك المعنى، فإنّه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك. فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة)[1].

ويقول في موضع آخر موضّحاً معنى المعيّة: (إذا قال: هذا مع هذا. فإنّه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة. ولا يدلّ على قرب إحدى الذاتين من الأخرى، ولا اختلاطها بها، فلهذا كان إذا قيل: هو معهم. دلّ على أنّ علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم، وهو مع ذلك فوق عرشه، كما أخبر القرآن والسنة بهذا، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِيْ الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾[2] فأخبر سبحانه أنّه مع علوّه على عرشه يعلم كلّ شيء، فلا يمنع علوّه عن العلم بجميع الأشياء)[3].

وعلى هذا فقد ناقض الشوكاني رحمه الله تعالى كلامه حين ذكر في نهاية رسالته التحف أنّ تفسير المعيّة بالعلم شعبة من شعب التأويل الذي ذمّه السلف، قال بعد أن ساق الآيات القرآنية في إثبات المعيّة:

(نقول في مثل هذه الآيات: هكذا جاء القرآن أنّ الله سبحانه مع هؤلاء، ولا نتكلّف تأويل ذلك كما يتكلّف غيرنا بأنّ المراد بهذا الكون وهذه المعيّة هو كون العلم ومعيّته، فإنّ هذا شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف، وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم)[4].

ولعلّ الشوكاني رحمه الله لم يقف على أقاويل السلف في هذه الآيات

---

(١) مجموع فتاوى لابن تيمية ٥/ ١٠٣.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٣) مجموع فتاوى لابن تيمية ٥/ ٤٩٩.
(٤) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ١٢ ضمن الرسائل السلفية.

عند إثبات صفة المعيّة في رسالته التحف، وإلّا لما وقع في هذا الوهم.

ويؤيّد هذا أنّه فسّر المعيّة في الآيتين[١] بأنّها معيّة العلم، وفي بقيّة الآيات بمعيّة النصر والتأييد، لا معيّة الذات كما تقدم، وقال في قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[٢]: (أي معناه: مصاحبوكم في دينكم وموافقوكم عليه)[٣].

وقد فسّر السلف رحمهم الله معنى المعيّة في الآيتين بأنّها معيّة العلم لا معيّة الذات، لأنّ الله سبحانه افتتح الآيتين بالعلم بهم وختمهما به، فدلّ هذا على أنّه أراد العلم بهم وبأعمالهم، لا أنّه نفسه في كلّ مكان معهم.

هكذا قال الإمام أحمد[٤]، والدارمي[٥]، والآجري[٦]، وابن قتيبة[٧]، والبيهقي[٨]، وابن جرير الطبري[٩]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[١٠]، وابن قدامة[١١]، وابن القيم[١٢]، وابن كثير[١٣]، والشوكاني[١٤]، وغيرهم كثير.

---

(١) أعني الآية ٤ من سورة الحديد، والآية ٧ من سورة المجادلة كما تقدم.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤٤.
(٤) انظر الردّ على الجهمية والزنادقة (١٣٨ ــ ١٤١) تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة.
(٥) انظر الردّ على الجهمية (٢٦٨، ٢٦٩) ضمن عقائد السلف.
(٦) انظر الشريعة (٢٨٨).
(٧) انظر تأويل مختلف الحديث (١٧١) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.
(٨) انظر الأسماء والصفات (٥٤١، ٥٤٢).
(٩) انظر تفسيره (٢٧/ ٢١٦، و٢٨/ ١٢).
(١٠) انظر مجموع فتاوى (٥/١٠٣، ٤٩٥، ٤٩٦) قال ــ رحمه الله ــ: وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وغيرهم.
(١١) انظر ذمّ التأويل (٤٥، ٤٦) تحقيق: بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية.
(١٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٢ ــ ٣٩٥).
(١٣) انظر تفسيره (٤/ ٣٢٦، ٣٤٥).
(١٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٦٦، ١٨٦، ١٨٧).

يقول ابن عبد البر رحمه الله: (أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل، قالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُوْنُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ هو على العرش، وعلمه في كلّ مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتجّ بقوله)[1].

قال الألباني تعليقاً على هذا النص: (في هذا النصّ ردّ صريح لما ذهب إليه الإمام الشوكاني في آخر تحفته أنّ تأويل هذه الآية، وآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ بالمعيّة العلمية إنّما هو شعبة من شعب التأويل المخالف لمذهب السلف، وما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم.

كذا قال، وكأنّه لم يقف على هذا النصّ من الحافظ ابن عبد البر، ولا على ما سبق من القول عن الأئمة الفحول، كسفيان الثوري، ومالك، ومقاتل بن حيّان[2] الذين فسّروا الآيتين بمثل ما نقل ابن عبد البر اجماع الصحابة ومن بعدهم عليه، فلا تغترْ إذن بما زعمه الشوكاني من المخالفة، فإنّ لكلّ عالم زلّة، ولكلّ جواد كبوة)[3].

قلت: إنّ الشوكاني في موقفه من صفة المعيّة في تحفته مخالف لمنهج السلف وموافق لمنهج أهل التفويض الذين لا يفهمون معاني نصوص الصفات ويفوّضون معرفتها إلى الله تعالى، وهو منهج غير صحيح كما ذكرنا.

(هـ) صفة المحبّة والغضب:

لم ينصّ الشوكاني رحمه الله على صفة المحبّة والغضب في رسالته التحف، وتحدّث عنهما من خلال تفسيره للآيات والأحاديث.

---

(١) نقله عنه الذهبي في العلوّ (انظر مختصره ٢٦٨ برقم ٣٢٧).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في التقريب (٥٤٤ برقم ٦٨٦٧): مقاتل بن حيان النبطي أبو بسطام البلخي الخزاز، صدوق فاضل، أخطأ الأزدي في زعمه أنّ وكيعاً كذّبه وإنّما كذّب الذي بعده. من السادسة. مات قبيل الخمسين بأرض الهند.

(٣) مختصر العلوّ للذهبي (٢٦٨) اختصار الألباني.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[1] قال: (الحبّ والمحبّة: ميل النفس إلى الشيء، يقال: أحبّه فهو محبّ، وحبّه يحبّه بالكسر فهو محبوب، ثمّ نقل عن الأزهري[2] قال: محبّة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتّباعه أمرهما، ومحبّة الله للعباد: إنعامه عليهم بالغفران)[3].

قلت: والصواب الذي عليه السلف رحمهم الله إثبات المحبّة صفة حقيقية لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله، وتأويل المحبّة بالانعام هو من التأويلات المذمومة وتفسير للصفة بلازمها وهو باطل. والشوكاني نقل هذا التأويل عن الأزهري ولم يعقّب عليه، وكأنّه مقبول عنده، وهو مردود.

وإثبات صفة المحبّة لله قد دلّ عليها الكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة محبّة تليق بجلاله تعالى، كما يقال في سائر الصفات.

يقول الشيخ الهراس في شرح العقيدة الواسطية[4] عند ذكر المصنّف لآيات المحبّة في إثبات الصفة: ﴿وَأَحْسِنُوْا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾[5] ﴿وَتُقْسِطُوْا إلَيْهِمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ﴾[6]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيْمُوا لَهُمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِيْنَ﴾[7]، ﴿إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾[8]، ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[9].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) تقدمت ترجمته في صفحة (١٨٥).
(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٣٣٣.
(٤) صفحة ٤٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.
(٦) سورة الممتحنة، الآية: ٨.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٧.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(تضمّنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى، ناشئة عن صفة المحبّة، ومحبّة الله عزّ وجلّ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلّق بمشيئته، فهو يحبّ بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة).

أمّا رأي الشوكاني في صفة الغضب فنجد أنّه أوّلها بإرادة العقوبة والانتقام.

قال في شرح الحديث: (من أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله)(١) (قوله: فقد باء بغضب من الله) أي انقلب ورجع بغضب لازم له. ومعنى الغضب في صفات الله: إرادة العقوبة)(٢).

وقال في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّكُمْ﴾(٣).

(والغضب: العقوبة والنقمة)(٤).

ونقل عن القرطبي قال: ومعنى الغضب في صفة الله: إرادة العقوبة، أو نفس العقوبة. وعن الزمخشري قال: هو إرادة الانتقام من العصاة وإنزال العقوبة لهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود بهذا اللفظ في كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها (٤/ ٢٣ برقم ٣٥٩٨) وسنده ضعيف، وله شواهد ومتابعات بعضها صحيح وبعضها حسن. (انظر: ارواء الغليل للألباني ٧/ ٣٥٠، ٣٥١، وسلسلة الأحاديث الصحيحة له ١/ ٧٢٢، ٧٢٣ برقم ٤٣٧،.و٣/ ١٩، ٢٠ برقم ١٠٢١، ومشكاة المصابيح بتحقيقه ٢/ ١٠٧٢ برقم ٣٦١١).

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ٢٠٥.

(٣) سورة طه، الآية: ٨٦.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣٨٠.

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٤، وانظر تفسير القرطبي ١١/ ٢٣٤، والكشّاف للزمخشري =

قلت: هذا الذي ذكره الشوكاني ونقله عن الآخرين في تأويل الغضب بإرادة الانتقام تأويل مذموم وتفسير للصفة بلوازمها، والصواب إثبات صفة الغضب على ما يليق بالله تعالى دون تكييف أو تمثيل أو تحريف، كإثبات غيرها من الصفات الفعلية الاختيارية التي تتعلّق بمشيئته، كالرضا، والعداوة، والولاية، والمحبّة، والبغض، واللعن، والكره، ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة.

«فهذه صفات ربّنا التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها نبيّه، وليس في شيء منها تحديد ولا تشبيه ولا تقدير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لم تره العيون فتحدّه كيف هو؟ ولكن رأته القلوب في حقائق الإيمان»[1].

وبعد: فهذه جملة من صفات الباري التي تحدّث عنها الشوكاني رحمه الله تعالى في مؤلّفاته، وقد تبيّن مما ذكرنا أنّ الشوكاني في رسالته التحف أثبت جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنّة على منهج السلف دون تفريق بين صفة وأخرى.

وقد نصّ رحمه الله في التحف على بعض الصفات، وهي: الاستواء، والعلوّ، والمعيّة (على خلاف مع السلف كما ذكرنا)، والعلم، والسمع، والبصر، والنزول، واليد. أمّا بقيّة الصفات فلم ينصّ عليها، بل تحدّث عنها جملة بمثل قوله:

(إنّ المذاهب الحقّ في الصفات هو امرارها على ظاهرها، من غير تأويل، ولا تحريف، ولا تكلّف، ولا تعسّف، ولا جبر، ولا تشبيه، ولا

= ٣/ ٧٩.

(١) قاله ابن أبي زمنين، ونقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية الكبرى صفحة ٣٤ ط/ السلفية.

تعطيل، وإنّ ذلك هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم)[1].

غير أنّ الشوكاني رحمه الله لم يلتزم بهذا المنهج عند تفسيره لآيات الصفات، فأوّل بعضها تأويلاً مذموماً، ونصر بتأويله أهل التعطيل المذموم.

ومن الصفات التي أوّلها في تفسيره: الوجه، والعين، واليد، والعلو، والمجيء، والاتيان، والمحبّة، والغضب، على التفصيل الذي ذكرته.

وقد ذهب بعض الباحثين[2] إلى أنّ الشوكاني قد رجع عن بعض هذه التأويلات في رسالته التحف، لأنّها من آخر ما ألّف، ولم يؤيّد ما ذهب إليه بأي دليل إلّا حسن الظنّ به.

وذكر الدكتور عبد الغني قاسم في كتابه: الإمام الشوكاني حياته وفكره[3] أنّ تاريخ تأليف التحف هو سنة ١٢٢٨ هـ. قال بعد ذكر عدد طبعاته:

(وتوجد المخطوطة ضمن مجموع (٥٩): (م، ج، ك) (م، ش)، وفيها أنّه انتهى من تحريرها في ربيع الآخر سنة ١٢٢٨ هـ، وهي بخطّه (يعني الشوكاني)).

هذا ولم أقف على نصّ الشوكاني على تاريخ فراغه من التأليف في الطبعات التي بين أيدينا[4].

---

(١) انظر التحف في مذاهب السلف: الشوكاني ٨ ضمن الرسائل السلفية.

(٢) انظر: الشوكاني مفسّراً: للدكتور محمد حسين الغماري ١٩٧ ط ١/دار الشروق وتبعه صاحب الرسالة: الإمام الشوكاني وآراؤه الاعتقادية في الإلهيات (ص ٢٣٨) رسالة ماجستير بجامعة أمّ القرى.

(٣) انظر صفحة (١٩٥) ط/ ١ مؤسسة الرسالة.

(٤) وهي الطبعة المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ، وطبعة دار الكتب العلمية ضمن الرسائل السلفية سنة ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م، وطبعة دار الصحابة للتراث سنة ١٤٠٩ هـ، بتحقيق سيد =

وعلى ما ذهب إليه الدكتور عبد الغني قاسم فإنّ الشوكاني رحمه الله تعالى ألّف التحف قبل فراغه من تفسيره: فتح القدير. بسنة، لأنّه فرغ منه في سنة ١٢٢٩ هـ كما نصّ عليه في ختامه[1]، ولا يخفى أنّ تأليف: فتح القدير، يحتاج إلى مدّة طويلة، بينما لا يحتاج تأليف مثل التحف إلاّ إلى وقت يسير، وقد يكون في جلسة واحدة فقط.

وعلى أيّ حال فإنّ من الانصاف أن أقول: إنّ الشوكاني رحمه الله على مذهب السلف، وكان يحبّه ويدعو إليه، كما هو ظاهر لكلّ من قرأ رسالته التحف، غير أنّه ــ كما يبدو لي ــ لم يفهم مذهب السلف في مسألة الصفات فهماً جيداً، وممّا يدلّني على ذلك:

(أ) ما خالف السلف في صفة المعيّة كما تقدّم، مع أنّه ذكر أنّه وقف على كتاب العلو للذهبي[2] الذي أورد فيه الكثير من الأحاديث والآثار المؤيّدة والموضّحة لمذهب السلف. وكذلك ما خالفهم في مسألة خلق القرآن.

(ب) ومما يدلّني على ذلك أيضاً ما ذكره رحمه الله تعالى في كتابه: ارشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول[3] وقد فرغ من تأليفه سنة ١٢٣١ هـ كما نصّ عليه في ختامه[4] أي بعد: فتح القدير. بسنتين. قال ما نصّه:

= عاصم علي، وطبعة مكتبة ابن الجوزي سنة ١٤٠٩ هـ، بتحقيق سليم بن عبد الهلالي وعلي حسن علي عبد الحميد، وطبعة شركة السلام العالمية، ضمن: عقيدة الفرقة الناجية، بدون تاريخ.

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ٥/ ٥٢٤، وانظر قائمة مؤلفات الشوكاني التي وضعتها (ص ١١٩).

(٢) كما أشار إليه في رسالته التحف، صفحة ١١ ضمن الرسائل السلفية.

(٣) انظر صفحة ١٧٦.

(٤) انظر صفحة ٢٨٧.

الفصل الثاني: فيما يدخله التأويل[1] وهو قسمان: أحدهما: أغلب الفروع، ولا خلاف في ذلك، والثاني: الأصول، كالعقائد، وأصول الديانات، وصفات الباري عزّ وجلّ، وقد اختلفوا في هذا القسم على ثلاثة مذاهب:

الأوّل: أنّه لا مدخل للتأويل فيها، بل يجري على ظاهرها، ولا يؤول شيء منها، وهذا قول المشبّهة.

والثاني: أنّ لها تأويلاً، ولكن نمسك عنه، مع تنزيه اعتقادنا عن التشبيه والتعطيل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]. قال ابن برهان[3]: وهذا قول السلف قلت (أي الشوكاني): وهذا هو الطريقة الواضحة والمنهج المصحوب بالسلامة عن الوقوع في مهاوي التأويل لما لا يعلم تأويله إلّا الله، وكفى بالسلف الصالح قدوة لمن أراد الاقتداء، وأسوة لمن أحبّ التأسّي، على تقدير عدم ورود الدليل القاضي بالمنع من ذلك، فكيف وهو قائم موجود في الكتاب والسنة. والمذهب الثالث: أنّها مؤوّلة. قال ابن برهان: والأوّل من هذه المذاهب باطل، والآخران منقولان عن الصحابة ونقل هذا المذهب الثالث عن علي وابن مسعود وابن عباس وأمّ سلمة) اهـ.

قلت: هذا وهم من الشوكاني، والظاهر أنّ الأوّل هو قول السلف وليس المشبّهة كما زعم، فإنّ مذهب السلف إثبات الصفات وإجراؤها على ظواهرها

---

(١) والمراد بالتأويل هنا هو التأويل الاصطلاحي عند المتأخرين من الأصوليين وغيرهم وهو صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى يحتمله، أو حمل الظاهر على المحتمل المرجوح بدليل يصيره راجحاً. (انظر إرشاد الفحول للشوكاني ١٧٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) أحمد بن علي بن برهان، أبو الفتح، فقيه بغدادي، غلب عليه علم الأصول، من تصانيفه، البسيط، والوسيط، والوجيز، في الفقه والأصول. توفي ٥١٨ هـ (انظر: شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٤/ ٦١، والأعلام: الزركلي ١/ ١٧٣).

من غير تأويل ولا تشبيه، وتفويض كنهها وكيفيتها إلى الله تعالى، كما قرّره رحمه الله في رسالته التحف. أمّا الثاني فهو قول المفوّضة أو القريب منه، وليس قول السلف كما زعم، لأنّ السلف لا يقولون أنّ لها تأويلاً ولكنّا نمسك عنه، بل يثبتون معناها من غير تصوّر المشابهة ولا تمثيل، وأمّا ما نقله عن ابن برهان فهو باطل، لأنّه لم يرد حرف واحد في التأويل المعروف عندهم عن السلف، وكلّ ما نقل فهو كذب واختراع[1]. والشوكاني رحمه الله نقل هذا الكلام ولم يعقّب عليه، وكأنّه مقبول عنده وهو مردود. وهكذا لكلّ عالم زلّة ولكلّ جواد كبوة، والعصمة لله سبحانه ولمن عصمه من الأنبياء والمرسلين.

●●●

---

(١) انظر مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٩٠، وأيضاً ٦/ ٣٩٤)، وذمّ التأويل لابن قدامة ٤٠ تحقيق: بدر بن عبد الله البدر.

الفصـل الرابـع

في نواقض التوحيد

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه.

المبحث الثاني: ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عليها.

المبحث الثالث: تحقيق شرك القبوريين والوثنيين وبيان أن شركهما واحد.

المبحث الرابع: البدع وكلام الشوكاني عليها.

المبحث الأوّل

الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه

معنى الشرك:

الشرك في اللغة يطلق على المخالطة والمصاحبة.

قال صاحب اللسان: (الشِّرْكَة والشَّرِكة سواء مخالطة الشريكين، يقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر، والشريك: المشارك، والشرك كالشريك، والجمع أشْراك وشُرَكاء)(١). ويطلق أيضاً على النصيب.

قال الأزهري: (الشرك بمعنى الشريك، وهو بمعنى النصيب، وجمعه أشراك، كشبر وأشبار)(٢).

قال الأصفهاني: (شرك: الشُّركة والمشاركة خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً، عينا كان ذلك الشيء أو معنى، كمشاركة الإنسان والفَرس في الحيوانية، ومشاركة فَرَس وفَرَس في الكُمْتَة والدُّهْمَة(٣) يقال: شركتُه وشاركتُه وتشاركوا واشتركوا واشتركتُه في كذا. قال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيْ أَمْرِيْ﴾(٤) وفي الحديث: (اللهمّ أشرِكْنا في دعاء الصالحين)(٥).

---

(١) لسان العرب: ابن منظور (١٠/ ٤٤٨ مادة: شرك).

(٢) تهذيب اللغة: الأزهري (١٠/ ١٧ مادة: شرك)(٣) الكمتة: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والدهمة: السواد (انظر تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ١٥٦ مادة: كمت) و(٦/ ٢٢٤ مادة: دهم).

(٤) سورة طه، الآية: ٣٢.

(٥) المفردات للأصفهاني (٢٥٩ مادة: شرك) والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ، والذي =

وفي الاصطلاح: ما يناقض التوحيد ويضادّه، وهو أن يجعل الإنسان لله تعالى شريكاً ونداً فيما يجب أن يكون حقّاً خالصاً لله تعالى، بمعنى أن يصرف شيئاً من خصائص الربوبية والألوهية لغير الله تعالى.

قال الشوكاني رحمه الله في توضيح معنى الشرك: (إنّ الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختصّ به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرّب إلى غيره بشيء مما لا يتقرّب به إلّا إليه، ومجرّد تسمية المشركين لما جعلوه شريكاً بالصنم والوثن والإله لغير الله، زيادة على التسمية بالوليّ والقبر والمشهد، كما يفعله كثير من المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الوليّ والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن، إذ ليس الشرك هو مجرّد اطلاق بعض الأسماء على بعض المسمّيات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختصّ به سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلق عليه الجاهلية أو أطلق عليه اسماً آخر، فلا اعتبار بالاسم قط)[1].

وعلى هذا المعنى الشامل من الشرك جعل الشوكاني رحمه الله شرك الوثنيين والقبوريين شركاً واحداً، لا فرق بينهما، لأنّ كلا منهم يصرف لغير الله ما هو مختصّ بالله سبحانه من أنواع العبادة، كما سيأتي تفصيله في مبحث مستقل إن شاء الله.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك به في كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوْا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً﴾[2].

= وقفت عليه ما رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب (١١٠) قال النبي ﷺ لعمر حينما استأذنه في العمرة: (أي أخي أشركنا في دعائك) (٥/ ٥٢٣ برقم ٣٥٦٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقد تقدم تخريجه في صفحة (٣٢٦).

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٤ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي لا تشركوا به شيئاً من الأشياء من غير فرق بين حيّ وميّت، وجماد وحيوان، ولا تشركوا به شيئاً من الاشراك من غير فرق بين الشرك الأكبر والأصغر، والواضح والخفيّ)[1].

وكقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[2] أي من خلقه، سواء كان صالحاً أو طالحاً، حيواناً أو جماداً[3].

أقسام الشرك:

وينقسم الشرك باعتبار أنواع التوحيد الثلاثة التي ذكرناها إلى ثلاثة أقسام: الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية، والشرك في الأسماء والصفات، وكلّ منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقاً، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه، وقد يكون أصغر بالنسبة لما هو أكبر منه.

القسم الأول ــ الشرك في توحيد الربوبيّة:

وهو إثبات فاعل مستقلّ غير الله تعالى، كشرك من يجعل الإنسان مستقلاً باحداث فعله، وشرك من يجعل الأجسام الطبيعيّة من الشمس والقمر والنجوم والجبال ونحوها كما يقوله الطبيعيون، أو العقول كما تقوله الفلاسفة، أو الأرواح والنفوس كما يقوله عبّاد القبور، أو الملائكة، أو غير ذلك من المخلوقات، ومن هذا القسم شرك فرعون إذ قال منكراً الربّ الخالق: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِيْنَ﴾[4] وقال مدعياً لنفسه الربوبيّة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[5] وأمثاله

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني ١/ ٤٦٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣١٨.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١١٠.
(٥) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

ممّن يدعي لنفسه الربوبيّة، أو يدعي أنّه يملك، أو يرزق، أو يدبّر شيئاً من دون الله تعالى.

ومن هذا القسم شرك المجوس[1] القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، وشرك الصابئة[2] الذين ينسبون إلى الكواكب العلويات تدبير أمر العالم، ومثل هؤلاء كثير من عبّاد القبور الذين يزعمون بأنّ أرواح الأولياء تتصرّف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرجون الكربات ويحفظون من التجأ إليهم، وهذا الأخير اعتنى الشوكاني رحمه الله اعتناء كبيراً بالكلام عليه كما سيأتي.

وهذا الشرك من أخبث شرك في العالم، إذ يتضمّن من التعطيل، وجحد الإلهية والربوبية، واستناد الخلق إلى غيره سبحانه وتعالى ما لم يتضمّنه شرك أمة من الأمم، وشرك القدرية مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه، ولهذا شبّههم الصحابة رضي الله عنهم بالمجوس[3] كما تقدم بيانه[4].

---

(١) المجوس: هم الذين يعبدون النار، لأنهم يعتقدون أنّها أعظم شيء في الدنيا، ويسجدون للشمس إذا طلعت، وينكرون نبوّة آدم ونوح عليهما السلام، وقالوا: لم يرسل الله عز وجل إلّا رسولاً واحداً لا ندري من هو، ويقولون بإثبات أصلين: النور والظلمة، وقد نشأت المجوسية في بلاد الفرس (انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي (٨٦) والملل والنحل: الشهرستاني (١/ ٢٣٣)، والبرهان: السكسكي (٩٠).

(٢) الصابئة: الصابئي في اللغة هو التارك لدينه الذي شرع له إلى دين غيره، والصابئة: أمّة كبيرة، وهو القوم الذين بعث فيهم إبراهيم عليه السلام، وكانوا بحران، فهي دار الصابئة وهم على قسمين: صابئة حنفاء، وصابئة مشركين، والمشركون منهم هم الذين يعبدون الكواكب والبروج، ويعظّمونها ويصّورونها في هياكلهم. (انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الفخر الرازي (٩٠) والملل والنحل: الشهرستاني (٢/ ٥).

(٣) انظر: تجريد التوحيد المفيد: المقريزي (٨٩، ٩٠) ضمن عقيدة الفرقة الناجية.

(٤) انظر: صفحة (١٩٩).

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على أصحاب هذا الشرك في كثير من الآيات:

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُوْنَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ، وَلَا يَسْتَطِيْعُوْنَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُوْن﴾[1].

قال الشوكاني: (أي كيف يجعلون لله شريكاً لا يخلق شيئاً، ولا يقدر على نفع لهم، ولا دفع عنهم (وهم يخلقون) أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون (ولا يستطيعون لهم نصراً) إن طلبه منهم، (ولا أنفسهم ينصرون) إن حصل عليهم شيء من جهة غيرهم، ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز)[2].

وقال سبحانه في وصف آلهتهم: ﴿وَاتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُوْنَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ، وَلَا يَمْلِكُوْنَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً، وَلَا يَمْلِكُوْنَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوْراً﴾[3].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي لا يقدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعوا عنها ضرراً، وقدّم ذكر الضرّ لأنّ دفعه أهمّ من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلّق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم، ثمّ زاد في بيان عجزهم، فنصّص على هذه الأمور فقال: (ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) أي لا يقدرون على إماتة الأحياء ولا إحياء الموتى، ولا بعثهم في القبور)[4].

فالذي يتّصف بهذه الأوصاف الناقصة كيف يعبدونه ويستغيثون به في

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩١، ١٩٢.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٧٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣.

(٤) فتح القدير: الشوكاني ٤/ ٦١.

قضاء الحاجات، ويعرضون عن الربّ العظيم القادر على كلّ شيء الذي له الخلق والأمر وحده، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

القسم الثاني ـ الشرك في توحيد الأسماء والصفات:

وهو نوعان: أحدهما تشبيه الخالق بالمخلوق كمن يقول: يد الله كيدي، وسمعه كسمعي، وبصره كبصري، واستواؤه كاستوائي، وهو شرك المشبّهة الذين ردّ اللّه سبحانه عليهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيْطُوْنَ بِهِ عِلْماً﴾[2].

يقول الشوكاني عن هاتين الآيتين: (وقد يغني هؤلاء (المشبّهة) وأمثالهم كلمتان من كتاب الله تعالى، وصف بهما نفسه، وأنزلهما على رسوله، وهما: (ولا يحيطون به علماً) و(ليس كمثله شيء) فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب، وتضمّنت بما يعين أولي الألباب السالكين في تلك الشعاب، فالكلمة منها دلّت دلالة بيّنة على أنّ كلّ ما تكلّم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق ودعاوي التحقيق فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم، ومباينة له، فإنّ الله سبحانه قد أخبرنا أنّهم لا يحيطون به علماً، فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا، فلا شكّ أنّ صحة ذلك متوقّفة على الاحاطة، وقد نفيت عن كلّ فرد من الأفراد علماً... وأمّا الكلمة وهي (ليس كمثله شيء) فبها يستفاد نفي المماثلة في كلّ شيء، فيدفع بهذه الآية في وجه المجسّمة، وتعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير، وعند ذكر السمع، والبصر، واليد، والاستواء، ونحو ذلك ممّا اشتمل عليه الكتاب والسنّة، فتقرّر بذلك لتلك الصفات لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات)[3].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٣) التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (٩، ١٠) ضمن الرسائل السلفية.

والثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإِله الحق.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا، وذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْن﴾[1].

قال قتادة: (يلحدون في أسمائه: يشركون).

وقال ابن عبّاس) (الالحاد: أن يدعو اللات والعزّى في أسماء الله).

وقال ابن جريج[2]: (اشتقّوا العزّى من العزيز، واشتقّوا اللات من الله).

أورد الشوكاني رحمه الله هذه الأقوال في تفسيره، وقال: (والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون على ثلاثة أوجه: إمّا بالتغيير، كما فعله المشركون، فإنّهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها، بأن يدعوه ببعضها دون بعض)[3].

القسم الثالث ـ الشرك في توحيد الألوهية والعبادة:

وهو نوعان: أحدهما: شرك أكبر:

وهو أن يتّخذ العبد ندّاً لله تعالى في العبادة، يدعوه، أو ينذر له، أو يذبح له، أو يخافه، أو يصرف له أيّ نوع من أنواع العبادة، كشرك مشركي مكة أيام بعثة النبي ﷺ، وقد قالوا في آلهتهم: ﴿هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ثقة، فقيه، فاضل، كان إمام أهل الحجاز في عصره، رومي الأصل، من موالي قريش، قال الذهبي: كان ثبتاً، لكنه يدلّس، توفي ١٥٠ هـ، (تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (١٠/ ٤٠٠)، وتذكرة الحفاظ: الذهبي (١/ ١٦٩) وتقريب التهذيب: ابن حجر (٣٦٣) برقم (٤١٩٣).

(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٢٦٨، ٢٧٠. وتقدّم بيان هذا الموضوع في (ص ٣٨٥، ٣٨٦).

اللَّهِ﴾[1]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2] والمراد بهذا القول: الشفاعة[3] لهم في الدنيا. ومن هذا النوع شرك عبّاد القبور (الذين جعلوا بعض خلق الله شريكاً له، ومثلاً، ونداً، فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه إلا بالله، وطلبوا منه ما لا يطلب إلا من الله، مع القصد والإرادة[4].

وهذا النوع من الشرك هو الذي قال الله سبحانه فيه:

﴿وَاعْبُدُوْا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوْا بِهِ شَيْئاً﴾[5]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْت﴾[6]، ﴿وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ، وَيَقُوْلُوْنَ هؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[7]، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمأْوَاهُ النَّار﴾[8]، ﴿لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْم﴾[9].

والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جدّاً، والكتب

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) ذكر الشوكاني في (فتح القدير ٤/ ٤٤٩) أن المراد بقولهم: إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى: الشفاعة، كما حكاه الواحدي عن المفسرين. قال قتادة: كانوا إذا قيل لهم من ربكم وخالقكم، ومن خلق السموات والأرض، وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، فيقال لهم: ما معنى عبادتكم للأصنام؟ قالوا: ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده. اهـ قلت: أي في الدنيا للنصر وإنزال الغيث إلخ، لا في الآخرة، لأنهم ينكرون البعث.

(٤) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٩ وانظر أيضاً ٦٨ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٦) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٧) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٨) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٩) سورة لقمان، الآية: ١٣.

السماوية كلّها من أوّلها إلى آخرها تبطل هذا الشرك، وتقبّح أهله، وتنصّ على أنّهم أعداء الله تعالى، وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم متّفقون على ذلك من أوّلهم إلى آخرهم، وما أهلك الله تعالى من الأمم السابقة إلاّ بسبب هذا الشرك ومن أجله.

يقول الشوكاني رحمه الله في بيان هذا النوع من الشرك: (وقد تقرّر أنّ شرك المشركين الذين بعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لم يكن إلاّ باعتقادهم أنّ الأنداد التي اتّخذوها تنفعهم وتضرّهم، وتقرّبهم إلى الله، وتشفع لهم عنده، مع اعترافهم بأنّ الله سبحانه هو خالقها وخالقهم، ورازقها ورازقهم، ومحييها ومحييهم، ومميتها ومميتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(1)، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمُوْنَ﴾(2)، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَفِيْ ضَلَالٍ مُبِيْنٍ، إِذْ نُسَوِّيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾(3)، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ﴾(4)، ﴿هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(5)، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وإذا تقرّر هذا فلا شكّ أنّ من اعتقد في ميّت من الأموات، أو حيّ من الأحياء، أنّه يضرّه أو ينفعه إمّا استقلالاً، أو مع الله تعالى، أو ناداه، أو توجّه إليه، أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده بالعبادة، إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه، ودفع الضرّ عنه هو نوع من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجراً، أو شجراً، أو ملكاً، أو شيطاناً، كما كان يفعل

---

(1) سورة الزمر، الآية: ٣.
(2) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(3) سورة الشعراء، الآية: ٩٧، ٩٨.
(4) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(5) سورة يونس، الآية: ١٨.

ذلك الجاهليّة، وبين أن يكون إنساناً من الأحياء أو الأموات، كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وكلّ عالم يعلم هذا ويقرُّ بِه، فإنّ العلة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان، كما يكون للجماد، وللحيّ كما يكون للميّت)[1].

بيان خطورة هذا النوع من الشرك:

بيّن الشوكاني رحمه الله أنّ الشرك الأكبر مما ينافي التوحيد في عبادة الله عزّ وجلّ ويناقضه، وأنّ خطره عظيم، لما يلي:

١ ـ إنّه يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوْا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[2].

والحبوط: هو البطلان[3] أي بطلت أعمالهم، لأن الشرك يخرجهم من الملّة الإسلامية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ، وَإِلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكَ، لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَلَتكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنِ﴾[4].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير والانذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض والتقدير، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى، قال: وهذه الآية مقيّدة بالموت على الشرك، كما في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٢، ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٨.
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ١٣٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٥.

أَعْمَالُهُمْ فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[1]، فقوله: (في الدنيا والآخرة) أي أنّه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظّ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقّه أهله)[2].

٢ ـ إنّ صاحبه خالد مخلّد في النار إذا مات مصرّاً عليه، وإنّ الله لا يغفر له إلاّ إذا تاب في وقت التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[3].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيْداً﴾[4].

قال الشوكاني: (أي ضلّ عن الحقّ ضلالاً بعيداً، لأنّ الشرك أعظم أنواع الضلال، وأبعدها من الصواب)[5].

وقال: (هذا الحكم (أي عدم الغفران) يشمل جميع طوائف الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم ولا يختصّ بكفّار أهل الحرب، لأنّ اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة. ولا خلاف بين المسلمين أنّ المشرك إذا مات على شركه، لم يكن من أهل المغفرة التي تفضّل الله بها على غير أهل الشرك، حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة، يغفر لمن يشاء، ويعذّب

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٧٤، وأيضاً ١/ ٢١٨).
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٦.
(٥) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٥١٦.

من يشاء)[1].

قلت: وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة والجماعة، وخالفهم في ذلك المعتزلة، وسيأتي الحديث عنه في الفصل التالي إن شاء الله.

٣ ـ إنّه أفظع ظلم، وأعظم جريمة.

قال تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبَسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[2] (أي لم يخلطوه بظلم، والمراد بالظلم الشرك، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنّون، إنّما هو كما قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ﴾[3])[4].

وقد وصف الله الكفّار بأنّهم ظالمون في قوله: ﴿وَالْكَافِرُوْنَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ﴾[5] وهذا دليل على أنّ كلّ كافر ظالم لنفسه[6].

ووجه كونهم ظالمين أنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ويترتّب عليه الفساد، والخسران الكبير، وعبادة غير الله وضع لها في غير موضعها، إذ العبادة حقّ الله على عباده، فصرفهم إيّاها لغير مستحقّها ظلم وكذب عليه.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٤٧٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٣٥) وانظر أيضاً (٤/ ٢٣٨) والحديث أخرجه البخاري في عدّة مواضع انظر الفتح (١/ ١٠٩) حديث رقم (٣٢) وهنا يذكر مواضع وروده، وأخرجه أيضاً مسلم في كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه (١/ ١١٤) برقم (١٢٤).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٦) فتح القدير: الشوكاني ١/ ٢٧١.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[1].

قال الشوكاني: (أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم، لأنّهم افتروا على الله كذباً بقولهم لأصنامهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[2]. كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ الشرك من أعظم جريمة في قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيْماً﴾[3].

فالإشراك بالله في عبادته تأليه لغيره سبحانه، وتأليه غيره سبحانه كفر وتكذيب له في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[4] وفي قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[5].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان جريمة الشرك: (إنّ الشرك لمّا كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء وأكرهها له، وأشدّ مقتاً لديه، ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتّبه على ذنب سواه، وأخبر أنّه لا يغفره، وأنّ أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه وتعالى، ولملائكته، ولرسله، وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم... وهذا لأنّ الشرك هضم لحقّ الربوبيّة، وتنقص لعظمة الإلهيّة، وسوء ظنّ بربّ العالمين)[6].

والثاني ـ شرك أصغر:

وهو كلّ وسيلة يتوصّل بها إلى الشرك، ما لم يكن يبلغ درجة العبادة،

---

(١) سورة هود، الآية: ١٨.

(٢) فتح القدير: الشوكاني ٢/ ٤٩٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٥) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٦) اغاثة اللهفان: ابن القيم (١/ ٦٠) تحقيق/ محمد حامد الفقي.

وهو غير مخرج من الملّة إلاّ إذا بلغ درجة الشرك الأكبر، وهو من الكبائر، وصاحبه لا يخلد في النار، بل هو تحت مشيئة الله تعالى كسائر الذنوب والمعاصي التي دون الشرك الأكبر، إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له. (كيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك بالله»[1] وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، هذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت وأنا متوكّل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده)[2].

وقد ذكر الشوكاني رحمه الله أنّ من هذا النوع من الشرك ما روى ابن أبي حاتم[3] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوْا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾[4] أنّه قال: (الأنداد أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك، يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان. هذا كلّه شرك)[5].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٢٥)، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣/ ٥٧٠) برقم (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب النذور الأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٤/ ٩٤) برقم (١٥٣٥) وقال: حديث حسن، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٢ وقال هذا حديث على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في ارواء الغليل (٨/ ١٨٩) برقم (٢٥٦١) وغاية المرام (١٣٤) برقم (٢٥٩).

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (٧١) نقلاً عن ابن القيم.

(٣) في تفسيره (١/ ٨١) وقال صاحب تيسير العزيز الحميد (ص ٥٨٧): سنده جيد.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٥) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٨، وانظر أيضاً رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ ص ٧ (مخطوط).

وقال بعد سرد هذا الأثر: (وما كان بهذه المنزلة من الخفي وعدم الظهور فلا يطلع على كثير منه إلاّ من تدبّر الكتاب العزيز كليّة التدبّر، وتفكّر في آياته أكمل التفكير، ونظر في السنّة المطهّرة أبلغ النظر، وتتبّع ما ورد عن المصطفى ﷺ أتمّ التتبّع، وكثيراً ما ترى من له في العلم نصيب، وفي الفهم حظّ، يقع في نوع من الأنواع التي جاءنا النص النبوي بأنّها من الشرك، ويستعمله ذاهلاً عن كونه كذلك، بعد العلم به بوجه من الوجوه، أو جاهلاً له مع علمه بكثير من المعارف العلمية)[1].

وهذا النوع من الشرك مما ينافي كمال التوحيد في عبادة الله عزّ وجلّ ويناقضه، وهو وإن كان لا يخرج من الملّة فإنّ صاحبه على خطر عظيم، ينقص من أجره شيء كثير، وقد يحبط منه العمل الذي وقع فيه هذا الشرك. وفي هذا ذكر الشوكاني رحمه الله أحاديث كثيرة[2].

منها حديث أبي أمامة رضي الله عنه فقال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له. فأعادها ثلاث مرّات، يقول رسول الله ﷺ: لا شيء له، ثمّ قال: إنّ الله لا يقبل من العبد إلاّ ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه)[3].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّه أنّه قال: (أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك)[4].

---

(١) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ص ٧، ٨ (مخطوط).
(٢) انظر: قطر الولي على حديث الولّي ٤٥٧ ـ ٤٥٩، وفتح القدير ٣/ ٣١٩، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ٢٥، ٢٦ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٣) تقدم تخريجه في صفحة (٢٩١). وأورده الشوكاني في قطر الوالي ٤٥٧.
(٤) أخرجه أحمد بهذا اللفظ في المسند (٢/ ٣٠١) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩ برقم ٢٩٨٥) ولفظه: (أنا أغنى الشركاء =

وذكر الشوكاني مثالاً للشرك الأصغر وهو الرياء وما ورد في التحذير عنه، وقال في معنى الرياء: إظهار الجميل ليراه الناس، لا لاتّباع أمر الله[1].

وقد حذّر النبي ﷺ من الرياء، وسمّاه تارة بشرك خفي وتارة بشرك أصغر، وخاف على الصحابة رضي الله عنهم منه، وهم أبرّ الأمّة أعمالاً وأقواها إيماناً.

فعن محمود بن لبيد أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول عزّ وجلّ إذا جزي الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)[2].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجّال؟ قالوا: بلى بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلّي، فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل)[3].

= عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) والحديث بلفظه أورده الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٣١٩)، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ٢٥.

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٩٩)، والبغوي في شرح السنة برقم (٤١٣٥) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٩): رواه أحمد بإسناد جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٢، ١٠/ ٢٢٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وأورده الشوكاني في قطر الولي (٤٥٨) وقال: إسناده جيد. وقال الألباني في تعليقه عليه: ورجاله ثقات، لكن اختلفوا في صحبة محمود بن لبيد. (انظر كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم ٨٧ بتحقيقه).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٠) وابن ماجة في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٦ برقم ٤٢٠٤) والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٩) وصحّحه، ووافقه=

قال الشوكاني بعد سرد هذه الأحاديث: (فإذا كان مجرّد الرياء الذي هو فعل الطاعة لله عزّ وجلّ، مع محبة أن يطّلع عليها غيره، أو يثني عليه بها، أو يستحسنها شركاً، فكيف بما هو محض الشرك)[1]؟

وقال: (والأحاديث الواردة في كون الرياء مبطلاً للعمل موجباً للاثم كثيرة جداً، واردة في أنواع من الرياء، الرياء في العلم، الرياء في الجهاد، الرياء في الصدقة، والرياء في أعمال الخير على العموم، ومجموعها لا يفي به إلّا مصنّف مستقل، والرياء هو أضرّ المعاصي الباطنة وأشرّها مع كونه لا فائدة فيه إلّا ذهاب أجر العمل، والعقوبة على وقوعه في الطاعة، فلم يذهب به مجرّد العمل، بل لزم صاحبه مع ذهاب عمله الاثم البالغ)[2].

المبحث الثاني

ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عنها

إنّ ما يناقض التوحيد وكماله من الأعمال الشركية كثيرة جدّاً، منها ما هو جلي، ومنها ما هو خفّي يجهله غالب الخاصّة فضلاً عن العامّة.

لهذا تناول الشوكاني رحمه الله نماذج من الأعمال الشركية التي يجب على كلّ مسلم معرفتها ليسلم منها، وليكون على بيّنة من أمرها حتى لا يقع فيها.

١ ـ من الأعمال الشركية الاستغاثة بغير الله:

كالاستغاثة بالأموات، والاستعانة بهم، ومناجاتهم عند الحاجة، من

= الذهبي. قال الألباني: وإسناده جيد. (انظر مشكاة المصابيح بتحقيقه ٣/ ١٤٦٦ برقم ٥٣٣٣).

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٦.

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني ٤٥٩.

نحو: على الله وعليك يا فلان، وأنا بالله وبك، وما يشابه ذلك، وتعظيم قبورهم، واعتقاد أنّ لهم قدرة على قضاء حوائج المحتاجين وإنجاح طلبات السائلين[1].

قال الشوكاني: (وقد ذكر أهل العلم أنّه يجب على كلّ مكلّف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الاطلاق إلّا الله سبحانه وتعالى، وأنّ كلّ غوث من عنده، وإذا حصل شيء من ذلك على يد غيره، فالحقيقة له سبحانه ولغيره مجاز[2]، ومن أسمائه: المغيث والغيّاث)[3].

ومن هذا النوع من الشرك الاستغاثة برسول الله ﷺ والاستشفاع به بعد وفاته، كما جرى على ألسنة كثير من الناس عند نزول النوازل.

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله أنّ هذا العمل شرك بالله تعالى، لأنّ النبي ﷺ قد صار تحت أطباق الثرى، وأنّه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فكيف يملكه لغيره، وقد أمره الله سبحانه أن يقول للناس: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِيْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾[4].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي لا أقدر على جلب نفع لها، ولا دفع ضرّ عنها، فكيف أقدر على أن أملك ذلك لغيري... وفي هذه أعظم واعظ وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه[5] المناداة لرسول الله ﷺ والاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلّا الله سبحانه،

---

(١) انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) والصحيح أن يقال: إذا حصل شيء من الغوث على يد غيره تعالى فيما يقدر عليه من أمور الدنيا فهو له حقيقة لا مجازاً، بمعنى أنّه يقدر على الغوث فيما يقدر عليه، لا بمعنى أنّه يخلقه أو يملكه ويدبّره.

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٥ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٩.

(٥) جاء في تهذيب اللغة للأزهري (٦/ ٤٣ مادة: هجر): هِجّيرَى الرجل: كلامه ودأبه وشأنه.

وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلّا الله سبحانه، فإنّ هذا مقام ربّ العالمين الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه، ويترك الطلب لربّ الأرباب القادر على كلّ شيء، الخالق، الرازق، المعطي، المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية موعظة، فإنّ هذا سيّد ولد آدم وخاتم الرسل، يأمره الله بأن يقول لعباده: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِيْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ فكيف يملكه لغيره، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره، فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلّا الله عزّ وجلّ!! كيف لا يتيقّظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبّهون لما حلّ بهم من المخالفة لمعنى: لا إله إلّا الله. ومدلول: قل هو الله أحد)[1].

٢ ــ النذر لغير الله:

قال الشوكاني رحمه الله: (النذر في اللغة: الايجاب، وفي الشرع: ما أوجبه المكلّف على نفسه[2] تعظيماً لله تعالى. وهو نوع من أنواع العبادة يجب صرفه لله وحده.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوْا تَفَثَهُمْ، وَلْيُوْفُوْا نُذُوْرَهُمْ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿يُوْفُوْنَ بِالنذْرِ وَيَخَافُوْنَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيْراً﴾[4].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٥٠).
(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٤٧).
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ٧.

ولكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، فيكون نذره لغير الله تعالى شركاً به في العبادة، كالنذور الواقعة من عبّاد القبور لأمواتهم تقرّباً إليهم، ليقضوا لهم حاجاتهم، وليشفعوا لهم.

وقد ذكر الشوكاني رحمه الله هذه النذور، وبيّن أنّها نذر في معصية الله، وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا نذر في معصية الله»[1] وهي أيضاً من النذر الذي لا يبتغي به وجه الله، بل كلّها من النذور التي يستحقّ بها فاعلها غضب الله وسخطه، لأنّها تفضي بصاحبها في الغالب إلى ما يفضي به اعتقاد الإلٰهية في الأموات من تزلزل قدم الدين، إذ لا يسمح بأحبّ أمواله وألصقها بقلبه إلاّ وقد زرع الشيطان في قلبه من محبّة ذلك القبر وصاحبه، والمغالاة في الاعتقاد به ما لا يعود فيه إلى الإسلام سالماً. نعوذ بالله من الخذلان. ولا شكّ أنّ هؤلاء المغرورين المخدوعين لو طلب منهم طالب أن ينذر بذلك الذي نذر به لقبر ميّت على ما هو طاعة من الطاعات وقربة من القربات لم يفعل ولا كاد...)[2].

ومما قال رحمه الله عن هذه النذور: (ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية والنذور الشيطانية: ما يفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفّارة إذا كان في معصية (٣/ ٥٩٤ برقم ٣٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: (لا نذر في معصية، وكفارته كفّارة يمين) وأخرجه أيضاً الترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ أَنْ لا نَذْرَ في معصية (٤/ ٨٧ برقم ١٥٢٤، ١٥٢٥)، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب كفّارة النذور (٧/ ٢٦، ٢٧ برقم ٣٨٣٣ ـ ٣٨٣٩)، وابن ماجة في كتاب الكفّارات، باب النذور في المعصية (١/ ٦٨٦ برقم ٢١٢٤، ٢١٢٥)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٤٧). وصحّحه الألباني في ارواء الغليل (٨/ ٢١٤ برقم ٢٥٩٠) ومشكاة المصابيح (٢/ ١٠٢٣ برقم ٣٤٣٥).

(٢) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني ١٠، ١١ ضمن الرسائل السلفية.

الأموات، فإنّه لا مقصد لهم بذلك إلاّ استجلاب الخير واستدفاع الشرّ من صاحب القبر، وهو قد صار بين أطباق الثرى، يعجز عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره! فلا يصحّ شيء من ذلك. بل يتوجّه على أهل الولايات صرفه في مصالح المسلمين، ويعرّفون الناس بقبح ما يصنعونه من ذلك، وأنّه من الأمور التي لا يحلّ اعتقادها، وأن الضرّ والنفع واستجلاب الخير واستدفاع الشرّ بيد الله عزّ وجلّ، ليس لغيره فيه حكم، ولا له عليه اقتدار فإن رجعوا عن ذلك وتابوا، وإلاّ انتقل صاحب الولاية معهم إلى ما هو أشدّ من ذلك، ولا يدعهم حتى يتوبوا)[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر: (وأمّا النذر على القبور فلكون ذلك ليس من النذر في الطاعة، ولا من النذر الذي يبتغي به وجه الله تعالى، بل قد يكون من النذر في المعصية، إذ تسبّب عنه اعتقاد باطل في صاحب القبر، كما يتفق ذلك كثيراً.

وقد أخرج أبو داود بإسناد صالح عن سعيد بن المسيب: (أنّ أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني القسمة، فكلّ ما لي في رتاج الكعبة[2]. فقال عمر: إنّ الكعبة غنيّة عن مالك، كفّر عن يمينك، ولا تنذر في معصية الربّ، ولا في قطيعة الرحم، ولا فيما لا تملك)[3].

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ٢٠٣.

(٢) قال الخطابي ــ رحمه الله ــ: قوله: (رتاج الكعبة): أصل الرتاج الباب، وليس يراد به الباب نفسه، وإنّما المعنى أن يكون مَالُه هدياً إلى الكعبة، أو في كسوة الكعبة والنفقة عليها، أو نحو ذلك من أمرها (معالم السنن شرح سنن أبي داود ٣/٥٨١، وانظر أيضاً ما قاله ابن الأثير في النهاية ٢/ ١٩٣ مادة: رتج).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور باب اليمين في قطيعة الرحم (٣/ ٥٨١ برقم ٣٢٧٢) ولفظه: (... فقال له عمر: إنّ الكعبة غنية عن مالك، كفّر عن يمينك، وكلّم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يمين عليك، ولا نذر في معصية الربّ، =

وإذا كان هذا في الكعبة، فغيرها من المشاهد والقبور أولى)[1].

٣ ـ الذبح لغير الله؟

ومن أعمال الشرك الذبح لغير الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[2].

قال الشوكاني: (والمراد هنا: ما ذكر عليه اسم غير الله، كاللات، والعزّى، إذا كان الذابح وثنيّاً، والنار إذا كان الذابح مجوسيّاً... ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم، فإنّه مما أهلّ به لغير الله، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن)[3] أي كلاهما شرك بالله عزّ وجلّ، لأنّ الذبح نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها، فلا يجوز صرفه لغيره.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله»[4].

قال الشوكاني: (المراد به أن يذبح لغير الله تعالى، كمن ذبح للصنم، أو الصليب، أو لموسى، أو لعيسى عليهما السلام، أو الكعبة، ونحو ذلك، فكلّ هذا حرام، ولا تحلّ هذه الذبيحة، سواء كان الذابح مسلماً أو كافراً، وإليه ذهب الشافعي وأصحابه، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفراً، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتدّاً)[5].

= وفي قطيعة الرحم، وفيما لا تملك). صحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٢٨٦ برقم ٧٧٩٣).

(١) الدراري المضية شرح الدرر البهية: الشوكاني ٢/ ٣٥٦ مكتبة التراث الإسلامي.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣.

(٣) فتح القدير: الشوكاني ١/ ١٧٠.

(٤) تقدم تخريجه في صفحة (٣٠٨).

(٥) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ٦٨.

وقال رحمه الله في موضع آخر عمّا يفعله كثير من الناس من نحر المواشي عند صاحب القبر متقرّباً به إليه راجياً ما يضمر حصوله له منه، أنّه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمّونها وثناً، وبين قبر لميّت يسمّونه قبراً، ومجرّد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحقّ شيئاً، ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً. . . ولا شكّ أنّ النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها، كالهدايا، والفدايا، والضحايا، فالمتقرّب بها إلى القبر، والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلاّ تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه، واستدفاع الشرّ به، وهذه عبادة لا شكّ فيها. وكفاك من شرّ سماعه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم (إنّا لله وإنّا إليه راجعون) والنبي ﷺ قال: «لا عقر في الإسلام»[١] قال عبد الرزّاق[٢]: كانوا يعقرون عند القبر، يعني بقرة أو شياها، رواه أبو داود[٣] بإسناد صحيح عن أنس بن مالك)[٤].

٤ ـ الحلف بغير الله:

ومن الأعمال الشركية الحلف بغير الله، كالحلف بالنبي، أو الكعبة، أو الأمانة، أو الحياة، أو بوليّ من الأولياء، أو بالشرف أو بغير ذلك من المخلوقات، كلّ ذلك من الشرك الذي يدخل في قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك»[٥] وهو من الشرك الأصغر كما هو من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر.

---

(١) قال ابن الأثير: كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى: أي ينحرونها، ويقولون: إنّ صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته، وأصل العقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم. (النهاية ٣/ ٢٧١ مادة: عقر).

(٢) تقدّمت ترجمته في صفحة (٤٥٩).

(٣) في كتاب الجنائز، باب كراهية الذبح عند القبر (٣/ ٥٥١ برقم ٣٢٢٢) ورواه أيضاً أحمد (٣/ ١٩٧) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٢٥٢ برقم ٧٥٣٥) وأحكام الجنائز ٢٠٣.

(٤) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني ١١ ضمن الرسائل السلفية.

(٥) تقدّم تخريجه في صفحة (٤٩٢).

قال الشوكاني: (قال العلماء: السرّ في النهي عن الحلف بغير الله أنّ الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنّما هي لله وحده، فلا يحلف إلّا بالله وذاته وصفاته، وعلى ذلك اتّفق الفقهاء)(١).

وذكر رحمه الله أحاديث كثيرة فيها النهي عن الحلف بغير الله(٢) منها:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه. فقال: (إنّ الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله تعالى أو ليصمت)(٣). وفي لفظ: (من كان حالفاً فلا يحلف إلّا بالله)(٤).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه: باللات والعزّى فليقل: لا إله إلّا الله»(٥).

قال الشوكاني: (وهذه الأحاديث في دواوين الإسلام، وفيها أنّ الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الإسلام، وذلك لكون الحلف بشيء مظنّة تعظيمه، فكيف بما كان شركاً محضاً، يتضمّن التسوية بين الخالق والمخلوق

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني ١٠/ ١٦٠.
(٢) انظر ما أورده الشوكاني من هذه الأحاديث في: نيل الأوطار (١٠/ ٢١، ١٥٨ ــ ١٦٠)، والدراري المضية شرح الدرر البهية (٢/ ٣٥٢)، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ١٨، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ ٧، ٨ (مخطوط).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان، باب لا تحلفوا بآبائكم (الفتح ١١/ ٥٣٨ برقم ٦٦٤٦) ومسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٣/ ١٢٦٦ برقم ١٦٤٦).
(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (الفتح ٧/ ١٨٣ برقم ٣٨٣٦)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله (٣/ ١٢٦٦ برقم ١٦٤٦).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب لا يحلف باللات والعزّى ولا بالطواغيت (الفتح ١١/ ٥٤٥ برقم ٦٦٥٠)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب من حلف باللات =

في طلب النفع أو استدفاع الضرّ، وقد يتضمّن تعظيم المخلوق زيادة على تعظيم الخالق، كما يفعله كثير من المخذولين، فإنّهم يعتقدون أنّ لأهل القبور من جلب النفع ودفع الضرّ ما ليس لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[1].

وقال رحمه الله في موضع آخر، وقد سئل عن الحلف بغير الله، كالحلف بالسلطان، والأولياء، والقرآن، من دون قصد تعظيم المحلوف به، بل لأجل الاعتياد بذلك في المحاورة:

(هذا لا يحلّ لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، وقد ورد النهي عنه في الأحاديث الصحيحة، وورد أيضاً في الأحاديث ما يفيد أنّ فاعل ذلك يكفر إذا كان حلفه باللات والعزّى ونحو ذلك من الطواغيت، وورد أنّ من فعل ذلك لم يرجع إلى الإسلام سلماً، وهذه أحاديث صحيحة ثابتة في دواوين الإسلام، فإن سبق لسان الحالف إلى شيء من ذلك لأجل تمرّنه عليه، فعليه أن يتدارك نفسه بالاستغفار، ويعوّد لسانه ونفسه الخير ما استطاع، ولا يقع فيما نهى عنه الشارع وتوعّد عليه، فإنّ النفس قابلة للتعليم إذا عوّدت غير ما قد اعتادته عادت إلى الموافقة ولو بعد حين)[2].

ويلاحظ على إجابة الشوكاني هذه أمران:

١ ـ إنّه جعل الحلف بالقرآن كالحلف بمخلوق من مخلوقات الله، كما يتّضح من صيغة السؤال، وهذا رأي باطل قال به المعتزلة وأتباعهم. والصحيح أنّ القرآن كلام الله تكلّم الله به حقيقة بلفظه ومعناه، وهو سبحانه موصوف بالكلام، فعلى هذا يكون الحلف

والعزّى فليقل: لا إله إلا الله. (٣/ ١٢٦٧ برقم ١٦٤٧).

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ١٨ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل: الشوكاني ٤٦، ٤٧ ضمن الرسائل السلفية.

بالقرآن حلفاً بصفة من صفات الله سبحانه، وصفات الله سبحانه غير مخلوقة، فالقرآن غير مخلوق، والحلف به جائز لأنّه حلف بكلام الله، ويعقد به اليمين، وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة، وقد احتجّوا فيما احتجّوا به بقول النبي ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامّات»[1] قالوا: فقد استعاذ بها، ولا يستعاذ بمخلوق[2].

هذا وقد تقدّم أنّ الشوكاني ذهب مذهب الواقفية في القول بخلق القرآن[3].

٢ ـ يظهر من كلام الشوكاني أنّه مخالف لمذهب الجمهور الذي يقول: إنّ من حلف بغير الله لا يكفر كفراً ينقله عن الملة، لكنّه من الشرك الأصغر، كما نصّ على ذلك ابن عباس رضي الله عنهما[4]. وأمّا كونه ﷺ أمر من حلف باللات والعزّى أن يقول: لا إله إلّا الله، فلأنّ هذا كفّارة له كما قال في نصّ الحديث: (ومن حلف فقال في حلفه باللات والعزّى فليقل لا إله إلّا الله). فهذا كفّارة له في كونه تعاطي صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به، لا أنّه لتجديد إسلامه، ولو قدّر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك، لا لكفره[5].

---

(١) تقدّم تخريجه في (ص ٤٢٣).

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٣٣٦، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (١٩١).

(٣) انظر: صفة الكلام، ورأي الشوكاني في القول بأنّ القرآن غير مخلوق. صفحة (٣١٥ ـ ٣٢١).

(٤) تقدّم في صفحة (٤٩٢).

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٥٩٣.

ولعل الصواب في هذه المسألة أنّه إذا كان الحالف بغير الله لا يعتقد أنّ عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركاً أكبر يخرج صاحبه عن الملّة، بل كان شركاً أصغر[1]. أمّا إذا اعتقد أنّ عظمة المحلوف به كعظمة الله أو أعظم منها فهذا شرك أكبر بلا ريب. ولعلّ هذا هو مراد الشوكاني في تكفيره من حلف بغير الله، بدليل كلامه السابق. والله أعلم.

٥ ــ السحر وأنواعه:

ومن الأعمال الشركية الخطيرة التي تناقض التوحيد: السحر، ومعناه ــ كما قال الشوكاني ــ: ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنّه ماء، وما يظنّه راكب السفينة أو الدّابة من أنّ الجبال تسير، وهو مشتقّ من سحرت الصبي أي إذا خدعته وقيل غير ذلك[2].

وأحسن ما قيل في معنى السحر هو: المخادعة أو التأثير في عالم العناصر، بمقتضى القدرة المحدودة، بمعين من الجنّ، أو بأدوية، أثر استعدادات لدى الساحر[3]. لما في هذا المعنى من الشمول لما كان من السحر عن طريق التخييل والمخادعة، وما كان منه حقيقة يؤثر بمعين من الشياطين أو غيرها.

ويدخل السحر في الشرك من جهتين: من جهة ما فيه من استخدام الشياطين، ومن التعلّق بهم، والتقرّب إليهم بما يحبّون ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في

---

(١) انظر فتح الباري: ابن حجر (١١/ ٥٤٠).
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ١١٩).
(٣) انظر كتاب السحر بين الحقيقة والخيال: د/ أحمد بن ناصر (ص ١٧)، ط/ ١٤٠٨ هـ مكتبة التراث بمكة.

علمه، وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وهذا من شعب الشرك[1].

قال الشوكاني رحمه الله: (وقد اختلف هل له حقيقة أو لا؟ فذهب المعتزلة وأبو حنيفة[2] إلى أنّه خداع لا أصل له ولا حقيقة، وذهب من عداهم إلى أنّ له حقيقة مؤثّرة، وقد صحّ أنّ النبي ﷺ سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، حتى كان يخيّل إليه أنّه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه، ثمّ شفاه الله سبحانه)[3].

---

(١) انظر القول السديد في مقاصد التوحيد: عبد الرحمن بن سعدي (٩٣ ـ ٩٥) مؤسسة مكة للطباعة.

(٢) أمّا المعتزلة فمعلوم أنّهم أنكروا حقيقة السحر وتأثيره (انظر مثلاً: الكشاف للزمخشري: ١/ ١٧٣) وأمّا أبو حنيفة فلم أهتد إلى كلامه في الموضوع، والذي أقف عليه ما ذكره الملا علي القاري أحد أعلام الحنفية في شرحه لكتاب الفقه الأكبر (ص ٢٢٠) حيث قال: إنّ السحر والعين حقّ عندنا خلافاً للمعتزلة. اهـ. ومن المنكرين حقيقة السحر كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٣٣) أبو جعفر الأستراباذي من الشافعية، وأبو بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري، وطائفة.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١١٩) والحديث أخرجه البخاري من حديث طويل في كتاب الطب، باب السحر (الفتح ١٠/ ٢٣٢ برقم ٥٧٦٣، ٥٧٦٦) ومسلم في كتاب السلام، باب السحر (٤/ ١٧١٩ برقم ٢١٨٩) ولفظ الحديث كما رواه البخاري: (عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رسول الله ﷺ رجل من بني زُرَيق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيَّل إليه أنّه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشعرتِ أنّ الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعُ الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، وجُفِّ طَلْعِ نخلةٍ ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذرْوان. فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأنّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأنّ رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجتَه؟ قال: قد عَافَانِي الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرّا. فأمر بها فدُفنت). وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحّته، والقصّة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء. وقد أنكره كثير من أهل الكلام =

وذهب الشوكاني رحمه الله مذهب أهل السنة في أنّ السحر له حقيقة وله تأثير بإذن الله. واستدلّ بقوله تعالى: ﴿. . . فَيَتَعَلَّمُوْنَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُوْنَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه، وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] إذ قال في تفسيره للآية:

(في إسناد التفريق إلى السحرة، وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أنّ للسحر تأثيراً في القلوب بالحبّ والبغض، والجمع والفرقة، والقرب والبعد، ولا تتنافى بين قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُوْنَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُوْنَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وبين قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنّ المستفاد من جميع ذلك أنّ للسحر تأثيراً في نفسه، ولكنّه لا يؤثّر ضرراً إلاّ فيمن أذن الله بتأثيره فيه، وقد أجمع أهل العلم على أنّ له تأثيراً في نفسه، وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلاّ المعتزلة وأبو حنيفة)[2].

واستدلّ رحمه الله أيضاً بحديث عائشة المتقدم ذكره، لأنّه مصرّح بإثبات السحر، وأنّه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كلّه يبطل ما قاله المنكرون، فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أنّ الله سبحانه يخرق العادة عند النطق بكلام، أو تركيب أجسام، أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلاّ الساحر، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم، ومنها مسقمة كالأدوية الحادّة، ومنها مضرّة كالأدوية المضادّة للمرض، لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتّالة، أو كلام مهلك، أو مؤدّ إلى التفرقة[3].

= وغيرهم وقابلوه بالتكذيب، وقولهم مردود عند أهل العلم (انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/ ٨٦٥ ـ ٨٦٧) تحقيق: علي محمد البجاوي، وزاد المعاد لابن القيم (٤/ ١٢٤)، وبدائع الفوائد له (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢) ط/ القاهرة، وشرح النووي لمسلم (١٤/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٢١).

(٣) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٣) نقلا عن المازري.

أمّا ما زعمه المنكرون للحديث[1] من أنّ سحر النبي ﷺ يحطّ منصب النبوّة، ويشكّك فيها، وأنّ تجويزه يمنع الثقة بالشرع، فهو زعم باطل، لأنّ الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وعصمته فيما يتعلّق بالتبليغ، والمعجزة شاهدة بذلك، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل[2].

ولأنّ السحر الذي أصابه ﷺ كان مرضاً من الأمراض عارضاً ـ أصابه في بدنه ـ شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإنّ المرض يجوز على الأنبياء[3]. لأنّهم بشر، وجانب البشرية فيه عرضة للسقم والمرض والمحن والشدائد، كما لا يخفى.

ونقل الشوكاني عن القاضي عياض[4] قال ردّاً على هذا الزعم: (وقد جاءت روايات هذا الحديث مبيّنة أنّ السحر إنّما تسلّط على جسده ﷺ وظواهر جوارحه، لا على عقله وقلبه واعتقاده... وكلّ ما جاء في الروايات من أنّه يخيّل إليه أنّه فعل شيئاً ولم يفعله ونحوه، فمحمول على التخيّل بالبصر، لا بخلل تطرّق إلى العقل، وليس وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة، ولا طعناً لأهل الضلالة، والله أعلم) اهـ[5].

وذكر الشوكاني رحمه الله تعالى أنواعاً كثيرة من أعمال السحر التي هي شرك بالله منها:

---

(١) من المنكرين من أهل السنة: أبو بكر الجّصاص في تفسيره: أحكام القرآن (١/ ٦٠) تحقيق: محمد صادق قمحاوي، ط/ ١٤٠٥ هـ دار احياء التراث. ومن المعاصرين سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن (٦/ ٤٠٠٨) دار الشروق.

(٢) انظر نيل الأوطار: (٩/ ٤٣).

(٣) انظر بدائع الفوائد: ابن القيم (٢/ ٢٥٠).

(٤) سبقت ترجمته في صفحة (٢٣١).

(٥) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٣) وقارن: الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٦٦) تحقيق: علي محمد البجاوي.

(أ) الكهانة والتنجيم وما في معناهما:

قال ابن الأثير: (الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كهنة، فمنهم من كان يزعم أنّ له تابعاً من الجنّ ورئيًا يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدّمات أسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله، أو فعله، أو حاله، وهذا يخصّونه باسم العرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالّة، ونحوها)[1].

ونقل الشوكاني عن القاضي عياض قال: (كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب: أحدها يكون للإنسان وليّ من الجنّ يخبره بما يسترقه من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله تعالى نبيّنا ﷺ[2]. الثاني: أن يخبره بما يطرأ، أو يكون في أقطار الأرض، وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده، ونفت المعتزلة وبعض المتكلّمين هذين الضربين وأحالوهما، ولا استحالة في ذلك ولا بعد في وجوده، لكنّهم يصدقون

---

(١) النهاية: ابن الأثير (٤/٢١٤، ٢١٥. مادة: كهن).

(٢) أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ رَجِيمْ إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمعَ فَأَتْبَعَه شِهَابٌ مُبِيْنَ﴾ (سورة الحجر، الآية: ١٧، ١٨)، وقوله: ﴿يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِ جَانِبٍ دُحُوْراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (سورة الصافات، الآية: ٨ ـ ١٠) أي يُرْمَى الشياطين من كلّ جانب من جوانب السماء بالشهب إذا أراد الصعود لاستراق السمع وكذلك قوله ـ حكاية عن الجنّ ـ: ﴿وَأَنّا لَمَسْنَا السماء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسَاً شَدِيْداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ (سورة الجنّ، الآية: ٨، ٩) قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي وَأَنّا كنّا معشر الجنّ قبل هذا نقعد من السماء مقاعد للسمع لاستماع الأخبار من السماء... وذلك أنّ مردة الجنّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء، فيلقونها إلى الكهنة، فحرسها الله سبحانه ببعثه رسوله ﷺ بالشهب المحرقة، وهو معنى قوله: (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) أي أرصد له ليرمى به. (فتح القدير ٥/ ٣٠٥).

ويكذبون، والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عامّ. والثالث: المنجّمون. (وسيأتي الحديث عنهم): وهذه الأضرب كلّها تسمّى كهانة)[1].

وقد ألحقت الكهانة والعرّافة بالسحر لكونهما مشابهين له من حيث اشتمالهما على الاخبار بما يخفى على الآخرين، مع دعوى علم الغيب، أو سلوك الطرق المحرّمة في الحصول على ذلك.

وقد ورد في النهي عن اتيان الكهّان وتصديقهم أحاديث كثيرة، أوردها الشوكاني رحمه الله في مؤلّفاته[2]، منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[3].

وحديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس منا من تَطيّر، أو تُطيّر له، أو تَكهّن، أو تُكهّن له، أو سحر، أو سُحر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[4].

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٥).

(٢) انظر فتح القدير (١/ ١٢٣، ١٢٤)، ونيل الأوطار (٩/ ٤٥، ٤٦)، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (٢٣، ٢٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٢٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٥، ١٨٣). وصحّحه صاحب تيسير العزيز الحميد (ص ٤٠٩).

(٤) أخرجه البزار، كما في (كشف الأستار ٣/ ٣٣٩، ٤٠٠ برقم ٣٠٤٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧): ورجاله رجال الصحيح، خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. قال المنذري في الترغيب (٤/ ٣٣): رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس دون قوله: ومن أتى. الخ بإسناد حسن. ورواه من حديث عمران بن حصين، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٣): وفيه إسحاق بن الربيع العطار، وثّقه أبو حاتم، وضعّفه عمرو بن علي، وبقية رجاله ثقات. والحديث صحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٩٥٦ برقم ٥٤٣٥).

قال الشوكاني: (والعلّة الموجبة للحكم بالكفر ليست إلّا اعتقاد أنّه مشارك الله تعالى في علم الغيب، مع أنّه في الغالب يقع غير مصحوب بهذا الاعتقاد، ولكنّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[1].

وظاهر الحديث أنّه الكفر الحقيقي، وقيل هو الكفر المجازي، وقيل فيه تفصيل، فمن اعتقد أنّ الكاهن أو العرّاف يعرف الغيب، ويطّلع على الأسرار الإلهية كان كافراً كفراً حقيقياً، كمن اعتقد تأثير الكواكب، وإلّا فلا[2]. ولعلّ هذا التفصيل هو الراجح، لأنّه الموافق لمنطوق الحديث ومفهومه، وهو تكفير من أتاه، واعتقد صدقه، وأنّه يعلم الغيب، دون من أتاه ولم يعتقد ذلك، أو شكّ في خبره، فلا يحكم عليه بالكفر، بل إنّه ارتكب أكبر الكبائر، ورتّب عليه وعيد شديد، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)[3] فهذا حكم من سأله مطلقاً، والأوّل حكم من سأله وصدّقه بما قال.

أمّا التنجيم فهو ضرب من الكهانة، وهذا الضرب يخلق الله فيه لبعض الناس قوّة ما، لكنّ الكذب فيه أغلب[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (صناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية والقوابل الأرضية، صناعة محرّمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هي محرّمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل)[5].

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٤ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٢) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٦).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهّان (٤/ ١٧٥١ برقم ٢٢٣٠).
(٤) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٥) نقلاً عن القاضي عياض.
(٥) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٣٥/ ١٩٢).

فعلم التنجيم المحرّم هو ما يزعم أهله من أنّهم يعرفون ما يكون في المستقبل من أمور عامّة وأحداث لم تقع أنّها ستقع في زمن معيّن، وخاصّة عن طريق النجوم والنظر فيها، كإخبارهم عن أوقات مجيء المطر، وهبوب الرياح، وتغيّر الأسعار، وما كان يماثلها من الأمور، حيث إنّهم يدّعون أنّ للكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها تأثيراً في الأمور السلفية، والتنجيم بهذا يكون من ادّعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى، كما دلّت على ذلك النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُوْلٍ﴾[2]. قال الشوكاني: (وليس المنجّم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى، وينظر في الكفّ، ويزجر بالطير، ممن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، فهو كافر بالله، مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه)[3].

وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[4]: (إنّه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهّان، والمنجّمين، والرمليين، وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالّة، والأنواع المخذولة، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطّة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ: «من أتى كاهناً ومنجّماً فقد كفر بما أنزل على محمد»[5] ﷺ.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الجنّ، الآية: ٢٦، ٢٧.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣١١).
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٢٣) والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ، وجميع =

وقد أورد الشوكاني رحمه الله أحاديث كثيرة فيها النهي والتحذير عن التنجيم[1].

منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن النظر في النجوم[2].

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»[3].

قال الشوكاني في شرح الحديث: (أي فكما أنّ تعلّم السحر والعمل به حرام، فكذا تعلّم علم النجوم والكلام فيه حرام. ونقل عن الخطّابي قال: والمنهي عنه ما يدّعيه أهل التنجيم من علم الحوادث والكوائن التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان. ويزعمون أنّهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في

= المرويات التي وقفت عليها في هذا الموضوع ليس فيها كلمة (منجّما)، بل هي إمّا بلفظ (كاهنا) أو (عرّافاً)، أو (ساحراً). (انظر مثلاً: الترغيب والترهيب للمنذري (٤/ ٣٣ ـ ٣٦)، ومجمع الزوائد للهيثمي (٥/ ١١٧، ١١٨).

(١) انظر نيل الأوطار (٩/٤٧)، وفتح القدير (٢/١٤٦)، والندر النضيد (ص ٢٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٠٦ برقم ٥١٩٨) تحقيق: محمد السعيد زغلول، والخطيب البغدادي في تاريخه (٦/ ١٣٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٧، ٣١١)، وأبو داود في كتاب الطبّ، باب في النجوم (٤/ ٢٢٦ برقم ٣٩٠٥)، وبان ماجة في كتاب الأدب، باب تعلّم النجوم (٢/ ١٢٢٨ برقم ٣٧٢٦) وصحّحه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد (انظر تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٠) قال الشوكاني: حديث ابن عباس سكت عنه أبو داود المنذري، ورجال إسناده ثقات (نيل الأوطار ٦/ ٤٧، وانظر أيضاً الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ٢٣) وقال الألباني: إسناده جيد ورجاله كلّهم ثقات. (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٤٣٥ برقم ٧٩٣).

قال الشوكاني: ومعنى (زاد ما زاد) أي زاد من علم النجوم كمثل ما زاد من السحر. والمراد أنّه إذا ازداد من علم النجوم فكأنّه ازداد من علم السحر، وقد علم أنّ أصل علم السحر حرام، والازدياد منه أشدّ تحريماً، فكذا الازدياد من علم التنجيم (نيل الأوطار ٩/ ٤٧).

مجاريها، واجتماعها وافتراقها، وهذا تعاط لعلم استأثر الله به، لا يعلم الغيب أحد سواه، فأمّا علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة، والحسّ كالذي يعرف به الزوال، وجهلة القبلة، وكم مضى وكم بقي، فغير داخل فيما نهى عنه)[1].

قال رحمه الله: (فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكّر والاعتبار، وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيّد بالاهتداء والتفكّر والاعتبار، كما يدلّ عليه حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تعلّموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البرّ والبحر، ثمّ انتهوا»[2].

قلت: وقد دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ جَعَلَ لَكُمُ النُّجُوْمَ لِتَهْتَدُوْا بِهَا فِيْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُوْنَ﴾[4]، قال الشوكاني في تفسير الآية: (وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها، ومنها ما ذكره الله في قوله: ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[5]، ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوْماً لِلشَّيَاطِيْنَ﴾[6]

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٧) وانظر معالم السنن شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٤٦) وقال في الحديث: أخرجه ابن مردويه والخطيب (أي في كتاب النجوم) عن ابن عمر. اهـ قلت: وأخرجه الديلمي في كتاب الفردوس (٢/ ٤٣ برقم ٢٢٤٨) تحقيق: محمد السعيد زغلول، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٦٩ برقم ١٧٢٣) من حديث أبي هريرة. قال المناوي في فيض القدير (٣/ ٢٥٦): قال عبد الحق: وليس إسناده مما يحتجّ به. وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣/ ٣٥ برقم ٢٤٥٥).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٦.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٧.

(٦) سورة الملك، الآية: ٥.

ومنها جعلها زينة للسماء[1] ومن زعم غير هذه القواعد فقد أعظم على الله الفرية)[2].

ويلحق بالتنجيم المنهي عنه الاستسقاء بالنجوم، وهو كما قال الشوكاني: قول القائل: مُطِرْنَا بنوء كذا، أو سؤال المطر من الأنواء، فإن كان ذلك على جهة اعتقاد أنّها المؤثّرة في نزول المطر فهو كفر.

وقد ثبت في الصحيح من حديث زيد بن خالد أنّ النبي ﷺ قال: (يقول الله سبحانه: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأمّا من قال: مُطرنا بنوء كذا[3] وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب)[4].

قال الشوكاني في بيان معنى الحديث: (ولا يخفى على عارف أنّ العلّة في الحكم بالكفر هي ما في ذلك من إيهام المشاركة، وأين ذلك ممن يصرّح

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ (سورة الصافات، الآية: ٦).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٢٣).

(٣) قال ابن الأثير: «والأنواء هي ثمان وعشرون منزلةً، ينزل القمر كلّ ليلة في منزلة منها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ (سورة يّس، الآية: ٣٩) ويسقط في الغرب كلَّ ثلاثَ عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أنّ مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، وإنّما سمّي نوءاً لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق، ينوء نوءاً: أي نهض وطلع. (النهاية ٥/ ١٢٢ مادة: نوأ).

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (٥/ ١٠٤)، والدر النضيد له (٢٥) والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلّم (الفتح ٢/ ٣٨٨ برقم ٨٤٦) وأخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلّم (الفتح ٢/ ٣٨٨ برقم ٨٤٦) وأخرجه أيضاً برقم (١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطرنا بالنوء (١/ ٨٣ برقم ٧١).

في دعائه عندما يمسّه الضرّ بقوله: يا الله ويا فلان، وعلى الله وعلى فلان؟ فإنّ هذا يعبد ربّين، ويدعو اثنين، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا فهو لم يقل: أمطره ذلك النوء، بل قال: أمطره به، وبين الأمرين فرق ظاهر)[1] فالأوّل كفر صريح وشرك أكبر، والثاني كفر دون كفر، إذا اعتقد القائل أنّ الله هو المنزل للمطر، وهو من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا[2]. ونحو ذلك. والله أعلم.

(ب) التطيّر:

ومن أنواع السحر التطيّر.

قال الشوكاني رحمه الله: (وأمّا التطيّر فهو الطيرة بكسر الطاء المهملة وفتح المثناة التحتية، وقد تسكن، وهي التشاؤم بالشيء، وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه)[3].

وقال في موضع آخر: (والتطيّر: التشاؤم، وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكانوا يتطيّرون بالسوانح والبوارح[4]، فينفرون الظباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين تبرّكوا به، ومضوا في سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا، فكانت تصدّهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم، فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنّه ليس له تأثير ينفع، ولا يضرّ)[5].

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٥ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٢) انظر تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله (٤٥٨ ــ ٤٦١).
(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٣٣).
(٤) جاء في تهذيب اللغة للأزهري (مادة: سنح، وبرح): السانح: ما أتاك عن يمينك من طائر أو ظبي أو غير ذلك، يتيّمن به، تقول: سنح لنا سنوحاً. والبارح: من الظباء والطير خلاف السانح.
(٥) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٨) وانظر أيضاً فتح القدير له (٢/ ٢٣٧).

ومن هذا النوع تطيّر آل فرعون بموسى عليه السلام، كما حكى الله سبحانه في كتابه العزيز وردّ عليهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

قال الشوكاني: (أي سبب خيرهم وشرّهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط هو من عند الله ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه، ولهذا عبّر بالطائر عن الخير والشرّ الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته)[2].

وقد جاء النهي عن التطيّر في أحاديث كثيرة، أوردها الشوكاني رحمه الله تعالى في كتبه[3].

منها ما أخرجه أحمد بسنده عن قطن بن قبيصة عن أبيه[4] أنّه سمع رسول الله ﷺ قال: «إنّ العيافة، والطرق، والطيرة، من الجبت»[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٣٧).

(٣) انظر: نيل الأوطار (٩/ ٤٨ ـ ٥١)، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد (٢٣)، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ (٧، ٨) (مخطوط).

(٤) قال الحافظ ابن حجر: قطن بن قبيصة بن المخارق الهلالي، أبو سهلة البصري، صدوق، من الثالثة، أخرج له أبو داود والنسائي. وأبوه قبيصة بن المخارق بن عبد الله الهلالي، صحابي، سكن البصرة، أخرج له مسلم وأبو داود والنسائي (انظر التقريب برقم ٥٥٥٤، ٥٥١٥).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٦٠) وفيه: قال عوف: (العيافة زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: إنّه الشيطان. وانظر أيضاً (٣/ ٤٧٧)، وأبو داود في كتاب الطبّ، باب في الخط وزجر الطير (٤/ ٢٢٨، ٢٢٩ برقم ٣٩٠٧) قال النووي: إسناده حسن (رياض الصالحين ٤٩٣ برقم ١٦٧٠ ط/ دار عالم الكتب) وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: إسناده جيد (انظر تيسير العزيز الحميد ٣٩٨) وكذلك قال الشوكاني في الدر النضيد ٢٣.

ومعنى العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها، وهو من عادة العرب كثيراً، وهو كثير في أشعارهم[1]. ومعنى الطرق: أي الضرب بالحصى الذي يفعله النساء، وقيل: الخط في الرمل[2].

قال الشوكاني: (وهذه الأمور إنّما كانت من الجبت (أي من أعمال السحر)[3] والشرك، لأنّها مظنّة للتعظيم الجالب للاعتقاد الفاسد)[4] بأنّها تجلب له النفع، أو تدفع عنه الضرّ، وهو مناقض للتوحيد في عبادة الله عزّ وجلّ.

ومنها حديث أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح: الكلمة الحسنة»[5].

وحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة شرك، (ثلاثاً) وما منّا إلّا، ولكنّ الله يُذهبه بالتوكّل»[6].

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير (٣/ ٣٣٠ مادة: عيف).
(٢) انظر المصدر السابق (٣/ ١٢١ مادة: طرق).
(٣) تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله ٤٠٠.
(٤) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٣ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الطّب، باب الفأل (الفتح ١٠/ ٢٢٥ برقم ٥٧٥٦) وأخرجه أيضاً برقم (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم. (٤/ ١٧٤٦ برقم ٢٢٢٤).
(٦) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود في كتاب الطبّ، باب في الطيرة (٤/ ٢٣٠ برقم ٣٩١٠)، والترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٣٧، ١٣٨ برقم ١٦١٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح... سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: (وما منا، ولكن الله يذهبه بالتوكّل) قال سليمان: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود وما منا. وأخرجه أيضاً ابن ماجه في كتاب الطبّ، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٢/ ١١٧٠ برقم ٣٥٣٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧) وقال: صحيح سنده، ثقات رواته. ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في غاية المرام (١٨٦ برقم ٣٠٣) =

هذا الحديث صريح في تحريم الطيرة وأنّها من الشرك، لما فيها من تعلّق القلب على غير الله.

قال الشوكاني رحمه الله (وإنّما جعل الطيرة من الشرك، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ التطيّر يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضرراً إذا علموا بموجبه، فكأنّهم أشركوه مع الله تعالى. ومعنى (اذهابه بالتوكّل): أنّ ابن آدم إذا تطيّر، وعرض له خاطر من التطيّر أذهبه الله بالتوكيل والتفويض إليه، وعدم العمل بما خطر من ذلك، فمن توكّل سلم، ولم يؤاخذه الله بما عرض له من التطيّر)[1].

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يظنّ بعض الناس أنّه يدلّ على التطيّر منها:

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابّة»[2] وفي رواية عند مسلم: (إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة)[3].

وقد ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة، وبألفاظ مختلفة، فقد رواه عبد الله ابن عمر، وأبو هريرة، وسهل بن سعد، وجابر، وغيرهم.

= وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧١٦ برقم ٤٢٩) وقال: فالحديث صحيح بكامله.

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطبّ، باب الطيرة (الفتح ١٠/ ٢٢٣ برقم ٥٧٥٣)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة، والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٧ برقم ٢٢٢٥).

(٣) انظر صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٤/ ١٧٤٨ برقم ٢٢٢٥ مكرر).

وقد تكلّم العلماء رحمهم الله تعالى على هذا الحديث، وأجابوا عنه بعدّة أجوبة(١).

وذكر الشوكاني بعض أقوالهم قال: (قال النووي(٢)، اختلف العلماء في حديث: (الشؤم في ثلاث). فقال مالك رحمه الله: هو على ظاهره، وإنّ الدار قد يجعل الله تبارك وتعالى سكناها سبباً للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعيّنة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى. وقال الخطّابي(٣) وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطيرة، أي الطيرة منهي عنها إلاّ أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس، أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع ونحوه، وطلاق المرأة. وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم، وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرّضها للريب، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها. وقيل غير ذلك)(٤).

ورجّح الشوكاني قول الإمام مالك قال: (والراجح ما قاله مالك وهو الذي يدلّ عليه حديث أنس الذي ذكرنا(٥)، فيكون حديث الشؤم مخصّصاً

---

(١) انظر حكاية أقوالهم في مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٧) نشر رئاسة إدارة البحوث، وفتح الباري لابن حجر (٦/ ٧١ ـ ٧٤)، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الله (٤٢٨ ـ ٤٣٢) وللشوكاني رسالة بعنوان: اتحاف المهرة على حديث لا عدوى ولا طيرة، وهي مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء ـ مجاميع متوكلية ـ ولم أتمكن من الاطلاع عليها. وقد أشار إليها المؤلّف في نيل الأوطار (١٠/ ١٣٣).

(٢) انظر شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢٢).

(٣) انظر معالم السنن شرح سنن أبي داود (٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٤) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٩).

(٥) يقصد حديث أنس الذي قال: (قال رجل: يا رسول الله إنّا كنّا في دار كثير فيها عددنا، كثير فيها أموالنا، فتحوّلنا إلى دار أخرى، فقلّ فيها عددنا، وقلّت فيها أموالنا، فقال رسول الله ﷺ: ذروها ذميمة) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في الطيرة =

لعموم حديث: (لا طيرة) فهو في قوّة: لا طيرة إلّا في هذه الثلاث. وقد تقرّر في الأصول أنّه يبني العام على الخاص مع جهل التاريخ، وادّعى بعضهم أنّه إجماع، والتاريخ في أحاديث الطيرة والشؤم مجهول)[1].

قلت: والذي رجّحه الشوكاني هو أيضاً قول الخطّابي ومن معه كما تقدّم.

ولا يظنّ أنّهم يقصدون بالتطيّر بهذه الثلاثة على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية فإنّ ذلك خطأ، وإنّما يقصدون أنّ هذه الأشياء الثلاث هي أكثر ما يتطيّر به الناس، فمن وقع في نفسه شيء أبيح له أن يتركه، ويستبدل به غيره. وهذا كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

(إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنّما غايته أنّ الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شرّ، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشرّ على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشرّ، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركة، ويقضي بسعادة من قارنها، وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من

= (٤/ ٢٣٩ برقم ٣٩٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد، باب الشؤم في الفرس (انظر فضل الله الصمد ٢/ ٣٧٣ برقم ٩١٨)، ومالك في الموطأ، باب ما يتقى من الشؤم (٢/ ٩٧٢ برقم ٢٣)، وعبد الرزاق في مصنّفه (١٠/ ٤١١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٧٣): إنّ إسناد عبد الرزاق صحيح. والحديث حسنّه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٩١ برقم ٤٥٨٩) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٤٣٢ برقم ٧٩٠).

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٤٩، ٥٠).

قارنها، وكلّ ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبّباتها المتضادّة والمختلفة)[1].

ومثله ما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي[2] وهو من أحسن ما قيل في هذا الصدد إذ قال بعد ذكر الأقوال:

(والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث... أنّ هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤوم واليمن ويقرنه، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابّة أن يسأل الله تعالى من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ به من شرّها وشرّ ما جبلت عليه، كما في حديث عمرو بن شعيب[3] عن أبيه[4]، عن جدّه[5]، عن النبي ﷺ الذي أخرجه أبو داود وغيره[6]. وكذا

---

(١) مفتاح دار السعادة: ابن القيم (٢/ ٢٥٧).

(٢) أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، حافظ للحديث، من العلماء المتقنين، له مصنفات كثيرة منها: جامع العلوم والحكم، وشرح العلل للترمذي. توفيّ (٧٩٥ هـ) (انظر ترجمته في: شذرات الذهب: ابن العماد ٦/ ٣٣٩، والذيل على طبقات الحنابلة، مقدمة الجزء الأول، والبدر الطالع: الشوكاني ١/ ٣٢٨).

(٣) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص أبو إبراهيم السهمي، اضطرب قول أئمة الجرح والتعديل فيه، وغالبهم على توثيقه، وإنّما أنكروا عليه بعض رواته عن أبيه عن جدّه. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق، أخرج له الأربعة. توفّي (١١٨ هـ) (انظر ميزان الاعتدال: الذهبي ٤/ ١٨٣ برقم ٦٣٨٣، والتقريب: ابن حجر ٤٢٣ برقم ٥٠٥٠).

(٤) أبوه هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، روى عن جدّه الأعلى: عبد الله بن عمرو بن العاص، قال الحافظ ابن حجر: صدوق، ثبت سماعه من جدّه من الثالثة (انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي ٥/ ١٨١، والتقريب: ابن حجر ٢٦٧ برقم ٢٨٠٦).

(٥) عبد الله عمرو بن العاص رضي الله عنهما، الصحابي الجليل، وأحد العبادلة الفقهاء. (التقريب: ابن حجر ٣١٥ برقم ٣٤٩٩).

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، باب في جامع النكاح (٢/ ٦١٦ برقم ٢١٦٠)، وابن ماجة في كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله (١/ ٦١٧ =

ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك، وقد أمر النبي ﷺ قوماً سكنوا داراً فقلّ عددهم وقلّ مالهم أن يتركوها ذميمة[1]. فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة، من دار، أو زوجة، أو دابّة، غير منهي عنه، وكذلك من اتجر في شيء فلم يربح فيه ثلاث مرّات، فإنّه يتحوّل عنه)[2].

بهذا يتبيّن أنّ الشؤم موجود في بعض الأشياء، لكنّ التشاؤم بهذه الأشياء هو الممنوع، فالواجب على المسلم والمؤمن بالله أن يعتقد أنّ كلّ شيء من الله تعالى ولا مانع من أن يبتعد عن بعض الأعيان المشؤومة حقّاً، لا ما يتوهّمه، أو يوسوس له الشيطان فيه، لأنّ الاسترسال في ذلك يفتح عليه أبواب من الشيطان تفسد عليه دينه وحياته.

أمّا وجه تخصيص هذه الثلاثة بالذكر، فقيل: إنّ الحصر فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة، وقيل: إنّما خصّت بالذكر لطول ملازمتها.

قال المازري[3]: مجمل هذه الرواية: إن يكن الشؤم حقّاً فهذه الثلاث أحقّ به، بمعنى أنّ النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها[4].

(ج) تعليق التمائم ونحوها:

ومن أنواع السحر تعليق التمائم[5] وما أشبهها.

= برقم ١٩١٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٥) وقال: هذا حديث صحيح. ووافقه الذهبي. والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٤٨) قال العراقي في تخريج الأحياء (١/ ٣٢٨): إسناده جيد.

(١) تقدم تخريجه قبل قليل في صفحة (٥٢٠، ٥٢١ هامش رقم ٥).

(٢) لطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي ١٥٧ ط/ دار الجيل.

(٣) محمد بن علي بن عمر محمد التميمي المازري المالكي، الشيخ الإمام، كان بصيراً بعلم الحديث، قال عنه القاضي عياض: لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه منه بمذهبهم. توفيّ (٥٣٦ هـ) (انظر سير أعلام النبلاء: الذهبي ٢٠/ ١٠٤، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٤/ ١١٤).

(٤) انظر الفتح: ابن حجر (٦/ ٧٢).

(٥) جعلت تعليق التمائم من أنواع السحر تجاوزاً، لأنه ليس دائماً من السحر، فقد يكون =

قال الشوكاني رحمه الله: (فمن ذلك ما ورد في تعليق التمائم، إنّه من الشرك، وتعليق الخيط في اليد للحمى)[1]. وذكر أحاديث كثيرة في حكم التمائم والتولة[2] وما أشبههما.

منها: ما أخرجه أحمد في مسنده عن عمران بن حصين أنّ النبي ﷺ رأى رجلاً بيده حَلْقة من صُفْر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهِنة. قال: انزعها فإنّها لا تزيدك إلاّ وَهْناً، ولو متَّ وهي عليك ما أفلحت)[3].

والواهنة كما قال ابن الأثير: (عِرْق يأخذ في المَنْكب وفي اليد كلّها، فيُرْقَى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العَضُد، وربّما عُلِّقَ عليها جنس من الخَرَز يقال لها: خَرَزُ الواهنة، وهي تأخذ الرجالَ دون النساء، وإنّما نهاه عنها لأنّه اتخذها على أنّها تعصمه من الألم، فكان عنده في معنى التمائم المنهي عنها)[4].

وأخرج أحمد أيضاً عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً: (من تعلّق تميمة فلا أتمّ الله له، ومن تعلّق وَدَعه فلا ودع الله له)[5].

= من السحر وقد لا يكون.

(١) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ٨ (مخطوط).

(٢) سيأتي تفسير معناهما (ص ٥٢٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجة في كتاب الطبّ، باب تعليق التمائم (٢/ ١١٦٧ برقم ٣٥٣١) قال الشوكاني: وإسناده لا بأس به (الدر النضيد ص ١٣) ومثله قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد (انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ١١٩ تحقيق محمد حامد الفقي) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٣): رواه ابن ماجة وأحمد والطبراني، وفيه مبارك بن فضالة، وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات. وضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣/ ١٠١ برقم ١٠٢٩).

(٤) النهاية: ابن الأثير (٥/ ٢٣٤ مادة: وهن).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٥٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٣): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات.

والودعة جمع من الوَدْع بالفتح والسكون، قال ابن الأثير: (وهو شيء أبيضُ يُجْلب من البحر يُعلّق في حُلوق الصبيان وغيرهم، وإنّما نهي عنها لأنّهم كانوا يعلّقونها مخافة العين)[1].

قال الشوكاني في شرح الحديث: (قوله: (فلا أتمّ الله له) فيه الدعاء على من اعتقد في التمائم وعلّقها على نفسه بضدّ قصده وهو عدم التمام لما قصده من التعليق، وكذلك قوله: (فلا ودع الله له) فإنّه دعاء على من فعل ذلك)[2].

ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إنّ الرُّقى، والتمائمَ، والتِوِلة، شرك»[3].

ففي هذا الحديث تصريح بأنّ هذه الثلاثة كلّها من الشرك، والمراد بالرقى في الحديث ما فيه الاستعانة بغير الله، أو لا يفهم معناها: أمّا إذا كانت من القرآن الكريم أو من الأدعية المباحة فجائز، كما ثبت في الحديث الصحيح عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (كنّا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك)[4] وفي الموضوع أحاديث كثيرة.

قال الشوكاني رحمه الله: (في هذا الحديث دليل على جواز الرقى

---

(١) النهاية: ابن الأثير (٥/ ١٦٨ مادة: ودع).

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٤٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٨١)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (٤/ ٢١٢ برقم ٣٨٨٣)، وابن ماجة في كتاب الطب، باب تعليق التمائم (٢/ ١١٦٧ برقم ٣٥٣٠) وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٨٤ برقم ٤٥٥٢) وانظر أيضاً سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٥٨٤ برقم ٣٣١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (٤/ ١٧٢٧ برقم ٢٢٠٠) وأبو داود في كتاب الطب، ما جاء في الرقى (٤/ ٢١٤ برقم ٣٨٨٦).

والتطبّب بما لا ضرر فيه، ولا منع من جهة الشرع، وإن كان بغير أسماء الله وكلامه، لكن إذا كان مفهوماً، لأنّ ما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شيء من الشرك)[1].

والمراد بالتمائم: هي خرزات كانت العرب تعلّقها على أولادهم، يمنعون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام[2].

واختلف العلماء فيما إذا كانت التمائم من القرآن أو الأدعية الثابتة عن النبي ﷺ إلى قولين، أرجحهما عندي المنع، لعموم النهي في استعمالها ولا مخصّص له، ولسدّ الذريعة التي تفضي إلى تعليق ما ليس كذلك[3].

أمّا التولة: فهي ضرب من السحر، وقد جاء تفسيرها عن ابن مسعود رضي الله عنه كما أخرجه الحاكم وصحّحه[4]: أنّه دل على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجذبه فقطعه، ثمّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الرُّقى والتمائم والتولة شرك» قالوا: يا أبا عبد الله، هذه التمائم والرقى قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء، يتحبّبن به إلى أزواجهنّ. يعني من السحر.

وقيل: هي خيط يُقرأ فيه من السحر، أو قرطاس يُكتب فيه شيء منه يتحبّب به النساء إلى قلوب الرجال، أو الرجال إلى قلوب النساء[5].

وقد نهى الشارع عن هذه الثلاثة، وجعلها شركاً، وما ذلك إلّا لكونها مظنّة لأن يصحبها اعتقاد أنّ لغير الله تأثيراً في الشفاء من الداء، وفي المحبّة

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٤٥).
(٢) انظر المصدر السابق (١٠/ ١٤٣).
(٣) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص ١٢٧، ١٢٨).
(٤) المستدرك (٤/ ٢١٧) ووافقه الذهبي.
(٥) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ١٤٣).

والبغضاء، فكيف بمن نادى غير الله، وطلب منه ما لا يطلب إلّا من الله، واعتقد استقلاله بالتأثير، أو اشتراكه مع الله عزّ وجلّ[1]؟

المبحث الثالث

تحقيق شرك القبوريين والوثنيين وبيان أنّ شركهما واحد

المقارنة بين شرك الوثنيين وعبّاد القبور:

يقارن الشوكاني رحمه الله أحوال عبّاد القبور بأحوال مشركي الجاهلية الأولى فوجد أنّ أحوالهما واحدة، بل الأوّل أغلظ شركاً من الثاني.

وقد وصف رحمه الله عبّاد القبور بأنّهم الذين (عمدوا إلى جماعة من الأموات الذين لا يستطيعون توصية، ولا إلى أهلهم يرجعون، فقصدوهم في المهمّات، وعكفوا على قبورهم، ونذروا لهم النذور، ونحروا لهم النحائر، وفزعوا إليهم عند المهمّات، فتارة يطلبون منهم من الحاجات ما لا يقدر عليه إلّا الله عزّ وجلّ، وخصّوهم بالنداء، وأفردوهم بالطلب، وتارة ينادونهم مع الله عزّ وجلّ، ويصرخون بأسمائهم مع اسم الله سبحانه، فيأتون بكلمات تقشعرّ لها جلود من يعلم معنى: لا إله إلّا الله، ويعرف مدلول: قل هو الله أحد، وتلاعب بهم الشيطان في ذلك، ونقلهم من مرتبة إلى مرتبة، ومن منزلة إلى منزلة، حتى استعظموا من جانب هؤلاء الأموات الذين خلقهم الله ورزقهم وأحياهم وأماتهم ما لا يستعظمونه من جانب بارىء البرية، وخالق الخلق، جلّ اسمه وتعالى قدره ولا إله غيره.

وأفضى ذلك إلى أنّ أحدهم يحلف بالله تعالى فاجراً، ولا يحلف بمن يعتقده من الأموات، ويقدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت الله،

---

(١) انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ١٤، ١٥) مكتبة الصحابة الإسلامية.

ولا يقدم عليها عند قبر من يعتقده. وتزايد الشرّ، وعظمت المحنة، وتفاقمت المصيبة، حتى صار كثير منهم ينسبون ما أصابهم من الخير في الأنفس والأموال والأهل إلى ذلك الميت، وما أصابهم من الشرّ في ذلك إليه، وقد صار تحت أطباق الثرى، وغُيِّب عن أعين البشر، وصار مشغولاً عاجزاً عن جرّ نفع إليه، أو دفع ضرّ عنه، منتظراً لما ينتظر له مثله من الأموات، لا يدري ما نزل به من هؤلاء النوكاء[1]، ولا يشعر بما ألصقوه به، ولو علم بذلك لجالدهم بالسيف، ودفعهم بما يقدر عليه)[2].

وذكر الشوكاني أحاديث وردت في حكم من يقرّب لغير الله، منها:

ما أخرجه الترمذي وصحّحه عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عليها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط[3]، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كمالهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِجْعَلَ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ﴾[4] لتركبنّ سنن من قبلكم[5].

---

(١) النوكاء: الحمقاء والجاهلون. جاء في تهذيب اللغة للأزهري (١٠/ ٣٨٣ مادة: نوك): النوك: الحمق، والأنوك: الأحمق، وجمعه النوكي.

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني ٢١٣ تحقيق: محمد عثمان الخشت.

(٣) هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم، أي يعلّقونه بها، ويعكفون حولها، فسألوه أن يجعل لهم مثلها. فنهاهم عن ذلك (النهاية لابن الأثير ٥/ ١٢٨ مادة: نوط).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢١٨)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبنّ سنن من قبلكم (٤/ ٤١٣ برقم ٢١٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن جرير في تفسيره (٩/ ٣١، ٣٢) وصحّحه الألباني في كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ٣٧ برقم ٧٦)، كما صحّحه الأرناؤوط في تخريج جامع الأصول لابن الأثير (١٠/ ٣٤).

في هذا الحديث بيّن الشوكاني رحمه الله أنّ هؤلاء (إنّما طلبوا أن يجعل لهم شجرة ينوطون بها أسلحتهم، كما كانت الجاهلية تفعل ذلك، ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة، أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور، فأخبرهم ﷺ أنّ ذلك بمنزلة الشرك الصريح، وأنّه بمنزلة طلب آلهة غير الله تعالى)[1].

فكيف بهؤلاء القبوريين الذين يعكفون عند القبور والأضرحة والمشاهد، وينادون صاحبها، ويدعونه تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال؟ إنّهم بذلك (قد جعلوا بعض خلق الله شريكاً له ومثلاً ونداً، فاستغاثوا به فيما لا يستغاث فيه إلّا بالله، وطلبوا منه ما لا يطلب إلّا من الله مع القصد والإرادة)[2].

وقرّر رحمه الله أنّ من اعتقد في ميّت من الأموات، أو حيّ من الأحياء، أنّه يضرّه أو ينفعه، إمّا استقلالاً أو مع الله تعالى، أو ناداه، أو توجّه إليه، أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق، فلم يخلص التوحيد لله، ولا أفرده بالعبادة، إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضرّ عنه هو نوع من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعوّ من دون الله أو معه حجراً أو شجراً أو ملكاً أو شيطاناً، كما كان يفعل ذلك في الجاهلية، وبين أن يكون إنساناً من الأحياء أو الأموات، كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وكلّ عالم يعلم هذا ويقرّبه، فإنّ العلّة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد، وللحيّ كما يكون للميّت، فمن زعم أنّ ثمّ فرقاً بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنّه يضرّ أو ينفع، وبين من اعتقد في ميّت من بني آدم أو حيّ منهم أنّه يضرّ أو

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ١٦ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٢٩ مكتبة الصحابة الإسلامية.

ينفع، أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلاّ الله تعالى، فقد غلط غلطاً بيّناً، وأقرّ على نفسه بجهل كثير، فإنّ الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختصّ به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرّب إلى غيره بشيء مما لا يتقرّب به إلاّ إليه، ومجرّد تسمية المشركين لما جعلوه شريكاً بالصنم والوثن والإله لغير الله زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن، إذ ليس الشرك هو مجرّد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسمّيات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختصّ به سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية، أو أطلق عليه اسماً آخر، فلا اعتبار بالاسم قط.

ثمّ قال: (... وقد علم كلّ عالم أنّ عبادة الكفّار للأصنام لم تكن إلاّ بتعظيمها واعتقاد أنّها تضرّ وتنفع، والاستعانة بها عند الحاجة، والتقرّب لها في بعض الحالات بجزء من أموالهم، وهذا كلّه قد وقع من المعتقدين في القبور، فإنّهم قد عظّموها إلى حدّ لا يكون إلاّ لله سبحانه، بل ربّما يترك العاصي منهم فعل المعصية إذا كان في مشهد من يعتقده أو قريباً منه، مخافة تعجيل العقوبة من ذلك الميّت، وربّما لا يتركها إذا كان في حرم الله، أو في مسجد من المساجد، أو قريباً من ذلك، وربّما حلف بعض غلاتهم بالله كاذباً، ولم يحلف بالميّت الذي يعتقده، وأمّا اعتقادهم أنّها تضرّ وتنفع فلولا اشتمال ضمائرهم على هذا الاعتقاد لم يدع أحد منهم ميّتاً أو حيّاً عند استجلابه لنفع أو استدفاعه لضرّ قائلاً: يا فلان افعل لي كذا وكذا، وعلى الله وعليك، وأنا بالله وبك)[1].

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٣٣، ٣٤، ٣٥ مكتبة الصحابة الإسلامية.

وعلى هذا الأساس فلا فرق بين الشركين أي شرك عبّاد القبور وشرك الوثنيين عبّاد الأصنام، فكلٌ منهما يصرفون العبادة لغير الله تعالى، وخالفوا ما نفته (لا إله إلاّ الله) وعكسوا مدلولها، بل إذا قارنّا جيّداً بين الشركين نجد أنّ الأوّل أعظم وأغلظ شركاً من الثاني، كما سيبيّنه لنا الشوكاني في الفقرة التالية.

شرك القبوريين أعظم من شرك أهل الجاهلية:

يقرّر الشوكاني رحمه الله أنّ شرك عبّاد القبور أعظم من شرك مشركي أهل الجاهلية الذين قاتلهم رسول الله ﷺ، وأنّ الأوّل وصل إلى ما لم يصل إليه الثاني. ويدلّل على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيْ يُسَيِّرُكُمْ فِيْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِيْ الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوْا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾[(١)]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوْا فِيْ الْفُلْكِ دعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُوْنَ﴾[(٢)].

يقول الشوكاني في تفسير الآية الأولى: (وفي هذا دليل على أنّ الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد.. وفي هذه الآية بيان أنّ هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها، فيا عجباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات، ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر ــ هداك الله ــ ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية، وأين وصل بها أهلها؟ وإلى أين رمى بهم

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

الشيطان؟ وكيف اقتادهم وتسلّط عليهم؟ حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عبّاد الأوثان. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)[1].

ويقول في موضع آخر: (هؤلاء القبوريون قد وصلوا إلى حدّ في اعتقادهم في الأموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم، وهو أنّ أهل الجاهلية كانوا إذا مسّهم الضرّ دعوا الله وحده، وإنّما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الأمور، كما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِيْ الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلاَّ إِيَّاهْ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوْراً﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُوْنَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾[3]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيْباً إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوْ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾[4]، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْن﴾[5] بخلاف المعتقدين في الأموات فإنّها إذا دهمتهم الشدائد استغاثوا بالأموات، ونذروا لهم النذور، وقلّ من يستغيث بالله سبحانه في تلك الحال، وهذا يعلمه كلّ من له بحث عن أحوالهم.

وأورد الشوكاني مثالين في ذلك، قال: (ولقد أخبرني بعض من ركب البحر للحج أنّه اضطرب اضطراباً شديداً، فسمع من أهل السفينة من الملاّحين وغالب الراكبين معهم ينادون الأموات، ويستغيثون بهم، ولم يسمعهم يذكرون الله قط، قال: ولقد خشيت في تلك الحال الغرق، لما شاهدته من الشرك بالله، وقد سمعنا عن جماعة من أهل البادية أنّ كثيراً منهم

---

(١) فتح القدير، الآية: الشوكاني (٢/ ٤٣٥).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٠.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٨.
(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

إذا حدث له ولد جعل قسطاً من ماله لبعض الأموات المعتقدين، يقول إنّه قد اشترى ولده من ذلك الميّت الفلاني بكذا، فإذا عاش حتى يبلغ سنّ الاستقلال دفع ذلك الجعل لمن يعتكف على قبر ذلك الميّت من المحتالين لكسب الأموال)[1].

وهكذا أحوال عبّاد القبور في كثير من بلدان المسلمين، أنّهم يعتقدون في أمواتهم ما اعتقده مشركو الجاهلية في أصنامهم، ويشركون في الرخاء والشدّة على حدّ سواء، في حين يشرك أهل الجاهلية في الرخاء، ويخلصون الدعاء لله في الشدّة، كما ذكرنا.

الشبه الواردة وردّ الشوكاني عليها:

هناك بعض الشبه في هذا الموضوع أوردها الشوكاني رحمه الله تعالى وردّ عليها منها:

(أ) إنّ كفر القبوريين الذين يعكفون على قبور من يعتقدونه من الأموات، فيدعونهم ويطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلاّ الله، من الكفر العملي، لا الكفر الاعتقادي، بدليل ما ورد في كفر تارك الصلاة: (بين العبد بين الكفر ترك الصلاة)[2]، وما ورد فيمن ترك الحجّ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا

---

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٦٦، ٦٧ مكتبة الصحابة الإسلامية.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/ ٨٨ برقم ٨٢) ولفظه: (إنّ بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في ردّ الإرجاء (٥/ ٥٨ برقم ٤٦٧٨)، والترمذي في كتاب الإيمان، باب في ترك الصلاة (٥/ ١٤ برقم ٢٦٢٠) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة، باب فيمن ترك الصلاة (١/ ٣٤٢ برقم ١٠٧٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٨٩).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ﴾[1]، وما ورد في كفر مَنْ أتى حائضاً[2]، أو كاهناً، أو عرّافاً[3]، أو قال لأخيه يا كافر[4]، ومن ذلك ما عقد البخاري في صحيحه من كتاب الإيمان في كفر دون كفر[5]، وجعل هذا من الكفر الذي لا يضادّ الإيمان من كلّ وجه)[6].

فهذه الأنواع من الكفر، وإن أطلقها الشارع على فعل هذه الكبائر، فإنّه لا يخرج به العبد عن الإيمان، فالذي يدعو الأولياء، ويهتف بهم عند الشدائد، ويطوف بقبورهم، ويقبّل جدرانها، وينذر لها، فإنّه كفر عملي لا اعتقادي، لأنّه مؤمن بالله وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر، لكن زيّن له الشيطان أنّ هؤلاء عباد الله الصالحين، ينفعون، ويشفعون، ويضرّون، فاعتقدوا ذلك، كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية في الأصنام.

وقد نسب الشوكاني هذا الكلام للعلاّمة محمد بن إسماعيل الأمير[7]

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٠٨. ٤٧٦)، وأبو داود في كتاب الطب، باب في الكاهن (٤/ ٢٢٥ برقم ٣٩٠٤)، والترمذي في كتاب الطهارة، باب في كراهية اتيان الحائض (١/ ٢٤٣ برقم ١٣٥)، وابن ماجة في كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض (١/ ٢٠٩ برقم ٦٣٩) وصحّحه الألباني في ارواء الغليل (٧/ ٦٨ برقم ٢٠٠٦).

(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (٥١٠).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (الفتح ١٠/ ٥٣١ برقم ٦١٠٣) ولفظه: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (١/ ٧٩ برقم ٦٠)، والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن رمى أخاه بكفر (٥/ ٥٥ برقم ٢٦٣٧).

(٥) انظر الفتح (١/ ١٠٤ برقم ٢١) من كتاب الايمان.

(٦) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني ص ٩ (مخطوط).

(٧) تقدمت ترجمته في صفحة ٤٣.

رحمه الله في شرحه لأبياته[1]، وأجاب عليه فقال:

(ليس هذا بصحيح ولا مستقيم، فإنّ من يدعو الأموات، ويهتف بهم عند الشدائد، ويطوف بقبورهم، ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه، لا يصدر منه ذلك إلاّ عن اعتقاد، كاعتقاد أهل الجاهلية في أصنامهم، هذا إن أراد من الميّت الذي يعتقده ما كان تطلبه الجاهلية من أصنامها من تقريبهم إلى الله، فلا فرق بين الأمرين، وإن أراد استقلال من يدعوه من الأموات، بأن يطلبه ما لا يقدر عليه إلاّ الله عزّ وجلّ، فهذا أمر لم تبلغ إليه الجاهلية، فإنّهم قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2] ولم يدّعوا لأصنامهم أنّهم يستقلّون بايصالهم إلى ما يطلبونه دون الله عزّ وجلّ، فهذا هو شرك الجاهلية الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل فيه كتبه، وقاتلهم الأنبياء عليه، وأمّا الخلق، والرزق، والموت، والحياة، ونحو ذلك، فالجاهلية يقرّون في جاهليتهم، وقبل بعثة الرسول إليهم بأنّ الله سبحانه هو المستقلّ بذلك ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

---

(١) انظر الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني (٥٧ ــ ٦٤)، وانظر شرح الصنعاني لأبياته التي يردّ بها على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو مخطوط تحت رقم (٩٢٥) ميكرو ــ فيلم، بالجامعة الإسلامية، ورقة (٨، ٩) من الرسالة السابعة والأخيرة.

وكلام الصنعاني هنا مخالف تماماً لما قرّره ي كتابه: تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، ففى هذا الكتاب بيّن ــ رحمه الله ــ أنّ شرك القبوريين هو بعينه الشرك الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنّما كان الجاهلية يفعلونه لما يسمّونه وثناً وصنماً، وفعله القبوريون لما يسّمونه وليّاً أو قبراً أو مشهداً، والأسماء لا أثر لها ولا تغيّر المعاني. (انظر ص ١٣٨) كما بيّن ــ رحمه الله ــ أنّ القبوريين يأتون بشركيّات ما بلغ إليها المشركون عبّاد الأصنام. (انظر ص ١٤٣). ولم أقف على تأريخ تأليف هذه الرسالة وتأليف تطهير الاعتقاد لأتمكّن من معرفة ما رأيه الأوّل والثاني، ولعلّه ــ رحمه الله ــ قال الكلام السابق ثم رجع عنه في هذا الكتاب، لأنّه لا يعقل رجوع مثله عن الحقّ إلى الباطل. والله أعلم.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

السَّمَـواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَـزِيْزُ الْعَلِيْمُ﴾[1]، ﴿وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ﴾[2][3].

وقال في موضع آخر: (إنّه لا شكّ أنّ الكفر ينقسم إلى كفر اعتقاد وكفر عمل، لكن دعوى أنّ ما يفعله المعتقدون في الأموات من كفر العمل في غاية الفساد... فليت شعري ما هو الحامل لهم على الدعاء، والاستغاثة، وتقبيل الجدران، ونذر النذورات، هل هو مجرّد اللعب والعبث من دون اعتقاد؟ فهذا لا يفعله إلّا مجنون، أم الباعث عليه الاعتقاد في الميّت؟ فكيف لا يكون هذا من كفر الاعتقاد الذي لولاه لم يصدر فعل من تلك الأفعال)[4].

(ب) قال الشوكاني رحمه الله: (إنّ من الشبه الباطلة التي يوردها المعتقدون في الأموات أنّهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية، لأنّهم إنّما يعتقدون في الأولياء والصالحين، وأولئك اعتقدوا في الأوثان والشياطين، وهذه الشبه داحضة تنادي على صاحبها بالجهل، فإنّ الله سبحانه لم يعذر من اعتقد في عيسى عليه السلام، وهو نبي من الأنبياء، بل خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية، ومنها: ﴿يَا أَهْـلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ وَلَا تَقُوْلُوْا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، إِنَّمَا الْمَسِيْحُ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُوْلُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوْحٌ مِنْهُ فَـآمِنُوْا بِـاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[5]، وقال لمن كان يعبد الملائكة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيْعـاً ثُمَّ يَقُوْلُ لِلْمَـلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّـاكُمْ كَانُـوْا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.
(٣) رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني (ص ٩، ١٠) (مخطوط).
(٤) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٦٤، ٦٥ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.

يَعْبُدُوْنَ، قَالُوْا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُوْنِهِمْ﴾(١) ولا شكّ أنّ عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم، ويغلون في شأنهم، مع أنّ رسول الله ﷺ هو أكرم الخلق على الله، وسيّد ولد آدم، وقد نهى أمّته أن تغلو فيه، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام)(٢).

كما ورد في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْروني كما أَطْرَتِ النصارى ابنَ مريم، فإنّما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»(٣).

ومعنى الإطراء: مجاوزة الحدّ في المدح والكذب فيه(٤) أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الإلٰهية، فهذا الرسول الكريم ﷺ لم يرض أن يغلو في شأنه أحد من أمّته، فكيف من غلا فيمن دونه من الأولياء وغيرهم، ووصفه بالألوهية؟ إنّه قد اتّخذهم آلهة من دون الله، وضاهى النصارى في شركهم.

(ج) قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (فإن قلت: إنّ هؤلاء القبوريين يعتقدون أنّ الله تعالى هو الضارّ النافع، والخير والشرّ بيده، وإن استغاثوا بالأموات قصدوا انجاز ما يطلبونه من الله سبحانه.

قلت: وهكذا كانت الجاهلية، فإنّهم كانوا يعلمون أنّ الله هو الضارّ النافع وأنّ الخير والشرّ بيده، وإنّما عبدوا أصنامهم لتقرّبهم إلى الله زلفى، كما حكاه الله عنهم في كتابه العزيز(٥) كما تقدّم.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٠، ٤١.
(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني ٤٧ مكتبة الصحابة الإسلامية.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها. (الفتح ٦/ ٥٥١ برقم ٣٤٤٥).
(٤) النهاية لابن الأثير (٣/ ١٢٣ مادة: طرا).
(٥) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٣٦) مكتبة الصحابة الإسلامية.

(د) (فإن قلت: هؤلاء المعتقدون في الأموات لا يعلمون بأنّ ما يفعلونه شرك، بل لو عرض أحدهم على السيف لم يقرّ بأنّه مشرك بالله، ولا فاعل لما هو شرك، بل ولو علم أدنى أنّ ذلك شرك لم يفعله.

قلت: الأمر كما قلت، ولكن لا يخفى عليك ما تقرّر في أسباب الردّة أنّه لا يعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري، أو فعل فعلاً كفرياً، وعلى كلّ حال فالواجب على كلّ من اطلع على شيء من هذه الأقوال والأفعال التي اتّصف بها المعتقدون في الأموات أن يبلغهم الحجّة الشرعية، ويبيّن لهم ما أمره الله ببيانه، فيقول لهم: إنّ هذا الذي يفعلونه هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية، وهو الذي بعث الله رسوله بهدمه، وأنزل كتبه في ذمّه، وأخذ على النبيّين أن يبلغوا عباده أنّهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد، ويعبدوه وحده، فإذا علموا بهذا علماً لا يبقى معه شكّ ولا شبهة، ثمّ أصرّوا على ما هم فيه من الطغيان والكفر بالرحمن، وجب عليه أن يخبرهم بأنّهم إذا لم يقلعوا عن هذه الغواية، ويعودوا إلى ما جاء هم به رسول الله ﷺ من الهداية، فقد حلّت دماؤهم وأموالهم، فإن رجعوا، وإلاّ فالسيف هو الحكم العدل، كما نطق به الكتاب المبين، وسنة سيّد المرسلين في إخوانهم المشركين)[1].

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني من تعليم الجاهل وإقامة الحجّة عليه قول صحيح دلّت عليه النصوص من الكتاب والسنّة، فلا يجوز لأحد أن يكفّر أحداً من المسلمين إلاّ بعد أن تقام الحجّة عليه، وتزال الشبهة منه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وليس لأحد أن يكفّر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجّة، وتبيّن له المحجّة،

---

(١) انظر المصدر السابق (ص٤٣، ٤٤).

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشكّ، بل لا يزول إلّا بعد اقامة الحجّة وإزالة الشبهة)[1].

فالواجب بيان ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه وتبليغه للناس لإقامة الحجّة عليهم، وهذا البيان والتبليغ مناط أحكام الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، وقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[3].

وعلى هذا الأساس فإنّ الجاهلين بالتوحيد يعذرون في ارتكابهم أعمال الشرك إذا لم تقم عليهم الحجّة، ولم تبيّن لهم المحجّة، ككونهم حديثي العهد بالإسلام، أو كونهم في ديار بعيدة عن العلماء، أو في ديار فيها العلماء، ولكنّ كثيراً منهم لبّسوا على الناس دينهم، وزيّنوا لهم الشرك، وأتوا عليه من البراهين التي تبرر وقوعهم فيه، أو ما شابه ذلك. ولا يعذرون إذا استفاض العلم بأمور التوحيد، وقامت الحجّة عليهم بدعوة العلماء، ويبطل عذرهم إن أصرّوا بعد تعليمهم على اعتقاد الشرك وفعله وقوله، لأنّهم في هذه الحالة آثروا باختيارهم الكفر على الإيمان، والشرك على التوحيد، فهم لذلك كافرون ومشركون، فإن تابوا قبل موتهم نجوا إن شاء الله، وإن ماتوا مصرّين على شركهم وكفرهم فهم من أهل النار كسائر الكفّار والمشركين.

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى موقفه من هذه القضية في موضع آخر قال: (إنّ الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلّا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنّه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أنّ من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٢/ ٤٦٦).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

أحدهما[1]. وفي لفظ آخر: من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوّ الله، وليس كذلك، إلاّ حار عليه[2]. أي رجع. وفي لفظ في الصحيح (فقد كفر أحدهما) ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرّع في التكفير، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾[3] فلا بدّ من شرح الصدر بالكفر، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشرّ، لا سيّما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام)[4].

وقد سئل رحمه الله عن: هل يعذر الجاهل؟ وعن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوْا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾[5] هل الجملة خبرية أو حالية؟ فقال: (الظاهر فيه أنّ الجملة حالية، والمراد أنّكم لا تجعلوا لله أنداداً في حالة علمكم بأنّه لا أنداد لله عزّ وجلّ، وأنّه المنفرد بالإلهية، والمستحقّ للعبادة وحده لا شريك له، وهذا يعلمه كلّ من بلغته الدعوة الإسلامية، وصار من جملة المنتمين إلى الإسلام، فلله الحجة البالغة، ولم يكن للعباد على الله حجة بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب. قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[6]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلاً﴾[7]...

فإن قلت: قد يجهل بعض المسلمين بعض أسباب الردّة الموجبة

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٥٣٤).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (١/ ٧٩، ٨٠ برقم ٦١)، وأحمد في المسند (٥/ ١٦٦).
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.
(٤) السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار: الشوكاني (٤/ ٥٧٨) تحقيق/ محمود إبراهيم زايد.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

لوقوعه في الكفر، ويجهل بعض أنواع الشرك، بل قد يجهل ذلك كثير من أهل العلم، حتى ينبّه عليه فيتنبّه، كما يعرف ذلك من عرف أحوال الناس، ويدلّ على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: يا أيها الناس اتّقوا هذا الشرك، فإنّه أخفى من دبيب النمل. فقيل له: فكيف نتّقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ فقال: قولوا اللهمّ إنّا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه)[1] وقد روي من وجه آخر من حديث أبي بكر الصّديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلّا من دعا لله إلٰهاً آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل) الحديث[2]..

ثم قال رحمه الله بعد سرد الأحاديث: (إذا كان من جملة أنواعه (أي الشرك) ما هو أخفى من دبيب النمل، كما نطق به الصادق المصدوق، فمعلوم أنّه يجهله غالب الخاصّة فضلاً عن العامّة)[3].

أي أنّه يعذر بجهله، وقد يأثم لتقصيره في تعلّم أمور دينه الواجب، وهذه الأنواع أغلبها من الشرك الأصغر، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسيره لكلمة (الأنداد) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوْا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾ كما تقدم[4] والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٠٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي، ووثّقه ابن حبان. وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٩١ برقم ٣٣).

(٢) قال الشوكاني: رواه من هذا الوجه أبو بكر الموصلي. قلت: ورواه ابن المنذر كما في الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٥٤) والحديث صحّحه الأرناؤط في تخريج مسند أبي بكر (ص ١٧) وذلك لشواهده الكثيرة، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩٤ برقم ٣٧٣١).

(٣) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ: الشوكاني (ص ٥، ٦).

(٤) راجع صفحة (٤٢٩).

المبحث الرابع

البدع وكلام الشوكاني عليها

تعريف البدعة وبيان أنّها كلّها مردودة:

البدعة نقيض السنة، مشتقّ من بَدَعَ الشيء يَبْدَعُه بَدْعاً: إذا أوجده على غير مثال سابق، وابْتَدَعَه وأَبْدَعَه بمعنى واحد، واسم الفاعل من أَبْدَعَ المُبْدِع، ومن ابْتَدَع المُبْتَدِع، ومن أسماء الله تعالى الحسنى البديع، فهو سبحانه بديع السموات والأرض، لأنّه أبدعها وأحدثها على غير مثال سابق، كما قال تعالى: ﴿بَدِيْعُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، والبديع أيضاً: الذي ليس قبله شيء، والله سبحانه وتعالى هو الأوّل الذي ليس قبله شيء. والبِدْع: ما كان أوّلاً ولم يسبقه شيء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] أي ما كنت أوّل رسول أرسل إلى أهل الأرض، بل أرسل قبلي رسل كثيرون.

ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد: أتى ببدعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوْهَا﴾[3][4].

فالبدعة اسم هيئة من الابتداع، وهي كلّ ما أحدث واخترع على غير مثال سابق، وهي بهذا المعنى تقال في المدح والذمّ، لأنّ المراد أنّه أتى بشيء مخترع على غير مثال سابق، سواء كان خيراً أو شرّاً، ولكنّ لفظ البدعة غلب على الحدث المكروه في الدين. قال ابن الأثير: (وأكثر ما يستعمل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

(٤) انظر: الصحاح للجوهري (٣/ ١١٨٣)، وتهذيب اللغة للأزهري (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ولسان العرب لابن منظور (٨/ ٧)، والمفردات للأصفهاني (ص ٣٨، ٣٩) مادة: بدع.

المبتدع عرفاً في الذمّ)[1].

أمّا البدعة في الشرع فقد تعدّدت تعاريفها وتنوّعت، لاختلاف أنظار العلماء في مفهومها ومدلولها، فمنهم من أطلق البدعة على كلّ مستحدث من الأشياء، سواء كان مذموماً أو غير مذموم، وسواء كان من العبادات أو العادات أو غيرها[2]، ومنهم من ضيّقوا مدلولها فلا يطلقونها إلّا على حادث مذموم، وقالوا: إنّ البدعة كلّها ضلالة، سواء جعلت ديناً قويماً وصراطاً مستقيماً في العبادات، أو شملت العادات والعبادات معاً، وهذا هو الرأي المختار الذي ذهب إليه كثير من العلماء المتقدّمين والمتأخّرين[3]، ومنهم الشوكاني الذي نحن بصدد الحديث عنه.

(١) النهاية: ابن الأثير (١/ ١٠٧).

(٢) وقد سلك هذا المسلك عدد من العلماء، منهم: الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) كما روى عنه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٣)، وأبو شامة في الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص ٣٥) تحقيق: عادل عبد المنعم أبو العباس، ومنهم الإمام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) في الاحياء (٢/ ٣) ط/ دار المعرفة، وابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تلبيس إبليس (ص ١٦) ط/ دار الكتب العلمية، وابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) في النهاية (١/ ١٠٦، ١٠٧)، والعزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) في قواعد الأحكام (٢/ ١٢٧) ط/ دار الاستقامة، وشهاب الدين أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) في الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص ٣٥، ٣٦)، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في الفتح (٤/ ٢٩٨، و١٣/ ٢٦٦، ٢٦٧)، وغيرهم.

(٣) منهم الإمام مالك (ت ١٧٩ هـ) كما روى عنه القرافي في الفروق (٤/ ٢٢٩) ط/ دار إحياء الكتب العربية، والإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) كما روى عنه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٥٦ برقم ٣١٧)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٠) ط/ دار الحديث، ومجموع فتاوى (٢٧/ ٣١٩)، والشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) في الاعتصام (١/ ٣٧ ـ ٤١، ١١٣، ١٤١ ـ ١٤٥) ط/ دار المعرفة، وابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ) في إيثار الحقّ على الخلق (ص ١٠٧ ـ ١٠٩) ط/ دار الكتب العلمية، وغيرهم. ومن المتأخّرين: الشيخ رشيد رضا (ت ١٣٥٤ هـ) في تفسيره المنار (٩/ ٦٦٠)، ومحمد صدّيق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) في الدين الخالص (٣/ ٢٠، ٢١) ط/ دار التراث.

وأحسن ما عرّف به ما ذكره ابن رجب الحنبلي رحمه الله حيث عرّف البدعة وبيّن المراد منها فقال: (المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلّ عليه، وأمّا ما كان له أصل من الشرع يدلّ عليه فليس ببدعة شرعاً وإن كان بدعة لغة)[1].

فالبدعة إذا هي كلّ ما لم يشرعه الله تعالى في كتابه، أو على لسان رسوله محمد ﷺ، ولم يكن على عهد الصحابة ديناً يعبد الله به أو يتقرّب به إليه، سواء كان ذلك في الاعتقاد، أو الأقوال، أو الأعمال. وعلى هذا فلا تكون البدعة إلاّ مذمومة، كما أشار إليه الرسول ﷺ في إحدى خطبه، قال: (أمّا بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة)[2].

هذا الحديث نصّ في ذمّ البدعة لا يحتمل أيّ تأويل، حيث وصفها بأنّها ضلالة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى عن هذا الحديث: (هذا نصّ رسول الله ﷺ، فلا يحلّ لأحد أن يدفع دلالته على ذمّ البدع، ومن نازع في دلالته فهو مراغم)[3].

ويدلّنا الحديث على ثلاثة أشياء:

الأوّل: إنّ خير الحديث وخير الارشاد هو كتاب الله تبارك وتعالى.

الثاني: إنّ خير الهدي وخير من نفّذ كتاب الله وحمل تعاليمه وبلّغها وهدى بها هو رسول الله ﷺ.

(١) جامع العلوم والحكم: ابن رجب (ص ٢٥٢) ط/ مصطفى البابي الحلبي.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٢ برقم ٨٦٧)، والنسائي في كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة. (٣/ ١٨٨، ١٨٩ برقم ١٥٧٨)، وابن ماجة في كتاب المقدّمة، باب اجتناب البدع والجدل (١/ ١٧ برقم ٤٥) من حديث جابر بن عبد الله.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٢٤٤) ط/ دار الحديث.

الثالث: إنّ شرّ الأمور الابتداع والإحداث لكلّ بدعة، ويعتبر ضلالة تجب محاربتها، والوقوف في سبيلها، فكيف يكون هذا حسناً؟ وكيف تأتي الحسنة مع هذا الضلال الذي توصف به؟.

وقد ذهب الشوكاني رحمه الله تعالى إلى هذا المعنى في تفسير البدعة، فلم يقسّمها إلى حسنة وسيئة، أو إلى الأحكام الخمسة كما قسّمها بعض العلماء[1]، بل بيّن رحمه الله أنّ البدعة كلّها ضلالة، لأنّ ذمّ البدعة عامّ لم يقيّده شيء، فكيف تكون البدعة حسنة وهي مذمومة؟

واستدلّ رحمه الله بحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[2]، وفي رواية لأحمد: (من صنع أمراً من غير أمرنا فهو مردود)[3] قائلاً في شرحه: قوله: (ليس عليه أمرنا) المراد بالأمر هنا واحد الأمور، وهو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه. وقوله: (فهو ردّ) المصدر بمعنى اسم المفعول، كما بيّنته الرواية الأخرى. . . وهذا الحديث من قواعد الدين، لأنّه يندرج تحته من الأحكام ما لا يأتي عليه الحصر، وما أصرحه وأدلّه على إبطال ما فعله الفقهاء من تقسيمهم البدع إلى أقسام، وتخصيص الردّ ببعضها بلا مخصّص من عقل ولا نقل.

وأرشد رحمه الله إلى طريق مناقشة القائلين ببدعة حسنة والردّ عليهم قائلاً: (فعليك إذا سمعت من يقول هذه بدعة حسنة بالقيام في مقام المنع

---

(١) يعتبر العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) رأس القائلين بالتقسيم، وأوّل من قسّم البدع على الأحكام الخمسة ومثّل لها، ثم بيّن بالأمثلة ما يراه مندرجاً تحتها. (انظر قواعد الأحكام له ٢/ ١٧٢ وما بعدها. ط/ دار الاستقامة، وانظر شرح النووي لمسلم ٦/ ١٥٤، ١٥٥) وهو تقسيم مخترع ليس له دليل.

(٢) تقدّم تخريجه من صفحة (١٢٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٧٣).

مسنداً له بهذه الكليّة[1] وما يشابهها، من نحو قوله ﷺ: «كلّ بدعة ضلالة»[2] طالباً لدليل تخصيص تلك البدعة التي وقع النزاع في شأنها بعد الاتفاق على أنّها بدعة، فإن جاءك به قبلته، وإن كاع[3] كنت قد ألقمته حجراً، واسترحت من المجادلة.

ومن مواطن الاستدلال لهذا الحديث كلّ فعل أو ترك وقع الاتفاق بينك وبين خصمك على أنّه ليس من أمر رسول الله ﷺ، وخالفك في اقتضائه البطلان أو الفساد، متمسكاً بما تقرّر في الأصول من أنّه لا يقتضي ذلك إلاّ عدم أمر يؤثر عدمه في العدم كالشرط، أو وجود أمر يؤثر وجوده في العدم كالمانع، فعليك بمنع هذا التخصيص الذي لا دليل عليه إلاّ مجرّد الاصطلاح مسنداً لهذا المنع بما في حديث الباب من العموم المحيط بكلّ فرد من أفراد الأمور التي ليست من ذلك القبيل قائلاً: هذا أمر ليس من أمره، وكلّ أمر ليس من أمره ردّ، فهذا ردّ، وكلّ ردّ باطل، فهذا باطل، فالصلاة مثلاً التي ترك فيها ما كان يفعله رسول الله ﷺ، أو فعل فيها ما كان يتركه ليست من أمره، فتكون باطلة بنفس هذا الدليل، سواء كان ذلك الأمر المفعول أو المتروك مانعاً باصطلاح أهل الأصول، أو شرطاً، أو غيرهما، فليكن منك هذا على ذكر.

ثم قال رحمه الله نقلاً عن الطوخي: وهذا الحديث مقدّمة كبرى في إثبات كلّ حكم شرعيّ ونفيه، لأنّ منطوقه مقدّمة كلّية، مثل أن يقال في الوضوء بماء نجس: هذا ليس من أمر الشرع، وكلّ ما كان كذلك فهو مردود، فهذا العمل مردود، فالمقدّمة الثانية ثابتة بهذا الدليل، وإنّما يقع النزاع في

---

(١) أي في الحديث السابق.

(٢) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة (٥٤٤).

(٣) جاء في مختار الصحاح (ص٢٤٣ مادة: ك و ع) وكاع عن الشيء: من باب باع، ويكاع أيضاً لغة في (كعّ) عنه ويكعّ، بالكسر: إذا هابه وجبن عنه.

الأولى، ومفهومه أنّ من عمل عملاً عليه أمر الشرع فهو صحيح، فلو اتّفق أن يوجد حديث يكون مقدّمة أولى في إثبات كلّ حكم شرعيّ ونفيه لاستقلّ الحديثان بجمع أدلّة الشرع، لكنّ هذا الثاني لا يوجد، فإذن حديث الباب نص أدلّة الشرع)[1].

فلا يبقى فعل، ولا قول، ولا اعتقاد، لم يأت به الشرع إلّا وأمكن الاستدلال على ردّه بهذا الحديث الصحيح، وهكذا العمل في سائر الكليّات)[2].

وصفوة القول في الموضوع: أنّ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة أو إلى الأحكام الخمسة أمر مخترع لا يدلّ عليه دليل شرعيّ، بل هو في نفسه متدافع، لأنّ من تعريف البدعة الذي عرّفناه وقال به العلماء أنّه لا يدلّ عليه دليل شرعيّ، لا من نصوص الشرع، ولا من قواعده، ولو كان هناك ما يدلّ من الشرع على وجوب أو ندب أو إباحة لما كان يسمّى هذا العمل بدعة، ولكانت داخلة تحت الأمر والنهي بالدليل، فكيف نسمّيها بدعة ونقسّمها؟

أمّا ما يستدلّون به من قول عمر رضي الله عنه لمّا جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج، ورآهم يصلّون كذلك، قال: نعمت البدعة هذه[3]. فالحقّ في ذلك أنّ مراد عمر أنّ هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصل في الشريعة يرجع إليه، لأنّ الرسول ﷺ كان يحثّ على قيام رمضان ويرغب فيه.

ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ صلى في المسجد

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٢/ ١٣٥، ١٣٦).
(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ١٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح، باب فضل من قام رمضان. (الفتح ٤/ ٢٩٤، ٢٩٥ ـ برقم ٢٠١٠).

ذات ليلة، فصلّى بصلاته ناس، ثمّ صلّى الليلة القابلة، فكثر الناس، ثمّ اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلمّا أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلاّ أنّي خشيت أن تفرض عليكم. وذلك في رمضان[1].

ففي هذا ما يدلّ على كونها سنّة، فإنّ قيامه ﷺ أوّلاً بهم دليل على صحّة القيام في المسجد جماعة في رمضان، وامتناعه بعد ذلك من الخروج خشية الافتراض لا يدلّ على امتناعه مطلقاً، لأنّ زمانه كان زمان وحي وتشريع، فيمكن أن يوحى إليه، فيعمل به الناس بالالزام، فلمّا زالت علّة التشريع بموت رسول الله ﷺ رجع الأمر إلى أصله، وعلى هذا سمّاها عمر بن الخطاب بدعة، أي باعتبار ظاهر الحال من حيث تركها رسول الله ﷺ، لا أنّها بدعة في المعنى.

وفي صدد ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية، لا تسمية شرعية، وذلك أنّ البدعة في اللغة تعمّ كلّ ما فعل ابتداء من غير مثال سابق، وأمّا البدعة الشرعية فكلّ ما لم يدلّ عليه دليل شرعيّ، فإذا كان نصّ رسول الله ﷺ قد دلّ على استحباب فعل أو إيجابه بعد موته، أو دلّ عليه مطلقاً، ولم يعمل به إلاّ بعد موته، ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر رضي الله عنه، فإذا عمل أحد ذلك العمل بعد موته صحّ أن يسمّى بدعة في اللغة، لأنّه عمل مبتدأ. . . ثمّ ذلك العمل الذي يدلّ عليه الكتاب والسنّة ليس بدعة في الشريعة، وإن سمّي بدعة في اللغة، فلفظ البدعة في اللغة أعمّ من لفظ البدعة في الشريعة، وقد علم أنّ قول النبي ﷺ: «كلّ بدعة

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (١/ ٥٢٤ برقم ٧٦١)، ومالك في الموطّأ، وكتاب الصلاة في رمضان، باب الترغيب في الصلاة في رمضان (١/ ١١٣ برقم ١) واللفظ له.

ضلالة» لم يرد به كلّ عمل مبتدأ، فإنّ دين الإسلام، بل كلّ دين جاءت به الرسل فهو عمل مبتدأ، وإنّما أراد: ما ابتدىء من الأعمال التي لم يشرعها هو ﷺ)[1].

وبهذا يتبيّن أنّ البدع كلّها ضلالة، وكلّها أحداث في دين الله عزّ وجلّ بما لم يشرعه، وتقسيمها إلى حسنة وسيئة تقسيم باطل مردود، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنّما ذلك من البدع اللغوية لا الشرعية.

من الأدلّة التي تدلّ على وجوب الاتّباع والنهي عن البدعة:

وقد جاءت الأدلّة الكثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنّة رسوله ﷺ التي تدلّ على وجوب الاتّباع والنهي عن البدع ومحدثات الأمور. منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾[2].

قال الشوكاني: (والحقّ أنّ هذه الآية عامّة في كلّ شيء يأتي به رسول الله ﷺ من أمر، أو نهي، أو قول، أو فعل، وإن كان السبب خاصّاً، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلّ شيء أتانا به من الشرع فقد أعطانا إيّاه وأوصله إلينا، وما أنفع هذه الآية وأكثرها فائدة)[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيْماً فَاتَّبِعُوْهُ، وَلَا تَتَّبِعُـوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾[4].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (والصراط: الطريق، وهو طريق دين الإسلام، والمستقيم، المستوي الذي لا اعوجاج فيه)[1].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٢٤٩ . ٢٥٠) ط/ دار الحديث.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٩٨).
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٧٨).

فدلّت الآية على أنّ الشارد عن طريق الله وشرعه مخالف لأمر الله تبارك وتعالى، والمبتدع مخالف ومتّبع لما اخترع، كما دلّت الآية على أنّ السالك لطريق غير طريق الله مبتعد عن سبيل المؤمنين، وأنّ صراط الله واضح مستقيم، وشريعته لا تحتاج إلى من يخترع فيها، ويكون بعد ذلك مستحسناً، وفي هذا المعنى ورد قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾[1].

وأمّا الأحاديث في هذا الموضوع فكثيرة جدّاً، منها:

حديث العرباض بن سارية قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ الصبح، فوعظنا موعظة بليغة ذَرَفَتْ منها العيون[2] ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنّها موعظة مودّع، فأوصنا. فقال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشيّاً، فإنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، عضّوا عليها بالنواجذ[3]، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ بدعة ضلالة)[4].

ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩.

(٢) ذَرَفَتِ العيْن تَذْرِفُ: إذا جرى دمعها. (النهاية لابن الأثير ٢/ ١٥٩ مادة: ذرف).

(٣) هذا مثل في شدّة الاستمساك بأمر الدين، لأنّ العضّ بالنواجذ عنّى بجميع الفم والأسنان، وهي أواخر الأسنان. وقيل: التي بعد الأنياب. (النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٥٢ مادة: عضض).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٦)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في لوزم السنة (٥/ ١٣ ـ ١٥ برقم ٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٣ برقم ٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجة في المقدّمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٥ برقم ٤٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٧) وقال: هذا حديث صحيح لا علة له. ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥ برقم ١٠٢) وقال: هذا حديث حسن. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/ ٦٤٧، ٦٤٨ برقم ٩٣٧).

النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلمّا أُخبروا كأنّهم تقَالُّوْها[1] فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. قال أحدهم: أمّا أنا فإنّي أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوّج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي)[2].

فهذه النصوص من الكتاب والسنّة تدلّ على وجوب الاتّباع والابتعاد عن البدع ومحدثات الأمور.

نماذج من البدع التي تكلّم عليها الشوكاني:

هناك كثير من البدع التي عمّت وطمت في أرجاء العالم الإسلامي، حتى أصبحت عند الكثير من الناس سنّة متّبعة، شاب عليها الكبير، وشبّ عليها الصغير، في الوقت الذي تركوا فيه تعاليم الإسلام، وهجروا سنن المصطفى ﷺ، وسأذكر فيما يلي بعضاً منها مما تعرّض له الشوكاني رحمه الله تعالى في كتبه وبيّنه وأوضحه.

١ ـ بدعة الرافضة:

بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى بدعة هذه الطائفة الضالّة، وخطورتها على الإسلام وأهله، ومن بين ما ذكر من بدعهم.

(أ) معاداتهم للصحابة رضوان الله عليهم:

فذكر رحمه الله ما صارت الرافضة أقمأهم الله تصنعه بهؤلاء الصحابة

---

(١) أي استقلّوها. وهو تفاعل من القلّة. (النهاية لابن الأثير ٤/ ١٠٤ مادة: قلل).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح. (الفتح ٩/ ٥ برقم ٥٠٦٣)، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح. (٢/ ١٠٢٠ برقم ١٤٠١).

الـذين هم رؤوس الأوليـاء، ورؤســاء الأتقيـاء، وقــدوة المؤمنين، وأسـوة المسلمين، وخير عباد الله أجمعين، من الطعن، واللعن، والثلب، والسبّ، والشتم، والثلم، قـال: (وانظر إلى أيّ مبلغ بلغ الشيـطان الـرجيم بهؤلاء المغرورين المجترئين على هذه الأعراض المصونة المحترمة المكرّمة، فيا لله العجب من هـذه العقول الـرقيقة، والأفهـام الشنيعـة، والأذهـان المختلّة، والادراكات المعتلّة، فإنّ هذا التلاعب الذي تلاعب الشيطان، يفهمه أقصر الناس عقلاً، وأبعدهم فطانة، وأجمدهم فهماً، وأقصرهم في العلم بـاعاً، وأقلّهم اطّلاعاً، فإنّ الشيطان لعنه الله سوّل لهم بأنّ هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم الذين لهم المزايا التي لا يحيط بها حصر، ولا يحصيها حدّ، ولا عدّ، أحقاء بما يهتكون من أعراضهم الشريفة، ويجحدون من مناقبهم المنيفـة، حتى كأنّهم لم يكونوا هم الذين أقاموا أعمدة الإسلام بسيوفهم، وأوصلوا دين الإسلام إلى أطراف المعمور، من شرق الأرض وغربها، ويمينها وشمالها، فاتسعت رقعة الإسلام، وطبّقت الأرض شرائـع الإيمان، وانقـطعت علائق الكفر، وانقصمت حباله.

يا لله العجب، يعادون خير عباد الله، وأنفعهم للدين الذي بعث به رسول الله ﷺ، وهم لم يعاصـروهم، ولا عاصـروا من أدركهم، ولا أذنبوا إليهم بذنب، ولا ظلموهم في مال، ولا دم، ولا عرض، بل قد صاروا تحت أطباق الثرى، وفي رحمة واسع الرحمة منذ مئات من السنين)(١).

كما بيّن رحمه الله تعالى أنّ كراهة الرافضة ومعاداتهم للصحابة لم يرد بها إلّا هدم السنة النبوية. قال: (واعلم أنّ لهذه الشنعة الرافضية، والبدعة الخبيثة، ذيلاً هو أشرّ ذيل، وويلاً هو أقبح ويل، وهو أنّهم لـمّا علموا أنّ الكتاب والسنّة يناديان عليهم بالخسارة والبوار بأعلى صـوت، عادوا السنـة

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٢٩٤).

المطهّرة، وقدحوا فيها وفي أهلها بعد قدحهم في الصحابة رضي الله عنهم، وجعلوا المتمسّك بها من أعداء أهل البيت، ومن المخالفين للشيعة لأهل البيت، فأبطلوا السنة المطهّرة بأسرها، وتمسّكوا في مقابلها وتعوضوا عنها بأكاذيب مفتراة مشتملة على القدح المكذوب المفتري في الصحابة، وفي جميع الحاملين للسنة المهتدين بهديها، العاملين بما فيها، الناشرين لها في الناس، من التابعين وتابعيهم إلى هذه الغاية، وسمّوهم بالنصب[1] والبغض لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولأولاده، فأبعد الله الرافضة وأقمأهم)[2].

هذا وقد اعتنى الشوكاني رحمه الله اعتناء كبيراً بالردّ على هذه الطائفة الضالّة في هذا الموضوع، فقد ألّف كتابين، أحدهما: درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة[3]، بيّن فيه مناقب وفضائل كلّ من الصحابة والقرابة رضوان الله عليهم، والثاني: إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي[4]. نقل فيه إجماع أهل البيت من ثلاث عشرة طريقة على عدم ذكر الصحابة بسبّ أو ما يقاربه، وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة الرافضة في أيّامه، وحكى أنّه وقعت هذه الرسالة بأيدي جماعة من الرافضة الذين بصنعاء

---

(١) النواصب، والناصبية، وأهل النصب: هم الذين يبغضون عليّا رضي الله عنه وأصحابه، وسمّي ذلك لأنّهم نصبوا له أي عادوه وأظهروا له الخلاف. (انظر: لسان العرب: ابن منظور ١/ ٧٦٢ مادة: نصب، ومجموع فتاوى: ابن تيمية ٢٥/ ٣٠١).

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٣٠٥، ٣٠٦) وانظر أدب الطلب له (ص ٩٦).

(٣) حققه الدكتور/ حسين بن عبد الله العمري، وطبعه دار الفكر بدمشق، عام ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

(٤) وهو رسالة لم تزل مخطوطة، وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ضمن مجموع (٨٣) صفحة (٨٠ ـ ٩١) ولم أتمكّن من الاستفادة منها. وقد تحدّث الشوكاني عن فضائل الصحابة وعن التفضيل بينهم وغيرهم في عدّة مواضع من كتبه (انظر مثلا: فتح القدير ٢/ ٥١، ٣٩٨، ٤٠٠ ـ ٤٠١، وأيضاً ٥/ ١٦٩، ١٩٧، ١٩٨. ونيل الأوطار ١٠/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠).

المخالفين لمذهب أهل البيت، فجالوا، وصالوا، وتعصّبوا، وتحزّبوا، وأجابوا بأجوبة ليس فيها إلاّ محض السباب والمشاتمة[1]. قال رحمه الله: وكلّ من عنده أدنى معرفة يعلم أنّي لم أذكر فيها إلاّ مجرّد الذبّ عن أعراض الصحابة الذين هم خير القرون، مقتصراً على نصوص الأئمة من أهل البيت، ليكون ذلك أوقع في نفوس من يكذب عليهم، وينسب إلى مذهبهم ما هم منه براء)[2].

(ب) اعتقادهم بعصمة علي رضي الله عنه:

ومن بدع هذه الطائفة قولهم بعصمة علي رضي الله عنه، وهو قول فاسد.

يقول الشوكاني رحمه الله: (عصمة علي وحجّيّة قوله ذهب إلى القول بهما جماعة من أهل البيت، وذهب جماعة منهم وسائر المسلمين أجمعين إلى أنّ المعصوم إنّما هو رسول الله ﷺ على الخصوص، والحجّة إنّما هي ما جاء عن الله وعنه)[3].

وأورد ما استدلّ به القائلون بعصمة علي رضي الله عنه من الأحاديث، منها:

حديث: «علي مع القرآن، والقرآن مع علي، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض»[4].

---

(١) انظر حكايات الكتاب وما تسبّب منه من اختلاف بين المؤلف وجماعة الرافضة في اليمن في عصره في: البدر الطالع (١/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٣٥)، وأيضاً: قطر الولي على حديث الولي (ص ٢٩٨) وقد ذكرت شيئاً منها في باب التمهيد(ص ٥٠).

(٢) البدر الطالع: الشوكاني (ص ٢٢٤).

(٣) عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد: الشوكاني (ص ٢٤٥) ضمن أمناء الشريعة.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٤) وصحّحه ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في =

وحديث: «من فارق علياً فارقني، ومن فارقني فقد فارق الله»[١].

ومنها حديث: «هذا فاروق هذه الأمّة، يفرّق بين الحقّ والباطل. يعني عليّاً»[٢].

وحديث: «أنا وهذا حجّة على أمّتي يوم القيامة. يعني عليّاً»[٣] ونحو هذا الحديث كثير[٤].

وبيّن رحمه الله أنّ الجمهور أجاب عنها بأجوبة مختلفة، منها: القدح في أسانيد بعضها، ومنها: المنع من دلالتها على المطلوب، ومنها: الإلزام بأنّه لا يختصّ ذلك بعلي عليه السلام[٥]، بل ثبتت العصمة وحجّية القول

= مجمع الزوائد (٩/ ١٣٤): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه صالح بن أبي الأسود وهو ضعيف.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٤) وصحّحه، قال الذهبي في التلخيص: بل هو منكر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٣٥)، رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٠٢): رواه الطبراني والبزار عن أبي ذرّ، وفيه عمرو بن سعيد المصري وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٨٨) عن أنس، قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٣٧٣): رواه الخطيب عن أنس مرفوعاً، وهو موضوع، والمتهم به مطر بن أبي مطر، قال في الميزان: هذا باطل. (انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٥/ ٢٥٢).

(٤) انظر عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد: الشوكاني (ص ٢٤٥، ٢٤٦) ضمن أمناء الشريعة. وقد جمع الشوكاني مثل هذه الأحاديث وانتقدها في كتابه: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (انظر: ص ٣٤٢ ــ ٣٨٤). وتقدّم الحديث عنها في (ص ١٣١ ــ ١٣٦).

(٥) إنّ قول الشوكاني: (عليه السلام) بعد ذكر علي لا تعني أكثر من معناها الذي تدلّ عليه اللغة، ولا ينبغي تحميلها أكثر من ذلك، لأنّ الشوكاني لم يستعملها لعلي فقط، بل يطلقها على غيره كما هو ثابت، كما أنّ الشوكاني يذكر علياً ويترضّى عنه في معظم ذكره لعلي، ولا يخفى أنّ السلام على الموتى قد شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ في قوله عندما أتى المقبرة: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» (أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. (٢/ ٦٦٩ برقم ٩٧٤). وقد ذكر البخاري في صحيحه في كتاب فضائل =

لجماعة من الصحابة ورد فيهم ما يدلّ على نحو ما دلّت عليه هذه الأحاديث، كما ورد في حقّ ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «رضيت لأمّتي ما رضي لها ابن أمّ عبد»(١)، وما ورد في أبي عبيدة رضي الله عنه من أنّه «أمين هذه الأمّة»(٢)، وما ورد في حقّ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من حديث حذيفة عند الترمذي أنّ النبي ﷺ قال: «اقتدوا باللذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر»(٣) وما أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال له: «اللهمّ فقّهه في الدين»(٤) وفي رواية: «اللهمّ علّمه الكتاب»(٥) فهذه الأحاديث ونحوها تدلّ على عصمة كلّ فرد من أفراد الصحابة أو جماعة منهم، ولم يقل به أحد.

= الصحابة قال: باب مناقب فاطمة عليها السلام (انظر الفتح ٧/ ١٣١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣١٧، ٣١٨) وصحّحه، ووافقه الذهبي، وقد روي الحديث بزيادة فيه بلفظ: (وكرهت لأمّتي ما كره لها ابن أمّ عبد) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٩٠): رواه البزار محمد بن حميد الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله وثّقوا. والحديث صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٢٥ برقم ١٢٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (الفتح ٧/ ١١٦، ١١٧ برقم ٣٧٤٤، ٣٧٤٥)، والترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح (٥/ ٦٢٣ برقم ٣٧٩٠، ٣٧٩١)، وابن ماجة في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ فضائل خباب (١/ ٥٥ برقم ١٥٤)، وأحمد في المسند (١/ ١٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ـ كليهما (٥/ ٥٧٠ برقم ٣٦٦٢، ٣٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٣١ برقم ١١٤٨، ١١٤٩) قال الألباني: حديث صحيح. (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٦ برقم ١٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء (الفتح ١/ ٢٩٤ برقم ١٤٣)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب في فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٤/ ١٩٢٧ برقم ٢٤٧٧)، وأحمد في المسند (١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥).

(٥) مسند الإمام أحمد (٩/ ٣٥).

ثمّ ردّ رحمه الله على قول الرافضة القائلين بعصمة علي، والحسنَيْن، والبتول رضي الله عنهم، وبيّن أنّه إذا كانت قد وردت فيهم أحاديث بأنّهم من أهل الجنة، فإنّه لا تلازم بين دخول الجنة والعصمة، وإلاّ أثبتنا العصمة للعشرة المبشّرين، وكلّ أفراد الصحابة الذين وردت فيهم أحاديث تدلّ على أنّهم من أهل الجنة، كعبد الله بن سلام، وحارثة بن سراقة، وطلحة بن عبد الله، وكأصحاب بدر، وأهل بيعة الرضوان، وغيرهم. فلو كان دخول الجنة مستلزماً للعصمة كان أكثر أكابر الصحابة معصومين، واللازم باطل، فالملزوم مثله[1].

وهكذا أبطل الشوكاني رحمه الله تعالى البدع التي ابتدعتها الرافضة وشدّد عليهم، وقد نهج منهج أهل السنّة في مناقشتهم، وفي دعوتهم إلى التمذهب بالإسلام جملة، وإلى عدم الرجوع إلى أقوال العلماء المتعصّبين، بل إلى الكتاب والسنّة للذين أمرنا الله باتباعهما، ولم يأمرنا باتباع غيرهما.

٢ ـ بدعة المتصوّفة:

ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى المفاسد التي أصابت دين الإسلام وفرّقت كلمة المسلمين، ومنها ما صار عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوّفة. قال: (فقد كان أوّل هذا الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا، وصدّ عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقاً إلى الدنيا، ومدرجاً إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكاً إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخاً يعلّمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحاً وطريقته حسنة، فيلقّن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا،

---

(١) انظر عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد: الشوكاني (ص ٢٤٧، ٢٤٨) ضمن أمناء الشريعة.

وتقرّبهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة على أعراف يتعارفونها، ولكنّه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع، وخروج عن كثير من آدابه)[1].

وبيّن الشوكاني أنّ الخير كلّ الخير في الكتاب والسنّة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى، وأخشاهم له في الظاهر، فإنّه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإنّ الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وإيقاعها على أبلغ الوجوه، بل إنّما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع والمشي على الطريقة المحمدية، واعتبر بالخوارج، فقد وصفهم النبي ﷺ بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التي لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا إلى شيء منها، ولا تعتبر بالنسبة إليها، ومع هذا فقال: (إنّها لا تجاوز تراقيهم)، وقال: (إنّهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[2]، وقال: (إنّهم كلاب النار)[3] فانظر كيف كانت مجاهداتهم، وعباداتهم، وقيامهم الليل، وصيامهم النهار، نقمة عليهم وبلية، ومحنة لهم، لم تعد عليهم بنفع قط إلّا ما أصيبوا

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه (انظر الفتح ٦/ ٤٣٤ برقم ٣٣٤٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤٠ برقم ١٠٦٣ ــ ١٠٦٨) وتمامه كما في الموضع الأخير: عن يسير بن عمرو قال: سألت سهل بن حنيف، هل سمعت النبي ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: سمعته (وأشار بيده نحو المشرق): (قوم يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية).

(٣) أخرجه ابن ماجة في المقدّمة، باب في ذكر الخوارج (١/ ٦١ برقم ١٧٣) بلفظ: الخوارج كلاب النار، وأحمد في المسند (٤/ ٣٥٥) عن ابن أبي أوفى، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٢٤ ــ برقم ٩٠٤) قال الألباني: حديث صحيح ورجال إسناده ثقات رجال الشيخين. (انظر مشكاة المصابيح ٢/ ١٠٥٥ برقم ٣٥٥٤).

به من الخسار والنكال والوبال، فكانت تلك الطاعات الصورية من صلاة، وصيام، وتهجد، وقيام، هي نفس المعاصي الموجبة للنار.

وهكذا كلّ من رام أن يطيع الله على غير الوجه الذي شرعه لعباده وارتضاه لهم، فإنّه ربّما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ثم قال:

(وإنّي لأخشى أن يكون من هذا القبيل ما يقع من كثير من المتصوّفة، من تلك الأقوال والأفعال التي ظاهرها التنفير عن الدنيا، والبعد عن أهلها، والفرار عن زينتها، مع تلك الوظائف التي يلازمونها من التخشّع، والانكسار، والتلهّب، والتأسّف، والصراخ تارة، والهدوء تارة أخرى، والرياضيات، والمجاهدات، وملازمة أذكار يذكرون بها لم ترد في الشرع، على صفات لم يأذن الله بها، مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنة، والقعود في تلك المساطب القذرة، وما ينضمّ إلى ذلك من ذلك الهيام، والشطح، والأحوال التي لو كان فيها خير لكانت لرسول الله وأصحابه الذين هم خير القرون)[1].

وقد ابتدعت المتصوّفة أموراً كثيرة ودعوا إليها، ولم تكن عند الزهاد السابقين، ومنها ترك الزواج، وإدامة الجوع، ومواصلة الصوم، والعزلة والخلوة، والغناء، والوجد[2]، وتقسيم الدين إلى حقيقة وشريعة، وتقديس الأولياء، وتفضيلهم على الأنبياء، ومنها القول بالفناء[3]، والحلول، ووحدة

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) قال الجرجاني: الوجد: ما يصادف القلب ويردّ عليه بلا تكلّف وتصنّع. (التعريفات: ص ٢٥٠)، وعرّفه الغزالي بأنّه حال تتوسّط السماع والرقص، فالسماع يثمر في القلب حالة تسمّى الوجد، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، أمّا بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وأمّا بحركة موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. (انظر الأحياء ٢/ ٢٩٣ وما بعدها ط/ دار المعرفة).

(٣) قال الجرجاني: الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة كما أنّ البقاء وجود الأوصاف المحمودة، والفناء فناءان: أحدهما ما ذكرنا، وهو بكثرة الرياضة. والثاني عدم =

الوجود، والاتّحاد بين المخلوق والخالق[1]. وهكذا تدرّج هؤلاء المتصوّفة إلى أن شرعوا لأنفسهم من الدين ما لم يأذن به الله، وأعلنوا عن أنفسهم أنّهم أهل الله وأحبّاؤه، ولهم صلاحية ليست للأنبياء والرسل، إذ في إمكانهم أن يأخذوا الدين وشرائعه عن الله مباشرة بغير واسطة، ودون حاجة إلى الرسول محمد ﷺ.

وقد تسرّبت هذه الأمور البدعية إلى صفوف المسلمين منذ زمن قديم، ولا زالت تؤدّي دورها في إفساد الأمّة الإسلامية في كثير من البلدان، ولا يزال بعض الناس من المنتسبين للعلم وغيرهم مغترّين بها، ومتحمّسين في الدفاع عنها وعن أهلها.

وقد تصدّى لها وكشف عن حقائقها كثير من علماء المسلمين[2]، منهم

= الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحقّ. (التعريفات ص ١٦٩)، وفسّر طائفة من المتصوّفة الفناء بفناء الكلّية، أي فناء البشرية فمنهم من ترك الطعام والشراب، وتوهّم أنّ البشرية هي القالب، والجثّة إذا ضعفت زالت بشريتها، فيجوز أن يكون موصوفاً بالصفات الإلّهية. (انظر اللمع للطوسي ص ٥٤٣ تحقيق: د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي).

(١) الفرق الدقيق بين هذه الاصطلاحات الصوفية الثلاث: أنّ وحدة الوجود هو القول بأنّ الكون والله شيء واحد، وكلّ شيء في الكون هو الله لا غير، وكان ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) من أشهر المتصوّفة القائلين بها. والحلول: يستلزم الإثنينية: اللاهوت والناسوت، حيث نزلت اللاهوت وحلّت في الناسوت، كما اعتقد النصارى في المسيح عليه السلام، وكان الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) من أشهر المتصوّفة القائلين به. أمّا الاتحاد فهو على عكس الحلول، أي رفعت الناسوت واتّحدت باللاهوت، كما اعتقد البراهمة والهندوس وأمثالهم. (انظر: البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها: رسالة الماجستير للباحث ص ٤٩١ ــ ٤٩٤).

(٢) هناك الكثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين ألّفوا في الردّ على التصوّف والمتصوّفة وكشف حقائقه، منهم: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تلبيس إبليس، وابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) في: ذمّ ما عليه مدّعو التصوّف، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في كثير من مؤلّفاته، مثل: الاستقامة، وبغية المرتاد، ومجموعة =

الإمام الشوكاني الذي نحن بصدد الحديث عنه، فقد تناول رحمه الله تعالى في كثير من كتبه هذه الأمور بالنقد الشديد، وخاصّة في كتابه: قطر الولي على حديث الولي، أو ولاية الله والطريق إليها، ورسالته: الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد. وهي ما زالت مخطوطة[1]. حيث نقل فيها أقوال العلماء أهل السنّة في الحكم على ما تضمّنته الكتب الصوفية من الضلال والاضلال، مثل الفصوص، والفتوحات لابن عربي[2]، والبد لابن سبعين[3]، والإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي[4]، وشعر ابن الفارض[5]، ....

= الرسائل والمسائل، واقتضاء الصراط المستقيم، وحقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، وبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) في: مصرع التصوّف. ومن المتأخرين: عبد الرحمن الوكيل في: هذه هي الصوفية، وإحسان الهي ظهير في: التصوّف المنشأ والمصادر، ومحمد فهر شفقة في: التصوّف بين الحقّ والخلق.

(١) في ١٦ ورقة، وتوجد في مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم.

(٢) محمد بن علي بن محمدابن عربي المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقّب بالشيخ الأكبر، قال عنه الذهبي: قدوة القائلين بوحدة الوجود، له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، أشهرها: فصوص الحكم، والفتوحات المكية. توفّي (٦٣٨ هـ) في دمشق. (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٥/ ١٠٥، ١٠٦، وجمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي ٢/ ٢٠١، والأعلام: الزركلي ٦/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) أبو محمد عبد الحقّ بن إبراهيم بن سبعين الأشبيلي، من زهّاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود، له أتباع ومريدون يعرفون بالسبعينية، له مؤلفات منها: بدّ العارف وعقيدة المقرّب الكاشف، وأسرار الحكمة الشرقية، ورسائل ابن سبعين. توفّي (٦٦٩ هـ) ـ (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ابن كثير ١٣/ ٢٦١، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٥/ ٣٢٩، والأعلام: الزركلي ٣/ ٢٨٠).

(٤) عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني، من علماء المتصوّفة، وأصحاب الاتحاد ووحدة الوجود، له كتب كثيرة، منها: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر الأوائل، والمناظر الآلهية. توفّي (٨٣٢ هـ) (الأعلام: الزركلي ٤/ ٥٠، ٥١).

(٥) شرف الدين أبو حفص عمر بن علي السعدي الهاشمي، المعروف بابن الفارض، من أشعر المتصوّفة، ويلقّب بسلطان العاشقين في فلسفة تتصل بالاتحاد ووحدة الوجود، =

المسمّى بالقصيدة التائية[1] وغير ذلك.

وفيما يلي بعض الأبيات التي قالها في هؤلاء:

فهم الذين تلاعبوا بين الورى ... بالدين وانتدبوا القصد خرابه
قد نهج الحلّاج[2] طرق ضلالهم ... وكذاك محيي الدين لاحيابه
وكذاك فارضهم بتائيّاته ... فرض الضلال عليهم ودعا به
وكذا ابن سبعين المهين فقد عدا ... متطوراً في جهله ولعابه
رام النبوءة لالعاً لعثوره ... روم الذباب مصيره كعقابه
وكذلك الجيلي أجال جواده ... في ذلك الميدان ثمّ سعى به
إنسانه إنسان عين الكفر لا ... يرتاب فيه سابح بعبابه
والتلمساني[3] قال قد حلّت له ... كلّ الفروج فخذ بذا وكفى به

= كان يكثر العزلة، وكان يرقص ويتواجد حينما يغنّين له بالدفّ والشبابة. توفّي (٦٣٢ هـ) (انظر ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٤/ ١٣٤، وجمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي ٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٨، والأعلام: الزركلي ٥/ ٥٥، ٥٦).

(١) انظر الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ١٤، ١٥، ١٦) (مخطوط).

(٢) هو الحسين بن منصور الحلّاج، أبو مغيث، فارسي الأصل، أحد زنادقة الصوفية، اشتهر منه القول بالحلول. قال ابن النديم: كان محتالاً مشعبذاً يتعاطى مذاهب الصوفية، ويدّعي عند أصحابه الإلّهية، ويقول بالحلول، وأنّ الإلّهية قد حلّت فيه، وأنّه هو هو، ويظهر مذاهب الشيعة للملوك، ومذاهب الصوفية للعامة، ولمّا عرف السلطان خبره على صحّته قطع يديه ثم أحرقه بالنار في آخر سنة (٣٠٩ هـ) (انظر الفهرست: ابن النديم ٢٦٩ ـ ٢٧١، وانظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (٨/ ١١٢)، وطبقات الصوفية: السلمي ٣٠٧، وميزان الاعتدال: الذهبي ٢/ ٧١).

(٣) هو أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي بن العابدي الكوفي ثم التلمساني، أحد زنادقة الصوفية، ومن القائلين بالوحدة المطلقة، يتبع طريقة ابن عربي في أقواله وأفعاله، من مصنّفاته: شرح أسماء الله الحسنى، وشرح الفصوص لابن عربي توفّي (٦٩٠ هـ) (انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ابن كثير ١٣/ ٣٢٦، =

نهقوا بوحدتهم على رؤوس الملا ومن المقال أتوا بعين كذابه
إن صحّ ما نقل الأئمّة عنهم فالكفر ضربة لازب لصحابه
لا كفر في الدنيا على كلّ الورى إن كان هذا القول دون نصابه
قد ألزمونا أن ندين بكفرهم والكفر شرّ الخلق من يرضى به
فدع التعسّف في التأوّل لا تكن كفتى يغطّي جيفة بثيابه
قد صرّحوا أنّ الذي يبغونه هو ظاهر الأمر الذي قلنا به
هذي فتوحات الشؤم شواهد إنّ المراد له نصوص كتابه[1]

كما جمع في هذه الرسالة ما صدر عن هؤلاء المتصوّفين المخذولين من المقالات[2] التي كلّ واحدة منها من أكفر الكفر، كقولهم بالاتحاد، ووحدة الوجود، وتخطئة الأنبياء، وتصويب الكفار، ورفع أنفسهم على الأنبياء، وكلامهم على القرآن. وقال: (فإن كنت لا تحكم بواحدة من هذه المقالات على صاحبها بالكفر فما فرعون، وهامان، ونمرود، لديك في عداد الكفرة، والله المستعان والمدعو يوم الجمع)[3].

وأكّد رحمه الله أنّ القيام على هؤلاء المتصوّفة من أعظم الواجبات، لأنّهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ، والعلماء، والملوك، والأمراء[4].

= وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٥/ ٤١٢، والأعلام: الزركلي ٣/ ١٣٠).

(١) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ٤) (مخطوط).

(٢) انظر عن الحلاج وشطحاته ورقة (٦)، وعن ابن الفارض، وابن عربي، وابن سبعين، والتلمساني، وعبد الكريم الجيلي، في ورقة (٦، ٧، ٩، ١٠، ١٢).

(٣) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ١٧) (مخطوط).

(٤) انظر المصدر السابق (ورقة ١٤).

واقتصر فيما يلي على ذكر بعض البدع التي وقعوا فيها، وخصوصاً التي تكلّم عليها الشوكاني رحمه الله تعالى في مؤلفاته ومنها:

(أ) الزهد الصوفي:

يرى المتصوّفة أنّ الزهد من أهمّ أسس التصوّف وشروطه، وهو عندهم قطع علائق الدنيا وشواغلها، والتجرّد من شهوة البطن والفرج، ويهدف إلى تربية النفس، وإضعاف الجسم، فتتقوّى على حسابه الروح على حدّ زعمهم. وله نظم وأساليب ينظّمونها لتربية مريديهم، وفي كتبهم تفصيل دقيق عنها، لا مجال هنا لبسطها[1].

قال الجنيد سيد هذه الطائفة[2] قولته المشهورة:

(ما أخذنا التصوّف عن القيل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات)[3].

وقال أبو يزيد البسطامي[4]: (إنّه وجد المعرفة بالله ببطن جائع، وبدن

---

(١) انظر على سبيل المثال: اللمع للسراج الطوسي (ص ٧٢، ٧٣) والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٧، ٣٢٤ ـ ٣٣٢، ٣٧٢ ـ ٣٧٩) تحقيق: د/ عبد الحليم محمود ومحمود بن شريف، وكشف المحجوب للهجويري (٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧١) ترجمة: د/ إسعاد عبد الهادي قنديل. واحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ١٨٩ ـ ٢٤٢)، وعوارف المعارف للسهروردي (١٠٤ ـ ١٠٧، ١٧٤ ـ ١٧٥) ضمن ملحق الاحياء.

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، عدّه العلماء شيخ مذهب التصوّف توفّي (٢٩٧ هـ) (انظر ترجمته في: الفهرست: ابن النديم ٢٦٤، وتاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٧/ ٢٤١، وصفة الصفوة: ابن الجوزي ٢/ ٤١٦، والبداية والنهاية: ابن كثير ١١/ ١٢١).

(٣) طبقات الصوفية: السلمي (ص ١٥٨).

(٤) طيفور بن عيسى البسطامي، فارسي، يعدّ من أكبر أئمة التصوّف، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية، له أخبار كثيرة، منها أنّه ادّعى لنفسه المعراج كما كان لرسول الله ﷺ المعراج، فأخرجوه من بسطام، ورموه بالإلحاد. توفّي (٢٦١ هـ) (انظر =

عار)[1].

وقد أنكر الشوكاني رحمه الله الزهد الصوفي المخالف للإسلام، لأنّه هو الذي يضعف جسم المؤمن، ويحول دون قيامه بأدواره الحياتية نحو نفسه وأسرته ومجتمعه. وقرّر أنّه: (لا زهد في ترك مطعم ولا مشـرب، وتاركـه بالمرّة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار.. والمقلّل منه على وجه يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيـام به من طـاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول... مخالف لما شرعه الله لعبـاده، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرّم حلالاً، أو حلّل حراماً، فإنّه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين)[2].

وقد أنكر الله سبحانه وتعالى على الذين يحرّمون ما أحلّه الله من طيّبات الطعام والشراب والمزيّنات، كبعض المتنطّعين، في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اللَّهِ الَتِيْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (الزينة: ما يتزيّن به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة، كالمعادن التي لم يـرد نهي عن التزيّن بهـا، والجواهر، ونحوها، وقيل الملبوس خاصّة، ولا وجه له، بل هو من جملة ما تشمله الآية، فلا حرج على من لبس الثياب الجيّدة الغالية القيّمة إذا لم يكن مما حرّمه الله، ولا حرج على من تزيّن بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة، ولم يمنع منها مانع شرعيّ، ومن زعم أنّ ذلك يخالف الزهد فقد غلط بيّناً... وهكذا الطيّبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس،

= ترجمته في: ميزان الاعتدال: الذهبي ٢/ ٣٤٦، ٣٤٧، ولسان الميزان: ابن حجر ٣/ ٢١٤، ٢١٥).

(١) طبقات الصوفية: السلمي (ص ٧٤)، والرسالة القشيرية: القشيري (١/ ٦٠٥).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٠٠).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

فإنّه لا زهد في ترك الطيّب منها، ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمّن للانكار على من حرّم ذلك على نفسه، أو حرّم على غيره)(١).

فثبت أنّه لا فضل في ترك شيء مما أحلّه الله لعباده، وأنّ الفضل والبرّ إنّما هو في فعل ما ندب الله عباده إليه، وعمل به رسول الله ﷺ، وسنّه لأمّته، واتّبعه على منهاجه الأئمّة الراشدون، إذ كان خير الهدي هدي نبينا محمد ﷺ(٢).

وبيّن الشوكاني رحمه الله تعالى أنّ هذا الزهد الصوفي ناتج من غلوّهم في العبادة، وإفراطهم في الطاعة، على وجه تخرج به عن الحدّ الذي حدّه الله، والمقدار الذي قدّره، وهذا الغلوّ ممنوع منه ومنهيّ عنه، وذلك كمن يصوم ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، ويترك الحلال الذي أذن الله به ورغب فيه، ولهذا يقول الصادق المصدوق ﷺ فيما صحّ عنه: (أمّا أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي)(٣).

فليس في الإسلام زهد بهذا المعنى التصوّفي، وإنّما الزهد المشروع إذا قلنا إنّ هناك زهداً هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وأمّا كلّ ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع، بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع(٤).

(ب) العزلة:

ومن مظاهر الزهد الصوفي العزلة، ومعناها ـ كما قال الجرجاني ـ:

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٠٠).
(٢) انظر المصدر السابق (٢/ ٦٩).
(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٣٠) والحديث تقدّم تخريجه في صفحة (٤١٨، ٤١٩) في التجربة ص ٥٥١.
(٤) انظر مجموعة الرسائل والمسائل: ابن تيمية (١/ ٢٢٦)، وأيضاً تلبيس إبليس: ابن الجوزي (ص ١٤٦).

هي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع[1].

والعزلة عند عامّة الصوفية هي الوحدة، والانفراد، والانقطاع، عن مخالطة الناس، وأسلوبها مختلف باختلاف الطرق الصوفية، إذ كلّ طريقة لها أسلوبها الخاص في العزلة والخلوة[2].

وقد اعتنوا بها اعتناء كبيراً، وعقدوا لها فصلاً خاصّاً في كتبهم، وساقوا الأقوال والحكايات في بيان فضيلتها، وحثّ طوائفهم على التزامها[3].

ومن الأمثلة ما قاله القشيري[4] في رسالته: (الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات الوُصْلة، ولا بدّ من المريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحقّقه بأنسه)[5].

وقال الجنيد: (من أراد أن يسلم له دينه، ويستريح بدنه وقلبه، فليعتزل الناس، فإنّ هذا زمان وحشة، والعاقل من اختار فيه الوحدة)[6].

وغير هذا من الأقوال الصوفية التي تدعو هذه الأمّة إلى العزلة، وإلى

---

(١) انظر التعريفات: الجرجاني (ص ١٥٠).
(٢) انظر على سبيل المثال شروط العزلة الخلوة عند الطريقة التيجانية في كتاب: رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد النوبي. المطبوع على هامش: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيد أبي العباس التيجاني. لعلي بن حرازم بن العربي (٢/ ١٥٣ وما بعدها) ط/ مصطفى البابي الحلبي، عام (١٣٨٠ هـ).
(٣) انظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٣٨)، وحياة القلوب للأسنوي على هامش قوت القلوب (٢/ ٩٣ ـ ٩٩)، والرسالة القشيرية للقشيري (١/ ٢٥٨ ـ ٣٠٤)، والأحياء للغزالي (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، وعوارف المعارف للسهروردي (ص ١٢١ ـ ١٣٠)، وكشف المحجوب للهجويري (١/ ٢٧٠، ٢٧١).
(٤) سبق له ترجمة في صفحة (٣٨٨).
(٥) الرسالة القشيرية: القشيري (١/ ٢٩٨).
(٦) المصدر السابق (١/ ٣٠٣)، وأيضاً حياة القلوب على هامش قوت القلوب: الأسنوي (٢/ ٩٣).

اضعاف الكيان الإسلامي بترك الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترك الجهاد في سبيل الله.

وقد نقد الشوكاني رحمه الله هذه البدعة الصوفية واستنكرها، فقال في تعليقه على قول أبي القاسم القشيري: (ولا يتمّ قرب العبد من الحقّ إلّا ببعده عن الخلق)[1].

(فهذا إنّما يكون فيمن لا ينفع فيه للعباد، أمّا من كان ينفعهم بعلمه، أو بموعظته، أو بجهاده، أو بإنكار المنكرات، أو بالقيام فيهم بما أوجب الله على مثله القيام به، فهذا يكون قربه من الخلق أقرب إلى الحقّ، وهو مقام الأنبياء، ومقام العلماء الذين أخذ الله عليهم البيان للناس... وقد جاء في السنة أنّ المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أحبّ إلى الله من المؤمن الذي لا يخالطهم)[2].

(ج) الولاية الصوفية:

وهي من أكثر الأشياء التي يدندن حولها المتصوّفة قديماً وحديثاً، وقد فصّل الشوكاني رحمه الله تعالى موضوع الولاية تفصيلاً دقيقاً، وأفرد لها تأليفاً في كتابه الموسوم بقطر الولي على حديث الولي، أو ولاية الله والطريق إليها، وهو شرح لحديث الولي: (من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب الحديث)[3]

---

(١) انظر الرسالة القشيرية: القشيري (١/ ٢٥٨).

(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤١٧، ٤١٨) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٤٣، ٥/ ٣٦٥)، والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٥) (٤/ ٥٧٢ برقم ٢٥٠٧)، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨ برقم ٤٠٣٢) بألفاظ مختلفة، وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٥٢ برقم ٩٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع (الفتح ١١/ ٣٤٨ برقم ٦٥٠٢) وقد تقدّم جزء من الحديث في صفحة (٤٦٤).

ردّاً على دعاوى المتصوّفة وأمثالهم التي استخدمت هذا الحديث لدعم آرائها الباطلة.

ففي هذا الكتاب تعرّض رحمه الله لمفهوم الولي، وصفاته، ووسائل تزكيته لنفسه، وثمرة مجاهداته وقرباته، وما يصادفه من كرامات وأمثالها، فرجّح أنّ المراد بوليّ الله هو العالِم بالله تعالى، المواظِب على طاعته، المخلص في عبادته. قال:

(وهذا التفسير للوليّ هو المناسب لمعنى الوليّ المضاف إلى الربّ سبحانه، ويدلّ على ذلك ما في الآيات القرآنية، كقوله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ، الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ، لَا تَبْدِيْلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ، ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾[1]، وكقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيْ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ، يُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ، وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لَائِمٍ، ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُوْلُهُ، وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُوْنَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُوْنَ﴾[2]، وغير ذلك من الآيات، فأولياء الله هم خلّص عباده، القائمون بطاعاته، المخلصون له)[3].

ومقياس الولاية والوليّ هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فحقّ على الوليّ وإن بلغ في الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان أن يكون مقتدياً بالكتاب والسنّة، وازناً لأفعاله وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهّرة، واقفاً على الحدّ

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٢ ــ ٦٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤ ــ ٥٦.

(٣) انظر قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٢٣٧، ٢٣٨)، وانظر أيضاً ما ذكره في تفسيره: فتح القدير (٢/ ٤٣٦).

الذي رسم فيها، غير زائغ عنها في شيء من أموره، فقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنّه قال: «كلّ أمر ليس عليه أمرنا فهو رَدّ»[١] وإذا ورد عليه وارد يخالف الشريعة ردّه، واعتقده أنّه من الشيطان، ويدافع ذلك بحسب استطاعته، وبما تبلغ إليه قدرته. ومن خالف هذا ممن يطلق عليه اسم الوليّ فليس من أولياء الله عزّ وجلّ. ويستدلّ الشوكاني لذلك بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنّه مع كونه من كبار الأولياء، ومع كون الرسول ﷺ شهد له بأنّه من المحدَّثين[٢]، فلم يكن يعتمد على ذلك، بل كان دليله الكتاب والسنّة في كلّ ما يعمل وما يدع، فكان يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعونه، ويحتجّ عليهم ويحتجّون عليه بالكتاب والسنّة، ويرجعون جميعاً إليهما[٣].

قال: (وإنّ ذلك هو المعيار الذي يعرف به الحقّ من الباطل، فمن ظهر منه شيء مما يخالف هذا المعيار فهو ردّ عليه، ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنّه وليّ الله)[٤].

قلت: وهذا المعيار الشرعي الذي قرّره الشوكاني هو ما اتّفق عليه

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (١٢٢).

(٢) كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثون، فإن يك في أمّتي أحد فإنّه عمر» أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (الفتح ٧/ ٥٢ برقم ٣٦٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٤ برقم ٢٣٩٨) عن عائشة رضي الله عنها. واللفظ للبخاري. ومعنى محدثون: أي ملهمون، والملهم هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدساً وفراسةً، وهو نوع يختصّ به الله عزّ وجلّ من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر. (النهاية لابن الأثير ١/ ٣٥٠ مادة: حدث).

(٣) انظر قطر الولي على حديث الولي الشوكاني: (ص ٢٥٠، ٢٥١).

(٤) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٢٥٣).

العلماء أهل السنة والجماعة[1] بخلاف المبتدعة من أهل التصوّف الذين يطلقون كلمة الوليّ على أئمتهم ومشايخهم، مراعين فيها اعتبارات أخرى غير هذه الاعتبارات الشرعية، كوقوع الكرامات والمكاشفات ونحوها، حيث جعلوا مجرّد وقوعها دليلاً على فضل صاحبها، حتى ولو وقعت من فاجر، قالوا هذه كرامة لشيخ الطريقة الفلانية، وهكذا، فأصبحت كلمة الوليّ والولاية محصورة في طائفة خاصّة، بعد أن كانت صفة محتملة لأيّ إنسان مؤمن يقوم بنصرة دين الله من عباده المؤمنين.

وقد نقد الشوكاني رحمه الله تعالى هذه الظاهرة الصوفيّة، ووضع المقياس في قبول الواقعات والمكاشفات إذ قال: (إنّ المعيار الذي لا يزيغ، والميزان الذي لا يجور، هو ميزان الكتاب والسنة، فمن كان متّبعاً لهما معتمداً عليهما فكراماته وجميع أحواله رحمانية، ومن لم يتمسّك بهما، ويقف عند حدودهما، فأحواله شيطانية[2]. فلا يجوز للوليّ أن يعتقد في كلّ ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أنّ ذلك كرامة من الله سبحانه، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره، بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنّة، فإن كانت موافقة لها فهي حقّ وصدق وكرامة من الله سبحانه، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك، فليعلم أنّه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان فلبس عليه[3]. كما نشاهده في الذين لهم تابع من الجنّ، فإنّه قد يظهر على يده ما يظنّ من لم يستحضر هذا المعيار أنّه كرامة،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١١٨)، وتفسير البغوي (٢/ ٣٥٩)، وتفسير الفخر الرازي (١٧/ ١٢٥ ـ ١٢٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٨)، وكتاب النبوات لابن تيمية، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان له، ضمن مجموع فتاوى (١١/ ١٥٦ ـ ٣١١)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٥٦٠، ٥٧٢، ٥٧٣)، والفتح لابن حجر (١١/ ٣٥٠).

(٢) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٢٧٢).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٩).

وهو في الحقيقة مخارق شيطانية، وتلبيسات إبليسية، ولهذا تراه يظهر من أهل البدع، بل من أهل الكفر، وممن يترك فرائض الله سبحانه وتعالى، ويتلوّث بمعاصيه، لأنّ الشيطان أميل إليهم للاشتراك بينه وبينهم في مخالفة ما شرعه الله سبحانه لعباده)[1].

وأنكر الشوكاني رحمه الله تعالى ما يسمّى بالكرامات الصوفيّة[2] التي وقعت عن طريق الرياضة والمجاهدة، إذ قال: (وقد يظهر شيء مما يظنّ أنّه كرامة من أهل الرياضة وترك الاستكثار من الطعام والشراب، على ترتيب معلوم وقانون معروف، حتى ينتهي حاله إلى أن لا يأكل إلاّ في أيّام ذوات العدد، ويتناول بعد مضيّ أيّام شيئاً يسيراً، فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية، فيدرك ما لا يدركه غيره، وليس هذا من الكرامات في شيء ولو كان من الكرامات الربّانيّة والتفضّلات الرحمانية لم يظهر على أيدي أعداء الله، كما يقع كثيراً من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسمّونهم الآن بالجوكية)[3].

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٥٣).

(٢) انظر حكايات الصوفية في كراماتهم في: لطائف المنن: عبد الوهاب الشعراني (١/ ١٧١)، والرسالة القشيرية: القشيري (٢/ ٦٧٣ ـ ٧١٣)، وكشف المحجوب: الهجويري (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٧٣)، وتلبيس إبليس: ابن الجوزي (ص ٣٧٧ ـ ٣٨٧)، وهذه هي الصوفية: عبد الرحمن الوكيل (ص ١١٦ ـ ١٢٣).

(٣) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٢٥٣). والجوكية (Yogism) نسبة إلى جوكا (Yoga) ومعناها فعل الربط والسيطرة والتحكّم، وهي فلسفة دينية ظهرت خلال عام (٨٠٠ ق م) تقريباً، ولم يعرف بالتحديد أوّل من أسّسها، والهدف من الجوكية تحرير النفس عن شهوات الجسد، عن طريق الممارسات والتدريبات الروحية والجسدية، ويوصل هذا الهدف إلى الاتصال والاتحاد بالإله، كما يزعمون. ولمزيد من التفاصيل عن هذا المذهب انظر: قصة الحضارة: ول ديورانت (٣/ ٢٦٠ ـ ٢٦٧) ترجمة د/ زكي نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٨ م، والفلسفات الهندية: د/ علي زيعور (ص ٣٤٢، ٣٤٣) دار الأندلس للطباعة ١٩٨٠ م، والهند القديمة: د/ محمد إسماعيل الندوي (ص ١٠٨ ـ ١١٠) دار الشعب.

وهكذا فقد رفض الشوكاني أن تكون أعمال المرتاضين وأمثالهم من السحرة، والكهّان، أو المجانين، والمرضى، من قبيل كرامات الأولياء، لأنّ كرامات الأولياء إنّما أكرمهم الله بها، لأنّهم أحبّاؤه وأولياؤه، بخلاف أولئك، فمنهم من أبعده عن هذا التكريم لأنّه عدوّ الله.

ومن بدعة المتصوّفة ما ادّعاه بعضهم من عصمة الأولياء من الأخطاء والمعاصي، كما قال القشيري: (إنّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء العصمة من المعاصي والمخالفات)[1] وقال ابن عربي: (إنّ من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوماً)[2]، وقد يعبّرون عن هذه العصمة بالحفظ[3]. وهم في هذا قلّدوا الرافضة الذين يعتقدون العصمة لأئمّتهم.

وقد ردّ عليهم الشوكاني رحمه الله تعالى وبيّن أنّ من جعل ما امتنّ به الله على عباده الصالحين من المحبّة لهم، وما ترتّب عليها، عصمة كعصمة الأنبياء فهو مخطىء مخالف للاجماع، فإنّ العصمة بهذا المعنى خصّ الله سبحانه بها رسله وملائكته، ولم يجعلها لأحد من خلقه، فإنّ هذا المقام هو مقام النبوّة، لا مقام الولاية، ولا يخالف في ذلك إلّا جاهل أو زائغ[4].

(د) عقيدة الاتحاد بين المخلوق والخالق:

ومن بدعة المتصوّفة قولهم بالاتحاد بين المخلوق والخالق، وهو عقيدة اكتسبوها من الديانات والفلسفات الأجنبية، كالهندية، وغيرها. ومفاد هذا القول: أنّ وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا

---

(١) الرسالة القشيرية: القشيري (٢/ ٦٦٧).

(٢) الفتوحات المكية: ابن عربي (٣/ ١٨٣).

(٣) انظر التعرّف لمذهب أهل التصوّف: الكلاباذي (ص ١٤٧) تحقيق/ محمود أمين النواوي، والرسالة القشيرية: القشيري (٢/ ٦٦٥).

(٤) انظر قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٤٤٩).

شيء سواه ألبتة، وأنّ السالك المتصوّف إذا وصل إلى حالة الفناء[1]، وتحقّقت لديه المعرفة[2]، وتخلّص من جميع علائق المادّة، تضمحلّ ذاته في ذات الله، وصفاته في صفاته، ويغيب عن كلّ ما سواه، فلا يرى شيئاً في الوجود إلّا الله، ومن هنا تصدر عنهم شطحات وعبارات فاسدة تشعر بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود[3].

وفرّعوا على هذه المقالة الملعونة فروعاً كفريّة، منها تصويب عبدة الأوثان، ومنها تخطئة الأنبياء في الانكار عليهم، ومنها عدم صحّة لا إلّه إلّا الله، كما صرّح بذلك ابن عربي قال: لأنّ الاستثناء يستلزم التعدد، ولا تعدد. قال ابن تيمية: ولهذا كان يقول ابن سبعين وأصحابه في ذكرهم: ليس إلّا الله[4].

ومما يستندون إليه على مقالتهم المخذولة قوله ﷺ فيما روى عن ربّه

---

(١) تقدّم تعريفها في صفحة (٥٥٩).

(٢) المعرفة في اصطلاح الصوفية هي العلم بلا واسطة، والناشيء عن الكشف والشهود، وهي من أخصّ صفاتهم، ولهذا المعنى قال ذو النون المصري: «حقيقة المعرفة اطّلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار. وقال ـ لما سئل بم عرفت ربّك؟ ـ: عرفت ربّي بربّي، ولولا ربّي لما عرفت ربّي. (انظر الرسالة القشيرية: القشيري ٢/ ٦٠٦، وكشف المحجوب: الهجويري. (٢/٥١٦).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق: البغدادي (ص ٢٤٨)، والصوارم الحداد: الشوكاني (ورقة ٦) (مخطوط)، وفي التصوّف الإسلامي وتاريخه: نيكلسون (ص ١٣٤) ترجمة/ أبو العلا عفيفي القاهرة ١٣٦٦ هـ، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم متز (٢/ ٦٢، ٦٣) ترجمة/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي. وانظر من كتب القوم: الفتوحات المكية لابن عربي (١/ ٣٥٤، ٢/ ٥٩)، وشرح القاشاني على فصوص الحكم له (ص ٢٩٥) (فصّ حكمة إمامية في كلمة هارونية) ط/ ١٣٨٦ هـ، والإنسان الكامل للجيلي (١/ ٣١، ٣٢) ط/ مصطفى البابي الحلبي ١٤٠٢ هـ، وكشف المحجوب للهجويري (٢/ ٤٩٩).

(٤) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ٦، ٧) (مخطوط).

عزّ وجلّ قال: (من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) الحديث[١].

يقول الشوكاني وهو يبيّن رأي المتصوّفة في معنى الحديث: (والاتحادية زعموا أنّه على حقيقته، وأنّ الحقّ تعالى عين العبد، واحتجّوا بمجيء جبريل في صورة دِحْيَة[٢]. قالوا: فهو روحانيّ خلع صورته وظهر بمظهر البشر، قالوا: والله سبحانه أقدر على أن يظهر في صورة الوجود الكلّي أو بعضه تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً)[٣].

ويردّ رحمه الله على هذه المقالة الفاسدة، بعد أن عرض الأقوال في معنى الحديث، والشروح التي ذكرها الحافظ ابن حجر في كتابه الفتح، وناقشها، قائلاً مبيّناً منشأ الخطإ عندهم.

(والحاصل أنّ قول الاتحادية يقضي عقل كلّ عاقل ببطلانه، ولا يحتاج إلى نصب الحجّة معهم. وأصل الشبهة الداخلة عليهم من قول الثنوية[٤]،

---

(١) سبق تخريجه في صفحة (٤٦٤).

(٢) هو دحية بن خليفة أحد الصحابة، كان جميلاً حسن الصورة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورته. (انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ١٠٧ وانظر الحديث في مسند الامام أحمد (٢/ ١٠٧) وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ١٠٤ برقم ١١١١).

(٣) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤٣١)، وانظر هذا الكلام المخذول في: الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي (٢/ ٧٤ ـ ٧٧).

(٤) قال الشهرستاني: «الثنوية: هم الذين أثبتوا أصلين اثنين مدبّرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمّون أحدهما النور والثاني الظلمة، ويزعمون أنّ الظلمة والنور يختلفان في الجوهر، والطبع، والفعل، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح. (انظر الملل والنحل ٢/ ٢٤٤) تحقيق/ محمد سيد كيلاني.

فإنّهم جعلوا إلٰهين اثنين إله الخير وإله الشرّ، فإله الخير النور، وإله الشرّ الظلمة، وجعلوهما أصل الموجودات كلّها، فإذا غلب النور صار العبد نورانيّاً، وإذا غلبت الظلمة صار العبد ظلمانيّاً، وغفلوا عن كون هذا المذهب الكفري يردّ عليهم بادىء بدء، فإنّ الظلمة غير النور، والشيء الذي حلا به غير هذا الحال)(1).

(والحديث كلّه يردّ عليهم، فإنّ قوله: من عادى لي وليّاً. يردّ عليهم، لأنّه يقتضي وجود معاد، ومعادَى لأجله، ويقتضي وجود موالِي وموالَى، ويقتضي وجود مؤذِن ومؤذَن، ومحارِب ومحارَب، ومتقرِّب ومتقرَّب إليه، وعبد ومعبود، ومحب ومحَبّ وهكذا إلى آخر الحديث فهو جميعه يردّ على الاتحادية المتمسّكين به من حيث لا يشعرون)(2).

وبيّن رحمه الله تعالى في موضع آخر أنّ القرآن كلّه مصرّح خلاف مقالتهم الشنيعة، فهذه فاتحة الكتاب، قد اشتملت على أكثر من عشرة أدلّة مبطلة لهذه المقالة، لأنّ الله جلّ جلاله قد أثبت فيها حامداً ومحموداً، وربّاً ومربوباً، وراحماً ومرحوماً، ومالكاً مملوكاً، وعابداً ومعبوداً، ومستعيناً ومستعاناً به، وهادياً ومهدياً، ومُنْعِماً ومُنْعَماً عليه، وغاضباً ومغضوباً عليه وغير ذلك(3).

أمّا معنى الحديث: (كنت سمعه الذي يسمع به الخ) كما اختاره الشوكاني فهو: أي كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه، فيسمع سماعاً لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم، وكذلك بقية الجوارح. قال: (فأيّ مانع من أن يمدّ الله سبحانه عبده من نوره، فيصير صافياً من كدورات الحيوانية الإنسانية، لاحقاً بالعالم العلوي، سامعاً بنور الله، مبصراً بنور الله، باطشاً بنور الله،

---

(1) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٤٣٨).

(2) المصدر السابق (ص ٤٣٧، ٤٣٨).

(3) الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد: الشوكاني (ورقة ٧) (مخطوط).

ماشياً بنور الله، وما في هذا من منع أو من أمر لا يجوز على الربّ سبحانه، وقد سأله رسوله وطلبه من ربّه[1]. ووصف الله عباده بقوله: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] وليس في هذا ما يخالف موارد الشريعة، ولا ما ينافي إدراك عقول المتشرّعين العارفين بالكتاب والسنّة)[3].

(هـ) رفع التكاليف الشرعية:

ومن الأمور المبتدعة لهذه الطائفة كما قاله الشوكاني ما يحكي عن بعض المتلاعبين بالدين المدّعين للتصوّف أنّهم يزعمون أنّهم وصلوا إلى ربّهم، فانقطعت عنهم التكاليف الشرعية، وخرجوا من جيل المسلمين المؤمنين، وسقط عنهم ما كلّف الله به العباد في هذه الدار، فإذا صحّ هذا فما يقوله أحد من أولياء الرحمن، بل يقوله أولياء الشيطان، لأنّهم خرجوا إلى حزبه، وصاروا من جملة أتباعه.

فالعجب لهؤلاء المغرورين، فإنّهم رفعوا أنفسهم عن طريقة الأنبياء وطبقة الملائكة، فإنّ الأنبياء حالهم معروف من إدامة العبادة لله في كلّ حال، والازدياد من التقرّبات المقرّبة إلى الله حتى توفّاهم الله تعالى، وكذلك الملائكة، فإنّهم كما وردت بذلك الأدلّة لا ينفكّون عن العبادة لله، وصارت أذكاره سبحانه من التسبيح والتهليل هي زادهم الذي يعيشون به، وغذاؤهم الذي يتغذّون به.

---

(١) كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من دعائه ﷺ: «اللهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً». (أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل) (الفتح ١١/ ٢٠ برقم ٦٣١٦) واللفظ له، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٢٦ برقم ٧٦٣)، وأحمد في المسند (١/ ٢٨٤، ٣٤٣).

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٣) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٤٣٣، ٤٣٤).

فحاشا لأولياء الله سبحانه أن يقع من أحقرهم في هذه المرتبة العظيمة وأدناهم في هذا المنصب الجليل هذا الزعم الباطل، والدعوى الشيطانية، وإنّما ذلك الشيطان سوّل لجماعة من أتباعه ومطيعيه، واستنزلهم، وأخرجهم من حزب الله إلى حزبه، ومن طاعة الله إلى طاعته، ومن ولاية الله سبحانه إلى ولايته(١).

قال الشوكاني: (وقد رأينا في ترجمة جماعة من أهل الله وأوليائه أنّهم سمعوا خطاباً من فوقهم، ورأوا صورة تكلّمهم، وتقول: يا عبادي قد وصلت إليّ، وقد أسقطت عنك التكاليف الشرعية بأسرها، فعند أن يسمع منهم السامع ذلك يقول: ما أظنّك أيّها المتكلّم الاّ شيطاناً، فأعوذ بالله منك، فعند ذلك تتلاشى تلك الصورة، ولا يبقى لها أثر.

فقد بلغ كيد الشيطان إلى هذا الكيد العظيم، ولكنّه لم ينفق كيده هذا على أولياء الله سبحانه، فردّوه في نحره، حتى أنّه قد يتطاير عند ذلك التلاشي شرراً كما وقع لكثير منهم)(٢).

وهكذا أبطل الشوكاني رحمه الله بدع هذه الطائفة، وقرّر أنّ دعوى الولاية إذا لم تكن مربوطة بالشرع مقيّدة بالكتاب والسنّة ضلّ صاحبها وهو لا يدري، ومكربه وهو لا يشعر، ووقع في مغاضب الله سبحانه وهو يظنّ أنّه في مراضيه(٣).

٣ ــ بدعة القبوريين:

ومن البدع السيئة على هذه الأمة، والتي حذّر منها الإسلام ونهى عنها نهياً شديداً بدعة القبوريين، من تشييد القبور، وبنائها، وتسريجها، وتزيينها،

---

(١) قطر الوليّ على حديث الوليّ: الشوكاني (ص ٤٨٦، ٤٨٧).
(٢) المصدر السابق (ص ٤٨٧).
(٣) انظر المصدر السابق (ص ٤٨٨).

واتخاذها مساجد، وما إلى ذلك، وما يترتّب عليها من الاعتقادات الفاسدة في أصحاب القبور.

وقد وصف الشوكاني هذه البدعة بأنّها أعظم ما أصيب به دين الإسلام من الدواهي الكبار، والمفاسد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار[1]. قال: (ومن أعظم الذرائع الشيطانية والوسائل الطاغوتية أنّهم بالغوا في التأنق في عمارة قبور من يعتقدونه من الصالحين، ونصبوا عليها القباب، وجعلوا على أبوابها الحجاب، ووضعوا عليها من الستور العالية والآلات الرائعة ما يبهر الناظر إليه، ويدخل الروعة في قلبه، ويدعوه إلى التعظيم، كما جبلت عليه طبائع العوام، من دخول المهابة في قلوبهم، والروعة في عقولهم، بما يتعاطاه المريدون لذلك، كما يفعله غالب ملوك الدنيا، من المبالغة في تزيين منازلهم، وتعظيمها، والتأنق في بنائها، والاستكثار من الحجاب، والخدم، والصياح، والجلبة، وارتباط الأسود، ونحوها من الحيوانات، ولبس فاخر الثياب، قاصدين بذلك تربية المهابة لهم، والمخافة منهم، وصنع هؤلاء القبوريون كصنعهم، ففعلوا في الأموات من جوانب التعظيم، وأسباب الهيبة، ما يكون له من التأثير في قلوب من يزورهم من العامة ما لا يقادر قدره، ثم يزيد ذلك قليلاً قليلاً، حتى يحصل لهم من الاعتقاد في أولئك الأموات ما يقدح في إسلامهم، ويخدش في توحيدهم)[2].

(أ) بدعة اتّخاذ القبور مساجد:

ورد النهي عن اتخاذ القبور مساجد عن النبي ﷺ في أحاديث، أوردها الشوكاني رحمه الله تعالى منها)

١ ـ ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ عند موته أنّه كان يقـول:

---

(١) انظر أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٢).
(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٤).

«لعنة الله على اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[1].

٢ ـ ما أخرجه أحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتّخذ القبور مساجد»[2].

٣ ـ ما أخرجه مسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «. . . ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك»[3].

والحديث يدلّ على تحريم اتخاذ قبور الأنبياء مساجد. قال العلماء: وإنّما نهى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، وربّما أدّى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأمم الخالية[4].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة[5] وفيها التصريح بلعن من اتخذ القبور

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب (٥٥) حدثنا أبو اليمان (الفتح ١/ ٦٣٣ برقم ٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٧ برقم ٥٣١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٤٠٥، ٤٣٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاقتضاء (ص ١٥٨): ـ وإسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٧): رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن، وحسّنه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١٧)، وانظر أيضاً: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد له (ص ١٩).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٧ برقم ٥٣٢).

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (٢/ ١٩٩).

(٥) ذكرها الشوكاني في: شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص ٧) ضمن الرسائل السلفية، ونيل الأوطار (٥/ ٨٧)، وجمع الشيخ ناصر الدين الألباني هذه الأحاديث =

مساجد، مع أنّه لا يعبد إلّا الله، وذلك لقطع ذريعة التشريك، ودفع وسيلة التعظيم[1].

قال الشوكاني رحمه الله: (وورد ما يدلّ على أنّ عبادة الله عند القبور بمنزلة اتخاذها أوثاناً تعبد، كما أخرجه مالك في الموطّأ أنّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمّ لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2].

وبالغ في ذلك حتى لعن زائرات القبور، كما أخرجه أهل السنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»[3].

ولعلّ وجه تخصيص النساء بذلك لما في طبائعهنّ من النقص المفضي

= التي بلغت ١٤ حديثاً في كتابه: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (انظر من ص ٩ ــ ٢٠).

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ١٨، ١٩).

(٢) أخرجه مالك في الموطّأ في كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة (١/ ١٧٢ برقم ٨٥) وصحّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٢١٧)، وتحذير الساجد (ص ١٨، ١٩).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في زيارة القبور (٣/ ٥٥٧ برقم ٣٢٣٦)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب كراهية أن يتخذ القبر مسجداً (٢/ ١٣٦ برقم ٣٢٠)، والنسائي في كتاب الجنائز، باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور (٤/ ٩٤، ٩٥ برقم ٢٠٤٣)، وابن ماجة في كتاب الجنائز، باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور (١/ ٥٠٢ برقم ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦) بدون قوله: (والمتخذين عليها المساجد والسرج)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٤) وضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٣٥٨ ــ ٢٦٠ برقم ٢٢٥)، وتحذير الساجد (ص ٤٣، ٤٤)، ومشكاة المصابيح (١/ ٢٣٠ برقم ٧٤٠) بهذا السياق. والحديث صحيح لغيره، إلّا اتخاذ السرج، فإنّه منكر لم يأت إلّا من هذا الطريق الضعيف.

إلى الاعتقاد والتعظيم بأدنى شبهة. ولا شكّ أنّ علّة النهي عن جعل القبور مساجد، وعن تسريجها، وتجصيصها، ورفعها، وزخرفتها، هي ما ينشأ عن ذلك من الاعتقادات الفاسدة، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ أمّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: (أولئك إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[1]. ولابن خزيمة عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾[2] قال: كان يلتّ له السويق فمات، فعكفوا على قبره[3]. وكلّ عاقل يعلم أنّ لزيادة الزخرفة للقبور وإسبال الستور الرائعة عليها، وتسريجها، والتأنّق في تحسينها، تأثيراً في طبائع غالب العوام، ينشأ عنه التعظيم والاعتقادات الباطلة، وهكذا إذا استعظمت نفوسهم شيئاً مما يتعلّق بالأحياء، وبهذا السبب اعتقد كثير من الطوائف الإلهية في أشخاص كثيرة)[4].

قلت: وقد ناقض كلام الشوكاني هنا ما ذكره في: تحفة الذاكرين. من استجابة الدعاء عند قبور الأنبياء عليهم السلام، وعند قبور الصالحين، قال: (ووجه ذلك مزيد الشرف ونزول البركة فيها)[5]. وهو قول مردود، لأنّه لم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (الفتح ١/ ٦٣٣ برقم ٤٣٤) واللفظ له، وأخرجه أيضاً برقم (٤٢٧، ١٣٤١، ٣٨٧٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي من بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٥ برقم ٥٢٨).

(٢) سورة النجم، الآية: ١٩.

(٣) وروى أيضاً ابن جرير عنه في تفسيره (٢٧/ ٥٨)، كما روى البخاري مثل هذا القول عن ابن عباس في صحيحه، كتاب التفسير، باب (أفرأيتم اللات والعزى) (الفتح ٨/ ٤٧٨ برقم ٤٨٥٩).

(٤) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ١٩، ٢٠).

(٥) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٥٩).

يثبت عن النبي ﷺ، ولا من الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح تخصيص هذه الأماكن وتفضيلها على غيرها، بل ثبت أنّه ﷺ حرّم اتّخاذها مساجد، لما يترتّب عليه من اعتقادات فاسدة، كما بيّناه، واتخاذ القبر مسجداً يقصد منه الصلاة والدعاء عنده، كما يقصد بناء المسجد عليه[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (إنّ المنقول عن السلف أنّهم كرهوا قصد القبور للدعاء، متأوّلين في ذلك قوله ﷺ: «لا تتّخذوا قبري عيداً»[2]... وما أحفظ لا عن صحابي، ولا عن تابعيّ، ولا عن إمام معروف أنّه استحبّ قصد شيء من القبور للدعاء عنده، ولا روى أحد في ذلك شيئاً، لا عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من الأئمة المعروفين)[3].

ويقول: (وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهّمه أكثر الخلق، لكن كلّ هذا لا يقتضي استحباب الصلاة أو قصد الدعاء والنسك عندها، لما في قصد العبادات عندها من المفاسد التي حذّر منها الشارع كما تقدّم، فإنّ اعتقاد استجابة الدعاء عندها وفضله قد أوجب أن تنتاب لذلك وتقصد، وربّما

---

(١) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ابن تيمية (ص ١٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢/ ٥٣٤ برقم ٢٠٤٢)، قال شيخ الإسلام في الاقتضاء (ص ٢٩٠): إسناده حسن، وإنّ رواته كلّهم ثقات مشاهير. وحسّنه الألباني، وقال: وهو على شرط مسلم، وهو صحيح بما له من طرق وشواهد. (انظر أحكام الجنائز ص ٢١٩). ومعنى الحديث كما قال الشوكاني: أي لا تتخذوا قبري موسما تجتمعون فيه كما صار يفعله كثير من عباد القبور، يجعلون لمن يعتقدونه من الأموات أوقاتاً معلومةً يجتمعون عند قبورهم ويعكفون عليها، كما يعرف ذلك كلّ أحد من الناس من أفعال المخذولين الذين تركوا عبادة الله الذي خلقهم ورزقهم ثم يميتهم ويحييهم، وعبدوا عبداً من عباد الله صار تحت أطباق الثرى، لا يقدر على أن يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضرّاً. (شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص ٨، ٩) ضمن الرسائل السلفية).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٣٣٣، ٣٣٤) ط/ دار الحديث.

اجتمع القبوريون عندها اجتماعات كثيرة في مواسم معيّنة، وهذا بعينه هو الذي نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «لا تتّخذوا قبري عيداً»[١]، وبقوله: «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢]، وبقوله ﷺ: «لا تتّخذوا القبور مساجد، فإنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون القبور مساجد»[٣].

هذا وقد اشترط الشوكاني ــ بعد كلامه السابق في استجابة الدعاء وفضله عند قبور الأنبياء والصالحين ــ أن لا تنشأ عن ذلك مفسدة، وهي أن يعتقد في ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده، كما يقع لكثير من المعتقدين في القبور، فإنّهم قد يبلغون الغلوّ بأهلها إلى ما هو شرك بالله عزّ وجلّ، فينادونهم مع الله، ويطلبون منهم ما لا يطلب إلّا من الله عزّ وجلّ، وهذا معلوم من أحوال كثير من العاكفين على القبور، خصوصاً العامّة الذين لا يفطنون لدقائق الشرك[٤].

قلت: إذا كان الأمر كذلك فكيف القول باستجابة الدعاء وفضله عند هذه القبور وهو وسيلة لهذه المفسدة العظيمة وذريعة لها، ودفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح، كما قاله العلماء، أي إذا كانت هناك مصالح، وأين

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة (٥٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (الفتح ٣/ ٢٣٨ برقم ١٣٣٠)، وأخرجه في مواضع أخرى (انظر الفتح حديث رقم ٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٦ برقم ٥٢٩).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ص ٣٣٩). والحديث لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولعله ــ رحمه الله ــ أراد حديث مسلم الذي تقدم تخريجه قبل قليل بلفظ: (ألا وأنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك).

(٤) انظر: تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٥٩) قال رحمه الله ــ بعد الكلام السابق ــ: وقد جمعت في ذلك رسالة مطّولة سميتها: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد. وهذا مما يدلّ على أنّه ألّف تحفة الذاكرين بعد الدر النضيد.

المصالح في تحرّي الدعاء عند هذه القبور لاعتقاد استجابة الدعاء وفضله عندها؟ بل يؤدّي ذلك إلى مفاسد عديدة، كما ذكرها شيخ الإسلام، وكما بيّنها الشوكاني وحذّر منها في عديد من مؤلّفاته كما تقدّم بيانه، وكما سيأتي في هذا البحث. ويكفينا في الامتناع عنه أنّه غير وارد عن النبي ﷺ، ولا عن الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح، ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

(ب) بدعة تشييد القبور وتحسينها:

أفرد الشوكاني رحمه الله تعالى هذا الموضوع لأهميّته في رسالة بعنوان: شرح الصدور في تحريم رفع القبور، قال فيها: (اعلم أنّه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم، وأوّلهم وآخرهم، من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا الوقت، أنّ رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها، واشتدّ وعيد رسول الله ﷺ لفاعلها)[1].

فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه[2]. وزاد في لفظ الترمذي: وأن يكتب عليه[3].

وفي هذا التصريح بالنهي عن البناء على القبور، وهو يصدق على من بنى على جوانبه حفرة القبر، كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه، لأنّه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً، فذلك مما يدلّ

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٤) ضمن الرسائل السلفية.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه (٢/ ٦٦٧ برقم ٩٧٠) والسياق له، والنسائي في كتاب الجنائز، باب تجصيص القبور (٤/ ٨٨ برقم ٢٠٢٩).

(٣) انظر كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها (٣/ ٣٦٨ برقم ١٠٥٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال الحاكم: النهي عن الكتابة على شرط مسلم وهي صحيحة غريبة، ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧٠).

على أنّ المراد بعض ما يقربه مما يتصل به، ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر كذلك، كما في القباب، والمساجد، والمشاهد الكبيرة، على وجه يكون القبر في وسطها، أو في جانب منها، فإنّ هذا بناء على القبر، لا يخفى على من له أدنى فهم[1].

قال: «وفي الحديث دليل على تحريم البناء على القبر، وفصّل الشافعي وأصحابه فقالوا: إن كان البناء في ملك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة مسبلة فحرام. ولا دليل على هذا التفصيل، وقد قال الشافعي: رأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى، ويدلّ على الهدم حديث أبي الهياج الأسدي، عن علي رضي الله عنه قال: (أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالاً إلّا طمسته، ولا قبراً مُشْرِفاً إلّا سوّيته)[2]، فقوله: (ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته) فيه أنّ السنة أنّ القبر لا يرفع رفعاً كثيراً، من غير فرق بين من كان فاضلاً ومن كان غير فاضل، والظاهر أنّ رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرّم، كما صرّح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعي ومالك، والقول بأنّه غير محظور لا يصحّ، ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولاً أوّليّاً القبب، والمشاهد المعمورة على القبور، وأيضاً هو من اتخاذ القبور مساجد، وقد لعن النبي ﷺ فاعل ذلك»[3] كما تقدّم.

(وفي هذا أعظم دلالة على أنّ تسوية كلّ قبر مشرف بحيث يرتفع زيادة

---

(١) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٨) ضمن الرسائل السلفية.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦ برقم ٩٦٩)، وأبو داود في كتاب الجنائز، باب في تسوية القبر (٣/ ٥٤٨ برقم ٣٢١٨)، والترمذي في كتاب الجنائز، باب ما جاء في تسوية القبور (٣/ ٣٦٦ برقم ١٠٤٩) وقال: حديث حسن.

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (٥/ ٧٨، ٧٩ وأيضاً ٨١).

على القدر المشروع واجبة متحتمة، فمن إشراف القبور أن يرفع سمكها، أو يجعل عليها القباب أو المساجد، فإنّ ذلك من المنهيّ عنه بلا شك ولا شبهة، ولهذا أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث لهدمها أمير المؤمنين، ثم إنّ أمير المؤمنين بعث لهدمها أبا الهياج الأسدي في أيّام خلافته)[1].

وردّ الشوكاني رحمه الله تعالى على الإمام يحيى بن حمزة[2] الذي ذهب إلى جواز رفع القباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك دون غيرهم، ودليله الذي استدلّ به هو استعمال المسلمين مع عدم النكير[3].

قال (أي الشوكاني): (إنّ هذا كان أوّل نداء بهذه البدعة صدر في الديار اليمنية وقد تابعه المؤلّفون في الفقه بهذا التصريح والجواز تقليداً له واقتداء به، فأبطل هذه الفتوى بأدلّتها من الكتاب والسنّة بمثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلّ عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[4] ورفع القبور وبناء القباب عليها ليس عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما عرفناك بذلك، فهو ردّ على قائله، أي مردود عليه، والذي شرع للناس هذه الشريعة الإسلامية هو الربّ سبحانه وتعالى بما أنزله في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فليس لعالم وإن بلغ من العلم إلى أرفع رتبة وأعلى منزلة أن يكون بحيث يقتدى به فيما

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٧، ٨) ضمن الرسائل السلفية، وانظر أيضاً أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٤)، ورسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجل: الشوكاني (ص ٢١) (مخطوط).

(٢) يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي، من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن، يروى أنّ كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره، وتلقّب بالمؤيد بالله، من تصانيفه: الشامل في أصول الدين، والحاوي في أصول الفقه، والانتصار في الفقه. توفّي (٧٠٥ هـ) (انظر البدر الطالع: الشوكاني ٢/ ٣٣١، والأعلام: الزركلي ٨/ ١٤٣).

(٣) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٤) ضمن الرسائل السلفية.

(٤) تقدم تخريجه في صفحة (١٢٢).

خالف الكتاب والسنّة أو أحدهما، بل ما وقع منه الخطأ بعد توفية الاجتهاد حقّه يستحقّ به أجراً، ولا يجوز لغيره أن يتابعه)[1].

وعلّق رحمه الله في موضع آخر على هذا القول، قال: (هذا اغترار بما وقع من الناس، لا سيّما الملوك والأكابر من رفع قبورهم، وجعل القباب عليها، وهذا حرام بالأدلّة الصحيحة الثابتة في الصحيح وغيره من طرق توجب العلم اليقين، فمنها الأمر بتسوية القبور كما تقدم، ومنها النهي عن البناء عليها كما تقدم أيضاً، ومنها النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن فاعل ذلك، وغير ذلك مما هو مبيّن في كتب السنة.

وبالجملة فما هذه أوّل شريعة صحيحة وسنّة قائمة تركها الناس واستبدلوا بها غيرها، ولكن هذه البدعة قد صارت وسيلة لضلال كثير من الناس، لا سيّما العوام، فإنّهم إذا رأوا القبر وعليه الأبنية الرفيعة والستور الغالية، وانضمّ إلى ذلك إيقاد السرج عليه، تسبّب عن ذلك الاعتقاد في ذلك الميت، ولا يزال الشيطان يرفعه من رتبة إلى رتبة، حتى يناديه مع الله سبحانه، ويطلب منه ما لا يطلب إلاّ من الله عزّ وجلّ، ولا يقدر عليه سواه، فيقع في الشرك.

فليت شعري ما وجه تخصيص قبور الفضلاء بهذه الداهية الدهياء، والمعصية الصماء العمياء، فإنّهم أحقّ من غيرهم باتباع السنة في قبورهم، وترك ما حرّمته الشريعة على الناس)[2].

وهكذا نهج الشوكاني رحمه الله تعالى منهج أهل الحقّ في الاستناد إلى مرجعية الكتاب والسنّة، والردّ على المخالفين لهما.

---

(١) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٩، ١٢) ضمن الرسائل السلفية.
السلفية.

(٢) السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار: الشوكاني (١/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(ج) بدعة كتابة الاسم على القبور:

ومن البدع التي انتشرت في معظم بلاد المسلمين كتابة الاسم على القبور.

وقد ورد النهي عنها في حديث جابر الذي رواه الترمذي والحاكم وصحّحاه قال (أي جابر): (نهى النبي ﷺ أن يجصّص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ)[1].

قال الحاكم: (هذا حديث على شرط مسلم، وقد خرّج بإسناده غير الكتابة، فإنّها لفظة صحيحة غريبة، وليس العمل عليها، فإنّ أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب مكتوب على قبورهم، وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف).

قلت: وقول الحاكم هذا مردود، وقد تعقّب عليه الذهبي قائلاً: ما قلت طائلاً ولا نعلم صحابياً فعل ذلك، وإنّما هو شيء أحدثه بعض التابعين فمن بعدهم، ولم يبلغهم النهي[2].

وكانوا يفعلون هذا بأهل الصلاح والفضل، ثم تزايد الشر، وصاروا يفعلون ذلك لمن له رئاسة دنيوية، وإن كان من أفجر الفجرة.

ونقل الشوكاني رحمه الله تعالى تصريح جماعة من أهل الفقه بأنّه لا بأس بذلك إذا كان الميت فاضلاً، واحتجّوا بأنّ بعض السلف استحسنوا رفع القبور، وتزيين القبور، وكتابة الاسم عليها، فقال ردّاً عليهم:

(فلا كثر الله في أهل العلم من أمثال من استحسن مخالفة الشرع من السلف الذين صرتم تقوّلون عليهم بما لم يقولوه، فإنّه إذا صحّ ما تزعمونه من أنّه استحسن ذلك بعض السلف فلا حجّة في استحسان من استحسن مخالفة

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل صفحة (٥٨٥).

(٢) انظر المستدرك للحاكم وبهامشه التلخيص للذهبي (١/ ٣٧٠).

الشرع كائناً من كان، فإنّه مبتدع، ومخالف للشرع، وعاص لله ولرسوله وللشريعة المطهّرة.

ولقد تزلزل بهذا السبب أقدام كثير من العباد عن الإسلام، وذهب بهذه الذريعة إيمان جماهير من الأنام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)(١).

وقال في موضع آخر ردّاً عليهم: (وأقول: لا حجّة في أحد خالف السنّة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كائناً من كان، قلّ عددهم أو كثر، فليس لهم أن يشرعوا للناس غير ما شرعه الله، بل يحملون على الخطإ، وعدم العناية بأمر الشرع، والتساهل في أمر الدين. وما هذا بأوّل باب من أبواب الشرع أهمله الناس، وخالفوا فيه السنّة الواضحة، والشرائع الثابتة، ولا سيّما بعد أن استعلى الجهل على العلم، وغلبت آراء الرجال ما جاء في الكتاب والسنّة، وصار التقليد والتمذهب هو المعروف عند الجمهور، وغيره المنكر، ولا اعتبار بسكوت أهل العلم الذين هم أهله، فإنّهم مغلوبون، مكثورون، مخبوطون بسوط العامة الذين منهم السلاطين وجنودهم... وإطباق أهل المشرق والمغرب على الكتابة هو كإطباقهم على رفع القبور، وتجصيصها، ووضع القباب عليها، وجعلها مساجد، فخالفوا ما تقدم عنه ﷺ، مع مخالفتهم لما ثبت في الصحيح عنه ثبوتاً لا يخالفه فيه مخالف، من أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تجعلوا قبري مسجداً، لا تجعلوا قبري وثناً، لعن الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢) وكان هذا القول من آخر ما قاله في مرض موته)(٣).

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٦، ٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: (اللهمّ لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدا). وسنده صحيح. (صحّحه الألباني في تحذير الساجد ص١٨، ١٩) وللحديث روايات أخرى متعدّدة، ذكرت بعضها قبل قليل.

(٣) أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ص ٢١٥، ٢١٦).

(د) ما يترتّب على هذه البدع من مفاسد:

ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى مفاسد كثيرة تترتّب على بدعة القبوريين في تشييد القبور، وتجصيصها، وتزيينها، وكتابة الاسم عليها، واتخاذها مساجد، ونحو ذلك، وبيّن أنّ في هذه البدع من الفتنة العظيمة لهذه الأمّة، ومن المكيدة البالغة التي كادهم الشيطان بها، وقد كاد بها من كان قبلهم من الأمم السالفة، كما حكى الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز، وكان أوّل ذلك من قوم نوح عليه السلام، قال الله سبحانه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِيْ، وَاتَّبَعُوْا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً، وَمَكَرُوْا مَكْراً كُبَّاراً، وَقَالُوْا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً، وَلَا سُوَاعاً، وَلَا يَغُوْثَ، وَيَعُوْقَ وَنَسْراً﴾(1)، كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلمّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنّما كانوا يعبدونهم وهم يسقون المطر فعبدوهم، ثم عبدتهم العرب بعد ذلك. وقد حكى معنى هذا في صحيح البخاري عن ابن عبّاس رضي الله عنهما(2). وقال قوم من السلف، إنّ هؤلاء كانوا قوماً من الصالحين من قوم نوح، فلمّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم(3).

---

(1) سورة نوح، الآية: ٢١ ــ ٢٣.

(2) ولفظ البخاري: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهُذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيف بالجرف عند سَبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكَلَاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدَتْ) (الفتح ٨/ ٥٣٥ حديث رقم ٤٩٢٠).

(3) انظر شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٦، ٧) ضمن الرسائل =

وهذا أوّل انحراف وجد في تاريخ البشرية عن عقيدة التوحيد، ومنشأه هو الغلوّ في تعظيم الصالحين ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة.

ودلّت هذه القصّة على أنّ الغلوّ في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، لأنّهم تركوا بذلك دين الإسلام، وكفروا بعبادة تلك الصور، واتخذوهم شفعاء من دون الله، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمّة من عبّاد القبور فإنّ الشيطان أدخلهم في الشرك من باب الغلوّ في الصالحين، والافراط في محبّتهم، فألقى إليهم أنّ البناء ووضع القباب والمشاهد على القبور من محبّة أهلها، ثم ينقلهم من رتبة إلى رتبة إلى أن اتخذوها أوثاناً يعبدونها من دون الله.

قال الشوكاني وهو يصف المفاسد التي ترتّبت على تشييد القبور في زمانه: (. . . وكم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي بها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفّار للأصنام، وعظم ذلك، فظنّوا أنّها قادرة على جلب النفع ودفع الضرّ، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربّهم، وشدّوا إليها الرحال، وتمسّحوا بها، واستغاثوا. وبالجملة أنّهم لم يدعوا شيئاً ما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلّا فعلوه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون)[1].

كما وصفها في موضع آخر قال: (ولا شكّ ولا ريب أنّ السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زيّنه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها، وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين، فإنّ الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبّة، فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب، فلا شكّ ولا ريب أنّه يمتلىء قلبه تعظيماً لذلك

= السلفية، وانظر أيضاً الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ص ٢٢)، وفتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٠٠، ٣٠٢).

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٥/ ٧٩).

القبر، ويضيق ذهنه عن تصوّر ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشدّ وسائله إلى ضلال العباد، وما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلاّ الله سبحانه، فيصير في عداد المشركين، وقد يحصل له هذا الشرك بأوّل رؤية لذلك القبر الذي صار على تلك الصفة، وعند أوّل زورة له، إذ لا بدّ أن يخطر بباله أنّ هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلاّ لفائدة يرجونها منه، إمّا دنيوية أو أخروية، فيستصغر نفسه بالنسبة إلى من يراه من أشباه العلماء زائراً لذلك القبر، وعاكفاً عليه، ومتمسّحاً بأركانه. وقد يجعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر، يخادعون من يأتي إليه من الزائرين، يهولون عليهم الأمر، ويصنعون أموراً من أنفسهم، وينسبونها إلى الميت، على وجه لا يفطن لها من كان من المغفّلين، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمّونها كرامات لذلك الميت، ويثبتونها في الناس، ويكرّرون ذكرها في مجالسهم، وعند اجتماعهم بالناس، فتشيع وتستفيض، ويتلقّاها من يحسن الظن بالأموات، ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب، فيرويها كما سمعها، ويتحدّث بها في مجالسه، فيقع الجهال في بلية عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت بكرائم أموالهم، ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أحبّها إلى قلوبهم، لاعتقادهم أنّهم ينالون بجاه ذلك الميت خيراً عظيماً وأجراً كبيراً، ويعتقدون أنّ ذلك قربة عظيمة، وطاعة نافعة، وحسنة متقبّلة، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر، فإنّهم إنّما فعلوا تلك الأفاعيل، وهوّلوا على الناس بتلك التهاويل، وكذبوا بتلك الأكاذيب، لينالوا جانباً من الحطام من أموال الطغام)[1].

---

(١) شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ص ٩، ١٠) ضمن الرسائل السلفية.

وفي هذا الصدد ذكر الشوكاني رحمه الله حكاية واقعة ذكرها أهل التاريخ في كتبهم عن بعض الخلفاء العباسيين، وتفيد مدى تأثير الغلوّ في التهويل والتعظيم في عوام الناس.

وخلاصة الحكاية: أنّه قدم على أحد الخلفاء العباسيين رسول من بعض الممالك النائية، فاحتفل الخليفة بجمع أعيان مملكته وأكابرها، وجعلهم في الأمكنة التي سيمرّ الرسول بها، ثم أوقف خاصّته، وهم جمع جم بإيوان كبير، وقد بالغ في تحسين فرشه وستوره وتأنّق في كلّ أموره، وجعل نفسه في مكان مشرف على ذلك الإيوان على صفة في غاية التهويل والتعظيم، فما زال ذلك الرسول يدخل من مكان إلى مكان، ويمرّ بجماعة جماعة، حتى وصل إلى ذلك الإيوان، فامتلأ مهابة وروعة، وتعاورته أسباب التعظيم والتهويل من كلّ جهة، وقد نصبت في المنزل الذي فيه الخليفة الآلات البرّاقة من الذهب والفضّة والأحجار الكريمة من الجواهر، وظهر وجه الخليفة وعليه من الثياب ونحوها ما هو الغاية في الحسن، والنهاية في البهاء، فلمّا رآه الرسول قال للممسكين بيده: أهذا الله؟ فقالا: لا، بل هو خليفة الله.

قال الشوكاني بعد سرد الحكاية: (فانظروا ـ أرشدك الله ـ إلى أيّ حالة بلغ بهذا المسكين ما رآه من التهويل والتعظيم، وانظر الحكمة البالغة فيما ورد عن الشارع من الزجر عن رفع القبور، وتجصيصها، وتسريجها، ونحو ذلك)[1].

قلت: وهذا كلّه من سدّ باب الشرك ووسائله، لأنّ الشارع الحكيم إذا حرّم شيئاً حرّم أسبابه ووسائله، وإذا نهى عن شيء نهى عن كلّ ما يوصّل إليه

---

(١) رسالة تتعلق بوجوب توحيد الله عزّ وجل: الشوكاني (ص ٢٠، ٢١) (مخطوط).

ويقرب منه، ومن ذلك أنّ الإسلام لمّا جاء بالنهي عن الشرك، نهى عن أسبابه، وسدّ ذرائعه الموصّلة إليه والمسببة له.

ولذلك كان البناء على القبور، ووضع القباب لها، واتخاذها مساجد، سبباً في وقوع الشرك، وهذه بلية مشاهدة ــ كما بيّنها الشوكاني ــ في بلدان كثيرة، وخصوصاً في زماننا هذا، حيث أصبحت هذه المشاهد تقصد وتشدّ الرحال إليها، ويقع عندها الشرك والمنكرات، ما لا يشكّ معه عاقل من وجوب اقتلاع تلك المشاهد الوثنية وعدم ابقاء أيّ أثر لها.

والله أسأل أن يبصر المسلمين بأمور دينهم، وأن يردّهم للعمل بكتابه وسنّة رسوله ﷺ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

● ● ●

الفصـل الخامـس

في تعريف الإيمان وما
يتعلق به من مسائل

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف الإيمان لغة وشرعاً.

المبحث الثاني: بيان أهميّة الإيمان.

المبحث الثالث: زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الرابع: العلاقة بين مسمّى الإيمان والإسلام.

المبحث الخامس: حُكم مُرْتكب الكبيرة.

المبحث الأوّل

تعريف الإيمان لغة وشرعاً

تعريف الإيمان لغة:

الإيمان: مصدر من آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن، وهو مشتقّ من الأمن.

قال الجوهري: (الايمان: التصديق، والله تعالى المؤمن، لأنّه أمن عباده من أن يظلمهم، وأصل آمن أأمن بهمزتين... والأمن ضدّ الخوف)[1].

وقال ابن منظور: (الايمان ضدّ الكفر، والإيمان بمعنى التصديق، ضدّه التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذب به قوم)[2].

وقال الأصفهاني: (آمن إنّما يقال على وجهين: أحدهما متعدّياً بنفسه، يقال: آمنت أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن، والثاني غير متعدّ، ومعناه صار ذا أمن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِيْنَ﴾[3] قيل معناه: بمصدّق لنا، إلاّ أنّ الإيمان هو التصديق الذي معه أمن)[4].

وخلاصة ما سبق أنّ الإيمان في اللغة معناه التصديق الذي معه أمن، وليس مجرّد التصديق.

---

(١) الصحاح: الجوهري (٥/ ٢٠٧١ مادة: أمن).
(٢) لسان العرب: ابن منظور (١٣/ ٢١ مادة: أمن).
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٧.
(٤) المفردات: الأصفهاني (٢٦ مادة: أمن).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فإنّ الإيمان مشتقّ من الأمن، فإنّما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر.. فاللفظ متضمّن مع التصديق معنى الائتمان أو الأمانة، كما يدلّ عليه الاشتقاق والاستعمال، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[1] أي لا تقرّ بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئنّ إليه، ولو كنّا صادقين، لأنّهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم)[2].

تعريف الإيمان شرعاً:

عرّف أهل السنة والجماعة الإيمان بأنّه تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان، وأنّ الأعمال كلّها داخلة في مسمّى الإيمان[3].

وقد نقل الإجماع عنهم على هذا ابن عبد البر رحمه الله حيث قال: (أجمع أهل الفقه والحديث على أنّ الإيمان قول وعمل ولا عمل إلّا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلّها عندهم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

(٢) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٧/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) انظر: كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٥٣، ٥٤، ٧٦) تحقيق الألباني، وصريح السنة لابن جرير (ص ٢٥) تحقيق: بدر بن يوسف المعتوق، والسنة لابن الخلال (٣/ ٥٨١، ٥٨٢) تحقيق: د. عطية الزهراني، والإبانة لابن بطة (٢/ ٨١١ ـ ٨٢٧) تحقيق: رضا بن نعسان، وكتاب الإيمان لابن مندة (١/ ٣٣١) تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ٨٣٠ ـ ٨٨٩)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٦٧ ـ ٧١) تحقيق: بدر البدر، ومسائل الإيمان لأبي يعلى (ص ١٥٢) تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، والاعتقاد للبيهقي (ص ١١٥ ـ ١٢١)، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث نقل فيه إجماع الصحابة والتابعين على أنّ الإيمان قول وعمل (انظر: ص ١٢١، ٢٦٤ ـ ٢٧١) ط/ دار الكتب العلمية، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٣٧٣)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٦١ ـ ٦٣).

إيمان، إلاّ ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه، فإنّهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمّى إيماناً)[1].

وقال الآجري رحمه الله: (إعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإيّاكم ـ أنّ الذي عليه علماء المسلمين أنّ الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، ثمّ اعلموا: أنّه لا تجزىء المعرفة بالقلب والتصديق إلاّ أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزىء معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً)[2].

وقد أثبت الشوكاني رحمه الله تعالى ما أثبته السلف في تعريف الإيمان، وهو قول واعتقاد وعمل، ولا يكون مؤمناً إلاّ أن يجتمع فيه هذه الخصال الثلاث. فقال: (والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل)[3].

وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ﴾[4].

(الإيمان في اللغة التصديق... وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أنّ الإيمان الشرعي يصدق على جميع ما ذكر هنا، ثمّ نقل عن ابن جرير قال: والأولى أن تكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل. وقال ابن كثير: إنّ الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلاّ اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو

(١) التمهيد: ابن عبد البر (٩/ ٢٣٨).
(٢) الشريعة: الآجري (ص ١١٩).
(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٥).
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣.

عبيد[1]، وغير واحدٍ إجماعاً، أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وقد ورد فيه آيات كثيرة)[2].

قلت: ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ، الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ﴾[3].

ووجه الدلالة من هذه الآيات أنّ الله سبحانه وتعالى لم يجعل للإيمان حقيقة إلّا بالعمل على هذه الشروط، فجعل سبحانه هذه الأعمال كلّها إيماناً، والذي يزعم أنّه بالقول فحسَبْ يجعله مؤمناً حقّاً وإن لم يكن هناك عمل، فهو معاند ومخالف لما تدلّ عليه هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيْعَ إِيْمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوْفٌ رَحِيْمٌ﴾[4].

ووجه الدلالة من الآية تسميته سبحانه وتعالى الصلاة إيماناً، لاجتماعها على نية وقول وعمل[5]. كما يدلّ عليه ما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج البخاري في صحيحه أنّ هذه الآية نزلت في الذين ماتوا من الصحابة قبل

---

(١) هو القاسم بن سلام بن عبد الله أبو عبيد، الإمام الحافظ، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، وكان ذا دين وسيرة جميلة ومذهب حسن، له تصانيف كثيرة منها: غريب الحديث، والأمثال، والأموال. توفّي (٢٢٤ هـ) (انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١٢/ ٤٠٣، وطبقات الحنابلة: ابن أبي يعلى ١/ ٢٥٩، وسير أعلام النبلاء: الذهبي ١٠/ ٤٩٠).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٤، ٣٥) وانظر تفسير الطبري (١/ ١٠١)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٣).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢ ـ ٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٥٤).

تحويل القبلة، وهم على الصلاة إلى بيت المقدس، فسئل رسول الله ﷺ عنهم فنزلت هذه الآية(١). ومنها قوله تعالى: ﴿الۤم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوْا أَنْ يَقُوْلُوْا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُوْنَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِيْنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوْذِيَ فِيْ اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾(٢).

ذكر هذه الآية أبو عبيد القاسم بن سلام(٣) دليلاً على أنّ الأعمال من الإيمان، قال: (أفلست تراه تبارك وتعالى قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يكتف منهم بالاقرار دون العمل حتى جعل أحدهما من الآخر، فأيّ شيء يتبع بعد كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ومنهاج السلف بعده، الذين هم موضع القدوة والإمامة)(٤).

وقد دلّ على دخول الأعمال في الإيمان من السنّة أحاديث كثيرة، منها:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس: «آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخُمس»(٥).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة(٦)، فأفضلها قول: لا إله إلاّ الله، وأدناها

---

(١) انظر كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان. (الفتح ١/ ١١٨ برقم ٤٠).
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ١ ــ ١٠.
(٣) تقدّمت ترجمته قبل قليل ص ٦٠١.
(٤) كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٦٦) تحقيق: الألباني.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. (الفتح ١/ ١٥٧ برقم ٥٣) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/ ٤٦ برقم ١٧).
(٦) قال الألباني في تخريج هذا الحديث: «لا شكّ أنّ الأخذ بالأقلّ هو المتيقّن عند=

إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

ومنها أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ سئل: «أي العمل أفضل؟ فقال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثمّ ماذا؟ قال: حجّ مبرور»[2].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تدلّ على أنّ أعمال الجوارح داخلة في مسمّى الإيمان، وأنّه لا ينفع القول والتصديق بدون العمل، وهذا ما قرّره الشوكاني رحمه الله تعالى[3]، وهو القول الحقّ الذي أجمع عليه سلف هذه الأمة عليهم رحمة الله تعالى.

والمؤمن في الحقيقة يكفيه دليل واحد من كتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ، لكي يعتقد ذلك، فكيف وقد تضافرت الأدلّة الصريحة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ على صحّة مذهب السلف رحمهم الله تعالى.

= اضطراب الرواة وعدم إمكان ترجيح وجه من وجوه الاضطراب، وليس الأمر كذلك هنا في نقدي، لأنّ رواية مسلم عن سليمان بلفظ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة) أرجح من رواية البخاري عنه بلفظ: (الإيمان بضع وستون شعبة)، لأنّها من طريقين، كما سبقت الإشارة إليه عن أبي عامر عنه، خلافاً لقول الحافظ ابن حجر». (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٣٧١ برقم ١٧٦٩).

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان. (١/ ٦٣ برقم ٣٥)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب الحياء (فضل الله الصمد ٢/ ٥٤ برقم ٥٩٨) وفي صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان. (الفتح ١/ ٦٧ برقم ٩) بلفظ: (الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب من قال إنّ الإيمان هو العمل. (الفتح ١/ ٩٧ برقم ٢٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، (١/ ٨٨ برقم ٨٣).

(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٤) وأيضاً (١/ ٢٩٧).

المبحث الثاني

بيان أهميّة الإيمان

يجب على كلّ مؤمن أن يعرف أركان الإيمان، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه، لأنّ الإيمان بهذه المغيّبات أساس هذا الدين، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل إيمان أحد جحدها، أو جحد واحداً منها، حتى يقرّ ويؤمن بها جميعاً.

فالإيمان بالله له أهميّة قصوى، لأنّ سعادة الإنسان في الدارين مبنيّة على قوّة إيمانه بالله تعالى وقربه منه، فمن أطاع الله تبارك وتعالى، وآمن به إيماناً حقّاً، واجتنب ما نهى عنه، فقد فاز فوزاً عظيماً، كما أنّ نجاة الإنسان من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن عقابه الذي توعّد به الكافرين هو الإيمان به عزّ وجلّ.

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تحثّ على الإيمان بالله تعالى وتبيّن أهمّيته، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في معنى الآية: (إنّ كلّ إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحقّ حتى يموت، (إلّا الّذِيْن آمنوا وعملوا الصالحات) أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح، فإنّهم في ربح لا في خسر، لأنّهم عملوا للآخرة، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها، (وتواصوا بالحقّ) أي وصّى بعضهم بعضاً بالحقّ الذي يحقّ القيام به، وهو الإيمان بالله والتوحيد، والقيام

---

(١) سورة العصر.

بما شرعه الله، واجتناب ما نهى عنه، (وتواصوا بالصبر) أي بالصبر عن معاصي الله سبحانه، والصبر على فرائضه)[1].

وقد بيّن الله سبحانه أنّ الإيمان سبب لحصول رغد العيش وطيبه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوْا وَاتَّقُوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[3].

وسبب للأمن في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ﴾[4].

وسبب للتثبيت عن عند سؤال القبر والنجاة من عذابه، كما في قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ﴾[5].

وسبب لرضوان الله تعالى، ولدخول جنّته، وللنجاة من النار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[6]، وقوله سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ، تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، وَتُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾[7].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٤٩١، ٤٩٢).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٦) سورة البينة، الآية: ٧، ٨.
(٧) سورة الصف، الآية: ١٠، ١١.

كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ الإيمان سبب لهدايته إلى الجنّة في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيْهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيْمَانِهِمْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِيْ جَنَّاتِ النَّعِيْمِ﴾[1].

قال الشوكاني في معنى الآية: (إنّ الذين آمنوا) أي فعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم، (وعملوا الصالحات) التي يقتضيها الإيمان، وهي ما شرعه الله لعباده المؤمنين، (يهديهم ربّهم بإيمانهم) أي يرزقهم الهداية بسبب هذا الإيمان المضموم إليه العمل الصالح، فيصلون بذلك إلى الجنّة)[2].

فالإيمان له أهمية بالغة، وتظهر أهميته بمعرفة فوائده وثماره، وقد بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى هذه الأهمية في عدّة مناسبات في مؤلفاته، فقال مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَالَّذِيْنَ هَادُوْا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِيْنَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية[3]، (وكأنّه سبحانه وتعالى أراد أن يبيّن أنّ هذه الملّة الإسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء واحد، وهو أنّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحقّ ما ذكره الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كلّه، والأجر دقّه وجلّه)[4].

كما بيّن رحمه الله فوائد هذا الإيمان وثماره، فقال في فوائد الإيمان بالقدر.

(ومن فوائد رسوخ الإيمان بهذه الخصلة أنّه يعلم أنّه ما وصل إليه من الخير على أي صفة كان، وبيد من اتفق، فهو منه عزّ وجلّ، فيحصل له بذلك من الحبور والسرور ما لا يقادر قدره، لما له سبحانه من العظمة التي

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٢٧).
(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٩٣).

تضيق أذهان العباد عن تصوّرها، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها[1]. وإنّ من لازم ذلك أن يضيف إلى قدر الله كلّ ما يناله من خير وشرّ غير متعرّض للأسباب التي يتعلّق بها كثير من الناس، وإذا مكّنه الله من الإيمان بهذه الخصلة كما ينبغي، وعلم أنّها من عند الله سبحانه بقدره السابق لكلّ عبد من عباده، هانت عليه المصائب، لعلمه بأنّ ذلك من عند الله سبحانه، وما كان من عند الله سبحانه فالرضى به والتسليم له شأن كلّ عاقل، لأنّه خالقه وموجده من العدم، فهو حقّه وملكه، يتصرّف به كيف يشاء كما يتصرّف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم)[2].

وذكر رحمه الله مبيّناً أهمية مسائل الإيمان والإسلام: أنّها عظيمة جداً، لأنّ الله سبحانه علّق بها السعادة والشقاوة، والجنّة والنار[3].

المبحث الثالث

زيادة الإيمان ونقصانه

إنّ الإيمان الذي دلّت عليه الأدلّة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ إيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والعبادات، من ذكر الله والتفكّر في الكون وما فيه من عجائب المخلوقات، وأداء النوافل، والمسارعة إلى كلّ عمل يقرّب من الله تعالى، وينقص بفعل المعاصي، وإتيان المنكرات والفواحش، وكلّ عمل يبعد العبد عن الله عزّ وجلّ.

والقول بزيادة الإيمان ونقصانه قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وقد أجمعوا عليه[4]، وهو القول الحقّ الذي

---

(١) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤١٤).
(٢) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤١٣).
(٣) فتح القدير: الشوكاني ٣/ ١٢٨).
(٤) انظر: كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٧٢)، والسنة لابن الخلال (٣/ ٥٨١، ٥٨٢)، =

دلّت عليه النصوص الواردة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، ولا عبرة بمن خالف ذلك من أهل البدع والأهواء[1].

فمن أدلّة الكتاب قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُوْرَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيْمَاناً، فَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوْا وَهُمْ كَافِرُوْنَ﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ فِيْ قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ لِيَزْدَادُوْا إِيْمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾[5].

= والإبانة لابن بطة (٢/ ٨٢٩ وما بعدها)، والشريعة للآجري (ص ١١١ ـ ١١٨)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٦/ ٨٨٥ ـ ٩٥٧)، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٦٧ ـ ٧١) ومسائل الإيمان لأبي يعلى (ص ٤٠٤ ـ ٤٠٧)، والاعتقاد للبيهقي (ص ١١٥)، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (١/ ٤٠٥، ٤٠٦) تحقيق: د. محمد بن ربيع المدخلي. ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٢٢٣).

(١) وهم الخوارج والمعتزلة والمرجئة وأتباعهم، وقد ذكر عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أصلا، وهو أنّ الإيمان عندهم كلّ لا يتجزّأ، فإذ ذهب بعضه ذهب كلّه، وذكر أنّ هذا الأصل عند المبتدعة في الإيمان، كالخوارج والمعتزلة، والمرجئة، فعلى قول المعتزلة يكون الإيمان هو مجموع ما أمر الله به، فإذا ذهب منه شيء ولم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار. (انظر مجموع فتاوى ٧/ ٢٢٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٤، ١٢٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٤.

وغير ذلك من الآيات الدالّة على زيادة الإيمان، والآيات في معناها كثيرة جداً.

وأما الأدلّة من السنة فمنها: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمّة قبلي إلاّ كان لـه من أمّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنّها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل»[١].

وحديث أنس بن مالـك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[٢] والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة.

ومنها حديت شعب الإيمان المتقدّم ذكره[٣]، وحديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير»[٤].

فهذه بعض أدلّة السلف من القرآن الكريم والسنة المطهّرة تدلّ على أنّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأنّ الإيمان يزيد وينقص. (١/ ٧٠ برقم ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمـان، باب حب الـرسول ﷺ من الإيمـان. (الفتح ١/ ٧٥ برقم ١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين. (١/ ٦٧ برقم ٤٥).

(٣) انظر صفحة (٦٠٢).

(٤) أخرجه البخاري في عدّة مواضع، انظر كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. (الفتح ١/ ١٢٧ برقم ٤٤) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهـل الجنة منزلة فيها. (١/ ١٨٢ برقم ١٩٣).

الإيمان يزيد وينقص، وإن كان بعضها فيه لفظ الزيادة فقط، فإنّها تدلّ بطريقة الالتزام على النقص، لأنّ الشيء الذي يقبل الزيادة يقبل النقص، وإلاّ فلا معنى للزيادة، إذ لا يمكن أن يتصوّر شيء قابل للزيادة غير قابل للنقصان.

روى الآجري بسنده أنّه قيل لسفيان بن عَيينة: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: أليس تقرأون القرآن ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً﴾[1] في غير موضع. قيل: وينقص؟ قال: ليس شيء يزيد إلاّ وهو ينقص[2].

وروى ابن أبي عمر العدني[3] بسنده عن سفيان قال: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة[4]، يا أبا محمد، لا تقل ينقص. فغضب وقال: اسكت يا صبي، بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (ص ١١٧).

(٣) محمد بن يحيى بن أبي عمر أبو عبد الله العدني الدراوردي، ويقال له: ابن أبي عمر، عالم بالحديث، وحدث عن فضيل بن عياض وطبقته، وسمع، منه مسلم بن الحجاج والترمذي، قال الحافظ في التقريب (ص ٥١٣ برقم ٦٣٩١): صدوق صنف المسند، وكان لازم ابن عيينة. له كتاب الإيمان والمسند في الحديث توفّي (٢٤٣ هـ) (انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: الذهبي ٢/ ٧٦، وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٢/ ١٠٤).

(٤) إبراهيم بن عيينة أبو إسحاق أخو سفيان بن عيينة، كان إماماً خيّراً، قال يحيى بن معين: كان مسلماً صدوقاً، ولم يكن من أصحاب الحديث. توفّي (١٩٩ هـ) (انظر: الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم ٢/ ١١٨، وميزان الاعتدال: الذهبي ١/ ٥١، والتقريب: ابن حجر ٩٢ برقم ٢٢٧).

(٥) أخرجه العدني في كتاب الإيمان (ص ٩٤ برقم ٢٨) تحقيق: حمد بن حمدي الحربي، قال المحقق: إسناده حسن، وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ١١٧)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٥٥ برقم ١١٥٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة (٥/ ٩٦٠ برقم ١٧٤٥).

وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان في الإيمان عن عدد كبير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

فعن ابن عبّاس وأبي هريرة وأبي الدرداء رضي الله عنهم، كلّهم قالوا: الإيمان يزيد وينقص[1].

وعن عمير بن حبيب رضي الله عنه وهو من الصحابة[2] قال: الإيمان يزيد وينقص. قيل له: ما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كان يأخذ بيد الرجل والرجلين في الحلق فيقول: (تعالوا نزدَدْ إيماناً)[4].

كما ثبت هذا المعنى عن جمع غفير من التابعين من بعدهم من الأئمة، كالأوزاعي، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، ومالك، والإمام

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٣١٤ برقم ٦٢٢، ٦٢٣)، والآجري في الشريعة (ص ١١١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٤، ٨٤٥ برقم ١٢٢٦ ـ ١١٣٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٤، ٩٤٥ برقم ١٧٠٩، ١٧١١)، والقاضي أبو يعلى في مسائل الإيمان (ص ٤٠٤).

(٢) هو جدّ أبي جعفر الخطمي، وهو صحابي أيضاً (انظر التقريب لابن حجر ص ٤٣١ برقم ٥١٨٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص ٧)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٣١٥ برقم ٦٢٤)، وابن جرير في صريح السنة (ص ٢٥ برقم ٢٨)، والآجري في الشريعة (ص ١١١، ١١٢) وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٥ برقم ١١٣١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤٩ برقم ١٧٢١)، والصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٦٧ برقم ١٠٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص ٣٦)، والآجري في الشريعة (ص ١١٢)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٧ برقم ١١٣٤)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٤١ برقم ١٧٠٠)، وأبو يعلى في مسائل الإيمان (ص ٤٠٤).

أحمد، والشافعي، والبخاري، وإسحاق بن راهويه[1]، وأبي عبيد، وغيرهم[2]. كلّهم مجمعون على القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

وقد نهج الشوكاني رحمه الله منهج هؤلاء السلف في هذه المسألة، وبيّن أنّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بعمل الطاعات، وخصال الخير، وينقص بترك الطاعات وفعل المعاصي.

ومما يستدلّ به على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً﴾[3].

قال: (والمراد من حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار كمال الإيمان، لا باعتبار أصول الإيمان. ثمّ أورد رحمه الله قول أهل السنّة والمخالفين لهم في مسألة زيادة الإيمان. قال: قيل: والمراد بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب وانثلاج الخاطر عند تلاوة القرآن، وقيل: المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل، لأنّ الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه)[4].

وقال في قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ

---

(١) إسحاق بن راهويه بن مخلد التميمي المعروف بابن راهويه، سيد الحفّاظ، وشيخ المشرق في زمانه، قال الإمام أحمد عنه: لا أعرف لإسحاق في الدنيا نظيراً، وقال النسائي فيه: أحد الأئمة، ثقة، مأمون توفي (٢٣٨ هـ) (سير أعلام النبلاء: الذهبي ١١/ ٢٥٨، والبداية والنهاية: ابن كثير ١٠/ ٢٣١).

(٢) انظر: السنة لابن الخلال(٥٨١، ٥٨٢)، والشريعة للآجري (ص ١١٦، ١١٧)، والإبانة لابن بطة (٢/ ٨٥٠ ـ ٨٥٢)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٨٩٣ ـ ٨٩٤)، والاعتقاد للبيهقي (ص ١٢٠، ١٢١).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٨٥).

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً﴾[1]: (أي ازدادوا طمأنينة ويقيناً، وفيه دليل على أنّ الإيمان يزيد وينقص)[2] كما قال هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدَى﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوْا إِيْمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾[4].

ومما يستدلّ به من الأحاديث قوله ﷺ: «جدّدوا إيمانكم. قيل: كيف نجدّد إيماننا يا رسول الله؟ قال: أكثروا من قول: لا إله إلاّ الله»[5].

قال الشوكاني: (وفي الحديث دليل على أنّ هذه الكلمة الشريفة كما كانت محصلة للإسلام ابتداء تكون مجدّدة له إذا قال القائل من المسلمين والمؤمنين بها، فمن قال: لا إله إلاّ الله. فقد تجدّد إيمانه الحاصل من قبل، ومعلوم أنّ ذلك يقتضي قوّة الإيمان وزيادة على ما كان عليه قبل أن يقول هذه الكلمة)[6].

المبحث الرابع

العلاقة بين مسمّى الإيمان والإسلام

إنّ المتتبّع لآيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ يجد أنّ اسم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٤٠٠).

(٣) سورة محمد، الآية: ١٧ وانظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٥).

(٤) سورة الفتح، الآية: ٤ وانظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٤٥).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٥٩) من طريق صدقة بن موسى السلمي الدقيقي عن أبي هريرة. قال الحاكم: صحيح الإسناد. وردّه الذهبي بقوله: قلت: صدقة ضعّفوه، قال المنذري في الترغيب (٢/ ٤١٥): رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن. قلت: كذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٨٢، وأيضاً ١/ ٥٢) والحديث ضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٣٠٠ برقم ٨٩٦).

(٦) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٢٩٠. ٢٩١).

الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام، وتارة يذكر مقروناً بـه، وكذلك اسم الإسلام تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإيمان، وتارة يذكر مقروناً به، وبالتالي فإنّهما أحياناً يكونان بمعنى واحد فهما مترادفان، وأحياناً يراد من أحدهما معنى يغاير لمعنى الآخر فهما متغايران.

ويمكن حصر ذلك في الأقسام التالية:

١ ــ وردت آيات في القرآن الكريم وأحاديث في سنّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تدلّ على أنّ الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ﴾(١) ففرّقت الآية الكريمة بين الإسلام والإيمـان حيث أثبتت لهم الإسلام ونفت عنهم الإيمـان، فدلّ ذلـك على تغايرهما، وأنّ المراد بالإيمان الأعمـال الباطنـة من تصديق القلب وإقـراره ومعرفته، وبالإسلام الأعمال الظاهرة من استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له، فليس كلّ مسلم مؤمنـاً، لأنّه قـد يكون الإيمـان ضعيفاً كـإيمان هؤلاء الأعراب، فكلّما كثرت الذنوب والمعاصي والاعراض عن الله كلّما ضعف الإيمان في القلب، ولا يزال كذلك حتى لا يبقى فيه مثقال ذرّة، ولذلك فلا يتحقّق القلب به تحقّقاً تامّاً مع عمل جوارحه أعمال الابسلام، فيكون مسلماً وليس بمؤمن الإيمان التام.

ومن الأحاديث حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريـل، وفيـه قـال جبريـل للنبي ﷺ: «أخبـرني عن الإسـلام. فقـال رسول الله ﷺ: الاسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله،

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك...»[1] ففي هذا الحديث فرّق الرسول ﷺ بين الإسلام والإيمان، حيث خصّ الإيمان بالأعمال القلبية الاعتقادية، والإسلام بالأعمال الظاهرة.

ومنها حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان؟ فوالله إنّي لأراه مؤمناً. فقال: أو مسلماً. فسكت قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان؟ فوالله أنّي لأراه مؤمناً. فقال: أو مسلماً. ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي. وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: يا سعد، إنّي لأعطي الرجل وغيره أحبّ إليّ منه، خشية أن يكبّه الله في النار[2].

فهذه الأدلّة تدلّ على أنّ الإسلام والإيمان متغايران.

٢ ــ وردت آيات وأحاديث تفيد أنّ الأعمال الظاهرة داخلة في معنى الإيمان، وأنّ الأعمال الباطنة داخلة في معنى الإسلام.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ، ثُمَّ

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة (الفتح ١/ ١٠٠ برقم ٢٧) واللفظ له، في كتاب الإيمان، باب تألف من يخاف على إيمانه لضعفه (١/ ١٣٢ برقم ١٥٠). ومعنى (خشية أن يكبّه الله في النار) أي اتألف قلبه الاعطاء مخافة من كفره إذا لم يعط (شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ١٨٠).

لَمْ يَرْتَابُوْا وَجَاهَدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُوْنَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[2]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾[3]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْنَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[4]، ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْناً﴾[5] فيدخل في الإسلام معنى الإيمان، كما يدخل في الإيمان معنى الإسلام، لأنّ الإيمان الذي دعا الله عباده إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله الله ديناً وارتضاه لعباده ودعاهم إليه، وهو ضدّ الكفر الذي سخطه ولم يرضه لعباده.

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[6].

ومنها حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أن يسلم قلبك لله عزّ وجلّ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك، قال: فأيّ الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان قال: وما الإيمان؟ قال: تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، قال: فأيّ الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء. قال: فأيّ الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد[7]. ففي هذا الحديث

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٦) تقدّم تخريجه في صفحة (٦٠٢).

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١١٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه، ورجاله ثقات.

جعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام، وأدخل فيه الأعمال.

٣ ـ وردت آيات وأحاديث تفيد أنّ الإسلام والإيمان مترادفان.

منها قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ فَمَا وَجَدْنَا فِيْهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ﴾(١).

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا ربّ، أنا الصلاة. فيقول: إنّك على خير. فتجيء الصدقة فتقول: يا ربّ، أنا الصدقة. فيقول: إنّك على خير. ثم يجيء الصيام فيقول: أي ربّ، أنا الصيام. فيقول: إنّك على خير. ثم تجيء الأعمال على ذلك، فيقول الله عزّ وجلّ: إنّك على خير. ثم يجيء الإسلام، فيقول: يا ربّ أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله عزّ وجلّ، إنّك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أعطي، فقال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِيْ الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾(٢)»(٣).

وقد تحدّث علماء السلف رحمهم الله تعالى عن هذه المسألة، واختلفوا فيها، وصنّفوا فيها تصانيف متعدّدة، فمنهم من ذهب إلى أنّ الإسلام والإيمان شيء واحد، أي هما مترادفان، يراد بأحدهما ما يراد بالآخر(٤).

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٦٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٥): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن راشد، وثّقه أبو حاتم وغيره، وضعّفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وصحّحه أحمد شاكر في تخريجه للحديث (انظر المسند بتحقيقه ١٦/ ٣٠٢ برقم ٨٧٢٧).

(٤) وهو قول البخاري (ت ٢٥٦ هـ) في صحيحه (انظر الفتح ١/ ٦٠، ١٤٠)، ومحمد بن نصر المروزي (ت ٢٩٤ هـ) في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٢ و٢/ ٥٠٦ ـ ٥٣١) تحقيق: د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي. وابن منده (ت ٣٩٥ هـ) في كتاب الإيمان (١/ ٣٢١، ٣٢٢)، وابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) في =

ومنهم من فرّق بينهما وأنّ الإسلام غير الإيمان[1]. واستدلّوا بالآيات والأحاديث التي أوردتها في القسم الأوّل.

وقد ذهب إلى التفريق بينهما الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى إذ قال: (والإسلام: الانقياد والاستسلام لأمر الله سبحانه، فكلّ مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوْا وَلٰكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا﴾[2] وقد أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان في الحديث في الصحيحين وغيرهما الثابت من طرق أنّه سئل عن الإسلام، فقال: أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحجّ البيت، وتصوم رمضان. وسئل عن الإيمان، فقال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه[3]. فالمرجع في الفرق بينهما هو هذا الذي قاله الصادق المصدوق، ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كلّ واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة مختلّة متناقضة، وأمّا ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ)[4].

= المحلى (١/ ٣٨)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) في التمهيد (٩/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(١) وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين منهم: عبد الله بن عباس، والحسن، ومحمد بن سيرين. (انظر كتاب الإيمان لابن منده ١/ ٣٢٢) قال الحافظ ابن رجب: وقد نقل التفريق بينهما عن كثير من السلف، منهم: قتادة (ت ١١٧ هـ)، وداود بن أبي الهند (ت ١٤٠ هـ)، وأبو جعفر الباقر (ت ١١٤ هـ)، والزهري (ت ١٢٤ هـ)، وحماد بن زيد (ت ١٩٧ هـ)، وابن مهدي (ت ١٩٨ هـ)، وشريك (ت ١٧٧ هـ)، وابن أبي ذئب (ت ١٥٨ هـ)، وأحمد بن (حنبل (ت ٢٤١ هـ)، وأبو خيثمة (ت ٢٣٤ هـ)، ويحيى بْنُ معين (٢٠٣ هـ) وغيرهم، على اختلاف بينهم في صفة التفريق بينهما، وكان الحسن (ت ١١٠ هـ)، وابن سيرين (ت ١١٠ هـ) يقولان مسلم، ويهابان مؤمن. (جامع العلوم والحكم ١/ ٢٦).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (١٩٠).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٨٩) وانظر أيضاً: السيل الجرار (٤/ ٥٨٤، ٥٨٥) ونيل =

وأرجح الأقوال في هذه المسألة هو ما ذهب إليه أكثر أهل العلم[1] من أنّ الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما شمل الدين كلّه أصوله وفروعه من اعتقاداته وأفعاله الظاهرة والباطنة، وإذا قرن بينهما وذكرا معاً فعند ذلك يفترقان في المعنى، فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة: وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

وهذا القول هو الذي تجتمع عليه النصوص الواردة في هذه المسألة، وبه يزول الاختلاف.

فيقال: إذا اجتمعا افترقا، كما في حديث جبريل، حيث فرّق بينهما، فخصّ الإيمان بالأعمال الباطنة، والإسلام بالأعمال الظاهرة. وإذا افترقا اجتمعا وتلازما، كما في حديث وفد عبد القيس[2]، حيث فسّر الإيمان بما فسّر به الإسلام في حديث جبريل، وكما في حديث عمرو بن عبسة[3]، حيث فسّر الإسلام بما فسّر به الإيمان. ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَام﴾[4] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيْناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[5] ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْناً﴾[6].

وعلى هذا فقول الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير الآية الأولى

= الأوطار (٩/ ٦١، ٦٢).

(١) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية (ص ١٥. ١٤٨، ٢٢٢)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٦ وما بعدها) والفتح لابن حجر (١/ ١٤١).

(٢) تقدّم ذكره في صفحة (٦٠٢).

(٣) انظر صفحة (٦١٢).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٣.

حكاية عن الجمهور: إنّ الإسلام هنا بمعنى الإيمان، وإن كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل، لأنّه قد يسمّى كلّ واحد منهما باسم الآخر كما ورد ذلك في الكتاب والسنّة[1]، قول فيه نظر، لأنّ غاية ما قاله الجمهور أهل السنة أنّ الإيمان والإسلام متلازمان، لا أنّ مسمّى أحدهما هو مسمّى الآخر، فإنّ هذا لا يعرف عن أحد من السلف، ولم ينقل عن أحد من أئمّة الإسلام المشهورين[2]. فالإسلام المذكور في الآية يدخل فيه معنى الإيمان على سبيل التلازم والارتباط، لا أنّه بمعنى الإيمان كما قال الشوكاني.

وما أحسن ما شبّه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الإيمان والإسلام بالروح والبدن إذ قال: (فلا يوجد عندنا روح إلّا مع البدن، ولا يوجد بدن حيّ إلّا مع الروح، وليس أحدهما الآخر، فالإيمان كالروح، فإنّه قائم بالروح ومتّصل بالبدن، والإسلام كالبدن، ولا يكون البدن حيّاً إلّا مع الروح، بمعنى أنّهما متلازمان، لا أنّ مسمّى أحدهما هو مسمّى الآخر)[3].

المبحث الخامس

حكم مرتكب الكبيرة

معنى الكبيرة:

الكبيرة لغة من الكِبْر، قال ابن منظور[4] رحمه الله: (الكِبْـر: الإثم الكبير، وما وعد الله عليه النار، والكِبْرة كالكبر: التأنيث للمبالغة، وفي

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٢٦).
(٢) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٧/ ٣٦٤).
(٣) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٧/ ٣٦٧).
(٤) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري الأفريقي المعروف بابن منظور، أديب لغوي، شارك في علوم كثيرة، له مصنّفات منها: لسان العرب، ومختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. توفّي (٧١١ هـ) (انظر شذارت الذهب: ابن العماد الحنبلي ٦/ ٢٦، والأعلام: الزركلي ٧/ ١٠٨).

التنزيل العزيز: ﴿وَالَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ...﴾[1] وفي الأحاديث ذكر الكبائر في غير موضع، واحدتها كبيرة: وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً لتعظيم أمرها)[2].

واختلف العلماء في معنى الكبيرة شرعاً على أقوال كثيرة[3] أورد منها الشوكاني رحمه الله تعالى ستّة أقوال، أوجزها فيما يلي:

١ ـ إنّ الذنوب كلّها كبائر، وإنّما يقال لبعضها صغيرة بالاضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: الزنا صغيرة بالإضافة إلى الكفر، والقبلة المحرّمة صغيرة بالإضافة إلى الزنا. وهو قول الاسفرايني[4] والجويني[5]، والقشيري[6]، وغيرهم.

٢ ـ المراد بالكبائر التي يكون اجتنابها سبباً لتكفير السيئات هي الشرك، واستدلّوا على ذلك بقراءة من قرأ: (إن تجتنبوا كبير ما تنتهون عنه)، وعلى قراءة الجمع فالمراد أجناس الكفر.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

(٢) لسان العرب: ابن منظور (٦/ ٤٤٣ مادة: كبر).

(٣) انظر الأقوال في تعريف الكبيرة في: مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٦٥٧) ومدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٧)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٤١٧ ـ ٤١٨)، وشرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥ ـ ٨٧)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤١٠ ـ ٤١٢)، والزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي (١/ ٥ ـ ١٠).

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق الاسفرايني الشافعي، الفقيه، المتكلم، الأصولي، ترجم له ابن عساكر في عداد رجال الطبقة الثانية من الأشاعرة. من مؤلفاته: الحلى في أصول الدين والرد على الملحدين، ومسائل الدور، وتعليقه في أصول الفقه. توفّي (٤١٨ هـ) (انظر تبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢٤٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٣/ ١١١).

(٥) تقدّمت ترجمته في صفحة ٦٥.

(٦) تقدّمت ترجمته في صفحة (٣٨٨).

٣ ــ الكبيرة: كلّ ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

٤ ــ الكبائر: ما نهى الله عنه في هذه السورة (يعني سورة النساء) إلى ثلاث وثلاثين آية. قاله ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ ــ كلّ ذنب نسبه الله إلى النار فهو كبيرة. قاله سعيد بن جبير.

٦ ــ الكبائر: كلّ ذنب رتّب الله عليه الحد، أو صرّح بالوعيد فيه. قاله جماعة من أهل الأصول. وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره(١).

والقول المختار لدى الشوكاني هو: (كلّ ذنب توعّد الله عليه بالنار، أو ذمّ فاعله ذمّاً شديداً)(٢).

ورجّح في موضع آخر، قال نقلاً عن القرطبي(٣) في المفهم: الراجح أنّ كلّ ذنب نصّ على كبره أو عظمه، أو توعّد عليه بالعقاب، أو علّق عليه حدّ، أو اشتدّ النكير عليه فهو كبيرة. وهذا الكلام في غير ما قد ورد النصّ الصريح فيه أنّه كبيرة من الكبائر أو أكبر الكبائر(٤).

قلت: وهذا ضابط جيّد في تعريف الكبيرة استقاه من أقوال السلف كقول ابن عبّاس رضي الله عنهما الذي هو أحسن الأقوال في تعريف الكبيرة،

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٤٥٧، ٤٥٨) وانظر أيضاً إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول: الشوكاني (ص ٥٢، ٥٣).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١١٢).

(٣) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي، فقيه مالكي، من رجال الحديث يعرف بابن المزين، من كتبه: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. توفّي (٦٥٦ هـ) ــ (انظر: البداية والنهاية: ابن كثير ١٣/ ٢٠٢، وشذرات الذهب: ابن العماد ٥/ ٢٧٣).

(٤) انظر نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ٢٤٣).

وقد اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[1]، والحافظ ابن حجر[2] رحمهما الله تعالى.

وكما اختلفوا في تحقيق معنى الكبيرة وماهيتها اختلفوا في عددها، فقيل: هي سبع، وقيل: هي تسع، وقيل: عشر، وقيل: اثنتا عشرة، وقيل: أربع عشرة، وقيل: ستّ وثلاثون، وقيل: سبعون، وإلى السبعين أنهاها الحافظ الذهبي في جزء صنّفه في ذلك[3]. وقد جمع ابن حجر الهيثمي[4] فيها مصنّفاً حافلاً سمّاه: الزواجر في الكبائر، وذكر فيه نحو أربعمائة معصية، وبالجملة فلا دليل يدلّ على انحصارها في عدد معيّن[5].

تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة:

دلّت نصوص الكتاب والسنّة على أنّ الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وهو ما أجمع عليه جمهور السلف رحمهم الله تعالى.

قال الشوكاني رحمه الله: (وقد اختلف الناس هل المعاصي منقسمة إلى صغائر وكبائر أم هي قسم واحد، فذهب الجمهور إلى أنّها منقسمة إلى صغائر وكبائر، ويدلّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوْا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[6]، وقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوْقَ

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (١١/ ٦٥٤، ٦٥٥).
(٢) انظر فتح الباري (١٢/ ١٨٤).
(٣) وهو كتابه: الكبائر.
(٤) هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، شيخ الإسلام، أبو العبّاس، فقيه مصري شافعي، له تصانيف كثيرة منها: تحفة المحتاج لشرح المنهاج، والصواعق المحرّقة على أهل البدع والضلال والزندقة، توفيّ (٩٧٤هـ) (انظر البدر الطالع: الشوكاني ١/ ١٠٩، والأعلام: الزركلي ١/ ٢٣٤).
(٥) انظر إرشاد الفحول: الشوكاني (ص ٥٢، ٥٣)، وأيضاً فتح القدير: الشوكاني (١/ ٤٥٨).
(٦) سورة النساء، الآية: ٣١.

وَالْعِصْيَانَ﴾[1]، ويدلّ عليه ما ثبت عن النبي ﷺ متواتراً من تخصيص بعض الذنوب باسم الكبائر، وبعضها بأكبر الكبائر، وذهب جماعة إلى أنّ المعاصي قسم واحد، ومنهم الأستاذ أبو إسحاق[2]، والجويني، وابن فورك[3] ومن تابعهم، قالوا: إنّ المعاصي كلّها كبائر، وإنّما يقال لبعضها صغيرة بالنسبة إلى ما هو أكبر، كما يقال: الزنا صغيرة بالنسبة إلى الكفر، والقبلة المحرّمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، وكلّها كبائر، قالوا: ومعنى قوله: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) إن تجتنبوا الكفر كفّرت عنكم سيئاتكم التي هي دون الكفر. والقول الأوّل أرجح)[4]. قلت: وهو قول السلف الذي دلّت عليه النصوص.

واستدلّ الشوكاني رحمه الله بأحاديث كثيرة على هذا القول منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا سبع الموبقات، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[5].

قال الشوكاني: (وفي الحديث دليل على أنّ هذه السبع المذكورة من كبار الذنوب)[6].

ومنها حديث أنس رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.
(٢) هو أبو إسحاق الاسفرايني الذي تقدمت ترجمته في ص ٦٢١.
(٣) تقدمت ترجمته في ص ٣٩٨.
(٤) إرشاد الفحول التي تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني (ص ٥٢) وانظر أيضاً نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ٢٤٣).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ (الفتح ٥/ ٤٦٢ برقم ٤٧٦٦) وأخرجه أيضاً برقم (٥٧٦٤، ٦٨٥٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩٢ برقم ٨٩).
(٦) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ١١٨، ١١٩).

سئل عن الكبائر، فقال: الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال: شهادة الزور[1].

وقد ذكر الثلاث المذكورة في الحديث في الآيتين:

الأولى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوْا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[2].

الثانية: ﴿فَاجْتَنِبُوْا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوْا قَوْلَ الزُّوْرِ﴾[3].

ومنها حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر، قلنا: بلى يا رسول الله، قال ثلاثاً: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متّكئاً فجلس، وقال: ألا وقول الزور. فما زال يكرّرها حتى قلنا ليته سكت»[4].

قال الشوكاني: (وفي الحديث (أي حديث أنس وحديث أبي بكرة) انقسام الذنوب إلى كبير وأكبر. ويؤخذ من الحديث ثبوت الصغائر، لأنّ الكبائر بالنسبة إليها أكبر منها. والاختلاف في ثبوت الصغائر مشهور، وأكثر ما تمسّك به من قال ليس في الذنوب صغيرة كونه نظراً إلى عظم المخالفة لأمر الله ونهيه، فالمخالفة بالنسبة إلى جلال الله كبيرة، لكن لمن أثبت الصغائر أن يقول: وهي بالنسبة إلى ما فوقها صغيرة، كما دلّ عليه حديث الباب، وقد فهم الفرق بين الصغيرة والكبيرة من مدارك الشرع، ويدلّ على ثبوت الصغائر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (الفتح ١٠/ ٤١٩ برقم ٥٩٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩١، ٩٢ برقم ٨٨).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر (الفتح ١٠/ ٤١٩ برقم ٥٩٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩١ برقم ٨٧).

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم﴾[1] فلا ريب أنّ السيّئات المكفَّرة ههنا هي غير الكبائر المجتنبة، لأنّه لا يكفّر إلاّ ذنب قد فعله المذنب، لا ما كان مجتنباً من الذنوب، فإنّه لا معنى لتكفيره، والكبائر المرادة في الآية مجتنبة، فالسيّئات المكفّرة غيرها، وليست إلاّ الصغائر، لأنّها المقابلة لها. وكذلك يؤيّد ثبوت الصغائر حديث تكفير الذنوب الوارد في الصلاة والوضوء مقيّداً باجتناب الكبائر[2]. فثبت أنّ من الذنوب ما يكفّر بالطاعات، ومنها ما لا يكفّر، وذلك عين المدعى، ولهذا قال الغزالي[3]: إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه. ثم إنّ مراتب الصغائر والكبائر تختلف بحسب تفاوت مفاسدها)[4].

قلت: إنّ ما ذهب إليه الشوكاني هنا في إثبات الصغيرة والكبيرة هو القول الحقّ الذي عليه جمهور أهل السنّة.

حكم مرتكب الكبيرة:

أمّا حكم مرتكب الكبيرة فإنّ عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك أنّ من ارتكب كبيرة دون الشرك ولم يستحلّها فإنّه لا يكفر، بل يسمّى مؤمناً ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وإذا مات مصرّاً عليها ولم يتب منها، فإنّ أمره إلى الله تعالى، إن شاء غفر له ذنبه، وأدخله الجنّة ابتداء

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ، ما اجتنبت الكبائر» أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوت الخمس (١/ ٢٠٩ برقم ٢٣٣)، وقوله ﷺ: «ما من امرىء تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلاّ كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة. وذلك الدهر كلّه» أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (١/ ٢٠٦ برقم ٢٢٨).

(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (٥٧).

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

تفضّلاً منه سبحانه، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه عدلاً منه سبحانه، ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة، لأنه لا يخلد في النار إلاّ المشرك. وقال بعضهم: يوازن بين حسناته وسيئاته فمن رجّحت حسناته على سيئاته نجا ودخل الجنة، ومن رجّحت سيئاته على حسناته عذب بقدر سيئاته[1].

قال أبو عثمان الصابوني[2] رحمه الله تعالى مقرّراً عقيدة السلف في هذه المسألة: (ويعتقد أهل السنة أنّ المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة، صغائر كانت أو كبائر، فإنّه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص، فإنّ أمره إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذّبه مدّة بعذاب النار، وإذا عذّبه لم يخلد فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار)[3].

وقد خالفت في ذلك فرق المعتزلة، والخوارج، والمرجئة الخالصة التي تقول: لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع من الكفر طاعة، ومن نحا نحوهم، وخالفوا نصوص الكتاب والسنّة، حيث أنّ الخوارج كفّروا مرتكب الكبيرة، وأخرجوه من الإيمان، وحكموا عليه بالخلود في نار جهنم، وقد وافقهم المعتزلة على الخلود في نار جهنم في الآخرة، أمّا في الدنيا فقالوا: إنّه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وإنّما هو في منزلة بين المنزلتين، أمّا المرجئة فقد فتحوا باب شرّ عظيم، وهوّنوا أمر المعاصي حيث قالوا: إنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وعلى هذا فمرتكب

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/ ٣٧٩).
(٢) تقدّمت ترجمته في صفحة (٣٦٤).
(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني (ص ٧١، ٧٢) تحقيق: بدر البدر.

الكبيرة عندهم مؤمن كامل الإيمان ولا يدخل نار جهنم، وهذا مبني على إخراجهم العمل من مسمّى الإيمان[1].

والحقّ ما قاله أهل السنّة والجماعة وأجمعوا عليه، وقد حكى ذلك الإمام البغوي رحمه الله تعالى فقال: (اتّفق أهل السنّة على أنّ المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمل شيئاً منها فمات قبل التوبة لا يخلد في النار، كما جاء به الحديث، بل هو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته)[2].

وقد نهج الشوكاني رحمه الله تعالى منهج أهل السنة وقرّره في هذه المسألة، واستدلّ بما استدلّوا به من الكتاب والسنّة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيْماً﴾[3].

قال الشوكاني عند تفسيره للآية: (هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم ولا يختصّ بكفّار أهل الحرب، لأنّ اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا ثالث ثلاثة،

---

(١) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦٩٧)، وانظر من كتب الفرق: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٥٥، ٩٤، ١٩٤، ١٩٥)، والتبصير في الدين للإسفرايني (ص ٤٥، ٤٦، ٩٧) وانظر أيضاً: كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص ٩٩ ــ ١٠٢)، ومسائل الإيمان لأبي يعلى (ص ٣٢٣ ــ ٣٢٦)، والتمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١٨٤، ١٨٥ وأيضاً ١٣/ ٣٧، ٣٨)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٤١٧)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢٩)، وشرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة شرح الملا علي القاري (ص ١٠٢ ــ ١٠٥).

(٢) شرح السنة للبغوي (١/ ١٠٣).

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.

ولا خلاف بين المسلمين أنّ المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضّل الله بها على غير أهل الشرك، حسبما تقتضيه مشيئته، أمّا غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة، يغفر لمن يشاء، ويعذّب من يشاء. ثم نقل عن ابن جرير قال: قد أبانت هذه الآية أنّ كلّ صاحب كبيرة في مشيئة الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عزّ وجلّ، وظاهره أنّ المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضّلاً منه ورحمة، وإن لم يقع من ذلك المذنب توبة)[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِيْنَ أَسْرَفُوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوْا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوْبَ جَمِيْعاً، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله: قوله: (إنّ الله يغفر الذنوب) فالألف واللام قد صيّرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوّة: إنّ الله يغفر كلّ ذنب كائناً ما كان إلّا ما أخرجه النصّ القرآني وهو الشرك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3]... ثم قال: وإذا تقرّر لك هذا فاعلم أنّ الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[3]، هو أنّ كلّ ذنب كائناً ما كان ما عدا الشرك بالله مغفور لمن يشاء الله أن يغفر له، على أنّه يمكن أن يقال إنّ إخباره لنا بأنّه يغفر الذنوب جميعاً يدلّ على أنّه يشاء غفرانها جميعاً، وذلك يستلزم أنّه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية. وأمّا ما يزعمه جماعة من المفسّرين من تقييد هذه الآية بالتوبة وأنّها لا تغفر إلّا ذنوب

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٤٧٥، ٤٧٦)، وانظر تفسير الطبري (٥/ ١٢٦).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨، ١١٦.

التائبين، وزعموا أنّهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضبّ والنون، وبين الملاح والحادي، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيّدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة. وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾[2] قال الواحدي[3]: المفسّرون كلّهم قالوا: إنّ هذه الآية في قوم خافوا إنْ أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي ﷺ. قلت (أي الشوكاني) هب إنّها في هؤلاء القوم فكان ماذا؟ فإنّ الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متّفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مقيّدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلّها، واللازم باطل بالاجماع، فالملزوم مثله.

وفي السنة المطهّرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته، وقدّره حقّ قدره، علم صحّة ما ذكرناه، وعرف حقّية ما حررناه[4].

ومن الأحاديث التي يستدلّ بها على ذلك قوله ﷺ: «ما من عبد قال لا إله إلّا الله ثم مات على ذلك إلّا دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨، ١١٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٦.

(٣) سبقت له ترجمة في صفحة (٤٤٨).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٧٠).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب الثياب البيض. (الفتح ١٠/ ٢٩٤ برقم =

قال الشوكاني: (وفي الحديث دليل على أنّ هذه الكلمة التي هي كلمة التوحيد إذا مات العبد على قولها، وكانت خاتمة كلامه الذي يتكلّم به عاقلاً مختاراً أوجبت له الجنة، ولم يضرّه ما تقدّم من المعاصي، وإن كانت كبائر كالزنا والسرقة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[1].

قلت: والصحيح أنّ الحديث محمول على من وحّد ربّه ومات على ذلك تائباً من الذنوب التي أشير إليها في الحديث، فإنّه موعود بهذا الحديث بدخول الجنّة ابتداء، وعلى هذا قال البخاري رحمه الله تعالى بعد سوق الحديث: (هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال لا إله إلاّ الله غفر له)[2]. أمّا من تلبّس بالذنوب المذكورة ومات من غير توبة، فظاهر الحديث أنّه أيضاً داخل في ذلك، لكن مذهب أهل السنة أنّه في مشيئة الله تعالى، إن شاء يعفو عنه ويدخله الجنّة ابتداء، وإن شاء يعذّبه بها ثمّ يدخله الجنّة بعد ذلك، وهذا ما قرّره الشوكاني كما تقدّم.

فالصواب أن يحمل قوله هنا: (ولم يضرّه ما تقدّم من المعاصي) على ما تقدّم من أنّه مقيّد بمشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ابتداء، وإن شاء عذّبه بقدر ذنبه ولا يخلد في النار.

ويدلّ على ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله،

= ٥٨٢٧) ومسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار. (١/ ٩٥ برقم ٩٤).

(١) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٢٩٠).

(٢) انظر الفتح (١٠/ ٢٩٥ برقم ٥٨٢٧).

ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، ثمّ ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»[١].

وهذا المفسّر مقدّم على المبهم[٢].

والشوكاني رحمه الله تعالى كما قرّر عقيدة أهل السنّة في هذه المسألة فإنّه أنكر على المخالفين لهم من الفرق المنحرفة، كالمعتزلة والمرجئة وأمثالهم.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ شَقُوْا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيْهَا زَفِيْرٌ وَشَهِيْقٌ، خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوٰتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ، إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ﴾[٣] تعرّض الشوكاني لمسألة خلود أهل الكبائر في النار، ولمعنى الاستثناء في الآية، وقرّر قول أهل السنة فيها، وأورد روايات كثيرة عن السلف تدلّ على خروج من دخل النار من عصاة الموحّدين[٤] ثمّ أورد كلام الزمخشري المعتزلي في هذا الموضوع، قال:

(ولقد تكلّم صاحب الكشّاف في هذا الموضع بما كان له في تركه سعة، وفي السكوت عنه غنى، فقال: ولا يخدعنّك عنه قول المجبرة[٥] أنّ المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار، فإنّ الاستثناء الثاني[٦] ينادي على تكذيبهم، ويسجّل بافترائهم، وما ظنّك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع متعددة، انظر كتاب الإيمان، باب رقم (١١) (الفتح ١/ ٨١ برقم ١٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب الحدود كفّارات لأهلها (٣/ ١٣٣٣ برقم ١٧٠٩).

(٢) انظر الفتح لابن حجر (١٠/ ٢٩٥).

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٦، ١٠٧.

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٥) يريد بهم أهل السنة، لأنّ المعتزلة يقولون: فاعل الكبير واسطة بين المؤمن والكافر، وخلوده في النار أبديّ، كما سبق أن بيناه.

(٦) يقصد به الاستثناء في الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِيْنَ سُعِدُوْا فَفِي الْجَنَّةِ =

لهم بعض النوابت[1] عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (ليأتينّ على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيه أحد)[2] ثمّ قال: (أي صاحب الكشّاف): وأقول: ما كان لابن عمرو في سيفيه ومقاتلته بهما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث. اهـ[3].

وردّ عليه الشوكاني قائلاً: (أمّا الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ، كما صحّ عنه في دواوين الإسلام التي هي دفاتر السنة المطهّرة، وكما صحّ عنه في غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر، فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته، وعملوا بما أنت عنه في مسافة بعيدة، وأيّ مانع من حمل الاستثناء في الموضعين على العصاة من هذه الأمّة، فالاستثناء الأوّل يحمل على معنى إلاّ ما شاء ربّك من خروج العصاة من هذه الأمّة من النار، والاستثناء الثاني يحمل على معنى إلاّ ما شاء ربّك من عدم خلودهم في الجنّة كما يخلد غيرهم، وذلك لتأخّر خلودهم إليها مقدار المدّة التي لبثوا فيها في النار. وقد

= خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَادَامَتِ السموَاتِ وَالأَرْضُ الاّ ما شَاءَ رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوْذٍ﴾ (سورة هود، الآية: ١٠٨).

(١) جاء في اللسان (٢/ ٩٦ مادة: نبات): والنابت من كلّ شيء: الطريّ حين ينبت صغيراً، وما أحسن نابتة بني فلان: أي ما ينبت عليه أموالهم وأولادهم، ونبتت لهم نابتة: إذا نشأ لهم نشأ صغير. وأنّ بني فلان لنابتة شرّ، والنوابت من الأحداث: الأغمار.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: الحديث أخرجه البزار. ثم ساقه بسنده إلى ابن عمرو، ولفظه: (يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد يعني من الموحّدين) كذا فيه، ورجاله ثقات، والتفسير لا أدري ممن هو. (انظر الكشاف ٢/ ٤٣١ هامش رقم (١)، وانظر كلام الألباني على الحديث في: رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار للصنعاني ص٨٢) وسيأتي الكلام عن مسألة فناء النار في صفحة ٨٣٦.

(٣) انظر الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٣٠، ٤٣١).

قال بهذا من أهل العلم من قدّمنا ذكره، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمّة. وأمّا الطعن على صاحب رسول الله، وحافظ سنّته، وعابد الصحابة، عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فإلى أين يا محمود، أتدري ما صنعت، وفي أيّ واد وقعت، وعلى أيّ جنب سقطت؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان، وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة، ورجلك العرجاء، أما كان لك في مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردّك عن الدخول فيما لا تعرف، والتكلّم بما لا تدري، فيالله العجب، ما يفعل القصور في علم الرواية، والبعد عن معرفتها، إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه، ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه)[١].

كما يردّ رحمه الله تعالى على أهل الإرجاء فيما ذهبوا إليه.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِيْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى، وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾[٢] قال في معنى الآية: (أي لا يصلاها صلياً لازماً على جهة الخلود إلّا الأشقى وهو الكافر، وإن صلاها غيره من العصاة، فليس صليه كصليه)[٣].

ثم أورد رحمه الله أقوال المفسّرين في معنى الآية، وقال: (والأولى حمل الأشقى والأتقى على كلّ متّصف بالصفتين المذكورتين، ويكون المعنى أنّه لا يصلاها صليا تامّاً لازماً إلّا الكامل في الشقاء، وهو الكافر، ولا يجنّبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلّا الكامل في التقوى، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها)[٤].

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٢٧، ٥٢٨).
(٢) سورة الليل، الآية: ١٥ ـ ١٧.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٤٥٣).
(٤) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

وردّ الشوكاني على المرجئة الذين استدلّوا بهذه الآية على ارجائهم، فزعموا أنّه لا يدخل النار إلّا كافر فقال:

(والحاصل أنّ من تمسّك من المرجئة بقوله: (لا يصلاها إلّا الأشقى) زاعماً أنّ الأشقى الكافر، لأنّه الذي كذّب وتـولّى، ولـم يقع التكـذيب من عصاة المسلمين. فيقال له: فما تقول في قوله: (وسيجنّبها الأتقى) فإنّه يدلّ على أنّه لا يجنّب النار إلّا الكامل في التقوى، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنّب النار، فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى، فخذ إليك هذه مع تلك، وكن كما قال الشاعر:

على أنّني راض بأن أحمل الهوى وأخـرج منـه لا عليّ ولا ليـه)[1]

وهكذا بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى منهج أهل السنة في هذه المسألة الخطيرة، وردّ على المخالفين لهم من أهل الأهواء والبدع ردّاً وفيّاً. والله الهادي إلى سواء السبيل.

●●●

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

الباب الثاني

منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالنبوات والمعاد

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأوّل: في الإيمان بالنبوات.

الفصل الثاني: في الإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر.

تمهيـــد

تقدّم أن بيّنت في الباب الأوّل منهج الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في الإيمان بالله تعالى الذي يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وفيما يناقضه من الأعمال الشركية والبدعية، وفي تعريف الإيمان وما يتعلّق به من مسائل.

وفي هذا الباب أبيّن منهج الإمام الشوكاني فيما تبقّى من أصول العقيدة الإسلامية، ألا وهو الإيمان بالنبوّات وما يتعلّق به من مسائل، والإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر.

والله أسأله التوفيق والرشاد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصـل الأول

في الإيمان بالنبوّات

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأوّل: تعريف النبوّة والنبيّ والرّسول.

المبحث الثاني: حاجة البشريّة إلى النبوّة.

المبحث الثالث: معنى الإيمان بالأنبياء والرّسل عليه الصّلاة والسلام.

المبحث الرابع: التفاضل بين الأنبياء.

المبحث الخامس: اتفاق الأنبياء والرّسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضاً.

المبحث السادس: من صفات الأنبياء والرّسل ووظائفهم.

المبحث السابع: الإيمان بنبوة محمد ﷺ وبشاراته في الكتب السابقة.

المبحث الثامن: من دلائل النبوّة.

المبحث التاسع: الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة.

المبحث العاشر: الإيمان بوجود الجنّ والشياطين.

المبحث الأوّل
تعريف النبوّة والنبيّ والرسول

تعريف النبوّة:

النبوّة في اللغة لها ثلاثة اشتقاقات: إمّا أن تكون مشتقّة من النبأ فتكون بمعنى الإخبار، إذ النبأ هو الإخبار، وإمّا أن تكون مشتقّة من النبوة أو النَبَاوة، وكلاهما يدلّ على الارتفاع، فتكون بمعنى الرفعة والعلوّ، وإمّا أن تكون مشتقّة من النَّبي، وهو بمعنى الطريق، فتكون النبوّة بمعنى أنها الطريق إلى الله عزّ وجلّ.

جاء في لسان العرب: النبأ: الخبر، والجمع أنباء، وإنّ لفلان نبأ: أي خبراً. والنبي: المخبر عن الله. وقيل: النبيّ مشتقّ من النباوة: وهي الشيء المرتفع، والنبي أيضاً: الطريق الواضح(١).

والحقّ أنّ النبوّة الشرعية تشمل كلّ هذه المعاني، إذ النبوّة اخبار عن الله عزّ وجلّ، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصّلة إلى الله سبحانه. ومع ذلك فإنّ أولى هذه المعاني بلفظ النبوّة، وكذلك النبي، هو اشتقاقها من النبأ، لأنّ النبي منبأ من الله، وهو كذلك ينبىء الناس عن الله، وتتحقّق نبوّته بمجرّد ذلك، وبهذا التحقّق تثبت له أوصاف العلوّ والرفعة، وكونه طريقاً إلى معرفة الله تعالى.

ويؤيّد ذلك ما ورد في القرآن الكريم في عدّة آيات من إطلاق النبأ على

---

(١) انظر لسان العرب: ابن منظور (١/ ١٦٢ ــ ١٦٤ مادة: نبأ).

الخبر، كقوله تعالى: ﴿نَبِّىء عِبَادِيْ أَنِّيْ أَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْم﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿نَبَّأَنِي الْعَلِيْمُ الْخَبِيْرُ﴾[2].

أمّا النبوّة في الشرع فهي صفة تحدث في الشخص بعد أن يصطفيه الله عزّ وجلّ، فيخبره بخبر السماء، فإن كلّفه بتبليغه إلى الناس يكون نبيّاً ورسولاً، وإن لم يكلّف بذلك فهو نبي فقط، وهذا هو المشهور عند العلماء كما سأبينه.

والنبوّة فضل إلٰهي ومنحة ربّانية، يهبها لمن يشاء من عباده، ويختار لها من يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجدّ والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنّما هي اصطفاء واختيار، فلا تكون إلّا لمن اختاره الله تبارك وتعالى لها ممن هم أهل لحملها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلاَئِكَةُ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ بَصِيْر﴾[3] وقال في معرض الحديث عن بعض الرسل: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾[4].

تعريف النبي والرسول:

النبي لغة: مشتق مما اشتقت منه كلمة النبوّة، أي من النبأ وهو الخبر، كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُوْنَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيْمِ﴾[5]. وقيل: من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض. قال الشوكاني: وآثر لفظ النبي لما فيه من الدلالة على الشرف والرفعة على ما قيل إنّه من النَبْوة، وهي ما ارتفع من الأرض، قال في الصحاح: إن جعلت لفظ النبي مأخوذاً من ذلك فمعناه أنّه شرف على

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٩.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٣.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٤) سورة صَ، الآية: ٤٧.
(٥) سورة النبأ، الآية: ١، ٢.

سائر الخلق. وأصله غير الهمزة، وهو فعيل بمعنى مفعول[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾[2]. وقيل: النبي هو الطريق الواضح، لأنّ العرب تطلق لفظ النبي على عَلَم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، وسمّي النبي بذلك لأنّه علم يهتدي به الخلق إلى الله تبارك وتعالى[3].

والرسول لغة: مشتق من الإرسال ومعناه: البعث والتوجيه، فإذا بعثت شخصاً في القيام بمهمّة ما فهو رسولك. قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ﴾[4]، ويجمع الرسول على أرْسُل، ورُسُل، ورُسْل، ورُسَلاء، وسمّوا الرسل بذلك لأنّهم مبعوثون وموجّهون من قبل الله عزّ وجلّ، لتبليغ الخلق أمر الله ووحيه[5].

أمّا تعريف النبي والرسول شرعاً فتعدّدت أقوال العلماء في تعريفهما، وقد ذكر الشوكاني رحمه الله بعض هذه الأقوال، قال: (والنبي في لسان الشرع: من بعث إليه بشرع، فإن أمر بتبليغه فرسول، وقيل: هو المبعوث إلى الخلق بالوحي لتبليغ ما أوحاه، والرسول قد يكون مرادفاً له، وقد يختصّ بمن هو صاحب كتاب، وقيل: هو المبعوث لتجديد شرع أو تقريره، والرسول هو المبعوث للتجديد فقط، وعلى الأقوال النبي أعمّ من الرسول)[6].

وقال في موضع آخر: (قيل: الرسول: الذي أرسل إلى الخلق بإرسال

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (١/ ١٩) وانظر الصحاح: الجوهري (٦/ ٢٥٠٠ مادة: نبا).
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٣) انظر الصحاح للجوهري (١/ ٧٤ مادة: نبأ) و(٦/ ٢٥٠٠ مادة: نبا. من المعتل). والمفردات للأصفهاني (ص ٤٨١،٤٨٢ مادة: نبأ)، والنهاية لابن الأثير (٥/٣،٤ مادة: نبأ)، ولسان العرب لابن منظور (١/ ١٦٢ ــ ١٦٤ مادة: نبأ).
(٤) سورة النمل، الآية: ٣٥.
(٥) انظر: الصحاح للجوهري (٤/ ١٧٠٩)، والمفردات للأصفهاني (ص ١٩٥)، ولسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٨٣، ٢٨٤) مادة: رسل.
(٦) نيل الأوطار: الشوكاني (١/ ١٩).

جبريل إليه عياناً ومحاورته شفاها، والنبي: الذي يكون إلهاماً أو مناماً. وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بدّ لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة)[1].

والقول المشهور في تعريفهما هو القول الأوّل الذي ذكره الشوكاني وقرّره، وهو أنّ الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فالرسول أخصّ من النبي، فكلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبي رسولاً[2].

وقد اعترض على هذا التعريف الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[3] رحمه الله تعالى بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ وَلاَ نَبِيٍّ﴾[4] لأنّه يدلّ على أنّ كلاّ منهما مرسل، وأنّهما مع ذلك بينهما تغاير. وأورد رحمه الله القول بأنّ النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقلّ مع المعجزة التي ثبتت بها نبوّته، وأنّ النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب وإنّما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بيّنه تعالى بقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّوْنَ الَّذِيْنَ أَسْلَمُوا﴾[5][6].

قلت: وهذا هو الراجح في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما، وهو الذي أشار إليه الشوكاني في القول الأخير بصيغة التمريض.

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٦١).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ١٦٧)، ولوامع الأنوار البهية: السفاريني (١/ ٤٩)، والوحي المحمدي: محمد رشيد رضا (ص ٤٧) ط/ ٩ المكتب الإسلامي.

(٣) تقدّمت ترجمته في صفحة (٣٦٣).

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٦) انظر اضواء البيان: محمد الأمين الشنقيطي (٥/ ٧٣٥).

وقد ذهب إلى هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث قال: (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأ الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأمّا إذا كان إنّما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، إلى أن قال: فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[1] دليل على أنّ النبي مرسل، ولا يسمّى رسولاً عند الاطلاق، لأنّه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنّه حقّ)[2].

فما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو الموافق لمعنى الآية الكريمة التي أوضحت أنّ الرسول مرسل من الله، وكذلك النبي.

المبحث الثاني
حاجة البشرية إلى النبوّة

لا شكّ أنّ النبوّة ضرورة من ضرورات حياة البشر، لا غنى عنها بحال من الأحوال، فحاجة البشرية إلى النبوّة كحاجة الحياة إلى الروح، فكما أنّ الحياة لا تصلح ولا تقوم بدون الروح كذلك البشرية لا تصلح إلاّ باتّباع هدي النبوّة.

وتظهر ضرورة النبوّة وحاجة البشرية إليها بوضوح إذا عرفنا أنّ الإنسان مكوّن من روح وجسد، وأنّ العالم عالمان علويّ وسفليّ، وأنّ الحياة حياتان: أولى تنقضي، وثانية تدوم ولا تنتهي، وأنّ بين الحياتين برزخاً تقضي فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية. وبيان ذلك أنّ كون الإنسان روحاً يقتضي وحيا إلهيّاً يخبره عن الروح، وصفاتها، وأحوالها،

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٢) كتاب النبوّات: ابن تيمية (ص ٢٥٥، ٢٥٦).

وأسباب كمالها ونقصانها، وسعادتهـا، وشقائهـا، وأنّ كون الإنسـان جسماً يقتضي كذلك وحياً إلٰهيّاً يبيّن له فيه طرق المحافظة على جسمه، ويضع له القوانين التي تساعده على بقائه صالحاً في المدّة المحدّدة له من هذه الحياة، وأنّ كون العالم عالمين علويّاً وسفليّاً يقتضي وحياً إلٰهيّـاً يخبره عن العـالم العلويّ وما فيه، لعجز الإنسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصّة وإدراكه دون الوحي الإلٰهي، وأنّ كون الحيـاة حياتين يقتضي كـذلك وحيـاً إلٰهيّاً يعـرف الإنسان بواسطته الحياة الثانية، ماذا فيها، وما الذي يتمّ للإنسان يوم ينقل إليها؟ وما إلى ذلك. إذ مثل هذا لا يدركه الإنسان بواسطة عقله مجرّداً عن الوحي الإلٰهي بحال من الأحوال[١].

وليعلم أنّ العقل البشري مهماً بلغ في كماله فإنّه لا يكفي وحده لهداية البشر، لأنّ دوره في الحياة محدود بالتفكّر في الوجود من حوله، فلا بدّ له من نعمة الله سبحانه، وهذه النعمة هي إرسال الرسل والأنبياء إلى هذه البشرية الحائرة التي هي في أمسّ الحاجة إلى هداية الله حتى تعرف الطريق السويّ، وتعرف شرع الله، وحينئذ تصبح النبوّة أمراً لازماً للبشرية جمعاء، وحـاجة ملحّة لها، كي تخرجها من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن عبودية العباد إلى عبوديّة ربّ العباد.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى مبيّناً حاجة العباد إلى الأنبياء والرسل وتعاليمهم: (ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كلّ ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فـإنّه لا سبيـل إلى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلّا على أيدي الـرسل، ولا سبيل إلى معرفـة الطيّب والخبيث على التفصيـل إلّا من جهتهم، ولا ينال رضى الله ألبتة إلّا على أيديهم، فالطيّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس

---

(١) انظر عقيدة المسلم: أبو بكر الجزائري (ص ٢٠٧، ٢٠٨).

إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير)[1].

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى أنّ من فضل الله على الناس كافّة بعثة الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربّهم وتبيين طرائق الحقّ لهم[2]، وأنّه لا فضل أعظم من النبوّة ونزول الوحي[3]، لشدّة حاجة الناس إليهما. قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيْماً﴾[4] فالله سبحانه وتعالى لا يترك عباده سدى ولم يخلقهم عبثاً، بل أرسل إليهم رسلاً مبشّرين ومنذرين، يبشّرونهم بالسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إنْ هم أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ويخوّفونهم من عقاب الله وعذابه إنْ هم أشركوا بالله وجعلوا له أنداداً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾[5] فلا يهلك سبحانه من عصاه بالكفر والحال أنّهم غافلون عن الأعذار والانذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب، بل إنّما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم[6]. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلاً﴾[7] وقال سبحانه وهو يوضّح الغاية من بعثة

---

(١) زاد المعاد: ابن القيّم (١/ ٦٩) تحقيق/ شعيب وعبد القادر الأرناؤط.
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٧).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٥١٤).
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٥) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٦٣) وأيضاً (٣/ ٢١٤).
(٧) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الأنبياء والرسل: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ لِئَلاَّ يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيْزاً حَكِيْماً﴾[1].

والنبوّة كما ذكر الشوكاني هي الواسطة في وصول الكمالات العلمية والعملية إلينا من الرفيع عزّ سلطانه وتعالى شأنه، وذلك لأنّ الله تعالى لمّا كان في نهاية الكمال ونحن في نهاية النقصان لم يكن لنا استعداد لقبول الفيض الإلهي[2]، لتعلّقنا بالعلائق البشرية والعوائق البدنية، وتدنّسنا بأدناس اللذّات الحسّية والشهوات الجسمية، وكونه تعالى في غاية التجرّد ونهاية التقدّس، فاحتجنا في قبول الفيض منه[2] جلّ وعلا إلى واسطة له وجه تجرّد ونوع تعلّق، فبوجه التجرّد يستفيض[2] من الحق، وبوجه التعلّق يفيض[2] علينا، وهذه الواسطة هم الأنبياء، وأعظمهم رتبة وأرفعهم منزلة نبيّنا ﷺ[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) جاء في اللسان (٧/ ٢١٠ ـ ٢١٣ مادة: فيض): فاض الماء والدمع ونحوهما يفيض فيضاً وفيوضة وفيوضاً وفيضاناً وفيضوضة أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، ونهر فيّاض أي كثير الماء، ورجل فيّاض أي وهّاب جوّاد، ورجل فيض وفياض أي كثير المعروف، وقولهم: أعطاه غيضاً من فيض أن أعطاه قليلا من كثير. اهـ أمّا كلمة (الفيض الألهي) فهي من المصطلحات الصوفية الفلسفية، استمدوها من مصادر أفلاطونية حديثة التي تقول: كلّ شيء فيض من الله أو تجلّ له. وهي كلمة استعملها أصحاب وحدة الوجود وما يجري مجراها للتعبير عن نظرياتهم الفاسدة. ولعلّ الشوكاني رحمه الله لم يقصد من هذه الكلمة معناها الاصطلاحي لدى القوم، لأنّ موقفه من هؤلاء معروف كما أسلفنا. والله أعلم. (انظر معنى هذا الاصطلاح في: التعريفات للجرجاني (ص ١٦٩)، والفلسفة الصوفية في الإسلام للدكتور عبد القادر محمود (ص ٣١ ـ ٣٣) ط/ دار الفكر العربي).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (١/ ١٨).

المبحث الثالث

معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

إنّ الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من الإيمان بالغيب الذي وصف الله المؤمنين بأنّهم يؤمنون به، كما قال تعلى: ﴿الٓم، ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ، هُدىً لِلْمُتَّقِيْنَ، الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ﴾[1]، وهو ركن من أركان الإيمان التي يجب الإيمان بها كما دلّت على ذلك الأدلّة الكثيرة من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُّسُلِهِ، وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ﴾[2].

قال الشوكاني: (قوله: لا نفرّق بين أحد من رسله) أي لا نكفر بما جاءت به الرسل، ولا نفرّق بين أحد منهم، ولا نكذّب به)[3].

وكقوله تعالى مخاطباً لأهل الكتاب: ﴿فَآمِنُوْا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[4] أي آمنوا بأنّه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبأنّ رسله صادقون مبلّغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذّبوهم، ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١ ــ ٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٠٩).

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٥) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٤١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْمَاعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالأَسْبَاطِ، وَمَا أُوْتِيَ مُوْسَى وَعِيْسَى وَالنَّبِيُّوْنَ مِن رَّبِهِمْ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ﴾[1].

وفي حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه)[2].

ومعنى الإيمان بالأنبياء والرسل هو التصديق الجازم بأنّ لله عزّ وجلّ رسلاً وأنبياء أرسلهم لإرشاد الخلق إلى ما فيه خيرهم في معاشهم ومعادهم، فيجب الإيمان بكلّ نبيّ ورسول سمّى الله منهم في كتابه على التفصيل، والإيمان جملة بأنّ لله رسلاً غيرهم وأنبياء لا يعلمهم إلّا هو سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلٌ﴾[4] أي ولكلّ أمّة من الأمم الخالية في وقت من الأوقات رسول يرسله الله إليهم، ويبيّن لهم ما شرعه الله لهم من الأحكام على حسب ما تقتضيه المصلحة[5].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[6] أي نبيّ يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم[7].

والواجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل دون تفريق بينهم، فمن آمن بالبعض وكفر بالبعض الآخر فقد كفر بالجميع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٤.
(٢) تقدّم تخريجه في صفحة(١٩٠).
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٨.
(٤) سورة يونس، الآية: ٤٧.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٤٩).
(٦) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٧) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٦٨).

يَكْفُرُوْنَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيْدُوْنَ أَنْ يُفَرِّقُوْا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُوْلُوْنَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيْدُوْنَ أَنْ يَتَّخِذُوْا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيْلًا، أُوْلٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُوْنَ حَقّاً، وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ عَذَاباً مُهِيْناً﴾[1].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (لمّا فرغ من ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفّار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، لأنّهم كفروا بمحمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الرسل والكتب المنزّلة، والكفر بذلك كفر بالله، وينبغي حمل قوله تعالى: (إنّ الذين يكفرون بالله ورسله) على أنّه استلزم ذلك كفرهم ببعض الكتب والرسل، لا أنهم كفروا بالله ورسله جميعاً فإنّ أهل الكتاب لم يكفروا بالله ولا بجميع رسله، لكنّهم لمّا كفروا بالبعض كان ذلك كفراً بالله وبجميع الرسل. ومعنى: (ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله) أنّهم كفروا بالرسل بسبب كفرهم ببعضهم وآمنوا بالله، فكان ذلك تفريقاً بين الله وبين رسله. (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) هم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام)، وكذلك النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ)[2].

والرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبيّاً ورسولاً يجب الإيمان بهم على التفصيل، بمعنى أنّه يتعيّن التصديق برسالاتهم بأشخاصهم وأسمائهم لأنّهم ذكروا في القرآن. منهم ثمانية عشرة قد ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيْمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوْحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوْبَ وَيُوْسُفَ وَمُوْسَى وَهَارُوْنَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيْسَى وَالْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِيْنَ،

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٠، ١٥١.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣٢).

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

وذكر السبعة الباقون مفرّقين في عدّة سور من القرآن الكريم، وهم آدم[2]، وإدريس[3]، وهود[4]، وصالح[5]، وشعيب[6]، وذو الكفل[7]، وخاتمهم محمد[8] عليهم الصلاة والسلام.

وهناك أعداد كبيرة لا نعرفها ويجب الإيمان بها إجمالاً.

قال الشوكاني رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾[9].

(قيل جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر)[1].

ومما يستدلّ به على ذلك حديث أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمّاً غفيراً[2]. وفي رواية: قلت: يا رسول الله، كم النبيّون؟ قال: مائة ألف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٣ ــ ٨٦.
(٢) انظر الآية: (٣٣) من سورة آل عمران.
(٣) انظر الآية: (٥٦) من سورة مريم.
(٤) انظر الآية: (٥٠) من سورة هود.
(٥) انظر الآية: (٧٣) من سورة الأعراف.
(٦) انظر الآية: (٨٥) من سورة الأعراف.
(٧) انظر الآية: (٨٥) من سورة الأنبياء.
(٨) انظر الآية: (٤٠) من سورة الأحزاب.
(٩) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(١٠) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢١٣).
(١١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٨، ١٧٩) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٠): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه، وعند النسائي طرف منه، وفيه المسعودي وهو ثقة، ولكنّه اختلط.

وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. وفي رواية أخرى: خمسة عشر[1]. وهو حديث ليس بالقويّ كما يقال. وعلى كلّ فإنّنا لا نجزم بعدد معيّن لا نزيد عليه ولا ننقص منه، بل نؤمن بكلّ ما نبأ الله من نبي، وبكلّ ما أرسل من رسول ممن عرف نبوّتهم ورسالتهم وهم قليلون، وممن لم يعرف وهم جمّ غفير.

المبحث الرابع

التفاضل بين الأنبياء

ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاضلون، وأنّ بعضهم أفضل من بعض. كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ الآية[2] فهذه الآية تدلّ على المفاضلة بين الرسل والأنبياء، وأنّ بعضهم أفضل من بعض.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أنّ الله سبحانه وتعالى جعل بعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلاً والآخر مفضولاً. وكما دلّت هذه الآية على أنّ بعض الأنبياء أفضل من بعض كذلك دلّت الآية الأخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣٩، وأيضاً ١/ ٦٩) والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٧) قال الذهبي في التلخيص: فيه السعدي ليس بثقة. وأخرجه ابن حبّان في صحيحه (انظر الإحسان ٢/ ٧٧ برقم ٣٦١) قال المحقق: إسناده ضعيف جداً. وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٩٢ برقم ٣٥٧٦) قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٩): رواه أحمد والطبراني في الكبير وقال: كم عدد الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. ومداره على عليّ بن يزيد وهو ضعيف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

أَعْلَمُ بِمَنْ فِيْ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّيْنَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوْراً﴾[1][2]. «أي أنّ هذا التفضيل على علم منه بمن هو أعلى مرتبة، وبمن دونه، وبمن يستحقّ مزيد الخصوصية بتكثير فضائله وفواضله... وقد اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وجعل عيسى كلمته وروحه، وجعل لسليمان ملكاً عظيماً، وغفر لمحمد ﷺ ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وجعله سيّد ولد آدم. وفي هذه الآية دفع لما كان ينكره الكفّار مما يحكيه رسول الله ﷺ من ارتفع درجته عند ربّه عزّ وجلّ»[3].

وقد أجمعت الأمّة على أنّ الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم، وأفضل الرسل والأنبياء خمسة وهم: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام. وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وقد خصّهم الله سبحانه بالذكر في آيتين من كتابه:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّيْنَ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحاً وَالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى أَنْ أَقِيْمُوا الدِّيْنَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَبِيِّيْنَ مِيْثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيْثَاقاً غَلِيْظاً﴾[5].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (ووجه تخصيصهم بالذكر الاعلام بأنّ لهم مزيد شرف وفضل، لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢٦٨).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٥).
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخّر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى)[1].

ونبينا محمد ﷺ أفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتمهم، وقد فضّله الله سبحانه وتعالى بأمور دون بقية الرسل والأنبياء، منها ما أخبرنا ﷺ بأنّ الله خصّه دون غيره بستّ لم يعطها أحداً من الأنبياء قبله، قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستّ: أُعطيتُ جوامع الكلم[2]، ونُصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسلتُ إلى الخلق كافّة، وخُتم بي النبيّون»[3].

وقد وردت أحاديث تنهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض، فمن ذلك: ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تخيّروا بين الأنبياء»[4]، وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: (لا تفضّلوا بين أنبياء الله)[5]، وفي رواية أخرى: (لا تخيّروني على موسى)[6].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٢٦٤).

(٢) وفي الرواية الأخرى: (بُعثت بجوامع الكلم) قال الهروي: يعني به القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع، قليل اللفظ كثير المعاني. (شرح النووي لمسلم ٥/ ٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة. (١/ ٣٧١ برقم ٥٢٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب ما ذكر في الأشخاص إلخ (الفتح ٥/ ٨٦ برقم ٢٤١٢)، وفي كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديًا عند الغضب. (الفتح ١٢/ ٢٧٤ برقم ٦٩١٦)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٥ برقم ٢٣٧٤).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإنّ يونس لمن المرسلين﴾ إلخ (الفتح ٦/ ٥١٩ برقم ٣٤١٤)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٤ برقم ٢٣٧٣).

(٦) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد. (الفتح ٦/ ٥٠٨ برقم ٣٤٠٨)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ. (٤/ ١٨٤٤ برقم ٢٣٧٣ مكرر).

وقد استشكل جماعة من أهل العلم الجمع بين الآية المذكورة وبين هذا الحديث، فقال قوم: إنّ هذا القول منه ﷺ كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وإنّ القرآن ناسخ للمنع من التفضيل، وقيل: إنّه قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع[١]، كما قال: (لا يقل أحدكم أنا خير من يونس بن متى)[٢] تواضعاً مع علمه أنّه أفضل الأنبياء، كما يدلّ عليه قوله: (أنا سيّد ولد آدم)[٣]، وقيل: إنّما نهى عن ذلك قطعاً للجدال والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصاً بمثل ذلك، لا إذا كان صدور ذلك مأموناً[٤]، وقيل: إنّ النهي إنّما هو من جهة النبوّة فقط، لأنّها خصلة واحدة لا تفاضل فيها، ولا نهي عن التفاضل بزيادة الخصوصيّات والكرامات[٥]، وقيل: إنّ المراد النهي عن التفضيل لمجرّد الأهواء والعصبية[٦].

ويرى الشوكاني رحمه الله تعالى أنّه لا تعارض بين الآية والحديث. قال بعد سرد هذه الأقوال:

(وفي جميع هذه الأقوال ضعف، وعندي أنّه لا تعارض بين القرآن

---

(١) هو قول ابن قتيبة في كتابه: تأويل مختلف الحديث (ص ٨٨) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وإنّ يونس لمن المرسلين﴾ (الفتح ٦/ ٥١٩ برقم ٣٤١٢، ٣٤١٣، ٣٤١٦) ولفظه كما في الموضع الأخير: لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى. ومسلم في كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٤/ ١٨٤٦ برقم ٢٣٧٦، ٢٣٧٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (٤/ ١٧٨٢ برقم ٢٢٧٨).

(٤) وهو قول شارح العقيدة الطحاوية (انظر ص ١٧٠).

(٥) هو ما رجّحه القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٦) ذكر الشوكاني هذه الأقوال في فتح القدير (١/ ٢٦٩)، وانظر تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢، ٢٦٣) وشرح النووي لمسلم (١٥/ ٣٨)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣١١)، والفتح لابن حجر (٦/ ٥١٤).

والسنة، فإنّ القرآن دلّ على أنّ الله فضّل بين أنبيائه على بعض، وذلك لا يستلزم أنّه يجوز لنا أن نفضّل بعضهم على بعض، فإنّ المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر، فقد يجهل أتباع نبيّ من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصيّاته فضلاً عن مزايا غيره، والتفضيل لا يجوز إلّا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلّها، فإنّ ذلك تفضيل بالجهل، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له، وهو ممنوع منه، فلو فرضنا أنّه لم يرد إلّا القرآن في الاخبار لنا بأنّ الله فضّل بعض أنبيائه على بعض لم يكن فيه دليل على أنّه يجوز للبشر أن يفضّلوا بين الأنبياء، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك، وإذا عرفت هذا علمت أنّه لا تعارض بين القرآن والسنة بوجه من الوجوه، فالقرآن فيه الإخبار من الله بأنّه فضّل بعض أنبيائه على بعض، والسنة فيها النهي لعباده أن يفضّلوا بين أنبيائه، فمن تعرّض للجمع بينهما زاعماً أنّهما متعارضان فقط غلط غلطاً بيّناً)[1].

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني رحمه الله تعالى قول صحيح، فإنّ مقام التفضيل ليس إلينا، وإنّما هو إلى الله عزّ وجلّ، وعلينا الانقياد والتسليم له والإيمان به، ولكن لا يخفى أنّ تفضيل الله بعضهم على بعض إنّما هو بما منح من الفضائل وأعطي من الوسائل، أمّا النبوّة في نفسها فلا تتفاضل، وقد أخبرنا الله سبحانه ببعض مزايا أنبيائه، فمنهم رسل، وأولوا العزم، ومنهم من اتّخذ خليلاً، ومنهم من كلّم الله، ورفع بعضهم درجات، كما أخبرنا رسوله الكريم ﷺ ببعض فضائله.

وقد أشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا إذ قال: (إنّ الله فضّل

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢٦٩).

محمداً ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء. فقالوا: يا ابن عباس، بم فضّل على أهل السماء؟ قال: إنّ الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيْ إِلَهٌ مِنْ دُوْنِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِيْنَ﴾[1]، وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2]. قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم﴾[3]، وقال الله عزّ وجلّ لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[4] فأرسله إلى الجنّ والانس)[5].

وأرى أنّ أقوال العلماء في الجمع بين القرآن والسنّة في هذه المسألة لها وجه من الصواب، ولا مانع من القول بها حيث لا تتعارض، فأقول: إنّ النهي عن التفضيل بين الأنبياء، إنّما يكون لمن يقوله برأيه لا من يقوله بدليل، أو من يقوله على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول، أو من يقوله بحيث يؤدّي إلى الخصومة والتنازع، أو ما شابه ذلك، كمجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأنّ المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر، فيفضي إلى الكفر، فأمّا إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي[6] والله أعلم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٨.
(٥) أخرجه الدارمي في مسنده، باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل. (٢/ ٣٨ برقم ٤٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٤، ٢٥٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، غير الحكم بن أبان وهو ثقة، ورواه أبو يعلى باختصار كثير.
(٦) ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأقوال في الفتح (٦/ ٥١٤).

المبحث الخامس

اتفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضاً

إنّ المهمّة الكبرى التي بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي دعوة الخلق إلى عبادته، وإقامة دينه، وافراده بجميع أنواع العبادة، والتحذير من الشرك، وكذلك تذكيرهم بالبعث والنشور، وعلى هذا اتّفق جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وصدّق بعضهم بعضاً، فما من نبي أرسله الله إلاّ وكان أوّل ما يدعو قومه إليه هو عبادة الله وحده لا شريك له.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحاً وَالذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوْا﴾(٣).

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير الآية (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً): أي من التوحيد، ودين الإسلام، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرسل، وتوافقت عليها الكتب (والذي أوحينا إليك) من القرآن، وشرائع الإسلام، والبراءة من الشرك. (وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى) مما تطابقت عليه الشرائع، ثم بيّن ما وصّى به هؤلاء. فقال: (أن أقيموا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٣.

الدين) أي توحيد الله، والإيمان به، وطاعة رسله، وقبول شرائعه)[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لِعلَّات، أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد»[٢].

وقد اهتمّ الشوكاني رحمه الله تعالى اهتماماً بالغاً ببيان هذه المسألة، حيث ألّف رسالة مختصرة سمّاها: إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات. وأورد فيها النصوص من القرآن الكريم، ومن الكتب السابقة، كالتوراة، والزبور، والانجيل، مما يدلّ على اتفاق أنبياء الله وكتبه على إثبات كلّ مقصد من هذه المقاصد، أي التوحيد والمعاد والنبوات، وتصديق بعضهم بعضاً.

قال رحمه الله تعالى في الفصل الأوّل في بيان اتفاق الشرائع على التوحيد: (اعلم أنّه قد روى جماعة من أكابر علماء الإسلام أنّ الشرائع كلّها اتّفقت على إثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين، وكثرة كتب الله عزّ وجلّ المنزّلة على أنبيائه، فإنّه أخرج ابن حبّان والبيهقي بسندين حسنين من حديث أبي ذرّ: (إنّ الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وإنّ الكتب المنزّلة، مائة وأربعة كتب)[٣] فالتوحيد هو دين العالم أوّله وآخره وسابقه

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم إذ ـ انتبذت من أهلها) (الفتح ٦/٥٥١ برقم ٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام (٤/ ١٨٣٧ برقم ٢٣٦٥). قال العلماء: أولاد العلّات: هم الأخوة لأب من أمّهات شتى، وأما الأخوة من الأبوين فيقال لهم: أولاداً لأعيان. قال جمهور العلماء: معنى الحديث: أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنّهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف. (شرح النووي لمسلم ١٥/ ١١٩، ١٢٠).

(٣) لم أقف على الحديث بهذا اللفظ، والذي وقفت عليه هو ما تقدّم تخريجه في صفحة (٦٥٣).

ولاحقه)[1].

وذكر ما في التوراة والزبور والإنجيل من النصوص المصرّحة بإثبات التوحيد[2]، وقال: (وبالجملة فكتب الله عزّ وجلّ بأسرها ورسله جميعاً متفقون على التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك بجميع أقسامه، وأمّا دعاء المتقدّمين على موسى إلى التوحيد فقد تضمّنت التوراة حكاية ما كانوا عليه من التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك، فإنّها قد حكت ما وقع منهم من عند أبينا آدم ومن بعده من الأنبياء، كنوح، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، إلى قيام موسى سلام الله عليهم أجمعين)[3].

قلت: وقد تضمّن القرآن الكريم في آيات متعدّدة حكاية ما كانوا عليه من دعوة التوحيد[4]، كما أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ﴾[5].

فالأنبياء يتفقون فيما جاءوا به من الدعوة إلى التوحيد، ويصدّق بعضهم بعضاً، وهذا دليل على صدق كلّ منهم على حدة منفرداً عن الآخرين، لأنّه إذا كانت دعوتهم واحدة ولا تعارض فيما بينها، ثم أخبر السابق عن اللاحق، وآمن اللاحق بالسابق، كان هذا دليل صدقهم مع عدم رؤية بعضهم بعضاً،

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥).
(٢) انظر المصدر السابق (من ص ٥ ــ ٨).
(٣) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٨، ٩).
(٤) انظر مثلاً: ما قاله نوح عليه السلام لقومه في الآية (٥٩) من سورة الأعراف، وهود عليه السلام في الآية (٦٥) من سورة الأعراف، وصالح عليه السلام في الآية (٧٣) من سورة الأعراف، وإبراهيم عليه السلام في الآية (١٦) من سورة العنكبوت، والأسباط (وهم أولاد يعقوب) في الآية (١٣٣) من سورة البقرة، ويوسف عليه السلام في الآية (٣٨ ــ ٤٠) من سورة يوسف.
(٥) سورة، الأنبياء، الآية: ٢٥.

ولا ينافي ذلك ما اختلفوا فيه في الفروع دون الأصول، فإنّ شرائع الأنبياء مختلفة لاختلاف الأزمان والأقوام والأماكن التي أرسل فيها الرسل. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[1].

وقد بيّن ذلك الشوكاني رحمه الله تعالى في الفصل الثالث في إثبات النبوات قال: (اعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام على كثرة عددهم، واختلاف أعصارهم، وتباين أنسابهم، وتباعد مساكنهم، قد اتّفقوا جميعاً على الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، وصار الآخر منهم يقرّ بنبوّة من تقدّمه وبصحّة ما جاء به، وإذا خالفه في تحليل بعض ما حرّمه الله على لسان الأوّل، أو تحريم ما أحلّه الله له ولأمته، فهو مقرّ بأن الحكم الأول تحليلاً وتحريماً، هو حق، وهو حكم الله عزّ وجلّ، وأنّه الذي تعبّد الله به أهل تلك الملّة السابقة، واختاره لهم كما اختار للملّة اللاحقة ما يخالفه، والكلّ من عند الله عزّ وجلّ، وذلك جائز عقلاً وشرعاً في ملّة واحدة فضلاً عن الملل المختلفة.

وبالجملة فلا شكّ ولا ريب أنّ الأنبياء متفقون على تصديق بعضهم بعضاً، وإنّ ما جاء به كلّ واحد منهم هو من عند الله عزّ وجلّ، وقد عرفناك فيما سبق أنّ عددهم بلغ إلى مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، ولا خلاف بين أهل النظر أنّ اتفاق مثل هذا العدد يفيد العلم الضروري بصدق ما اتّفقوا عليه، بل اتفاق عُشر هذا العدد، بل اتفاق عُشْر عُشره يفيد ذلك)[2].

وأورد الشوكاني رحمه الله تعالى ما في التوراة والإنجيل[3] من هذا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٢٥، ٢٧).

(٣) ومما يجدر بالذكر هنا أنّ التوراة الإنجيل الموجودتين الآن غير التوراة والإنجيل اللتين أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام هدى للناس، فالتوراة التي بين أيدي اليهود اليوم محرّفة مغيّرة، وكذلك الإنجيل عند النصارى، بل فقد الإنجيل الذي أتى به عيسى عليه السلام والذي فيه هدى ونور على مرّ الزمان ولم يعد له وجود، وإنّما يوجد الآن قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة =

الاتفاق والتصديق فيما بينهم، قال: (فإنّ التوراة قد اشتملت على حكاية حال الأنبياء من لدن آدم إلى بعثة موسى، وفيها التصريح بتصديق بعضهم بعضاً، ولم يقع من أحد منهم الانكار لنبوّة أحد ممن تقدّمه، ثم جاء من بعد موسى وهارون أنبياء بني إسرائيل، وكلّ واحد منهم يقرّ بمن تقدّمه، وثبتت نبوّته، كما اشتمل على ذلك كتب نبوّاتهم، وكثير منهم كان يجاهد من يعبد الأصنام من بني إسرائيل وغيرهم، وقد وقعت لهم قصص وحروب مع من كان يعبد الصنم المعروف (ببعل) الذي ذكر الله سبحانه في القرآن(٣)، وكذلك كان لهم قصص وحروب مع من كان يعبد غيره من الأصنام، وهكذا داود وسليمان وهما من أنبياء بني إسرائيل، وممن يدين بالتوراة، ما زالا في حرب مع عبّاد الأصنام، كما يحكي ذلك الزبور وكتاب داود وكما تحكيه وصايا سليمان وهي كتاب مستقلّ.

وهكذا الإنجيل، فإنّ المسيح عليه السلام كان يحتجّ على المخالفين له من اليهود بنصّ التوراة في غالب فصوله المشتملة على حكاية المسائل التي أنكرها عليه اليهود. ومع هذا فلم يقع اختلاف بينهم قط في الدعاء إلى توحيد الله وإثبات المعاد وصحّة نبوّة كلّ واحد منهم، وصدقه فيما جاء به من الشرع، وفيما حكاه عن الله سبحانه... وكثيراً ما كان يقع التبشير من السابق منهم باللاحق كما هو مصرّح به في التوراة من تبشير موسى بيوشع بن نون،

= والحذف كما هو واضح لدى مقارنتها ببعضها، ويطلق اسم الإنجيل عرفا الآن على هذه القصص التي كتبت بعد زمان المسيح عليه السلام ونسبت إلى كاتبها، وهي كثيرة، ولكن التي تعترف بها الفرق النصرانية وتأخذ بها أربعة وهي: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. (انظر: الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٣٨٠، ٣٨١، وهداية الحيارى لابن القيم ١٠٦ ــ ١٠٩ ط/ الجامعة الإسلامية، وإظهار الحقّ لرحمت الله الهندي ٨٣ ــ ١٧٦، ٢٠٥ ــ ٢٤٩).

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُوْنَ بَعْلًا وَتَذَرُوْنَ أَحْسَنَ الخَالِقِيْنَ﴾ (سورة الصافات، الآية: ١٢٥).

وكما هو مصرّح به في الزبور من تبشير داود بعيسى، وهو الرابع عشر من أولاده، فإنّ بين داود والمسيح أربعة عشر أباً، وقيل أكثر من ذلك حسبما يحكيه ما وقع في بعض نسخ الانجيل، وكما وقع من يحيى بن زكريا المسمّى عندهم يوحنّا، فإنّه بشّر بالمسيح مع اتصال عصره بعصره، فإنّ يحيى بن زكريّا إنّما قتل بعد أن بعث الله المسيح كما يحكي ذلك الإنجيل)(1).

وهذا خلاصة ما في التوراة والانجيل كما أورده الشوكاني مما يدلّ على اتفاق الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى عقيدة التوحيد وتصديق بعضهم بعضاً.

المبحث السادس

من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم

١ ـ من صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:

اقتضت حكمة الله تعالى العلية أن لا يصطفي لابلاغ دينه وتحمّل رسالته إلّا صفوة الخلق وأفضلهم، إذ أنّ اختصاصهم بالكمال والفضل يوجب على الأمم تصديقهم والسير على نهجهم في جميع شؤون الحياة.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم هؤلاء الصفوة المختارة بالثناء العاطر، ووصفهم بأسمى الصفات العالية، فيصفهم تارة بالطاعة والإنابة، وأخرى بالتضحية والايثار، وبالصدق والنزاهة، كلّ ذلك ليدلّ على أنّهم الصفوة المختارة من خلق الله والمثل العليا الكاملة للبشرية.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُوْنَ بِأَمْرِنَا، وَأَوْصَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٢٦).

الْخَيْرَاتِ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيْتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوْا لَنَا عَابِدِيْنَ﴾[1] وقال سبحانه في النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾[2].

وصفات الأنبياء الكرام كثيرة وردت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، ولكنّي اقتصر هنا في هذا المبحث على بعض الصفات التي بيّنها الشوكاني رحمه الله وتكلّم عليها في كتبه.

فمن تلك الصفات:

(أ) البشريّة:

أي كون الرسالة من جنس البشر. والدليل على هذا قوله تعالى حكاية على الرسل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3].

قال الشوكاني في معنى الآية: (أي ما نحن في الصورة والهيئة إلاّ بشر مثلكم، ولكنّ الله يتفضّل على من يشاء منهم بالنبوّة)[4]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوْحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[5] أي إنّ حالي مقصور عن البشرية، لا يتخطّاها إلى الملكية، ومن كان هكذا فهو لا يدّعي الإحاطة بكلمات الله، إلاّ أنّه امتاز عنهم بالوحي إليه من الله سبحانه، وكفى بهذا الوحي فارقا بينه وبين سائر أنواع البشر[6].

وفي الحديث عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «إنّما أنا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٩٨).
(٥) سورة الكهف، الآية: ١١٠، وسورة فصّلت، الآية: ٦.
(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٨).

بشر، وإنّكم تختصمون إليّ. . .) الحديث[1].

قال الشوكاني في معنى الحديث: (البشر يطلق على الجماعة والواحد بمعنى أنّه منهم، والمراد أنّه مشارك للبشر في أصل الخلقة، ولو زاد عليهم بالمزايا التي اختصّ بها في ذاته وصفاته[2]. وهذا حصر له في البشرية باعتبار من أنكر ثبوت ذلك ونازع فيه عناداً وجحوداً، وأما باعتبار غير ذلك مما هو فيه فلا ينحصر في وصف البشرية، إذْ لَهُ صفات أخر، ككونه جسماً، حيّاً، متحرّكاً، نبيّاً، رسولاً، بشيراً، نذيراً، سراجاً، منيراً، وغير ذلك[3].

ومن الحكمة في كون الرسل من جنس البشر:

١ ـ أنّهم أقدر على القيادة والتوجيه، لأنّهم من جنس قومهم، يحسّون بإحساسهم ويعرفون نوازعهم وطبائعهم، فيعيشون فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي فرضها الله عليهم، وهم بهذا يصلحون قدوة وأسوة لهم، بخلاف لو أنّهم من جنس الملائكة.

٢ ـ أنّه أعظم في الابتلاء والاختبار. ففي الحديث القدسي فيما روى ﷺ عن ربّه: (إنّما بعثتك لأَبْتَلِيَكَ وأَبْتَلِيَ بِكَ﴾[4] ومعنى الحديث كما قال النووي رحمه الله: (أي لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة، وغير ذلك من الجهاد في الله حقّ جهاده، والصبر في الله تعالى، وغير ذلك، وأبتلي بك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحيل، باب (١٠) (الفتح ١٢/ ٣٥٥ برقم ٦٩٦٧)، ومسلم في كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٣/ ١٣٣٧ برقم ١٧١٣).

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (١٠/ ٢١٢).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٧٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. (٤/ ٢١٩٧ برقم ٢٨٦٥).

من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر إيمانه ويخلص في طاعته، ومن يتخلّف وينابذ بالعداوة والكفر، ومن ينافق)[1].

٣ ـ إنّ في هذا إكراماً لمن سبقت لهم منه الحسنى، فإنّ اختيار الله لبعض عباده ليكونوا رسلاً تكريم وتفضيل. قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّيْنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوْحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْرَائِيْلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾[2].

فكان إرسال الرسل من البشر ضروريّاً لكي يتمكّنوا من مخاطبتهم والفهم منهم، ولو بعث الله رسله إلى الناس من الملائكة لما أمكنهم ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوْا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوْا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُوْلاً، قُلْ لَوْ كَانَ فِيْ الأَرْضِ مَلاَئِكَة يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُوْلاً﴾[3].

بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير الآية أنّ هذا الاعتقاد الشامل لهم، وهو إنكار أن يكون الرسول من جنس البشر هو الذي منعهم عن الإيمان بالكتاب وبالرسول، فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عن شبهتهم هذه فقال: (قل لو كان.. الآية) أي لو وجد وثبت أنّ في الأرض بدل من فيها من البشر ملائكة يمشون على الأقدام كما يمشي الإنس مطمئنّين مستقرّين فيها ساكنين بها لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً حتى يكون من جنسهم. قال: وفيه اعلام من الله سبحانه بأنّ الرسل ينبغي أن تكون من جنس المرسل إليهم، فكأنّه سبحانه اعتبر في تنزيل الرسول من جنس الملائكة أمرين: الأوّل: كون سكّان الأرض ملائكة، والثاني: كونهم ماشين

---

(١) شرح النووي لمسلم (١٧/ ١٩٨).
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩٤، ٩٥.

على الأقدام غير قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها، وسمعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة)[1].

ومقتضى بشريّة الأنبياء والرسل أنّهم يتصفون بالصفات التي لا ينفكّ عنها البشرية، فيأكلون ويشربون، ويصحّون ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمرّ على البشر، من ضعف، وشيخوخة، وموت. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوْا خَالِدِيْنَ﴾[2] أي إنّ الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة، يأكلون كما يأكلون، ويشربون كما يشربون، والجسد جسم الإنسان، (وما كانوا خالدين)، بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر[3]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾[4].

ومقتضى كونهم بشراً أنّهم ليسوا بآلهة، وليس فيهم من خصائص الألوهية شيء. ولذلك فقد ردّ الله سبحانه وتعالى على النصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام واتخذوه إلهاً في عدّة آيات في كتابه، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَم، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئَاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيْحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِيْ الْأَرْضِ جَمِيْعاً﴾[5] أي لا أحد يقدر أن يمنع ذلك، وإذا لم يقدر أحد أن يمنع من ذلك فلا إله إلاّ الله، ولا ربّ غيره، ولا معبود بحقّ سواه، ولو كان المسيح إلهاً كما تزعم النصارى لكان له من الأمر شيء، ولقدر على أن يدفع عن نفسه أقلّ حال،

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٦٠).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٩٩).
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٧.

ولم يقدر على أن يدفع عن أمّه الموت عند نزوله بها[1]. وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَمَا مِنْ إله إِلاّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾[2]، ﴿مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيْقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامِ﴾[3].

بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية أنّ المسيح ابن مريم ليس هو إلاّ رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلٰهاً، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها، ومن كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس بربّ، بل هو عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربّاً؟ وأما قولهم: إنّه كان يأكل الطعام بناسوته لا بلاهوته فهو كلام باطل يستلزم اختلاط الإلٰه بغير الإلٰه، واجتماع الناسوت باللاهوت، ولو جاز اختلاط القديم[4] بالحادث لجاز أن يكون القديم حادثاً، ولو صحّ هذا في حقّ عيسى لصحّ في حقّ غيره من العباد[5].

(ب) الذكورة:

أي كون الرسل من الرجال دون النساء، ويدلّ على هذا صيغة الحصر التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[6].

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٤).
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.
(٤) تقدم التعليق على تسمية الله تعالى باسم: القديم. انظر صفحة (٣٥٠ هامش رقم ٤).
(٥) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٦٤).
(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

قال الشوكاني: (وتدلّ الآية على أنّ الله سبحانه لم يبعث نبيّاً من النساء ولا من الجنّ، وهذا يردّ على من قال: إنّ في النساء أربع نبيّات: حواء، وآسية، وأمّ موسى، ومريم، وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم[1] في سجاح المتنبّئة[2]:

أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلّهم ... على سجاح ومن باللوم أغرانا)[3]

وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[4] أي لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلّا رجالاً من البشر، ولم نرسل إليهم ملائكة[5].

هذا وقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوّة، كما نقل عن الأشعري، والقرطبي، وابن حزم[6]. وهو رأي مرجوح،

---

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي، أبو علي: أحد أمراء العرب وعقلائهم، والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، كان شاعراً اشتهر وساد في الجاهلية، وهو ممن حرّم على نفسه الخمر فيها، ووفد على النبي ﷺ في وفد تميم عام (٩ هـ) فأسلم، وقال النبي ﷺ لمّا رآه: هذا سيّد أهل الوبر. واستعمله على صدقات قومه. توفّي نحو (٢٠ هـ) (انظر البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٤٥ والتقريب لابن حجر ٤٥٧ برقم ٥٥٨١، والأعلام للزركلي ٥/ ٢٠٦).

(٢) سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية من بني يربوع، أمّ صادر: متنبّئة مشهورة، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار، رفيعة الشأن في قومها، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبي ﷺ، وكانت في بني تغلب بالجزيرة، وتزوّج بها مسيلمة الكذّاب، وبعد مقتله أسلمت وهاجرت إلى البصرة، وتوفيت بها نحو(٥٥ هـ) (انظر البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٣٤، والأعلام للزركلي ٣/ ٧٨).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٦٠).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٩٩).

(٦) انظر الفتح لابن حجر (٦/ ٥٤٢).

والصحيح ما قاله الشوكاني والجمهور[1]، لصريح ما دلّت عليه الآيتان المذكورتان، ولأنّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، والأنوثة تقتضي التستر، وتنافي الاشتهار، لما بين الاشتهار والاستتار من التمانع[2]. ولا يخفى أنّ الذكورة أكمل من الأنوثة، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُوْنَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[3]، وأخبر الرسول الكريم ﷺ أنّ النساء ناقصات عقل ودين[4].

(ج) العصمة:

أي يكون الرسل والأنبياء معصومين في تحمّل الرسالة والتبليغ عن الله، فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ولا يكتمون شيئاً منه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى﴾[6] ومعصومين أيضاً عن ارتكاب الذنوب والمعاصي مما يزري بمناصبهم.

والعصمة ثابتة للأنبياء والرسل دون غيرهم، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها، وميّزهم على سائر البشر.

وقد اتّفقت الأمّة على عصمتهم في التبليغ عن الله، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين[7]. أما عصمتهم في غير ما يتعلّق بالتبليغ عن الله

---

(١) انظر المصدر السابق (٦/ ٥٤٢، ٥٤٣).
(٢) انظر لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢٦٦).
(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (الفتح ١/ ٤٨٣ برقم ٣٠٤). وأخرجه أيضاً في (١٤٦٢، ١٩٥١، ٢٦٥٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات. (١/ ٨٧ برقم ٧٩).
(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٦) سورة النجم، الآية: ٣، ٤.
(٧) انظر: مجموع فتاوى لابن تيمية (١٠/ ٢٨٩، ٢٩٠)، وانظر: الشفا للقاضي عياض =

فاختلف الناس فيه اختلافاً واسعاً، وقد أورد الشوكاني رحمه الله تعالى أقوالهم قال:

(ذهب الأكثر من أهل العلم إلى عصمة الأنبياء بعد النبوّة من الكبائر، وقد حكى القاضي أبو بكر[1] إجماع المسلمين على ذلك، وكذا حكاه ابن الحاجب[2] وغيره من متأخري الأصوليين، وكذا حكوا الإجماع على عصمتهم بعد النبوّة مما يزري بمناصبهم، كرذائل الأخلاق، والدناءات، وسائر ما ينفر عنهم، وهي التي يقال لها صغائر الخسة، كسرقة لقمة، والتطفيف بحبّة... وأما الصغائر التي لا تزري بالمنصب ولا كانت من الدناءات، فاختلفوا هل تجوز عليهم؟ وإذا جازت هل وقعت منهم أم لا؟ فنقل إمام الحرمين[3] عن الأكثرين الجواز عقلاً، وكذا نقل ذلك عن الأكثرين ابن الحاجب، ونقل إمام الحرمين، وابن القشيري[4] عن الأكثرين أيضاً عدم الوقوع. قال إمام الحرمين: الذي ذهب إليه المحصلون أنّه ليس في الشرع قاطع في ذلك نفياً أو إثباتاً، والظواهر مشعرة بالوقوع، ونقل القاضي عياض[5] تجويز الصغائر ووقوعها عن جماعة من السلف منهم أبو جعفر

= (٢/ ٧٨٥) تحقيق: علي محمد البجاوي.

(١) المعروف بالباقلاني، وقد تقدمت ترجمته في صفحة (٣٩٧).

(٢) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس أبو عمر وجمال الدين ابن الحاجب، النحوي، المالكي، الأصولي، الفقيه. من تصانيفه: الكافية في النحو، والشافية في الصرف، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل في أصول الفقه. توفي (٦٤٦ هـ) (انظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان ١/ ٣١٤، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٣٣).

(٣) تقدمت ترجمته في صفحة (٥٦).

(٤) هبة الرحمن بن عبد الواحد بن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن، أبو الأسعد القشيري النيسابوري، خطيب نيسابور، وكبير القشيرية في وقته، روى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وآخرون. توفي (٥٤٦ هـ) (انظر: لسان الميزان: ابن حجر ٦/ ١٨٧، وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٤/ ٣٢٢).

(٥) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٣١).

الطبري[1] وجماعة من الفقهاء والمحدّثين، قالوا ولا بدّ من تنبيههم عليه)[2]
قلت: ولعل هذا هو القول الراجح في المسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (القول بأنّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى أنّه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي[3] أنّ هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاّ ما يوافق هذا القول)[4].

ودليلهم على ذلك ما ورد في القرآن الكريم منسوباً إلى جماعة من الأنبياء من ارتكابهم بعض المخالفات التي لا تقبل التأويل في جملتها وإن قبل ذلك في آحادها، كما وقع لآدم عليه السلام من أكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الأكل منها، وقال في حقّه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[5]، ونوح عليه السلام حين دعا ربّه في ابنه الكافر. وقال تعالى في حقّه: ﴿قَالَ يَا نُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّيْ أَعِظُكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ﴾[6]، وموسى عليه السلام حين أراد نصرة الذي من شيعته، فوكز خصمه القبطي فقضى عليه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ

(١) تقدمت ترجمته في صفحة (٢٤٩).
(٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول: الشوكاني (ص٣٣، ٣٤) وقارن الشفا للقاضي عياض (٢/ ٧٨٦) تحقيق: علي محمد البجاوي.
(٣) علي بن محمد بن سالم الثعلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي، متكلّم أصولي، له نحو عشرين مصنّفاً منها: الأحكام في أصول الأحكام، وغاية المرام في علم الكلام. توفّي (٦٣١ هـ) (انظر: لسان الميزان: لابن حجر ٣/ ١٣٤، ومفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ٢/ ١٦٠).
(٤) مجموع فتاوى لابن تيمية (٤/ ٣١٩).
(٥) سورة طه، الآية: ١٢١، وانظر القصّة من الآية ١٦ من نفس السورة.
(٦) سورة هود، الآية: ٤٦، وانظر الآية ٤٥، ٤٧ من نفس السورة.

عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِيْنٌ، قَالَ رَبِّ إِنِّيْ ظَلَمْتُ نَفْسِيْ فَاغْفِرْ لِيْ، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾[1] وداود عليه السلام حين تسرّع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني. قال تعالى عنه: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرَ لَهُ ذٰلِكَ﴾[2] وما ورد عن نبيّنا محمد ﷺ في مواقف متعدّدة لا مجال هنا لبسطها[3]، وقال تعالى له: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[4]، وغير هؤلاء ممن ورد في القرآن الكريم ارتكابه بعض المخالفات وعاتبه ربّه سبحانه[5].

وقد ذهب الشوكاني رحمه الله تعالى في كتابه: إرشاد الفحول، إلى وجوب تأويل هذه النصوص بما يخرجها عن ظاهرها بوجه من الوجوه، لامتناع وقوع مثل هذه الذنوب منهم بعد النبوّة[6]. وقد اختلفت هذه التأويلات اختلافاً واسعاً وانتشرت عند الكتّاب والباحثين، وهي تأويلات من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[7].

والذي أراه راجحاً في هذه المسألة أنّه لا يمتنع وقوع هذه الصغائر من الأنبياء بعد النبوّة، لأنّها لا تزري بمنصبهم، ولا كانت من الدناءات، فهم بشر من البشر، عصمهم الله في تحمّل الرسالة وتبليغها، وهذه العصمة لا تلازمهم في كلّ أمورهم، فقد تقع منهم بعض المخالفات الصغيرة بحكم كونهم بشراً، ولكنّ الله ينبّههم إليها، ويوفّقهم للتوبة منها من غير تأخير.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥، ١٦.
(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٤، ٢٥، وانظر القصّة من الآية ٢١ من نفس السورة.
(٣) انظر تفصيلها في الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨١٥ ـ ٨٢٢).
(٤) سورة الفتح، الآية: ٢.
(٥) انظر تفصيل الموضوع في الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨١٠ ـ ٨١٢) وأيضاً إرشاد الفحول للشوكاني (ص ٣٤، ٣٥).
(٦) انظر إرشاد الفحول للشوكاني (٣٤، ٣٥).
(٧) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (١٠/ ٣١٣).

ومعلوم أنّه لم يقع ذنب من نبي إلاّ وقد سارع إلى التوبة والاستغفار، والله سبحانه وتعالى لم يذكر في القرآن شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلاّ مقروناً بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾[1]، وقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾[2]، وقول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَالَّذِيْ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِيْ خَطِيْئَتِيْ يَوْمَ الدِّيْنِ﴾[3]، وغير ذلك.

فالأنبياء لا يقرّون على الذنوب مطلقاً، لأنّ الله عصمهم من ذلك، وهذا ما اتفق عليه جمهور الناس الموافق للآثار المنقولة من السلف[4].

وقد ذهب الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره إلى مثل ما قلنا، ففي قوله تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[5] قال: «أي عصاه بالأكل من الشجرة، فغوى فضلّ عن الصواب، أو عن مطلوبه، وهو الخلود بأكل تلك الشجرة». وأورد أقوال بعض المفسّرين في معنى الآية منها ما قاله القاضي ابن العربي: لا يجوز لأحد أن يخبر اليوم بذلك عن آدم. قال الشوكاني: قلت: لا مانع من هذا بعد أن أخبرنا الله في كتابه بأنّه عصاه، وكما يقال: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.

(٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٢٩٣)، وانظر أيضاً الشفا للقاضي عياض (٢/ ٧٨٩).

(٥) سورة طه، الآية: ١٢١، ١٢٢.

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٩٠).

ويرى بعض العلماء أنّ عصيان آدم كان قبل النبوّة بدليل ما في هذه الآية، فإنّه ذكر الاجتباء والهداية بعد ذكر المعصية، وإذا كانت المعصية قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجهاً واحداً، لأنّ قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم(١).

قلت: تأويل عصيان آدم عليه السلام قبل النبوّة حسن لولا أنّه وقع بعد صدور الأمر والنهي إليه بلا واسطة، وهو قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾(٢) وهو ما جعلناه من أمارات نبوّته.

أمّا عصمة الأنبياء والرسل عن السهو والنسيان فلم تثبت عند جمهور أهل السنة، خلافاً للرافضة، فإنّهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل، وينقلون ذلك إلى من يعتقدون إمامته(٣).

وقد ذهب الشوكاني رحمه الله تعالى مذهب جمهور أهل السنة في جواز النسيان عليه ﷺ فيما ليس طريقه البلاغ، ولا يقرّ عليه، بل لا بدّ أن يتذكّره(٤). واستدلّ بما ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث منها:

حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (... إنّما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني)(٥).

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١١/ ٢٥٧) وقد نسب هذا القول إلى ابن فورك، وانظر أيضاً فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٩٠).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٣٢٠).

(٤) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (٣/ ٦٩)، وانظر أيضاً: إرشاد الفحول له (ص ٣٥)، وتحفة الذاكرين له (ص ٣٢٥).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب التوجّه نحو القبلة حيث كان (الفتح ١/ ٦٠٠ برقم ٤٠١)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له (١/ ٤٠٠ برقم ٥٧٢).

وحديث ذي اليدين[١] الذي قال لرسول الله ﷺ لمّا صلّى بهم إحدى صلاتي العَشِي[٢] ركعتين: أَقُصِرَتِ الصَّلاةُ أم نَسِيْتَ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: لم أَنْسَ ولم تُقْصَر. فقال: أكما يقول ذو اليدين؟ فقال الناس: نعم. فقام رسول الله ﷺ فصلّى اثنتين أخريين، ثمّ سلّم، ثمّ كبّر، فسجد مثل سجوده أو أطول. الحديث وفي رواية متّفق عليها لما قال: لم أنس ولم تقصر. قال: بلى قد نَسِيْتَ[٣].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (فيه (أي هذا الحديث) دليل على جواز دخول السهو عليه صلى الله عليه وآله وسلم في الأحكام الشرعية، وقد نقل القاضي عياض والنووي الاجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية، وخصّا الخلاف بالأفعال، وقد تعقّبا[٤]. قال الحافظ: نعم اتّفق من جوّز ذلك على أنّه لا يقرّ عليه، بل يقع له بيان ذلك، إمّا متّصلاً بالفعل أو بعده، كما وقع في هذا الحديث[٥]. وفائدة جواز السهو في مثل ذلك بيان الحكم الشرعي إذا وقع مثله لغيره، وأمّا من منع السهو مطلقاً منه ﷺ[٦] فأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة منها: أنّ قوله ﷺ: (لم أنس) على ظاهره وحقيقته، وأنّه كان

---

(١) اسمه الخِرْبَاق بن عمرو، ولقبه ذو اليدين لطول كان في يديه، وهو معنى قوله: بسيط اليدين. (شرح النووي لمسلم ٥/ ٦٨، ٦٩، وانظر أيضاً الفتح لابن حجر ٣/ ١٢١).

(٢) يريد صلاة الظهر والعصر، لأنّ ما بعد الزوال إلى الغرب عشي (النهاية لابن الأثير ٣/ ٢٤٢ مادة: عشا).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب هل يأخذ الإمام إذا شكّ بقول الناس. (الفتح ٢/ ٢٤٠ برقم ٧١٤) وفي كتاب السهو، باب من لم يتشهد في سجدتي السهو (الفتح ٣/ ١١٨ برقم ١٢٢٨)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له. (١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥ برقم ٥٧٣، ٥٧٤).

(٤) انظر الشفا للقاضي عياض (٢/ ٧٩٨)، وشرح النووي لمسلم (٥/ ٦١).

(٥) انظر هذا الكلام المنقول في الفتح (١/ ١٢١).

(٦) وهم الرافضة وأتباعهم.

متعمّداً لذلك ليقع منه التشريع بالفعل، لكونه أبلغ من القول. ويكفي في ردّ هذا تقريره صلى الله عليه وآله وسلم لذي اليدين على قوله: (بلى قد نسيْتَ)، وأصرح من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما أنا بشر، أنسى كما تنسون» وهو متّفق عليه من حديث ابن مسعود»[1].

٢ ـ من وظائف الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:

ولهؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وظائف جليلة ومهمّات جسيمة بيّنها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. وأذكر منها كما تكلّم عليها الشوكاني رحمه الله في مؤلّفاته:

(أ) دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده، وهذه ـ في الحقيقة ـ هي الوظيفة الأساسية التي بعثت من أجلها الرسل الكرام، وأنزلت من أجلها الكتب السماوية[2]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوْا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوْا الطَّاغُوْتَ﴾[3]، وقال مخاطباً لسيّد الأنبياء ﷺ: «وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾[4]، أي ادع الناس إلى الله وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتناب معاصيه. (ولا تكوننّ من المشركين) فيه تعريض لغيره، لأنّه ﷺ لا يكون من المشركين بحال من الأحوال[5].

وقد بذل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جهوداً عظيمة في سبيل دعوة الناس إلى الله، واستعملوا فيه أساليب مختلفة، من الترغيب، والترهيب، والوعد، والوعيد، وغير ذلك. كما قصّه الله تعالى علينا في كتابه العزيز، ولا يتسع المقام هنا لبسطه.

---

(١) نيل الأوطار: الشوكاني (٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).
(٢) انظر الدر النضيد: الشوكاني (ص ٣١).
(٣) سورة النحل الآية ٣٦.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٧.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٨٩).

(ب) تبليغ شريعة الله إلى البشر. وقد أدّى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هذه الوظيفة على أكمل الوجوه. قال تعالى وهو يثني عليهم: ﴿الَّذِيْنَ يُبَلِّغُوْنَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيْباً﴾[1].

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تبيّن هذه الوظيفة العظيمة للرسل، كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُوْلِ إِلاَّ الْبَلاَغ﴾[2]، وقوله سبحانه مخاطباً لسيّد المرسلين ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[3] قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي فليس عليك إلّا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم (وعلينا الحساب) أي محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها وليس عليك)[4] فعلى الرسول التبليغ أمّا التوفيق في الإجابة فهو من الله وحده، يعطيه لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾[5] (أي ليس بواجب عليك أن تجعلهم مهديّين قابلين لما أمروا به ونهوا عنه (ولكنّ الله يهدي من يشاء) هداية توصله إلى المطلوب)[6].

وكقوله مخاطباً للرسول الكريم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ﴾[7] قال الشوكاني في تفسير الآية: (العموم الكائن في (ما أنزل) يفيد أنّه يجب عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يبلّغ جميع ما أنزل الله إليه لا يكتم منه شيئاً،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٩.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٩٠).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢٩٢).
(٧) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

وفيه دليل على أنّه لم يسر إلى أحد مما يتعلّق بما أنزله الله إليه أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كتم شيئاً من الوحي فقد كذب[1]. وفي صحيح البخاري من حديث أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا. والذي فَلَق الحَبَّة وبَرَأَ النَّسَمَة[2] إلاّ فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة[3]. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفِكَاكُ الأسير[4]، وأن لا يُقتل مسلم بكافر[5].

وقد ناقض كلام الشوكاني هذا ما ذهب إليه في كتابه: نيل الأوطار[6] من اختصاص علي رضي الله عنه بشيء من الأسرار دون غيره، وقال في الحديث السابق أنه: «لا يلزم منه نفي ما ينسب إلى علي من علم الجفر[7] ونحوه أو يقال هو مندرج تحت قوله: إلاّ فهما يعطيه الله تعالى رجلاً في

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير: (يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك) (الفتح ٨/ ١٢٤ برقم ٤٦١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى. الخ) (١/ ١٥٩ برقم ١٧٧).

(٢) أي خلق ذات الروح. النهاية لابن الأثير (٥/ ٤٩ مادة: نسم).

(٣) أي الورقة المكتوبة. (الفتح لابن حجر ١/ ٢٤٧).

(٤) العقل: أي الدية، سمّيت لأنّهم كانوا يعطون فيها الإبل ويربطونها بفناء دار المقتول بالعقال وهو الحبل. وفكاك الأسير: أي تخليص الأسير من يد العدوّ، أي فيها حكمها. (انظر: الفتح لابن حجر ١/ ٢٤٧).

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٩). والحديث أخرجه البخاري في عدة مواضع، انظر كتاب العلم، باب كتاب العلم (الفتح ١/ ٢٤٦ برقم ١١١)، والترمذي في كتاب الديات، باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر (٤/ ١٧ برقم ١٤١٢) وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) انظر (٨/ ١٣٣) عند شرحه للحديث السابق.

(٧) قال أهل المعرفة بهذا العلم: هو عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر على كلّ ما كان وما يكون كلّياً وجزئياً. والجفر هو لوح القضاء الذي هو عقل الكل... وقد ادعت طائفة أنّ عليا وضع الحروف في جلد الجفر يستخرج منها بطرق =

القرآن». وهو قول مردود، ولعلّ الشوكاني رحمه الله رجع عنه بدليل كلامه السابق، وقد تقدّم أنّ كتابه نيل الأوطار من أوائل الكتب التي ألفها[1]، فشأنه في هذا كشأنه في المسائل التي بينتها في باب التمهيد[2] والله تعالى أعلم.

وفي هذا الحديث ردّ على الشيعة وأتباعهم الذين زعموا أنّ عند أهل البيت لا سيّما علياً رضي الله عنه أشياء من الوحي خصّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها لم يطّلع غيرهم عليها، فحلف رضي الله عنه أنّه ليس شيء من ذلك سوى القرآن، وأنه عليه الصلاة والسلام لم يخصّ بالتبليغ والارشاد قوماً دون قوم، وإنّما وقع التفاوت من قبل الفهم، فمن رزق فهماً وإدراكاً ووفّق للتأمل في آياته والتدبّر في معانيه فتح عليه أبواب العلوم[3].

قال الشوكاني: (وقد بلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمّته ما نزل إليهم، وقال لهم في غير موطن: هل بلّغت؟ فيشهدون له بالبيان[4]. فجزاه الله عن أمّته خيراً.

= مخصوصة وشرائط معينة ألفاظ تدّل على ما في لوح القضاء والقدر... (انظر: أبجد العلوم: صديق حسن خان (٢/ ٢١٤) ط/ دار الكتب العلمية).

(١) انظر القائمة (ص ١١٩).

(٢) انظر (ص ١٢٧ ــ ١٣٩).

(٣) انظر: الفتح لابن حجر (١/ ٢٤٧).

(٤) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجّة النبي ﷺ (٢/ ٨٩٠ برقم ١٢١٨) في حديث طويل ولفظه: (وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت). وأخرج نحوه أبو داود في كتاب المناسك، باب صفة حجّة النبي ﷺ (٢/ ١٠٢٥ برقم ٣٠٧٤)، وأخرج الحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٠) من حديث طويل وفيه: «يأيها الناس إنّما أنا بشر ورسول الله، فأذكركم الله إن كنتم تعلمون أنّي قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربّي كما ينبغي لها أن تبلّغ، وإن كنتم تعلمون أنّي قد بلّغت، رسالات ربّي لما أخبرتموني»، فقام الناس، وقالوا: (نشهد أنّك قد بلّغت رسالات ربّك، ونصحت لأمّتك، وقضيت الذي عليك) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

ثم إنّ الله سبحانه وعده بالعصمة من الناس دفعاً لما يظنّ أنّه حامل على كتم البيان، وهو خوف لحوق الضرر من الناس، وقد كان ذلك بحمد الله، فإنّه بيّن لعباد الله ما نزل إليهم على وجه التمام، ثم حمل من أبي من الدخول في الدين على الدخول فيه طوعاً أو كرهاً، وقتل صناديد الشرك، وفرّق جموعهم وبدّد شملهم، وكانت كلمة الله هي العليا)[1].

(ج) التبشير والانذار.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّيْنَ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ﴾[2].

قال الشوكاني: (أي كانوا على دين واحد، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)[3].

ومعنى مبشّرين ومنذرين أي مبشّرين لمن أطاعهم لمن أعدّ الله له من الجزاء العظيم، ومنذرين لمن عصاهم بمَا لَهُ عند الله من العذاب الوبيل[4].

وقد قصر الله سبحانه مهمّة الرسل على هاتين الوظيفتين في قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِيْنَ إِلاَّ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ﴾[5].

وتبشير الرسل وإنذارهم دنيويّ وأخرويّ، فهم في الدنيا يبشّرون المؤمنين الطائعين بالحياة الطيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[6] كما يبشّرونهم في الآخرة بالجنّة ونعيمها ﴿وَمَنْ يُطِعِ

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٦٠).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢١٣).
(٤) المصدر السابق (٢/ ١١٨) وأيضاً (٤/ ٢٨٨).
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٤٨، وسورة الكهف، الآية: ٥٦.
(٦) سورة النحل، الآية: ٩٧.

اللَّهَ وَرَسُوْلَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾[1]، وينذرون الكافرين والعصاة بالشقاء الدنيوي ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِيْ فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكَاً﴾[2]، كما ينذرونهم عذاب الله في الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُوْدَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيْهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِيْنٌ﴾[3].

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى سيد الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام بشأن هذه المهمّة في عدّة آيات بصيغة الحصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيْرٌ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾[5].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (وجاء في (إنّما أنت منذر) بصيغة الحصر، لبيان أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مرسل لإنذار العباد، وبيان ما يحذرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك، وقد فعل صلى الله عليه وآله وسلم ما هو عليه، وأنذر أبلغ إنذار، ولم يدَعْ شيئاً مما يحصل به ذلك إلّا أتى به وأوضحه وكرّره، فجزاه الله عن أمّته خيراً)[6].

هذه أهم وظائف الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهناك وظائف أخرى كثيرة تفرّعت عن هذه الوظائف، كإصلاح النفوس وتزكيتها، وتصحيح العقائد المنحرفة، والتذكير بالنشأ والمصير، وغير ذلك من الأمور التي بعث الله لأجلها رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤.
(٤) سورة هود، الآية: ١٢.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٧.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٦٨).

المبحث السابع

الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وبشاراته في الكتب السابقة

الإيمان بنبوّة محمد ﷺ:

الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وأنّ الله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وأنّه عبد الله وصفيّه من خلقه، أصل عظيم من أصول الإيمان، إذ لا يحصل لأحد الإيمان الصحيح حتى يؤمن بمحمد ﷺ رسول ربّ العالمين، وسيد الأوّلين والآخرين، وخاتم النبيين.

فيجب على كلّ عبدٍ لاعتقاد الجازم بأنّه عليه الصلاة والسلام إمام المتّقين الذي يقتدى به في الخير كلّه، وأنّه وحده الذي تجب طاعته والاقتداء به دون سواه. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوْنِيْ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[3]: (أي هو أحقّ بهم في كلّ أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبّوه زيادة على حبّهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ بشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم إليه ويؤخّروا ما دعتهم أنفسهم إليه،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبهم خواطرهم)[1].

ويجب أن نعتقد أنّه عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى عامّة الجنّ والانس، عربهم وعجمهم، وأصفرهم وأحمرهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنِّيْ رَسُوْلُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيْراً وَنَذِيْراً﴾[3].

وقد حكى الله سبحانه وتعالى عن الجنّ أنّهم قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيْبُوْا دَاعِيَ اللّهِ وَآمِنُوْا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ﴾[4] وهذا يدلّ على أنّهم آمنوا بالنبي ﷺ.

أمّا قول بعض الطوائف من النصارى وأمثالهم إنّه ﷺ رسول إلى العرب خاصّة فظاهر البطلان، ويكفي في الردّ على هذه الفرية أن نبيّن لهم تناقضهم، فإنّ تصديقهم بالرسالة يقتضي تصديقه في كلّ ما يخبر به، وقد قال إنّه رسول الله إلى الناس عامّة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتماً، فقد أرسل رسله، وبعث كتبه في أقطار الأرض، إلى كسرى، وقيصر، والنجّاشي، والمقوقس، وسائر ملوك الأطراف، يدعو إلى الإسلام[5].

كما يجب أن نعتقد أنّه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٢٦١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٥) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ١٧٨)، وانظر ما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح. في الردّ على شبهات رجل نصراني، وإحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الإسلام في الردّ عليها زعم ذلك النصراني أنّ محمداً مرسل إلى العرب دون غيرهم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُوْلَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ﴾[1].

وفي الحديث: «فُضِلْتُ على الأنبياء بستّ. وفيه... وخُتِمَ بي النبيّون»[2].

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده إلى قيام الساعة. أمّا نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان كما أخبر به المصطفى ﷺ فهو حقّ وصدق، ولكنّه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل، بل يحكم بشريعة القرآن، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

تبشير الكتب السابقة بنبوّة محمد ﷺ:

إنّ مما يدلّ على ثبوت نبوّة نبيّنا محمد ﷺ تبشير الكتب السابقة، كالتوراة والزبور والإنجيل بالنبي ﷺ.

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى هذه البشارات، حيث أورد العديد من النصوص التي وردت في هذه الكتب، والتي تفيد البشارة بالنبي ﷺ.

ومن الملاحظ أنّ الشوكاني قد نقل النصوص عن النسخة الموجودة في عهده، والتي لم يعمّها التبديل والتحريف كما عمّها الآن، لأنّي وجدت كلمات منها ساقطة من النسخ التي بين أيدينا (وهي العهد القديم والعهد الجديد) خاصّة ما يتعلّق باسم النبي محمد ﷺ، كما سأنبّه عليه في موضعه إن شاء الله.

ولا يخفى أنّ هذا دليل على وقوع الحذف والتحريف أيضاً على يد المتأخّرين بعد الإمام الشوكاني حين قدموا تلك الكتب أخيراً للتداول بين

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) تقدّم تخريجه في صفحة (٤٩٤).

الناس في العصر الحديث عن طريق الطباعة[1].

وينبغي أن يعلم أنّ الاستشهاد بهذه النصوص ليس معناه إقراراً بصحّتها أو اعترافاً بأنّها الوحي الصحيح الذي أنزله الله سبحانه على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، بل إنّما هو من قبيل إقامة الحجّة، ليزداد الذين آمنوا إيماناً مع إيمانهم، وتكميل الفائدة لمن كان في قلبه ريب وفي صدره حرج[2].

تبشير التوراة بمحمد ﷺ:

فمن البشارات التي جاءت في التوراة بمحمد ﷺ ما يذكره الشوكاني رحمه الله عن التوراة أنّه في الفصل السابع عشر من السفر الأوّل[1] منها: (قال الله سبحانه لإبراهيم: وقد سمعت قولك في إسماعيل، وها أنا مبارك فيه، وأثمره، وأكثره بمأذمأذ) انتهى. قوله(بمأمأذ) هو اسم محمد بالعبرانية، وهذا صريح في البشارة بنبيّنا محمد ﷺ[2].

قلت: هذه الكلمة لا توجد في العهد القديم الذي بين أيدينا، ويوجد

---

(١) ذكر الشيخ رحمت الله الهندي ــ رحمه الله تعالى ــ عدداً من طبعات هذه الكتب، وأثبت أنّ التبديل والتغيير عند كلّ طباعة بمنزلة الأمر الطبيعي لهذه الفرقة، لوجود اختلاف لفظي ومعنوي في كثير من الآيات بين كلّ طبعة وأخرى. (انظر مقدمة كتاب: إظهار الحقّ. تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا ١/ ٤٠، ٤١ وانظر أيضاً ما بيّنه شيخ الإسلام ابن تيمية من هذا التحريف في كتابه: الجواب الصحيح ١/ ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٤).

(١) أي سفر التكوين.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص٢٧)، وانظر إظهار الحقّ للشيخ رحمت الله الهندي (٢/ ٥١٨) وقد ذكر ــ رحمه الله ــ أنّ العلماء صرّحوا بأنّ من أسمائه ﷺ (مادماد) كما في الشفا للقاضي عياض. (انظر ١/ ٣٢١) حيث قال: ومن أسمائه في الكتب السالفة: ماذماذ، ومعناه: طيب طيب. . . حكاه كعب الأحبار.

في هذا الموضع ما نصّه: (وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جدّاً اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله لأمّة كبيرة)[1].

ولا شكّ أنّ يد التحريف أسقطت الكلمة المذكورة، وعلى كلّ فإنّ هذا النصّ أيضاً فيه بشارة بالنبي ﷺ، لأنّه وعد من الله سبحانه لإبراهيم في حقّ إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فقوله: (لأمّة كبيرة) يشير إلى محمد ﷺ، لأنّه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لأمّة كبيرة غيره، إذ رسالته عامّة، وقد قال الله تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقّه عليهم السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُوْلاً مِنْهُمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾[2].

ويؤيّد هذا ما جاء في سفر التكوين: (وابن الجارية أيضاً سأجعله أمّة لأنّه نسلك)[3] فابن الجارية هو إسماعيل جدّ محمد ﷺ، والأمّة العظيمة هي أمّة محمد ﷺ[4].

ومن بشارات التوراة كما يذكره الشوكاني ما جاء في الفصل الثالث والثلاثين من السفر الخامس[5] ما لفظه: (يا الله الذي تجلّى نوره من طور سينا، وأشرق نوره من جبل سَيْعِيْر[6]، ولوّح[7] به من جبل فاران، وأتى ربوة القدس بشريعة نور من يمينه لهم) انتهى.

ويعلّق الشوكاني على هذا النصّ فيقول: (قال جماعة من العلماء: إنّ

---

(١) العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١٧ فقرة ٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٣) الأصحاح ٢١ فقرة ١٣.
(٤) انظر اظهار الحقّ للشيخ رحمت الله الهندي (٢/ ٥١٧).
(٥) أي سفر التثنية.
(٦) في العهد القديم: سعير (انظر سفر التثنية، الأصحاح ٣٣ فقرة ١).
(٧) في العهد القديم: وتلألأ. (انظر سفر التثنية، الأصحاح ٣٣ فقرة ١).

معنى تجلّي نور الله سبحانه من طور سينا، أو مجيئه من طور سينا هو إنزاله التوراة على موسى بطور سينا، ومعنى إشراقه من جبل (سَيْعِيْر): إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من (سَيْعِيْر) أو (ساعير) وهي أرض الخليل من قرية منها تدعى (ناصرة) وباسمها سمّي أتباعه نصارى، ومعنى لوّح به من جبل فاران، أو استعلن من جبل فاران: إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة بلا خلاف[1] بين علماء المسلمين وأهل الكتاب.

ومما يؤيد هذا ما في التوراة في السفر الأوّل منها ما لفظه: (وغدا إبراهيم فأخذ الغلام يعني إسماعيل، وأخذ خبزاً وسقاء من ماء، ودفعه إلى هاجر، وحمله عليها، وقال لها: اذهبي. فانطلقَتْ هاجر، فظلت سبعاً، ونفد الماء الذي كان معها، فطرحَتْ الغلام تحت شجرة، وجلسَتْ مقابلته على مقدار رمية سهم، لئلّا تبصر الغلام حين يموت، ورفعَتْ صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، فدعا ملك الله هاجر، وقال لها: مالك يا هاجر لا تخشي، فإنّ الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومي فاحملي الغلام، وشدّي يديك به، فإنّي جاعلك لأمّة عظيمة، وفتح الله عينيها، فبصرت بئر ماء فسقت الغلام، وملأت سقاها، وكان الله مع الغلام، فربّى وسكن في برية فاران) انتهى[2].

ولا خلاف أنّ إسماعيل سكن أرض مكة فعلم أنّها فاران، وقد حكى الله سبحانه في القرآن الكريم ما يفيد هذا، فقال حاكياً عن إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا

---

(١) قال الياقوت الحموي في معجم البلدان (٤/ ٢٢٥ مادة: فاران): فاران: بعد الألف راء، وآخره نون: كلمة عبرانية معرّبة، وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة قالوا: وفاران: اسم لجبال مكة.

(٢) انظر العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٢١ من فقرة ١٤ ــ ٢١ مع اختلاف يسير في الألفاظ والحروف.

إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِيْ بِوَادٍ غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيْمُوْا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِيْ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ﴾[1].

ولا خلاف في أنّ المراد بهذا الوادي أرض مكة، وفي الأحاديث الصحيحة الحاكية لقصّة إبراهيم مع هاجر وولدها إسماعيل ما يفيد هذا ويوضّحه)[2].

ومما يؤيّد هذه البشارة كما يذكره الشوكاني ما جاء في نبوّة النبي حبقوق، ولفظه: (جاء الله من التيمن، وظهر القدس على جبال فاران، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، وملك يمينه رفات الأمم، وأنارت الأرض لنوره، وحملت خيله في البحر)[3] انتهى.

وفي هذا التصريح بجبال فاران مع التصريح باسم نبيّنا محمد ﷺ بقوله: «وامتلأت الأرض من تحميد أحمد» تصريحاً لايبقى بعده ريب لمرتاب[4].

قلت: هذه العبارة لا توجد في نصّ العهد القديم، ولا شكّ أنّ يد التحريف والتبديل قد أسقطتها، وما ذلك بأوّل تحريف وتبديل وتغيير منهم، وقد قال تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُوْنَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُوْنَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾[5].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٢٧، ٢٨).
(٣) انظر العهد القديم، كتاب النبي (حبقوق)، الأصحاح ٣ من فقرة ٣ مع سقوط العبارة: (وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك يمينه رفات الأمم).
(٤) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٢٩).
(٥) سورة البقرة، الآية: ٧٥.

تبشير الزبور بمحمد ﷺ:

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (ومن البشارات بنبينا محمد ﷺ في الزبور لداود عليه السلام ما لفظه: (إنّ ربّنا عظيم محمود جدّاً، ومحمد قد عمّ الأرض كلّها فرحاً)(١) انتهى، ففي هذا التصريح باسمه ﷺ).

ومن ذلك قوله في موضع آخر: (ويجوز من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، وتخزي أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب، ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص البائس المضطهد من هو أقوى منه وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويصلّى عليه، ويبارك في كلّ حين)(٢) انتهى.

ويعلّق الشوكاني على هذا النصّ فيقول: (وهذه الصفات أيضاً ليست لأحد من الأنبياء غيره، فإنّه لم يملك أحد منهم من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض كما ذلك معلوم لكلّ أحد، بل الذي انتشرت شريعته وبلغت سيوف أمّته إلى هذا المقدار هو نبيّنا ﷺ. وهكذا قوله: (ويسجد له ملوك الفرس) فإنّه لم يفتح الفرس، ويستعبد أهلها، ويضرب عليهم الجزية إلاّ أمّة نبيّنا ﷺ. وهكذا قوله: (وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد) فإنّها لم تدن الأمم كلّها لغيره. وهكذا قوله: (ويصلّى عليه ويبارك في كلّ حين) فإنّ هذا يختصّ بنبيّنا ﷺ، لاستمرار ذلك له في كلّ وقت، ووقوع الأمر القرآني به، ولم يكن ذلك لغيره من الأنبياء)(٣).

ومن البشارات كما يذكره الشوكاني ما جاء في نبوّة أشعيا ما لفظه:

---

(١) انظر العهد القديم، المزمور ٤٨ من فقرة ١ مع سقوط ما يتصل بمحمد ﷺ.
(٢) انظر العهد القديم، المزمور ٧٢ لسليمان عليه السلام، من فقرة ٨ ــ ١٥ مع اختلاف يسير.
(٣) إرشادات الثقات: الشوكاني (ص ٢٩، ٣٠).

(إنّي جعلت أمرك يا محمد يا قدوس الربّ اسمك موجود إلى الأبد)[1] انتهى. وما في نبوّة دانيال النبي حيث صرّح فيها باسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل ما تقدّم في نبوّة حبقوق فقال: (ستنزع في مسيك اعراقاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء)[2].

وفي موضع آخر من كتابه هذا التصريح ببعثة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، فقال بعد ذكر التبشير بالمسيح ما لفظه: (حتى أبعث نبي بني إسماعيل الذي بشّرت به هاجر، وأرسلت إليها ملائكة فبشّروها، فأوحى إلى ذلك النبي، وأعلمه السما وأزينه بالتقوى، وأجعل البر شعاره، والتقوى جهده والصدق قوله، والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنّته، بكتاب مصدّق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسري به إليّ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو، فأدنيه وأسلم عليه، وأوحي إليه، ثم أردّه إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظاً لما استودع، صادعاً بما أمر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظّ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به حتى من عاداه)[3] انتهى.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (ولا ريب أنّ هذه صفات نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه لم يبعث الله نبيّاً من بني إسماعيل سواه. ومثل هذه الصفات ما في حديث عبد الله بن عمر وعند البخاري وغيره أنّه قيل له: أخبِرْنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في

(١) لم أجد هذه العبارة في العهد القديم في الباب المذكور، ولعلّ يد التحريف أسقطتها، كما أسقطت أمثالها.
(٢) لم أجد هذا النصّ أيضاً في الكتاب المذكور.
(٣) كذلك لم أجد هذا النصّ في نبوة دانيال، ولعل يد التحريف أسقطتها.

القرآن: (يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وحِرْزاً للأمّيّين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، لست بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يجزي السيئة بالحسنة، ويعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عمياء، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، بأن يقولوا لا إله إلّا الله)[1].

وقال: قيل: قد يراد بلفظ التوراة جنس الكتب المتقدمة من التوراة والزبور والإنجيل وسائر كتب أنبياء بني إسرائيل، فعلى هذا يكون المراد بقول عبد الله بن عمرو: (إنّه لموصوف في التوراة) هذه الصفات المذكورة في نبوة دانيال[2]. ولا مانع من أن تكون هذه الصفات كانت موجودة في التوراة فحذفتها اليهود، فما ذلك بأوّل تحريف وتبديل وتغيير منهم[3].

تبشير الإنجيل بمحمد ﷺ:

ومن البشارات بالنبي ﷺ في الإنجيل كما يذكره الشوكاني رحمه الله ما جاء في الفصل الخامس عشر من الإنجيل الذي جمعه يوحنا: (إنّ الفارقليط روح الحقّ الذي يرسله الله هو يعلم كلّ شيء).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كراهية الصخب في السوق. (الفتح ٤/ ٤٠٢ برقم ٢١٢٥)، وفي كتاب التفسير سورة الفتح، باب: (إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً) (الفتح ٨/ ٤٤٩ برقم ٤٨٣٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وأخرجه الدارمي في المقدمة، باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه. (١/ ١٦ برقم ٦) عن ابن سلام. وأحمد في المسند (٢/ ١٧٤) عن عبد الله بن عمرو. قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٨٩): وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال: وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام، ولم يقل عبد الله بن عمرو، وهذا أولى، فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسئل عن التوراة، فيخبر بما فيها. اهـ قلت: ولا مانع أن يكون عطاء بن يسار حمله عن كلّ منهما. (انظر الفتح ٤/ ٤٠٣).

(٢) أي على أساس أنها كانت موجودة في النسخة المخطوطة التي نقل عنها الشوكاني، لأنّ النسخة المطبوعة والموجودة الآن ليس فيها هذا النصّ.

(٣) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٢).

وفي موضع آخر منه: (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الله هو يعلم كلّ شيء، وهو يذكركم ما قلت لكم).

وفي موضع آخر منه: (إذا جاء الفارقليط الذي أرسله الله روح الحقّ الذي هو يشهد لي، قلت لكم هذا حتى إذا كان، يؤمنون به، ولا يشكون فيه)[1].

وفي الفصل السادس عشر منه (أي من إنجيل يوحنّا): (لكنّي أقول لكم الحقّ إنّه خير لكم أن أنطلق، لأنّه إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبّخ العالم على الخطيئة، وعلى البر، وعلى الحكم، أمّا على الخطيئة فإنّهم لم يؤمنوا بي، وأمّا على البر فإنّي منطلق ولستم تروني، وأمّا على الحكم فإنّ رئيس هذا العالم يدان، وأنّ له كلاماً كثيراً لستم تطيقون كلّه الآن، لكن إذا جاء روح الحقّ ذاك، فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ، لأنّه ليس ينطق من عنده، بل يتكلّم بما يسمع، ويخبركم بكلّ ما يأتي)[2] انتهى.

ويعلّق الشوكاني على هذه النصوص فيقول: (وقد تكرّر ذكر

---

(١) لا توجد هذه النصوص بالذات في العهد الجديد في الموضع المشار إليه، وإنّما يوجد ما هو قريب منه، مثل قوله في فقرة (٢٦): (ومتى جاء المُعَزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذي من عند الربّ ينبثق فهو يشهد لي) كما يوجد في الأصحاح الرابع عشر قبله ما نصّه: (١٥) (إن كنتم تحبّونني فاحفظوا وصاياي. (١٦) وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. (١٧) روح الحقّ الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأمّا أنتم فتعرفونه، لأنّه مَاكِثٌ معكم، ويكون فيكم. (٢٦) وأمّا المُعَزِّيْ الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم كلّ شيء، ويذكركم بكلّ ما قلته لكم. (٢٩) وقلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان يؤمنون). فقد ورد هنا لفظ: (المُعَزِّيْ) بدلاً من: (الفارقليط).

(٢) هكذا في العهد الجديد، يوحنّا، الأصحاح ١٦ من فقرة ٧ ــ ١٣ مع اختلاف يسير، ومن ذلك الاختلاف ذكر كلمة: (المُعَزِّي) بدل: (الفارقليط).

(الفارقليط) في الإنجيل، وأنذر به المسيح، وبشّر به قومه في غير موضع منه، وقد اختلفوا في المراد با (الفارقليط) في لغتهم على أقوال. وذهب الأكثرون من النصارى أنّه المخلّص، قالوا: هو مشتق من (الفاروق) أو من (فارق)، قالوا: ومعنى (ليط) كلمة تزاد، كما يقال: رجل هو، وحجر هو، وجاهل هو.

وقد تقرّر أنّه لا نبيّ بعد المسيح غير نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه البشارات قد تضمّنت أنّه سيأتي بعد المسيح نبي يخلص تلك الأمّة مما هم فيه، ويوبّخهم على الخطية، ويتكلّم بما يسمع، ويخبر بكلّ ما يأتي، ولم يكن هذا لأحد بعد المسيح غير نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يدلّ على أنّ المراد بالفارقليط هو نبيّنا ﷺ أنّه وقع الحذف بهذا اللفظ من بعض نسخ الإنجيل، مع ثبوته في غالبها[1]، وليس ذلك إلّا تغييراً وتبديلاً من النصارى، لما يعلمونه من أنّ المراد بهذا اللفظ هو التبشير بنبيّ يأتي بعد المسيح، وأنّها ستقوم بذلك الحجّة عليهم، فحذفوا هذا اللفظ لهذه العلّة)[2].

يقول الشيخ رحمت الله الهندي[3] في صدد بيان معنى: (الفارقليط) وتحليله: (إنّ من عادة أهل الكتاب أن يترجموا الأسماء ولا يبقوها على

---

(١) انظر مزيد التفصيل عن هذا في كتاب إظهار الحقّ للشيخ رحمت الله الهندي (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٥١) تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٢، ٣٣).

(٣) رحمت الله بن خليل بن نجيب العثماني الكيرانوي الهندي، باحث عالم الدين والمناظرة، جاور بمكة وتوفّي بها (١٣٠٨ هـ) وأسّس بها مدرسة نظامية تربوية وسمّاها: المدرسة الصولتية. له مؤلفات مفيدة أشهرها: إظهار الحقّ. وهو من أفضل الكتب في موضوعه، ألّفه بالعربية، وترجم إلى لغات شتى. (انظر ترجمته في مقدمة كتاب إظهار الحقّ ١/ ٢٨ ـ ٣٦، الأعلام للزركلي ٣/ ١٨).

لفظها، وعيسى عليه السلام كان يتكلّم بالعبرانية لا باليونانية، فإذا لا يبقى شكّ في أنّ الانجيلي الرابع (أي يوحنا) ترجم اسم المبشّر به باليونانية بحسب عادتهم، ثم مترجموا العربية عرّبوا اللفظ اليوناني بفارقليط.

ثم يذكر رحمه الله أنّه قد وجد رسالة صغيرة باللغة الأردوية لبعض القسس، عام ١٢٦٨ هـ طبعت في (كلكتا)، وكانت في تحقيق لفظ (الفارقليط)، وملخص كلامه أنّ هذا اللفظ معرّب من اللفظ اليوناني، فإن قلنا إنّ هذا اللفظ اليوناني الأصلي (باركلي طوس) فيكون بمعنى المعزّي والمعين والوكيل، وإن قلنا إنّ اللفظ الأصلي (بيركلوطوس) يكون قريباً من معنى محمد وأحمد. ويدّعي صاحب الرسالة أنّ علماء المسلمين التبس الأمر عليهم، ففهموا أنّ اللفظ في الأصل (بيركلوطوس) وقالوا إنّ عيسى بشّر بمحمد عليهما الصلاة والسلام.

ويردّ الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك فيقول: (إنّ التفاوت بين اللفظين يسير جدّاً، وإنّ الحروف اليونانية كانت متشابهة، فتبديل (بيركلوطوس) بـ(باراكلي طوس) في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس، ثم رجّح أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الأخرى. . . ومثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد، بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات)(١) اهـ.

قلت: وعلى كلّ فإنّ الكلمة إن كانت في الأصل (بيركلوطوس) بمعنى محمد أو أحمد أو محمود فإنّ عيسى عليه السلام قد بشّر بمحمد ﷺ صراحة، كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيْلَ إِنِّيْ رَسُوْلُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ

---

(١) انظر إظهار الحقّ: رحمت الله الهندي (١/ ٥٣٨، ٥٣٩) تحقيق/ د: أحمد حجازي السقا.

مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُوْلٍ يَأْتِيْ مِنْ بَعْدِيْ اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[١]، وإن سلّمنا أنّها كانت (باراكلي طوس) بمعنى المعزّى والمعين والوكيل فإنّ عيسى عليه السلام قد كنّى عن رسول الله محمد ﷺ، لأنّ هذه المعاني كلّها تصدق عليه.

إشارة القرآن والسنة إلى بشارات الكتب السابقة:

وقد حكى الله سبحانه في القرآن الكريم ما تتضمّنه الكتب المنزّلة والرسل المرسلة من التبشير بنبيّنا محمد ﷺ ما يغني عن جميع ما ذكرناه من نصوص تلك الكتب، وإنّما أردنا بالنقل منها إلزام الحجّة وتكميل الفائدة لمن كان في قلبه ريب وفي صدره حرج[٢].

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُوْلَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِيْ يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوْباً عِنْدَهُمْ فِيْ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوْفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[٣]. وقال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُوْنَهُ كَمَا يَعْرِفُوْنَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيْقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُوْنَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ﴾[٤] وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ﴾[٥] والمراد بآيات الله ما في كتبهم من دلائل نبوّة محمد ﷺ[٦]. وقال سبحانه: ﴿وَكَانُوْا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾[٧] أي كانوا من قبل

---

(١) سورة الصفّ، الآية: ٦.
(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٤).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٠.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٣٥١).
(٧) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة.

وقد روى البيهقي بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة (رضي الله عنهم) قالوا: كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً في التوراة فيسألون الله أن يبعثه نبيّاً فيقاتلون معه العرب، فلمّا جاء محمد كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِيْ، قَالُوْا أَقْرَرْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوْا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِيْنَ﴾(٢).

قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهم: ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمّته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه(٣).

هذا بعض ما اشتمل عليه الكتاب العزيز، وفي الأحاديث ما يؤيّد ذلك ويؤكّده.

وقد أورد الشوكاني رحمه الله أحاديث وقصصاً كثيرة في هذا الصدد(٤) منها:

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١١٢، ١١٣) والأثر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٣٦) تحقيق/ د: عبد المعطي قلعجي. قال الشوكاني: وقد روي نحو هذا عن ابن عباس ومن غير وجه بألفاظ مختلفة ومعانيها متقاربة، وروي عن غيره من السلف نحو ذلك.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦).

(٤) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (من ص ٣٥ ـ ٤٤).

ما ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب لمّا سأله هرقل ملك الروم عن صفات رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: (إن يكن ما تقوله حقّاً إنّه نبيّ، وقد كنت أعلم أنّه خارج، ولم أكن أظنّ منكم، ولو أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه)[1].

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك أنّ غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله ﷺ: يا يهوديّ، أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة نعتي وصفتي ومخرجي؟ قال: لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله، إنّا نجد في التوراة نعتك وصفتك ومخرجك، وإنّي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، فقال النبي ﷺ لأصحابه: أقيموا هذا من عند رأسه ولُوْا أخاكم[2].

وأمثال هذا كثيرة جدّاً يطول المقام ببسط بعضها فضلاً عن كلّها. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية من دلائل إثبات النبوّات على العموم وإثبات نبوّة نبيّنا ﷺ على الخصوص ما لا يخفى على كلّ باحث.

وفي المبحث التالي أذكر شيئاً منها على التفصيل الذي ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في مؤلّفاته.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب (٦) من حديث طويل (انظر الفتح ١/ ٤٣ برقم ٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام. (٣/ ١٣٩٥ برقم ١٧٧٣) واللفظ له.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٣٦، ٣٧) والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٢) تحقيق/ د: عبد المعطي قلعجي. ومعنى: (وَلَوْا أخاكم): أي صلوه وتولّوا أمره.

المبحث الثامن

من دلائل النبوّة

اقتضت حكمة الله سبحانه العلية أن لا يرسل رسله إلّا بالدلائل والحجج والبراهين المبينة للدلالة على صدقهم في دعواهم أنّهم رسل الله، كي تقوم الحجّة على الناس، ولا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] أي بالمعجزات البيّنة، والشرائع الظاهرة، والعلامات الواضحة التي تدلّ على صدقهم[2].

وآيات الرسل مختلفة، هذا يأتي بآية أو آيات لم يأت بها الآخر بحسب ما يعطيه الله منها، فليس المراد من الآيات إلّا الدلالة على النبوّة لكونها معجزة خارجة عن القدرة البشرية[3].

ودلائل نبوّة الأنبياء كثيرة كما وردت في الكتاب والسنّة، وأقتصر في هذا المبحث على ذكر بعض من دلائل نبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه، لأن ثبوت نبوّته تستلزم ثبوت نبوّة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ووجه ذلك كما قال الشوكاني رحمه الله أنّ ثبوت نبوّته ﷺ يستلزم ثبوت جميع ما أخبر به وصحّته، ومما أخبر به ثبوت نبوّة جميع الأنبياء، فكان في ذكر دلائل نبوّته ﷺ ما يغني عن ذكر نبوّة سائر الأنبياء[4].

فمن دلائل نبوّة النبي ﷺ:

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٧٧) وأيضاً (١/ ١١٨).
(٣) انظر المصدر السابق (٣/ ٦٨).
(٤) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٦٨).

القرآن الكريم معجزة الرسول الخالدة:

وهو من أعظم الدلائل التي أعطيها رسولنا ﷺ.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في بيان هذه المعجزة: (واعلم أنّ دلائل نبوّة نبيّنا ﷺ يطول تعدادها، ويتعسّر ذكرها، وقد صنّف أهل العلم في ذلك[1] مصنّفات مبسوطة مشتملة على كثير منها، ولو لم يكن منها إلاّ هذا الكتاب العزيز الذي جاء به من عند الله سبحانه مشتملاً على مصالح المعاش والمعاد، وتحدّى به فرسان الكلام وأبطال البلاغة، وأفراد الدهر في العلم بهذه اللغة العربية، وقال لهم: ﴿فَلْيَأْتُوْا بِحَدِيْثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوْا صَادِقِيْنَ﴾[2]، ثم قال لهم: ﴿فَأْتُوْا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، وَادْعُوْا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾[3] ثم قال لهم: ﴿فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[4] فلم يقدروا على ذلك، وكاعوا عنه[5]، وعجزوا على رؤوس الأشهاد، وكان أكابر بلغائهم وأعاظم فصحائهم إذا سمعوا القرآن اعترفوا بأنّه لا يشبه نظمهم ولا نثرهم، وأقرّوا ببلاغته، كما قال الوليد بن المغيرة لمّا سمع النبي ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِيْ الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

---

(١) منهم ـ كما ذكر الشوكاني ـ الإمام أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ)، والإمام أبو إسحاق الحربي (ت ٢٨٥ هـ)، والإمام أبو جعفر الفريابي (ت ٣٠١ هـ)، والإمام أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤ هـ)، والإمام أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، والإمام أبو الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ)، والإمام أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ)، والإمام أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، والإمام أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، والإمام أبو عبد الله المقدسي (ت ٦٤٣ هـ)، وغير هؤلاء. (انظر إرشاد الثقات ص ٤٩).

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٤.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٥) كاع عن الشيء من باب باع: إذا هابه وجبن عنه. (مختار الصحاح ٢٤٣ مادة: كوع).

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾[1] فقال: أعِدْ. فأعاد النبي ﷺ، فقال: والله له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمُغْدِق[2]، وما يقول هذا البشر[3].

ومما يدلّ على أنّ القرآن الكريم أكبر معجزة للنبي ﷺ أنّه اشتمل على أعظم تشريع، وعلى قدر من العلوم الإلٰهيّة، والحقائق العلمية، والقوانين الكونية، كما اشتمل على الإخبار بمغيّبات عديدة فكانت كما أخبر، واشتمل كذلك على قدر من قصص الأمم الماضية والأنبياء السابقين، وما جاءوا به، وإلى من بعثهم الله، وما قالوا لقومهم، وما أجابوا به، وما جرى بينهم من الحوادث، كلّياتها وجزئياتها، وكون هذا النبي متقدّماً على هذا، وهذا كان متأخّراً عن هذا، مع كثرة عددهم، وطول مددهم، واختلاف أنواع قومهم، واختلاف ألسنتهم وتباين لغاتهم، موافقاً لما اشتملت عليه الكتب السابقة، كالتوراة والإنجيل، ومصدّقاً له، يأتي بهذه الأمور كلّها نبيّ أميّ لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولم يخالط الذين درسوا تاريخ الأمم وعرفوا أخبارها[4]. ويتحدّى كلّ الخلق على الإتيان بمثله، فتعجز البشرية ومعها الجنّ كلّهم عن الإتيان بمثله.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً﴾[5]، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِيْ رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[6].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) الغدق بفتح الدال: المطر الكبار القطر، والمُغْدق مُفْعِل منه. (النهاية ٣/ ٣٤٥ مادة: غدق).
(٣) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤٧، ٤٨).
(٤) انظر المصدر السابق (ص ٤٢، ٤٣).
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(وقد كان هذا، فإنّه لم يعارض القرآن معارض، ولا جاء بمثل بعضه أحد، لا من مسلم ولا كافر، ولا من إنس ولا جنّ، وقد نفى سبحانه أن يفعلوا ذلك، كما قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوْا وَلَنْ تَفْعَلُوْا فَاتَّقُوْا النَّارَ الَّتِيْ وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1] فأخبر سبحانه أنّهم لم يفعلوا، ولم يقع ما يخالف هذا النفي المؤكد البتة)[2].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: (وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها، لأنّها لم تقع المعارضة من أحد من الكفرة في أيّام النبوّة وفيما بعدها وإلى الآن)[3].

قلت: وهذا التحدّي وهو نفي الإتيان بسورة من أمّيّ مثل محمد في أمّيّته ما زال قائماً، وقد مضى عليه الآن أكثر من الألف والأربعمائة سنة، ولا يؤمل أبداً أن يأتي أحد فيبطله، وقد قال تعالى: (ولن تفعلوا).

قال الشوكاني رحمه الله تعالى بعد أن بيّن ما في القرآن الكريم من أخبار الأنبياء وأنّه موافق لما في التوراة والإنجيل من غير مخالفة.

(ومعلوم لكلّ عاقل يعرف أحوال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وكان منذ ولد إلى أن بعثه الله عزّ وجلّ بين قومه وهم قوم مشركون لا يعرفون شيئاً من أحوال الأنبياء، ولا يدرون بشيء من الشرائع، ولا يخالطون أحداً من اليهود والنصارى، ولا يعرفون شيئاً من شرائعهم، وإن عرفوا فرداً منها فليس ذلك إلاّ في مثل ما هو متقرّر بينهم، يعلمون به في عباداتهم ومعاملاتهم باعتبار ما يشتهر عنهم في ذلك... وكان هذا النبي العربي الأمّيّ لا يعلم إلاّ بما يعلمون، ولا يدري إلاّ بما يدرون، بل قد يعلم الواحد منهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥١).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣).

المتمكّن من قراءة الكتب وكتابة المقروء بغير ما يعلمه هذا النبي، فبينما هو على هذه الصفة بين هؤلاء القوم البالغين في الجهالة إلى هذا الحد جاءنا بهذا الكتاب العظيم الحاكي لما ذكرناه من تفاصيل أحوال الأنبياء وقصصهم، وما جرى لهم مع قومهم على أكمل حال وأتمّ وجه، ووجدناه موافقاً لما في تلك الكتب غير مخالف لشيء منها، كان هذا من أعظم الأدلّة الدالّة على ثبوت نبوّته على الخصوص، وثبوت نبوّة من قبله من الأنبياء على العموم.

ومثل دلالة هذا الدليل لا يتيسّر لجاحد، ولا لمكابر، ولا لزنديق مارق أن يقدح فيها بقادح، أو يعارضها بشبهة من الشبه كائنة ما كانت، إن كان ممن يعقل ويفهم ويدري بما يوجبه العقل من قبول الأدلّة الصحيحة التي لا تقابل بالردّ، ولا تدفع بالمعارضة، ولا تقبل التشكيك، ولا تحتمل الشبهة)[1].

فالقرآن الكريم أكبر معجزة أوتيها النبي ﷺ لتدلّ على صدق نبوّته وثبوت رسالته، وهو معجزة خالدة ومفتوحة للأجيال كلّها، يستمدّون منه ما يصحلهم في معاشهم ومعادهم. وقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبيّ إلاّ قد أُعْطِيَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[2].

إخباره ﷺ بالمغيّبات من دلائل نبوّته:

يقول الشوكاني رحمه الله تعالى: (ومن أعظم دلائل نبوته ﷺ التي لا يجد الجاحدون إلى جحدها سبيلاً، ولا يمكن إسنادها إلى تعليم بشر، ولا نسبتها إلى سحر، أنّه ﷺ كان يسأل عن أمور ماضية يتعنته بها أهل الكتاب

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤١، ٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأوّل ما نزل(الفتح ٨/ ٦١٨ برقم ٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس إلخ (١/ ١٣٤ برقم ١٥٢) واللفظ له.

والمشركون، فينزل جبريل في تلك الحالة، فيخبره بها في الموضع الذي سألوه فيه من غير أن يفارقه أو يذهب إلى أحد من الناس يستعلم. وذلك كسؤالهم له عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، ونحو ذلك من الأمور التي غالبها غير مذكور في التوراة ونحوها، بل قد يخبرهم ابتداء بشيء من أحوال الأنبياء لم يكن في التوراة التي هي مرجع أهل الملل في تعرّف أحوال الأنبياء من لدن آدم إلى موسى، وذلك كقصّة هود، وصالح، وشعيب، وكثير من أحوال إبراهيم، وإسحاق، وإسماعيل، ويعقوب، ويوسف، ومثل قصّة الخضر مع موسى، ومثل أحوال سليمان، كقصّة البساط، وقصّة العفريت، وقصّة الهدهد. فإنّ هذه لم تكن في التوراة، ولم يسمع عن أحد من أهل الكتاب أنّه زوّر ذلك أو كذّبه، بل انبهروا وأعجبوا منه[1].

ولو لم يكن من دلائل نبوته ﷺ إلاّ ما وقع من الإخبار بالأمور الغيبية التي وقعت كما أخبر به، ولم يتخلف شيء منها، وهي كثيرة جداً، وقد اشتمل القرآن الكريم على شيء من ذلك، كقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الّذِيْ أَرْسَلَ رَسُوْلَهُ بِالْهُدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيْداً﴾[2] فوقع صدق هذا الخبر، وأظهر الله سبحانه دين الإسلام على جميع الأديان. وكذا قوله: ﴿الٓم، غُلِبَتِ الرُّوْمُ، فِيْ أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ، فِيْ بِضْعِ سِنِيْنَ﴾[3] فوقع ما أخبر به القرآن بعد المدة التي ذكرها، وذلك معلوم لا يختلف فيه الناس. وكذلك قوله سبحانه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِيْنَ مُحَلِّقِيْنَ رُؤُوْسَكُمْ وَمُقَصِّرِيْنَ لاَ تَخَافُوْنَ﴾[4] ووقع هذا كما أخبر به سبحانه، فدخلوا المسجد الحرام آمنين محلّقين ومقصّرين

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤٤، ٤٥).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الروم، الآية: ١ ــ ٤.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

كما وعدهم، وغير ذلك من الآيات[1].

وأورد الشوكاني رحمه الله أحاديث كثيرة في إخباره ﷺ بالمغيبات[2]. منها: ما في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ بعد مقدمة المدينة، فقال: إنّي سائلك عن ثلاثة لا يعلمها إلاّ نبي: ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أمّه أو إلى أبيه؟ قال: أخبرني جبريل آنفاً. قال عبد الله: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة. أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة[3] كبد الحوت، وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمّه. فقال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّك رسول الله[4].

قال الشوكاني بعد أن أورد هذا الحديث وأمثاله:

(ففي هذه الأحاديث اعتراف هؤلاء السائلين من اليهود أنّ تلك المسائل التي سألوه عنها لا يعلمها إلاّ نبي، وقد أخبرهم بما سألوه، وصدّقوه في جميع ذلك، فاندفع بذلك شكّ كلّ حاسد، وبطل عنده ريب كلّ ملحد)[5].

ومنها كما يذكره الشوكاني ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥٠، ٥١).
(٢) انظر المصدر السابق (ص ٤٤ ــ ٤٧ وأيضاً ٥٠ ــ ٥٧).
(٣) الزيادة والزائدة شيء واحد هو طرف الكبد وهو أطيبها. (انظر شرح النووي لمسلم ٣/ ٢٢٧).
(٤) أخرجه البخاري في عدّة مواضع، انظر مواضع وروده في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذرّيّته. (الفتح ٦/ ٤١٧، ٤١٨ برقم ٣٣٢٩) ومسلم في كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة إلخ. (١/ ٢٥٢ برقم ٣١٥).
(٥) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٤٧).

حذيفة أنّه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلاّ حدّث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وأنّه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[1]. وناهيك بهذا، فإنّ الإخبار بجميع الحوادث المستقبلة إلى قيام الساعة أمر عظيم.

وقد كان حذيفة راوي هذا الحديث مرجعاً للصحابة في معرفة أحوال الفتنة، ومعرفة أهل النفاق، وتميّز أهل الحقّ من أهل الباطل، لما حفظ في هذا المقام الذي قامه رسول الله ﷺ.

ومن ذلك سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن الفتن فقال: إنّ بينك وبينها باباً، فقال: هل يُفتح أو يُكسر؟ فقال: بل يُكسر، فعرف عمر أنّه الباب، وأنّه يُقتل، كما أخبر حذيفة من سأله عن ذلك: هل علم عمر ذلك؟ فقال: نعم كما يعلم أنّ دون غد الليلة، فإنّي حدّثته بحديث ليس بالأغاليط، وهذا ثابت في الصحيح[2].

ومن ذلك ما ثبت في البخاري أنّه ﷺ قال لعدي بن حاتم: (لئن طالت لك حياة لتُفتحنّ كنوز كسرى. فقال عدي: كسرى بن هرمز؟ فقال ﷺ: كسرى بن هرمز)[3] وقد كان هذا كما أخبر به ﷺ، ففتح المسلمون مملكة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب: وكان أمر الله قدراً مقدوراً. (الفتح ١١/ ٥٠٣ برقم ٦٦٠٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٤/ ٢٢١٧ برقم ٢٨٩١ مكرر).

(٢) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه، انظر كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (الفتح ٢/ ١١ برقم ٥٢٥)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتن التي تموج كموج البحر. (٤/ ٢٢١٨ برقم ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. (الفتح ٦/ ٧٠٦ برقم ٢٩١٨، ٣٥٩٥) من حديث طويل. ومسلم في كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل الخ. (٤/٢٢٣٦، ٢٢٣٧ برقم ٢٩١٨، ٢٩١٩).

كسرى بن هرمز، وأخذوا كنوزه، واستولوا على بلاده، وضربوا على رعيّته الخراج والجزية. قال عدي: وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز[1].

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي فيها أخباره ﷺ بالأمور الغيبية التي وقعت كما أخبر. وقد تكفّلت بذكرها كتب الحديث والسير.

بعض معجزات النبي ﷺ:

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (ومن دلائل نبوّته وبراهين رسالته ما وقع من الآيات البيّنات والبراهين المعجزات. فمن ذلك:

١ ــ انشقاق القمر:

وقد نطق بذلك الكتاب العزيز، قال الله عزّ وجلّ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[2].

يقول الشوكاني في تفسيره: (والمراد: الانشقاق الواقع في أيّام النبوّة معجزة لرسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف)[3].

وأورد رحمه الله ما ثبت من الأحاديث[4] في ذلك، منها:

ما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه: (أنّ أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرّتين)[5].

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥٢، ٥٣).
(٢) سورة القمر، الآية: ١، ٢.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٢٠).
(٤) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥٧، ٥٨) وفتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٢٣، ١٢٤).
(٥) أخرجه البخاري في عدّة مواضع، انظر كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر (الفتح ٦/ ٧٣٠ برقم ٣٦٣٧)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٩ برقم ٢٨٠٢).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (انشقّ القمر على زمان رسول الله ﷺ)[1].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: (اقتربت الساعة وانشقّ القمر) قال: (قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشقّ القمر فَلْقتين[2]، فَلْقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد)[3].

وقد شاهد هذه المعجزة الناس في أنحاء الجزيرة العربية، فإنّ كفار أهل مكة لم يصدقوا، وقالوا: هذا سحر ابن كَبْشة[4]، فانتظروا ما يأتيكم به السُفَّار، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلّهم، فجاء السُفَّار، وأخبروا أنّهم قد رأوه[5].

٢ ــ الإسراء والمعراج:

أي الإسراء به ﷺ والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما قال عنه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿سُبْحَانَ الَّذِيْ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِيْ بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب سؤال المشركين إلخ. (الفتح ٦/ ٧٣٠ برقم ٣٦٣٨) وأخرجه أيضاً برقم (٣٨٧٠، ٤٨٦٦)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر. (٤/ ٢١٥٩ برقم ٢٨٠٣).

(٢) الفلق بالسكون: الشقّ. (النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٧١ مادة: فلق).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٩ برقم ٢٨٠١).

(٤) يعني النبي ﷺ، وكان المشركون ينسبون النبي ﷺ إلى أبي كبشة وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، وعبد الشعرى العبور، فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان شبّهوه به. وقيل غير ذلك: (انظر النهاية لابن الأثير ٤/ ١٤٤ مادة: كبش).

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٦٦) عن عبد الله بن مسعود، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٢١).

آيَاتِنَا﴾[1] ثم إلى السموات العلا، حيث رأى من آيات ربّه الكبرى، وإلى سدرة المنتهى، حيث كلّمه ربّه وقرّبه، كما أخبر عنه سبحانه في قوله: ﴿أَفَتُمَارُوْنَهُ عَلَى مَا يَرَى، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[2].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (ومن دلائل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السموات، وقد نطق بهذا الكتاب العزيز، وتواترت به الأحاديث تواتراً لا يشكّ من له أدنى إلمام بعلم السنة[3]، ولا ينكر ذلك إلاّ متزندق، وليس بيده إلاّ مجّرد الاستبعاد، وليس ذلك مما تدفع به الأدلّة، ويبطل به الضروريات، وإلاّ لكان مجرّد إنكار وقوع الشيء المبرهن على وقوعه كافياً في دفعه، وذلك خلاف العقل والنقل)[4].

وذهب رحمه الله مذهب جمهور أهل السنة في أنّ الإسراء والمعراج كانا ببدنه وروحه معاً، ويقظة لا مناماً[5]، لأنّ بذلك تتحقّق له هذه المعجزة العظيمة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٢ ـ ١٨.

(٣) انظر مرويات الإسراء والمعراج في صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن والصحاح والمسانيد وفي تفسير الطبري (١٥/ ٢ ـ ١٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢ ـ ١٦) بطرقها المختلفة.

(٤) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥٨).

(٥) انظر على سبيل المثال: تفسير الطبري (١٥/ ١٦، ١٧)، والشريعة للآجري (ص ٤٩٠، ٤٩١)، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (١/ ٥١١) تحقيق/ د: محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، والشفا للقاضي عياض (١/ ٢٤٦) تحقيق/ علي محمد البجاوي، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٤٧). قال القاضي عياض: وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة، ومالك بن صعصعة، وأبي حبة =

قال بعد أن أورد الأقوال في الموضوع: (والذي دلّت عليه الأحاديث الصحيحة الكثيرة هو ما ذهب إليه معظم السلف والخلف من أنّ الإسراء بجسده وروحه يقظة إلى بيت المقدس، ثم إلى السماء، ولا حاجة إلى التأويل وصرف هذا النظم القرآني وما يماثله من ألفاظ الأحاديث إلى ما يخالف الحقيقة، ولا مقتضى لذلك إلّا مجرّد الاستبعاد وتحكيم محض العقول القاصرة عن فهم ما هو معلوم من أنّه لا يستحيل عليه سبحانه شيء، ولو كان ذلك مجرّد رؤيا كما يقوله من زعم أنّ الإسراء بالروح فقط، وأنّ رؤيا الأنبياء حقّ، لم يقع التكذيب من الكفرة للنبي ﷺ عند إخباره لهم بذلك حتى ارتدّ من ارتدّ ممن لم يشرح بالإيمان صدراً، فإنّ الإنسان قد يرى في نومه ما هو مستبعد، بل ما هو محال، ولا ينكر ذلك أحد)(١).

فلو أنّ رجلاً قال: إنّه قد ذهب إلى السماء هذه الليلة. فلا يناقشه أحد، لأنّ المسألة رؤية، فإذا كان موقف الكفار من النبي ﷺ ليقولوا له: أتدّعي أنّك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الابل شهراً؟ ليؤكّد أنّهم فهموا أنّها لم تكن لا مناماً ولا روحاً، وإنّما كانت يقظة بروحه وجسده معاً، وإلّا صدر هذا الاعتراض.

ثم قولهم لأبي بكر رضي الله عنه: هذا صاحبك يزعم أنّه قد أسري به الليلة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال أبو بكر رضي الله عنه: فأنا أشهد إن قال ذاك لقد صدق، قالوا: تصدقه بأنّه جاء الشام في ليلة واحدة ورجع قبل أن يصبح؟

= البدري، وابن مسعود، والضحّاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيّب، وابن شهاب، وابن زيد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، . . . وهو قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين، وقول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٠٧).

فقال أبو بكر رضي الله عنه: نعم، أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية...

كلّ هذا دليل ــ لمن عقل وميز ــ على أنّ الله عزّ وجلّ خصّ نبيه محمداً ﷺ بأنّه أسرى بجسده وعقله، وشاهد جميع ما رأى في السموات، ودخوله الجنة، وجميع ما رأى من آيات ربّه عزّ وجلّ، وفرض عليه الصلاة، كلّ ذلك لا يقال: منام، بل بجسده وعقله، وفضيلة خصّه الله عزّ وجلّ بها، فمن زعم أنّه منام فقد أخطأ في قوله وقصّر في حقّ نبيّه ﷺ، وردّ القرآن والسنة، وتعرّض لعظيم[1].

وقد استشهد الشوكاني رحمه الله تعالى بما في التوراة والإنجيل ردّاً على المتزندقين المنكرين لهذه المعجزة قال: (وقد رفع الله سبحانه إلى السماء إدريس عليه السلام، وثبت في السفر الثاني من أسفار الملوك في التوراة أنّ إيليا رُفِع إلى السماء[2] وبعض تلامذته ينظر إليه. وشاع ذلك، ولم يخالف فيه أحد من اليهود، وإيليا هذا هو المسمّى في القرآن الياس.

وهكذا أثبت في الأناجيل كلّها أنّ الله سبحانه رفع عيسى عليه السلام بعد الصلب في زعمهم، كما هو محرّر هنالك، ولا يخالف في ذلك أحد من النصارى، وقد نطق القرآن الكريم بأنّه رفعه إليه، ولم يصلب، وإلى ذلك ذهب بعض طوائف النصارى)[3].

وإذا ثبت رفع عيسى عليه السلام فلا غرابة ولا امتناع عقلاً في صعود النبي ﷺ ليلة المعراج، فإنّ كلّا منهما معجزة من المعجزات التي أعطاها الله سبحانه لرسله وأنبيائه، والذي رفعهما هو الله تعالى، والله على كلّ شيء قدير.

---

(١) انظر الشريعة: الآجري (ص ٤٩٠، ٤٩١).
(٢) انظر العهد القديم، الملوك الثاني، الاصحاح الثاني، فقرة (١، ١١).
(٣) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٥٨).

٣ ـ ومن دلائل نبوّته ﷺ:

ما يذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في كتابه: إرشاد الثقات[(١)] فمن ذلك:

(أ) ما في الصحيحين وغيرهما عن أنس رضي الله عنه: (أنّ النبي ﷺ دعا بماء، فأتي بقدح رحراح[(٢)]، فجعل القوم يتوضئون) وفي لفظ لهما: (فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ﷺ) وفي لفظ لهما: (فتوضّأ الناس وشربوا) وفي لفظ البخاري: (فشربنا وتوضّأنا، فقلت: كم كنت؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنّا خمس عشرة مائة)[(٣)] وللحديث طرق وألفاظ في الصحيحين وغيرهما، وحاصلها أنّهم شربوا وتوضّأوا وهم هذا العدد المذكور.

(ب) ما في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه: (أنّ شاته التي ذبحها لرسول الله ﷺ مع صاع من شعير قد أكل منها من كان يحفر الخندق مع رسول الله ﷺ وهم ألف، وذلك لأنّ رسول الله بصق في البُرْمَة[(٤)]، وبصق في العجين، وبارك في ذلك. قال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإنّ بُرْمَتَنا لتَغِطُّ كما هي[(٥)]، وإنّ عجيننا ليُخْبَز كما هو)[(٦)].

---

(١) انظر من صفحة(٥٧ ـ ٦٨).

(٢) قال ابن الأثير: الرحراح: القريب القعر مع سعة فيه. (النهاية ٢/ ٢٠٨ مادة: رحرح).

(٣) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه بألفاظ مختلفة، انظر كتاب الوضوء، باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة. (الفتح ١/ ٣٢٥ برقم ١٦٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ. (٤/ ١٧٨٣ برقم ٢٢٧٩).

(٤) قال ابن الأثير: البُرْمة: القِدْر مطلقاً، وجمعها: بُرام، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. (النهاية ١/ ١٢١ مادة: برم).

(٥) أي تغلي ويسمع غطيطها. (النهاية لابن الأثير ٣/ ٣٧٢ مادة: غطط).

(٦) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (الفتح =

(ج) ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع من جذوع النخل، فلمّا صُنِع المنبر وقام عليه سمعوا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار[1]، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكت)[2].

(د) ما في الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّي لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبْعَث، إنّي لأعرفه الآن»[3].

(هـ) ومن دلائل نبوته ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من تأييد الله سبحانه له بالملائكة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِيْنَ﴾[4]، وقوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِيْنَ، بَلَى إِنْ تَصْبِرُوْا وَتَتَّقُوْا وَيَأْتُوْكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ

= ٧/ ٤٥٧ برقم ٤١٠٢)، ومسلم في كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك. إلخ (٣/ ١٦١٠، ١٦١١ برقم ٢٠٣٩) واللفظ له، مع اختصار من جهة الشوكاني.

(١) العِشَار بالكسر عُشَرَاء كفقهاء: وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر. (مختار الصحاح ١٨٢ مادة: عشر).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر (الفتح ٢/ ٤٦١ برقم ٩١٨) وفي كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (الفتح ٦/ ٦٩٦ برقم ٣٥٨٥)، والترمذي في كتاب المناقب، باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ (٥/ ٥٥٤ برقم ٣٦٢٧) عن أنس بن مالك. ولم أجد هذا الحديث في صحيح مسلم كما أشار إليه الشوكاني.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ الخ (١٧٨٢/٤ برقم ٢٢٧٧)، والترمذي في كتاب المناقب باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ (٥/ ٥٥٣ برقم ٣٦٢٤) ولم أجد هذا الحديث في صحيح البخاري كما أشار إليه الشوكاني.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٩.

آلَافٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِيْنَ﴾[1]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾[2] ونحو ذلك من الآيات.

وقد شوهدت الملائكة في بعض حروبه ﷺ. ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة سوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُوْم[3]، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه، فإذا قد حطم أنفه[4] وشقّ وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة)[5] وذلك يوم بدر.

وغير ذلك من المعجزات الكثيرة الدالّة على صحّة نبوّة النبي ﷺ وصدق ما أخبر به.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى بعد سرد هذه الروايات: (واعلم أرشدني الله وإيّاك أنّ دلائل نبوّة نبيّنا محمد ﷺ لا يحيط بها القلم وإن طال شوطه، وقد صنّف أهل العلم في ذلك مؤلّفات مبسوطة مطوّلة كما عرّفناك سابقاً... وأنّ دلائل نبوّة سائر الأنبياء قد اشتمل على كثير منها القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، وكذلك التوراة والزبور وسائر كتب أنبياء بني إسرائيل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٤، ١٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

(٣) قال ابن الأثير: جاء في التفسير أنّه اسم فرس لجبريل عليه السلام، أراد: أَقْدِمْ يَا حَيْزُوْمُ، فحذف حرف النداء، والياء فيه زائدة. (النهاية ١/ ٤٦٧ مادة: حيزم).

(٤) في نصّ مسلم: خطم. بالخاء المعجمة، والخطم: الأثر على الأنف. (انظر النهاية ٢/ ٥٠ مادة: خطم).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر. (٣/ ١٣٨٤، ١٣٨٥ برقم ١٧٦٣) ولم أجد هذا الحديث في صحيح البخاري كما أشار إليه الشوكاني.

والانجيل، وإنّما اقتصرنا على ذكر بعض دلائل نبوّة نبيّنا ﷺ لأنّ ثبوت نبوّته تستلزم ثبوت نبوّة جميع الأنبياء عليهم السلام، لأنّه ﷺ قد أخبرنا بأنّهم أنبياء الله سبحانه، كما اشتمل على ذلك القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، فثبوت نبوّته يستلزم ثبوت نبوّة سائر الأنبياء)[1].

المبحث التاسع

الإيمان بالملائكة والكتب المنزّلة

جعلت هذا المبحث والمبحث الذي بعده ضمن الكلام على النبوّات لأنّ لهما صلة قويّة به، إذ أنّ من لوازم الإيمان بالأنبياء الإيمان بجميع ما أخبروا به، ومن ذلك الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب المنزّلة، وكذلك الإيمان بوجود الجنّ والشياطين.

وحيث إنّي لم أجد للشوكاني في الموضوعين الأوّلين إلاّ كلاماً قليلاً جمعتهما في مبحث واحد.

الإيمان بالملائكة:

إنّ الإيمان بالملائكة ركن من أركان عقيدة المؤمن، بحيث لا يتمّ إيمانه إلاّ إذا آمن بالملائكة.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[2]، وقال: ﴿آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[3].

---

(١) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ٦٨).
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

فذكر سبحانه في الآيتين أركان الإيمان، وذكر من بينها الإيمان بالملائكة.

كما ذكر الرسول ﷺ في حديث عمر المعروف بحديث جبريل[1] أركان الإيمان الستّة، وذكر من بينها الإيمان بالملائكة.

والملائكة خلق عظيم، وعددهم كثير لا يحصيهم إلاّ الله عزّ وجلّ، خلقهم من نور، وطبعهم على طاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ويسبّحون الليل والنهار ولا يفترون.

قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوْا فَالَّذِيْنَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُوْنَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُوْنَ﴾[2].

وصفات الملائكة كما وردت في الكتاب والسنّة كثيرة، وقد أشار الشوكاني رحمه الله تعالى إلى بعضها، كما أشار إلى بعض أعمالهم.

فمن صفات الملائكة زيادة على ما أسلفناه:

أنّهم لا يعصون الله فيما أمرهم، ولا يتراخون عن إنجاز أمره سبحانه[3]. كما قال تعالى عنهم: ﴿لاَ يَعْصُوْنَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾[4]، قال الشوكاني: (أي يؤدّونه في وقته من غير تراخ، لا يؤخّرونه عنه، ولا يقدّمونه)[5].

وأنّهم عباد مكرمون. كما وصفهم الله سبحانه في قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (١٩٠).
(٢) سورة فصّلت، الآية: ٣٨.
(٣) قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ص ٤٩٣).
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٢٥٤).

حَدِيْثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيْمَ الْمُكْرَمِيْنَ﴾[1]، وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُوْنَ لَا يَسْبِقُوْنَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ﴾[2].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم، مقرّبون عنده، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، أو يأمرهم به، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم، وهم بأمره يعملون: أي هم العاملون بما يأمرهم الله به، التابعون له، المطيعون لربّهم)[3].

وإذا كانوا موصوفين بهذه الصفات الكريمة فهل هم أفضل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن صالحي البشر؟

اختلف الناس في هذه المسألة اختلافاً كثيراً، وأطالوا الكلام فيها في غير طائل، وقد وصف الشوكاني رحمه الله تعالى هذه المسألة بأنّها ليست مما كلّفنا الله بعلمه، فالكلام فيها لا يعنينا[4]، وقال: (وقد اشتغل بهذه المفاضلة قوم من أهل العلم، ولا يترتّب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[5].

وردّ رحمه الله على استدلال الفريقين[6] ببعض الآيات القرآنية،

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦، ٢٧.

(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٤) انظر المصدر السابق (٢/ ١٩٥).

(٥) المصدر السابق (٢/ ١١٨) وانظر أيضاً (٢/ ٤٩٥).

(٦) أي مفضّلو الأنبياء على الملائكة وهم جمهور أهل السنة، ومفضّلو الملائكة على الأنبياء وهم المعتزلة وبعض الأشاعرة، كأبي إسحاق الإسفرايني، وأبي بكر الباقلاني، والحاكم، والحليمي، وفخر الدين في المعالم، وأبي شامة. حكى ذلك السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤٠٠)، وانظر أيضاً شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٣٣٨)، وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري (ص ١٧٧).

كاستدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِيْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلاً﴾[1].

قال: (وقد شغل كثير من أهل العلم بما لم تكن إليه حاجة ولا تتعلّق به فائدة، وهو مسألة تفضيل الملائكة على الأنبياء، أو الأنبياء على الملائكة، ومن جملة ما تمسّك به مفضّلو الأنبياء على الملائكة هذه الآية، ولا دلالة لها على المطلوب، لما عرفت من إجمال الكثير وعدم تبيينه، والتعصّب في هذه المسألة هو الذي حمل بعض الأشاعرة على تفسير الكثير هنا بالجميع حتى يتمّ له التفضيل على الملائكة، وتمسّك بعض المعتزلة بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولا دلالة بها على ذلك، فإنّه لم يقم دليل على أنّ الملائكة من القليل الخارج عن هذا الكثير، ولو سلّمنا ذلك فليس فيما خرج عن هذا الكثير ما يفيد أنّه أفضل من بني آدم، بل غاية ما فيه أنّه لم يكن الإنسان مفضّلاً عليه، فيحتمل أن يكون مساوياً للإنسان، ويحمل أن يكون أفضل منه، ومع الاحتمال لا يتمّ الاستدلال)[2].

كما ردّ رحمه الله تعالى على احتجاج الزمخشري صاحب الكشاف ببعض الآيات على ما ذهب إليه في عدّة مواضع[3]. وقال: (وعلى كلّ حال فما أردأ الاشتغال بهذه المسألة، وما أقلّ فائدتها، وما أبعدها عن أن تكون مركزاً من المراكز الشرعية الدينية وجسراً من الجسور)[4].

قلت: وقد ذهب الشوكاني في رأيه هذا مذهب التوقّف عن القول بالتفضيل، وهو قول الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه كما حكى عنه شارح العقيدة الطحاوية ورجّحه[5].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٤٤).
(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٥٤٢)، (٣/ ٢٢، ٢٣).
(٤) المصدر السابق (١/ ٥٤٢).
(٥) انظر صفحة ٣٣٨.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى رأي جيد في المسألة، وهو أنّ الأنبياء وصالحي البشر أفضل من الملائكة باعتبار كمال النهاية، وذلك إنما يكون إذا دخلوا دار القرار، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، فلا يظهر فضلهم وهم في ابتداء أحوالهم، وإنّما يظهر فضلهم عند كمال أحوالهم، بخلاف الملك الذي تشابه أوّل أمره وآخره[1].

وأرى أنّ ما قاله الشوكاني صريح بأنّه لا يترتّب على هذه المسألة فائدة، بل هي من فضول القول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا. والله أعلم.

وقد وكّلهم الله بوظائف عديدة وأعمال مختلفة، وجعلهم سفراء بينه وبين خلقه، منهم جبريل عليه السلام وهو أفضلهم، لأنّه أمين الوحي. قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوْحُ الأَمِيْنُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ﴾[2]، قال الشوكاني: (والروح الأمين: جبريل عليه السلام)[3] وهو قول جمهور المفسّرين[4].

ومنهم الحفظة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِيْنَ كِرَاماً كَاتِبِيْنَ يَعْلَمُوْنَ مَا تَفْعَلُوْنَ﴾[5]، قال الشوكاني: (والحافظين: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف، ووصفهم الله بأنّهم كرام لديه، يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد)[6]. وقال عزّ وجلّ:

---

(١) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (١١/ ٩٥).
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣، ١٩٤.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١١٤).
(٤) انظر تفسير الطبري (١٩/ ١١١)، وتفسير البغوي (٣/ ٣٩٨)، وزاد المسير لابن الجوزي (٦/ ١١٤)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٣٨)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٠).
(٥) سورة الانفطار، الآية: ١٠ ــ ١١.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٩٦).

﴿لَهُ مُعَقِّبَات مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوْنَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[1] أي لكلّ من هؤلاء معقّبات، والمعقّبات: المتناوبات التي يخلف كلّ واحد منها صاحبه، ويكون بدلاً منه، وهم الحفظة من الملائكة، والمراد أنّ الحفظة من الملائكة من جميع جانبه[2].

فعن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال: (ليس من عبد إلّا ومعه ملائكة يحفظونه من أن تقع عليه حائط، أو ينزوي في بئر، أو يأكله سبع، أو غرق، أو حرق، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر)[3].

وقد ورد في ذكر الحفظة الموكّلين بالإنسان أحاديث كثيرة مذكورة في الكتب الحديث.

ومنهم حملة العرش، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَة﴾[4].

ومنهم خزنة النار، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾[5] يعني ما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلّا ملائكة[6].

ومنهم الموكّلون بأعمال شتّى، كقبض الأرواح، وعذاب القبر، والنفخ في الصور يوم القيامة، وخدمة أهل الجنة، وغير ذلك.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٦٩).
(٣) قال الشوكاني في تفسيره (٣/ ٧١): أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ، وأخرج مثله ابن جرير في تفسيره (انظر ١٣/ ١١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٣١٢).
(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٥) سورة المدّثّر، الآية: ٣١.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٣٠).

وقد اختار الله سبحانه منهم رسلاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إنَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ بَصِيْرٌ﴾(١) والرسل من الملائكة هم: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل(٢). قال الشوكاني في الآية: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) كجبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل ويصطفي أيضاً رسلاً من الناس، وهم الأنبياء، فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لانزال العذاب عليهم)(٣).

الإيمان بالكتب المنزّلة:

ومن أركان الإيمان التي لا يصحّ إيمان عبد إلاّ باستكمالها بالإيمان بها كلّها الإيمان بالكتب السماوية التي أنزلها الله عزّ وجلّ على أنبيائه ورسله.

وقد دلّت آيات كثيرة على أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على نبينا محمد ﷺ، وأنزل الكتب السابقة قبله على من سبقه من الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿الٓم، اللَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإنْجِيْلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا آمِنُوْا بِاللَّهِ وَرَسُوْلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيْ نَزَّلَ عَلَى رَسُوْلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيْداً﴾(٥).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٥.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٣٣٧). وانظر تفسير الطبري (١٧/ ٢٠٤)، وتفسير البغوي (٣/ ٢٩٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (٥/ ٤٥٣)، وتفسير القرطبي (١٤/ ٣١٩).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٧٠).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١ ــ ٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

هذه الآية كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله المنزّلة عامة وبالقرآن الكريم خاصّة.

قال الشوكاني في تفسيره: «(والكتاب الذي نزّل على رسوله): هو القرآن، (والكتاب الذي أنزل من قبل): هو كلّ كتاب»[1] الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه، خاصّة تلك الكتب التي ورد ذكرها في القرآن، وهي: الزبور الذي أنزل على داود عليه السلام، والتوراة الذي أنزل على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام.

وهناك كتب أخرى سوى هذه أنزلها الله على أنبياء، لا يعرف أسماء تلك الكتب وعددها إلاّ الله سبحانه، ويجب علينا الإيمان بها جميعاً.

وقد مدح الله سبحانه من آمن بها جميعاً، وجعل لهم الهداية والفلاح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُوْنَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾[2].

قال الشوكاني في تفسيره: (والمراد بما أنزل إلى النبي ﷺ القرآن، وما أنزل من قبله هو الكتب السالفة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: أي يصدّقونك بما جئت به من الله، وما جاء به مَن قبلك من المرسلين، لا يفرّقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربّهم)[3].

واتّفقت الأمة على أنّ القرآن الكريم أعظم الكتب السماوية كلّها، وقد تضمّن من العلوم، والحكم، والمواعظ، والقصص، والترغيب، والترهيب،

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٢٤).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤، ٥.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٦، ٣٧)، وانظر تفسير الطبري (١/ ١٠٥).

وذكر أخبار من سبق، وأخبار ما يأتي من البعث والنشور، والجنة والنار، ما لم يشتمل عليه كتاب غيره.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)].

قال الشوكاني: (أي بياناً له، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِيْ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[(٢)] أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدين إمّا تفصيلاً أو إجمالاً)[(٣)].

وخصائص القرآن الكريم كثيرة، وقد أشار إليها الشوكاني رحمه الله في تفسيره أذكر منها:

١ ــ إنّه آخر ما أنزله الله من الكتب السماوية، وذلك لختم النبوّة بنبوّة صاحبه المنزّل عليه ﷺ. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُوْلَ اللّٰهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ﴾[(٤)]. وإنّ ما يحمله من التشريع الإلٰهي عامّ لكلّ الناس في أيّ مكان كانوا وفي أيّ زمان وجدوا، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزّل عليه ﷺ. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْراً﴾[(٥)] وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّيْ رَسُوْلُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيْعاً﴾[(٦)] بخلاف الكتب السابقة فإنّها كانت خاصّة في المكان والزمان، ولا عموم فيها[(٧)].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١١٤) وانظر أيضاً (٣/ ١٨٧).
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٧) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٥٤).

٢ ــ إنّه مصدّق لما قبله من كتب الله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وموافق له في الدعوة إلى الله وإلى توحيده ونفي الشرك بجميع أقسامه، وإن خالفه في بعض الأحكام[١]. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِيْ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢].

٣ ــ إنّه خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذي تتقاصر دونه قوة المخلوقين[٣]. كما تقدّم بيانه[٤].

٤ ــ إنّه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وذهاب الريب، وكشف الغطاء عن الأمور الدّالة على الله سبحانه، كما أنّه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوّذ، ونحو ذلك.

وإنّه رحمة للمؤمنين لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما في تلاوته وتدبّره من الأجر العظيم الذي يكون سبباً لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه[٥]. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ﴾[٦].

٥ ــ إنّه ناسخ لكلّ الكتب السماوية السابقة، كما أنّ شريعة الإسلام نسخت كلّ الشرائع، فلا شرعة ولا منهاج إلاّ ما جاء به محمد ﷺ[٧].

٦ ــ إنّ الله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظه من أيدي التحريف والتبديل.

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٣٩)، وانظر أيضاً إرشاد الثقات له (ص ٨).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.
(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٨٧).
(٤) انظر صفحة (٧٠٢ ــ ٧٠٥).
(٥) انظر المصدر السابق (٣/ ٢٥٣).
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٧) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٨).

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُوْن﴾[1] أي عن كلّ ما لا يليق به من تصحيف، وتحريف، وزيادة، ونقص، ونحو ذلك[2]. في حين أنّه سبحانه قد وكل حفظ الكتب السابقة إلى أصحابها. قال تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوْا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوْا عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[3] ولذلك فقد لحقها كثير من التحريف والتبديل، بل الموجود منها اليوم بخالف تماماً ما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، لأنّها كتبت بواسطة بعض الأتباع ونسبت إليه[4]. وسبب ذلك أنّ تلك الكتب أنزلت إلى أمم معيّنة ولفترة محدودة، فأدّت غرضها، وانتهت مهمّتها، أما القرآن العظيم فقد تكفّل الله بحفظه، لأنّه الرسالة الخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث العاشر

الإيمان بوجود الجنّ والشياطين

إنّ الإيمان بوجود الجنّ والشياطين جزء من عقيدة المؤمن، لما ثبت في ذلك في الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة، ولم ينكر ذلك إلّا شرذمة قليلة من بعض طوائف المسلمين ممن قلّ علمه وضعف عقله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجنّ، ولا في أنّ الله أرسل محمداً ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجنّ، أمّا أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرّون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ١٢٢).
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٤١).

المسلمين من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمّتها مقرّين بذلك.

وهذا لأنّ وجود الجنّ تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنّهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعمه بعض الملاحدة)[1].

وقد اعتنى الشوكاني رحمه الله تعالى بهذا الموضوع، وأفرده بالبحث في رسالة صغيرة[2] أورد فيها الأدلّة الدالّة على وجود الجنّ والشياطين، وردّ على المنكرين على وجودهما من بعض المعتزلة وأمثالهم.

قال رحمه الله في مقدّمتها: (واعلم أنّه لم يتقدّم إلى إنكار ذلك (أي وجود الجنّ) من الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام أحد قط، وإنّما هي مقالة مرويّة عن جماعة من الفلاسفة وجمهور الزنادقة، وهؤلاء لا نتكلّم معهم في هذا المقام، فإنّهم لا يتمسّكون بشيء من الحجج القرآنية والأحاديث النبوية، ولا يلتفتون إلى شيء من ذلك، وقد فرغ منهم الشيطان وأخرجهم من زمرة الإسلام، ولكنّا نتكلّم ههنا مع بعض العاملين بذلك من المعتزلة، فقد نقل ذلك جماعة عن جمهورهم، ونقله آخرون عن البعض منهم، وهذه الطائفة من أهل الإسلام، ومن المتمسّكين بشرائعه، وإن خالفوا في بعض المسائل الأصولية خلافاً تدفعه النصوص القرآنية ومتواتر السنة، فلم يكن ذلك منهم كياداً للدين، ولا دفعا في وجه شريعة المسلمين، بل تمسّكوا بشبه أشبهت عليهم قالوا بها وقصّروا عن العلم بغيرها مما يدفعها ويرفع لبسها، ولكن الشأن في إنكار من أنكر منهم وجود الجنّ، فإنّه لا يكون إلاّ أحد رجلين: إمّا

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٩/ ١٠ وانظر أيضاً ١٣، ٣٢).

(٢) وهي ما زالت مخطوطة بعنوان: بحث في وجود الجنّ. وتوجد في ضمن مجموع (٥٩) مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، من ورقة (٢٣١ ـ ٢٣٣) بخط الإمام الشوكاني، بدون تاريخ.

معاند لا يتقيّد بالكتاب والسنّة، وهذا لا ينبغي الكلام معه، وإمّا جاهل جهلاً منكراً لا يعرف معه كتاب الله سبحانه، بل لا يعرف معه سورة الرحمن وسورة الجنّ، بل لا يعرف ورود القرآن بالاستعاذة من الشيطان. ومثل هذا وإن كان معذوراً مما هو فيه من الجهل، لكنّه غير معذور في التكلّم بما ليس من شأنه، وأجهل منه من حكى عنه هذه المقالة المردودة ودوّنها في كتب العلم، ونصب له خلافاً في هذه المسألة التي هي معلومة للنساء والصبيان فضلاً عن الرجال، فضلاً عن أهل العلم. وليس بأيدي هؤلاء إلّا مجرّد الاستبعاد والرجوع إلى تخيّلات مختلة وعلل معتلّة مع قطع النظر عن هذه الشريعة المحمّدية، بل مع قطع النظر عن الشرائع المتقدّمة على هذه الشريعة، فإنّها متّفقة على وجودهم، وكذلك أهلها متّفقون على ذلك مقرّون به كإقرار المسلمين)[١].

ثمّ أورد رحمه الله أدلّة من الكتاب والسنّة وأخبار الثقات، وهي كثيرة لا مجال هنا لبسطها، وسأذكر شيئاً منها.

فمن الكتاب قوله تعالى في خلق الإنس والجان: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[٢]، وفي بيان العلة في خلقه لهما: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ﴾[٣].

وقوله تعالى في الاخبار عن استماع الجنّ لقراءة النبي ﷺ وما دار بينهم من أحاديث: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوْا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِيْ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[٤].

---

(١) بحث في وجود الجنّ: الشوكاني (ورقة ١) (مخطوط).
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٤، ١٥.
(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الجنّ، الآية: ١، ٢.

وقوله تعالى في الاخبار عن إبليس أبي الجنّ والشياطين، وفسقه عن أمره، وفي النهي عن اتّخاذه وذرّيته أولياء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوْا لِآدَمَ فَسَجَدُوْا إِلَّا إِبْلِيْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[1].

وقوله سبحانه في الإخبار بأنّ شياطين الجنّ وشياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض الباطل والكذب، لتضليل الناس، وإغوائهم بالفتن والشرور: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِيْنَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوْراً﴾[2] وغير ذلك من الآيات.

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في الإخبار عن القرين من الجنّ والذي وكّل بكلّ إنسان: (ما منكم من أحد إلّا وقد وُكِلَ به قرينُه من الجن) قالوا: وإيّاك؟ يا رسول الله، قال: وإيّاي، إلّا أنّ الله أعانني عليه فأسلم[3]، فلا يأمرني إلّا بخير)[4].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال في الاخبار عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته، وتناوله من طعامه وشرابه: (إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[5].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٣) برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شرّه وفتنته. ومن فتح قال: إنّ القرين أسلم، من الإسلام. وصار مؤمناً لا يأمرني إلّا بخير. (شرح النووي لمسلم ١٧/ ١٥٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان إلخ (٤/ ٢١٦٧ برقم ٢٨١٤).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما =

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال في الاخبار عن رؤيته للجنّ وعن غذائهم: (أتاني داعي الجنّ، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن). قال (أي الراوي وهو عبد الله بن مسعود): فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال (أي الرسول ﷺ): (لكم كلّ عَظْم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوْفَرَ ما يكون لحماً، وكلّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لدوابّكم) فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنّهما طعام إخوانكم»[1]. وغير هذا من الأحاديث الواردة في إثبات وجود الجنّ والشياطين وفي تفصيل أحوالهم[2].

قال الشوكاني بعد سوق الأحاديث: (وبعد هذا كلّه فكثير من عباد الله قد اجتمع بالجنّ، وسمع كلامهم، وسألوه وسألهم، وهذا موجود في كلّ عصر من العصور، قد تتبّعنا من وقع له ذلك من الثقات، فثبت لنا بذلك التواتر المعنوي، بل راقم هذه الأحرف[3] غفر الله له قد سمع كلامهم غير مرّة، وطال بينه وبينهم الخطاب، وبعضهم أخذ بيدي وقبّلها، وكانت كفّه أكبر ما يكون من أيدي الناس)[4].

هذا ما بيّنه الشوكاني رحمه الله من الأدلّة المثبتة لوجود الجنّ والشياطين.

وقد ذهب رحمه الله مذهب القائلين بأنّ جميع الجنّ ولد ابليس كما أنّ

= (٣/ ١٥٩٨ برقم ٢٠١٨).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجنّ (١/ ٣٣٢ برقم ٤٥٠).

(٢) وقد أورد الشوكاني أكثر من عشرين حديثاً في هذا الصدد (انظر بحث في وجود الجنّ (ورقة١ ــ ٣) (مخطوط).

(٣) هو الشوكاني نفسه.

(٤) المصدر السابق (ورقة ٣).

جميع الإنس هم ولد آدم، وأنّ الشياطين هم مردة الإنس والجنّ[1]. وهذا مذهب الجمهور الذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذ قال: (والشياطين هم مردة الإنس والجنّ، وجميع الجنّ ولد إبليس)[2].

والجنّ أجناس مختلفة، منهم المؤمن، والكافر، والبرّ، والفاجر، قال تعالى اخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُوْنَ وَمِنَّا دُوْنَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾[3] أي جماعات متفرّقة وأصنافاً مختلفة[4].

وهل أرسل الله إليهم رسلاً منهم؟

اختلف العلماء في هذا على قولين: قيل: فيهم رسل، لقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾[5]، وقيل: الرسل من الإنس، والجنّ فيهم النذر. وهذا قول الجمهور من العلماء سلفاً وخلفاً، وهو الراجح[6].

ورجّح الشوكاني رحمه الله تعالى هذا القول في تفسيره، قال: (الحقّ أنّه لم يرسل الله إليهم (أي الجنّ) رسلاً منهم، بل الرسل جميعاً من الانس، وإن أشعر قوله: (ألم يأتكم رسل منكم) بخلاف هذا، فهو مدفوع الظاهر بآيات كثيرة في الكتاب العزيز دالّة على أنّ الله سبحانه لم يرسل الرسل إلاّ من بني آدم)[7].

---

(١) انظر المصدر السابق (ورقة ١)، وانظر أيضاً فتح القدير (٥/ ٣٠٣).
(٢) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٥/ ٧) وانظر أيضاً (٤/ ٢٣٥).
(٣) سورة الجنّ، الآية: ١١.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٠٦).
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٦) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٣٤، و١١/ ٣٠٧)، وآكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجانّ للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ٣٤، ٣٥) تعليق عبد الله محمد الصديق، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ١٧٧)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢٢٣).
(٧) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٠٣).

وبيّن هذا في موضع آخر قال: (وظاهر الآيات القرآنية أنّ الرسل من الانس فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[1]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَيَمْشُوْنَ فِيْ الْأَسْوَاقِ﴾[2]، وقال سبحانه في إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِيْ ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾[3].

فكلّ نبيّ بعثه الله بعد إبراهيم فهو من ذريته، وأمّا قوله تعالى في سورة الأنعام: (يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ فقيل المراد من مجموع الجنسين، وصدق على أحدهما وهم الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمُرْجَانُ﴾[4] أي من أحدهما)[5].

واختلفوا أيضاً في دخول مؤمني الجنّ الجنّة كما يدخل عصاتهم النار، لقوله تعالى في سورة تبارك: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيْرِ﴾[6]، وقوله تعالى حكاية عن الجنّ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُوْنَ فَكَانُوْا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[7]، وغير ذلك من الآيات. فقال الحسن[8]: يدخلون الجنّة. وقال مجاهد[9]: لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. وذهب طائفة منهم أبو حنيفة ـ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.
(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٢٦).
(٦) سورة الملك، الآية: ٥.
(٧) سورة الجنّ، الآية: ١٥.
(٨) هو الحسن البصري وقد تقدّمت ترجمته في صفحة (٥٢).
(٩) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي، تابعي، شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس قال ابن سعد: مجاهد ثقة فقيه عالم كثير الحديث توفّي (١٠٢ هـ) وقيل غير ذلك. (انظر حيلة الأولياء للأصفهاني ٣/ ٢٧٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٤٩، والبداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٣٢).

فيما نقل عنه ــ إلى أنّ المطيعين منهم يصيرون تراباً كالبهائم، ويكون ثوابهم النجاة من النار[1].

ورجّح الشوكاني القول الأوّل، قال: (والأوّل أولى لقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[2] ففي هذه الآية، بل في كثير من آيات هذه السورة دليل أنّ الجنّ يدخلون الجنة إذا آمنوا بالله سبحانه، وعملوا بفرائضه، وانتهوا عن مناهيه[3].

ومما يستدلّ به أيضاً قوله تعالى حكاية عن الجنّ: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيْبُوْا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوْا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوْبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيْمٍ﴾[4].

إذ قال: (وفي هذه الآية دليل على أنّ حكم الجنّ حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبّد بالأوامر والنواهي. . . وقد قال الله تعالى في مخاطبة الجنّ والإنس: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[5] فامتنّ سبحانه على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولا ينافي هذا الاقتصار ههنا على ذكر اجارتهم من عذاب إليم. ومما يؤيّد هذا أنّ الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنّة، وهو مقام فضل. ومما يؤيّد هذا أيضاً ما في القرآن الكريم في غير موضع أنّ جزاء المؤمنين الجنّة، وجزاء من عمل الصالحات الجنّة، وجزاء

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، وفتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٠٣).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٧٤.

(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١٤١ وأيضاً ٣٠٣).

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٤٦، ٤٧.

من قال لا إله إلّا الله الجنّة، وغير ذلك مما هو كثير في الكتاب والسنّة)[1].

قلت: وهذا الذي رجّحه الشوكاني هو قول جمهور العلماء[2]، وهو الراجح في هذه المسألة، لما أيّده من الأدلّة. والله أعلم.

كما اختلفوا أيضاً في رؤية الجنّ، فذهب بعض الناس إلى أنّه لا يراهم أحد في الدنيا، ويستدلّون بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[3].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن المراد من هذه الآية فقال: (الحمد لله، الذي في القرآن أنّهم يرون الإنس من حيث لا يراهم الإنس، وهذا حقّ يقتضي أنّهم يرون الإنس في حال لا يراهم الإنس فيها، وليس فيه أنّهم لا يراهم أحد من الإنس بحال، بل قد يراهم الصالحون وغير الصالحين أيضاً، لكن لا يرونهم في كلّ حال)[4].

وقرّر رحمه الله أنّ من الناس من رآهم، وفيهم من رآى من رآى، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين، ومن الناس من كلّمهم وكلّموه، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم، ويتصرّف فيهم، وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين[5].

قلت: وهذا حقّ، وقد تواترت أخبار الثقات في رؤيتهم للجنّ

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٢٦).

(٢) انظر مجموع فتاوى لابن تيمية (١٩/ ٣٩)، وأيضاً (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، و(١١/ ٣٠٦، ٣٠٧) قال رحمه الله: وهذا القول مأثور عن مالك، والشافعي، وأحمد، وأبي يوسف، ومحمد. وانظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (ص ٧٢٣) تحقيق/ عبد الله إبراهيم الأنصاري وآكام المرجان للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ٥٧)، وشرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري (ص ١٩٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٤) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٥/ ٧).

(٥) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٤/ ٢٣٢).

ومخاطبتهم لهم، وهي معروفة في كلّ عصر، ولا حاجة هنا إلى ذكرها[1].

وقد وافق الشوكاني رحمه الله تعالى شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ذهب إليه، فقال في تفسير الآية السابقة: (وقد استدلّ جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أنّ رؤية الشياطين غير ممكنة، وليس في الآية ما يدلّ على ذلك، وغاية ما فيها أنّه يرانا من حيث لا نراه، وليس فيها أنّا لا نراه أبداً، فإنّ انتفاء الرؤية منّا له في وقت رؤيته لنا لا يسلتزم انتفاءها مطلقاً)[2].

وقرّر الشوكاني رحمه الله أنّ الجنّ كالشياطين يتشكّلون بأشكال مختلفة، فيتشكّلون بأشكال الإنسان والحيوان، وهذا مما دلّ عليه دليل السمع والمشاهدة، فمن ذلك تشكّل جنّ المدينة في صورة حيّة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري[3]، وتشكّل شيطان في صورة

---

(١) انظر هذه الأخبار على سبيل المثال في كتاب آكام المرجان للقاضي بدر الدين الشبلي (ص ١٨٧، ٢١٧، ٢٢٥).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩٧).

(٣) ومضمون الحديث: أنّ أبا سعيد الخدري قال: كان فتى منّا حديثَ عهد بعرس، فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك، فإنّي أخشى عليك قريظة»، فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وأصابته غيرة، فقالت له: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني؟ فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح، فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرى أيّهما كان أسرع موتاً، الحيّة أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له. فقال: «استغفروا لصاحبكم» ثم قال: «إنّ بالمدينة جنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيّام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنّما هو شيطان». (أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب قتل الحيّات وغيرها (٤/ ١٧٥٦ برقم ٢٢٣٦)، ومالك في الموطأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في قتل الحيّات (٢/ ٩٧٦، ٩٧٧ برقم ٣٣).

إنسان في قصّة أبي هريرة عندما كان يحرس الصدقة، كما في صحيح البخاري[1]، وغير ذلك[2]. والله أعلم.

●●●

(١) وخلاصة القصّة: أنّ أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة (الزكاة) فكان الجانّ يأتيه في صورة إنسان، ويأخذ من تمر الزكاة، فقبضه، وأراد أن يوقع به، فاعتذر اللعين فتركه، ثم أتى للمرّة الثالثة، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ، غير أنّ الشيطان اعتذر كذلك بأنّ له عيالاً، وأنّه مضطّر، وطلب من أبي هريرة أن يعفو عنه، على أن يعلّمه آية من كتاب الله تعالى، من قرأها فإنّ الشيطان لا يقربه، وهذه الآية هي آية الكرسي، فعفا عنه وتركه، ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبي ﷺ قائلاً: «ما فعل أسيرك البارحة؟» فقال له أبو هريرة: كان من أمره كذا وكذا... فقال له النبي ﷺ: أما إنّه قد صدقك وهو كذوب. (أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً إلخ (الفتح ٤/ ٥٦٨ برقم ٢٣١١) وأخرجه أيضاً برقم ٣٢٧٥، ٥٠١٠).

(٢) انظر: بحث في وجود الجنّ: الشوكاني (ورقة ٣) (مخطوط).

الفصل الثاني

في الإيمان بالمعاد أو اليوم الآخر

ويشتمل على المباحث الآتية:

المبحث الأول: معنى الإيمان بالمعاد وأدلته.

المبحث الثاني: بيان اتفاق الشرائع على إثبات المعاد.

المبحث الثالث: تقرير الشوكاني لمذهب السّلف في المعاد وردّه على المنكرين.

المبحث الرابع: الإيمان بأشراط الساعة.

المبحث الخامس: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته.

المبحث السادس: مستقرّ الأرواح.

المبحث السابع: الإيمان بالنفخ في الصور.

المبحث الثامن: الإيمان بالحشر والموازين والصراط.

المبحث التاسع: الشفاعة.

المبحث العاشر: الجنة ونعيمها.

المبحث الحادي عشر: رؤية الله في الجنّة.

المبحث الثاني عشر: النار وعذابها.

المبحث الثالث عشر: الجنّة والنّار باقيتان لا تفنيان.

المبحث الأوّل

معنى الإيمان بالمعاد وأدلّته

تعريف المعاد:

المعاد في اللغة: مصدر أو ظرف من عاد يعود عوداً وعودة ومعاودة: أي رجع.

جاء في اللسان: والمعاد: المصير والمرجع، والآخرة: معاد الخلق. قال ابن سيدة: والمعاد: الآخرة والحج، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْ فَرَضَ عَلَيْكَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[1] يعني مكة عدة للنبي ﷺ أن يفتحها له. . . ويقال: اذكر المعاد: أي اذكر مبعثك في الآخرة[2].

وفي الشرع ـ كما قال صاحب شرح المقاصد ـ[3]: (هو الرجوع إلى الوجود بعد الفناء، أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرّق، وإلى الحياة بعد الموت، والأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة)[4].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٥.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور (٣/ ٣١٧ مادة: عود)، وانظر تهذيب اللغة للأزهري (٣/ ١٢٨ مادة: عاد).

(٣) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق والكلام، له كتب كثيرة منها: تهذيب المنطق، ومقاصد الطالبين، وشرحه في الكلام، وشرح العقائد النسفية. توفّي (٧٩٣ هـ) (انظر ترجمته في: مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة ١/ ١٩٠، ١٩١ وشذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ٦/ ٣١٩ ـ ٣٢١ والبدر الطالع: الشوكاني ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٥ والأعلام: الزركلي ٧/ ٢١٩).

(٤) شرح المقاصد للتفتازاني (٥/ ٨٢) تحقيق/ د: عبد الرحمن عميرة.

وعلى هـذا يقال ليـوم القيامـة يوم المعـاد، لأنّ الناس يعـودون فيـه أحياء[1].

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ﴾[2]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ﴾[3] (أي كما أنشأكم في ابتداء الخلق يعيدكم)[4].

وفي الحـديث من دعـاء النبي ﷺ.. وأصلِحْ لي آخـرتي التي فيهـا معادي[5] أي ما يعود إليه يوم القيامة[6].

وهناك كلمتان مرادفتان له، هما البعث والنشور.

قال تعالى في البعث: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِيْ الْقُبُوْرِ﴾[7] أي يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم[8].

وقال في النشور: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُوْرُ﴾[9] أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها. والنشور: البعث أي الاحياء بعد الموت، يقال: أنشر الله الموتى فنشروا[10].

فالمراد بهذه الكلمات الثلاث: إحياء الله تعـالى الأبدان بعـد موتهـا وفنائها للجزاء والعقاب.

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٨٨).
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩٩).
(٥) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب التعوّذ من شرّ ما عمل ومن شرّ ما لم يعمل (٤/ ٢٠٨٧ برقم ٢٧٢٠).
(٦) انظر النهاية لابن الأثير (٣/ ٣١٦ مادة: عود).
(٧) سورة الحج، الآية: ٧.
(٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٨).
(٩) سورة فاطر، الآية: ٩.
(١٠) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/٣٤١، وأيضاً ٤/٦٦).

ويطلق لفظ المعاد ويراد به اليوم الآخر بما فيه من تفاصيله، وهو المراد هنا في هذا البحث. والمراد باليوم الآخر فناء هذه العوالم كلها، وانتهاء هذه الحياة بكاملها، وإقبال الحياة الآخرة وابتدائها، وسمّي ذلك اليوم باليوم الآخر لأنّه اليوم الذي لا يوم بعده، وله أسماء أخرى كثيرة لا يتسع المقام هنا لذكرها[1].

معنى الإيمان بالمعاد:

إنّ معنى الإيمان بالمعاد هو معنى الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق الجازم بكلّ ما أخبر به الله عزّ وجلّ في كتابه وأخبر به رسوله ﷺ في سنّته مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من النفخ في الصور، وخروج الخلق من القبور، وما يكون يوم القيامة من الأهوال والأفزاع، وتفاصيل الحشر ونشر الصحف، ووضع الموازين، والصراط، والحوض، والشفاعة لمن أذن الله له، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وما يكون قبل ذلك كلّه من علامات وأشراط، وغير ذلك من الأمور التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والصحيح من سنّة المصطفى ﷺ، كلّ ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر.

أدلّته:

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان الستّة، وعقيدة من عقائد الإسلام الأساسية، وأصل عظيم من أصول الإيمان، إذ لا يصحّ إيمان أحد إلّا بالإيمان به.

---

(١) وقد اعتنى جمع من أهل العلم بذكر هذه الأسماء منهم: الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) في كتابه الأحياء (٤/ ٥١٦، ٥١٧) ط/ دار المعرفة، والقرطبي (ت ٦٧١ هـ) في كتابه التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٢٣٣) ط/ السلفية، والحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) في كتابه النهاية/ الفتن والملاحم (١/ ٢٥٥، ٢٥٦) تحقيق/ طه زيني، ومن المعاصرين سيد سابق في كتابه العقائد الإسلامية (ص ٢٦١ ــ ٢٦٤).

وقد دلّ على وجوب الإيمان به كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، كما يدلّ عليه العقل والفطرة السليمة.

فمن الآيات الدالّة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوْا وُجُوْهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾(٢)، وقوله: ﴿ذٰلِكُمْ يُوْعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٣)، وقوله: ﴿قَاتِلُوْا الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٤).

وأمثال هذه الآيات كثيرة جدّاً، حيث قرن سبحانه الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به عزّ وجلّ، وهذا يدلّ على أهميّة الإيمان باليوم الآخر، وأنّه من الأسس الهامّة التي يقوم عليها بناء العقيدة الإسلامية بعد الإيمان بالله تعالى.

وقد أكثر الله سبحانه من ذكر اليوم الآخر في القرآن الكريم، بحيث لا يكاد يمرّ القارىء على صحيفة من صحائفه إلّا ويجد فيها حديثاً عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، والردّ على شبه المنكرين له في كثير من المواضع، كما يجد تفصيل أحوال ذلك اليوم وحوادثه تفصيلاً كثيراً قلّما يجده في أمور الغيب الأخرى بعد توحيد الله عزّ وجلّ.

ومن الأحاديث الدالّة على وجوب الإيمان باليوم الآخر قوله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»(٥)، وقوله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتّى يؤمن بأربع: يشهد أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٢.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٩.
(٥) تقدّم تخريجه في صفحة (١٩٠).

لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، بعثني بالحقّ، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»[1].

فهذه الآيات والأحاديث تدلّ على وجوب الإيمان باليوم الآخر وتبيّن أهميّته.

وأمّا الفطرة السليمة فهي تدلّ عليه وتهدي إليه، ولا صحّة لما يزعمه الضالّون من أنّ العقول تنفي وقوعه، فإنّ العقول لا تمنع وقوعه، بل تدعو إلى الإيمان به، فقد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً أنّ الكون حادث، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له التي لا تنفكّ عنه بحال، وطروء الفناء على الحوادث في الكون مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل، وبناء على هذا فإنّ أبديّة الكون وما فيه أمر مستحيل، وإنّ فناءه أمر ممكن لا يوجب إثباته، أيّ تناقض عقليّ، وكذلك بعث الخلائق فيه أحياء للجزاء والعقاب أمر ممكن وجائز لا يوجب اثباته تناقضاً عقلياً[2].

وقد سلك القرآن الكريم في إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية في غاية الوضوح، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3] والمعنى كما قال الشوكاني رحمه الله: (ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرج إلى الدنيا، ثم يتوفّاه بعد ذلك، وكذلك سائر الحيوانات

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر؛ باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشرّه (٤/ ٣٩٣ برقم ٢١٤٥)، وابن ماجة في المقدّمة، باب في القدر (١/ ٣٢ برقم ٨١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٢) وقال: هذا حديث صحيح. ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في السنة لابن أبي عاصم (١/ ٥٩ برقم ١٣٠)، وفي مشكاة المصابيح (١/ ٣٧ برقم ١٠٤).

(٢) انظر بحثاً قيّماً في هذا الصدد في كتاب: الإسلام يتحدّى لوحيد الدين خان (ص ٧٩ ـ ١٠٦) تعريب/ ظفر الإسلام خان.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ١٩.

وسائر النبات، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والايجاد فهو القادر على الإعادة)[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[3] أي من هو قادر على خلق هذا فهو على إعادة ما هو أدون منه أقدر، وقد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم، لأنّهم ليسوا بأشدّ خلقاً منهم، كما قال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾[4].

وأمثال هذه الآيات كثيرة.

ومن تلك المسالك العقلية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِيْ أَحْيَاهَا لَمُحْيِيْ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾[5]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ﴾[6].

وبهذا يتّضح أنّ أدلّة القرآن الكريم عقلية وهي شرعية، فقد جعل الله سبحانه في الآيتين إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٩٧).
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الاسراء، الآية: ٩٩.
(٤) سورة النازعات، الآية: ٢٧. وانظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٦١، وأيضاً ٤/ ٣٨٤).
(٥) سورة فصّلت، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

النبات منها نظير إخراجهم من القبور، وجعل ذلك آية ودليلاً على إثبات البعث، وعلى كمال قدرته سبحانه وتعالى على كلّ شيء.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في معنى الآية الثانية: (كذلك نخرج الموتى): أي مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم. (لعلّكم تذكّرون) أي تتذكّرون فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته، وإنّه قادر على بعثكم كما قدر على إخراج الثمرات التي تشاهدونها)[1].

والذين ينكرون البعث لم يتذكّروا ولم يستعملوا عقولهم في التفكّر والتدبّر في قدرة الله، وإلاّ لما يصدر منهم الإنكار.

المبحث الثاني

بيان اتّفاق الشرائع على إثبات المعاد

إنّ الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار من أصول الإيمان التي يشترك فيها الأنبياء جميعاً، وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في آيات عديدة أنّ الأنبياء جميعاً عرّفوا أممهم باليوم الآخر، وبشّروهم بالجنة، وأنذروهم النار، وكفّروا كلّ من ينكره أو يشكّ فيه.

فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَسِيْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوْهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوْا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِيْنَ﴾[2].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢١٤).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧١.

فالكفّار جميعاً عندما يُسئلون عند ورودهم النار يقرّون ويعترفون بأنّ رسلهم أتتهم وأنذرتهم بما سيلقونه في ذلك اليوم العظيم، ولكنّهم كفروا وكذّبوا. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد بيّن الشوكاني رحمه الله تعالى هذا الموضوع في مؤلّف مستقلّ[1] وذكر ما في الكتب السابقة من النصوص التي تتعرّض لليوم الآخر، على الرغم من وجود التحريف في تلك الكتب.

ففي التوراة كما ذكره الشوكاني في أوّلها عند الكلام على ابتداء الخليقة التصريح باسم الجنّة، ولفظه: (فغرس الله جناناً في عَدْنٍ شرقياً، وابقاً، ثم آدم الذي خلق وأنبت الله، ثم كلَّ شجرة حسن منظرها، وطيب مأكلها، وشجرة الحياة في وسط الجنان، وشجرةَ معرفة الخير والشرّ، وكان نهر يخرج من عَدْن، ليسقي الجنان ومن ثمّ يتفرّق، ويصير أربعة رؤوس، اسم أحدها النيل وهو المحيط بجميع بلد زَوِيْلة، الذي ثَمَّ الذهب، وذهب ذلك البلد جيد، ثم اللؤلؤ، وحجارة البنور. واسم النهر الثاني جِيْحُون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة. واسم النهر الثالث الدجلة، وهو السائر في شرقي الموصل. والنهر الرابع هو الفرات)[2] انتهى.

وكما وقع التصريح في التوراة بالجنّة فقد وقع التصريح فيها باسم النار، ولفظها في التوراة: (شول واشي) قال علماء اليهود: ومعنى اللفظين: (جهنّم).

---

(١) بعنوان: المقالة الفاخرة في بيان اتّفاق الشرائع على إثبات الدار الآخرة. وهو مخطوط. ويوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٢٤ هـ بخط الشوكاني، ولم أتمكّن من الاستفادة منه، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ مضمون الكتاب في الفصل الثاني من كتابه: إرشاد الثقات إلى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوّات. وهو مطبوع.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٠، ١١) والنص في العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثاني، من فقرة (٨ ـ ١٤) مع وجود اختلاف في بعض الألفاظ.

وفي الفصل الثاني عشر من السفر الثالث من التوراة ما لفظه: (واحفظوا رسومي وأحكامي فإنّ جزاء من عمل بها أن يحيا الحياة الدائمة)[1] انتهى. ولا حياة دائمة في الدنيا، بل في الآخرة. وفي التوراة من النصوص على هذا المعنى كثير[2].

قلت: وقد طرأ على التوراة تحريف كثير كما بيّنا، وذهب كثير من هذه النصوص التي تتعرّض لليوم الآخر، ولذلك فإنّ معظم اليهود الآن لا يؤمنون به، ولا يعنون به ما تعنيه الأديان السماوية الأخرى من وجود دار للحساب والجزاء على ما قدم الإنسان في حياته الأولى، إنّما كانوا يعنون به شيئاً آخر، وهو أمر دنيويّ لا غير[3].

والشوكاني رحمه الله تعالى نقل هذه النصوص وأمثالها من النسخة الموجودة في عصره، والتي لم يعمّها التحريف كما عمّها الآن.

وقد ذكر رحمه الله تعالى ما في أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة من بعض النصوص التي تصرّح بالبعث والنشور، قال:

(وفي الفصل السادس والعشرين من كتاب النبي أشعيا ما لفظه: (يقوم الموات ويستيقظ الذين في القبور)[4] انتهى، وقال أيضاً في كتابه المذكور

---

(١) لم أجد هذا النص في العهد القديم في الموضع المذكور، ولعلّه سقط في عملية التحريف.

(٢) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١١).

(٣) انظر: الفصل لابن حزم (١/ ٣٠٩) ط/ دار الجيل، واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ١٧٣، ٢٠٢ ـ ٢٠٤)، والديانات والعقائد لعبد الغفور عطّار (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٤٧)، ومقارنة الأديان للدكتور عوض الله حجازي (ص ١١٨، ١١٩).

(٤) لا يوجد هذا النص في العهد القديم، ويوجد ما يشبهه، كقوله: (تحيا أمواتك تقوم الجثث، استيقظوا ترنّموا يا سكّان التراب) (انظر سفر أشعيا، الاصحاح السادس والعشرين، فقرة ١٩).

في حقيقة تلذّذ أهل الجنّة: (لا عين تقدر تراه إلّا علم الله تعالى)[1] انتهى، وفي الفصل الثاني عشر من كتاب دانيال ما لفظه: (وكثير من الهاجعين في تراب الأرض يستيقظون: هؤلاء لحياة أبديّة، وهؤلاء لتعيير وخزي أبدي)[2] انتهى.

وفي زبور النبي داود عليه السلام في المزمور السادس منه ما لفظه: (وأنت يا ربّ نجّ نفسي، وخلّصني من أجل رحمتك، لأنّه ليس في الموتى من ينكرك، ولا في الجحيم من يعترف لك)[3] انتهى. وفي المزمور الرابع والخمسين ما لفظه: (ليأتي الموت عليهم، ولينحدروا إلى الجحيم أحياء، لأنّ الشرور في مساكنهم وفي وسطهم)[4] انتهى.

فهذه النصوص وأمثالها تدلّ على وجود عقيدة البعث والنشور في هذه الكتب على الرغم من وجود تحريف كثير فيها.

أمّا في الأناجيل النصرانية فقد ذكر الشوكاني عدّة نصوص تدلّ على عقيدة المعاد[5]، منها: ما في الفصل الخامس من الانجيل الذي جمعه متّى ما لفظه: (ومن قال لأخيه يا أحمق فقد وجبت عليه نار جهنّم)[6] انتهى، وفي الفصل الخامس والعشرين منه ما لفظه: (حينئذ يقول الذين عن يساره: اذهبوا عنّي يا ملاعين إلى النار المؤبّدة المعدّة لإبليس وجنوده)[7]، ومنه أيضاً ما

---

(١) لا يوجد هذا النص في العهد القديم في الموضع المذكور.

(٢) هذا في العهد القديم، انظر سفر دانيال، الاصحاح (١٢) فقرة (٢) مع اختلاف يسير.

(٣) هكذا في المزمور السادس، فقرة (٣ ـ ٥) وفيه (ليس في الموت ذكرك. في الهاوية من يحمدك).

(٤) يوجد هذا النص في المزمور الخامس والخمسين، لا الرابع والخمسين كما ذكر الشوكاني انظر فقرة (١٥) مع اختلاف يسير.

(٥) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٢ ـ ١٤).

(٦) هكذا في إنجيل متّى، الاصحاح (٥) فقرة (٢٢).

(٧) هكذا في فقرة (٤١) من المصدر السابق.

لفظه: (فيذهب هؤلاء إلى العذاب الدائم، والصدّيقيّون إلى الحياة المؤبّدة)[١].

وفي الإنجيل الذي جمعه مرقص في الفصل التاسع ما لفظه: (فإن شككتك يدُك فاقطعها، فخير لك أن تدخل الحياة وأنت أقطع من أن يكون لك يدان وتذهب إلى جهنّم في النار حيث دُوْدُهم لا يموت، ونارهم لا تُطْفأ وإن شككْتك رجلُك فاقطعها، فخير لك أن تدخل الحياة أعرج من أن يكون لك رجلان وتُلْقى في جهنّم في النار حيث دُوْدُهم لا يموت ونارهم لا تُطْفأ)[٢] انتهى. وفي الفصل الثاني عشر منه التصريح (بأنّ الزنادقة هم الذين يقولون: ليست تكون قيامة)[٣] انتهى.

وفي الإنجيل الذي جمعه لوقاً في الفصل السادس عشر منه ما لفظه: (ثمّ مات ذلك الغنيّ وقُبر فرَفَعَ عينه، وهو يعذّب في الجحيم)[٤] انتهى. وفي الفصل العشرين منه ما لفظه: (فأمّا إنّ الموتى يقومون فقد أنبأ بذلك موسى)[٥] انتهى. وفي الفصل الثالث والعشرين منه إنّ المسيح قال للمصلوب الذي آمن به: (إنّك تكون معي في الفردوس)[٦] انتهى.

وفي الإنجيل الذي جمعه يوحنّا في الفصل الخامس منه ما لفظه: (فإنّه

---

(١) هكذا في فقرة (٤٦) من المصدر السابق.

(٢) انظر إنجيل مرقس، الاصحاح (٩)، فقرة (٤٣ ـ ٤٦) وفيه: (وان أَعْثَرَتْكَ) بدل: (شككتك).

(٣) انظر فقرة (١٨) من الاصحاح (١٢) وفيه: (الصدوقيّون) بدل (الزنادقة). والصدوقيّون: فرقة من فرق اليهود لا يؤمنون بالبعث والنشور. (انظر: الفصل لابن حزم (١ / ١٧٨) ـ واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ١٧٣)، واليهودية والمسيحية للدكتور ضياء الرحمن الأعظمي (ص ١٨٩ ـ ١٩٢).

(٤) انظر فقرة (٢٢، ٢٣) من الاصحاح (١٦) مع اختلاف يسير.

(٥) هكذا في فقرة (٣٧) من الاصحاح (٢٠).

(٦) هكذا في فقرة (٤٣) من الاصحاح (٢٣).

ستأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور صوته، فيخرج الذين عملوا الحسنات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة)[1] انتهى، وفي السادس عشر منه ما لفظه: (يكون له الحياة المؤبّدة، وأنا أقيمه في اليوم الآخر)، وفي الفصل السابع عشر منه ما لفظه: (الحقّ والحقّ أقول لكم إنّه من يؤمن بحياة دائمة)[2] انتهى.

هذا بعض ما أورده الشوكاني رحمه الله تعالى من نصوص الأناجيل التي تصرح بعقيدة البعث والنشور مما يدلّ على سعة اطّلاعه رحمه الله على كتب القوم وعلمه بها.

قال بعد سوقه النصوص: (والحاصل أنّ هذا أمر اتّفقت عليه الشرائع، ونطقت به كتب الله عزّ وجلّ سابقها ولاحقها، وتطابقت عليه الرسل أوّلهم وآخرهم، ولم يخالف فيه أحد منهم... كما يحكي ذلك عنهم القرآن الكريم، فإنّ فيه ما يفيد ما كانوا عليه، وما كانوا يدينون به، وما قالوا لقومهم، وما وعدوهم به من خير وشرّ، بل فيه ما يفيد ما كان عليه أهل الكتب المتأخّرة من البعثة لموسى ومن بعده، وما كانوا يدينون به، كقوله سبحانه حاكياً عن اليهود: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾[3]، وقوله تعالى (حاكياً عن عيسى عليه السلام): ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[4]، وقوله حاكياً عن موسى[5] إلى فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(١) هكذا في فقرة (٢٩، ٣٠) من الاصحاح (٥).
(٢) لم أجد هذا النص في الموضع المذكور ولا الذي قبله.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٢.
(٥) والصواب أنّ الحكاية ليست عن موسى وإنّما هي عن رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه كما صرّح في أوّل الآية رقم (٢٩): ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ...﴾.

يَوْمَ التَّنَادِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، إلى قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُوْنَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُوْنَ فِيْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّيْ مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَجَاعِلُ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيْمَا كُنْتُمْ فِيْهِ تَخْتَلِفُوْنَ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيْداً فِيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِيْنَ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيْهِمْ أُجُوْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِيْنَ﴾[(٢)]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُوْلَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى﴾[(٣)].

ونصوص القرآن الحاكية عن اليهود والنصارى وسائر الملل مثل هذا كثيرة جدّاً، ولا يتّسع المقام لبسطها، وقد بعث النبي ﷺ وأهل الملّة اليهودية والنصرانية في أكثر بقاع الأرض، وبلغهم ما حكاه القرآن عن أنبيائهم عن إثبات المعاد وإثبات النعيم الجسماني والروحاني، ولم يسمع عن أحد منهم أنّه أنكر ذلك، أو قال هو خلاف ما في التوراة والإنجيل... إلى أن قال: وأهل الكتاب إلى عصرنا هذا يقرّون بالمعاد، والجنّة والنار، والحساب والعقاب، والنعيم والثواب، ولا ينكر منهم منكر، ولا يخالف فيه مخالف)[(٤)].

قلت: إنّ كلام الشوكاني هنا ليس على إطلاقه، فإنّ طائفة من اليهود يسمّون بالصادوقيّين يزعمون أنّهم لا يؤمنون إلاّ بتوراة موسى، وهم يكذّبون بالبعث والنشور، والجنّة والنار، ويرون أنّ ذلك سيكون في الدنيا[(٥)].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٢ ـ ٤٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٥ ـ ٥٧.
(٣) سورة الأعلى، الآية: ١٦ ـ ١٩.
(٤) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٤. ٢١، ٢٢، ٢٤).
(٥) انظر: الفصل لابن حزم (١/ ١٧٨)، واليهودية للدكتور أحمد شلبي (ص ٢٢٩ ـ ٢٣١)، ومقارنة الأديان للدكتور عوض الله حجازي (ص ١٢٥، ١٢٦)، =

فقد ذكر إنجيل متّى أنّ هذه الطائفة جاءوا إلى عيسى وجادلوه في القيامة: (في ذلك اليوم جاء إليه الصادوقيّون الذين يقولون ليس قيامة)[1].

فإنكار اليوم الآخر طابع اليهودية بعد فقدان توراة موسى أو تحريفها، وإذا كان بعض اليهود يعتقدون في اليوم الآخر فذلك مردّه إلى ديانة موسى الصحيحة إذا كان اعتقادهم فيه اعتقاداً صحيحاً، وهذا أمر لم يصرّح به الكتاب المقدّس في أسفار العهد القديم الحالية التي بين أيدي اليهود الآن.

وصفوة القول أنّ عقيدة البعث أو اليوم الآخر موجودة في كلّ الديانات السماوية، وأنّ جميع الأنبياء متّفقون على الإخبار بها ودعوة قومهم إلى الإيمان بها، غير أنّ أتباعهم بعد أن طرأ على ديانتهم التحريف والتبديل انحرفوا عنها، فكذّبوا بها، أو اعتقدوا بها على غير الصفة التي جاءت بها شريعتهم.

المبحث الثالث

تقرير الشوكاني لمذهب السلف في المعاد وردّه على المنكرين

قرّر الشوكاني رحمه الله تعالى مذهب السلف أهل السنة في الإيمان بالمعاد، فقد ذهب السلف أهل السنة إلى أنّ المعاد يكون بالروح والجسد معاً، لما دلّت عليه النصوص الكثيرة الثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ، وَفِيْهَا نُعِيْدُكُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[2].

= واليهودية والمسيحية للدكتور ضياء الرحمن الأعظمي (ص ١٨٩ ـ ١٩٢).

(١) انظر فقرة (٢٣) من الاصحاح (٢٢).

(٢) سورة طه، الآية: ٥٥.

قال الشوكاني: (أي بالبعث والنشور وتأليف الأجسام وردّ الأرواح إليها على ما كانت عليه قبل الموت)[1].

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِيْنَ عَلَى أَنْ نُسَوِيَ بَنَانَهُ﴾[2].

قال الشوكاني: (أي على أن نجمع بعضها إلى بعض، فنردّها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبّه سبحانه بالبنان، وهي الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق، فهذا وجه تخصيصها بالذكر)[3].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾[4].

والمعنى كما قال الشوكاني: (جمعنا الخلائق بعد تلاشي أبدانهم ومصيرها تراباً جمعا تامّاً على أكمل صفة وأبدع هيئة وأعجب أسلوب)[5].

وغير ذلك من الآيات المصرّحة بأنّ البعث يكون بالروح والجسد معاً، ويؤيّد هذا ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون، ، ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلاّ يبلى إلاّ عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنب[6] ومنه

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٧٠)، وانظر تفسير الطبري (١٦/ ١٧٥).
(٢) سورة القيامة، الآية: ٣، ٤.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٣٦).
(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٩.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٥).
(٦) قال النووي: أي العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، ويقال له: عجم، بالميم، وهو أوّل ما يخلق من الآدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه. (شرح النووي لمسلم ١٨/ ٩٢، وانظر النهاية لابن الأثير ٣/ ١٨٤ مادة: عجب).

يُركّب الخلق يوم القيامة»[1].

فهذا كلّه إشارة إلى أنّ ذرّات الإنسان لا تفنى أبداً، وإنّما تتفرّق أجزاؤه في الأرض، ويبقى منه جزء لا يفنى ولا يتفرّق، وبذلك تكون الاعادة، وهي عبارة عن جمع المتفرّق.

فالبعث لا يتحقّق إلاّ بقيام الموتى من قبورهم بأجسادهم التي أطاعوا بها أو عصوا بها في الدنيا حتى يتحقّق العدل الإلٰهي بإثابة المطيعين وتعذيب العاصين.

وقد بيّنت ذلك نصوص القرآن الكريم المتعلّقة بالعذاب والنعيم يوم القيامة.

كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾[2].

وقوله تعالى عن عذاب أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُوْدُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوْداً غَيْرَهَا لِيَذُوْقُوْا الْعَذَابَ﴾[3].

وقوله تعالى في نعيم أهل الجنة: ﴿مُتَّكِئِيْنَ فِيْهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُوْرٍ عِيْنٍ﴾[5].

فهذه النصوص جميعاً لا يصحّ معناها ما لم يكن البعث بالروح والجسد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ونفخ في الصورالخ (الفتح ٨/ ٤١٤ برقم ٤٨١٤) ــ ومسلم في كتاب الفتن، باب ما بين النفختين (٤/ ٢٢٧٠ برقم ٢٩٥٥) واللفظ له.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٩٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٤) سورة الإنسان، الآية: ١٣.

(٥) سورة الطور، الآية: ٢٠.

معاً، إذا القاعدة المقرّرة لدى المفّسرين أنّ اللفظ لا يعرض عن ظاهره إلاّ بدليل، وهذا ما قرّره الشوكاني في عدّة مواضع في تفسيره[١]، وظاهر الآيات قاطع بكون البعث بالروح والجسد معاً.

والشوكاني رحمه الله تعالى عندما قرّر مذهب السلف في هذه المسألة فإنّه يردّ على المنكرين والمخالفين لمذهب أهل السنة الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع السماوية.

ففي كتابه: إرشاد الثقات تعرّض رحمه الله للردّ على رجل من اليهود زنديق، يقال له موسى بن ميمون[٢] اليهودي الأندلسي، وعلى من قلّده من أهل الإسلام، كابن سينا[٣]، وغيره، حيث ذهب هؤلاء إلى أنّ البعث يكون بالروح فقط دون الجسم.

وقد نقل رحمه الله كلاماً طويلاً لموسى بن ميمون مفاده أنّه أثبت المعاد النفساني دون الجسماني[٤].

ومما نقل عنه قوله: (... وهذه اللذّة ليست لذّة طعام أو شراب... ولا يوجد مُثُل تمثّل تلك اللذّة، بل كما قال النبي داود متعجّباً من عظمتها: ما أكثر وما أجزل خيرك الذي خبأته للصالحين الطائعين لأمرك، وهكذا قال العلماء: العالم المستقبل ليس فيه أكل، ولا شرب، ولا غسل، ولا دهن،

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢٧٢)، (٢/ ١٩٠. ٢١١)، (٣/ ٢٠٧)، (٤/ ٤٧٧).

(٢) هو موسى بن ميمون بن يوسف بن إسحاق، أبو عمران القرطبي، طبيب فيلسوف يهوديّ، ولد وتعلّم في قرطبة، وتنقّل مع أبيه في مدن الأندلس، وتظاهر بالإسلام، فحفظ القرآن. وتفقّه بالمالكية، ودخل مصر، فعاد إلى يهوديّته، وأقام في القاهرة ٣٧ سنة، كان فيها رئيساً روحيّاً لليهود، له تصانيف كثيرة بالعربية والعبرية، توفّي (٦٠١ هـ) (الأعلام للزركلي ٧/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) سبق له ترجمة في صفحة (١٦٢).

(٤) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٥ ــ ١٧).

ولا نكاح، بل الصالحون باقون فيه، ويستلذّون من نور الله تعالى، يريدون بذلك أنّ تلك الأنفس تستلذّ بما تعقل من الباري بما تستلذّ سائر طبقات الملائكة بما عقلوا من وجوده سبحانه، فالسعادة والغاية القصوى هي الوصول إلى هذا الملأ الأعلى)(١).

فردّ الشوكاني رحمه الله تعالى على هذا القول، وبيّن أنّه مجرّد زندقة، وأنّ التوراة والزبور والإنجيل وكتب سائر الأنبياء منادية بخلاف ذلك قال:

(إنّ حصر اللذّات النفسانية التي ذكرها لا ينافي حصول اللّذات الجسمانية التي وردت في كتب الله عزّ وجلّ، وقوله: (وليست بلذّة طعام أو شراب) هذا مسلم، فإنّ اللذّات النفسانية ليست بلذّة طعام ولا شراب، ولكن من أين يلزم أنّه لا لذّة طعام وشراب ونحوهما في تلك الدار الآخرة؟

فإن كان بالشرع فكتب الله عزّ وجلّ جميعها ناطقة بخلاف ذلك، كما قدّمنا ذلك في كتب الله عزّ وجلّ، وفي القرآن الكريم مما يكثر تعداده، ويطول إيراده، وهو لا يخفى مثله على أحد من المسلمين الذين يقرأون القرآن، لبلوغه في الكثرة إلى غاية يشترك في معرفتها المقصّر والكامل، وإن كان بالعقل فليس في العقل ما يقتضي إثبات اللذّة النفسانية، ونفي اللذّة الجسمانية، بل لا مدخل للعقل ههنا، ولا يتعوّل عليه أصلاً.

وإن كان لا يعتبر عقل ولا شرع، بل لمجرّد الزندقة والمروق من الأديان كلّها والمخالفة لما ورد في كتب الله سبحانه فبطلان ذلك مستغن عن البيان.

وأمّا قوله: (كما قال النبي داود متعجّباً في عظمتها: ما أكثر وما أجزل خيرك الذي خبأته للصالحين الطائعين لأمرك) فهذا عجب منه عليه السلام من

---

(١) المصدر السابق (ص ١٦، ١٧) نقلا عن كتاب: مشنة التوراة. لموسى بن ميمون.

كثرة خير الله سبحانه، وجزالة ما خبأه للصالحين من عباده الطائعين لأمره في الدار الآخرة، وهو دليل على الملعون لا له، فإنّ كلامه هذا هو كلام سائر أنبياء الله في استعظام ما أعدّه الله للصالحين من عباده، كما قال نبيّنا ﷺ: (في الجنّة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر)[1] ومثله في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2][3].

وهكذا أنكر الشوكاني رحمه الله تعالى على المنكرين المعاد الجسماني، وأبطل حججهم التي يستدلّون بها، وبيّن أنّ هذا القول مخالف لما جاءت به رسل الله ونطقت به كتبه، وأنّ صاحبه مبتدع زنديق، وكذلك من سلك مسلكه من فلاسفة المسلمين، كابن سينا، وأصحاب رسائل إخوان الصفا، وغيرهم[4].

وقد أطال رحمه الله في ردّه عليهم[5]. وأكتفي بهذا القدر خوفاً من الاطالة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) أخرجه البخاري في عدّة مواضع في صحيحه، انظر كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة. (الفتح ٦/ ٣٦٦ برقم ٣٢٤٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلة فيها. (١/ ١٧٦ برقم ١٨٩).

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٣) إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٨، ١٩).

(٤) وقد حكم شيخ الإسلام ابن تيمية على هؤلاء الفلاسفة المنكرين لمعاد الأبدان بالكفر (انظر مجموع فتاوى ٤/ ٢٨٣، وأيضاً ٣١٤)، كما حكم عليهم بالكفر الإمام الغزالي في كتابه: المنقذ من الضلال (ص ١٠٥، ١٠٦) تحقيق/ د: عبد الحليم محمود).

(٥) انظر إرشاد الثقات: الشوكاني (ص ١٨ ـ ٢٤).

المبحث الرابع

الإيمان بأشراط الساعة

معنى أشراط الساعة وأدلّتها:

الأشراط: العلامات، واحدها شرط، بالتحريك، وبه سميت شرط السلطان، لأنّهم جعلوا لأنفسهم علامات يعرفون بها[(١)]. والمراد بالأشراط هنا العلامات التي يعقبها قيام الساعة[(٢)].

ومعنى الساعة: هو يوم القيامة، وقد تكرّر ذكرها في القرآن والحديث، والساعة في الأصل تطلق بمعنيين: أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءاً هي مجموع اليوم والليلة. والثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل، يقال: جلست عندك ساعة من النهار. أي وقتاً قليلاً منه، ثمّ استعير لاسم يوم القيامة. قال الزجاج: معنى الساعة في كلّ القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلّة الوقت الذي تقوم فيه سمّاها ساعة[(٣)].

وفي القرآن الكريم ذكر الساعة في عدّة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾[(٤)] قال الشوكاني: (أي القيامة: وسمّيت ساعة لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا)[(٥)]. وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[(٦)] ومعنى أشراطها كما قال

---

(١) النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٦٠ مادة: شرط)، وانظر لسان العرب لابن منظور (٧/ ٣٢٩، ٣٣٠ مادة: شرط).
(٢) الفتح لابن حجر (١٣/ ٧٩).
(٣) النهاية لابن الأثير (٢/ ٤٢٢ مادة: سوع)، وانظر المفردات للأصفهاني (ص ٢٤٨ مادة: ساعة)، ولسان العرب لابن منظور (٨/ ١٦٩ مادة: سوع).
(٤) سورة الروم، الآية: ٥٥.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٢٣٢).
(٦) سورة محمّد، الآية: ١٨.

الشوكاني: (أي أماراتها وعلاماتها، وكانوا قد قرأوا في كتبهم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخر الأنبياء فبعثته من أشراطها)[١].

فأشراط الساعة هي علامات القيامة التي تسبقها وتدلّ على قربها.

وقد ورد في كتاب الله ذكر جملة من أشراط الساعة سيأتي ذكر بعضها قريباً، وفي سنّة المصطفى ﷺ ذكر كثير من أشراط الساعة وعلاماتها.

منها: حديث جبريل المشهور حيث سئل النبي ﷺ عن أمارات الساعة قال: أخبرني عن أماراتها، فقال ﷺ: «أن تلد الأمة ربَّتَها»[٢]، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان)[٣].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين، كلّهم يزعم أنّه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهمَّ ربَّ المال من يقبل صدقته، وحتى يَعْرِضَه فيقول الذي يَعْرِضه عليه: لا أَرَبَ لي به[٤]، وحتى يتطاولَ الناس في البنيان، وحتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[٥].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٥).
(٢) قال ابن الأثير: يعني أنّ الأمة تلد لسيدها ولداً فيكون لها كالمولى، لأنّه في الحسب كأبيه، أراد أنّ السبي يكثر والنعمة تظهر في الناس فتكثر السراري (النهاية ٢/ ١٧٩ مادة: ربب).
(٣) تقدّم تخريجه في صفحة (١٩٧).
(٤) أي لا حاجة لي إليه. والأرب: الحاجة (النهاية لابن الأثير ١/ ٣٥ مادة: أرب).
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب (٢٥) (الفتح ١٣/ ٨٨ برقم ٧١٢١) واللفظ =

ومنها حديث حذيفة بن أَسِيْد الغفاري رضي الله عنه قال: (طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنّها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات. فذكر الدخان، والدجّال، والدابّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[1]، وغيرها من الأحاديث وهي كثيرة جدّاً.

وهذه العلامات منها ما هو قريب من قيام الساعة، وهو ما يسمّى بعلامات كبرى، كظهور الإمام المهدي، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجّال، وطلوع الشمس من مغربها، وغيرها، ومنها ما يكون قبل ذلك، وهو ما يسمّى بعلامات صغرى كما جاء في حديث جبريل وغيره.

ذكر جملة من أشراط الساعة العظام التي تكلّم عليها الشوكاني:

تناول الشوكاني رحمه الله جملة من أشراط الساعة في ثنايا كتبه، وخاصّة في كتابه: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح[2]، وسأقتصر فيما يلي على ذكر جملة منها كما ذكرها الشوكاني وهي:

١ ـ ظهور المهدي المنتظر:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنّ الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكماً عدلاً، يلي أمر هذه الأمّة، من آل بيت الرسول ﷺ من

= له، ورواه مسلم مفرّقاً انظر كتاب الفتن وأشراط الساعة في صحيحه.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الأيات التي تكون قبل الساعة (٤/ ٢٢٢٥، ٢٢٢٦ برقم ٢٩٠١)، وأحمد في المسند (٤/ ٦).

(٢) وهو مخطوط في خمس ورقات، بتاريخ محرم ١٢١٨ هـ، ونقل بقلم علي بن علي الشوكاني في شهر رجب ١٣٣٢ هـ.

سلالة فاطمة، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ، واسم أبيه اسم أب الرسول ﷺ، وأنّه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى جواباً عن سؤال ورد إليه عن الأحاديث المتواترة في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح.

(أمّا الأحاديث الواردة في المهدي فالذي أمكن الوقوف عليه منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شكّ ولا شبهة)[1].

ثم ساق رحمه الله تلك الأحاديث، غير أنّه لم يذكر نصوص الأحاديث في معظمها، بل يكتفي بذكر الصحابي الذي رواها والأئمة الذين أخرجوها في كتبهم[2].

وسأذكر هنا ثلاثة منها خشية الاطالة، وهي كافية في إثبات ظهور المهدي في آخر الزمان علامة من علامة الساعة.

١ ــ حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الدنيا أو لا تنقضي حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي» أخرجه أحمد في المسند، وأبو داود، والترمذي[3] وفي رواية أخرى له بلفظ: (يلي رجل من أهل بيتي

---

(١) التوضيح في تواتر ما جاء في المهمدي المنتظر والدجّال والمسيح: الشوكاني (ورقة ١، ٥).

(٢) انظر المصدر السابق (ورقة ١ ــ ٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٧٧، ٤٣٠) وفيه: حتى يملك العرب رجل إلخ. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. (انظر المسند بتحقيقه ٥/ ١٩٩ برقم ٣٥٧٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب المهدي (٤/ ٤٧٣ برقم ٤٢٨٢) وفي رواية له: (لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً منّي ــ أو من أهل بيت ــ يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً) صحّحها الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٩٣٨ برقم ٥٣٠٤)،=

يواطىء اسمه اسمي، لو لم يبق آخر الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي)[1].

٢ ـ حديث أمّ سلمة عند أبي داود بلفظ: (المهدي من عترتي[2] من ولد فاطمة)[3].

٣ ـ حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد والحاكم بلفظ: (لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً، ثمّ يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً)[4].

وغير هذا من الأحاديث الكثيرة التي بلغت حدّ التواتر، وتواترها تواتر

= وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي (٤/ ٤٣٨ برقم ٢٢٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١٥٠١ برقم ٥٤٥٢).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي (٤/ ٤٣٨ برقم ٢٢٣١) عن ابن مسعود الشطر الأوّل، وأبي هريرة الشطر الثاني، وفيه: لو لم يبق من الدنيا. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٣٦٥ برقم ٨١٦٠).

(٢) قال الخطّابي: العترة: ولد الرجل لصلبه، ويكون العترة للأقرباء وبني العمومة، ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه يوم السقيفة: نحن عترة رسول الله ﷺ (معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٤/ ٤٧٤).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب المهدي (٤/ ٤٧٤ برقم ٤٢٨٤)، وابن ماجة في كتاب الفتن، باب خروج المهدي (٢/ ١٣٦٨ برقم ٤٠٨٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٧)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١١٤٠ برقم ٦٧٣٤) وقال في مشكاة المصابيح (٣/ ١٥٠١ برقم ٥٤٥٣): إسناده جيد. وكذا في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ١٠٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠١، ١٠٢) وقال: مشهور من حديث أبي الصديق عن أبي سعيد. وصحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٩، ٤٠).

معنوي لكثرة طرقها واختلاف مخارجها وصحابتها ورواتها وألفاظها[1].

وقد نصّ على ذلك كثير من العلماء المحققين[2] منهم الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى في رسالته: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح. قال بعد سوق الأحاديث:

(وجميع ما سقناه بالغ حدّ التواتر لا يخفى على من له فضل اطّلاع، فتقرّر بجميع ما سقناه في هذا الجواب أنّ الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة... وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية)[3].

وعلى هذا فلا يلتفت لمن ضعّف هذه الأحاديث أو كذّب بها ممن ليس من فرسان هذا العلم ولا يعتدّ بخلافه.

---

(١) وقد أحصى فضيلة الشيخ عبد المحسن بن حمد العبّاد ـ حفظه الله ـ في كتابه: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر. عدد الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي فبلغوا ستة وعشرين صحابياً (ص ١٦٦)، وأحصى عدد الأئمة الذين خرّجوا هذه الأحاديث والآثار في كتبهم فبلغوا ستّة وثلاثين إماماً (ص ١٦٦ ـ ١٦٨) كما ذكر ـ حفظه الله ـ بعض الذين ألّفوا كتبا في شأن المهدي (ص ١٦٨ ـ ١٧١) والذين حكموا على أحاديث المهدي بالتواتر (ص ١٧١ ـ ١٧٤) وذكر بعض العلماء المحققين الذين احتجّوا بأحاديث المهدي واعتقدوا موجبها وهم جمع كبير. (ص ١٨٦ ـ ٢٠٩).

(٢) أذكر منهم: الحافظ أبو الحسن الآبري (ت ٣٦٣ هـ) على ما ذكره ابن القيم في كتابه: المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص ١٤٢) تحقيق/ عبد الفتاح أبو غدة، ومحمد بن عبد ربّ الرسول البرزنجي (ت ١١٠٣ هـ) في كتابه: الإشاعة لأشراط الساعة (ص ١١٢) ط/ دار الكتب العلمية ومحمد السفاريني (ت ١١٨٨ هـ) في كتابه: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨٤) وأهوال يوم القيامة وعلاماتها الكبرى (ص ١٥) ط/ مؤسسة الكتب الثقافية، ومحمد صديق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) في كتابه: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة (ص ١١٢) ط/ دار الكتب العلمية، ومحمد جعفر الكتاني (ت ١٣٤٥ هـ) في كتابه: نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص ١٤٧) ط/ دار الكتب العلمية.

(٣) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح: الشوكاني (ورقة ٥) (مخطوط).

٢ ـ ظهور المسيح الدجّال:

ومن أشراط الساعة الكبرى ظهور شخص سمّاه الرسول ﷺ بالمسيح الدجّال، لكثرة تدجيله وكذبه، يدّعي الألوهية، ويفتن الناس بما يعطاه من خوارق العادات وعجائب الأمور، ففتنته من أعظم الفتن والمحن التي تمرّ على الناس.

قال الشوكاني: (وسمّي مسيحاً لأنّه ممسوح إحدى العينين، وقيل لأنّه يمسح الأرض أي يطوف بلدانها إلاّ مكة والمدينة وبيت المقدس)(١).

قلت: والقول الأوّل هو الراجح لما جاء في الحديث: (إنّ الدجّال ممسوح العين)(٢) وهو مسيح الضلالة يفتن الناس به، أمّا مسيح الهدى فهو عيسى عليه السلام، حيث يبرىء الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، فإن الله سبحانه وتعالى خلق المسيحين أحدهما ضدّ الآخر.

وسمّي الدجّال دجّالاً لأنّه يغطّي الحقّ بالباطل، أو لأنّه يغطّي على الناس كفره بكذبه وتلبيسه وتمويهه عليهم، وقيل غير ذلك(٣).

ولفظة الدجّال أصبحت عَلَما على المسيح الأعور الكذّاب، فإذا قيل الدجّال فلا يتبادر إلى الذهن غيره.

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في ذكر خروج الدجّال في آخر الزمان والتحذير منه، حيث إنّه ﷺ وصفه لأمّته وصفاً دقيقاً لا يخفى

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٤١) وانظر النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٢٧)، ولسان العرب لابن منظور (٢/ ٥٩٤، ٥٩٥) مادة: مسح.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٤٨ برقم ٢٩٣٣ مكرر) عن أنس بن مالك.

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور (١١/ ٢٣٦، ٢٣٧ مادة: دجل)، والفتح لابن حجر (١٣/ ٩٧).

على ذي بصيرة، كما حذّر منه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أممهم، ووصفوه لهم أوصافاً ظاهرة.

وقد نصّ الشوكاني رحمه الله تعالى على تواتر أحاديث الدجّال في رسالته التوضيح، وجمع فيها أحاديث كثيرة بلغت مائة حديث، إلاّ أنّه لم يذكر نصوصها وإنّما يكتفي بذكر الصحابي الذي رواها، والأئمة الذين خرّجوها في كتبهم[1].

وحبّاً للاختصار أذكر هنا نصوص بعض الأحاديث:

١ ــ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثمّ ذكر الدجّال، فقال: (إنّي لأُنْذركموه، وما من نبيّ إلاّ وقد أنذر قومه، ولكنّي سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيّ لقومه، إنّه أعور، وإنّ الله ليس بأعور)[2].

٢ ــ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن الدجّال حديثاً ما حدّث نبيّ قومه، إنّه أعور، وإنّه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول إنّها الجنة هي النار، وإنّي أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه»[3].

٣ ــ وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدجّال ممسوح العين عليها ظَفَرة[4] غليظة، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه

---

(١) انظر ورقة (٢، ٣) من رسالته: التوضيح (مخطوط).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ذكر الدجّال (الفتح ١٣/ ٩٦، ٩٧ برقم ٧١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٥٠ برقم ٢٩٣٦).

(٤) ظَفَرة: بفتح الظاء والفاء: لحمة تنبت عند المآقي، وقد تمتد إلى السواد فتُغَشِّيَه. (النهاية لابن الأثير ٣/ ١٥٨ مادة: ظفر).

كلّ مؤمن كاتب وغير كاتب»[1]، وغير ذلك من الأحاديث.

قال الشوكاني بعد أن ساق الحديث الموفي المائة: (ولنقتصر على هذا المقدار، فليس المراد هنا إلّا بيان كون أحاديث خروج الدجّال متواترة، والتواتر يحصل بالبعض مما سقناه، وقد بقيت أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة تركنا ذكرها)[2].

وقد ورد في بعض الأحاديث ما يفيد أنّ الدجّال هو رجل يقال له: ابن صيّاد. وفي ذلك قال الشوكاني رحمه الله: (وابن صيّاد: اسمه صاف، وأصله من اليهود[3]. وقد اختلف الناس في أمر ابن صيّاد اختلافاً شديداً، وأشكل أمره حتى قيل فيه كلّ قول. وظاهر الحديث[4] أنّ النبي ﷺ كان متردّداً في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٤٩ ـ برقم ٢٩٣٤ مكرر).

(٢) التوضيح: الشوكاني (ورقة ٣) (مخطوط).

(٣) وقيل من الأنصار، وكان صغيراً عند قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وكان شبيهاً بالدجّال في كثير من صفاته، فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنّه الدجّال. وكان النبي ﷺ متوقّفاً في أمره، لأنّه لم يوح إليه أنّه الدّجال ولا غيره، وإنّما أوحي إليه بصفات الدجّال، وكان في ابن صيّاد قرائن محتملة، وكان بعض الصحابة رضي الله عنهم يحلف أنّه هو الدجّال. وقد ترجم له الحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/ ١٣٣ برقم ٦٦٠٩) قال بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في شأنه: (لا معنى لذكر ابن صيّاد في الصحابة، لأنّه إن كان الدجّال فليس بصحابيّ قطعاً، لأنّه يموت كافراً، وإن كان غيره فهو حال لُقِيِّه النبيَّ لم يكن مسلماً. (وانظر ترجمته أيضاً في شرح النووي لمسلم ١٨/ ٤٦، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ١/ ١٢٨ تحقيق/ د: طه زيني).

(٤) وهو حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنّ عمر انطلق مع النبي في رهط قِبَلَ ابن صيّاد حتى وجدوه يلعب مع الصبيان، وقد قارب ابن صيّاد الحلم، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ ظهره بيده، ثمّ قال لابن صيّاد: «أتشهد أنّي رسول الله؟» فنظر إليه ابن صيّاد، فقال: أشهد أنّك رسول الأمّيين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: «أتشهد أنّي رسول الله؟ فرفضه وقال: آمنت بالله وبرسله... فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: «إن يكنه فلن تسلّط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله. متفق عليه (أخرجه البخاري في صحيحه في عدّة مواضع انظر كتاب =

كونه هو الدجّال أم لا؟ ومما يدلّ على أنّه هو الدجّال ما أخرجه الشيخان وأبو داود عن محمد بن المنكدر[1] قال: كان جابر بن عبد الله يحلف بالله أنّ ابن صيّاد هو الدجّال، فقلت: أتحلف بالله؟ فقال: إنّي سمعت عمر بن الخطّاب يحلف على ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا ينكره[2].

قال الشوكاني: وقد أجيب عن التردّد منه صلى الله عليه وآله وسلم بجوابين: الأوّل: أنّه تردّد صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يعلمه الله بأنّه هو الدجّال، فلمّا أعلمه لم ينكر على عمر حلفه. والثاني: أنّ العرب قد تخرج الكلام مخرج الشكّ، وإن لم يكن في الخبر شكّ.

ومما يدلّ على أنّه هو الدجّال ما أخرجه عبد الرزّاق بإسناد صحيح[3] عن ابن عمر قال: (لقيت ابن صيّاد يوماً ومعه رجل من اليهود، فإذا عينه قد طفت، وهي خارجة مثل عين الحمار، فلمّا رأيتها قلت: أنشدك الله يا ابن صيّاد، متى طفت عينك؟ قال: لا أدري والرحمن. قلت: كذبتَ وهي في رأسك، قال: فمسحها ونخر ثلاثاً...)[4].

= الجنائز، باب إذا أسلم الصبي إلخ (الفتح ٣/ ٢٥٩ برقم ١٣٥٤) واللفظ له، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صيّاد (٤/ ٢٢٤٤ برقم ٢٩٣٠) وأورده الشوكاني في نيل الأوطار ٩/ ٦٦).

(١) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر، بالتصغير، التيمي المدني، تابعي من الثالثة ثقة فاضل، مات (١٣٠ هـ) أو بعدها (انظر التقريب لابن حجر ص ٥٠٨ برقم ٦٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب من رأى ترك النكير من النبي ﷺ حجة لا من غير الرسول (الفتح ١٣/ ٣٣٥ برقم ٧٣٥٥)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صيّاد (٤/ ٢٢٤٣ برقم ٢٩٢٩).

(٣) انظر المصنّف (١١/ ٣٩٦) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، وأخرجه مسلم بمعناه من وجه آخر في كتاب الفتن وأشراط الساعة، ببا ذكر ابن صيّاد (٤/ ٢٢٤٦، ٢٢٤٧ برقم ٢٩٣٢ مكرر).

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٦٨).

والذي يظهر لي من كلام الشوكاني أنّه يرجّح كون ابن صيّاد هو الدجّال الأكبر، إلاّ أنّه رحمه الله أورد قصة تميم الداري التي تفيد أنّ الدجّال الأكبر غير ابن صيّاد.

والقصّة أخرجها مسلم[1] من حديث فاطمة بنت قيس: (أنّ النبي ﷺ خطب، فذكر أنّ تميماً الداري أخبره أنّه لقي هو وجماعة معه في دير في جزيرة لعب بهم الموج شهراً حتى وصلوا إليها رجلاً كأعظم إنسان رأوه قط، وأشدّه وثاقاً مجموعة يداه إلى عنقه بالحديد، فقالوا له: ويلك ما أنت؟) فذكر الحديث. وفيه: (أنّه سألهم عن نبي الأميّين هل بُعث؟ وأنّه قال: أن تطيعوه فهو خير لكم) وفيه أنّه قال: (إنّي مخبركم عنّي أنا المسيح الدجّال، وإنّي أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلاّ هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة). وفي بعض طرقه أنّه شيخ. قال الحافظ: وسندها صحيح[2].

قال الشوكاني بعد ذكر القصّة: (وهذا الحديث ينافي ما استدلّ به على أنّ ابن صيّاد هو الدجّال، ولا يمكن الجمع أصلاً، إذ لا يلتئم أن يكون من كان في الحياة النبوية شبه المحتلم، ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله أن يكون شيخاً في آخرها مسجوناً في جزيرة من جزائر البحر، موثوقاً بالحديد، يستفهم عن خبر النبي ﷺ هل خرج أم لا، فينبغي أن يحمل حلف عمر وجابر على أنّه وقع قبل علمهما بقصّة تميم)[3].

قلت: وهذا هو الأولى والأرجح، فإنّ الدّجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثّقاً، أمّا ابن صيّاد فليس هو الدّجال بعينه، وإنّما هو دجّال من

---

(١) في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصّة الجساسة (٤/ ٢٢٦١ ـ ٢٢٦٤ برقم ٢٩٤٢).

(٢) انظر الفتح (١٣/ ٣٣٨).

(٣) نيل الأوطار: الشوكاني (٩/ ٦٩).

الدجاجلة الـذين أنذر بهم النبي ﷺ بقـوله: (لا تقـوم السـاعـة حتى يبعث دجّالون كذّابون قـريب من ثلاثين، كلّهم يـزعم أنّه رسـول الله)[1]. أو أنّه شيطان تبدّى في صورة الدجّال في تلك المدّة كما قاله الحافظ ابن حجـر جمعا بين الأحاديث المختلفة[2].

قال البيهقي رحمه الله فيه (أي في حديث قصّة تميم) أنّ الدجّال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صيّاد، وكان ابن صيّاد أحد الدجّالين الكذّابين الذين أخبر ﷺ بخروجهم، وقد خرج أكثرهم. . . وأجاب رحمه الله عن حديث ابن صيّاد بأنّ سكوت النبي ﷺ على حلف عمر يحتمل أن يكون النبي ﷺ كان متوقّفاً في أمره، ثمّ جاءه التثبّت من الله تعالى بأنّه غيره على ما تقتضيه قصة تميم الداري، وبه تمسّك من جزم بأنّ الدجّال غير ابن صيّاد، وطريقه أصحّ، وتكون الصفة التي في ابن صيّاد وافقت ما في الدجّال)[3].

وقد قال بهذا القول كثير من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية[4] والحـافظ ابن كثيـر[5]، والحـافظ ابن حجـر[6]، ومحمـد السفـاريني[7]، وغيرهم. والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوّة في الإسلام (الفتح ٦/ ٧١٣ برقم ٣٦٠٩)، وأخرجه أيضاً برقم (٧١٢١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط السـاعة، باب لا تقوم السـاعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل إلخ (٤/ ٢٢٤٠ برقم١٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر الفتح (١٣/ ٣٤٠).

(٣) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٣٨) ونقله عنه الشوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٦٩).

(٤) انظر مجموع فتاوى (١١/ ٢٨٣).

(٥) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٧٠) تحقيق/ د: طه زيني.

(٦) انظر الفتح (١٣/ ٣٤٠).

(٧) انظر لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٠٨). والسفاريني: هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي، محـدّث، أصوليّ، لـه تصانيف كثيـرة منها: البحـور =

٣ ـ نزول عيسى عليه السلام:

ومن أمارات الساعة الكبرى نزول عيسى عليه الصلاة والسلام. وقد دلّت نصوص الكتاب والسنّة على أنّه ينزل قبل قيام الساعة، فيقتل الدجّال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويحكم بالقسط، ويقضي بشريعة النبي ﷺ، ويحيي من شأنها ما تركه الناس، ثمّ يمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت، ويصلّى عليه ويُدفن.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم آيتين تدلان على نزول عيسى عليه السلام.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[١] أي قبل موت عيسى عليه السلام، فالضمير في (به) راجع إلى عيسى، وكذلك الضمير في (موته). والمعنى: أنّه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كلّ كتابيّ في عصره.

ورجّح الشوكاني رحمه الله تعالى هذا القول، وقال: (وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير[٢]، وقال به جماعة من السلف[٣]، وهو الظاهر، والمراد: الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة)[٤].

= الزاخرة في أمور الآخرة، ولوامع الأنوار البهية. توفّي (١١٨٨ هـ) (انظر ترجمته في معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة ٨/٢٦٢، والأعلام: الزركلي ٦/ ١٤).

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) انظر تفسيره (٦/ ١٨).

(٣) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨٩. ٥٩٠): أنّ هذا هو قول ابن عبّاس والحسن وقتادة وغيرهم، وقال: هذا القول هو الحقّ. وانظر أيضاً تفسير الطبري (٦/ ١٨ ـ ٢١).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣٥).

وقال رحمه الله بعد سوق عدّة روايات في معنى الآية: (وذهب كثير من التابعين فمن بعدهم إلى أنّ المراد قبل موت عيسى، كما روي عن ابن عبّاس قبل هذا. وقيّده كثير منهم بأنّه يؤمن به من أدركه عند نزوله إلى الأرض. وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى حسبما أوضحنا ذلك في مؤلّف مستقل[١] يتضمّن ذكر ما ورد في المنتظر والدجّال والمسيح)[٢].

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾[٣] أي أنّ نزول عيسى عليه السلام قبل القيامة علامة على قرب الساعة.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير الآية نقلاً عن جماعة من المفسّرين: (إنّ المراد: المسيح، وإنّ خروجه مما يعلم به قيام الساعة لكونه شرطاً من شروطها، لأنّ الله سبحانه وتعالى ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أنّ خروج الدجّال من أعلام الساعة) واختار رحمه الله هذا القول وقال: هو أولى[٤].

ويؤيّد هذا المعنى القراءة الأخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ بفتح العين واللام، أي خروجه عَلم من أعلامها وشرط من شروطها[٥].

ويجب أن نعتقد بأنّ عيسى عليه السلام لم يقتله اليهود، وإنّما رفعه الله إليه ببدنه وروحه، وأنّه حيّ الآن في السماء، ولن يموت حتى ينزل قبل قيام الساعة. فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيْحَ عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ رَسُوْلَ اللّٰهِ، وَمَا قَتَلُوْهُ، وَمَا صَلَبُوْهُ، وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وَإِنَّ الَّذِيْنَ اخْتَلَفُوْا فِيْهِ

---

(١) وهو: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح (مخطوط).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣٦).

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦١.

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٥٦٢).

(٥) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٥٦٢) قال: وهي قراءة ابن عبّاس، وأبي هريرة، وأبي مالك الغفاري، وقتادة، ومالك بن دينار، والضحّاك، وزيد بن علي.

لَفِيْ شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوْهُ يَقِيْناً بَلْ رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيْزاً حَكِيْماً﴾[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (قوله: (بل رفعه الله إليه) يبيّن أنّه رفع ببدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنّه ينزل ببدنه وروحه، إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه، بل مات...)[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيْسَى إِنِّيْ مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[3].

قال الشوكاني بعد سوق أقوال المفسّرين في تأويل معنى الوفاة في الآية:

(... الصحيح أنّ الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجّحه كثير من المفسّرين[4]، واختاره ابن جرير الطبري[5]، ووجه ذلك أنّه قد صحّ في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجّال)[6].

وقال رحمه الله في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِيْ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيْبَ عَلَيْهِم﴾[7].

(قيل هذا يدلّ على أنّ الله سبحانه توفّاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء لأنّ الأخبار قد تضافرت بأنّه لم يمت، وأنّه باق في السماء على الحياة التي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٧، ١٥٨.
(٢) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٤/ ٣٢٣).
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٤) انظر: تفسير البغوي (١/ ٣٠٨)، وزاد المسير لابن الجوزي (١/ ٣٩٦)، وتفسير الفخر الرازي (٨/ ٦٨)، وتفسير القرطبي (٤/ ٩٨)، ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٣٢٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٤).
(٥) انظر تفسير الطبري (٣/ ٢٩١).
(٦) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٤٤).
(٧) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

كان عليها في الدنيا، حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان، وإنّما المعنى: فلمّا رفعتني إلى السماء.

قيل: الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه: بمعنى الموت. ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1]. وبمعنى النوم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[2] أي ينميكم، وبمعنى الرفع. ومنه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾[3]، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾[4][5].

قلت: وهذا القول هو الصحيح المتعيّن، وهو الذي عليه سلف الأمّة.

وأمّا الأدلّة من السنة على نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة ومتواترة، سبق ذكر بعضها وقد أورد الشوكاني في رسالته: التوضيح تسعة وعشرين حديثاً[6]، سأذكر هنا بعضاً منها خشية الإطالة:

١ ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية[7]، ويفيض المال حتى لا يقبلَه أحد، حتى تكون السجدة الواحد خيراً من الدنيا وما فيها»[8]. ثمّ يقول أبو هريرة: واقرأوا إنْ شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٩٥).
(٦) انظر ورقة (٣ ــ ٥).
(٧) أي يحمل الناس على دين الإسلام، فلا يبقى ذمّي تجري عليه الجزية. (النهاية لابن الأثير ٥/ ١٩٧ مادة: وضع).
(٨) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام =

﴿الْكِتَـابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْـلَ مَوْتِـهِ، وَيَوْمَ الْقِيَـامَـةِ يَكُـوْنُ عَلَيْهِمْ شَهِيْداً﴾[1].

٢ ـ عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمّتي يقاتلون على الحقّ ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تَعَالَ صَلِّ لنا. فيقول: لا، إنّ بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمّة»[2].

٣ ـ عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجّال، ومما ذكر: (... ثمّ بعث الله عيسى بن مريم، فينزل عند المنارة البيضـاء شرقِيَّ دمشق، فيـطلبـه حتى يـدركـه ببـاب لُـدٍّ[3] فيقتله...)[4] وغير ذلك من الأحاديث.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى بعد سوق الحديث التاسع والعشرين: (فهذه تسعة وعشرون حديثاً ينضمّ إليها أحاديث أخرى ذكر فيها نزول عيسى عليه السلام، منها ما هو مذكور في أحاديث الدجّال، ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وينضمّ إلى ذلك أيضاً الآثار الواردة عن الصحابة، فلهـا حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك... فالأحاديث الواردة في نزول عيسى متواترة، وفي هذا المقدار كفاية لمن له هداية)[5].

= (الفتح٦/ ٦٦٦ برقم ٣٤٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٥ برقم ١٥٥).

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٧ برقم ١٥٦).

(٣) بلدة قريبة من بيت المقدس (شرح النووي لمسلم ١٨/ ٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجّال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٥٣ ـ برقم ٢١٣٧) واللفظ له، وأبو داود في كتاب الملاحم، باب خروج الدجّال (٤/ ٤٩٧ برقم ٤٣٢١).

(٥) التوضيح: الشوكاني (ورقة ٥) (مخطوط).

وقد نصّ على تواتر هذه الأحاديث كثير من العلماء المحقّقين، منهم ابن جرير الطبري[1]، وابن كثير[2]، ومن المعاصرين الشيخ أحمد شاكر[3]، والشيخ الألباني[4] وغيرهم.

وقد أجمعت الأمّة على نزوله، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة إلّا من شذّ منهم ممن لا يلتفت إلى كلامه ولا يعتدّ بخلافه.

٤ ـ خروج يأجوج ومأجوج:

ومن علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر هذه العلامة في القرآن الكريم وفي السنة المطهّرة.

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوْجُ وَمَأْجُوْجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُوْنَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ، فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِيْ غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِيْنَ﴾[5].

وقال تعالى في سياقه لقصّة ذي القرنين: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُوْنِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً، قَالُوْا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ مُفْسِدُوْنَ فِيْ الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً، قَالَ مَا مَكَّنِّيْ فِيْهِ رَبِّيْ خَيْرٌ فَأَعِيْنُوْنِيْ بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً، آتُوْنِيْ زُبَرَ الْحَدِيْدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوْا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُوْنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً، فَمَا اسْطَاعُوْا أَنْ يَظْهَرُوْهُ وَمَا اسْتَطَاعُوْا لَهُ نَقْباً، قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّيْ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيْ جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (٣/ ٢٩١).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٣).
(٣) انظر حاشية مسند الإمام أحمد بتحقيقه (١٢/ ٢٥٧).
(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية وبتخريجه (ص ٥٦٥) في الهامش.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٦، ٩٧.

وَعْدُ رَبِّي حَقّاً، وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾[1].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (يأجوج ومأجوج اسمان عجميّان، بدليل منع صرفهما، وبه قال الأكثر، وقيل: مشتقّان من أجّ الظليم في مشيه إذا هرول، وتأجّجت النار إذا تلهّب[2]... وهما قبيلتان من الإنس)[3].

واختلف في نسبهم، فقيل هم من ولد يافث بن نوح. وقيل: يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم...[4].

قلت: والأوّل هو الراجح، كما قاله الحافظ ابن كثير[5]، فإنّهما من ذرّية يافث أبي الترك، ويافث من ولد نوح عليه السلام.

وقد وقع الخلاف في صفتهم كما ذكر الشوكاني، فمن الناس من يصفهم بصغر الجثث وقصر القامة، ومنهم من يصفهم بكبر الجثث وطول القامة، ومنهم من يقول: لهم مخالب كمخالب السباع، وإنّ منهم صنفاً يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى. ولأهل العلم من السلف ومن بعدهم أخبار مختلفة في صفاتهم وأفعالهم[6].

قلت: ومعظم هذه الصفات رواياتها ضعيفة[7]، ولا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الصفات، فإن صحّ الخبر فيها عن رسول الله ﷺ قبل، وإلاّ لم يلتفت إليه.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٢ ـ ٩٩.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١١).
(٣) انظر المصدر السابق (٣/ ٤٢٦).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٣١٢).
(٥) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٥٣) تحقيق: د/ طه زيني، وانظر الفتح لابن حجر (١٣/ ١١٣).
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٢).
(٧) انظر الفتح لابن حجر (١٣/ ١١٤).

ومما ورد في أوصافه من الأحاديث الصحيحة: ما روى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب اصبعه من لدغة عقرب، فقال: (إنّكم تقولون: لا عدوَّ، وإنّكم لا تزالون تقاتلون عدوّاً حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عِرَاضُ الوجوه، صغار العيون، شُهْبُ الشِعاف[1]، من كلّ حَدَبٍ ينسلون[2] كأنّ وجوههم المَجان المُطْرَقة)[3][4].

قال الشوكاني: (واختلف في إفسادهم الأرض: فقيل هو أكل بني آدم، وقيل هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد، وقيل كانوا يخرجون إلى أرض هؤلاء القوم الذين شكوهم إلى ذي القرنين في أيّام الربيع فلا يَدَعون فيها شيئاً أخضر إلّا أكلوه)[5].

ومما ورد ذكرهم في الأحاديث الصحيحة ما يذكره الشوكاني رحمه الله في تفسيره من أحاديث: منها حديث زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمّر وجهه، وهو يقول: لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتِح اليوم من رَدْم[6] يأجوج ومأجوج مثل هذه)

---

(١) الشعاف: جمع شعفة وهي أعلى شعر الرأس، والمراد شهب الشعور (انظر النهاية لابن الأثير ٢/ ٤٨١، ٤٨٢ مادة: شعف).

(٢) قال الشوكاني: والحَدَبُ كلّ أكمة من الأرض مرتفعة، والجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض، ومعنى ينسلون أي يسرعون، والمعنى: أي انّ يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشي ويتفرّقون في الأرض. (فتح القدير ٣/ ٤٢٦).

(٣) أي التراس التي أُلْبِست العَقَب شيئاً فوق شيء. قال العلماء: ومعناه: تشبيه وجوه الترك في عرضها وتلوّن وجناتها بالترسة المطرقة (انظر النهاية لابن الأثير ٣/ ١٢٢ مادة: طرق، وشرح النووي لمسلم ١٨/ ٣٦).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٧١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٢).

(٦) الردم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل، يقال: ردمت الثلمة ردماً إذا سددتها، والردم أيضاً الإسم وهو السدّ (انظر النهاية لابن الأثير (٢/ ٢١٦ مادة: ردم، وأيضاً فتح القدير: الشوكاني ٣/ ٣١٢).

وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث)(١).

وحديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (إنّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولا يموت منهم رجل إلاّ ترك من ذرّيته ألفاً فصاعداً)(٢).

وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي ذكرت يأجوج ومأجوج. ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقيني بظهور هذه الأمّة المفسدة في أواخر زمان الدنيا بعد نزول عيسى عليه السلام وقتل الدجّال. فيجب على المؤمن التصديق بما ورد به القرآن والأحاديث الصحيحة من أمرهم، ولا يعنيه البحث عن التفصيلات الدقيقة المتعلّقة بهم، فهذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلاّ الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ طلوع الشمس من مغربها:

ومن علامات الساعة الكبرى طلوع الشمس من مغربها، وهو ثابت بالكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٤) والحديث أخرجه البخاري في عدّة مواضع انظر كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصّة يأجوج ومأجوج (الفتح ٦/ ٤٤٠ برقم ٣٣٤٦)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج. (٤/ ٢٢٠٨ برقم ٢٨٨٠ مكرر) واللفظ له.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣١٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر (الفتح ٣/ ١١٤): أخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام مثله اهـ. وروى الحاكم طرفاً منه في المستدرك (٤/ ٤٩٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيْ إِيْمَانِهَا خَيْراً﴾(1).

وقد دلّت الأحاديث الصحيحة أنّ المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوع الشمس من مغربها، وهو قول معظم المفسّرين(2). ووافقهم الشوكاني رحمه الله تعالى فقد أورد عند تفسيره للآية عدّة روايات عن رسول الله ﷺ. منها ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها. ثمّ قرأ الآية»(3).

قال الشوكاني: (وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم، عن أبي ذرّ مرفوعاً نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن بن عبّاس مرفوعاً نحوه أيضاً... فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبويّ من وجه صحيح لا قادح فيه فهو واجب التقديم له متحتّم الأخذ به)(4).

قلت: وهذا هو المنهج الصحيح الذي عليه السلف أهل السنة رضوان الله عليهم.

٦ ـ خروج الدابّة:

ومن علامات الساعة الدالّة على قرب وقتها خروج دابّة الأرض في آخر

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبري (٨/ ٩٦ ـ ١٠٢)، وتفسير البغوي (٢/ ١٤٤)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٥٦، ١٥٧)، وتفسير القرطبي (٧/ ١٤٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب (٤٠) (الفتح ١١/ ٣٦٠ برقم ٦٥٠٦)، ومسلم في كتاب الايمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان. (١/ ١٣٧ برقم ١٥٧).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٨٢).

الزمان تكلّمهم وتسمّيهم مؤمناً وكافراً، وذلك عند فساد الناس وتركهم أوامر الله. وهو ثابت بالكتاب والسنة.

أمّا الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوْا بِآيَاتِنَا لاَ يُوْقِنُوْنَ﴾[1].

وقد اختلف العلماء والمفسرون في هذه الدابّة على أقوال، ذكر الشوكاني رحمه الله تعالى سبعة، ولم يرجّح واحداً منها. وهي:

١ ـ إنّها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة.

٢ ـ هي دابّة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها الجساسة[2].

٣ ـ هي دابّة على خلقة بني آدم وهي في السحاب وقوائمها في الأرض.

٤ ـ رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيّل[3]، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير، بين كلّ مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً.

٥ ـ هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، والمراد أنّها هي التي تخرج في آخر الزمان.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨٢.

(٢) أي الجساسة المذكورة في حديث تميم الداري رضي الله عنه في قصّة الدجّال المتقدّم ذكرها وسمّيت بالجساسة لأنّها تَجُسّ الأخبار للدجّال. (النهاية لابن الأثير ١/ ٢٧٢ مادة: جسس).

(٣) الإيل بكسر الهمزة وضمّها: الذكَر من الأوعال (اللسان: ابن منظور ١١/ ٣٥ مادة: أول).

٦ ـ هي دابّة ما لها ذنب ولا لحية.
٧ ـ هي إنسان ناطق متكلّم يناظر أهل البدع ويراجع الكفّار.
وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره[١].

قلت: هذه الأقوال لا تخلو من مقال، إمّا في صحّتها أو نسبتها إلى رسول الله المبلغ عن ربّه ﷺ. والذي يجب الإيمان به أنّ الله سبحانه وتعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابّة مخالفة لما يعتاده البشر، فهي من خوارق العادة، كما أنّ طلوع الشمس من مغربها أمر خارق للعادة.

وكما اختلفوا في صفة الدابّة اختلفوا في موضع خروجها، فقيل من جبل الصفا، بمكة وقيل تخرج من جبل أبي قبيس، وقيل لها ثلاث خرجات: خرجة من بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس، وتكثر الدماء ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها، وقيل تخرج من بين الركن والمقام... وقيل غير ذلك. وقد ذكر الشوكاني تسعة أقوال ولم يرجّح أحداً منها[٢]. وغالبها يدور على أنّ خروجها من الحرم المكّي[٣]. والله أعلم.

واختلفوا أيضاً في معنى قوله: (تكلّمهم) فقيل: تكلّمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام، وقيل: تكلّمهم بما يسوءهم، وقيل: تكلّمهم بقوله تعالى: (أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)[٤].

(١) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٥١)، وانظر حكاية الأقوال والآثار في هذه الدابّة في: تفسير البغوي (٣/ ٤٢٩)، وتفسير الفخر الرازي (١٢/ ٢١٧، ٢١٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٥، ٢٣٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٨)، والإشاعة لأشراط الساعة للشريف محمد البرزنجي (ص ١٧٤، ١٧٥)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٩).
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٥١).
(٣) وانظر الإشاعة لأشراط الساعة للشريف محمد البرزنجي (ص ١٧٦، ١٧٧)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٦).
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٥٢).

وقرأ الجمهور بكسر (إنّ) على الاستئناف، وقرأ الكوفيّون بفتحها، والمعنى على قراءة الفتح: بأنّ الناس. كذا قرأ ابن مسعود، وعلى هذه القراءة فالذي تكلّم الناس به هو قوله: (أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)، وأمّا على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة، ولا تكون من كلام الدابّة، وقد صرّح بذلك جماعة من المفسّرين[1]. ويكون المعنى: تكلّمهم بما يسوؤهم، أو ببطلان الأديان سوى دين الإسلام[2].

قال ابن جرير رحمه الله: (والصواب من القول في ذلك أنّهما قراءتان متقاربتا المعنى، مستفيضتان في قراءة الأمصار)[3].

أمّا الأدلّة من السنّة فهي كثيرة منها:

ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ودابّة الأرض)[4].

وقد أورد الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسيره روايات كثيرة في صفة الدابّة، ومكان خروجها، وما تصنعه، ومتى تخرج، بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف.

قال: (وأمّا كونها تخرج وكونها من علامات الساعة فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة، ومنها ما هو ثابت في الصحيح، كحديث حذيفة مرفوعاً: (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، وذكر منها الدابّة، فإنّه في صحيح

---

(١) انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.
(٢) انظر تفسير الطبري (٢٠/ ١٦)، وزاد المسير لابن الجوزي (٦/ ١٩٣)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٧ . ٢٣٨).
(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ١٦).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الايمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الايمان. (١/ ١٣٨ برقم ١٥٨).

مسلم[1]، وفي السنن الأربعة، وكحديث: (بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها، والدّجال، والدابّة). فإنّه في صحيح مسلم أيضاً، من حديث أبي هريرة مرفوعاً[2]. وكحديث ابن عمر مرفوعاً: (إنّ أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة على الناس ضحى). فإنّه في صحيح مسلم أيضاً)[3].

فيجب الإيمان بهذه العلامات كلّها، كما دلّت عليها نصوص الكتاب والسنّة، وأجمع عليها سلف الأمّة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة.

وهناك علامات أخرى غير ما ذكرته وردت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وإنّما اقتصرت على ما ذكرت لأنّي وجدت فيها للشوكاني كلاماً، ومن أراد الاطلاع على علامات الساعة الكثيرة فليراجع الكتب المصنّفة في ذلك وهي كثيرة[4] والله أعلم.

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٦١).

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجّال (٤/ ٢٢٦٧ برقم ٢٩٤٧) ولفظه: (بادروا بالأعمال ستّاً: الدجّال، والدخان ودابّة الأرض. الحديث).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٥٣) والحديث أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في الدجّال وهو أهون على الله عزّ وجلّ. (٤/ ٢٢٦٠ برقم ٢٩٤١).

(٤) مثل كتاب النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، وكتاب الإشاعة لأشراط الساعة للبرزنجي، وكتاب أهوال القيامة وعلاماتها الكبرى للسفاريني، وكتاب الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة لصديق حسن خان، وكتاب إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، وأشراط الساعة ليوسف بن عبد الله الوابل، وغير ذلك.

المبحث الخامس

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته

من أصول أهل السنة والجماعة التي يجب الإيمان بها الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنّة.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنّة على إثبات عذاب القبر ونعيمه، وأجمع على ذلك سلف الأمّة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وقرّر الشوكاني رحمه الله تعالى مذهب السلف في إثبات عذاب القبر ونعيمه، وخالف المنكرين لذلك، واستدلّ بأدلّة كثيرة من الكتاب والسنة.

أمّا الكتاب فقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِيْ الآخِرَةِ﴾(1).

قال الشوكاني: (قوله: (بالقول الثابت) أي بالحجّة الواضحة، وهي الكلمة الطيبة المتقدّم ذكرها، وقد ثبت في الصحيح أنّها كلمة الشهادة: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وذلك إذا قعد المؤمن في قبره. قال النبي ﷺ: فذلك قوله تعالى: (يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت)... ومعنى (في الحياة الدنيا) قال جماعة: المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية القبر، لأنّ الموتى في الدنيا حتى يبعثوا، ومعنى (في الآخرة) وقت الحساب، وقيل المراد بالحياة الدنيا وقت المساءلة في القبر، وفي الآخرة وقت المساءلة يوم القيامة: والمراد أنّهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم وتردّد ولا جهل، كما يقول من لم يوفّق لا أدري. فيقال له: لا دريت ولا تليت. (ويضلّ الله الظالمين) أي يضلّهم عن حججهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلّم بها في

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

قبورهم ولا عند الحساب، كما أضلّهم عن اتّباع الحقّ في الدنيا)[1].

وأورد رحمه الله من الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب: أنّ رسول الله ﷺ قال: (المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فذلك قوله سبحانه: (يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوْءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُوْنَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً، وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3].

قال الشوكاني: (وذهب الجمهور أنّ هذا العرض هو البرزخ، وقيل هو في الآخرة. قال الفرّاء[4]: ويكون في الآية تقديم وتأخير، أي أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً.

ورجّح الشوكاني مذهب الجمهور وردّ على الفرّاء قائلاً: (ولا ملجىء إلى هذا التكلّف، فإنّ قوله: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، يدلّ دلالة واضحة على أنّ ذلك العرض هو في البرزخ)[5].

ومما أورده الشوكاني من الأحاديث في تفسير الآية ما أخرجه البخاري

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ١٠٦، ١٠٧).

(٢) المصدر السابق (٣/١٠٨) والحديث أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (الفتح ٣/ ٢٧٤ برقم ١٣٦٩)، ومسلم في كتاب صفة الجنة، باب عرض مقعد الميت إلخ (٤/ ٢٢٠١ برقم ٢٨٧١).

(٣) سورة غافر، الآية: ٤٥، ٤٦.

(٤) هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي أبو زكريّا المعروف بالفرّاء، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، وكان يميل إلى الاعتزال، ويتفلسف في تأليفاته ومصنّفاته. من كتبه: معاني القرآن، والمذكّر والمؤنّث. توفّي (٢٠٧ هـ) (انظر الفهرست لابن النديم ص ٩٨ ـ ١٠٠، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/ ١٦٦، ١٦٧).

(٥) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٩٥).

ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[1]. زاد ابن مردويه: ثمّ قرأ: (النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً)[2].

كما استدلّ رحمه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُوْلُوْا لِمَنْ يُقْتَلُ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِنْ لَا تَشْعُرُوْنَ﴾[3] إذ قال: (أي لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات، بل هم أحياء ولكن لا تشعرون بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم لأنّكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر، وليسوا كذلك في الواقع، بل هم أحياء في البرزخ. وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة، ودلّت عليه الآيات القرآنية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُوْا فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُوْنَ﴾[4])[5].

وأمّا ما يستدلّ به من الأحاديث فكثيرة منها:

حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي (الفتح ٣/ ٢٨٦ برقم ١٣٧٩) وأخرجه أيضاً برقم (٣٢٤٠، ٦٥١٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت عليه إلخ (٤/ ٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٩٦).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٥) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٥٩).

دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنّه الآن يُسئل)[1].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: (فيه مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه وسؤال التثبيت له، لأنّه يسئل في تلك الحال، وفيه دليل على ثبوت حياة القبر، وقد وردت بذلك أحاديث كثيرة بلغت حدّ التواتر، وفيه دليل أيضاً على أنّ الميت يسأل في قبره، وقد وردت به أيضاً أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما)[2].

وقال في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: (اللهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر. . .)[3] الحديث.

(فيه ردّ على المنكرين لذلك، والأحاديث في هذا الباب متواترة)[4] فيجب على المؤمن اعتقاد ثبوت ذلك، والإيمان به، ولا يعنيه البحث عن كيفيته، إذ لا يعلمها إلاّ الله.

المبحث السادس
مستقرّ الأرواح

تحدّث الشوكاني رحمه الله تعالى عن هذه المسألة في رسالة صغيرة

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر (٣/ ٥٥٠ برقم ٣٢٢١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٧٠) وصحّحه ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في أحكام الجنائز (ص ١٥٦).

(٢) نيل الأوطار: الشوكاني (٥/ ٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر (الفتح ٣/ ٢٧٥ برقم ١٣٧٢)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (١/ ٤١٢ برقم ٥٨٩) واللفظ له.

(٤) نيل الأوطار: الشوكاني (٣/ ١٤٨، ١٤٩)، وانظر أيضاً تحفة الذاكرين (ص ٣٤٨).

بعنوان: بحث في مستقرّ أرواح الأموات[1]. أورد فيها ثمانية أقوال في مستقرّ أرواح الأموات من المؤمنين والعاصين بعد مفارقتها للأجساد. واختصرها فيما يلي:

القول الأوّل: ذهب الجمهور إلى أنّها في حواصل طيور في الجنة تذهب حيث شاءت.

واستدلّوا بما ورد من الأحاديث التي تضمّن بعضها مستقرّ أرواح الشهداء على الخصوص، وبعضها مستقرّ أرواح المؤمنين على العموم. فمن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أرواح الشهداء عند الله في حواصل طيور خضر، تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى قناديل تحت العرش»[2].

وأخرج مالك في الموطّأ وأحمد والنسائي بإسناد صحيح من حديث كعب بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّما نسمة المؤمن[3] طائر يُعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[4] ومعنى يعلق أي يأكل، وهو بضمّ اللام.

---

(١) وهي مخطوطة في ورقتين ونصف ورقة بخط الإمام الشوكاني، وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم (٣٧) من مجموع (٥٩) من مجاميع متوكّلية، بدون تاريخ.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب بيان أنّ أرواح الشهداء في الجنة إلخ (٣/ ١٥٠٢ برقم ١٨٨٧) مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٣) النسمة بفتحتين: الروح والنفس، وكلّ شيء فيه روح فهو نسمة (النهاية لابن الأثير ٥/ ٤٩ مادة: نسم).

(٤) أخرجه مالك في الموطّأ، كتاب الجنائز (١/ ٢٤٠ برقم ٤٩) واللفظ له، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٥)، والترمذي نحوه في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في ثواب الشهداء (٤/ ١٥١ برقم ١٦٤١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨ برقم ٢٠٧٣)، وابن ماجة في كتاب الزهد، ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٨ برقم ٤٢٧١) وصحّحه الألباني في سلسلة =

القول الثاني: قال طائفة من الصحابة والتابعين أنّ أرواح المؤمنين عند الله ولم يزيدوا على ذلك. واستدلّوا بمثل ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الأرواح عند الله في السماء»[1]. ويندرج في هذا القول قول من قال إنّها في السماء السابعة، وقول من قال إنّها في دار فيها[2]. . . عند الله سبحانه.

القول الثالث: قال جماعة من الصحابة والتابعين إنّ الأرواح تجمع في موضع من الأرض، فأرواح المؤمنين بالجابية[3]، وأرواح الكفّار في بئر برهوت[4]، وقيل بالأردن، وقيل ما بين السموات والأرض. واستدلّوا بمثل ما أخرجه ابن مردويه وابن عساكر من حديث عبد الله بن عمرو: (أنّ أرواح المؤمنين تجمع بالجابية، وأرواح الكفّار تجمع ببئر برهوت)[5]. وأخرج ابن أبي الدنيا عن علي قال: (أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وأرواح الكفّار ببئر برهوت)[6].

= الأحاديث الصحيحة (٢/ ٧٢٩ برقم ٩٩٥) وفي تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٦).

(١) لم أقف على الحديث في سنن ابن منصور المطبوعة بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي وهي مجلّدان، ولعله موجود في مجلّدات أخرى التي لم يعثر عليها حتى الآن حسب علمي، وذكره السيوطي في شرح الصدور (ص ٣١٤) ط/٣/١٤٠٧ هـ مؤسسة الإيمان بيروت.

(٢) كلمة غير مقروءة. شرح الصدور (ص ٣١٤) ط/ ٣/ ١٤٠٧ هـ مؤسسة الإيمان بيروت.

(٣) الجابية بكسر الباء وياء مخفّفة وهي قرية من أعمال دمشق، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع (معجم البلدان: ياقوت الحموي ٢/ ٩١).

(٤) برهوت بضم الهاء وسكون الواو: وادٍ أو بئر بحضرموت، وقيل اسم البلد الذي فيه هذه البئر (معجم البلدان: ياقوت الحموي ١/ ٤٠٥).

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ٤١٨ برقم ١٦٩٤) وذكره ابن القيم في الروح (ص ١٤٦).

(٦) ذكره ابن القيم في الروح (ص ١٤٦).

القول الرابع: قالت طائفة إنّ أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكفّار في النار. واستدلّوا بما أخرجه ابن ماجة، والطبراني، والبيهقي، بإسناد حسن من حديث عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أمّ مبشر بنت البراء أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، ونسمة الكافر في سجّين»(١)، وبما أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ لمّا رجم الأسلمي الذي اعترف عنده بالزنا، قال: «والذي نفسي بيده، إنّه الآن في أنهار الجنة ينغمس»(٢). وبما أخرجه البزار والطبراني من حديث جابر أنّ النبي ﷺ سئل عن خديجة فقال: (أبصرتها على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب، لا لغو فيه ولا نصب)(٣) وأصله في الصحيح. ويدلّ على ذلك أحاديث كثيرة مصرّحة بأنّ أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

القول الخامس: قالت طائفة إنّ أرواح المؤمنين عن يمين آدم، والكفّار عن شماله. واستدلّوا بما ثبت في الصحيح في حديث الإسراء أنّ النبي ﷺ لمّا أسري به وجد آدم في سماء الدنيا وأرواح أهل السعادة عن يمينه وأرواح أهل الشقاوة عن يساره، فإذا نظر إلى أهل السعادة ضحك، وإذا نظر إلى أهل الشقاوة بكى(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي بهذا اللفظ في البعث والنشور (ص ١٥٣ برقم ٢٠٤)، وابن ماجة في كتاب الجنائز، باب ما جاء فيما يقال عند المريض (١/٤٦٦ برقم ١٤٤٩) بلفظ: أنّ أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة، والطبراني بنحوه في المعجم الكبير (١٩/ ٦٥) قال الهيثمي في مجموع الزوائد (٢/ ٣٢٩): رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن إسحاق وهو مدلّس، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك (٤/ ٥٨١ برقم ٤٤٢٨) قال الألباني: إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن الصامت بن عمّ أبي هريرة مجهول. (مشكاة المصابيح ٢/ ١٧٧ برقم ٣٦٢٧).

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٣): رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجالهما رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد، وقد وثّق وخاصة في أحاديث جابر.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء (الفتح =

قال محمد بن نصر المروزي[1]: إنّ إسحاق بن راهويه[2] قال: وعلى هذا أجمع أهل العلم. وقال ابن حزم[3]: وهو قول جميع أهل الإسلام[4].

قال الشوكاني: قلت: ولا تصحّ هذه الدعوى للإجماع، فإنّ الطوائف مختلفة حسبما قدّمنا، والأدلّة متنافية في الظاهر، وكون أرواح الكفّار في السماء غير مسلّم، وإن كان ذلك مجرّد العرض على آدم من دون استقرار فلا بأس، ولكنّ الخلاف في مستقرّ الأرواح.

القول السادس: قالت طائفة إنّ أرواح المؤمنين والكافرين على أفنية القبور، إلّا أرواح الشهداء، فإنّها في الجنة، وحكاه ابن حزم عن عامّة أصحاب الحديث[5].

القول السابع: قالت طائفة إنّ أرواح المؤمنين في علّيين، وأرواح الكفّار في سجّين، ورجّح هذا القول الحافظ ابن حجر[6].

القول الثامن: قالت طائفة من المتكلّمين إنّ الأرواح تموت بموت الأجساد.

= ١/ ٥٤٧ برقم ٣٤٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١/ ١٤٨ برقم ١٦٣).

(١) محمد بن نصر بن الحجاج المروزي أبو عبد الله الإمام الحافظ، كان إمام عصره في الحديث، وكان من أعلم أهل زمانه باختلاف الصحابة والتابعين، وكان عابداً زاهداً، له مؤلّفات عظيمة منها: تعظيم قدر الصلاة. توفّي (٢٩٤ هـ) (تاريخ بغداد: البغدادي ٣/ ٣١٥، وتذكرة الحفاظ: الذهبي ٢/ ٦٥٠).

(٢) تقدّمت ترجمته في صفحة (٦١٢).

(٣) تقدّمت ترجمته في صفحة (١٨٤).

(٤) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/ ١٢٤).

(٥) في الفصل في الملل والنحل (٤/١٢١): «وذهب عوامّ أصحاب الحديث». وليس عامّة أصحاب الحديث كما قال الشوكاني.

(٦) ذكر قوله هذا السيوطي في شرح الصدور (ص ٣٢٥).

قال الشوكاني: وهذا القول باطل تردّه الأدلّة الصحيحة، وتدفعه الاجماعات المحكية عن أهل الإسلام من طرق. وقال بعد سرد هذه الأقوال[١]:

(وقد جمع بين هذه الأقوال بأنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها، وأنّ الأدلّة التي قدّمناها كلّ نوع منها وارد على فريق من الناس، وهذا جمع حسن. قال القرطبي: الأحاديث دالّة على أنّ أرواح الشهداء خاصّة في الجنّة دون غيرهم، فإنّ أرواحهم تكون في السماء تارة وفي الجنة تارة، وعلى أفنية القبور تارة. . . قال ابن تيمية: الأحاديث متواترة على عود الروح إلى الجسد وقت السؤال، وقال تقي الدين السبكي[٢]: عود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لجميع الموتى فضلاً عن الشهداء، وإنّما النظر في استمرارها في البدن، وفي أنّ البدن يصير حيّاً بها كحالته في الدنيا)[٣].

قلت: ما قاله الشوكاني في الجمع بين الأقوال، وإنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها قول حسن كما قال. وقد اختار هذا القول ابن القيم في كتابه: الروح[٤]. فذكر أنّ الأرواح متفاوتة في مستقرّها أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى علّيين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومنها أرواح الشهداء في حواصل طير في الجنّة، ومنها غير ذلك. . .

ثم قال: (وإذا تأمّلت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل

---

(١) ذكر ابن القيم هذه الأقوال وغيرها وناقشها في كتابه: الروح (انظر من صفحة ١٢٥ ــ ١٥٩) ط/ دار الكتب العلمية.

(٢) أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري، شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفّاظ المفسّرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات. له من المؤلّفات: مختصر طبقات الفقهاء، والاعتبار ببقاء الجنة والنار، وفتاوى. توفيّ (٧٥٦ هـ) (طبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٦/ ١٤٦، وطبقات الشافعية: الأسنوي ١/ ٣٥٠، والبدر الطالع: الشوكاني ١/ ٤٦٧).

(٣) بحث في مستقرّ أرواح الأموات: الشوكاني (ورقة ١، ٢، ٣) (مخطوط).

(٤) انظر (ص ١٥٧. ١٥٨).

اعتناء عرفت حجّة ذلك، ولا تظنّ أنّ بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً، فإنّها كلّها حقّ يصدق بعضها بعضاً، لكنّ الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأنّ لها شأناً غير شأن البدن، وأنّها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتّصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً، وصعوداً، وهبوطاً، وإنّها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلويّة وسفلية، ولها بعد المفارقة صحّة ومرض، ولذّة ونعيم، وأمل أعظم مما كان لها حال اتّصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والاطلاق، وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمّه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار)[1].

المبحث السابع

الإيمان بالنفخ في الصور

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالنفخ في الصور، كما ورد في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ فَصَعِقَ مَنْ فِيْ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيْهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُوْنَ﴾[2]، وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[3].

والظاهر أنّ النفخة نفختان: الأولى يحصل بها الصعق، وفيها هلاك كلّ شيء إلاّ من شاء الله، والثانية يحصل بها البعث والنشور، كما هو نصّ في آية الزمر التي ذكرناها.

---

(١) الروح: ابن القيم (ص ١٥٨).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة الحاقّة، الآية: ١٣ ـ ١٦.

وذهب جمع من أهل العلم إلى أنّها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِيْ الصُّوْرِ فَفَزِعَ مَنْ فِيْ السَّمَواتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[1]، ونفخة الصعق والقيام، كما في آية الزمر التي ذكرناها. وممن ذهب إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيميـة[2]، وابن كثير[3]، والسفاريني[4]، وغيرهم.

وذهب الشوكاني رحمه الله تعالى إلى هذا فقال: (والنفخات في الصور ثلاث: الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث. وقيل: إنّها نفختان: الأولى: يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، وإنّ نفخة الفزع راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث. واختار هذا القشيري والقرطبي)[5].

قلت: وهو أيضاً رأي ابن جرير في تفسيره[6]، ورجّحه الحـافظ ابن حجر في الفتح[7]، واستدلّ بأدلّة كثيرة، منهـا قولـه تعالى: ﴿يَـوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَـا الرَادِفَـة﴾[8]، قال ابن عبّـاس: (الراجفـة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية)[9] وروي مثل هذا عن جماعة من المفسّرين منهم

(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٢) انظر مجموع فتاوى (٤/ ٢٦٠، ٢٦١).
(٣) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٥٣)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).
(٤) انظر لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٦١، ١٦٤).
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٥٤، ١٥٥).
(٦) انظر تفسير الطبري (٢٤/ ٢٩، ٣١).
(٧) انظر (١١/ ٣٧٧).
(٨) سورة النازعات، الآية: ٦، ٧.
(٩) رواه البخاري معلّقاً في كتاب التفسير سورة النازعات (الفتح ٨/ ٥٥٩) وفي كتاب الرقاق، باب نفخ الصور (الفتح ١١/ ٣٧٤)، ووصله الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣١) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس.

مجاهد والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم[1].

قال القرطبي رحمه الله: (والصحيح أنّهما نفختان فقط، لثبوت الاستثناء بقوله تعالى: (إلاّ من شاء الله) في كلّ من الآيتين[2]، ولا يلزم من مغايرة الصعق للفزع أن لا يحصلا معاً من النفخة الأولى[3]. فإنّ نفخة الفزع إنّما تكون راجعة إلى نفخة الصعق، لأنّ الأمرين لا زمان لهما، أي فزعوا فزعاً ماتوا منه)[4].

ومما يؤيّد هذا الرأي ما ورد في الأحاديث الصحيحة مصرّحاً بالنفختين، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون»[5].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ولفظه في أثناء حديث مرفوع: (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى لِيْتاً ورفع لِيْتاً[6]، ثم يرسل الله مطراً، كأنّه الطلّ أو الظِلّ[7]، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون)[8].

---

(١) انظر تفسير الطبري (٣٠/ ٣١، ٣٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٤١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٨).

(٢) أي الآية ٨٧ من سورة النمل، والآية ٦٨ من سورة الزمر، كما تقدّم.

(٣) التذكرة للقرطبي (ص١٨٣)، ونقله عنه الحافظ في الفتح (١١/ ٣٧٧).

(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٠).

(٥) تقدّم تخريجه في (ص ٧٥٤).

(٦) أصغى: أمال، والليت: صفحة العنق، وهي جانبه. (شرح النووي لمسلم ١٨/ ٧٦).

(٧) الطلّ: الذي ينزل من السماء في الصحو، والطلّ أيضاً أضعف المطر. (النهاية لابن الأثير ٣/ ١٣٦ مادة: طلل) قال النووي قال العلماء: الأصّح الطلّ بالمهملة، وهو الموافق للحديث الآخر أنّه كمنّي الرجال. (شرح النووي لمسلم ١٨/ ٧٧).

(٨) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجّال الخ (٤/ ٢٢٥٩ برقم ٢٩٤٠).

وفي حديث أوس بن أوس الثقفي عن النبي ﷺ قال: «إنّ أفضل أيّامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبض، وفيه الصعقة، وفيه النفخة»[1].

أمّا حديث الصور الذي ورد فيه: أنّ النفخ في الصور ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لربّ العالمين[2]. فهو حديث ضعيف ومضطرب، كما يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى[3].

والظاهر من كلام الشوكاني رحمه الله في تفسيره للآيات أنّه اختار هذا القول مخالفاً لما قرّره هنالك.

ومما يدلّ على ذلك أنّه فسّر قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُوْنَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ يَخِصِّمُوْنَ، فَلاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُوْنَ، وَنُفِخَ فِيْ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلتها (١/ ٦٣٥ برقم ١٠٤٧) ـ والنسائي في كتاب فضل يوم الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (٣/٩١ برقم ١٣٧٤)، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة، باب فضل الجمعة (١/ ٣٤٥ برقم ١٠٨٥ وأيضاً ١٦٣٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٨) وصحّحه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في التوسّل (ص ٦٤)، ومشكاة المصابيح (١/ ٤٣٠) برقم ١٣٦١).

(٢) أخرجه ابن جرير مختصراً ومطوّلاً في تفسيره (١٧/ ١١٠، ٢٠/ ١٩، ٢٤/ ٣٠، ٣٠/ ٣٢) وقال في الموضع الأوّل: في إسناده نظر (لما فيه من ضعف إسماعيل بن رافع المدني وجهالة رجلين من الأنصار). قال ابن كثير: رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطوّلاً جدّاً. (تفسير ابن كثير ٣/٢١٣). قلت: وإسناده ضعيف لمداره على إسماعيل بن رافع المدني وهو ضعيف. قال الحافظ ابن حجر في التقريب (ص ١٠٤ برقم ٤٤٢): ضعيف الحفظ. قال ابن كثير: وقد نصّ على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه هو متروك . وقال ابن عديّ: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. (انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٤، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٤/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٣) انظر الفتح (١١/٣٧٧).

الصُّوْرِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُوْنَ﴾[1] قال: (وهي (أي صيحة واحدة) نفخة إسرافيل في الصور، وهذا إخبار عمّا ينـزل بهم عند النفخة الأولى، ثم أخبر سبحانه عما ينزل بهم عند النفخة الثانية فقال: (ونفخ في الصور): وهي النفخة التي يبعثون بها من قبورهم، ولهذا قال: (فإذا هم من الأجداث) أي القبور، (إلى ربّهم ينسلون) أي يسرعون، وبين النفختين أربعون سنة)[2].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ فَصَعِقَ مَنْ فِيْ السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ﴾[3]: (هذه هي النفخة الأولى)[4].

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[5] قال: (والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردّد واضطراب كالرعد، وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق. والرادفة: النفخة الثانية التي تكون عند البعث، وسمّيت رادفة لأنّها ردفت النفخة الأولى، كذا قال جمهور المفسّرين)[6].

وقال في تعريف الصور: (والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء، والثانية للانشاء[7]. والذي ينفخ فيه هو إسرافيل، كما وردت بذلك السنة، وإطلاق هذا الاسم على القرن معروف في لغة العرب)[8].

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٩ ـ ٥١.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٣٧٣، ٣٧٤).
(٣)سور الزمر ، الآية: ٦٨.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٧٥).
(٥) سورة النازعات، الآية: ٦، ٧.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٧٤).
(٧) المصدر السابق (٢/ ١٣٠).
(٨) انظر المصدر السابق (٤/ ٣٧٤) وأيضاً (٤/ ٤٧٥) و(٥/ ٣٦٥).

ومن الأحاديث التي أوردها الشوكاني في هذا الصدد حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سئل النبي ﷺ عن الصور فقال: قرن ينفخ فيه[١].

قال الشوكاني: (والأحاديث الواردة في كيفية النفخ ثابتة في كتب الحديث، لا حاجة لنا إلى إيرادها ههنا)[٢].

وقد اختلف أهل العلم في تعيين من وقع الاستثناء له في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِيْ الصُّوْرِ فَصَعِقَ مَنْ فِيْ السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِيْ الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[٣] فرجّح الشوكاني القول بأنّ المستثنى هو: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. قال: (المستثنى: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل رضوان، وحملة العرش، وخزنة الجنة والنار). وفسّر الصعق في الآية بأنّه الغشي وزوال العقل[٤].

وذكر الحافظ ابن حجر عشرة أقوال[٥] وقال بعد سردها:

(قال البيهقي: استضعف بعض أهل النظر أكثر هذه الأقوال، لأنّ الاستثناء وقع من سكّان السموات والأرض، وهؤلاء ليسوا من سكّانها، لأنّ العرش فوق السموات، فحملته ليسوا من سكّانها، وجبريل وميكائيل من

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٣٢) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٦٢، ١٩٢)، وأبو داود في كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (٥/ ١٠٧ برقم ٤٧٤٢)، والترمذي في تفسير سورة الزمر (٥/ ٣٤٨ برقم ٣٢٤٤)، وقال: هذا حديث حسن، والدارمي في كتاب الرقائق، باب في نفخ الصور (٢/ ٤١٨ برقم ٢٧٩٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٦، ٥٠٦) و(٤/ ٥٦٠) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٦٨) برقم ١٠٨٠).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٣٢).

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٤٧٥).

(٥) انظر الفتح (١١/ ٣٧٨، ٣٧٩).

الصافّين حول العرش، ولأنّ الجنة فوق السموات، والجنة والنار عالمان بانفرادهما خلقتا للبقاء)[1].

والذي أراه الأولى بالمسلم المتوقّف في تعيين الذين استثناهم الله، لأنّه لم يصحّ في ذلك نصّ يدلّ على المراد.

وهو ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إذ قال: (وأمّا الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإنّ الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكلّ ما استثناه الله، فإنّ الله قد أطلق في كتابه... والنبي ﷺ قد توقّف في موسى، وهل هو داخل في الاستثناء فيمن استثناه الله أم لا؟[2] فإذا كان النبي ﷺ يخبر بكلّ من استثنى الله، ولم يمكننا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء وأمثال ذلك مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلّا بالخبر. والله أعلم)[3].

المبحث الثامن

الإيمان بالحشر والموازين والصراط

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالحشر والموازين والصراط، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

الحشر:

أمّا الحشر فهو عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة

---

(١) الفتح (١١/ ٣٧٩) وانظر التذكرة للقرطبي (ص ١٦٨).

(٢) ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أوّل من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله»؟ (أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعده (الفتح ٦/٥٠٨ برقم ٣٤٠٨).

(٣) مجموع فتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٦١).

واحدة، تدعى عرصات القيامة، وذلك لفصل القضاء، والحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم.

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[١].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي الخلائق، ومعنى الحشر: الجمع، أي جمعناهم إلى الموقف من كلّ مكان، فلم نغادر منهم أحداً، أي فلم نترك منهم أحداً)[٢].

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾[٣] أي لنسوقنّهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا[٤].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيْهِ﴾[٥] «أي والله ليجمعنّكم اللّهُ بالحشر إلى يوم القيامة: أي إلى حساب يوم القيامة»[٦].

هذه الآيات القرآنية تدلّ بعمومها على حشر الخلق جميعاً، الإنس والجنّ والملائكة.

وقد اختلف العلماء في حشر البهائم، فذهب الشوكاني رحمه الله تعالى إلى أنّ ذلك كائن، واستدلّ بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِيْ الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِيْ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ﴾[٧] قال:

---

(١) سورة الكهف ، الآية: ٤٧.
(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٩٢)
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٤٣).
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٦) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٤٩٣).
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(يعني الأمم المذكورة، وفيه دلالة على أنّها تحشر كما يحشر بنو آدم، وقد ذهب إلى هذا جمع من العلماء، ومنهم أبو ذرّ، وأبو هريرة، والحسن، وغيرهم، وذهب ابن عبّاس إلى أنّ حشرها موتها، وبه قال الضحّاك، والأوّل أرجح للآية، ولما صحّ في السنة المطهّرة من أنّه يقاد يوم القيامة للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء[1]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[2][3].

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني وغيره هو الصواب الذي دلّ عليه الكتاب والسنة[4].

قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب، وأمّا القصاص من القَرْناء للجَلْحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاص مقابلة[5].

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما من دابّة ولا طائر إلّا سيحشر يوم القيامة، ثم يقتصّ لبعضها من بعض حتى يقتصّ للجَلْحاء من ذات القرن، ثم يقال لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، وإن شئتم فاقرأوا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِيْ الْأَرْضِ﴾ الآية[6].

ويحشر الناس يوم القيامة حُفاة غير منتعلين، عُراة غير مكتسين، غُرْلاً غير مختونين، كما بدأ الله تعالى خلقهم أوّلاً.

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحاء من الشاة القَرْناء». (انظر كتاب البر، باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٧ برقم ٢٥٨٢) والجدحاء: هي التي لا قرن لها (النهاية لابن الأثير ١/ ٢٨٤ مادة: جلح).

(٢) سورة التكوير، الآية: ٥.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١١٤).

(٤) انظر: التذكرة للقرطبي (ص ٢٧٣)، وشرح النووي لمسلم (١٦/ ١٣٦)، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٤/ ٢٤٨).

(٥) انظر شرح النووي لمسلم (١٦/ ١٣٦، ١٣٧).

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١١٥) وهذا الأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره =

قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِيْن﴾[1].

قال الشوكاني في تفسير الآية: (أي كما بدأناهم في بطون أمّهاتهم، وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرلاً، كذلك نعيدهم يوم القيامة)[2].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلاً. قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشدّ من أن يهمّهم ذاك»[3].

ويُحشر الكافرون على وجوههم، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيْراً﴾[4].

قال الشوكاني: (هذا الحشر على الوجوه فيه وجهان للمفسّرين: الأوّل: أنّه عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنّم، من قول العرب: قد مرّ القوم على وجوههم. إذا أسرعوا. الثاني: أنّهم يُسحبون يوم القيامة على وجوههم حقيقة كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه. وهذا هو الصحيح، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُوْنَ فِيْ النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾[5]، ولما صحّ في السنة.. قوله: (عمياً وبكماً وصمّاً) هذه هيئة يبعثون عليها في أقبح صورة

= (٧/ ١٨٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٦) وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر (الفتح ١١/ ٣٨٥ برقم ٦٥٢٧)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/ ٢١٩٤ برقم ٢٨٥٩).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٥) سورة القمر، الآية: ٤٨.

وأشنع منظر. وقد جمع الله لهم بين عمي البصر وعدم النطق وعدم السمع، مع كونهم مسحوبين على وجوههم)[1].

قلت: ما فسّره الشوكاني هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنّة كما قال. وقد ثبت في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)؟ قال قتادة: بلى وعزّة ربِّنا[2]. وفي هذا الموضوع أحاديث كثيرة ثابتة في كتب الحديث، ولا يتسع المقام هنا بذكرها.

الموازين:

وأمّا الموازين فجمع ميزان، وهو الذي توزن به الحسنات والسيّئات.

وقد ورد ذكر الوزن والموازين في آيات كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوْا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُوْنَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِيْنَ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ فَهُوَ فِيْ عِيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[5].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحشر (الفتح ١١/ ٣٨٥ برقم ٦٥٢٣)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب يحشر الكافر على وجهه (٤/ ٢١٦١ برقم ٢٨٠٦).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨، ٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٥) سورة القارعة، الآية: ٦ ــ ٩.

والشاهد من هذه الآيات الكريمة أنّ فيها إثبات الموازين والوزن يوم القيامة، وأنّ أعمال العباد خيرها وشرّها توزن بالموازين إظهاراً لعدل الله تعالى.

وقد اختلف أهل العلم في وحدة الميزان وتعدّده، فذهب بعضهم إلى أنّه واحد، وأنّ الجمع في الآية إنّما هو باعتبار تعدّد الأعمال أو الأشخاص، وذهب آخرون إلى أنّ لكلّ شخص ميزاناً خاصّاً، أو لكلّ عمل ميزان، لظاهر الآية. ورجّح هذا القول الشوكاني رحمه الله إذ قال في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِيْنُهُ﴾ (وظاهر جمع الموازين المضافة إلى العامل أنّ لكلّ واحد من العاملين موازين يوزن بكلّ واحد منها صنف من أعماله. وقيل: هو ميزان واحد عبّر عنه بلفظ الجمع، كما يقال: خرج فلان إلى مكة على البغال)[1].

ورجّح هذا القول الثاني الحافظ ابن حجر[2]، ومحمد السفاريني[3].

واختلفوا في معنى الوزن، فذهب جمهور أهل السنة إلى أنّ المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً، وأنكر بعض الناس الميزان، وذهبوا إلى أنّ الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء[4].

وذهب الشوكاني مذهب جمهور أهل السنة إذ قال بعد سوق الأقوال: (والحقّ هو القول الأوّل، وهو الذي قامت عليه الأدلّة، ونقل رحمه الله ما ذكره الزجاج ردّاً على المنكرين قال: والأولى أن نتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان. كما نقل عن القشيري قال: وقد أجمعت الأمّة في الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا أجمعوا على منع

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩١).
(٢) انظر الفتح (١٣/ ٥٤٧).
(٣) انظر لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٨٦).
(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩٠)، وانظر الفتح لابن حجر (١٣/ ٥٤٨).

التأويل وجب الأخذ بالظاهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً)[1] انتهى.

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني والجمهور هو الحقّ الذي دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة، أمّا تأويل المنكرين فهو تأويل فاسد مخالف للنصوص وإجماع السلف وأئمّتها.

وقد أحسن الشوكاني رحمه الله تعالى في ردّه عليهم إذ قال: (... وأمّا المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فما يأتون في استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه، بل غاية ما تشبّثوا به مجرّد الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجّة على أحد، فهذا إذا لم تقبله عقولهم فقد قبلته عقول قوم هي أقوى من عقولهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى جاءت البدع كالليل المظلم، وقال كلّ ما شاء، وتركوا الشرع خلف ظهورهم، وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتّفق العقلاء عليها، ويتّحد قبولهم لها، بل كلّ فريق يدّعي على العقل ما يطابق هواه، ويوافق ما يذهب إليه هو، أو من هو تابع له، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم)[2].

قلت: وأمور الآخرة ليست مما تدركها العقول، فالواجب الإيمان بها كما جاءت، وعدم البحث عن كيفيتها إلاّ على ضوء ما ورد من النصوص.

وقد ثبت في النصوص وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، كما ثبت أنّ الميزان له كفّتان، والله أعلم بما وراء ذلك من الكيفيّات[3].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩٠).

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص ٤٧٥)، وانظر تفسير الطبري (٨/ ١٢٣، ١٢٤)، والشريعة للآجري (ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧)، وشرح أهل أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٨، ١٧٧)، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢١٠)، ومعارج القبول للشيخ حافظ حكمي (٢/ ٨٤٨، ٨٤٩) تحقيق/ عمر بن محمود أبو عمر.

وقد ورد في كيفية الوزن أحاديث كثيرة، أوردها الشوكاني منها:

حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (يصاح برجل من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كلّ سجلّ منها مدّ البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتْك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا ربّ، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، وإنّه لا ظلم عليك اليوم، فتُخْرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلّات؟ فيقال: إنّك لا تُظلم، فتوضع السجلّات في كِفّة، والبطاقة في كِفّة، فطاشت السجلّات، وثقلت البطاقة)(١).

ففي هذا الحديث دليل على أنّ ميزان الأعمال له كفّتان مشاهدتان، وأنّ الأعمال وإن كانت أعراضاً فإنّها توزن، والله على كلّ شيء قدير، وذلك من عقائد أهل السنّة، والأحاديث في ذلك متضافرة.

الصراط:

وأمّا الصراط فهو كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (جسر منصوب على متن جهنّم بين الجنة والنار، يمرّ الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمرّ كلمح البصر، ومنهم من يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٩٣)، والحديث أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢١٣) قال الشوكاني: وإسناده حسن. والترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلّا الله (٥/ ٢٥ برقم ٢٦٤٠) وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧ برقم ٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦)، وأيضاً ٥٢٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصحّحه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية بتحقيقه (ص ٤٧٣)، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢١٢ برقم ١٣٥).

كالريح، ومنهم من يمرّ كالفرس الجواد، ومنهم من يمرّ كركاب الإبل، ومنهم من يَعْدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطف ويُلقى في جهنّم، فإنّ الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مرّ على الصراط دخل الجنة)[1].

وقد وردت أحاديث كثيرة فيها ذكر الصراط، وصفته، وصفة المرور عليه.

والذي عليه أهل الحقّ إثبات الصراط على ظاهره بغير تأويل كما وردت به الأخبار الصحيحة[2].

والشوكاني رحمه الله تعالى لم يتعرّض للحديث عن الصراط بالتفصيل في كتبه، وقد تحدّث عنه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[3] حيث رجّح القول بأنّ الورود في هذه الآية هو المرور على الصراط.

قال رحمه الله بعد سرد الأقوال في معنى الآية:

(وقد توقّف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود، وحمله على ظاهره، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُوْنَ﴾[4] قالوا: فلا يدخل النار من ضَمن الله أن يبعده عنها، ومما يدلّ على أنّ الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾[5] فإنّ المراد: أشرف عليه، لا أنّه دخل فيه... ولا يخفى أنّ القول بأنّ الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنّم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلّة

---

(١) العقيدة الواسطية: ابن تيمية (ص ١٥٣) بشرح الدكتور صالح فوزان الفوزان.
(٢) انظر لوامع الأنوار البهية: السفاريني (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٤).
(٣) سورة مريم ، الآية: ٧١.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.
(٥) سورة القصص ، الآية: ٢٣.

من الكتاب والسنّة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك، لأنّه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً عن عذابها، أو بحمله على المضيّ فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط)[1].

قلت: والقول بأنّ الورود في الآية هو المرور على الصراط هو أقرب الأقوال إلى الصحّة، وله تشهد النصوص والدلائل، وقد ذهب إليه كثير من العلماء والمفسّرين[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأمّا الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُها﴾ فقد فسّره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، رواه مسلم في صحيحه عن جابر بأنّه المرور على الصراط[3]. والصراط هو الجسر، فلا بدّ من المرور عليه لكلّ من يدخل الجنة، من كان صغيراً في الدنيا ومن لم يكن)[4].

ولعلّ شيخ الإسلام يقصد حديث جابر الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: أخبرتْني أمّ مُبَشِّر أنّها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: (لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها. قالت:

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٤٤).

(٢) وهو قول عبد الله بن مسعود، وجابر، والحسن، وقتادة، وغيرهم. (انظر: تفسير الطبري ١٦/ ١١٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٢٥٦، وتفسير القرطبي ١١/ ١٣٦، ١٣٧، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٣٩، ١٤٠) ورجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى (٤/ ٢٧٩)، وابن أبي العزّ الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٧١)، وابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (ص ١٩٣ وما بعدها) تحقيق/ بشير محمد عيون. والشيخ حافظ حكمي في معارج القبول (٢/ ٨٥٣).

(٣) لم أقف على الحديث بهذا النصّ، ولعلّه رحمه الله يقصد حديث جابر الذي ذكرته.

(٤) مجموع فتاوى: ابن تيمية (٤/ ٢٧٩).

بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: قد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّيْ الَّذِيْنَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِيْنَ فِيْهَا جِثِيّاً﴾[(1)][(2)].

فقد أشار ﷺ في هذا الحديث إلى أنّ ورود النار لا يستلزم دخولها، وأنّ النجاة من الشرّ لا تستلزم حصوله، وكذلك حال الوارد على النار، يمرّون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتّقوا، ويذر الظالمين فيها جثيّاً، فقد بيّن ﷺ في هذا الحديث أنّ الورود هو الورود على الصراط[(3)].

المبحث التاسع

الشفاعة

وهي كما قال الأصفهاني: (الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ورتبة إلى من هو أدنى. . .)[(4)].

وقال ابن الأثير: (هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمُشفِّع: الذي يقبل الشفاعة، المُشَفَّع: الذي تقبل شفاعته)[(5)].

فالشفاعة هي طلب وسؤال الخير للغير[(6)].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة (٤/ ١٩٤٢ برقم ٢٤٩٦).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٤٧١).

(٤) المفردات: الأصفهاني (ص ٢٦٣ مادة: شفع).

(٥) النهاية: ابن الأثير (٢/ مادة: شفع).

(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٨٢).

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنّهم يؤمنون بكلّ ما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ في الشفاعة، ويثبتون جميع أنواعها التي وردت الأدلّة فيهما بإثباتها، كشفاعته ﷺ لأهل الموقف، وأهل الكبائر من أمّته، وغير ذلك من أنواع شفاعته ﷺ، وشفاعات غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وينفون الشفاعة التي نفتها الأدلّة من الكتاب والسنة.

وقرّر الشوكاني رحمه الله تعالى مذهب أهل السنة والجماعة في الشفاعة، فأثبت ما أثبتوه من شفاعة الرسول ﷺ لأمّته يوم الآخر، وشفاعة غيره ممن يأذن الله له من النبيّين والصدّيقين والملائكة، لتضافر الأدلّة في ذلك في الكتاب والسنّة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾(١).

ومعنى الآية كما قال الشوكاني: (أي إنّما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضى، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُوْنَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُوْنَ﴾(٢)، وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُوْنَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾(٣)(٤).

وقال تعالى عن المقام المحمود الذي هو شفاعة رسوله ﷺ للناس يوم القيامة: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوْداً﴾(٥)،

رجّح الشوكاني القول بأنّ المقام المحمود هو شفاعته ﷺ يوم القيامة للناس قال: (وقد اختلف في تعيين هذا المقام على أقوال: الأوّل: أنّه المقام الذي

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٣) سورة مريم ، الآية: ٨٧.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٣٨٧).
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

يقومه النبي ﷺ للشفاعة يوم القيامة للناس ليريحهم ربّهم سبحانه مما هم فيه، وهذا القول هو الذي دلّت عليه الأدلّة الصحيحة في تفسير الآية، وحكاه ابن جرير عن أكثر أهل التأويل، قال الواحدي: وإجماع المفسّرين على أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة...)[1].

وأنكر على صاحب الكشّاف الذي فسّر المقام المحمود بأنّه مطلق في كلّ مقام يجلب الحمد من أنواع الكرامات، فأجاب عنه بأنّ الأحاديث الصحيحة الواردة في تعيين هذا المقام المحمود متواترة، فالمصير إليها متعيّن[2].

ومن تلك الأحاديث كما أوردها الشوكاني: ما أخرجه أحمد وابن جرير والحاكم وصحّحه عن كعب بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: (يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمّتي على تلّ، ويكسوني ربّي حلّة خضراء، ثمّ يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود[3] وما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إنّ كلّ أمّة يوم القيامة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود)[4].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، وانظر تفسير الطبري (١٥/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) انظر فتح القدير: (٣/٢٥٢)، وانظر الكشّاف للزمخشري (٢/٦٨٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٥٦) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٥١): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وابن جرير في تفسيره (١٥/١٤٦)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة. وأقرّه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة بني إسرائيل، باب: عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً (الفتح ٨/ ٢٥١ برقم ٤٧١٨).

ومن أحاديث الشفاعة التي أوردها الشوكاني ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قالها خالصاً من قلبه»[1].

قال الشوكاني: (فيه دليل على أنّ قائل هذه الكلمة (لا إله إلاّ الله) هو أسعد الناس بالشفاعة النبوية، لكن مقيّد بأن يقول ذلك خالصاً، لا إذا قالها من دون خلوص، وفيه أراد بالشفاعة بعض أنواعها، وأمّا الشفاعة العظمى فأسعد الناس من يدخل الجنة بغير حساب)[2] والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً ثابتة في الصحيحين وغيرهما[3].

قال الشوكاني: (ولا خلاف بين المسلمين أنّه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا، وقد ثبت بالسنة المتواترة واتّفاق جميع الأمّة أنّ نبينا ﷺ هو الشافع المشفع، وأنّه يشفع للخلائق يوم القيامة، وأنّ الناس يستشفعون به، ويطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربّه... ولم يقل أحد من المسلمين بنفيها قط)[4].

قلت: ما ذكره الشوكاني هنا من الشفاعة هي الشفاعة العظمى لأهل الموقف، وهي الخاصّة بنبيّنا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وهذه الشفاعة متّفق عليها بين الأمّة، ولم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر.

وقد ذكر العلماء أنواع الشفاعة[5] واستقصوها في ثمانية أنواع، منها ما

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٢٨٦).
(٢) تحفة الذاكرين: الشوكاني (ص ٢٩٠).
(٣) انظر فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٢٥٥).
(٤) الدر النضيد: الشوكاني (ص ٧).
(٥) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥٨٨)، والشريعة للآجري (ص ٣٣٨ ـ ٣٥١)، وشرح النووي ـ لمسلم (٣/ ٣٥)، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٤٨)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي =

هو خاصّ بالنبي ﷺ، ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره، وقد أشار الشوكاني إلى بعض هذه الأنواع في بعض مؤلّفاته[1]. وفيما يلي أذكرها ملخّصاً:

١ ـ الشفاعة العظمى، وهي شفاعته ﷺ في أهل الموقف حتى يقضي الله بينهم بعد طول الموقف عليهم، وبعد مراجعتهم الأنبياء للقيام بها، فيقوم بها نبينا ﷺ بعد إذن ربّه، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود المذكور في الآية.

٢ ـ شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنّة الجنّة بعد الفراغ من الحساب.

٣ ـ شفاعته ﷺ في عمّه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه، وهي خاصّة به، وخاصّة لأبي طالب، وهذه الأنواع الثلاثة من الشفاعة خاصّة بنبيّنا محمد ﷺ.

٤ ـ شفاعته ﷺ فيمن استحقّ النار من عصاة الموحّدين أن لا يدخلها.

٥ ـ شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من عصاة الموحّدين أن يخرج منها.

٦ ـ شفاعته ﷺ في رفع درجات بعض أهل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

٧ ـ شفاعته ﷺ في قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم أن يدخلوا الجنّة، وهم أهل الأعراف على قول جمع من العلماء[2].

٨ ـ شفاعته ﷺ في دخول بعض المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب، كشفاعته ﷺ في عكاشة بن محصن رضي الله عنه حيث

= (ص ٢٥٣ ـ ٢٦٠)، والفتح لابن حجر (١١/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢١١)، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ١٨٧)، وشرح العقيدة الواسطية للدكتور صالح فوزان الفوزان (ص ١٥٧، ١٥٨).

(١) انظر: نيل الأوطار (٢/ ١٠٨)، وتحفة الذاكرين (ص ٢٩٠)، وكشف الأستار في أبطال القول بفناء النار (ورقة ٤) (مخطوط).

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر أنّ أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم (انظر =

دعا له النبي ﷺ أن يكون من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[1].

وهذه الأنواع الخمسة الأخيرة يشارك النبي ﷺ فيها غيره من الأنبياء والملائكة والصدّيقين والشهداء.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بهذه الشفاعة كلّها، ويثبتونها لثبوت أدلّتها في الكتاب والسنة.

وقد خالف أهل البدع من الخوارج والمعتزلة أهل السنة في الشفاعة، فأنكروا بعض أنواع الشفاعات، كشفاعته ﷺ وشفاعة غيره فيمن استحقّ النار من أهل الكبائر أن لا يدخلها، أو فيمن دخلها منهم أن يخرج منها[2]. بناء على قولهم المشهور: إنّ صاحب الكبيرة مخلّد في النار كما تقدّم. وردّوا على الأحاديث الواردة في ذلك بأنّها منقولة بطريق الآحاد عن النبي ﷺ، وأنّها لا يصحّ بها الاحتجاج[3]. وهو قول باطل، والأدلّة على بطلانه من القرآن والسنة أشهر من أن تذكر.

وقد احتجّوا فيما ذهبوا إليه بالآيات التي فيها نفي الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِيْنَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ

= الفتح ١١/ ٤٣٦)، وانظر ابن كثير (٢/ ٢٢٥) فقد ذكر أنّ هذا القول نصّ عليه حذيفة، وابن عبّاس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

(١) تقدّم نصّ الحديث في صفحة (٣٢٥).

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار (ص ٦٨٨، ٦٨٩)، وانظر أيضاً الإرشاد للجويني (ص ٣٩٣ ـ ٣٩٥)، والمواقف للأيجي (ص ٣٨٠)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ١١٤، ١٤٨ ـ ١٥٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٢٦٠)، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/ ٢١٢).

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦٩٠).

(٤) سورة المدّثّر، الآية: ٤٨.

حَمِيْمٍ وَلاَ شَفِيْعٍ يُطَاعُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[2]، وأمثال ذلك من الآيات التي تتضمّن نفي الشفاعة، وهو احتجاج غير صحيح، لأنّ الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل الشرك، فهم الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، أمّا المؤمنون فهم الذين تنفعهم الشفاعة بشروطها، لثبوت الأدلّة عليها من الكتاب والسنّة.

وقد ذكر الله تعالى شرطين للشفاعة لا تتحقّق إلاّ بهما.

الشرط الأوّل: إذن الله للشافع أن يشفع، فإنّه لا يشفع أحد حتى يأذن الله له. كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[3].

قال الشوكاني رحمه الله: (أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلاّ كائنة لمن أذن له أن يشفع، من الملائكة، والنبيّين، ونحوهم، من أهل العلم والعمل، ومعلوم أنّ هؤلاء لا يشفعون إلاّ لمن يستحقّ الشفاعة، لا للكافرين)[4].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيْعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِيْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[6].

قال الشوكاني في معنى الآية الثانية: (في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أنّ أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها، والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عبّاد

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٣.
(٤) فتح القدير: الشوكاني (٤/٣٢٤، ٣٢٥).
(٥) سورة يونس، الآية: ٣.
(٦) سورة البقرة: الآية: ٢٥٥.

القبور، والصدّ في وجوههم، والفتّ في أعضادهم، ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه)[1].

الشرط الثاني: رضا الله سبحانه وتعالى عن المشفوع له، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[2] أي لأهل التوحيد[3].

وقد أخرج الحاكم وصحّحه، والبيهقي في البعث عن جابر أنّ رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ قال: (إنّ شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي)[4].

ويجمع الشرطين قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[5] والمعنى كما قال الشوكاني: (التوبيخ للكفّار ربما يتمنّون ويطمعون فيه من شفاعة الأصنام، مع كون الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع... (إلّا من بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) بالشفاعة له، لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظّ، ولا

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٢٧٢).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: ٢٨.

(٣) ذكر الشوكاني هذا المعنى عن ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم (انظر فتح القدير ٣/ ٤٠٦، وانظر تفسير الطبري ١٧/ ١٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٢، وتفسير الفخر الرازي ١١/ ١٦٠، قال: وهذه الآية من أقوى الدلائل في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر.

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٠٦)، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٢) قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، والبيهقي في البعث والنشور (ص ٥٥ برقم ١)، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٥٥٨ برقم ٥٥٩٩).

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٦.

يأذن الله بالشفاعة لهم ولا يرضاها، لكونهم ليسوا من المستحقّين لها)[1].

المبحث العاشر
الجنّة ونعيمها

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنّة وأنّها حقّ لا ريب فيها.

والجنّة هي دار النعيم التي أعدّها الله تعالى لعباده المؤمنين المتّقين المشتملة على أصناف النعيم والبهجة والسرور، وكلّ ما لذّ وطاب.

وقد أكثر الله سبحانه وتعالى من ذكر نعيم الجنّة في كتابه الكريم، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِيْ مَقَامٍ أَمِيْنٍ، فِيْ جَنَّاتٍ وَعُيُوْنٍ، يَلْبَسُوْنَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِيْنَ، كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُوْرٍ عِيْنٍ، يَدْعُوْنَ فِيْهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِيْنَ، لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُوْلَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيْمِ، فَضْلًا مِن رَّبِّكَ، ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِيْ وُعِدَ الْمُتَّقُوْنَ فِيْهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِيْنَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَلَهُمْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَمَغْفِرَةٌ مِن رَّبِّهِمْ﴾[3].

أما الأحاديث الدالّة على نعيم الجنة وما فيها من الفضل العظيم فكثيرة جدّاً منها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ١١٠).
(٢) سورة الدخان، الآية: ٥١ ــ ٥٧.
(٣)سورة محمد، الآية: ١٥.

تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1]. قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2].

وقد تحدّث الشوكاني رحمه الله تعالى عن الجنة ونعيمها، ولا سيّما في تفسيره للآيات وردّ على من أثبت اللذّة الروحانية دون اللذّة الجسمانية في نعيم الجنة، وناقشه، ودحض شبهه، كما تقدّم بيانه[3].

وقال رحمه الله في وصف أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ﴾[4]: (أي لا يمسّهم تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبّب عنه ذلك في الجنّة، لأنّها نعيم خالصة، ولذّة محضة، تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرّد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِيْنَ﴾ أبداً، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذّة وكمال النعيم، فإنّ علم من هو في نعمة ولذّة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغّص نعيمه وتكدّر لذّته)[5].

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيْمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُوْن﴾[6]: (أي دائمون، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذّ به الأعين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَشْتَهِيْ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيْهَا مَا تَدَّعُوْنَ﴾[7])[8]، وقوله تعالى:

---

(١) تقدّم تخريجه في صفحة (٧٥٨)
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.
(٣) راجع صفحة (٧٥٣ ـ ٧٥٨).
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٨.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ١٣٤).
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٢.
(٧) سورة فصّلت، الآية: ٣١.
(٨) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٤٢٩).

﴿وَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾[1] والمعنى: (ما تشتهيه أنفس أهل الجنة من فنون الأطعمة والأشربة ونحوهما مما تطلبه النفس وتهواه كائناً ما كان، وتلذّ الأعين من كلّ المستلذّات التي تستلذّ بها وتطلب مشاهدتها)[2].

ومما أورده الشوكاني من الأحاديث والآثار في وصف الجنة ونعيمها ما أخرجه أحمد والترمذي وصحّحه عن معاوية بن حَيْدة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثمّ تشقّق الأنهار منها»[3]، وما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: (ليس في الدنيا مما في الجنّة شيء إلّا الأسماء)[4].

هذا وقد قرّر الشوكاني رحمه الله مذهب السلف أهل السنة في أنّ دخول الجنّة يكون بفضل من الله ورحمته، لا بمجرّد العمل[5]. فقال في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِيْنَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِيْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيْهَا

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٤/٥٦٣).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٦) والحديث أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٥)، والترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة (٤/ ٦٠٣ برقم ٢٥٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في كتاب الرقاق، باب في أنهار الجنة (٢/ ٤٣٥ برقم ٢٨٣٦)، والبيهقي في البعث والنشور (ص ١٦٩ برقم ٢٣٩) عن حكيم بن معاوية عن أبيه.

(٤) المصدر السابق (١/ ٥٥) والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٤)، وذكره البغوي في تفسيره (١/ ٥٦)، وكذلك ابن كثيرفي تفسيره (١/ ٦٦).

(٥) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٩٣، ٩٤) تحقيق/ بدر البدر، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٤٩٥)، والفتح لابن حجر (١١/ ٣٠١، ٣٠٢) ونقل هذا الكلام عن جمع من العلماء، كابن بطّال، والقاضي عياض، وابن الجوزي، والكرماني، وابن القيم، والنووي، والمازري، وغيرهم.

خَالِدُوْنَ﴾[1] (أي في جنّته ودار كرامته، عبّر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أنّ العمل لا يستقلّ بدخول صاحبه الجنّة، بل لا بدّ من الرحمة، ومنه حديث: (لن يدخل أحد الجنّة بعمله)[2] وهو في الصحيح)[3].

وخالف في هذا المعتزلة بناء على قولهم بوجوب الثواب على الله[4]، فذهبوا إلى أنّ دخول الجنّة يكون بالأعمال لا بالتفضّل، وأنّ الجزاء مرتّب على الأعمال ترتّب العوض. واستدلّوا بآيات منها قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَنُوْدُوْا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُوْرِثْتُمُوْهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾[6] قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ (أي بسبب أعمالكم، لا بالتفضّل كما تقول المبطلة)[7] .

وقد نقل الشوكاني هذا الكلام في تفسيره وأنكر عليه قائلاً: (أقول: يا مسكين، هذا ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما صحّ عنه: (سدّدوا وقاربوا، واعلموا أنّه لن يدخل أحدٌ الجنّة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمّدني الله برحمته)[8]. والتصريح بسبب لا يستلزم نفي سبب آخر،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٧.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (الفتح ١١/ ٣٠٠ برقم ٦٤٦٧) ولفظه: لا يُدَخِل أحد الجنّة عملُه. ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحدٌ الجّنة بعمله بل برحمة الله تعالى: (٤/ ٢١٧٠، برقم ٢٨١٦ ـ ٢٨١٨) بألفاظ ـ متقاربة.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٣٧٠).
(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٦١٤، ٦١٥)، والكشّاف للزمخشري (١/ ٥٥٧).
(٥) سورة السجدة، الآية: ١٧، وسورة الأحقاف، الآية: ١٤، وسورة الواقعة، الآية: ٢٤.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٧) الكشّاف للزمخشري (٢/ ١٠٦) ولا يخفى أنّه يقصد بالمبطلة أهل السنة القائلين بأنّ دخولها بالفضل والرحمة، لا بمحض الأعمال.
(٨) تقدّم تخريجه في صفحة (٨٢١).

ولولا التفضّل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضّل إلّا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقّة لا مبطلة (كما قال الزمخشري) وفي التنزيل: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾[1]، وفيه: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِيْ رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾[2][3].

وقال في قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام حين دعا ربّه: ﴿وَأَدْخِلْنِيْ بِرَحْمَتِكَ فِيْ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾[4] (فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأنّ دخول الجنّة التي هي دار المؤمنين بالتفضّل منك لا بالعمل منهم، كما قال رسولك الصادق المصدوق... فإذا لم يكن إلّا تفضّلك الواسع فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسّل إليك بالإيصال إليه تضييع)[5].

قلت: ما ذهب إليه الشوكاني مقرّراً لمذهب أهل السنة في هذه المسألة هو الحقّ الذي لا يجوز اعتقاد غيره، لما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة.

وقد جمع شارح الطحاوية بين الآيات والحديث في هذه المسألة فقال: (بأنّ الباء التي في النفي غير التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: (لن يدخل الجنّة أحد بعمله) باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنّة، كما زعمت المعتزلة أنّ العامل مستحقّ دخول الجنّة على ربّه بعمله، بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ وغيرها باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسبّبات، فرجع الكلّ إلى محض فضل الله ورحمته)[6].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٥.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٠٦).
(٤) سورة النمل، الآية: ١٩.
(٥) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ١٣١).
(٦) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العزّ الحنفي (ص ٤٩٥)، وانظر مجموع فتاوى: =

المبحث الحادي عشر

رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة

إنّ أعظم نعيم يناله المؤمنون في الجنّة هو رؤية الله عزّ وجلّ بأبصارهم، وهي ثابتة بالكتاب والسنة المتواترة، واتّفق على القول بها جميع الصحابة، والتابعين، وجميع أئمّة الإسلام المعروفين بالإمامة والدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى أهل السنة والجماعة[1].

وقد قرّر الشوكاني رحمه الله تعالى هذه المسألة، واستدلّ لها بأدلّة كثيرة من الكتاب والسنّة وآثار الصحابة، وأنكر على أهل البدع النفاة للرؤية، وأبطل حججهم، ودحض شبههم وتأويلاتهم المختلفة.

وقد أفرد رحمه الله هذه المسألة في مؤلّف مستقلّ سمّاه: البغية في مسألة الرؤية، وهي ما تزال مخطوطة[2].

ومما ذكره من الأدلّة التي استدلّ بها أهل السنة والجماعة على ثبوت الرؤية يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3].

هذه الآية صريحة الدلالة على رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة، لا تقبل تحريفاً ولا تأويلاً.

قال الشوكاني: (والنظر بمعنى الرؤية والإبصار، لا سيّما مع اقترانه

= ابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١).

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٥٤٨)، ومجموع فتاوى لابن تيمية (٢/ ٣٣٧)، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص ٤٠٢) تحقيق/ يوسف علي بدوي ومحيي الدين مستو، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الحنفي (ص ٢٠٤).

(٢) في (٢٣) ورقة، وتوجد في مكتبة الجامعة الإسلامية، تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم (توحيد) وهي مصورة من مكتبة دار العلوم ندوة العلماء، بلكناو. بدون تاريخ.

(٣) سورة القيامة: الآية: ٢٢، ٢٣.

بالوجوه[1]. أي تنظر إليه، هكذا قاله جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أنّ العباد ينظرون ربّهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر. قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة، والتابعين، وسلف الأمّة، كما هو متّفق عليه بين أئمّة الإسلام وهداة الأنام)[2].

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[3]، ومثله قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُوْنَ فِيْهَا وَلَدَيْنَا مَزِيْدٌ﴾[4].

فقد ثبت عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين ومن بعدهم تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنّة[5].

قال الشوكاني بعد أن ساق الأقوال في معنى الزيادة في الآية: «والحقّ هو القول بأنّها النظر إلى وجه الله، لما ورد فيه من أحاديث ثابتة». وذكر أحاديث كثيرة في هذا الصدد[6]، منها:

حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوْا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل

---

(١) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٩) (مخطوط).
(٢) الفتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٣٨)، وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٠).
(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.
(٤) سورة قٓ، الآية: ٣٥.
(٥) قال ابن كثير: وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصدّيق وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عبّاس، وسعيد بن المسيّب، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحّاك، والحسن وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف. وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٩)، وانظر أقوالهم عند اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٥٥ ــ ٤٦٩) بأسانيدها، وكذلك في حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٠٦ ــ ٤٠٩).
(٦) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٤١) وانظر أيضاً (٥/ ٧٩).

النـار النار، نـادى مناد يـا أهل الجنـة، إنّ لكم عند الله مـوعداً يـريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقِّل موازيننا، ويبيّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه. قال: فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ بأعينهم)[1].

ومن آثار الصحابة عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في الآية قال: (الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله)[2].

قال الشوكاني بعد سرد الروايات: (وقد روي عن التابعين ومن بعدهم روايات في الزيادة، غالبها أنّها النظر إلى وجه الله سبحانه، وقد ثبت التفسير بذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يبق حينئذ لقائل مقال، ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهّرة ما يتنتفعون به، فإنّهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم. والله المستعان)[3].

ومن الأدلّة القرآنية قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوْبُوْنَ﴾[4].

استدلّ الشوكاني بهذه الآية على ثبوت الرؤية قال: (في هذه الآية دليل على أنّ الله عزّ وجلّ يُرى في القيامة، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[5] فأعلم جلّ ثناؤه أنّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربّهم سبحانه وتعالى. (١/ ١٦٣ برقم ١٨١)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٣) واللفظ له.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٠٦ برقم ٤٧٣، ٤٧٤)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٢٥٦، ٢٥٧ برقم ٤٧٠، ٤٧١)، وابن جرير في تفسيره (١١/ ١٠٤، ١٠٥)، وابن خزيمة في التوحيد(١/٤٥٣ برقم ٢٦٥ مكرر)، والآجري في الشريعة (ص ٢٥٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٩٠) قال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة (ص ٢٠٦): حديث موقوف صحيح.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٤٤٢).

(٤) سورة المطفّفين، الآية: ١٥.

(٥) سورة القيامة، الآية: ٢٢، ٢٣.

المؤمنين ينظرون، وأعلم أنّ الكافرين محجوبون عنه)[1].

وقد روي عن الإمام الشافعي رحمه الله في هذه الآية قال: (فيها دلالة على أنّ أولياء الله يرون ربّهم يوم القيامة)[2]. إذ لو حُجب أولياؤه فأيّ فضيلة لهم على أعدائه.

ومن الأدلّة القرآنية أيضاً قوله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ تَرَانِيْ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الآية[3].

احتجّ به الشوكاني على وجهين:

١ ـ إنّ موسى عليه السلام سأل الرؤية، ولو امتنع كونه تعالى مرئيّاً لما سأله، لأنّه إن علم امتناعه فالعاقل لا يطلب المحال، وإن جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله لا يجوز أن يكون نبيّاً.

٢ ـ إنّه علّق تعالى الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر ممكن عقلاً، وما علّق على الممكن ممكن، إذ لو كان ممتنعاً لأمكن صدق اللازم بدون الملزوم، وهو محال[4].

أمّا الأدلّة من الأحاديث فهي كثيرة جدّاً تصل إلى حدّ التواتر كما صرّح به العلماء[5] منهم الشوكاني في مواضع من مؤلّفاته[6].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٤٠٠).

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٦٨ برقم ٨٠٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٥) مخطوط).

(٥) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣٤٨)، ومجموع فتاوى له (٣/٣٩٠، ت ١٦/٨٤)، وحادي الأرواح لابن القيم (ص ٤١٦)، وتفسير ابن كثير (٤/٤٧٩، ٤٨٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص ٢٠٩)، والفتح لابن حجر (١٣/٤٣٦).

(٦) انظر تحفة الذاكرين (ص ٣٦١)، وفتح القدير (١/٨٧، ٥٣٣)، والبغية في مسألة الرؤية (ورقة (١٣، ١٤، ١٩)/ مخطوط).

وقد ذكر رحمه الله أنّ أحاديث الرؤية مروية في جميع دواوين الإسلام من طرق كثيرة، حتى رووه من طريق زيد بن علي، وفي الصحيحين منها ثلاثة عشر حديثاً، اتّفقا منها على ثمانية أحاديث، وانفرد البخاري بحديثين، ومسلم بثلاثة أحاديث، وقد استوفى الحافظ العلوي اليمني(١) في كتابه شرح الأربعين أحاديث الرؤية، ورواها من طريق نحو خمسين صحابيّاً، وهكذا ابن القيم في حادي الأرواح، وكلّها مصرّحة برؤية المؤمنين له يوم القيامة... والقدح في حديث منها لا يستلزم القدح في جميعها(٢).

ومن الأحاديث التي أوردها الشوكاني ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال الناس: يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تُضارّون(٣) في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: فهل تُضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: فإنّكم ترونه كذلك) الحديث(٤).

والمراد من التشبيه في هذا الحديث كما فسّره علماء السلف رحمهم

---

(١) لعلّه هو يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليماني صاحب: الأنوار المضيئة شرح الأربعين السليقة. وقد تقدّمت ترجمته في صفحة (٥٨٧) وانظر تاريخ اليمن للواسعي (ص ٢٠١).

(٢) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٣، ١٤) (محفوظ).

(٣) روي: تضارّون: بتشديد الراء وتخفيفها، والتاء مضمومة فيهما، ومعنى المشدّد: هل تضارّون ـ غيركم في حال الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه؟ ومعنى المخفّف: هل يلحقكم في رؤيته ضير، وهو الضرر. (شرح النووي لمسلم ١/ ١٨، وانظر النهاية لابن الأثير ٣/ ٨٢ مادة: ضرر).

(٤) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٤٠)، والبغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ٩) (مخطوط) والحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة﴾ (الفتح ١٣/ ٤٣٠ برقم ٨٤٣٧)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣، ١٦٤ برقم ١٨٢).

الله هو تشبيه الرؤية بالرؤية[1]، من حيث الوضوح والحقيقة وعدم التكلّف والتزاحم حال الرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي، لأنّ الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

قال شارح العقيدة الطحاوية: (وفيه (أي الحديث السابق) دليل على علوّ الله على خلقه، وإلاّ فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟ ومن قال: يُرى لا في جهة (وهم الأشعرية)[3] فليراجع عقله!! فإمّا أن يكون مكابراً لعقله، وفي عقله شيء، وإلاّ فإذا قال: يرى لا أمام الرائي، ولا خلفه، ولا عن يمينه، ولا عن يساره، ولا فوقه، ولا تحته، ردّ عليه كلّ من سمعه بفطرته السليمة)[4].

فهذه الآيات والأحاديث التي ذكرتها وغيرها مما لم أذكره فيها دلالة صريحة لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من ثبوت الرؤية لله تعالى حقيقة يوم القيامة.

أمّا المنكرون للرؤية فهم أهل البدع والأهواء من الجهمية ومن تابعهم من المعتزلة والرافضة وأكثر الفرق الخارجة عن الإسلام[5].

---

(١) انظر مجموع فتاوى: ابن تيمية (٥/ ١٠٧، وأيضاً ١٦/ ٨٤).
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) انظر: الإنصاف للباقلاني (ص ٢٥٢)، والمواقف للايجي (ص ٣٠٠، ٣٠٨)، وشرح العقائد النفسية للتفتازاني (ص ٥٣) تحقيق/ أحمد حجازي السقا، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري (ص ١١٥) ـ وقد استوفى شيخ الإسلام ابن تيمية الردّعليهم. انظر مجموع فتاوى (١٦/ ٨٤ ـ ٨٩)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٨).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ٢١١) وانظر البغية: الشوكاني (ورقة ٨، ٩).
(٥) انظر البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ٢) (مخطوط)، وانظر: مجموع فتاوى: ابن تيمية (٣/ ٣٩١، ٨/ ٣٥٨)، وحادي الأرواح: ابن القيم (ص ٤٠٢)، وشرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ص ٢٠٤).

وقد تعرّض الشوكاني رحمه الله لاستدلالاتهم النقلية والعقلية، وبيّن أنّهم لم يتمسّكوا بشيء يصلح للتمسّك به، لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ. أمّا ما تمسّكوا به من الأدلّة العقلية فهو السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً[1].

وسأذكر هنا بعض الأدلّة النقلية التي استدلّوا بها، والتي تكلّم عليها الشوكاني رحمه الله تعالى.

الدليل الأوّل: قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[2].

قالوا: إنّ الإدراك المسند إلى الإبصار إنّما هو الرؤية، أو هما متلازمان، والآية نفت أن تراه الأبصار، وذلك يتناول جميع الأبصار، بواسطة اللام الاستغراقية، والوقوع في سياق النفي في مقام المبالغة في جميع الأوقات[3].

واعترض الشوكاني على هذا الاستدلال بوجوه:

١ ـ منها: أنّ الإدراك هو الإحاطة بجوانب المولى، إذ هو في الأصل النيل والوصول والبلوغ، ثم نقل إلى الرؤية المحيطة لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة، وهذه الرؤية المكيّفة بكيفية الإحاطة أخصّ مطلقاً من الرؤية المطلقة، وسلب الأخصّ لا يستلزم سلب الأعمّ.

---

(١) انظر مناقشة الشوكاني لاستدلالاتهم واعتراضه عليها في: البغية في مسألة الرؤية (من ورقة ٢ ـ ٨)، وانظر الذاكرين (ص ٣٦١).

(٢) سورة الأنعام: الآية: ١٠٣.

(٣) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٠) (مخطوط)، وانظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٣٣، ٢٣٤)، والإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص ٥٥، ٥٦) ـ تحقيق/ د: فوقية حسين محمود.

٢ ـ أنّ الآية محمولة على نفي الرؤية في الدنيا لا في الآخرة، جمعا بين الأدلّة، وذلك لأنّها وان عمّت في الأشخاص. . . فهي لا تعمّ في الأزمان، لأنّها سالبة مطلقة، لا موجّهة دائمة.

٣ ـ إنّ عموم الآية مخصّص بالأحاديث البالغة رتبة التواتر، كما صرّح به ابن الوزير في الروض الباسم(١)، والسيوطي في البدور السافرة في أمور الآخرة(٢)، حتى جزم الإمام المذكور إنّها تزيد على ثمانين حديثاً من طريق ثلاثين صحابيّاً(٣).

وقد ذكر الشوكاني أيضاً هذه الوجوه الاعتراضية في تفسيره للآية، وقال إنّ المنفي في الآية هو هذا الإدراك الذي هو الإحاطة لا مجرّد الرؤية. وأيضاً قد تقرّر في علم البيان والميزان أنّ رفع الإيجاب الكلّي سلب جزئي، فالمعنى: لا تدركه بعض الأبصار، وهي أبصار الكفّار، هذا على تسليم أنّ نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية، فالمراد به هذه الرؤية الخاصّة، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب، والأوّل تخلفه الجزئية، والتقدير: لا تدركه كلّ الأبصار بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين، والمصير إلى أحد الوجهين متعيّن، لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة، واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٤).

الدليل الثاني: استدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾(٥).

---

(١) انظر الروض الباسم في الذبّ عن سنة أبي القاسم (ص ١٤٦) ط/ السلفية، القاهرة ١٣٨٥ هـ.

(٢) انظر (ص ٤٧٧ ـ ٤٨٧) تحقيق/ مصطفى عاشور، ط/ مكتبة القرآن، القاهرة.

(٣) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٣) (محفوظ).

(٤) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ١٤٨).

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

قالوا: إنّ (لن) في الآية (لن تراني) لتأبيد النفي وتأكيده، كما صرّح بذلك الزمخشري في مؤلّفاته[1].

قال الشوكاني: (وأجيب عن ذلك بما ذكره ابن مالك[2] من أنّها لو كانت للتأبيد لما قُيّد منفيها باليوم في: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً﴾[3]، ولم يصحّ التوقيت في: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِيْنَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوْسَى﴾[4]، ولكان ذكر الأبد في: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾[5] تكراراً، إذ الأصل عدمه)[6].

فثبت أنّ (لن) لا تقتضي النفي المؤبّد[7]، وأنّ هذه الآية لا حجّة لهم بها، بل هي حجّة لأهل السنة في ثبوت الرؤية كما تقدّم بيانه. وقد فسّر الشوكاني رحمه الله تعالى في تفسير الآية أنّ سؤال موسى للرؤية يدلّ على أنّها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها، والجواب بقوله: (لن تراني) يفيد أنّه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنّه لا يرى ما دام الرائي حيّاً في دار الدنيا، أمّا رؤيته في الآخرة فقد ثبتت

---

(١) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٨) (مخطوط)، وانظر: الكشّاف للزمخشري (٢/ ١٥٤)، وانظر أيضاً شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص ٢٦٤).

(٢) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك أبو عبد الله الطائي النحوي، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، ومنها: الألفية، والكافية الشافية، وشرحها، كان إماماً في اللغة والنحو والقراءات توفّي (٦٧٢ هـ) (البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٥٤، وبغية الوعاة للسيوطي ١/ ١٣٠، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١/ ١٣١.

(٣) سورة مريم: الآية: ٢٦.

(٤) سورة طه: الآية: ٩١.

(٥) سورة البقرة: الآية: ٩٥.

(٦) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ١٨) (مخطوط).

(٧) انظر الكافية الشافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥، ١٥٣١) تحقيق: د/ عبد المنعم أحمد هريدي، وانظر حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٠٩) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ (ص ٢٠٨).

بالأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهّرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة[1].

وقد أوّل المنكرون أدلّة أهل السنة بتأويلات عديدة، منها: قولهم: إنّ النظر في الآية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ والحديث بمعنى الانتظار، لا بمعنى النظر، كما قال صاحب الأصول الخمسة[2] النظر بمعنى الانتظار، فكأنّه قال: وجوه يومئذ ناضرة لثواب ربّها منتظرة[3].

وهذا تأويل بعيد، وقد اعترض عليه الشوكاني وبيّن معنى النظر في الآية فقال: (نقول: النظر في اللغة جاء بمعان:

١ ـ بمعنى الانتظار، ويستعمل بغير صلة، بل يتعدّى بنفسه، قال تعالى: ﴿أُنْظُرُوْنَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُوْرِكُمْ﴾[4]، وقال: ﴿مَا يَنْظُرُوْنَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[5] أي ينتظرون، ومعنى قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ﴾[6] أي منتظرة.

٢ ـ وجاء بمعنى التفكّر والاعتبار، ويستعمل حينئذ بفي، يقال: نظرت في الأمر الفلاني، أي تفكّرت.

---

(١) انظر فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٢٤٣).

(٢) هو أبو الحسن عبد الجبّار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني الأسد أبادي، قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقّبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، له تصانيف كثيرة منها: المغني في أبواب التوحيد والعدل، وشرح الأصول الخمسة، وتنزيه القرآن عن المطاعن. توفّي (٤١٥ هـ) انظر: تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي ١١/ ١١٣) وطبقات الشافعية الكبرى: السبكي ٣/ ٢١٩، ومقدمة كتاب شرح أصول الخمسة).

(٣) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ٢١)، وانظر الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبّار (ص ٢٤٥)، والكشّاف للزمخشري (٤/ ٦٦٢).

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٣.

(٥) سورة يٓس، الآية: ٤٩.

(٦) سورة النمل، الآية: ٣٥.

٣ ـ وجاء بمعنى الرأفة والتعطّف، ويستعمل حينئذ باللام، يقال: نظر الأمير لفلان، أي رأف به.

٤ ـ وجاء بمعنى الرؤية، ويستعمل بإلى. قال الشاعر:

نظرت إلى من حسَّن الله وجهه فيا نظرة كادت على وامق تقصر

والنظر في الآية موصول بإلى مقرون بالوجوه، فوجب حمله على الرؤية البصرية، فتكون واقعة في ذلك اليوم، وهو فرع الصحة)(١).

وهكذا أبطل الشوكاني رحمه الله تعالى حججهم ودحض شبههم، وفيما ذكرته غنية لمن أراد الحقّ، وقد نهج الشوكاني منهج أهل السنة الذي تؤيّده الأدلّة الصريحة والصحيحة من الكتاب والسنة، وهي قطعية الدلالة. وقال:

(ولا ينبغي لمنصف أن يتمسّك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أنّ العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتربها إلاّ من لم يحظ من العلم النافع بنصيب)(٢).

المبحث الثاني عشر

النار وعذابها

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بوجود النار، وأنّها حقّ لا ريب فيها.

والنار هي دار أعدّها الله سبحانه وتعالى لأعدائه ولمن عصاه وخالف أمره، وهي دار العقوبة في الآخرة، ودار الذلّ والهوان والعذاب.

---

(١) البغية في مسألة الرؤية: الشوكاني (ورقة ٢١) (مخطوط).
(٢) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٨٧).

وقد وردت الآيات والأحاديث في النار ووصفها وصف عذابها وصفات أهلها أكثر من أن تحصى.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوْا النَّارَ الَّتِيْ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيْكُمْ نَاراً وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُوْنَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيْراً، إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً، كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُوْدُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوْداً غَيْرَهَا لِيَذُوْقُوْا الْعَذَابَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيْزاً حَكِيْماً﴾[3].

ومن السنّة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في وصف النار: (ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستّين جزءاً، كلّهنّ مثل حرّها)[4].

وقال عليه الصلاة والسلام في وصف أخفّ العذاب في النار: (إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص[5] قدميه جمرة يَغْلي منها دماغه)[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٥، ٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنّها مخلوقة (الفتح ٦/ ٣٨١ برقم ٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدّة حرّ نار جهنّم إلخ (٤/ ٢١٨٤برقم ٢٨٤٣).

(٥) الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء. (النهاية لابن الأثير (٢/ ٨٠ مادة: خمص).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (الفتح ١١/ ٤٢٤ برقم ٦٥٦١ ــ واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً (١/ ١٩٦ =

وقد تحدّث الشوكاني رحمه الله تعالى عن النار وعذابها من خلال تفسيره للآيات.

فقال في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوْا النَّارَ الَّتِيْ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾[1] (أي فاتّقوا النار) بالإيمان بالله، وكتبه، ورسله، والقيام بفرائضه، واجتناب مناهيه، والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها، لأنّهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا، فجعلت وقوداً للنار معهم، ويدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2] أي حطب جهنّم، وقيل المراد بها حجارة الكبريت وفي هذا من التهويل ما لا يقدّر قدره من كون هذه النار تتّقد بالناس والحجارة، فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها، والمراد بقوله: (أعدّت) جعلت عدّة لعذابهم وهيّئت لذلك)[3].

وقال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوْتُوْا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾[4]: (أي لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من العذاب، بل كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. وهذه الآية هي مثل قوله تعالى: ﴿لاَ يَمُوْتُ فِيْهَا وَلاَ يَحْيَى﴾[5][6]. أي لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه[7]. وقوله تعالى عن عذاب أهل النار: ﴿وَيَأْتِيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيْظٌ﴾[8] أي تأتيه أسباب الموت من كلّ جهة من الجهات، أو

= برقم ٣٦٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٣).

(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٦.

(٥) سورة طه، الآية: ٧٤، وسورة الأعلى، الآية: ١٣.

(٦) فتح القدير: الشوكاني (٤/ ٣٥٤).

(٧) المصدر السابق (٣/ ٣٧٦).

(٨) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

من كلّ موضع من مواضع بدنه. (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) أي والحال أنّه لم يمت حقيقة فيستريح[(١)].

وقال في قوله تعالى عن أهل النار: ﴿لَابِثِيْنَ فِيْهَا أَحْقَاباً لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً إِلَّا حَمِيْماً وَغَسَّاقاً﴾[(٢)]: (أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب، وهي لا تنقطع، وكلّما مضى حقب جاء حقب، والأحقاب: الدهور).

واختلفوا في مدة الحقب إلى عدة أقوال، قال الشوكاني: والأولى ما ذكرناه أوّلاً من أنّ المقصود بالآية التأبيد لا التقييد. ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾ أي أنّهم لا يذوقون في جهنّم أو في الأحقاب برداً ينفعهم من حرّها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها. (إلّا حميماً) وهو الماء الحارّ. (وغساقا) وهو صديد أهل النار[(٣)].

فنعوذ بالله من جهنّم وما قرّب إليها من قول أو عمل.

المبحث الثالث عشر
الجنة والنار باقيتان لا تفنيان

خلود الجنّة والنار، وبقاؤهما بإبقاء الله لهما، وأنّهما لا تفنيان أبداً، ولا يفنى من فيهما، ثابت بالكتاب والسّنة، والأدلة عليهما كثيرة جدّاً.

قال تعالى في الجنّة وأهلها: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً لَهُمْ فِيْهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾[(٤)].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ١٠١).
(٢) سورة النبأ، الآية: ٢٣ ــ ٢٥.
(٣) فتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٦٦).
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٧.

وقال تعالى: ﴿وأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾(١).

ومعنى الخلود كما قال الشوكاني هو البقاء الدائم الذي لا ينقطع، أي أنّهم يدومون فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها(٢). لقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُوْلَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيْمِ﴾(٣).

وقال تعالى في النار وأهلها: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَظَلَمُوْا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيْقاً إِلَّا طَرِيْقَ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْراً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِيْنَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيْراً، خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبَداً، لَا يَجِدُوْنَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيْراً﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِيْنَ مِنَ النَّارِ﴾(٦).

وغير هذا من الآيات، وحسبك أنّ الله سبحانه سمّاها دار الخلد إذ قال: ﴿ذٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيْهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوْا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُوْنَ﴾(٧).

ومن الأحاديث الدالّة على أبديّة الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «يُدْخِل

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
(٢) انظر فتح القدير: الشوكاني (١/ ٥٥) وأيضاً (٣/ ٤٧٥).
(٣) سورة الدخان، الآية: ٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٨، ١٦٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٤، ٦٥.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.
(٧) سورة فصّلت، الآية: ٢٨.

اللَّهُ أهلَ الجنة الجنة، ويُدْخل أهلَ النار النار، ثمّ يقوم مؤذّن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كلّ خالد فيما هو فيه»[1].

فهذا الحديث وأمثاله يدلّ دلالة واضحة على أبديّة الجنّة والنار ودوامهما، وخلود أهلهما فيهما، لا إلى غاية، ولا إلى أمد.

وهذا ما أجمع عليه السلف أهل السنة والجماعة.

يقول الصابوني رحمه الله تعالى في كتابه: عقيدة السلف أصحاب الحديث[2]: (ويشهد أهل السنة ويعتقدون أنّ الجنّة والنار مخلوقتان، وأنّهما باقيتان لا تفنيان أبداً، وأنّ أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها، خلقوا لها، لا يخرجون منها أبداً، ويؤمر بالموت، فيذبح على سور بين الجنة والنار، وينادي المنادي يومئذ: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ)[3] اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وقد اتّفق سلف الأمّة وأئمّتها وسائر أهل السنة والجماعة على أنّ من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكليّة، كالجنّة، والنار، والعرش، وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلاّ طائفة من أهل الكلام المبتدعين، كجهم بن صفوان، ومن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (الفتح ١١/ ٤١٤ برقم ٦٥٤٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبّارون إلخ (٤/ ٢١٨٩ برقم ٢٨٥٠) واللفظ له.

(٢) صفحة ٦٦ تحقيق/ بدر البدر.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (الفتح ١١/ ٤٢٣ برقم ٦٥٤٨) من حديث ابن عمر بلفظ مقارب بدون قوله: (خلود)، ومن حديث أبي هريرة برقم (٦٥٤٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجّبارون إلخ (٤/ ٢١٨٨، ٢١٨٩ برقم ٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد، وبرقم (٢٨٥٠ مكرر) من حديث ابن عمر.

وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل، يخالف كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وإجماع سلف الأمّة وأئمّتها)[1].

وقد نسب القول بفناء النار إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى[2].

أمّا نسبته إلى شيخ الإسلام فهي نسبة غير صحيحة، لعدم البرهان عليها، فإنّه رحمه الله أنكر أشدّ الإنكار على من قال بفناء النار، وحكى اجماع سلف الأمّة وجماهير المسلمين على تضليل صاحب هذا القول، كما تبيّن من كلامه السابق، وكما تبيّن من كلامه الصريح في عدّة مواضع من كتبه[3].

وأمّا تلميذه ابن القيم فقد صرّح بدوام النار في كثير من مؤلّفاته[4] كما جاء في كتابه حادي الأرواح[5] حاكياً له بأنّه قول أهل السنة مستدلاً به على أهل البدع حيث قال:

(وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله عزّ وجلّ، وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبداً، فإن احتجّ مبتدع أو زنديق بقول الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ﴾[6] وبنحو

---

(١) مجموع فتاوى: ابن تيمية (١٨/ ٣٠٧).
(٢) انظر كتاب: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني، بتحقيق الألباني.
(٣) انظر: مجموع فتاوى (٣/ ٣٠٤، ٨/ ٣٨٠، ١٢/ ٤٥، ١٤/ ٣٤٨)، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (١/ ٢٢٧، ٢٢٨)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ١٥٢، ١٥٧)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٨، ٣٠٤، ٣٠٥، و٣/ ١٥٧، ١٥٨، و٨/ ٣٤٥).
(٤) انظر أيضاً: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٩١) ط/ ١ السلفية، وطريق الهجرتين (ص ٢٥٤، ٢٥٥) ــ تحقيق/ عبد الله إبراهيم الأنصاري، وزاد المعاد (١/ ٦٦ ــ ٦٨) تحقيق/ شعيب وعبد القادر الأرناؤط.
(٥) صفحة (٧٩، ٨٠) تحقيق/ يوسف علي بديوي، ومحيي الدين مستو.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٨.

هذا من متشابه القرآن، قيل له: كلّ شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا) اهـ.

وكما جاء في كتابه الوابل الصيّب[1] قال: (ولمّا كان الناس على ثلاث طبقات: طيّب يشينه خبث، وخبث لا طيّب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيّب، كانت دورهم ثلاثة: دار الطيّب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبث وطيّب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة، فإنّه لا يبقى في جهنّم من عصاة الموحّدين أحد، فإنّهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلّا دار الطيّب المحض، ودار الخبث المحض) اهـ.

ففي هذين النصّين الصريحين دليل واضح على أنّه رحمه الله يقول بدوام النار وخلود الكفّار فيها. وهذا هو الأولى بأن ينسب إليه وأن يجعل هو رأيه في هذه المسألة، لاتّفاقه مع قواطع الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمّة قاطبة، وهو رحمه الله من أعظم الدعاة إلى ذلك.

وقد حقّق هذه المسألة كثير من الباحثين[2]، وأثبتوا بالأدلّة القويّة اتّفاق

---

(١) صفحة (٣٢) تحقيق/ مصطفى بن العدوي.

(٢) منهم الدكتور علي بن علي جابر الحربي اليماني في كتابه: كشف الأستار لإبطال ادّعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. ط/ دار طيبة مكة، وخليل بن عثمان السبيعي في مقدمته لكتاب: توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين لمرعي يوسف الحنبلي (من ص ١٥ ـ ٣٠) ط/ دار طيبة الرياض، والدكتور بكر أبو زيد في كتابه: ابن القيم الجوزية حياته وآثاره (ص ١٤٨) ط/ المكتب الإسلامي، والدكتور عبد الله محمد جار النبي في كتابه: ابن القيم الجوزية وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف (ص ٥٦٧ ـ ٥٧٥) ط/ مؤسسة مكة للطباعة، والدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي، والدكتور أحمد عطية الغامدي في مقدمتهما لكتاب: الصواعق المنزّلة لابن القيم (ج ١ من ص ١٢ ـ ٢٠) ط/ الجامعة الإسلامية.

الشيخين على القول بأبديّة النار المتّفق مع قواطع الكتاب والسنة وعقيدة سلف الأمّة.

ولست بصدد الحديث عن الشيخين الجليلين، وإنّما حديثي عن الشوكاني الذي وافق أهل السنة في هذا الموضوع وقرّره في عدّة مواضع من تفسيره، بل أفرده بالتأليف في رسالة بعنوان: كشف الأستار في أبطال قول من قال بفناء النار[1]، ردّاً على سؤال ورد إليه في هذا الموضوع. ويقصد بمن قال بفناء النار الجهمية ومن تابعهم، كما صرّح في أوّل الرسالة، ولم أزه تعرّض فيها للشيخين كما زعمه بعض الباحثين[2]. فإنّ كلامه من أوّلها إلى آخرها يدور حول معنى الآية ١٢٨ من سورة الأنعام، والآية ١٠٧، ١٠٨ من سورة هود، والآية ٢٣ من سورة النبأ، كما سيأتي تفصيله. وقال في آخر الرسالة ما نصّه:

(وقد أفرد جماعة من متأخّري العلماء هذه المسألة بالتصنيف[3] ولم

---

(١) وهي ما تزال مخطوطة في (١١ ورقة)، وتوجد في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء، تحت رقم (٢٢) ضمن مجموع (٥٩) متوكلية، بخطّ الإمام الشوكاني، بدون تاريخ. ولعلّ هذه الرسالة هي ما أشار إليه الشوكاني عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إلاّ ما شاء ربّك﴾ قال: بعد ذكر الأقوال في معنى الاستثناء: وقد أوضحت ذلك في رسالة مستقلّة جمعتها في جواب سؤال ورد من بعض الأعلام. (فتح القدير ٢/ ٥٢٥).

(٢) ذكر الدكتور محمد حسن الغماري في كتابه: الإمام الشوكاني مفسّراً (ص ٩٤) هذه الرسالة ضمن مؤلّفات الشوكاني، وعلّق عليها قائلاً: وقد ردّ على ابن تيمية وابن القيم وغيرهما في ذلك. ولست أدري من أين له هذا، مع أنّه لم يشر إلى هذه الرسالة، ولم ينقل منها عند كلامه عن موقف الشوكاني من فناء النار (انظر ص ١٤١ ـ ١٤٣) مما يدلّ على أنّه لم يطّلع عليها. والله أعلم.

(٣) أذكر منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في قاعدة في الردّ على من قال بفناء الجنة والنار. كما ذكره ابن عبد الهادي في كتابه: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٤٩) أثناء سرده لمؤلّفاته، ومنهم الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في: جزءان في صفة النار وبقائها. كما أشار إليه ابن الوزير في إيثار الحقّ على الخلق (ص ٢٠٧)، وذكره محقّق سير أعلام النبلاء (١/ ٧٦) ضمن مؤلّفاته، ومنهم التقي =

نقف عند تحرير هذا الجواب على شيء من ذلك، فمن وجد فيها غير ما أوردناه ههنا فليعط النظر حقّه، ويستعمل من الإنصاف ما لا بدّ منه، ويذهب إلى ما يرجّحه، ولكنّا لم نقف على شيء يصلح للتمسّك به غير ما حرّرناه، وحسبنا الله ونعم الوكيل)[1].

ويدّلنا هذا النص على أنّ الشوكاني رحمه الله لم يطّلع على الكتب المؤلّفة في هذا الموضوع، وبالتالي أنّه لم يطّلع على ما ذكر في بعضها من نسبة القول بفناء النار إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم كما في كتاب: رفع الأستار لابطال أدلّة القائلين بفناء النار للعلاّمة الأمير الصنعاني، ولو اطّلع عليه لذكره في هذه الرسالة، فإنّها خالية عنه.

وقد أورد الشوكاني كثيراً من أدلّة أهل السنة التي تدلّ على أبديّة النار وخلود الكفّار فيها، منها ما ذكرته في أوّل البحث[2]. ومما ذكره في رسالته في هذا الصدد قوله:

(. . . وقد جاء الدليل الدالّ على عدم خروج الكفّار من النار بحال من الأحوال، كمثل قوله تعالى: ﴿يُرِيْدُوْنَ أَنْ يَخْرُجُوْا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِيْنَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيْمٌ﴾[3] فإنّ في هذه الآية الشريفة دليلين جليلين على عدم خروجهم منها بحال من الأحوال.

الأوّل: قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِيْنَ مِنْهَا﴾ فإنّ هذا النفي المؤكّد يفيد أنّه

= السبكي (ت ٧٧١ هـ) في: الاعتبار لبقاء الجنة والنار. كما أشار إليه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٢٢)، ومرعي بن يوسف الحنبلي (ت ١٠٣٣ هـ) في: توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين (مطبوع)، والأمير الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ) في رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار (مطبوع).

(١) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ١١) (مخطوط).

(٢) انظر أيضاً فتح القدير (١/ ٥٥، ٥٦، ١٦٦، و٣/ ٣٣٥).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٧.

لا خروج لهم منها، فلو فرض في وقت من الأوقات أو حال أنّهم يخرجون منها لم يكن هذا الخبر مطابقاً للواقع، واللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله، وهكذا لو فرض أنّ النار نفسها تفنى فإنّه يصدق عليهم أنّهم قد خرجوا منها، لأنّ مفارقتها خروج منها، وذلك يستلزم أن لا يكون هذا الخبر مطابقاً للواقع، واللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله.

وأمّا الدليل الثاني من هذه الآية فقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيْمٌ﴾ فإنّه يدلّ على أنّ هذا العذاب مقيم عليهم مستمرّ لهم، فلو خرجوا من النار في وقت من الأوقات، أو فنيت النار، لم يكن عذابها مقيماً عليهم، ومثل هذه الآية الآيات التي فيها نفي العفو عنهم، والآيات التي فيها نفي المغفرة[1]، والآيات التي فيها استمرار غضب الله عليهم، ودوام سخطه[2]. وهي كثيرة جدّاً في الكتاب العزيز. . . وهكذا يدلّ على ذلك الآيات التي فيها أنّهم كلّما أخرجوا منها أعيدوا فيها[3]، وكلّما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها[4]، وكلّما استغاثوا أغيثوا بكذا[5]، مما ذكره الله. فإنّ هذه الآيات تدلّ على أنّهم لا يزالون كذلك، ولا ينفكّون عن هذه الأمور التي أثبتها الله لهم، ولو فرض ما زعم القائلون بأنّهم يخرجون من النار، أو أنّها تفنى عنهم لكانت هذه

---

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (سورة النساء، الآية: ٤٨ وأيضاً ١١٦).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بالْكُفرِ صَدْراً فَعَلَيْهِم غَضَبٌ مِنَ اللّهِ﴾ (سورة النحل، الآية: ١٠٦).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيْهَا﴾ (سورة السجدة، الآية: ٢٠).

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جِلُودُهُمْ بدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوْقُوا العَذَابَ﴾ (سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئسَ الشَّرَابُ وسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (سورة الكهف، الآية: ٢٩).

الأخبار غير مطابقة للواقع، واللازم باطل بالإجماع فالملزوم مثله)[1].

كما أورد رحمه الله أدلّة المخالفين لأهل السنة التي استدلّوا بها على فناء النار وانقطاع عذاب أهلها، قال: (اعلم أنّ جملة ما استدل به القائلون بذلك الفناء ثلاث آيات من كتاب الله العزيز:

الأولى: الآية التي في الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيْعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذي أَجَّلْتَ لَنَا، قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِيْنَ فِيْهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾[2].

والآية الثانية: قوله تعالى في سورة هود: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ شَقُوْا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيْهَا زَفِيْرٌ وَشَهِيْقٌ، خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيْدُ، وَأَمَّا الَّذِيْنَ سُعِدُوْا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوْذٍ﴾[3].

والآية الثالثة: قوله تعالى في سورة عمّ: ﴿لاَبِثِيْنَ فِيْهَا أَحْقَاباً﴾[4]

ووجه استدلالهم هو معنى الاستثناء في آية الأنعام، وفي آية هود استدلّوا بها من وجهين:

١ ـ قوله: (مَا دَامَتِ السَّمواتُ الأَرْض) هذا دليل على أنّ خلودهم وهو مدّة عقابهم مساوية لمدّة بقاء السموات والأرض، ولا خلاف أنّ مدّة بقاء السموات والأرض متناهية، فلزم أن تكون مدّة عقابهم متناهية.

---

(١) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٥، ٦) (مخطوط).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة هود، الآية: ١٠٥ ـ ١٠٨.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٢٣.

٢ ـ الاستثناء بقوله: (إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ) فإنّه استثناء عن مدّة عقوبتهم، وهو يدلّ على زوال ذلك العقاب في وقت هذا الاستثناء.

أمّا آية النبأ فاستدلّوا بقوله: (أَحقاباً) حيث إنّ لبثهم في ذلك العقاب لا يكون إلاّ أحقاباً معدودة، وقد تقرّر أنّ أفعالاً هو من جموع القلّة المعروفة.

قال الشوكاني: (وهذا حاصل ما استدلّوا به من النقل، ولم يكن في السنة المطهّرة ما يصلح لتمسّكهم به)[1].

واستدلّوا من الآثار بما روي عن الحسن قال: قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: (لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه) وفي سنده مقال[2]. وروي نحو هذا عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وجابر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهم[3].

وقد أجاب الشوكاني عن هذه الاستدلالات كلّها.

ففي الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِيْنَ فِيْهَا إلاَّ

---

(١) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ١، ٢) (مخطوط).

(٢) قال الشوكاني: أخرجه ابن المنذر (كما في الدر المنثور للسيوطي ٤/ ٤٧٨)، وقال ابن القيم في حادي الأرواح (ص ٤٩١): رواه عبد بن حميد. وحاول تقويته وهو ضعيف، وعلته الحسن البصري، فإنّه لم يدرك عمر رضي الله عنه، فالسند، منقطع. وروى ابن الجوزي نحوه في الموضوعات (٣/ ٢٦٨) عن أبي أمامة مرفوعاً: يأتي على جهنّم يوم ما فيها من بني آدم واحد، تخفق أبوابها كأنّها أبواب الموحّدين. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع محال. وقد تكلّم الصنعاني على هذا الأثر من حيث الرواية الدراية في كتابه: رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار (ص ٦٥ ـ ٦٧)، وضعّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٧٣)، وشرح العقيدة الطحاوية بتحقيقه (ص ٤٨٤ هامش رقم ١).

(٣) انظر: كشف الأستار للشوكاني (ورقة ٤) (مخطوط)، وفتح القدير له (٢/ ٥٢٧)، وانظر أيضاً حادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٩١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٧)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨٤).

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أورد رحمه الله أقوال المفسّرين في معنى الاستثناء[1]، واختار القول بأنّ الاستثناء راجع إلى أهل الإيمان، أي إلاّ ما شاء الله من خروج الموحّدين.

ومثل هذا ما ذكره في معنى الاستثناء في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[2] قال:

(إنّ الاستثناء إنّما هو للعصاة من الموحّدين، وإنّهم يخرجون بعد مدّة من النار، ويكون الاستثناء من خالدين... وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأن يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصّصاً لكلّ عموم)[3].

وأيّد هذا القول بروايات كثيرة عن السلف، منها ما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيْدٌ﴾ قال: هم من أهل الكبائر من أهل هذه القبلة، يعذّبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثمّ يأذن في الشفاعة لهم، فيشفع لهم المؤمنون، فيخرجهم من النار، فيدخلهم الجنّة، فسمّاهم أشقياء حين عذّبهم في النار ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ شَقُوْا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيْهَا زَفِيْرٌ وَشَهِيْقٌ خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ حين أذن في الشفاعة لهم، وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم. ﴿وَأَمَّا الَّذِيْنَ سُعِدُوْا﴾ يعني بعد الشقاء الذي كانوا فيه ﴿فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا

---

(١) ذكر الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٢) خمسة أقوال، وفي كشف الأستار (ورقة ٢) ثمانية أقوال.

(٢) اختلف المفسّرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة. انظر حكاية هذه الأقوال في: تفسير الطبري (١٢/ ١١٧ ـ ١١٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤/ ١٦٠، ١٦١)، وتفسير الفخر الرازي (١٨/ ٦٥ ـ ٦٧)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٩ ـ ١٠٢)، وحادي الأرواح لابن القيم (ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٨١، ٤٨٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٢٥).

(٣) فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٢٥).

دَامَتِ السَّمَوٰاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني الذين كانوا في النار[1].

وروي نحو هذا عن قتادة، والضحّاك، وخالد بن معدان[2]، وغيرهم[3].

وهو الراجح الذي اختاره الطبري[4]، والفخر الرازي[5]، وابن كثير[6]، والصنعاني[7]، وكثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

قال الشوكاني: (ومما يقوّي هذا المسلك الذي سلكناه هو ما تقرّر بإجماع أهل النظر أنّ الجمع مقدّم على الترجيح، وأنّ إعمال الأدلّة جميعها أولى من إهمال بعضها. . . وقد ثبت تواتراً عن رسول الله ﷺ أنّه لا يبقى في النار إلاّ من حبسه القرآن من الكفّار، فكان من عداهم من أهل التوحيد

---

(١) قال الشوكاني: أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه. (كشف الأستار (ورقة ٥) وفتح القدير (٢/ ٥٢٦). وقد تقدّم بيان معنى الراجح لهاتين الآيتين في (ص ٦٣٣).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: خالد بن مَعْدان الكَلاَعي الحمصي، أبو عبد الله، ثقة عابد يرسل كثيراً من الثالثة (أي الطبقة الوسطى من التابعين) مات سنة (١٠٣ هـ)، وقيل بعد ذلك، أخرج له الجماعة. (التقريب ص ١٩٠ برقم ١٦٧٨).

(٣) انظر: كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٦) (مخطوط)، وفتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٢٦، ٥٢٧)، وانظر أيضاً تفسير الطبري: (٢/ ١١٨، ١٢٠)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤/ ١٦٠)، وتفسير القرطبي (٩/ ٩٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧).

(٤) انظر تفسير الطبري (٢/ ١٩٩، ١٢١)، ونقل عنه الشوكاني في كشق الأستار (ورقة ٤).

(٥) انظر تفسير الفخر الرازي (١٨/ ٦٦).

(٦) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ونقل عنه الشوكاني في كشف الأستار (ورقة ٤).

(٧) حسّنه في كتابه: رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار (انظر ص ٩٧، وأيضاً ١٠٨، ١٠٩).

بخلافهم، فيكون الاستثناء في الآيتين[1] متوجّهاً إلى أهل التوحيد، فإنّهم بعض من شمله المستثنى منه، وأمّا التعبير بلفظ ما في الآيتين عن العقلاء وهي لغير العقلاء، فهذا إن كان هو الأعمّ الأغلب، لكنّه قد ورد كثيراً التعبير بأحد الحرفين عن الآخر في مواضع من كتاب الله[2] وفي كثير من كلام الفصحاء، وكان هذا محمولاً عليه، لا سيّما إذا ألجأ إلى ذلك الدليل الصحيح فإنّ المصير إليه متعيّن)[3].

أمّا استدلالهم بقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فأجاب الجمهور بجوابين، ذكرهما الشوكاني في رسالته:

الأوّل: أنّ المراد: سموات الآخرة وأرضها، والدليل على أنّ في الآخرة سموات وأرضاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[5]، وأيضاً لا بدّ لأهل الآخرة مما يقلّهم ويظلّهم وذلك هو الأرض والسموات.

والثاني: أنّ العرب يعبّرون عن الدوام والأبد بقولهم: ما دامت السموات والأرض، كما يقولون: ما اختلف الليل والنهار، فخاطب الله العرب في هذه الآية على عرفهم، وبما تقتضيه لغتهم[6].

---

(١) يقصد بهما الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (١٠٧) من سورة هود. ويصحّ أنّه يقصد بهما الآيتين (١٠٧، ١٠٨) من سورة هود.

(٢) مثال التعبير بلفظ ما عن العقلاء قوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (سورة النساء، الآية: ٣)، ومثال التعبير بلفظ من عن غير العقلاء قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (سورة النور، الآية: ٤٥).

(٣) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٩) (مخطوط).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٧٤.

(٦) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٣) (مخطوط)، وانظر أيضاً فتح القدير: الشوكاني (٢/ ٥٢٥).

وأمّا الآية الثالثة التي استدلّوا بها على فناء النار وانقطاع العذاب عن أهلها، وهي قوله تعالى عن أهل النار: ﴿لَابِثِيْنَ فِيْهَا أَحْقَاباً﴾ فأجاب الشوكاني بأنّه خاصّ لمن هو عقابه متناه من أهل التوحيد، كما روي عن خالد بن معدان في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿إلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: أنّهما في أهل التوحيد من أهل القبلة[1].

قال رحمه الله تعالى: (وإذا عرفت هذا الجمع بالنسبة إلى ما في سورة الأنعام وسورة هود فهكذا ما في سورة عمّ، فإنّه يجعل ذلك خاصّاً لمن عقابه متناه كما سلف أو يقال إنّه مقيّد لما بعده، وهو: ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾[2]. أي إذا انقضت تلك الأحقاب صار لهم من العذاب أنواع غير ذلك.

وقد اختلف العلماء في مدّة الحقب إلى أقوال كثيرة لا مجال هنا لذكرها[3]، والأولى ما قاله جمهور المفسّرين[4] إنّ المقصود بالآية التأبيد لا التقييد، ومعنى الآية: أي ماكثين في النار أزماناً ودهوراً، كلّما مضى حقب تبعه حقب آخر، وهكذا إلى الأبد من غير انقطاع.

وقد روي عن الحسن قال في الآية: (أمّا الأحقاب فليس لها عدّة إلّا

---

(١) المصدر السابق (ورقة ٥)، وفتح القدير: الشوكاني (٥/ ٣٦٨) والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠/ ١٢).

(٢) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ١٠) (مخطوط).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١١، ١٢)، وتفسير البغوي (٤/ ٤٣٨)، وتفسير الفخر الرازي (٣١/ ١٣)، وتفسير القرطبي (١٩/ ١٧٨، ١٧٩)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٤، ٤٩٥)، وفتح القدير (٥/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨)، وكشف الأستار: الشوكاني (ورقة ٥، ٧) (مخطوط).

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٩/ ٨) قال: وهذا قول ابن قتيبة والجمهور، وتفسير الفخر الرازي (٣١/ ١٤)، وتفسير القرطبي (١٩/ ١٧٧).

الخلود في النار)[1]، ومثل هذا ما روي عن قتادة قال: (الأحقاب: ما لا انقطاع له، كلّما مضى حقب جاء حقب بعده)[2].

وهذا ما فسّره الشوكاني عند تفسيره للآية[3] خلافاً لما قرّره في رسالته.

ولا شكّ أنّه يقصد في هذا التفسير الكفّار، لأنّ نارهم أبديّة، ويقصد في رسالته هناك العصاة من أهل الإيمان، بناء على القول إنّ الأحقاب تفيد التناهي، ولا تفيد التأبيد.

وأمّا استدلالهم بالآثار المنقولة عن بعض السلف فأجاب عنه الشوكاني قائلاً: (إنّه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ شيء من ذلك، وأمّا ما روي عن بعض الصحابة فقد قالوا بما فهموه من التقييد بالمشيئة، وليس ذلك حجّة على غيرهم، وأيضاً قد خالف هذا البعض من الصحابة بعض آخر، فقالوا بالتأويل لتلك المشيئة، فلو كان قول البعض منهم يجب المصير إليه لكان قول البعض الآخر كذلك، فيستلزم القول بالشيء ونقيضه، وهو باطل، وما يستلزم من الباطل باطل مثله، وهكذا قول من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمّة لا حجّة في ذلك على أحد من الناس، ولا سيّما وقد خالفهم الجمهور الكبير والسواد الأعظم، وعلى كلّ حال فالموافق للدليل الحقّ هو الأسعد بالحقّ، سواء وافقه غيره أو خالفه، فلا اعتبار بغير الدليل)[4].

قلت: ما قاله الشوكاني صحيح ومقبول إذا ثبتت هذه الآثار عنهم رواية ودراية، وقد ضعّفها كثير من أهل العلم[5] كما سبق بيان ذلك في أثر

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠/ ١١)، وذكر البغوي نحوه معلّقاً بدون إسناد في تفسيره (٤/٤٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠/ ١١).

(٣) انظر فتح القدير (٥/ ٣٦٦) وتقدّم نصّه في آخر المبحث السابق صفحة (٨٣٦).

(٤) كشف الأستار: الشوكاني (ورقة ١٠) (مخطوط).

(٥) انظر: رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار للصنعاني (ص ٦٧ ـ ٦٩ =

عمر[1]، وعلى فرض ثبوتها فهي في حقّ عصاة الموحّدين الذين استحقّوا دخول النار بذنوبهم كما دلّت عليه الأدلّة الصحيحة المعروفة[2].

يقول البغوي رحمه الله تعالى عقب ذكر أثر ابن مسعود وأبي هريرة: (ليأتينّ على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً):

(ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان، وأمّا مواضع الكفّار فممتلئة أبداً)[3].

ومثل هذا ما قاله الحافظ ابن حجر في أثر عمر[4].

وهذه الآثار صريحة في الخروج لا في الفناء الذي هو محلّ النزاع، فلو ثبتت لا تدلّ على فناء النار وذهابها، وإنّما تدلّ على بقاء النار بعد خروج من يخرج منها من أهل التوحيد، وعلى هذا فلا تصحّ نسبة القول بفناء النار إلى هؤلاء.

هذا وقد حكينا اتّفاق سلف الأمّة وأئمّتها على أبديّة الجنّة والنار وخلود أهلهما فيهما، فالحمل على ذلك متعيّن جمعاً بين الأدلّة. والله أعلم.

= و٧٧ ــ ٨٢) وتعليق الألباني عليها. وانظر أيضاً: كشف الأستار لأبطال ادّعاء فناء النار للدكتور علي بن جابر الحربي (ص ٨٤).

(١) انظر صفحة (٨٤٥) هامش رقم ٢.

(٢) راجع مبحث: حكم مرتكب الكبيرة صفحة (٦٢٠ ــ ٦٣٥).

(٣) تفسير البغوي (٢/ ٤٠٣).

(٤) انظر الفتح (١١/ ٤٢٢).

الخاتمــة

الخاتمــة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعد:

فقد انتهيت بعون الله وتوفيقه من اتمام هذا البحث وإكماله، وفي هذه الخاتمة أحبّ أن أجمل أهمّ النتائج والفوائد التي توصّلت إليها في النقاط التالية:

١ ــ عاش الشوكاني رحمه الله تعالى (١١٧٣ ــ ١٢٥٠ هـ) في فترة كانت البلاد الإسلامية فيها تعاني من تفكّك ومن ضعف شديد، وكانت الصراعات المذهبية والطائفية والقبلية تسود المجتمعات الإسلامية بصفة عامّة ومجتمع اليمن (مسقط رأسه) بصفة خاصّة، وقد عاصر رحمه الله المذاهب والفرق والطوائف الدينية المختلفة، كالرافضة، والزيدية، والصوفية، والمعتزلة، وغيرهم، ورأى ما فيهم من التعصّب والجمود، ومن الانحراف العقدي والسلوكي المناقض لتعاليم الإسلام، كما رأى ما وقع فيه الناس حوله من الفساد، والشرور، والبدع، والشركيات، وجهلهم بأمور الدين، ورأى قعود العلماء والحكّام عن أداء واجباتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأى الظلم الاجتماعي الذي ساد المجتمع اليمني عموماً، تبدّت مظاهره في سلوكيات القضاة

والعمّال والحكّام وهذه الأمور التي تكوّنت منها بيئة الشوكاني لها أثر بالغ في ظهوره وقيامه بالاصلاح.

٢ ـ نشأ الشوكاني رحمه الله في بيت علم حيث كان والده من العلماء الكبار، وكان له أكبر الأثر في تكوين الشوكاني، حيث هيّأ له فرصة التفرّغ للعلم، وكفل له وسائل الحياة المعيشية، فبدأ حياته العلمية منذ الصغر، وتتلمذ على عدد كبير من علماء صنعاء في عصره، ولم يرحل منها. وكان أكثرهم تأثيراً فيه شيخه عبد القادر بن أحمد الكوكباني، والحسن بن إسماعيل المغربي، وعبد الله بن إسماعيل النهمي. ودرس جميع العلوم الشرعية والعربية ونبغ فيها، بل درس العلوم الفلسفية الشائعة في ذلك الوقت، كالمنطق، والطبيعة، والرياضة، وغير ذلك، وقد بلغ مرتبة من التفوّق المبكّر جعلته يدرّس وهو في أثناء طلبه العلم، ويفتي وهو في العشرين من عمره، ثم يتولّى بعد ذلك القضاء العام وهو في السادسة والثلاثين من عمره، ووجد في قضائه فرصة متاحة له لنشر مذهبه في الاجتهاد ونبذ التقليد، والدعوة إلى طريق السلف الصالح، وظلّ متولّياً منصب القضاء حتى توفّي بصنعاء عام ١٢٥٠ هـ.

٣ ـ خلّف الشوكاني رحمه الله تعالى مع اشتغاله بالأعمال الكثيرة عدداً كبيراً من المؤلّفات والرسائل القيمة في مختلف العلوم، ولم يزل معظم هذا التراث مخطوطاً وتتجدر العناية بتحقيقه، ودراسته، وتسهيل السبل إلى طبعه، حتى تتحقّق الفائدة.

٤ ـ تفقّه الشوكاني رحمه الله على مذهب الزيدية، إلاّ أنّه لم يلبث أن تخلّى عن التقليد والتمذهب، وأصبح لا يتقيّد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتماداً مباشراً على الكتاب

والسنّة، وأصبح من المجتهدين في البحث عن الحكم الشرعي والرأي العقائدي من خلال الأدلّة والبراهين، لا من طريق التقليد والتلقين، وقد وصل إلى هذه المرتبة وهو دون الثلاثين من عمره، وكانت دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد والرجوع بالتشريع إلى طريق السلف تمثّل امتداداً لأدوار من سبقه من المجدّدين والمصلحين، كالإمام مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وكابن الوزير، والمقبلي، والأمير الصنعاني، والإمام محمد بن عبد الوهّاب، ونظائرهم، رحمهم الله. وقد تعرّض في سبيل هذه الدعوة لأذى كثير من المتعصّبين والمقلّدين في عصره، واتّهموه بالدعوة إلى هدم مذهب أهل البيت، وهو بريء من هذه التهمة، وهذا شأنهم مع كلّ عالم مجتهد آخذ بالدليل.

٥ ــ أورد الشوكاني رحمه الله تعالى أحاديث ضعيفة ومنكرة في فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في بعض كتبه، وألّف في آخر عمره كتابه: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، حيث بيّن فيه نكارة كثير من تلك الأحاديث. وهذا يدلّ على أنّه لم يتبيّن له ما في تلك الأحاديث من النكارة، ولمّا نضج علمه توصّل إلى هذه النتيجة في الحكم عليها، وهو أمر يدلّ على تطوّر في علمه بعلوم الحديث، شأنه كشأن غيره من العلماء المجتهدين.

٦ ــ من خلال دراستي لمنهج الشوكاني في العقيدة تبيّن لي أنّه وافق السلف أهل السنة في جميع أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، ولم يخالفهم إلاّ في مسائل قليلة، وكان رأيه في بعضها مضطرباً

بين كتاب وآخر، كما في بعض الصفات. وفيما يلي أذكر تلك المسائل مختصراً.

(أ) في توحيد الألوهية:

أجاز التوسّل بالذات والجاه وجعله كالتوسّل بالعمل الصالح، وهذا مخالف لما قرّره ودعا إليه في عدد من كتبه من محاربة الشرك وسدّ الذرائع المؤدّية إليه.

(ب) في أسماء الله تعالى:

ذهب إلى جواز تسمية الله بما ثبت من صفاته، سواء ورد التوقيف بها أو لم يرد. غير أنّي لم أقف على تطبيق الشوكاني هذه القاعدة، لا في تفسيره، ولا في غيره.

(ج) في صفات الله تعالى:

١ ـ أوّل بعض الصفات الإلهية في تفسيره: فتح القدير. تأويلاً أشعريا. والصفات التي أوّلها هي: الوجه، والعين، واليد، والعلوّ، والمجيء، والإتيان، والمحبّة، والغضب، على التفصيل الذي ذكرته في الرسالة. وهذا التأويل مناقض لمنهجه في رسالته التحف في إثبات الصفات على ظاهرها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وهو مذهب السلف رضوان الله عليهم.

٢ ـ نهج منهج أهل التفويض في صفة المعية في رسالته التحف، فلم يفسّرها بمعيّة العلم، بل زعم أنّ هذا التفسير شعبة من شعب التأويل المخالف لمذهب السلف. وهذا مخالف لما ذهب إليه في تفسيره وفي كتابه تحفة الذاكرين من أنّ هذه المعية معيّة العلم، وفسّرها هنا تفسير السلف.

٣ ـ ذهب مذهب الواقفية في مسألة خلق القرآن، فلم يجزم برأي هل هو مخلوق أو غير مخلوق.

(د) في نواقض التوحيد:

١ ـ أجاز تحرّي الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين باعتبارها أماكن مباركة يستجاب الدعاء فيها. وهذا مخالف لما قرّره ودعا إليه في عدد من كتبه من سدّ الذرائع إلى الشرك في الأموات.

٢ ـ جعل الحلف بالقرآن كالحلف بمخلوق من مخلوقات الله.

(هـ) في النبوّات:

يرى التوقّف في مسألة التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

هذا وقد سلك الشوكاني رحمه الله تعالى طريقة السلف في الاستدلال لكل مسألة من مسائل العقيدة التي أثبتها، فيقدّم الأدلّة النقلية على العقلية، ويقدّم المعنى الظاهر من النصوص على معنى المجاز منها، كما في كتابه التحف، إلاّ في مسألة المعيّة كما تقدّم إيضاحه في فقرة (٢)، وكذلك في تفسيره لمسألة الاستواء وغيرها من الصفات التي أثبتها في تفسيره ولم يؤوّلها. أمّا ما يظهر في كتبه من اضطراب وتناقض في هذا الباب وغيره وخالف فيه السلف أهل السنة فيمكن الاعتذار عنه بأنّه نشأ وترعرع في بيئة زيدية، وكانت دراسته داخلها ولم يخرج منها، فلعلّ الظروف المحيطة بهذه البيئة لم تتهيأ له كثيراً للاطّلاع على كتب أئمّة السلف أهل السنة والجماعة.

هذا وقد أخطأ الشوكاني فيما أخطأ، ولا ندّعي له العصمة، ولا نقول عنه إلاّ أنّه من البشر، والبشر يخطئون ويصيبون، وكما قال هو نفسه:

(إنّ الخطأ شأن البشر، وكلّ أحد يؤخذ من قوله ويترك إلاّ

المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم، والأهوية تختلف، والمقاصد تتباين، وربّك يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون)[1].

ورحمه الله إذ قال:

فكّرت في علمي وفي أعمالي ... ونظرت في قولي وفي أفعالي
فوجدت ما أخشاه منها فوق ما ... أرجو فطاحت عند ذا آمالي
ورجعت نحو الرحمة العظمى إلى ... ما ارتجى من فضل ذي الأفضال
فغدا الرجا والخوف يعتلجان في ... صدري وهذا منتهى أحوالي[2]

وأخيراً أحمد الله تعالى وأشكره الذي أعانني على اتمام هذا البحث وإخراجه بهذه الصورة، وإنّني معترف هنا بالتقصير، فإن كان ما ذكرته في بحثي هذا وما عرضته فيه حقّاً وصواباً فهذا من فضل الله وحده، فله الحمد والشكر أوّلاً وآخراً، وما كان منه من خطأ وزلل فهو منّي ومن الشيطان، وأستغفر الله من ذلك وأتوب إليه.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا اتّباع كتابه وسنّة نبيّه ﷺ اتّباعاً سليماً نقيّاً خالياً من البدع والأهواء كما كان عليه سلف هذه الأمّة وأن يجنبنا الزلل ومزالق الأهواء، وأن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين إنّه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) البدر الطالع: الشوكاني (٢/١١١، ١١٢) عند ترجمته للحافظ الذهبي.
(٢) نيل الوطر: محمد زبارة (٢/٣٠٢).

فهرس المصادر والمراجع

المخطوطات:

١ ـ بحث في كون أسباب التفرّق في الدين هو علم الرأي للشوكاني. ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بصنعاء، بخطه، بدون تاريخ(*).

٢ ـ بحث في مستقر أرواح الأموات للشوكاني. ضمن مجموع (٧) (ص ٩١ ـ ٩٤) مكتبة الجامع الكبير ـ الغربية ـ بخطه، بدون تاريخ(*).

٣ ـ بحث في وجود الجنّ للشوكاني. ضمن مجموع (٥٩) (ص ٢٣١ ـ ٢٣٣) مكتبة الجامع الكبير ـ الشرقية ـ بخطه، بدون تاريخ(*).

٤ ـ البغية في مسألة الرؤية للشوكاني. تحت رقم (١٤٤٣) ميكروفيلم (توحيد) مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بدون تاريخ.

٥ ـ التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح للشوكاني وتوجد صورة منها في مكتبة الشيخ حمّاد الأنصاري بالمدينة المنورة، بتاريخ (١٢١٨ هـ).

٦ ـ رسالة تتعلّق بوجوب توحيد الله عزّ وجلّ للشوكاني. تحت رقم (٩٢٥)

(*) وتوجد صورة منها في مكتبة الأخ الدكتور سعود عبد العزيز الخلف بالمدينة المنورة.

وأيضاً (٧٢٤) ــ ميكروفيلم (توحيد) مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. بدون تاريخ.

٧ ــ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد للشوكاني. تحت رقم (٥٦٢) ميكروفيلم (مناظرة) مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. بتاريخ (٢٢ رجب ١٢٠٥ هـ).

٨ ــ العذب النمير في جواب عالم بلاد عسير للشوكاني. وهي تشتمل على مسائل مختلفة منها: وجوب توحيد الله عزّ وجلّ، وخلق أفعال العباد، وحديث افتراق الأمّة، والحروب بين علي ومعاوية، وعدالة الصحابة، وغيرها. وقد حرّرها في (شوال ١٢٢٢ هـ)(*).

٩ ــ كشف الأستار في إبطال كلام من قال بفناء النار للشوكاني. ضمن مجموع (٥٩) رقم (٢٢) (ص ١٦١ ــ ١٧١) مكتبة الجامع الكبير ــ الشرقية ــ بخطه، بدون تاريخ(*).

المطبوعات:

(أ)

١ ــ الإبانة عن أصول الديانة: أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) تحقيق: د. فوقية حسين محمود ط ١/١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م دار الأنصار بالقاهرة.

٢ ــ الإبانة عن شريعة الفرق الناجية: ابن بطة (ت ٣٨٧ هـ) تحقيق: رضا بن نعسان معطي ط ١/١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٨ م دار الراية بالرياض.

٣ ــ اتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط/ ١٣٢٨ هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ــ حيدرآباد ــ الهند.

(*) وتوجد صورة منها في مكتبة الأخ الدكتور سعود عبد العزيز الخلف بالمدينة المنورة.

٤ ـ إثبات صفة العلوّ: ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) تحقيق: د. أحمد بن عطية الغامدي ط/١ ـ ١٤٠٩ هـ مؤسسة علوم القرآن بيروت ـ مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.

٥ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) ط/١ المكتبة السلفية المدينة المنورة.

٦ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان (ت ٣٥٤ هـ) ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان (ت ٧٣٩ هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط/١ ـ ١٤٠٨ هـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٧ ـ أحكام الجنائز وبدعها: محمد ناصر الدين الألباني ط ١٣٨٨/١ هـ المكتب الإسلامي بيروت.

٨ ـ إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وبذيله كتاب المغني في تخريج ما في الإحياء من الأخبار للحافظ العراقي (ت ٨٠٦ هـ) دار المعرفة بيروت ١٤٠٢ هـ.

٩ ـ الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهمية: ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ضمن عقائد السلف، نشر: د. علي سامي النشار، عمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف ـ الإسكندرية ١٩٧١.

١٠ ـ أدب الطلب ومنتهى الأرب: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعي ـ الرياض.

١١ ـ إرشاد الثقات إلى اتّفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط ١٤٠٤/١ هـ ـ ١٩٨٤ م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٢ ـ إرشاد السائل إلى دلائل المسائل: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط/١٣٤٨ هـ ضمن الرسائل السلفية، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٣ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) دار المعرفة.

١٤ ـ ارواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني ط ٢/١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٥ ـ الأسماء والصفات: البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٦ ـ الإشارات والتنبيهات: ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) وشرحها لنصر الدين الطوسي تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف ـ القاهرة.

١٧ ـ الإشاعة لأشراط الساعة: الشريف محمد البرزنجي (ت ١١٠٣ هـ) دار الكتب العلمية.

١٨ ـ أصول الدين: عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) ط ١/١٤٠١ هـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.

١٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٢ هـ) طبعة دار الإفتاء بالرياض ١٤٠٣ هـ.

٢٠ ـ إظهار الحقّ: رحمت الله الهندي (ت ١٣٠٨ هـ) تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر.

٢١ ـ الاعتصام: الشاطبي (ت ٧٩٧ هـ) ط/١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م دار المعرفة ـ بيروت.

٢٢ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) دار الكتب العلمية.

٢٣ ـ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد: البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) تعليق/ كمال يوسف الحوت ط ١/١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م عالم الكتب ـ بيروت.

٢٤ ــ الأعلام: الزركلي (ت ١٢٩٥ هـ) ط ١٩٨٤/٦ م دار العلم للملايين ــ بيروت.

٢٥ ــ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة ــ بيروت.

٢٦ ــ أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: مرعي بن يوسف الكرمي (ت ١٠٣٣ هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط ١٤٠٦/١ هـ ــ ١٩٨٥ م مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

٢٧ ــ الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ط ١٤٠٣/١ هـ دار الكتب العلمية.

٢٨ ــ اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) دار الحديث.

٢٩ ــ آكام المرجان في أحكام الجانّ: القاضي بدر الدين الشبلي (ت ٧٦٩ هـ) تعليق/ عبد الله محمد الصديق، ط/ كراجي ــ نور محمد كارخانة تجارة كتب.

٣٠ ــ الإمام الشوكاني حياته وفكره: د. عبد الغني قاسم الشرجي ط/١٤٠٨ هـ مؤسسة الرسالة.

٣١ ــ الإنصاف: الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط ١٤٠٧/١ هـ ــ ١٩٨٦ م عالم الكتب ــ بيروت.

٣٢ ــ إيثار الحقّ على الخلق: ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ) ط ١٤٠٧/٢ هـ دار الكتب العلمية.

٣٣ ــ الإيمان: ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥) تحقيق: الألباني، ط ١٤٠٥/٢ هـ دار الأرقم ــ الكويت.

٣٤ ــ الإيمان: أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) تحقيق: الألباني ط ١٤٠٥/٢ هـ دار الأرقم.

٣٥ ـ الإيمـان: ابن تيميـة (ت ٧٢٨ هـ) ط ١٤٠٣/١ هـ ـ ١٩٨٣ م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٦ ـ الإيمـان: أبو عمـر العدني (ت ٢٤٣ هـ) تحقيق: حمـد بن حمـدي الحربي، ط ١٤٠٧/١ هـ الدار السلفية ـ الكويت.

٣٧ ـ الإيمان: ابن منده (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي، ط ١٤٠١/١ هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(ب)

٣٨ ـ الباعث على انكار البدع والحوادث: أبو شامة الشافعي (ت ٦٦٥ هـ) تحقيق: عادل عبد المنعم أبو العباس، مكتبة الساعي ـ الرياض.

٣٩ ـ بحث في أنّ إجابـة الـدعـاء لا ينـافي سبق القضـاء: الشـوكـاني (ت ١٢٥٠ هـ) ضمن أمنـاء الشـريعـة تحقيق: د. إبـراهيم إبـراهيم هلال، دار النهضة العربية ـ القاهرة.

٤٠ ـ بحث في وجـوب محبّة الله: الشـوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ضمن أمنـاء الشريعة، تحقيق: د. إبراهيم إبراهيم هـلال، دار النهضة العـربية ـ القاهرة.

٤١ ـ البحر الزخار: أحمد بن يحيـى المـرتضى (ت ٨٤٠ هـ) دار الحكمة اليمانية ـ صنعاء ١٤٠٩ هـ.

٤٢ ـ بدائع الفوائد: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تصحيح محمود غانم غيث، ط ١٣٩٢/٢ هـ مكتبة القاهرة.

٤٣ ـ البداية والنهاية: ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) اعتناء عبد العزيز النجار، مكتبة الأصمعي الرياض.

٤٤ ـ البدر الطالع: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط ١٣٤٨/١ هـ دار المعرفة ـ بيروت.

٤٥ ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: السكسكي (ت ٦٨٣ هـ) تحقيق: د. بسام علي سلامة العموش، مكتبة المنار ـ الأردن ط ١٤٠٨/١ هـ ـ ١٩٨٨ م.

٤٦ ـ البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي: إسماعيل بن علي الأكوع ط ١٤٠٨/٢ هـ مؤسسة الرسالة.

٤٧ ـ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: محمد ابن عبد الرحمن بن قاسم.

(ت)

٤٨ ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤٩ ـ تاريخ اليمن: عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ت ١٣٧٩ هـ) ط ٤/ ١٤٠٤ هـ الدار اليمنية للنشر والتوزيع.

٥٠ ـ تاريخ اليمن الثقافي: أحمد حسين شرف الدين ط/١٣٨٧ هـ مطبعة الكيلاني الصغير.

٥١ ـ تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط ١٤٠٨/١ هـ ـ ١٩٨٨ م مؤسسة الكتب الثقافية.

٥٢ ـ التبصير في الدين: أبو المظفر الإسفراييني (ت ٤٧١ هـ) تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط ١٤٠٣/١ هـ عالم الكتب.

٥٣ ـ تبيين كذب المفترى: ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥٤ ـ تجريد التوحيد المفيد: المقريزي (ت ٨٥٤ هـ) ضمن عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، تقديم عبد الله حجاج، شركة السلام العالمية.

٥٥ ـ تحذير الساجد من اتّخاذ القبور مساجد: محمد ناصر الدين الألباني ط ١٤٠٣/٤ هـ المكتب الإسلامي.

٥٦ ـ تحفة الذاكرين: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥٧ ـ التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية: فالح بن مهدي آل مهدي ط ١٤٠٥/٢ هـ مكتبة الحرمين ـ الرياض.

٥٨ ـ التحف في مذاهب السلف: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ضمن الرسائل السلفية ـ دار الكتب العلمية ١٣٤٨ هـ.

٥٩ ـ تذكرة الحفّاظ: الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

٦٠ ـ التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: القرطبي (ت ٦٧١ هـ) المكتبة السلفية.

٦١ ـ ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان: ابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠ هـ) ط ١٤٠٤/١ هـ ـ ١٩٨٤ م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٢ ـ الترغيب والترهيب: المنذري (ت ٦٥٦ هـ) تحقيق مصطفى محمد عمارة دار الإخاء ـ بيروت.

٦٣ ـ تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد: الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ) ضمن: عقيدة الفرقة الناجية، تقديم عبد الله حجاج، شركة السلام العالمية.

٦٤ ـ التعرّف لمذهب أهل التصوّف: الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) تحقيق: محمود أمين النواوي ط ١٣٨٨/١ هـ مكتبة الكليات الأزهرية.

٦٥ ـ التعريفات: الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ط ١٤٠٣/١ هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦٦ ـ تعظيم قدر الصلاة: المروزي (ت ٢٩٤ هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي ط ١٤٠٦/١ هـ مكتبة الدار ـ المدينة المنورة

٦٧ ـ تفسير البغوي المسمّى معالم التنزيل: البغوي (ت ٥١٦ هـ) تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، ط ١٤٠٧/٢ هـ ـ ١٩٨٧ م دار المعرفة ـ بيروت.

٦٨ ـ تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) تقديم: د. يوسف عبد الرحمن المرعشيلي ط ١٤٠٨/٢ هـ ـ ١٩٨٨ م دار المعرفة ـ بيروت.

٦٩ ـ التفسير الكبير: الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي.

٧٠ ـ التفسير الكبير: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة ط ١٤٠٨/١ هـ ـ ١٩٨٨ م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧١ ـ تقريب التهذيب: ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) تحقيق: محمد عوامة، ط ١٤٠٦/١ هـ دار الرشيد ـ سوريا.

٧٢ ـ تلبيس إبليس: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧٣ ـ التمهيد لما في الموطّأ من المعاني والمسانيد: ابن عبد البر

(ت ٤٦٣ هـ) طبع وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية ـ تحقيق: جماعة من العلماء.

٧٤ ـ تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصه من الدلائل: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ـ ضمن أمناء الشريعة ـ تحقيق: د. إبراهيم إبراهيم هلال، دار النهضة العربية ـ القاهرة.

٧٥ ـ التوسّل أنواعه وأحكامه: محمد ناصر الدين الألباني ط ١٤٠٦/٥ هـ المكتب الإسلامي.

٧٦ ـ تهذيب اللغة: الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) تحقيق: عبد السلام هارون وغيره ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤ هـ.

٧٧ ـ تيسير العزيز الحميد: سليمان بن عبد الله (ت ١٢٣٣ هـ) ط ١٣٩٧/٣ هـ المكتب الإسلامي.

٧٨ ـ تيسير الكريم الرحمن: عبد الرحمن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦ هـ) تحقيق: محمد زهري البخاري طبع دار الإفتاء ـ الرياض ١٤٠٤ هـ.

(ج)

٧٩ ـ جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٠ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ط/١٤٠٨ هـ دار الفكر.

٨١ ـ الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي (ت ٢٩٧ هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر وغيره، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٢ ـ جامع العلوم والحكم: ابن رجب (ت ٧٩٢ هـ) ط ١٣٩٣/٤ هـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي.

٨٣ ــ الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (ت ٦٧١ هـ) دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.

٨٤ ــ الجرح والتعديل: ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) ط/١٣٧٢ هـ دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٨٥ ــ جمهرة الأولياء وأعلام التصوّف: محمود المنوفي، ط ١/١٣٨٧ هـ مؤسسة الحلبي وشركاه ــ القاهرة.

٨٦ ــ الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) مطابع المجد التجارية.

٨٧ ــ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: سعيد محمد اللحام ط ١/١٤٠٧ هـ مكتبة المعارف ــ الرياض.

(ح)

٨٨ ــ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: يوسف علي بديوي تقديم محيي الدين مستو ــ ط ١/١٤١١ هـ مكتبة دار التراث ــ المدينة المنورة.

٨٩ ــ حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة/ عجاج نويهض ط ٤/١٣٩٤ هـ دار الفكر ــ بيروت.

٩٠ ــ الحجّة في بيان المحجّة: أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني (ت ٥٣٥ هـ) تحقيق: د. محمد بن ربيع المدخلي ــ ومحمد بن محمود أبو رحيم ط ١/١٤١١ هـ ١٩٩٠ م دار الراية ــ الرياض.

٩١ ــ الحسنة والسيئة: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تقديم: د. محمد جميل غازي، دار الكتب العلمية.

٩٢ ــ حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ) دار الكتب العلمية.

(خ)

٩٣ ــ خلق أفعال العباد: البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ضمن: عقائد السلف، نشر: د. علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧١ م.

(د)

٩٤ ــ درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: د. رشاد محمد سالم ط ١٤٠٢ هـ مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٩٥ ــ الدرّة البهية: عبد الرحمن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦ هـ) ط/١٤٠٦ هـ مكتبة المعارف ــ الرياض.

٩٦ ــ درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري ط ١٤٠٤/١ هـ ــ ١٩٨٤ م دار الفكر ــ دمشق.

٩٧ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط ١٤٠٣/٢ هـ دار الفكر ــ بيروت.

٩٨ ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر (ت ٨٥٣ هـ) تحقيق: محمد جاد الحقّ دار الكتب الحديثة ــ مصر ط ١٣٨٥/٢ هـ.

٩٩ ــ الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) مكتبة الصحابة الإسلامية الكويت.

١٠٠ ــ دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ) مكتبة ابن تيمية.

١٠١ ــ دلائل النبوة: البيهقي (ت٤٥٨ هـ) تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي ط ١/١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م دار الريان للتراث ــ القاهرة.

١٠٢ ــ دلالة التوحيد: جلال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) ط ١/١٤٠٥ هـ دار الكتب العلمية.

١٠٣ ــ الدواء العاجل في دفع العدوّ الصائل: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ضمن الرسائل السلفية.

١٠٤ ــ الديانات والعقائد في مختلف العصور: أحمد عبد الغفور عطّار، ط ١/١٤٠١ هـ مكة المكرمة.

١٠٥ ــ الدين الخالص: محمد صديق حسن خان (ت ١٢٠٧ هـ) تحقيق: محمد زهري النجار، مكتبة دار التراث ــ القاهرة.

١٠٦ ــ الدين: د. محمد عبد الله درازط/١٤٠٠ هـ دار القلم، الكويت.

(ذ)

١٠٧ ــ ذمّ التأويل: ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) تحقيق: بدر البدر، الدار السلفية ــ الكويت ١٤٠٦ هـ.

١٠٨ ــ الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥ هـ) تصحيح محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢ هـ.

(ر)

١٠٩ ــ رسالة الإرادة والأمر: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار إحياء التراث العربي.

١١٠ ــ الرسالة القشيرية: عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥ هـ) تحقيق: د. عبد الحليم محمود ومحمود بن االشريف، دار الكتب الحديثة ــ مصر.

١١١ ــ الردّ على الجهمية والزنادقة: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة ط ١٤٠٢/٢ هـ ــ ١٩٨٢ م دار اللواء ــ الرياض.

١١٢ ــ الردّ على الجهمية: الدارمي (ت ٢٨٠ هـ) ضمن عقائد السلف، نشر: د. علي سامر النشار، وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندية ١٩٧١ م.

١١٣ ــ رفع الأستار لإبطال أدلّة القائلين بفناء النار: الصنعاني (ت ١١٨٢ هـ) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ط ١٤٠٥/١ هـ المكتب الإسلامي.

١١٤ ــ الروح: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: محمد اسكندريلدا ط ١٤٠٢/١ هـ دار الكتب العلمية.

(ز)

١١٥ ــ زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ط ١٤٠٧/٤ هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

١١٦ ــ زاد المعاد: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط ط ١٤٠٥/٧ هـ ــ ١٩٨٥ م مؤسسة الرسالة ــ بيروت.

(س)

١١٧ ــ السحر بين الحقيقة والخيال: د. أحمد بن ناصر ط ١٤٠٨ هـ مكتبة التراث ــ بمكة المكرمة.

١١٨ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني ط ٤/١٤٠٨ هـ مكتبة المعارف بالرياض، والمكتب الإسلامي بيروت ــ دمشق.

١١٩ ــ سلسلة الأحاديث الضعيفة: محمد ناصر الدين الألباني مكتبة المعارف بالرياض والمكتب الإسلامي بيروت ودمشق.

١٢٠ ــ السنة: ابن أبي عاصم (ت٢٨٧ هـ) تحقيق: الألباني ط ١/١٤٠٠ هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢١ ــ السنة: ابن الخلال (ت ٣١١ هـ) تحقيق: د. عطية الزهراني ط ١/١٤١٠ هـ دار الراية الرياض.

١٢٢ ــ السنة: عبد الله بن الإمام أحمد (ت ٢٩٠ هـ) تحقيق: د. محمد سعيد القحطاني ط ١/١٤٠٦ هـ دار ابن القيم ــ الدمام.

١٢٣ ــ سنن أبي داود (ت ٢٧٥ هـ) ومعه كتاب: معالم السنن للخطّابي (ت ٣٨٨ هـ) إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، ط ١/١٣٩٣ هـ دار الحديث ــ سورية.

١٢٤ ــ سنن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي ط ١/١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٧ م دار الريان للتراث ــ القاهرة.

١٢٥ ــ السنن الكبرى: البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) دار الفكر ــ بيروت.

١٢٦ ــ سنن ابن ماجة (ت ٢٧٥ هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية ــ بيروت.

١٢٧ ــ سنن النسائي (ت ٣٠٣ هـ) ترقيم عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢/١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٨ م مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

١٢٨ ــ سير أعلام النبلاء: الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق: مجموعة من

المحققين، ط ١٤٠١/١ هـ مؤسسة الرسالة ــ بيروت.
١٢٩ ــ السيل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: محمود إبراهيم زايد ط ١٤٠٥/١ هـ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

(ش)

١٣٠ ــ شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ) دار المسيرة ــ بيروت.
١٣١ ــ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: اللالكائي (ت ٤١٨ هـ) تحقيق: د. أحمد سعد حمدان دار طيبة للنشر والتوزيع ــ الرياض.
١٣٢ ــ شرح الأصول الخمسة: القاضي عبد الجبّار (ت ٤١٥ هـ) تحقيق: د. عبد الكريم عثمان ط ١٤٠٨/٢ هـ مكتبة وهبة ــ القاهرة.
١٣٣ ــ شرح جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقاني (ت ١٠٤١ هـ) شرح الشيخ إبراهيم البيجوري (ت ١٢٧٧ هـ) ط ١٤٠٣/١ هـ دار الكتب العلمية ــ بيروت.
١٣٤ ــ شرح السنة: البغوي (ت ٥١٦ هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي ١٩٧١ م.
١٣٥ ــ شرح الصدور في تحريم رفع القبور: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ضمن الرسائل السلفية.
١٣٦ ــ شرح العقائد النسفية: التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) تحقيق: أحمد حجازي السقا، ط ١٤٠٧/١ هـ ــ ١٩٨٧ م مكتبة الكليات الأزهرية ــ القاهرة.

١٣٧ ــ شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي (ت ٧٩٢ هـ) تحقيق: جماعة من العلماء تخريج الألباني، ط ١٣٩١/٤ هـ المكتب الإسلامي.

١٣٨ ــ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) شرح محمد خليل هراس، ط ٨/ الجامعة الإسلامية، وشرح: د. صالح فوزان الفوزان ط ١٤٠٧/٤ هـ مكتبة المعارف الرياض.

١٣٩ ــ شرح القاشاني على فصوص الحكم لابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) ط ١٣٨٦/٢ هـ مصطفى البابي الحلبي.

١٤٠ ــ شرح كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) شرح الملاعلي القاري (ت ١٠١٤ هـ) ط ١٤٠٤/١ هـ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

١٤١ ــ شرح المقاصد: التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط ١٤٠٩/١ هـ عالم الكتب.

١٤٢ ــ شرح النووي لصحيح مسلم: النووي (ت ٦٧٦ هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة ١٣٤٩ هـ.

١٤٣ ــ الشريعة: الآجري (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي، ط ١٤٠٣/١ هـ دار الكتب العلمية.

١٤٤ ــ شعب الإيمان: البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) تحقيق محمد السعيد زغلول، ط ١٤١٠/١ هـ دار الكتب العلمية.

١٤٥ ــ الشفا: القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤٦ ــ شفاء العليل: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحرير الحساني حسن عبد الله، دار التراث، القاهرة.

١٤٧ ــ الشوكاني مفسّراً: د. محمد حسين الغماري، ط ١/١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م دار الشروق.

(ص)

١٤٨ ــ الصحاح: الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار ط ١٤٠٢/٢ هـ.

١٤٩ ــ صحيح الجامع الصغير وزيادته: الألباني، ط ١٤٠٦/٢ هـ المكتب الإسلامي.

١٥٠ ــ صريح السنة: ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) تحقيق: بدر بن يوسف المعتوق، ط ١٤٠٥/١ هـ ــ ١٩٨٥ م دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.

١٥١ ــ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ط/١٤٠٣ هـ دار الفكر.

١٥٢ ــ الصفات: الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) تحقيق: د. علي بن محمد ناصر الفقيهي، ط ١٤٠٣/١ هـ.

١٥٣ ــ صفة الصفوة: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق: محمود فاخوري و د. محمد روّاس ط ١٤٠٥/٣ هـ دار المعرفة ــ بيروت.

(ض)

١٥٤ ــ ضعيف الجامع الصغير وزيادته: الألباني ط ١٣٩٩/٢ هـ المكتب الإسلامي.

١٥٥ ــ الضوء اللامع: السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) دار مكتبة الحياة ــ بيروت.

(ط)

١٥٦ ـ طبقات الحنابلة: ابن أبي يعلى (ت ٥٢٥ هـ) دار المعرفة ـ بيروت.

١٥٧ ـ طبقات الشافعية: عبد الرحمن الأسنوي (ت ٧٧٢ هـ) ط ١٤٠٧/١ هـ دار الكتب العلمية.

١٥٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى: السبكي (ت ٧٧١ هـ) تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ـ طبعة الحلبي ١٣٨٣/١ هـ.

١٥٩ ـ طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) ط/ نور الدين شريبة ـ القاهرة ١٩٥٣ هـ.

١٦٠ ـ طبقات فقهاء اليمن: عمر بن علي الجعدي (ت ٥٨٦ هـ) تحقيق: فؤاد سيد، ط ١٩٨١/٢ هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٦١ ـ الطبقات الكبرى: ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) دار صادر ـ بيروت.

(ع)

١٦٢ ـ العبودية: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ط ١٣٩٩/٥ هـ المكتب الإسلامي.

١٦٣ ـ العقائد الإسلامية: سيد سابق. دار النصر للطباعة ـ ط ١٣٨٧/٢ هـ.

١٦٤ ـ العقد الثمين في اثبات وصاية أمير المؤمنين: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) الرسالة الثانية ضمن الرسائل اليمنية، ط/ المنيرية ١٣٤٨ هـ. القاهرة.

١٦٥ ـ عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)

ضمن: أمناء الشريعة تحقيق: د. إبراهيم إبراهيم هلال دار النهضة العربية ــ القاهرة.

١٦٦ ــ عقيدة السلف أصحاب الحديث: الصابوني (ت ٤٤٩ هـ) تحقيق: بدر البدر، ط ١/ ١٤٠٤ هـ الدار السلفية ــ الكويت.

١٦٧ ــ عقيدة المسلم: أبو بكر الجزائري ط/١٤٠٥ هـ دار الكتب السلفية ــ القاهرة.

١٦٨ ــ العقيدة النظامية: إمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨ هـ) تحقيق: د. أحمد حجازي السقا ط ١/١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م مكتبة الكليات الأزهرية.

(غ)

١٦٩ ــ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني: يحيى بن الحسين (ت ١٠٩٩ هـ) تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور ط/١٩٦٨ م القاهرة.

١٧٠ ــ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: الألباني ط ٣/ ١٤٠٥ هـ المكتب الإسلامي.

١٧١ ــ غاية المرام في علم الكلام: الآمدي (ت ٦٣١ هـ) تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ــ القاهرة.

(ف)

١٧٢ ــ فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) تحقيق: محبّ الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي ط ٤/١٤٠٨ هـ المكتبة السلفية ــ القاهرة.

١٧٣ ــ فتح القدير: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ط ١٣٨٣/٢ هـ مصطفى البابي الحلبي ــ مصر.
١٧٤ ــ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق: محمد حامد الفقي ط/ لاهور.
١٧٥ ــ الفتوحات المكية: ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) ط/ بولاق١٨٧٦ م.
١٧٦ ــ الفتوى الحموية الكبرى: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) نشر: محبّ الدين الخطيب ط ١٣٩٨/٣ هـ السلفية ــ القاهرة. وأيضاً ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، دار إحياء التراث العربي.
١٧٧ ــ الفردوس بمأثور الخطاب: الديلمي (ت ٥٠٩ هـ) تحقيق: محمد السعيد زغلول ط ١٤٠٦/١ هـ، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
١٧٨ ــ الفرق بين الفرق: البغدادي (ت ٤٢٩ هـ) تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ط ١٤٠٢/٥ هـ ــ ١٩٨٢ م.
١٧٩ ــ فرق الشيعة: النوبختي (ت ٣١٠ هـ) ط ١٤٠٤/٢ هـ دار الأضواء ــ بيروت.
١٨٠ ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر: د. عبد الرحمن عميرة ط ١٤٠٥ هـ دار الجيل ــ بيروت.
١٨١ ــ فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخاري (ت ٢٥٦ هـ) شرح: فضل الله الجيلاني تحقيق: محبّ الدين الخطيب ط ١٤٠٧/٣ هـ المكتبة السلفية ــ القاهرة.
١٨٢ ــ الفهرست: ابن النديم (٣٨٥ هـ) دار المعرفة ــ بيروت.

١٨٣ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(ق)

١٨٤ ـ قاعدة جليلة في التوسّل والوسيلة: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: د. ربيع بن هادي المدخلي ط ١٤٠٩/١ هـ ـ ١٩٨٨ م مكتبة لينة.

١٨٥ ـ قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة: د. عبد العزيز المقالح ط/١٩٨٢ م دار العودة، بيرت.

١٨٦ ـ قطر الولي على حديث الولي: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: د. إبراهيم إبراهيم هلال دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٨٧ ـ القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتقليد: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: محمد عثمان الخشت مكتبة القرآن ـ القاهرة.

(ك)

١٨٨ ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ط ١٤٠٣/٤ هـ دار الكتاب العربي بيروت.

١٨٩ ـ كتاب البعث والنشور: البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) تحقيق: عامر أحمد حيدر ط ١٤٠٦/١ هـ مركز الخدمات والأبحاث الثقافية ـ بيروت.

١٩٠ ـ كتاب التوحيد: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: د. محمد السيد الجليند ط ١٤٠٧/٣ هـ دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة.

١٩١ ـ كتاب التوحيد: ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ) تحقيق: د. عبد العزيز

الشهوان ط ١/١٤٠٨ هـ دار الرشد ـ الرياض.

١٩٢ ـ كتاب العظمة: أبو الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ) تحقيق: رضاء الله المباركفوري ط ١/١٤١١ هـ دار العاصمة ـ الرياض.

١٩٣ ـ كتاب الفتاوى: العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ) تحقيق عبد الرحمن عبد الفتّاح ط ١/١٤٠٦ هـ مكتبة المعارف بالرياض.

١٩٤ ـ الكتاب المقدّس (أي كتب العهد القديم والعهد الجديد) دار الكتاب المقدس (جمعية الكتاب المقدس سابقاً)، القاهرة.

١٩٥ ـ كتاب النبوّات: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ط/١٤٠٢ هـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩٦ ـ الكشّاف: الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) وبذيله أربعة كتب أخرى، ترتيب وتصحيح مصطفى حسين أحمد ط ١٤٠٧/٣ هـ دار الريان للتراث ـ القاهرة.

١٩٧ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس: إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) تحقيق: أحمد القلاش ط ١٤٠٥/٤ هـ مؤسسة الرسالة.

١٩٨ ـ كشف الشبهات عن المشتبهات: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ ضمن الرسائل السلفية.

(ل)

١٩٩ ـ لسان العرب: ابن منظور (ت ٧١١ هـ) دار صادر ـ بيروت.

٢٠٠ ـ لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) دار الفكر للنشر والتوزيع ـ بيروت.

٢٠١ ــ لطائف المعارف: ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ) دار الجيل ــ بيروت.

٢٠٢ ــ لمعة الاعتقاد: ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠ هـ) ط ١٣٩٥/٤ هـ المكتب الإسلامي.

٢٠٣ ــ لوامع الأنوار البهية: السفاريني (ت ١١٨٨ هـ) ط: المدني ــ القاهرة.

(م)

٢٠٤ ــ مائة عام من تاريخ اليمن الحديث: د. حسين عبد الله العمري ط ١٤٠٥/١ هـ دار الفكر ــ دمشق.

٢٠٥ ــ المجددون في الإسلام: د. عبد المتعال الصعيدي مكتبة الآداب ــ القاهرة.

٢٠٦ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) ط ١٤٠٢/٣ هـ دار الكتاب العربي بيروت.

٢٠٧ ــ مجموعة الرسائل والمسائل: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ط ١٤٠٣/١ هـ دار الكتب العلمية.

٢٠٨ ــ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن قاسم وابنه.

٢٠٩ ــ محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية: د. عبد الله الصالح العثيمين ط ١٤١١/١ هـ.

٢١٠ ــ مختار الصحاح: الرازي مكتبة لبنان ١٩٨٦ م.

٢١١ ــ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ت ٧٥١ هـ) اختصار: محمد بن الموصلي ط ١٤٠٥/١ هـ دار الكتب العلمية.

٢١٢ ـ مختصر العلو للعلي الغفار للذهبي (ت ٧٤٨ هـ) اختصار: الألباني، المكتب الإسلامي ١٤٠١ هـ.
٢١٣ ـ مدارج السالكين: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) ط ١/١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية.
٢١٤ ـ المدارس الإسلامية في اليمن: إسماعيل بن علي الأكوع ط ٢/١٤٠٦ هـ مؤسسة الرسالة.
٢١٥ ـ مسائل الإيمان: أبو يعلى (ت ٤٥٨ هـ) تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف ط ١/١٤١٠ هـ دار العاصمة ـ الرياض.
٢١٦ ـ المستدرك على الصحيحين: الحاكم (ت ٤٠٥ هـ) وبذيله التلخيص للذهبي (ت ٧٤٨ هـ) دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٢١٧ ـ المسند: الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) المكتب الإسلامي ط ٥/١٤٠٥ هـ وبتحقيق أحمد شاكر. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٤ م.
٢١٨ ـ مشكاة المصابيح: التبريزي (ت ٧٤١ هـ) تحقيق: الألباني ط ٣/١٤٠٥ هـ المكتب الإسلامي.
٢١٩ ـ المصنَّف: عبد الرزّاق الصنعاني (ت ٢١١ هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ط ٢/١٤٠٣ هـ المكتب الإسلامي.
٢٢٠ ـ معارج القبول: الحافظ الحكمي (ت ١٣٧٧ هـ) تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر ط ١/١٤١٠ هـ دار ابن القيم ـ الدمام.
٢٢١ ـ معتزلة اليمن دولة الهادي وفكره: علي محمد زيد ط ٢/١٤٠٦ هـ دار الكلمة ـ صنعاء.
٢٢٢ ـ المعجم الأوسط: الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق/ د: محمود الطحان ط ١/١٤٠٥ هـ مكتبة المعارف ـ الرياض.

٢٢٣ ــ معجم البلدان: الياقوت الحموي (ت ٦٣٦ هـ) دار الكتاب العربي ــ بيروت.

٢٢٤ ــ معجم طبقات الحفّاظ والمفسّرين: عبد العزيز السيروان ط ١٤٠٤/١ هـ عالم الكتب، بيروت.

٢٢٥ ــ المعجم الكبير: الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي ط ١٤٠٠/١ هـ مطبعة الوطن ــ بغداد.

٢٢٦ ــ معجم المؤلّفين: عمر رضا كحالة دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

٢٢٧ ــ مفتاح السعادة: طاش كبرى زادة (ت ٩٦٧ هـ) ط ١٤٠٥/١ هـ دار الكتب العلمية ــ بيروت.

٢٢٨ ــ المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ــ بيروت.

٢٢٩ ــ مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام: د. عوض الله حجازي ط ١٤٠١/٢ هـ دار الطباعة المحمّدية ــ القاهرة.

٢٣٠ ــ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠ هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد المجيد ط ١٣٨٩/٢ هـ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة.

٢٣١ ــ الملل والنحل: الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) تحقيق: محمد سيد الكيلاني ط/١٣٩٦ هـ مصطفى البابي الحلبي ــ مصر.

٢٣٢ ــ مناهج الأدلّة في عقائد الملة: ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) تحقيق: محمود قاسم، الطبعة الثالثة مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة.

٢٣٣ ــ منهاج السنة النبوية: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تحقيق: د. محمد رشاد

سالم ط ١٤٠٦/١ هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض.

٢٣٤ ـ منهج ودراسات الآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ) ط/١٤٠١ هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢٣٥ ـ موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) ط ١٤٠٥/١ هـ ـ ١٩٨٥ م دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٣٦ ـ المواقف في علم الكلام: عضد الدين الإيجي (ت ٧٥٦ هـ) عالم الكتب، وشرحه للشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ط/ دار الطباعة العامرة.

٢٣٧ ـ الموضوعات: ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان ط ١٤٠٧/٢ هـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

٢٣٨ ـ الموطّأ: الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ط/ دار الحديث.

٢٣٩ ـ ميزان الاعتدال: الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي وفتحية علي البجاوي دار الفكر العربي.

(ن)

٢٤٠ ـ النجاة: ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ط/١٣٣١ هـ مطبعة السعادة بمصر.

٢٤١ ـ نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف: محمد بن محمد زبارة (ت ١٣٨١ هـ) ط/١٣٧٦ هـ السلفية ـ القاهرة.

٢٤٢ ـ نقض أبي سعيد عثمان الدارمي على بشر المريسي: الدارمي (ت ٢٨٠ هـ) ضمن عقائد السلف، نشر: د. علي سامي النشار وعمار جمعي الطالبي، منشأة المعارف بالإسكندرية.

٢٤٣ ـ نقض المنطق: ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) تصحيح محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية القاهرة.

٢٤٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.

٢٤٥ ـ النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) تحقيق: د. طه زيني، الطبعة الأولى دار الكتب الحديثة ـ مصر.

٢٤٦ ـ نيل الأوطار: الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى محمد الهراوي، مكتبة الكليات الأزهرية.

٢٤٧ ـ نيل الوطر: محمد بن محمد زبارة (ت ١٣٠٣ هـ) المطبعة السلفية ١٣٤٨ هـ.

(هـ)

٢٤٨ ـ هدية العارفين: البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ) ط/ استانبول ١٩٥١ م.

(و)

٢٤٩ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب: ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: مصطفى بن العدوي ط ١٤١٠/١ هـ دار الصحابة للتراث.

٢٥٠ ـ وفيات الأعيان: ابن خلّكان (ت ٦٨١ هـ) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.

(ي)

٢٥١ ـ اليمن عبر التاريخ: أحمد حسين شرف الدين ط ١٤٠٦/٤ هـ الرياض.

فهـرس الموضـوعـات

المقـدمـة ٧

بـاب تمهيـدي

التعريف بالإمام الشوكاني ٢٣

الفصل الأول: العصر الذي عاش فيه ٢٥

المبحث الأول: الحالة السياسية ٢٧

المبحث الثاني: الحالة الدينية والاجتماعية ٣٧

المبحث الثالث: الحالة العلمية ٦٣

الفصل الثاني: حياته الشخصية ٦٩

المبحث الأول: اسمه ونسبه ٧١

المبحث الثاني: مولده ونشأته ٧٣

المبحث الثالث: أعماله ٧٥

المبحث الرابع: وفاته ٨٠

الفصل الثالث: حياته العلمية ٨٣

المبحث الأول: طلبه العلم ٨٥

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه ٨٧

المبحث الثالث: مؤلفاته ٩٩

قائمة كتب الشوكاني التي اعتمدت عليها في هذا البحث ووقفت على تاريخ تأليفها ١١٧

المبحث الرابع: مذهبه وعقيدته ١١٨

الباب الأول

منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالله

تمهيد ١٤٣
الفصل الأول: في توحيد الربوبية ١٤٥
المبحث الأول: تعريف توحيد الربوبية ١٤٧
المبحث الثاني: منهج الإمام الشوكاني في الاستدلال على وجود الله ... ١٥٦
الطريق الأول: الفطرة والميثاق المعقود بينها وبين بارئها ١٦٢
الطريق الثاني: النظر والاستدلال بالآيات ١٦٨
نقد الشوكاني منهج المتكلمين في النظر والاستدلال ١٧٦
المبحث الثالث: منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالقضاء والقدر ١٨٢
منهج الشوكاني في الإيمان بالقدر ٢٠١
الفصل الثاني: في توحيد الألوهية ٢٦٧
المبحث الأول: تعريف توحيد الألوهية ٢٦٩
المبحث الثاني: عناية الشوكاني بتوحيد الألوهية وبيانه أنه أساس الإسلام ٢٧٤
المبحث الثالث: العبادة وذكر جملة من أنواعها ٢٨٦
المبحث الرابع: التوسل وأنواعه وكلام الشوكاني عليه ٣١١
الفصل الثالث: في توحيد الأسماء والصفات ٣٣٩
المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات وأدلته ٣٤١
المبحث الثاني: منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وتقرير
الشوكاني له جملة ٣٥٠
المبحث الثالث: شبهة تتعلق بما في التحف من عقيدته ٣٧٠
المبحث الرابع: أسماء الله تعالى ٣٧٨
المبحث الخامس: ذكر جملة من الصفات التي ذكرها الشوكاني ٤٠٠
الفصل الرابع: في نواقض التوحيد ٤٧٥
المبحث الأول: الشرك وأنواعه وكلام الشوكاني عليه ٤٧٧
القسم الأول: الشرك في توحيد الربوبية ٤٧٩
القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات ٤٨٢

القسم الثالث: الشرك في توحيد الألوهية والعبادة وهو نوعان: أحدهما:
شرك أكبر ٤٨٣
المبحث الثاني: ذكر نماذج من الأعمال الشركية وكلام الشوكاني عنها ... ٤٩٣
المبحث الثالث: تحقيق شرك القبوريين والوثنيين وبيان أن شرعهما واحد ٥٢٥
المبحث الرابع: البدع وكلام الشوكاني عليها ٥٤٠
١ ـ بدعة الرافضة ٥٤٩
٢ ـ بدعة المتصوفة ٥٥٥
٣ ـ بدعة القبوريين ٥٧٦
الفصل الخامس: في تعريف الإيمان وما يتعلق به من مسائل ٥٩٥
المبحث الأول: تعريف الإيمان لغة وشرعاً ٥٩٧
المبحث الثاني: بيان أهمية الإيمان ٦٠٣
المبحث الثالث: زيادة الإيمان ونقصانه ٦٠٦
المبحث الرابع: العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام ٦١٢
المبحث الخامس: حكم مرتكب الكبيرة ٦١٩

الباب الثاني

منهج الإمام الشوكاني في الإيمان بالنبوات والمعاد

تمهيد ٦٣٧
الفصل الأول: في الإيمان بالنبوات ٦٣٩
المبحث الأول: تعريف النبوة والنبي والرسول ٦٤١
المبحث الثاني: حاجة البشرية إلى النبوة ٦٤٥
المبحث الثالث: معنى الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ... ٦٤٩
المبحث الرابع: التفاضل بين الأنبياء ٦٥٣
المبحث الخامس: اتفاق الأنبياء والرسل على الغرض الواحد وتصديق بعضهم بعضاً ٦٥٩
المبحث السادس: من صفات الأنبياء والرسل ووظائفهم ٦٦٤
المبحث السابع: الإيمان بنبوة محمد ﷺ وبشاراته في الكتب السابقة ... ٦٨٤
المبحث الثامن: من دلائل النبوة ٧٠٠
المبحث التاسع: الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة ٧١٦

المبحث العاشر: الإيمان بوجود الجن والشياطين ٧٢٦
الفصل الثاني: في الإيمان بالمعاد واليوم الآخر ٧٣٧
المبحث الأول: معنى الإيمان بالمعاد وأدلته ٧٣٩
المبحث الثاني: بيان اتفاق الشرائع على إثبات المعاد ٧٤٥
المبحث الثالث: تقرير الشوكاني لمذهب السلف في المعاد ورده على المنكرين ٧٥٢
المبحث الرابع: الإيمان بأشراط الساعة ٧٥٨
المبحث الخامس: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وفتنته ٧٨٤
المبحث السادس: مستقر الأرواح ٧٨٧
المبحث السابع: الإيمان بالنفخ في الصور ٧٩٣
المبحث الثامن: الإيمان بالحشر والموازين والصراط ٧٩٩
المبحث التاسع: الشفاعة ٨٠٩
المبحث العاشر: الجنة ونعيمها ٨١٧
المبحث الحادي عشر: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة ٨٢٢
المبحث الثاني عشر: النار وعذابها ٨٣٢
المبحث الثالث عشر: الجنة والنار باقيتان لا تفنيان ٨٣٥
الخاتمة ٨٥٣
فهرس المصادر والمراجع ٨٥٩